



إصدارات كلية العلوم الإسلامية
جامعة الوادي - الجزائر



بحوث الندوة العلمية الدولية :

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي

- التنمية الاجتماعية والثقافية -

المنظمة بالتعاون مع مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس

بتاريخ : 30 - 31 أكتوبر 2024م



تحرير وتقديم

الأستاذ الدكتور: إبراهيم رحمانى



إصدارات كلية العلوم الإسلامية
جامعة الوادي - الجزائر



بحوث الندوة العلمية الدولية :

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي

- التنمية الاجتماعية والثقافية -

المنظمة بالتعاون مع مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان - تونس

بتاريخ : 30-31 أكتوبر 2024م

تحرير وتقديم

الأستاذ الدكتور: إبراهيم رحمانى



- العنوان: بحوث الندوة العلمية الدولية "سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي - التنمية الاجتماعية والثقافية".

- المؤلف: تأليف جماعي

- المحرر: إبراهيم رحمان

- المقاس: 16,5 × 24 سم

- عدد الصفحات: 650

- الطبعة: الأولى

- الإيداع القانوني: جوان (يونيو) 2025

ISBN : 978-9969-574-96-8

محفوظة
جميع الحقوق

- التنفيذ الطباعي:

ولاية الوادي - الجزائر

☎ 032 14 93 39

☎ 0557 97 44 43

✉ imp.alwady@gmail.com

سالم

للنشر
والطباعة
والتوزيع

□ للمراسلة: كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي - ص ب 789

ولاية الوادي - الرمز البريدي 39000 (الجزائر). هاتف فاكس: 00213 12 07 34.

البريد الإلكتروني: fa.is.sciences@univ-eloued.dz

الموقع الإلكتروني: <https://faculty.univ-eloued.dz/faculty/isi>

الصفحة الرسمية فيسبوك:

<https://www.facebook.com/profile.php?id=100064959615600>

الهيئة المشرفة على تنظيم الندوة العلمية الدولية

الرئيس الشرفي للندوة:

أ.د/ عمر فرحاتي

مدير جامعة الوادي (الجزائر)

نائب رئيس الندوة رئيس اللجنة العلمية

أ.د/ بشير عبد اللاوي

مدير مركز الدراسات الإسلامية

بالقروان (تونس)

رئيس الندوة

أ.د/ إبراهيم رحمانى

عميد كلية العلوم الإسلامية

جامعة الوادي (الجزائر)

أعضاء اللجنة العلمية

- أ.د. بدران بلحسن (مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية - قطر)
- أ.د. بشير قادره (كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - جامعة باتنة 1 - الجزائر)
- أ.د. حمودة بن مصباح (مركز الدراسات الإسلامية - القروان - تونس)
- أ.د. حياة عبيد (كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي - الجزائر)
- أ.د. عبد الباسط الغابري (مركز الدراسات الإسلامية - القروان - تونس)
- أ.د. عبد الرحمن تركي (كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي - الجزائر)
- أ.د. عمر حيدوسي (كلية العلوم الإسلامية - جامعة باتنة 1 - الجزائر)
- أ.د. محمد الحبيب العلاني (مركز الدراسات الإسلامية - القروان - تونس)
- أ.د. موسى بن موسى (كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الوادي - الجزائر)
- أ.د. يوسف السهيلي (المعهد العالي للدراسات التطبيقية في الإنسانيات بالمهدية - تونس)

رئيس اللجنة التحضيرية
أ.د / قويدر قيطون

أعضاء اللجنة التحضيرية

أ.د. حياة عبيد	د. زكرياء قادي	د. مختار قديري
أ.د. علي باللموشي	د. عبد الغني حوبه	د. هشام ميسة
د. الصادق ذهب	د. محمد العربي بيوش	د. ياسين باهي



تم البث المباشر لأشغال الندوة عبر صفحة الكلية (فيسبوك):

<https://www.facebook.com/profile.php?id=100064959615600>

صفحة الجامعة (فيسبوك)

<https://www.facebook.com/profile.php?id=100093720312224>

الموقع الإلكتروني (جامعة الوادي)

[/https://www.univ-eloued.dz/ar](https://www.univ-eloued.dz/ar)

الموقع الإلكتروني (كلية العلوم الإسلامية)

<https://faculty.univ-eloued.dz/faculty/isi>

الموقع الإلكتروني (مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان – تونس)

http://www.ceik.rnu.tn/Site_ar/index.php

للتواصل:

البريد الإلكتروني (الكلية): fa.is.sciences@univ-eloued.dz

البريد الإلكتروني (مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان – تونس):

kairouan.ceik.tn@gmail.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

التعريف بالندوة

لئن كانت الأمة الإسلامية تمتلك موروثا حضاريا رفيع المستوى، ورصيدا هائلا من القوى البشرية والثروات الطبيعية يمكنها من تقديم نموذج فريد للتنمية في كافة مجالاتها، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية... إلخ، فإنها بقيت - بسبب أدواء متعدّدة - ردحا من الزمن تراوح مكانها، وتعتقد أنها تسير نحو التنمية الشاملة. لكنّها كانت تسير إلى الخلف نحو تراجع حضاري مُبين ما يدعو إلى التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء هذا التقهقر الحضاري للأمة.

ولما كان الإنسان هو العنصر الفاعل في عملية تغيير أحوال البشر وتطويرها في مختلف مجالات الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فإن الاهتمام بكيونة الإنسان في بعدها الإنساني، وتنشئتها الاجتماعية لمن المقتضيات الضرورية التي لا يمكن تجاهلها أو إنكارها بل ينبغي أخذها بعين الاعتبار رفعا من أداء العلاقات الإنسانية، وتحقيقا لعيش مشترك وموّحد ومتين بين أبناء الأمة الواحدة.

ولما كانت الثقافة مرتبطة شديدا بالارتباط بحياة المجتمعات، وتمثل ركيزة معنوية غاية في الأهمية، فإنّها تُكسب سائر الأمم والشعوب من القيم والأفكار والمبادئ ما يؤصل هويّاتها المتعدّدة، ويحقّق انسجامها وتماسكها.

وتعتبر أعمال مالك بن نبي في هذا الغرض رائدة بحكم معالجتها موضوعا رئيسيا هو التنمية بأبعادها المختلفة إن لم نقل إنها من المسائل الجوهرية والراهنة التي تفرض مزيد العناية والبحث والاهتمام.

وتمثّل أشغال هذه الندوة العلمية الدولية في السياق المذكور استئنفا للبحث

والدرس في المشروع الاجتماعي والثقافي الذي قدّمه المفكر والمصلح الجزائري مالك بن نبي، وتشريعا للدور الريادي الذي ينبغي على المسلم المعاصر أن يضطلع به على الصعيد التنموي للنهوض بالمجتمع ثقافة وتنمية.

الإشكالية:

كيف بحث المفكر مالك بن نبي قضايا التنمية الثقافية والاجتماعية، وكيف تسهم مجتمعاتنا المعاصرة في صياغة وتنفيذ مشاريع تنموية تعنى بالعلاقات الاجتماعية وارتفاع المستوى الثقافي؟

أهداف الندوة:

- 1- ضبط مفاهيم التنمية والثقافة وموقعهما ضمن المشروع الفكري لمالك بن نبي.
- 2- بيان مجالات التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي، والعوامل المؤثرة فيها.
- 3- تحديد مضامين التنمية الثقافية عند مالك بن نبي، وأوجه صلتها بالتنمية الاجتماعية.
- 4- عرض مفردات المشاريع التنموية في فكر مالك بن نبي.

محاور الندوة:

المحور الأول: مفاهيم التنمية والثقافة والمجتمع.

المحور الثاني: التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي: منظوراتها، ومجالاتها، والعوامل المؤثرة فيها.

المحور الثالث: التنمية الثقافية عند مالك بن نبي: مفهومها، وعلاقتها بالتنمية الاجتماعية.

المحور الرابع: مشاريع تنموية في فكر مالك بن نبي.

البريد المخصص للتظاهرات العلمية: ma.is.sciences@univ-eloued.dz

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة رئيس الندوة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

أيها السادة الكرام:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أرحّب بجميع الضيوف، وكل الحاضرين والمحاضرين، وأشكر لكم تلبية الدعوة؛ فأهلاً بكم في رحاب كلية العلوم الإسلامية في هذه المناسبة الطيبة، التي نجتمع فيها لعرض ومناقشة موضوع علمي جدير بالبحث والتنقيب.

فمنذ عقود، وسؤال التنمية لا يكفّ عن التردد في المجالس الفكرية، والمحافل السياسية، وأروقة البحث الأكاديمي في العالمين العربي والإسلامي. سؤال يبدو بسيطاً في ظاهره، لكنه يخفي خلفه تعقيدات اجتماعية وثقافية وسياسية عميقة. فمنذ نيل الاستقلال، رفعت معظم الدول العربية والإسلامية شعارات التنمية الشاملة، وراحت تضع الخطط الطموحة تلو الأخرى، لكن الواقع لم يكن مواكباً لتلك التطلعات، بل كثيراً ما كان محبطاً لها.

إن بطء التنمية في هذه البلدان لا يمكن تفسيره فقط بعامل الزمن، وكأن طريق التنمية طويل بطبيعته، بل لعلّ الأجدر أن نسأل: هل نسير أصلاً في الطريق الصحيح؟ ذلك أن التنمية ليست مجرد مؤشرات اقتصادية أو نموّ في البنى التحتية، بل هي قبل كل شيء فعل حضاريّ، يبدأ من بناء الإنسان، وترسيخ القيم، وتطوير الوعي الجمعي، والاعتماد على الذات لا على الحلول المستوردة.

وقد أخطأت كثير من الدول في فهم التنمية، حين حصرتها في الجانب المادي دون أن تلتفت إلى عمق المشكلات الاجتماعية والثقافية. فظنّ القائمون على التخطيط أن التنمية مسألة أرقام واستثمارات فحسب، بينما تجاهلوا أن المجتمعات لا تنهض بدون تربية متينة، وتعليم فعّال، وثقافة تسهم في صناعة الوعي الجمعي المتناسك.

إن سؤال التنمية اليوم لا ينبغي أن يُطرح بصيغة "متى نصل؟"، بل "هل اخترنا الطريق الصحيح منذ البداية؟"، فربما لم يكن الطريق طويلاً بقدر ما كنا نوهم أنفسنا، وأن سيرنا في الطرق المتلوية خطأ في خطا، وأنا نبتعد عن التنمية في الوقت الذي نظن أننا نقرب شيئاً فشيئاً منها.

فهل آن الأوان لإعادة التفكير في مشروعنا التنموي من جذوره؟

لقد أسهم المفكر الجزائري مالك بن نبي إسهاماً عميقاً في إغناء موضوع التنمية الاجتماعية والثقافية، من خلال رؤيته الفكرية المتكاملة التي جعلت من الإنسان محوراً أساساً لكل عملية تغيير حضاري. فقد أدرك بن نبي، في وقت مبكر، أن أزمة المجتمعات الإسلامية ليست أزمة موارد أو إمكانيات بقدر ما هي أزمة أفكار وقابلية للاستعمار، نابعة من ضعف البنية الاجتماعية والثقافية، واختلال منظومة القيم.

في هذا السياق، قدّم بن نبي مفاهيم رائدة، مثل شبكة العلاقات الاجتماعية، وعناصر الفاعلية الحضارية المتمثلة في: الإنسان، والتراب، والوقت، مبيّناً أن النهضة لا يمكن أن تتحقق ما لم يُستثمر في هذه العناصر ضمن مشروع فكري أخلاقي متكامل. كما شدّد على أن التنمية لا يمكن أن تنفصل عن البناء الثقافي، لأن الثقافة في نظره هي التي تمنح الإنسان وعيه بذاته وبمجتمعه، وتشكل إطاره

المرجعي في الفعل والتفاعل .

ولعلّ ما يميز إسهام مالك بن نبي هو تأكيده على العلاقة العضوية بين الفكرة الدينية والديناميكية الاجتماعية، إذ رأى أن المجتمعات لا تنهض إلا حين تملك فكرة محرّكة، قادرة على توجيه سلوك الإنسان نحو الإنتاج والإبداع والمسؤولية.

إن أفكار مالك بن نبي حول التنمية الثقافية والاجتماعية لا تزال تحتفظ براهنيّتها، وهي تمثل رافداً فكرياً أصيلاً لكل من أراد أن يعيد النظر في المسارات التنموية المعتمدة في عالمنا العربي والإسلامي، بعيداً عن الحلول الجاهزة والنماذج المستوردة، ومن هنا كانت الحاجة ماسّة إلى إعادة قراءة هذا المشروع بعين الباحث المستفيد، لا القارئ العابر.

وانطلاقاً من أهمية تلك الرؤية، تنعقد هذه الندوة العلمية الدولية لفتح باب البحث في المشروع الثقافي والاجتماعي لمالك بن نبي، ومحاولة استلهاهم مقوماته لبناء مشاريع تنموية معاصرة تأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لمجتمعاتنا، وتسعى إلى النهوض بها نحو مستقبل أكثر توازناً وتماسكاً.

وبالفعل تجاوب نخبة ممتازة من الباحثين من مختلف الأقطار الشقيقة والصديقة مع موضوع هذه الندوة، وقدموا أعمالاً علمية تستحق التقدير والإشادة، وتدعو إلى التفاعل معها في هذه المناسبة الطيبة لأجل الوصول إلى نتائج وتوصيات عملية تسهم في رفع منسوب الأداء العلمي والعملي إلى مستويات حضارية مأمولة.

فالشكر الجزيل لجميع الإخوة الباحثين المشاركين بأعمال علمية في هذه الندوة، والشكر موصول أيضاً إلى شريكنا العلمي من دولة تونس الشقيقة والممثل في مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، وعلى رأسه السيد مدير المركز الدكتور بشير عبد اللاوي والوفد المرافق له.

كما نتقدم بخالص الشكر والتقدير وجميل الثناء إلى السيد مدير جامعة الشهيد
حمه لخضر بالوادي البروفيسور عمر فرحاتي الراعي الرسمي لهذه التظاهرة العلمية،
والداعم المؤازر دائما لمختلف أنشطة كلية العلوم الإسلامية؛ فجزاه الله عنا خير
الجزاء، ومن خلاله نتوجه بوافر الشكر والتقدير لمساعديه وأعوانه، ولل فريق
العامل بالكلية والمؤطر لمختلف اللجان العاملة؛ فلهم منا جميعا خالص معاني
الشكر والتقدير، والله الموفق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عميد الكلية

أ.د / إبراهيم رحمانى

rahmani-brahim@univ-eloued.dz

كلمة رئيس اللجنة العلمية للندوة

الحمد لله رب العالمين

يدرك من يقرأ ما كتبه مالك بن نبي أنه يتعامل مع نمط فريد من الكتابة، لا على مستوى الصياغة فحسب، وإنما على مستوى نمط الكتابة ومحتواها. إنّ نشأة مالك في الجزائر وتعلّمه خارجها لم يمنعه من أن يكون كاتباً أصيلاً متصالحاً مع هويته ومتمسكاً بدينه، مما جعله مفكراً متميّزاً، وشخصية مبدعة وأصيلة، جمع بين تعاليم الدين ومقتضيات العصر، كانت قدماءه في عمق التاريخ ونظرة في أفق المستقبل. لقد كان مالك بن نبي مثقفاً رسالياً مدركاً للحظة الحضارية التي تعيشها الأمة، حيث التقى عليها الاحتلال مع التخلف على كل المستويات، مما جعل طموحه هو البحث في كيفية الارتقاء بها. فاهتدى إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان واستغلال الزمن باعتباره العنصر الذي يتحرك فيه في إطار محاولات النهوض. ولم يتخل مالك بن نبي وهو يؤطر مسيرة استعادة عن أهم عناصر الهوية وهو الدين، بل جعله مبدأ كل حضارة ومنشأها.

إنّ التنوّع الذي نلاحظه في أنماط كتابات مالك بن نبي، بقدر ما تكشف عن تعدد مواهبه، تكشف عن رغبته في توظيف مختلف أجناس الكتابة في تحقيق تصوّره للإصلاح الذي تتجسد فيه القيم الإسلامية في أبهى صورها.

لعل هذه المقدمات تبين أنّ اختيارنا لمالك بن نبي لنخصّه بهذه الندوة العلمية وفي مجال التنمية على وجه الخصوص لم يكن عفواً، وإنّما هو مناسبة نتعرف فيها على فكره ونقف عند توجيهاته علّها تسهم في تحقيق ما نتوق إليه من ارتقاء بأمتنا نحو الأفضل.

أسعدنا إنجاز هذا النشاط العلمي بالتعاون بين مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان وكلية العلوم الإسلامية بجامعة الوادي، والحمد لله أن كلّت أعماله بالنجاح، والحمد لله أن وفق إدارة الكلية لطباعته حتى تعم الفائدة لكل من اطلع عليه. فشكرا للأستاذ الدكتور إبراهيم رحمان عميد الكلية وللأسرة الجامعية بالوادي ولأشقائنا في الجزائر الشقيق وللباحثين الذين أسهموا في تأييد جلسات هذه الندوة.

أ.د/ البشير عبداللاوي

مدير مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان

13 ماي 2025

kairouan.ceik.tn@gmail.com

مجموع بحوث الندوة

(وفق ترتيب برنامج الجلسات)

سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي "السياق والمنطلقات والمآلات"

أ.د / مفيدة بلهامل

جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة (الجزائر)

hcnmou@yahoo.fr

مقدمة

مالك بن نبي فيلسوف الحضارة، هكذا عرف ويجب أن يبقى، وهو فيلسوف المصطلحات التي عبر بها عن مفاصل مشروعه للتأصيل البنائي للدورة الحضارية الثانية التي كان مسكونا بها، واستغرقت تفكيره في اتجاه أن يكون من مؤسسيها في العالم العربي والإسلامي، وضمهما الجزائر قاعدة الانطلاق ومادة للملاحظة وهدفا للتغيير الآتي، وأرضية للتطبيق حين تتوفر الظروف.

ولم يكن مالك بن نبي -وهو يضع بواكير الكلمات والكتب لهذا المشروع- "كاتبا محترفا، أو عاملا في مكتب منكباً على أشياء خامدة من الورق والكلمات؛ وإنما كان يقرأ ويتأمل ويلاحظ، ثم يراكم ملاحظاته ويقارنها في سوق الأفكار والفلسفات وهو يتجول في جغرافيا الأماكن والحضارات؛ لبحث العوامل والأسباب والمجريات والتتائج والمظاهر والتجليات، كل ذلك بنفسية حساسة شعرية، وعقلية مهندس كهرباء.

ولعل غياب كلمة التنمية الذي لم يكن في أي عنوان من عناوين كتابه "شروط النهضة"، وربما في محتواه ومحتويات كتبه الأخرى؛ مؤشر واضح بأن المسألة ليست تنمية، وإنما أكبر من ذلك؛ فالمسألة حضارة، وصناعة الحضارة تستوجب النهضة واليقظة والانبعاث والتجديد، وهو ما يعبر بأمانة متناهية عن مشروعه، وينسجم مع طروحاته في كل كتبه التي عرفت به وعرف بها: "مشكلات الحضارة".

وأهمية هذه المقدمة تكمن في أن القارئ لفكر مالك بن نبي لابد أن لا يخرجها عما أراده الرجل، ولعل مصطلحي "البقاء والخلود" اللذين عبر بهما بن نبي عن أهداف بعض النخب السياسية هنا وهناك يجلي لنا المسألة برمتها، فهو لم يكن همّه مجرد بقاء الفكرة الإسلامية -وهي التي تصنع ولا بد أن تصنع الدورات الحضارية في مفترقات الأزمان والانحرافات - وإنما يعبر عن تجليات خلودها واستحقاقها ذلك من خلود رسالتها من الأساس، ومن ثم تأتي كلماته وأفكاره وكتبه المختلفة تعبر عن إيمانه العميق بذلك، فيتوجّه باللائمة لمن يهدف إلى مجرد البقاء، ويغفل عن سرمد الخلود.

وإذا كانت لائمته لكل "النخب الإسلامية" الفاعلة والناشطة زمن الاحتلال؛ فإن لائمته كانت اعترافاً تجاه رجال الإصلاح أنفسهم في الجزائر، حيث يعترف لهم بالسبق في إعادة زرع الفكرة واليقظة والقلق من جديد ومبادرة الإحياء والفقه والوعي بسر الصراع، ووضع قطار الانبعاث على السكة الصحيحة في الجزائر - وغيرهم في غيرها - فيتعجب كيف استدرج هؤلاء إلى دروب الأوثان الجديدة - الزردات الانتخابية الضيقة - والتي سجّل بها عودة الفكرة ونكوصها إلى المربع الأول لذوي الأفق المتسرع الضيق، وهو مربع البقاء وليس الخلود؛ فرغم نورانية البدايات إلا أنها سرعان ما استطاعت الأوثان الجديدة - أوراق الانتخابات وزرداتها - في 1936 أن تحدّ من بريق ذلك النور وتخلط الأولويات، وتبهم الأهداف وتضبّب الرؤية التي تلونت بأهداف صانعيها، ولتدخل في لعبة أصبحت الفكرة الإسلامية مجرد فكرة في سوق الأفكار، وهي نفسها تعترف بأفكار البوار التي صنعها استراتيجيو الاحتلال واختارها الغافلون لتكون خيارهم الأوحى إلى - مستقبل أفضل حسبهم - ولا يدرون أو لم يكونوا يريدون إلا ذلك الخيار ليس لأنه المتاح ولكن لأنه يدخلهم في منطقة السلامة السهلة لكن الذليلة، والذي إذا دخلوه فلن يخرجوا منه أبداً؛ لأنهم كانوا يوقعون على أنفسهم عدم الأهلية لأي

فاعلية أو فعالية أو ندية، فما بالك بالاستقلال والسيادة والبقاء تحت الوصاية الأبدية للاحتلال، وهذا هو الإدماج الذي خططه الاحتلال وتسابق الغافلون عن طريق الممثلين السياسيين لحيازة مقاعد في مسرحه، وهي مقاعد للفرجة والتصفيق والتبريك والخطب الجميلة، ولم تكن ولن تكون أبدا مقاعد القرار والريادة والقيادة والسيادة والاستقلال التام، بل تسليم كل ذلك إلى الاحتلال والاعتراف له بالأحقية والفضل والفعل.

ومع أن رجال الإصلاح كانوا من المنظرين للنهضة أيضا وبطريقتهم، وهو ما يجب قراءته في مقالات الشيخ ابن باديس والشيخ الإبراهيمي في الموقف إزاء السياسة الاستعمارية، واختراعها للملهاة الانتخابات...؛ فإن ما عابه بن نبي هو اللحظة التاريخية الفارقة التي أرادها الإصلاح الجزائري حماية المطالب الجزائرية بإدراجها في الاستحقاقات الحضارية التي لم ولن يهتم بها دعاة الاندماج في استقلال الإسلام واللغة العربية من مشاريع.

مالك بن نبي كان يلاحظ الوضع ويعايشه، ويكتب للتنبيه إليه والتحذير من مغبة الوقوع فيه؛ ولذلك لما يتحدث عن الوثن الجديد البديل لوثن الخرافة ودهاليز الطريقة -الألعاب الانتخابية في وقته وأوراق التصويت التي حلت محل الأحجية والحروز -لم يكن ليهتم بالتنمية، وإنما بالنهضة وطرقها الوعرة وآفاقها المحررة، وكان يخاطب الروح في الفاعلين رجال الإصلاح وغيرهم.

المسافة بين الحضارة والتنمية هي نفسها المسافة بين الخلود والبقاء

إننا سنبحث مفكرنا "مالك بن نبي" حقه إذا ربطنا فكرة التنمية بفكره، فالمسافة بين الحضارة التي نظر لها وأرادها ونبه إلى إمكانية تجدها وبين التنمية وما هي إلا تخطيط آني مرحلي يتنوع حسب حاجة الناس في المكان والزمان وتتغير طرق تحقيقها، ويجب أن تقرأ بين سرمدية الخلود وترايبية التنمية، ويمكن في حالة التفكير المنهجي البنابي أن نجعلها المسافة بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر، وفيلسوفنا هو

من صناع النمط الأول وحاديهم ومحدثهم، والذي يتحدث عن التنمية دون الحديث أو بالأحرى قبل تحقق النهضة أو "الدورة الجديدة للحضارة الإسلامية" كما أرادها مالك بن نبي كما إخوانه من السادة علماء الأمة كمن يضع العرب قبل الحصان.

مشروع مالك بن نبي ما هو؟

يعبر مشروع مالك بن نبي عن مرحلة هامة من حياة الأمة الإسلامية عامة وخاصة في الجزائر، يمكن وصفها بمرحلة اليقظة ومحاولات النهوض ويأتي المشروع البنابي لينضم إلى مختلف المشاريع -الاجتهادات والمحاولات - التي اجتمعت حول هاجس الإجابة عن سؤال محوري وحاسم، يتمثل في: ما هي سبل الخروج من وضعية التخلف وإعادة الحاسة الحضارية للأمة الإسلامية من جديد التي ستصنع تلك العودة، وهو الهاجس الذي حمله علماء الإسلام وانشغلوا به عبر أقطار المسلمين بعدما دبت حالة القلق معلنة الحركة واليقظة والصحو في جسم الأمة بطرائق مختلفة عبر عنها العلماء كل بمنهج ولغته وأسلوبه وظروف الأرض التي يعيش فيها والشعب الذي يعيش معه، وخاصة نوع الاحتلال التي يتعامل إزاءه، وكانت بمثابة فصول للمقاومة الحضارية العميقة التي قادها العلماء للحفاظ على ذلك القلق وتلك اليقظة للوصول بها إلى تحقيق تلك العودة المنشودة والتي كان تنبه لها الغرب وسماها خبراءه المستشرقون "العودة المشؤومة"¹ التي يمكن أن تكون خيرة الدورة الجديدة من البعث الإسلامي.

وقد انبثقت عن تلك الجهود الوعي بحالة التخلف ومظاهرها،، وتنوعت في ذلك الإطار الاجتهادات والقراءات للموقف من الحضارة الغربية برمتها ومن ثم سبل النهوض والعودة إلى حالة التحضر والحضارة من جديد؛ فالمسلمون قد

¹ - الأصولية في العالم العربي، هرير ريتشارد ديكيميجان، ترجمة وتعليق سعيد عبد الوارث، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ط3، 1992، ص 26.

صنعوا وعاشوا الحضارة، وسادوا العالم لقرون طويلة فهل يمكنهم أو بإمكانهم صناعة الحضارة والسيادة من جديد؟ ووضعت تلك الطموحات المشروعة في سياق الحديث النبوي الشريف: "إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها."¹

ونقرأ في سياق الاجتهادات خطاب التقليد والاتباع، وخطاب الوحدة والتحرر، وخطاب التعبئة الإيمانية، وخطاب التصحيح المنهجي للفكر الإسلامي وغيرها، والذي يجمع بينها كلها أنها تقر بالأزمة التي تمر بها الأمة الإسلامية والوعي العميق بها وتتجاوز القراءة إلى تقديم.²

ومشروع مالك بن نبي يدخل في هذا الإطار الكبير، بل وكل الكتب التي ألفها إنما تتناول الحضارة ومشكلاتها - في مشكلات الحضارة - وصدرت تحمل عناوين لوجودها ووجوهها في أمة الإسلام وعلى أنها تحمل القراءات وتقرح الحلول، ولذلك يدرج فلاسفة التاريخ والحضارة المسلمون: - في مشكلات الحضارة ضمن المشاريع التاريخية للمدنية والحضارة المعاصرة - "مشروع مالك بن نبي"، وقد استغرقت أكثر من 250 صفحة لعرضه وتحليله في كتاب "في إشكاليات المشروع والمشروع الإسلامي" الجذور الحضارية: دراسة وصفية نقدية مقارنة.³

¹ رواه أبو داود والحاكم.

² - يرجى قراء الفصل الثاني "الخطاب الإسلامي الحديث بين مسألتي التخلف والنهضة" من أطروحة الدكتوراه الموسومة بـ "الخطاب الإسلامي في الصحافة المكتوبة بالفرنسية في الجزائر، دراسة تحليلية للجرائد" جامعة الأمير عبد القادر، الدكتوراة مفيدة بلهامل سنة 2008 - غير منشورة -.

³ - المشاريع القديمة حدودها في نماذج منها: مشروع أفلاطون - الجمهورية -، ومشروع ابن خلدون - المقدمة -، ومشروع ميكافيل - المطارحات، الأمير - ومشروع جان جاك روسو - العقد الاجتماعي، - أما المعاصرة فضمنوا مشروع علي شريعتي أيضا، ينظر كتاب: في إشكاليات المشروع والمشروع الإسلامي "الجذور الحضارية: دراسة وصفية نقدية مقارنة، 3 مهدي أميرش، شركة دي فار، طرابلس، ليبيا": ط 1، 1424 - 1996، ج 1 - ج 2.

الفكرة الدينية (الاسلام) أساس الحضارة في مشروع بن نبي

إن المسألة في الأساس عند مالك بن نبي -وهو ما يجب أن ندركه وبعمق - مسألة حضارة وليست مسألة تنمية، بل ويستحيل الحديث عن أي تنمية دون تحديد نوع الحضارة التي تحدث هذه التنمية في إطارها. والسؤال هل تصلح كل تنمية لأي حضارة؟

لقد واجه قراء كتاب "شروط النهضة" في طبعته الأولى في 1948 باللغة الفرنسية - بالتساؤلات، وعدم فهم لدى الكثير منهم للدور الذي تقوم به الفكرة الدينية في توجيه التاريخ، والتي لما عرض لها مالك بن نبي في الكتاب قدمها كشاهد تاريخي ونقدي وعقلي، ثم إنه استخلصها من تاريخ أوروبا الديني نفسه، وانتهى إلى أن الفكرة الدينية هي من القوانين التي تحكم اطراد الحضارات، ويتم بها فهم الوقائع الاجتماعية وكذا آلياتها، ولذلك لما صدرت الطبعة الثانية من الكتاب -وهذه المرة باللغة العربية¹- خصّص فصلا كاملا يتناول فيه أثر الفكرة الدينية في الدورة الحضارية بالاعتماد على الاعتبارات النفسية والاجتماعية، ومن ثم في التأكيد على أهمية العلاقة بينها وبين المبدأ الأخلاقي بصفته عاملا يحدّد اتجاه الحضارة ورسالتها في التاريخ⁽²⁾.

والحقيقة التي ينبه إليها العارفون بفلسفة مالك بن نبي الحضارية هي أن الفكرة الدينية هي محور الفكر الحضاري البنائي، فعناصر الحضارة ومكوناتها التي يتفق على ذكرها عند الجميع -الإنسان، التراب، الوقت - وهذه عناصر كل حضارة من الحضارات، وهي عند مالك بن نبي "أعمدة ذات علاقة وظيفية"³ ويمكن أن تتوفر كلها لكن لا تحدث الحضارة إذا اجتمعت بدون العنصر المركب والمخصب

¹ - صدرت الطبعة الأولى من كتاب شروط النهضة باللغة العربية في 1948، وصدرت الطبعة الثانية منه باللغة الفرنسية سنة 1960.

² - شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص ص 10-17.

³ - المصدر نفسه، ص 45.

لكل هذه العناصر والسبب هو غياب الشعلة والمركب الذي يجمع بينها ويحولها من مجرد عناصر ومكونات إلى عناصر فعالة صانعة للحضارة . تلك الشعلة وذلك المركب هو بالذات "الفكرة الدينية " وهو بالنسبة للمسلمين هو الدين الإسلامي .

فعندما يطبق مالك بن نبي عناصر الحضارة على المسلم في وقته -نهاية الأربعينيات مثلاً - وحتى في الستينيات التي راجع فيها طبعته الأولى وصدرت فيها طبعته الثانية بالفصل الجديد المذكور تكون النتيجة: إنسان تائه - تراب بائر - زمن مهذور لتتحول مشكلة الحضارة في الجزائر وفي العالم الإسلامي إلى مجموع المشكلات، وهي على التوالي مشكلة الإنسان ومشكلة التراب ومشكلة الزمن.¹

والمحصلة أنّ اجتماع العناصر غير المخصّبة -بفتح الصاد - لا تحدث أي حضارة، وهو ما عاش عليه المجتمع الإسلامي ومنه الجزائري لقرون من الزمن، ليس لأن الشعلة منعدمة في المسلمين أو في انتمائهم، لكن المسلمين الذين تاهوا عنها فتفرقت جهودهم وخارت قواهم وفسدت مادتهم فانطفأت فيهم تلك الشعلة -الالتزام بالإسلام - ثم كان زمن الاحتلال الذي حارب تلك الشعلة وأحل محلها مختلف الأوثان بدأها بأوثان الطرقية والحروز والأحجية وظلام الأقبية فلما صارح الإصلاح هذه الأوثان وهزموها اصطنع لهم أوثاناً جديدة وهذه المرة ببدلات وعطور وكراسي ومكاتب وبأوراق انتخابية بدل الحروز والأحجية كما يقول مالك بن نبي.²

والسؤال المشروع: ما الذي تغير في وضع المسلمين؟ ولماذا حصل بينهم وفيهم التخلف المستدام بدل الحضارة أو بعض من الحضارة؟

ببساطة: لأن الأجيال التي تقرأ مالك بن نبي بعد الاستقلال بقيت على الجهل، وربما التجاهل نفسه الذي كانت عليه النخبة المفرنسة التي قرأت الطبعة الأولى من

¹ - المكان السابق، ص 45.

² - المصدر نفسه.

"شروط النهضة" في 1948، الفرق الوحيد هو أنه يمكن التساهل مع الآخرين، ودون ذلك على المتأخرين، ليس فقط بأن مالكا شرح ووضح وأضاف فصلا كاملا للتوجيه والتنبيه والتوعية في طبعته الثانية وما بعدها، بل وتاريخ من الشواهد الواقعية التي لا يمكن أن تخطئها عين العقلاء.

وببساطة أخرى أشد إيلا ما؛ فالذين لم يصدّقوا الدرس النوراني القرآني ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ كيف سيصدّقون أو كيف سيتبعون من يشرحه لهم وهو منهم؟

فالنقاشات التي وصفها الدكتور "الخالدي" بالخطيرة بين النخبة في الأربعينيات التي تتناول العلم والدين لا تزال هي عناوين الخلاف والانبهار والالتزام.

ويبدو أنّ التنازل حصل ويحصل لصالح "العلم" البشري - التنمية - بينما لا زالت العقول المسلمة نظريا تجهل كيف ينصب الدين النفوس لتتحول من واقع "الكل" إلى واقع الفعالية والفاعلية؛ لأن التزامهم مهزوز ومنقوص وعلى غير هدى.

التنمية بأهداف لا تمثلنا واتجاهات لا تخدم مصالحنا

رغم أنّ مفهوم تنمية المجتمعات قديم في الظهور كما تذكر مختلف الأدبيات في الموضوع، وتحدد ذلك منذ حوالي 200 عام، إلا أن الحرب العالمية الثانية كانت من الأسباب المباشرة والرئيسية لظهور الكلمة والمصطلح "التنمية" والحاجة إليها بعدما عانت المجتمعات المختلفة من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية فهي التي حركت عجلة تأهيل المجتمعات وبناءها.¹ لتظهر بعدها البرامج التنموية للمجتمعات -الأوروبية تحديدا - وتأهيل المتضررين من الحرب في الفترة ما بين 1940-1945م، خاصة عن طريق تقديم القروض والمنح للدول الفقيرة والمحتاجة لذلك، وخلال عام 1951م قامت الأمم المتحدة بإجراء دراسة تنمية

¹ - History and Concept of Community Development", studylecturenotes.

المجتمعات وإصدار تعليمات محددة تبدأ ببرامج المساعدات التنموية والفنية للدول الفقيرة والمحتاجة.¹

ولما نبحت لفظ ومصطلح التنمية "developpement" من المصادر المختلفة عبر الإنترنت لتوضيح الاستخدام الحالي لكلمة "التطوير" في اللغة نجد له عديد التعريفات:

1 - الفعل أو العملية أو النتيجة المترتبة عن تطوير أفكار جديدة كأن نصفه بالحكم أنه تطوير مثير للاهتمام.

2 - حالة التطوير لمشروع قيد التطوير.

3 - قطعة أرض أصبحت متاحة أو قابلة للاستخدام: قطعة أرض مطورة خاصة: قطعة أرض تم بناء منازل عليها.²

أما التنمية في الاصطلاح فهي عبارة عن تحقيق زيادة سريعة تراكمية ودائمة عبر فترة من الزمن في الإنتاج الوطني والخدمات المجتمعية نتيجة استخدام الجهود العلمية والعملية في الأنشطة الحكومية والشعبية المشتركة.³

فالتنمية في هذه الحالة خطة مرسومة أو وثيقة استراتيجية تعدّها الحكومات المحلية لتوجيه النمو والتنمية على المدى الطويل لمنطقة معينة. فهي تحدد رؤية للمستقبل، كما تحدد التحديات وتقتراح استراتيجيات قابلة للتنفيذ لتحقيق الأهداف المرجوة. وتشمل خطط التنمية المجتمعية جوانب مختلفة، بما في ذلك

¹ - Ibid.

² - كلمة ومفهوم التنمية في:

<https://www.merriam-webster.com/dictionary/development>، والامثلة المقدمة في الموقع

تتسجم مع المعاني والتعريفات التي قدمها عن التطور وعملية تطوير مثل: يبدأ كل موجز لمفهوم المنتج المستهلك والاستخدام النهائي الذي يقود عملية التصميم والتطوير - فيرتشايلد ستوديو، دبليو دبليو دي، 5 أغسطس 2024.

³ - "What is development?", soas.

البنية الأساسية والخدمات الاجتماعية والفرص الاقتصادية والاستدامة البيئية¹ ويجب التفريق بين خطط التنمية المجتمعية والخطط الرئيسية للتنمية؛ بينما تركز الأولى على تحقيق أهداف التنمية عبر مختلف القطاعات، فإن الخطط الرئيسية غالبًا ما تركز بشكل أكبر على التخطيط المكاني، مثل تخصيص استخدام الأراضي.

وعليه فالتنمية هي عملية النمو وارتفاع الشيء وانتقاله من موضع إلى آخر، كارتقاء المجتمع والانتقال به إلى وضع أفضل مما هو عليه، وذلك عن طريق استغلال الطاقات المختلفة التي تتوفر لدى أفراد المجتمع، وتوجيه توظيفها للأفضل.²

ويختلف مفهوم التنمية في المجرّد عن التنمية الشاملة في مدّة تنفيذ برامج؛ حيث تختص التنمية الشاملة بالبرامج طويلة الأجل وعمليات التنمية الحضرية للمجتمعات الفقيرة بالإضافة إلى تنمية البنى التحتية.³

وقد ظهر اعتبار جديد للتنمية لتتحول معه إلى مصطلح «التنمية المستدامة» لأول مرة من قبل الاتحاد الدولي من أجل حماية البيئة سنة 1980، وكان يشير في البدء إلى الدلالة البيئية وعلاقة الإنسان بالمحيط الحيوي من حوله، غير أن المفهوم تم تطويره وأدمج في العديد من سياقات الحياة ليكتسب معان عميقة وكبيرة ومتسعة، وبحلول عام 1987 كانت أمام العالم نسخة محدثة من المصطلح جعلته يتعلق بالقدرات المستقبلية، وكيف للتنمية أن تكون حزمة من المشروعات⁴ في

¹ -All you need to know about Comprehensive Development Plans (CDPs); [Shinjita](https://housing.com/news/cdp-2024) August 7, 2024 ; <https://housing.com/news/cdp-2024> 7-8

² - كلمة ومفهوم التنمية في:

<https://www.merriam-webster.com/dictionary/development> (المرجع السابق)

³ -All you need to know about Comprehensive Development Plans (CDPs); [Shinjita](https://housing.com/news/cdp-2024) August 7, 2024 ; <https://housing.com/news/cdp-2024> 7-8

⁴ - التقارب بين «النهضة» والتنمية المستدامة، 17 يوليو 2019 على الموقع: <https://www.omandaily.om/>، تاريخ التصفح: 7-8-2024.

صورتها المتكاملة من البرامج والخطط والأفكار التي تربط الواقع والمستقبل معاً في سبيل الاستجابة للحاجيات المستمرة للأجيال البشرية المتلاحقة والتي تقود في نهاية المطاف إلى تأمين المستقبل عبر الاسترشاد بقوة الإرادة الإنسانية والقدرات والإمكانات الكامنة بحيث يمكن تلافي الأخطار والتوقعات غير المحسوبة في المكان والزمان المعينين.

وهذا يعني أنّ التنمية والتنمية المستدامة هي استراتيجيات مرحلية ومخططات زمنية كما هي الجهودات المستمرة التي تستجيب لمختلف الحاجات للمجموعات البشرية التي تضمن لها الاستمرار في المستويات المقبولة أو ما فوقها من الرفاهية وتحقيقاً للأهداف الكبرى لعناصر التنمية المتنوعة -السياسية والاجتماعية والبيئية والعلمية وغيرها¹- التي أصبحت تخضع للمتابعة والمراقبة والقياس بما أصبح يعرف بـ "مؤشرات التنمية"² بعناوينها وتصنيفاتها الشاملة والجزئية المختلفة، وهي العمليات التي يتم بها القياس والحكم من خلالها بمدى تنمية المجتمعات وتطورها.

وقد ظهر مؤشر التنمية البشرية³ (بالإنجليزية Human Development Index) HDI الذي ابتكرته هيئة الأمم المتحدة⁴ ويشير إلى مستوى رفاهية الشعوب في العالم

¹ - تعريف التنمية، بانا ضمراوي 11 أكتوبر 2022، موقع موضوع.كوم، <https://mawdoo3.com/>، تاريخ التصفح: 7-8-2024.

² - وتمثل مؤشرات التنمية في الناتج المحلي الإجمالي (GDP) الناتج القومي الإجمالي (GNP) نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي، ومعطيات معدل وفيات الأطفال. معدل الأمية. متوسط أعمار أفراد المجتمع والقدرة الشرائية للفرد، ينظر: "Key Gap Indicators of Development", tutor2u، تاريخ التصفح: 7-8-2024، على الرابط: <https://www.tutor2u.net/geography/reference/the-8-key-gap-indicators-of-development>

³ - قام بابتكار هذا المؤشر عالم الاقتصاد الباكستاني "محبوب الحق"، وساعده في ذلك عالم الاقتصاد الهندي "أماريتا سين" الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد والعالم البريطاني "ماغند ديساي، وبناءً على طلب من الهند في منتصف التسعينيات فقد ألغى إصدار هذا التقرير من الأمم المتحدة.

⁴ - ينظر: مؤشر التنمية البشرية على موقع الموسوعة الحرة باللغة العربية:

<https://ar.wikipedia.org/wiki/>، تاريخ التصفح: 7-8-2024

وأصبحت تصدر له تقريراً سنوياً منذ عام 1990 وما يقوم في ضوءه -نظرياً على الأقل -برنامج التطوير للأمم المتحدة (UNDP) بغرض تنمية الدول وتحسين أوضاع المواطنين في الدول المختلفة باقتراح الحلول لمواجهتها، بالوقاية والاستعداد للأزمات المفاجئة المختلفة التي هي في المحصلة عملية تنمية المجتمعات، والمحصص في عمق هذه المفاهيم والمؤشرات وتلك المشاكل والحلول التي هي مظاهر التنمية من عدمها والتي يمكن أن نواصل في تكديس معلوماتها الصفحات الطوال نجد أنها لا يمكن أن تنفصل عن روح التحضر الذي يصنعه الآخرون ويفرضونه عندنا بحكم الانخراط الاختياري أو المجبور -والأول هو الصحيح - في ما اختاره الآخرون من أشكال وفلسفات للتنمية ونضيف إليها شهادات الإيزو والجودة -صكوك الغفران المستدامة -وصناعة الرضى والخنوع المستدام -.

وقد ثبت مع أحداث العالم المختلفة بأنها تتسم بـ:

- الازدواجية والعنصرية والشعارات الواهية التي لا تشبع معناها.
- بأنها لا روح لها بل تؤول إلى البوار والفراغ والفساد والتهديم.
- بأن نتائجها على صعيد تراجع الولادات والموارد البشرية بفعل الفجور والحيوانية والتجبر والوحشية التي تتجاوز الحيوان.
- نتائجها على صعيد الأمن العالمي فهي بدل أن تحقق السلام فإنها تحقق الخوف والانتحار والشذوذ والبيدوفيليا والاندثار لقيمة الانسان.
- ليطرح السؤال من جديد: هل هذه هي الحضارة التي يريد لها الإنسان والإنسان المسلم تحديداً؟

هل وافق الإنسان -المسلم - على وضع هذه الأهداف وبذلك التوجهات؟ وهو يرى مآلاتها رؤية العين؟ وما موقعه من قرار أهدافها واتجاهاتها؟
هل هذا هو الدواء لداء التخلف المزمن الذي يعيشه قطاع كبير من الإنسانية

ومنهم المسلمون؟

إنَّ القراءة السريعة لهذه النتائج وغيرها سيجعل العقلاء يترحمون على عصور الظلام؛ لأن ما يدعون إليه هو يساوي تماما دمارهم وفناءهم لصالح الفئة التي تفكر في تلك الأهداف والتوجهات التنموية خاصة لما جعلت من الحلول الحوكمة واللوائح التي تبقى معطياتها وحيثياتها من الصيدلية نفسها.

الحضارة بناء والتنمية تكديس، والحضارة روح والتنمية فن وصناعة

إن مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي يتجاوز مفاهيم التنمية الآنية والقاصرة والتقنية البشرية، فالحضارة بناء والتنمية تكديس، ثم إن الحضارة تمتد من عالم الشهادة بالنموذج الإنساني إلى عوالم الغيب بمفهومها الواسع؛ لأنها تنطلق من فكرة معينة للإنسان وأيضا وفي الوقت نفسه من فكرة محددة عن مصير النوع البشري¹، والتحول من التكديس إلى البناء تصنعه الفكرة الدينية -النص الديني ويعني الإسلام- لتجيب عن سؤال: أي إنسان لأي حضارة؟

ولأن تكوين ابن نبي علمي ورياضي فالتحليل عنده عبارة عن معادلات منطقية، ويقول بالقاعدة في علم الاجتماع ليست كنظيرتها في الرياضيات حدا.

ومنذ القرن العشرين أصبح امتداد الحضارة الغربية قانونا تاريخيا²، ومن العبث وضع ستار حديدي بين الحضارة التي يريدها المسلمون وبين الحضارة التي يعيشون في أجوائها. ولا يمكن الحديث عن حد لذلك الامتداد الذي يقدم الوصفة والدواء والجرعة والكيفية وحتى سقف الرضا أو عدمه في العقول التي تستهلكها. ولأن أي حضارة هي عبارة عن روح ومنتجات أو أشياء فحينما نشترى منتجات هذه الحضارة فإننا نشترى هيكلها وجسدها، ولا يمكن أن نشترى مع ذلك روحها الذي لا يتماشى معنا؛ فننتهي من جهة الكم إلى تكديس أشياء الحضارة الغربية،

¹ - شروط النهضة، ص 10.

² - المصدر نفسه، ص 43.

ومن ناحية الكيف وبعد طول الزمن يمكن أن نصنع "حالة حضارة" ولا نصنع "حضارة" مخططة كالتي نريدها أو نطمح إليها كما فعلت دول مثل اليابان وروسيا والصين.¹ فالنتيجة عندنا هي حضارة الأشياء المقدسة أو الشيئية ولا علاقة لهذا بمفهوم الحضارة وعناصرها المخصصة بالروح والنص والالتزام؛ لأن أي عطب يطرأ في هذه المكونات سيضطرننا إلى تلمس الحل والدواء من الصيدلية نفسها التي أنتجت هذه الحضارة لنعود إلى دورة التسول والخنوع المستدام بدلا من المبادرة لصناعة الحضارة من الأساس؛ لأنه ببساطة لم تتغير المشكلات الحضارية وبقيت تراوح وبثقلها من التراكم حقيقتها المستمرة كونها مشكلات.

ولذلك لما يقدم بن نبي تصويره للحل أو الحلول -وهو المعروف في تكوينه وبين عارفه بالصرامة- فإنه يقدمها في ضوء صرامة النص القرآني نفسه الذي يؤمن به ويصدق حقيقته وفعلا وتصورا وحلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ﴾ إنما يقدمه كفقيه للحضارة وأدوات الحضارة بشهادة التاريخ عبر العالم، ولن يتم إلا بالتحول من دور التكديس إلى دور الإنشاء ومن الأساس، وعلى نور وفي ضوء قوانين ومبادئ وشروط النهضة التي يريدها المسلمون كمسلمين أولا وأساسا، فالضوء الذي يلقيه بن نبي في تصويره للحل في سيرورة التجديد الإسلامي يجب أن يتضمّن في الوقت نفسه قطبي النهضة وهما كل من "الروح والفن".²

ولكن قبل اقتراح الحل هناك مرحلة يجب المرور بها وهي المرحلة التي يجب أن تزول فيها تماما الأنقاض من الفناء الغاص ببقايا الانحطاط ورواسب الماضي³ ومع هذا البت الصارم رغم جدارته إلا أن تصور تحقيقه في الواقع يجعله ضربا من المثالية الفكرية والسياسية.

¹ - المصدر السابق، ص 44.

² - ندرك مع القراءة المتعمقة لهذا أن الحضارة هي الروح وأن التنمية هي الفن أو كما يصفه علماء الاسلام بالصناعة.

³ - شروط النهضة، ص 8.

لماذا "بقي" و "يبقى" مشروع مالك بن نبي "مشروعاً"

والمقصود بـ "المشروع" هنا معنى الشرعية، ومعنى أنه مكتمل الفصول كما فكر به صاحبه ثم معنى التوق المستمر لتحقيقه؛ لأنه لم يعط الفرصة لأن يفكر في تطبيقه طيلة هذه المدة من اقتراحه. ونطرح ذلك بناء على ما يلي:

❖ يبقى المسلمون من بين الشعوب التي من حقها المشروع بل من واجبها تغيير ما بها من ذل وتحلف، وهي تملك تجربة الحضارة وأسبابها وعناصرها المتجددة التي تحتاج لتفعيلها في المكان والزمان المناسب، فقد سادت وعمرت لقرون طويلة وحققت للبشرية العدل والعلم والسلم والأخوة والرفاهية، بل وأقصى درجات الحضارة تطوراً ورقياً، يدرك المدرك لها أنها حضارة لها تصورها للإنسان من جهة وتصورها لمصير الإنسان من ناحية أخرى، وهو الإنجاز الذي قدمه المسلمون للبشرية وكان أمناً وسلاماً.

❖ ترتبط فكرة المشروع بمسألة التطبيق من عدمه، ولأن مشروع مالك بن نبي لم يتحقق أو لم يجد طريقه إلى التحقيق، ومفهوم الدورات الحضارية المستمرة هي أساس المشروع في ارتباطها بسنن التغيير وسنة التدافع وسنة الاستبدال، والشروحات الطويلة الفنية والعقلية والمنطقية التي ضمنها بن نبي مختلف كتبه -في مشكلات الحضارة- هي دليل عملي يمكن الاستئانة به حين تتوفر الظروف والترتبة الصالحة، فالمسألة ليست في الوسائل وإنما في فكرة المشروع المرتبط بمعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من جهة، وبالحديث الشريف: "إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها"، وتبقى تطورات الظروف هي من تحدد الوسائل والمناهج، لكن في إطار التشوف إلى العودة إلى الظروف الأولى التي أنتجت الدورة الحضارية الإسلامية الأولى لنعود إلى الاتفاق مع بن نبي إلى نوع الإنسان الذي يصنع تلك الظروف، وبالتالي هذه الحضارة المنشودة دوماً.

❖ أما من ناحية مفهوم المشروع لكونه متكامل وبمفهوم المخطط فلا أن صاحبه لم يكتف بجعله مشروعاً فكرياً فقط يبقى في مستوى الفلسفة العاجية والمثالية المتعالية، وإنما تناوله بالشرح وقدم له اقتراحات وإمكانات التطبيق الواقعي، ويمكن أن نتبع ذلك من خلال المحاضن الفكرية للمشروع النبائي في أكثر من كتاب وخاصة كتبه الآتية.

أ - كتابه "الظاهرة القرآنية" الذي قدّم فيه الأساس الفكري لمشروعه بالبحث عبر مواضيع القرآن الكريم وما تطرحه من أفكار، والذي درج فيه صاحبه منهجاً جديداً في البحث والتحليل انفرد به عن سواه، وقدّم من خلاله محاولة شمولية في إطار المطلق القرآني، استمدّ أصوله فيها من تأمل طويل في طبيعة النفس الإنسانية، وفي غريزة التدين في فطرة البشر وفي تاريخ المذاهب والعقائد التي توسم بالتناقض أحياناً، ولكنها تكشف عن مستور التدين في كل إنسان، ثم هو يستمد أصوله من «الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها ثم في سيرة رسول الله ﷺ، منذ نشأته إلى أن التحق بالرفيق الأعلى»¹.

فالإنسان إذا أدرك عجز عقله عن إدراك ما فوقه لخروجه عن دائرة الإمكان الإنساني ودخوله دائرة المطلق الذي يكون الإمكان الإنساني دليلاً عليه وجزءاً منه وليست هو، هنا تكون الحاجة إلى الرسائل لتقديم معارف لا تتجاوز الإمكان فحسب بل وتوجه الإنسان نحو المنهج الشمولي في الوصول إلى المعرفة وهو ذات المنهج الذي تلمّس "مالك" خيوطه في كتابه "الظاهرة القرآنية" وخاصة عند حديثه عن الحركة النبوية.

ب - كتابه "شروط النهضة". ويمكن تأكيد أن كتاب "الظاهرة القرآنية" و"شروط النهضة" هما عملان يكمل كل منهما الآخر، ويقدمان معاً تفسيراً لدور «الفكرة الدينية في إحداث التأثير في حركة التاريخ، ومن ثم في التأكيد على أهمية

(1) الظاهرة القرآنية، دمشق، مالك بن نبي، دار الفكر، 1987م، ص 18.

العلاقة بينها وبين المبدأ الأخلاقي بصفته عاملاً يحدد اتجاه الحضارة ورسالتها في التاريخ¹.

ج - كتابه "مذكرات شاهد القرن".²

د- كتابه "فكرة كومونولث إسلامي".³ طرح فيه ابن نبي مشروع فكرة الإفريقية الآسيوية، وأبرز فيه أفكاره العامة بخصوص إنشاء كيان يجمع الأمة من جديد على فكرة واحدة ويساهم في حل مشاكلها المشتركة وإعادة مجدها من جديد وذلك بعدما بدا له أن "مؤتمر باندونغ" يمثل الأمل في ظهور قوة جديدة لإمكانية المواجهة مع محور (واشنطن-موسكو) باعتباره يشكل سياسية غربية تواجه الشرق، لكن فشل مؤتمر القاهرة ثم عدم توصل المؤتمر إلى أهدافه، دفع بمالك بن نبي بوضع تصور آخر أكثر عملية فكان "فكرة كومونولث إسلامي" والذي يعرفه بمحور (طنجة-جاكرتا).

ويأتي كتاب "فكرة كومونولث إسلامي"⁴، ليقدم فيه "بن نبي" تصوره العملي لإمكانات نجاح المشروع الذي يجتهد في إطار المشروع الحضاري الإسلامي، وقد حاول من خلاله أن يعطي الفكرة الإسلامية بعداً أكبر لتتحول إلى سياسة لشعوب «لم ترد أن تمثل دورها متعلقة بأذيال الكبار، ولكن دور أنداد أحرار في اختيار طريقهم الخاص بوسائلهم المناسبة واقتناعهم بأن اختيارهم هذا لا يتيح للإنسانية فرصة جادة للهروب من الحرب»⁽⁵⁾.

(1) شروط النهضة، المرجع السابق، ص ص 10-17.

(2) مذكرات شاهد القرن، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984.

(3) فكرة كومونولث إسلامي.

(4) فكرة الكومونولث الإسلامي، تقوم على عكس الكومونولث البريطاني الذي يعتبر فيه الملك أو التاج هو الرابطة العضوية، بينما الرابطة العضوية للكومونولث الإسلامي تتمثل في فكرة الإسلام وتشخص في مجمع دائم، والمقر الرسمي لهذا المجمع يجب أن يكون في ذات الوقت هو الوحدة القاعدية التي تتصل بأجزاء هذا الكومونولث لتقرر في ما بينها ما يتعلق بشؤونها الإسلامية العامة.

(5) فكرة الإفريقية الآسيوية، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 1981م، ص 55.

هـ - كتابه "وجهة العالم الإسلامي"¹

ومع أن "بن نبي" ينه القارئ من أنه لا ينتظر منه حلاً جاهزاً للمشكلة؛ لأن حلها لم يوضع بعد من جهة، وأن الوطن الإسلامي ليس جاهزاً للعمل لأسباب منها ما يتعلق بالجانب النفسي، ومنها ما يتعلق بالجانب المادي وهو ما يطلق عليه باللا فاعلية²؛ فإن مشروعه من جهة أخرى وحاسمة لا يستطيع أن ينهض به شخص واحد بل يحتاج إلى هيئة مشتركة.

ولذلك نجد "بن نبي" يطيل الوقوف عند المشكلات التي قد تواجه المشروع وصعوبة مواجهتها في الوقت نفسه، لكنه في المقابل يقدم الوظيفة التي يمكن أن يقوم بها المشروع حتى يستدرك المسلم تخلفه، وذلك عبر ما سماه بتوسيع مناطق حضوره الفكري، ومن ثم نجده يرسم دوائر تصوّر إمكانية حضور المسلم الجزائري ويجدها في خمس؛ هي دائرة العربي الجزائري، العالم العربي، العالم الإسلامي والعالم الإفريقي الآسيوي، والدائرة العالمية. ويرى "مالك بن نبي" أن اتساع دوائر الحضور بدرجة الوعي، التي ترتبط هي الأخرى بنمو عالم الأفكار عنده.³

و- كتابه فكرة الافريقية الاسيوية 1981⁴

والحقيقة أن كل كتب مالك بن نبي قد صدرت في إطار مشكلات الحضارة، وقد قدم في كل منها على حدة شرحه ونماذجه للأفكار التي كان يلاحظها ويعايشها ويتناولها كمادة تكتمل فيها عناصر مشروعه.

❖ يقول الدارسون لمشروع مالك بن نبي والمقيّمون له بأن "بن نبي" حاول أن يتجاوز محاولات مفكري الإصلاح، وأن أفكاره اتسمت بطابع المنهجية العلمية إلا

1 - ؟

(2) فكرة الكومونولث الإسلامي، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، 1990م، ص 17.

(3) فكرة الكومونولث الإسلامي، المصدر السابق، ص 68.

(4) فكرة الافريقية الاسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981.

أنها كانت تفتقد هي نفسها للوضوح من الجانب الإجرائي، خاصة وأنها تتجاوز في دوائرها الجغرافية القطر الجزائري إلى الأمة العربية ثم إلى الأفروآسيوية¹ لكن مالك بن نبي لم يحدد في كتابه بدقة "الهيكلية التي يجب أن يكون عليها" الكومنويلث الإسلامي " نظرا لإيمانه بأن الجانب العملي لهذا المشروع يجب أن تعكف عليه مراكز دراسات وأبحاث متخصصة لتضعه في صورته النهائية، واكتفى بطرح الدوافع والأسباب والطرق التي تمكن من تسهيل هذه الفكرة وجعلها قابلة للتطبيق،"² ويمكن من خلال هذا التقويم نفسه أن نقرأ التقويم الذي قرأه "الدكتور عبد العزيز الخالدي" من خلاله مشروع مالك بن نبي وحينها لم يكن المشروع قد اكتمل ولا ظهرت مآلاته التطبيقية الطموحة بعد، وذلك حين وجه كلامه للدول الغربية بالقول: "ونحن نريد أن تتقبل الدول الكبرى هذه الصيحة لا -كخطر إسلامي - ولكن كنهضة لمئات الملايين من الناس جاؤوا بدورهم ليساهموا في الجهود الخلقية والعقلية للإنسانية"³ لفهم صعوبة واستحالة أن يقبل الغرب بدوله الاستعمارية اللئيمة أن يقتصم العالم معها أي جهة أخرى بشهادة النص القرآني الذي يجب أن نستشهد به في هذا الموقع بالذات في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ أَهْدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي اللَّهُ وَلَنْ اتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (البقرة 120)، "خاصة وأن دخول الشعوب الأفروآسيوية على المسرح قد أعاد الازدواج الجغرافي والسياسي للعالم بطريقة معينة، ولكن في الوقت نفسه أتت هذه الشعوب معها بمبدأ تركيب للعالم، وبإمكانات تعايش جديد يحمل بوضوح طابع عبقريتها، التي ترتبط بالشروط

¹ - في إشكاليات المشروع والمشروع الإسلامي "الجزور الحضارية: دراسة وصفية نقدية مقارنة، المرجع السابق، ص 356.

² - الكومنولث الإسلامي.. من أفكار بن نبي إلى طموحات مهاتير محمد -عبد الرحمن الشنقيطي، 27/11/2019، مدونة على موقع الجزيرة - نت.

³ - شروط النهضة، المصدر السابق، ص 11.

الأخلاقية لحضارة لا تكون تعبيراً عن القوة أو الصناعة."

فليس الأمر متعلق في المحصلة بوضوح الأفكار وجدارتها وقوتها، وإنما أصبح يتعلّق بموازين القوة التي تحكم العالم وإرادتها وتغول المصالح واعتبار محاولات الشعوب عبر نخبها تحقيق الاستقلال والندية الاقتصادية، خاصة خطراً يستهدفها مباشرة، وهو فيصل وغاية الصراع عند هؤلاء وهو الصراع بين الدين والعلم منذ البداية الذي يتمفصل العالم حوله إلى الآن.

ولذلك حينما يتوقف مالك بن نبي في كتبه على التوالي: "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" و"مشكلة الأفكار" وكذا "مشكلة الثقافة"¹ فإنما ليشرح لصالح من آل قرار طرفي الصراع أو أطراف الصراع، وليس المقصود هنا صناع القرار الدولي فقط وإنما أتباعهم في الدول التي كانوا يستعمرونها من خلال الأشكال الجديدة للاستعمار، والحيلولة دون أن يجد مثل مشروع مالك بن نبي أو غيره طريقه إلى التطبيق حتى أجل غير مسمى، فالقضية روح وفن ومناهج وتعليم وتجاوز ذهان الاستحالة والقدرة على المبادرة والدفاع عنها في الوقت نفسه، وهذا ما يسمح ببناء الفكرة الدينية من الأساس ومن جديد وترسيخها ووعيتها وإدراكها لتتحول إلى حضارة من جديد في بلاد الإسلام والمسلمين؛ فالمسألة لا تكمن في التشكيك في قدرة الفكرة الدينية في صناعة الدورة الحضارية وهي الأساس في أفكار المشروع ومالاته الإجرائية حين تتوفر لها الإرادة والقرار وإنما في خور الانسان -البائر- الذي ذاب وتماهى في حضارة غيره وهو لا يدري أن الانسانية فيه تطالبه بالتححر والندية بل والانتصار ما دامت القضية هي صراع مادي.

❖ أما الكتابات التي تركز على أن الجزائريين قد تجاهلوا فيلسوفهم وأنهم حاصروا أفكاره وأنه رحمه الله، قال لزوجته في آخر حياته: "سأعود بعد ثلاثين سنة

¹ - مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1984

وسيفهمني الناس"،¹ وقد يكون الأمر بعد ذلك في إشارة للتجربة الإسلامية الماليزية في مدارس أفكار بن نبي في الجامعات والتأثر ببعضها على أعلى مستوى²، فإن حقائق العالم تؤكد بأن فكرة الحضارة كما فكرة التنمية ستبقى مستعصية على الجزائر والعالم الإسلامي كما العالم الأفرو آسيوي؛ لأن "إرادة الكبار - كما يقول مالك بن نبي في كتبه في وقته وهو الذي لا يزال في الوقت الراهن - بما تتمتع به من حق الاعتراض (الفيتو) في المناقشات الدولية لتعتبر في الواقع التيار المضاد لاطراد التاريخ، تياراً مضاداً بكل العناصر السلبية التي تملكها حضارة لم تستطع أن تغلب على مصاعبها الأخلاقية، وهذا الجمود الأخلاقي كله هو الذي يضغط بثقله على المصير الإنساني، معطلاً التاريخ، تاركاً الأحداث تجري في مكانها..."³

❖ لما فكر مالك بن نبي تحقيق مشروعه عبر تحالف كان يطمح إليه ويوصف في كتبه بحلف -طنجة جاكرتا - أو حلف "أفرو آسيوي" وأيضاً "بحلف المظلومين ضد حلف الظالمين" كان يعتمد على حقائق العالم الجديدة في الستينات والسبعينات، من جهة تحرك الكتلة البشرية الجديدة التي تكونه والتي تحررت تَوّاً من سيطرة الهيمنة الغربية وتمثل حينها -ثلاثة أرباع الانسانية - وتطالب كلها للمرة الأولى منذ قرنين بحقها في الحرية وفي العمل وفي الحبز، وبقدر ما أحدث ذلك عاصفة في الضمير الإنساني، وفي حلبة السياسة الدولية بقدر ما برزت من خلالها المشاكل الحقيقية، أو الموضوعات الجوهرية لنوع الأزمة في العالم، وكان "بن نبي" يتأمل نجاح مشروعه عبر الحلف الذي ينشده وعبر المنبر الذي فتح له، حيث مثل

¹ - كتاب "فكرة الأفريقية الآسيوية" لملك بن نبي، 18 أبريل 2020، <https://alhirak-alikhbari.dz/article/> تاريخ التصفح 9-8-2024

² - لما ظهر مهاتير محمد رئيس الوزراء دولة ماليزيا المسلمة بين 1982 - 2003 قام بمحاولات جادة لوحدة المسلمين وكانت له اهتمامات صادقة بقضايا الأمة الإسلامية وخاصة قضية فلسطين وقد عمل على الدعوة إلى اتحاد إسلامي (مالاوي - عربي - أوروبي - إيراني) من أجل نقاش مشاكل الأمة الإسلامية الرئيسية وأزماتها المستمرة، وقد استلهم فكرته من أفكار وكتب مالك بن نبي -رحمه الله -.

"مؤتمر باندونغ" سنة 1955 فرصة للتعبير عن ثورة العالم الثالث على النظم الاقتصادية والسياسية والثقافية التي وضعت في القرن التاسع عشر لتسييره، حيث استطاعت أوروبا خلال قرنين من الزمان أن تتحكم في موارد العالم كله، وأن تضعها تحت تصرف النظام الأوروبي فحسب، محتكرة بذلك - من أجل فائدها - الحرية والسلام والعمل، وأحدثت في العالم المتحضر تفرقة بين الأخلاق والسياسة. ويعتقد مالك بن نبي أن الوجه الوحيد لمواجهة القوة والمركزية الغربية هو الأخلاق؛ ولذلك رأى أن مؤتمر باندونغ يحمل معالم دستور أخلاقي دولي، مثالي، دون أن يفقد واقعيته السياسية المطلوبة التي تدرك غايتها ووسائلها.

لكن المؤتمر حسب "بن نبي" قد جمع فعلا كل شروط ثورة العالم الثالث، إلا شرطا واحدا وهو شرط إطلاق الشرارة الفكرية الضرورية لإضرامها. "وكانت هذه من علامات فشل فكرته الأفروآسيوية، التي طرحها منذ سنوات قبل المؤتمر، وذكر ذلك في الطبعة الثانية من الكتاب بأن: "الفكرة... قتلت في المهد، وقتلتها جاهلون".¹

إنّ حقائق العالم المعاصر الذي تعيش فيها الأمة الإسلامية لا تشهد على التغيرات التي يمكن أن نتأمل معها أن تحقق لا التنمية ولا الحضارة، وقد فشلت مختلف المحاولات التي دعت وسعت ونظرت وجاهدت من أجل وحدة الأمة، ثم تلك التي عوّلت على وعي الفرد المسلم - الذي كلما زاد وعيه زاد إدراكه - كما ظنها وآمن بها حقا مالك بن نبي نفسه - وتضاف إلى هذه الحقائق واقع الفارقة اللغوية والدستورية والتشردم والتناقض في المواقف المصيرية نفسها للأمة التي لم يعد لها أولويات واحدة في الشأن العام وخاصة في العلاقة مع الآخر الحضاري والعدو.

ومن جهة أخرى استمرار التغول الغربي والتعمق للمركزية الغربية وارتكازها على رعونة القوة المادية القاهرة عبر المنابر والقوانين والقرارات الثقافية والفكرية

¹ - كتاب "فكرة الأفريقية الآسيوية" لمالك بن نبي، 18 أفريل 2020، <https://alhirak-2020>

alikhbari.dz/article/2024-8-9

والاجتماعية التي تفرض على الأمة دون مشاركتها أو قبولها أو إقرارها بل وفي غيابها على كل مستويات تلك التوجهات.

وفي إطار ما يسميه بعض المفكرين العجز الأخلاقي الغربي الذي "وإن أنشأت عبقريته بنفسها أحد العناصر التي حتمت الاتجاه المنطلق للتاريخ، فلم تدعه يرجع إلى الوراء، فإن هذه العبقرية قد برهنت على أنها لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها، وبرهنت الأحداث الدولية الحالية على عجزها الأخلاقي عن أن تحتل مكان القيادة في العالم. إذ لكي تتحمل أعباء هذه القيادة لابد من سلطة أخلاقية، ودفعة روحية مما لا وجود له في هذه العبقرية الصناعية، ولا في مبادئها ولا في توجيهها.¹

إن وضع الأمة المأساوي ونكباتها المستمرة وغرقها في الحروب واستباحة أرضها من طرف الشرق والغرب ليجعل الوحدة الإسلامية ووجود كيان جامع يمثل المسلمين ويحمي مصالحهم ضرورة فوق كل الضرورات وغاية هي أم الغايات.

وهذا ما يبقي مشروع مالك بن نبي مستمرا وقابلا للتحقيق لا لتحقيق التنمية فذلك هدف صغير يرتبط بمجرد البقاء والتكيف، وإنما لتحقيق النهضة المستدامة والحضارة المستقلة السيدة والندية التي تتأسس على الأخلاق وتحقق الأهداف المنشودة ليس للأمة الإسلامية فقط وإنما أيضا للبشرية المعذبة وأحلامها المشروعة في السلم والأمان مع الرفاهية والسعادة.

التوصيات:

ادعو إلى إدماج كتب مالك بن نبي في منهاج المنظومة التربوية والاجتهاد النخبوي للإسراع في ذلك.

المصادر والمراجع:

1 - شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عمر مسقاوي، عبد الصبور شاهين، ندوة مالك

¹ - المرجع السابق.

بن نبي، 1986

2 - فكرة الإفريقية الآسيوية، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر،

1981م

3 - فكرة الكومونولث الإسلامي، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، 1990م

4 - الظاهرة القرآنية، دمشق، مالك بن نبي، دار الفكر، 1987م

5 - تعريف التنمية، بانا ضمراوي 11 أكتوبر 2022، موقع موضوع. كوم،

<https://mawdoo3.com/>

6 - التقارب بين «النهضة» والتنمية المستدامة، 17 يوليو 2019 على الموقع:

<https://www.omandaily.om/>

7- كتاب "فكرة الأفريقية الآسيوية" لمالك بن نبي، 18 أبريل 2020، <https://alhirak->

alikhbari.dz/article/

8 - الكومونولث الإسلامي.. من أفكار بن نبي إلى طموحات مهاتير محمد، عبد الرحمن

الشنقيطي، 27/11/2019، <https://www.aljazeera.net/blogs>

9 - الأصولية في العالم العربي، هرير ريتشارد ديكميجان، ترجمة وتعليق سعيد عبد

الوارث، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر ط3، 1992.

9-<https://ar.wikipedia.org/wiki/>

10- All you need to know about Comprehensive Development Plans (CDPs) ;

Shinjita Ghosh August 7, 2024 ; <https://housing.com/news/cdp->

11- History and Concept of Community Development", studylecturenotes

- Key Gap Indicators of Development", tutor2u ,

<https://www.tutor2u.net/geography/reference/the-8-key-gap-indicators-of->

[development.](https://www.tutor2u.net/geography/reference/the-8-key-gap-indicators-of-development)

البعد الحضاري للفكر الديني عند مالك بن نبي وأثره في تهذيب السلوك الاجتماعي

د. ذكرى بنت الحبيب الجد

جامعة الزيتونة (تونس)

dhekranbl10@gmail.com

مقدمة

يعتبر مالك بن نبي¹ من بين المفكرين المعاصرين الذين اهتموا بدراسة مشكلات المجتمع العربي الإسلامي، فقد حاول أولاً أن يشخص هذه المشكلات وثانياً أن يقدم حلولاً لها وفق تصوّره، فقد بين لنا من خلال كل آرائه التي ضمّنها مؤلفاته سواء المتقدمة منها أو المتأخرة أنّ المجتمع العربي الإسلامي المعاصر يعيش مأزقاً حضارياً حقيقياً وجب عليه تجاوزه والتوجّه نحو بناء الحضارة، حيث أكّد من خلال مشروعه الفكري أنّ بلوغ الحضارة لن يكون إلا من خلال إحداث التغيير في المجتمع المسلم حتى يبلغ مرحلة التحضّر.

فابن نبي من أهم الذين تحدّثوا عن ضرورة إحداث التغيير في المجتمع العربي الإسلامي برؤية إسلامية متميزة، ورغم أنه عاش الحضارة الغربية ونهل من ثقافتها، فقد عاش مثقلاً بهموم مجتمعه العربي الإسلامي متمسكاً برؤيته المتميزة لمشكلاته ساعياً إلى فهمها في ضوء العقيدة الإسلامية.

والهدف من هذه الدراسة هو بيان البعد الحضاري والثقافي لفكر مالك بن نبي وموقفه من كميّة بناء الحضارة من منظور إسلامي. ثمّ بيان أثر فكر مالك بن نبي في تهذيب سلوك الفرد وبناء المجتمع الحضاري.

¹ هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن بني ولد في قسنطينة بالجزائر في 28 جانفي 1905 تابع دراسته بكلية الهندسة بفرنسا بعد حصوله على البكالوريا، استقر لفترة بالقاهرة ثم عاد إلى الجزائر سنة 1963 حيث عيّن مديراً للتعليم العالي. من أهم مؤلفاته: الظاهرة القرآنية، شروط النهضة وجهة العالم الإسلامي مشكلة الثقافة، وغيرها...

I - البعد الحضاري والثقافي لفكر مالك بن نبي

إن إحداث التغيير ضروري من أجل الارتقاء بمستوى الفرد، وبالتالي بمستوى المجتمع، لذلك يرى مالك بن نبي أنه لكي نبني مجتمعا متحضرا يجب علينا أن نجعل الفرد يؤمن بضرورة المشاركة في هذا البناء، حيث يعمل كل فرد على تحقيق المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة؛ لأن التفكير في هذه المصلحة الخاصة هو ما أرقق المجتمع العربي وجعله يتخلف كثيرا عن المجتمعات الأخرى التي صارت أكثر تحضرا، كما يجب على المجتمع توطيد شبكة العلاقات الاجتماعية؛ لأنه كلما قويت هذه الشبكة كلما زادت فرصة إحداث التغيير الاجتماعي وبالتالي ميلاد المجتمع المتحضر، ويرى مالك بن نبي أن دور شبكة العلاقات الاجتماعية مرتبط بالفكرة الدينية التي تؤثر إيجابيا على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. كما أن فلسفة التغيير عند مالك بن نبي تقوم على ثلاثة عناصر ضرورية هي الإنسان والتراب والوقت، وأن التوجيه الصحيح لهذه العناصر هو الذي يقود المجتمع إلى بناء الحضارة.

ذلك أن تحقيق مصلحة المجتمع شرط أساسي لبلوغ الحضارة، وإن أهم ما يميز موقفه هذا هو ربطه بين كل المشكلات التي يعيشها المجتمع المسلم ومشكلة الحضارة، لذلك نجده قد تعمق في دراسة العناصر الرئيسة التي تساهم في بنائها إسلامية.

يعتبر مالك بن نبي أحد أهم رواد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين. وقد اعتبره الكثيرون امتدادا للعلامة ابن خلدون، وهو من أكثر المفكرين المعاصرين الذين نبهوا إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة. كما وقف بن نبي دائما في كتبه وأطروحاته قارئا وناقدا لإخفاقات الأمة، حيث ترك مدرسة فكرية عميقة الجذور، تخرج منها مجموعة من المفكرين الذين حاولوا نشر فكره وآرائه واستنباط الحلول من مقولاته النظرية، التي يصف فيها أسباب تراجع المجتمعات الإسلامية وتحلفها عن السياق الحضاري الإنساني. فقد سعى مالك بن نبي إلى بناء

الفرد المسلّح بالفكر الصحيح الواعي لما يجري في المجتمع، وبالفهم الواضح لخط سير التاريخ، من أجل أن يكون على يديه تغيير الواقع المتردي. إن التجربة الفكرية والميدانية العميقة بأبعادها الروحية والفكرية والاجتماعية شكلت فكر مالك بن نبي حول مفاهيم مرتبطة بالإنسان، والثقافة، والحضارة التي "ترتكز على انسجام الجهود الإنسانية وتكاملها مع قوانين النهوض المادي والمعنوي وجملة الشروط الخاصة بالنمو والازدهار في شتى المجالات الفكرية والروحية والاقتصادية والمادية في الواقع المعيش".¹

سعى مالك بن نبي إلى طرح الإسلام في كل تصوراته الفكرية كملهم لقيمنا قادر على استعادة دور الإنسان الفاعل، ويرى بن نبي أن الإسلام لا يقدّم إلى العالم ككتاب، وإنما كواقع اجتماعي يساهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية. وهو الأمر الذي كان من الممكن أن يكون له أثر إيجابي كبير على مشروعه الفكري برمّته. لذلك حاول بن نبي أن يبرر ربطه بين مفهوم الحضارة والعقيدة الدينية أثناء بحثه في شروط النهضة المرتقبة للأمة الإسلامية، هذا الربط الذي دفعه إلى تحديد حدّ فاصل لبداية انحدار المسلمين لنلمس المرجعية الفكرية لمالك بن نبي وهي مرجعية إسلامية يركز فيها على إحياء الإسلام الصحيح كشرط لبناء الحضارة. حاول من خلالها التأكيد على أن الدين هو مقوّم أساسي من مقومات أي حضارة، وهو الفاعل في بنائها وتطورها وازدهارها ولهذا نجده يربط بين تخلف المسلمين وبين فقدان العقيدة الدينية لفاعليتها في المجتمع. والنتيجة التي وصل إليها بن نبي أن الأزمة الحضارية عند المسلمين من خلال دراسة دقيقة للواقع ليست أزمة عقيدة أو فكر سياسي فحسب، وليست مشكلة أصالة مفقودة، وإنما مشكلة انتكاسة وسقوط في محطة تاريخية ويستوجب ذلك إعادة الأمر الطبيعي بالانسجام مع صفحات التاريخ

¹ بوبكر جيلالي، مالك بن نبي البناء الحضاري دار المعرفة، الجزائر، د.ت، ص 38

المشرقة، وليس بأخذ السند والحجة من واقع الانتكاسات.

يرى بن نبي أنه حينما نتأمل القرآن الكريم يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة وتتحكم في تطورها. فهو قانون من قوانين الله عز وجل التي فطرت عليها النفس الإنسانية. وهو فضلاً عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوّن الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة هذا الأنا. ثم يرجع بن نبي إلى التاريخ فيجده يشهد أن الدين ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية، ليس هذا فحسب، بل إن الدين كان من وراء كل المنجزات البشرية، ويقدم الدين بديلاً تفسيرياً لقيام الحضارات ومنجزاتها عبر التاريخ. يقول بن نبي: "كلّما أوغل المرء في الماضي التاريخي، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو المراحل البدائية، وجد سطوراً من الفكرة الدينية"¹. ولقد أظهر علم الآثار دائماً - من بين الأطلال التي كشف عنها - بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيّاً كانت تلك الشعائر. ولهذا يقرر أن الدين الذي هو التعبير التاريخي والاجتماعي عن هذه التجارب المتكررة خلال القرون، يعد في منطق الطبيعة أساس جميع التغيرات الإنسانية الكبرى، ولذلك فلن نستطيع أن نتناول الواقع الإنساني من زاوية المادة فحسب. كما يرى بن نبي أن الفكرة الدينية ليست نسقاً من الأفكار الغيبية فقط، ولا يقصرها على الدين السماوي فقط، بل هي قانون يحكم فكر الإنسان، ويوجه بصره نحو أفق أوسع، ويروض الطاقة الحيوية للإنسان، ويجعلها مخصصة للحضارة، وهي في نظره كل فكرة تقدم معبوداً غيبياً ووعداً أعلى، ابتداء من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات. ولهذا فقد خصص فصلاً في كتابه

¹ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاکر، دار الفكر دمشق، ط 4، 2000، ص 69.

(شروط النهضة)¹ لتحليل دورتين من دورات الحضارة، هما الحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية لاستخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى مسرح التاريخ، وتحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة وهو بتحليله لهذين الدورين ينتهي إلى تأكيد أن السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة، الإنسان والتراب والوقت، ويبعثها قوة فاعلة في التاريخ هو الدين. ومعنى ذلك أن الفكرة الدينية هي التي تقف خلف النهوض الحضاري لا تقتصر على مجتمع دون آخر فسواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أو المجتمعات التي اختفت من الوجود، فإننا نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست أثرها في حقل التاريخ ناتجة عن فكرة دينية². فكلتا الحضارتين تنطلقان من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص، وتوجهه نحو غايات سامية. بل إن بن نبي يرى أن هذا القانون الدافع للحضارة لا نجده في الحضارتين: الإسلامية والغربية فحسب، بل يتعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية؛ أي أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني. ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر بن نبي إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شريعة ومنهاجاً. ومن هنا فالحضارة تبدأ عندما يمتد نظر الإنسان على أفق أعلى من يومه ومن حقبته التي يعيشها، ومن هنا ينبغي علينا أن نتبع تأثير الدين من خلال تركيبه بين العبقورية الإنسانية والشروط الأولية للحضارة؛ أي: تتبع ذلك الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث الحركة والنشاط. وهكذا يرى بن نبي أن الدين في ضوء القرآن الكريم له غايتان، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1986، ص52

أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ»¹، يبين أن الدين غايته أن يربط الأرض بالسماء، وهو حين ينشئ الشبكة الروحية التي تربط الفرد والمجتمع بالله، فإنه في الوقت نفسه يبني شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدي نشاطه المشترك، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض. فهذا القانون الذي بينته الآيات المحكمات، لم يرد أن يفصل الناس عن الأرض، ولكن أراد أن يفتح لهم طريقاً أعظم خيراً ليضطلعوا بعملهم الأرضي. ينظر بن نبي إلى الدين باعتبار أن له وظيفة الربط بالله عن طريق هذا الوضع الإلهي، كما أن له أن يفتح آفاقاً أوسع للإنسان حينما يربطه بأبعاد السماء، ويرفع بصره إلى ما بعد حياته الأرضية. فهناك غايتان للدين: ربط الصلة بالله، وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تدخل بالمجتمع دائرة الحضارة. وباعتبار أن بن نبي يبحث عن القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، وينظر في شروط البناء الحضاري، فإنه يركز على الوظيفة الاجتماعية للدين، معتمداً في ذلك على الاعتبارات النفسية الاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية، فهو يختبر هذه الوظيفة من ناحيتين: من ناحية تسجيل الفكرة الدينية في النفوس، ومن ناحية تسجيل الفكرة الدينية في التاريخ، وهو ما بينه في كتابه "شروط النهضة".

إن بن نبي يستعمل مفهوم الدين باعتباره تلك السنة التي فطر الله عليها الإنسان، وأن الدين وحده هو المركب الحقيقي للقيم الحضارية، وهو يعطي شرارة الانطلاق لتدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز. بدليل أن القرآن الكريم يعرض الدين ليس على أنه تشريع فقط، بل على أنه سنة موضوعية من سنن الوجود. وقانون داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته. بل هو فطرة الله التي

¹ الذاريات 56-58.

فطر الناس عليها، لا يمكن تبديلها. فالدين ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن إعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها. فهو لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الانسان إنسانا. تتجسد العلاقة الروحية بين الله تعالى والإنسان في صورة علاقة اجتماعية وكذلك من خلال توفير القانون الأخلاقي الذي يمنح قيمة لما يقوم به الإنسان وما يحياه، لهذا فإن للدين دوراً حضارياً فعالاً.

إن الفكرة الدينية عند مالك بن نبي لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية¹؛ تعني الحضارة عند مالك بن نبي، توفر مجموعة من الشروط المادية والمعنوية، ويُعد الدين منشأ كل حضارة.

يعد الإنسان في فكر مالك بن نبي محور عملية التغيير وهو الفاعل فيه، ومنطلق التغيير هي النفس باعتبار الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾² وهو شرط ضروري من شروط الارتقاء في سلم الحضارة.

1- مفهوم المجتمع وإمكانية التغيير

لقد أدرك مالك بن نبي أننا شعوب انفعالية يوجّهنا الحماس ولا نتعقل الأمور، وأن مشكلتنا الحقيقية ليست في فهم ديننا وإنما في فهم أنفسنا، وهذا ما يدعو إليه الدين في حد ذاته، يقول مالك بن نبي: "فحين أقول: مشكلة مجتمع لا مشكلة دين، لا أريد أن أنزع المسلم من دينه وعقيدته بل حرصي عليه أن يبقى على دينه كحرصه وأشد، ولكن ما أريد هنا: أن أفرق بين السنن التي تجعل الانسان عاجزا، والسنن التي تجعل الانسان مجتهدا عاملا"³. إن تعلق المسلمين بالأوهام وعدم فهمهم لسنن

¹ عبد الله بن محمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للإنتاج والنشر، بيروت، ط1، 2012، ص250

² الرعد 11.

³ جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي: ط8، 1989، ص33.

التغيير خصوصا تغيير ما بالأنفس هو من أكبر معوقات إمكانية التغيير، لذلك يرى مالك بن نبي أن التغيير الحقيقي هو الذي ينبع من النفوس، منطلقا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾¹ التغيير الحقيقي مرتبط بالجوانب الأخلاقية والاجتماعية والتربوية وغيرها، وهي الجوانب التي ينبغي على المجتمع إذا أراد أن يحسّن أوضاعه أن يهتم بها.

إن أهم ما فهمه مالك بن نبي من الآية السابقة هو أنها تتحدث عن تغييرين هما: "تغيير الله لما بالقوم"، و"تغيير القوم لما بأنفسهم".

إلا أنه يرى أن تغيير القوم هو شرط تحقيق التغيير الإلهي، فالتغيير الذي قد يحدثه الله في القوم مرتبط بالنعم بصفة عامة كالصحة وسلامة الأعضاء والغنى وغيرها، أما التغيير الذي يقوم به القوم فيرتبط بما في الأنفس، وأن مصير المجتمع يتحدّد بمقدار تحقيقه لهذا التغيير واستعداده له، لذلك نجد أن الكثير من الآيات القرآنية هي دعوة للعودة إلى النفس وإصلاحها؛ وذلك لأن النفس: "في حاجة إلى هدم ثم بناء في آن واحد، كما لا بد من إعادة الصفاء والوضوح للنفس"². وهذا ما يثبت لنا أن التغيير النفسي يكون أولا، ثم يأتي التغيير الاجتماعي، مع العلم أن الله منح الإنسان إمكانية أن يغير ما بنفسه وإذا اعتقدنا غير ذلك فإننا سنقع في الفشل والكسل. إن أغلب علماء الاجتماع حسب مالك بن نبي يخطئون عندما يطلقون صفة مجتمع على مجموعة من الأفراد، وهو أيضا الخطأ الذي يقع فيه الأنثروبولوجيون أيضا عندما يصفون الشعوب البدائية بالمجتمعات، انطلاقا من المعيار الكمي أو ما يصفه مالك بن نبي بمصطلح "التكديس".

يقدم لنا مالك بن نبي مفهوما جديدا للمجتمع يسميه "المفهوم الوظيفي"

¹ الرعد، 11.

² جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، المصدر السابق، ص 54.

القائم على علاقة تبادلية تكاملية بين المجتمع وأفراده، فالأفراد يعملون للمصلحة العامة لهذا المجتمع، والمجتمع يوفر لهم كل الظروف والصلاحيات التي تساعدهم على أداء مهامهم ووظائفهم¹. يؤكد مالك بن نبي على أهمية الجانب الكيفي المتمثل في ضرورة التفكير والعمل المشترك بين كافة الأفراد في ما يخدم المجتمع ككل؛ أي: التحوّل من الفردية إلى المجموع أو من الأنانية إلى الغيرية، وهذا ما يحقق مصلحة المجتمع والفرد على حد سواء، ومنه قول مالك بن نبي: "إن ارتباط الفرد بالمجتمع هو الذي يحقق السعادة"²؛ لأنه إذا عمل كل فرد من أفراد المجتمع عن قناعة على تحقيق مصلحة مجتمعه وجعل المصلحة العامة أسبق من مصلحته الخاصة فإن ذلك سيعود بالفائدة على الفرد في حد ذاته، وذلك لأن المجتمع هو من سيقدم له المقابل: "فالإنسان الذي يكون مجتمعه مجتمع حضارة لا يكون معرضاً للحرمان من الضمانات الاجتماعية. فأنا حينما أحاول تحديد مجتمع أفضل، فكأنني أحاول تحديد أسلوب حضارة، إذ أنني حينما أحقق الحضارة أحقق جميع شروط الحياة."³ وهذا ما يجعل من مهمة التغيير ليست فقط مهمة استعجالية، وإنما في الوقت ذاته تعتبر مهمة صعبة تقتضي وجود أطراف قادرة على تحملها وأدائها على أحسن وجه.

يقول مالك بن نبي: "فأهم شيء يبحث عليه القرآن ومن أجله أنزل الكتاب وأرسل الرسل هو تغيير المجتمعات، فلهذا كان الإلحاح في القرآن لينظر الناس إلى سنن الذين خلوا من قبل"⁴. إن المحدودية في النظر تجعل الإنسان لا يرى أسلوباً آخر للحياة غير الأسلوب الذي يعيش عليه، وبالتالي فلن يدرك أبداً أهمية وضروية التغيير لكي ينتقل إلى نمط أفضل من الحياة. يكمن الإسهام الحقيقي لمالك بن نبي

¹ مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي، دراسة استقرائية مقارنة، دار النابا، ط 1، سوريا، 2012، ص 119.

² مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط 2، 2002، ص 161.

³ المصدر نفسه، ص 163.

⁴ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط 2، 2002، ص 129.

في تأكيده على أن الفرد الذي يسهم في بناء الحضارة ليس هو الفرد الذي ينظر إليه على أنه مجرد عضو في المجتمع والذي ينحصر مفهومه في صفاته الفطرية، وإنما هو "الشخص" الذي تكون لديه نزعة اجتماعية ورغبة في تكوين علاقات إيجابية مع كل أفراد مجتمعه سعياً منه على مشاركتهم المصلحة العامة، وعليه يعطي مالك بن نبي أهمية كبيرة لما أسماه بـ "عالم الأشخاص" إلى درجة أنه يربط التغيير الحقيقي في المجتمع بهذا العالم، ومنه تأكيده على أن: "العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي، هو العمل الذي يغير الفرد من كونه فرداً إلى أن يصبح شخصاً وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعة اجتماعية تربطه بالمجتمع"¹. فكلما قويت العلاقات بين الأشخاص قويت العلاقات بين الأفكار والأشياء، لأنه ليس هناك خطر على تطور المجتمع مثل الخطر الذي تشكّله النزعة الفردانية الموجودة فيه.

إن تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية من أخطر مظاهر تخلف المجتمعات، وبالتالي هذا ما يتسبب في ابتعادها عن ركب الحضارة.

2- فلسفة التغيير عند مالك بن نبي

إن بلوغ الحضارة لا يكون إلا بإحداث التغيير الذي يجب أن يمسّ كل فرد من أفراد المجتمع، حيث يجب على المجتمع أن يغير من طريقة تفكير أفرادهِ وسلوكياتهم من الجانب البدائي إلى الجانب الاجتماعي؛ أي: من التفكير في المصلحة الخاصة إلى التفكير في المصلحة العامة؛ لأن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العامل الأساس المتحكم في عملية التغيير والذي يضمن تحقيق هذه العملية، وبالتالي يمكن للمجتمع أن يصبح مجتمعاً متحضراً، وتأكيداً منه على أهمية شبكة العلاقات الاجتماعية يقول مالك بن نبي: "وهكذا، يمكن أن نتعلم في هذه الظروف المعنى الأولى للحضارة، وأن معنى التحضر: أن يتعلم (الإنسان) كيف يعيش في جماعة،

¹ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط2، 2002، ص129.

ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية".

تعمل فلسفة التغيير عند مالك بن نبي على إعطاء معاني جديدة لمصطلحات قديمة، إذ لم يعد الفرد مجرد عضو في مجتمع، وإنما أصبح ينظر إليه على أنه شخص يعيش مع أشخاص آخرين داخل المجتمع، كما أن مفهوم المجتمع لم يعد ينحصر في كونه مجموعة من الأفراد، وإنما أصبح مجموعة من الأشخاص الذين يسعون جميعاً ودون استثناء إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع إذا أرادوا الارتقاء بمجتمعاتهم ليصبح مجتمعاً متحضراً، وهذا دون أن يكون هناك تعارض أو تناقض بين مصلحة الفرد ومصلحة مجتمعه، من أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي ربط بين الأنصار والمهاجرين، وكانت الهجرة نقطة البداية في التاريخ الإسلامي لأنها تتفق مع عمل شخصي قام به النبي، ولكن لأنها تتفق مع أول عمل قام به المجتمع الإسلامي؛ أي: مع تمكين شبكة العلاقات الاجتماعية¹. بالتالي لا يمكن تصور تغيير اجتماعي دون وجود شبكة علاقات اجتماعية، لأنها هي التي تجسد العمل الاجتماعي المشترك، وهي التي تنقل المجتمع من البداوة إلى الحضارة، وإن كان للدين دور كبير في هذا التحول أو التغيير.

تبين لنا فلسفة التغيير عند مالك بن نبي أنه إذا أراد المجتمع أن يبني حضارة لا بد عليه أن يبني أشخاصاً لا أن يكسّر أفراداً حيث نذكر: "الحضارة ليست كومة من الأشياء والأفكار، ولكنها بناء يعكس عبقرية البلد وشخصيته"². لذلك نجد أن مالك بن نبي لا يتوقف عند حدود سرد المعطيات التاريخية في ظهور الحضارات كما نجد عند أغلب المؤرخين وعلماء الاجتماع، وإنما يلجأ إلى التحليل النفسي لفهم

¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور، دار الفكر الجزائر، دمشق، ط3، 1986، ص28.

² مالك بن نبي، من أجل التغيير، المصدر السابق، ص58.

الجوانب الروحية والنفسية التي تساهم حسب رأيه بشكل فعال في بناء الحضارة، إذ نجده يؤكد في إحدى أقواله على أن الحضارة يجب: "أن تتحدد من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يُقدّم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه، فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلات والأمن في جميع صورته عبر سائر تراب القطر واحترام شخصية الفرد، تُمثل جميعها أشكالاً مختلفة للمساعدة التي يُريد ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه".¹ وإن كان ابن خلدون قد أسهم إسهاماً كبيراً في هذا المجال إلا أن ما يعنيه عليه مالك بن نبي هو أنه توقف عند إحدى منتجات الحضارة وهي الدولة، لكنه لم يسهم كثيراً في دراسة الحضارة ذاتها، وحتى ولو أن ماركس اهتم بدراسة عوامل قيام الحضارة، إلا أن مالك بن نبي يرى أنه اهتم فقط بالجوانب المادية وأهمل الجانب الروحي كعامل مؤثر في بناء الحضارة، لذلك نجد مالك بن نبي قد تعمق في مفهوم الحضارة ومراحلها التي يقول عنها: "نحن نعلم مسبقاً أن حضارة معينة تقع بين حدين اثنين: الميلاد والأفول، وإذن فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين في دورتها باعتبارها ليساً محل نزاع، فما الذي يمكننا أن نضع من طور انتقالي يتوسط هذين الخطين، إنه الأوج".² هكذا، فإن الحضارة كما يبين لنا مالك بن نبي تمر بهذه المراحل الثلاث ألا وهي الظهور والتطور ثم الانحطاط، وعلى الرغم من أن ما يحسب لمالك بن نبي إسهامه الكبير في ضبط مفهوم الحضارة وكذا توضيح أهم المراحل التي تمر بها، إلا أنه استفاد في ذلك كثيراً من ابن خلدون وكتابه "المقدمة" لأنه كان قد أشار إلى علاقة التشابه بين المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته ومراحل تطور الحضارة وذلك عندما قال:

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص 43.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 66.

"الحضارة غاية للبداءة، وأن العمران كله من بداءة وحضارة وملك، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبين في العقول والنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواها ونموها، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة على أثر النمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط، فلتعلم أن الحضارة في العمران كذلك لأنها غاية لا مزيد وراءها"¹.

3- دور الفكرة الدينية في إحداث التغيير الاجتماعي

يرى مالك بن نبي أن للفكرة الدينية تأثيرا كبيرا على النهوض الحقيقي بالمجتمع، فحتى ولو كانت شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة بين الأفراد هي التي تجسّد التغيير الحقيقي وبالتالي ميلاد المجتمع، إلا أن الفكرة الدينية هي العامل الأول والرئيس الذي ينتج عنه هذا الميلاد، لذلك نجد أن مالك بن نبي يتحدث في كل مؤلفاته عن دور الدين أو ما أسماه بـ "الفكرة الدينية" في إحداث التغيير الاجتماعي حيث يقول: "نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية، ومعنى هذا أن (الظرف الاستثنائي) الذي يلد مجتمعا يتفق في الواقع مع الفكرة الدينية التي تحمل مقاديره كما تحمل النطفة جميع عناصر الكائن الحي الذي سيخرج فيما بعد إلى الوجود"². كما أن العلاقات الاجتماعية التي تعبر عن خصوصية مجتمع معين ترجع في الأصل إلى الدين الذي يدينه ذلك المجتمع، أي إلى العلاقة التي تربط الإنسان بربه والتي تحدد كذلك طبيعة المعاملات خصوصا الأخلاقية بين الأفراد داخل المجتمع، لكن الفكرة الدينية تؤثر إيجابيا على العلاقات الاجتماعية إذا كانت قوية، أما إذا ضعفت فإن تأثيرها سيكون سلبيا³. إن العلاقة الروحية بين الإنسان وخالقه هي التي توجه العلاقة الاجتماعية بين الفرد وغيره من الأفراد الآخرين في المجتمع، ومنه فإن الفكرة

¹ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، ط7، مصر، 2014، ص. 817.

² مالك بن نبي بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، 1989 ص 56.

³ محمد بن سباع، الفكر العربي المعاصر من منطلق الاستحالة إلى أفق الإمكان، دار الأيام، ط1، الأردن، 2016، ص 62.

الدينية هي التي تجعل الأفراد يفكرون ويعملون على المساهمة في بناء الحضارة.

فالعلاقة بين الله والإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان (...). فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهم حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد¹. وهذا ما حدث عندما ظهرت الدعوة المحمدية إلى الدين الإسلامي. حيث كان المجتمع العربي آنذاك يعيش في تخلف وجاهلية كما كانت تطغى عليه النزعة الفردانية والسعي إلى التّعدي على الآخرين، لكن لما جاء الدين الإسلامي الذي دعا إلى عبادة الله وإلى ترك الأنانية والعمل على المشاركة مع الآخرين في كل ما يخدم المصلحة المشتركة بين الناس، ترتّب عن ذلك اتحاد المسلمين نتيجة التفاف المسلمين حول هذا الدين الذي وحّدهم، وبالتالي هذا ما أدّى إلى ميلاد الحضارة العربية الإسلامية.

يعطي مالك بن نبي الفكرة الدينية أهمية كبيرة في بناء الحضارة² حيث يقول: "إن الفرد ليس أساسه إلا "الإنسان الطبيعي" أو الفطري غير أن الفكرة الدينية سوف تتولى إخضاع غرائزه إلى "عملية شرطية" تمثل ما يصطلح عليه في علم النفس الفرويدي بـ «الكبت»، وهذه العملية الشرطية ليس من شأنها القضاء على الغرائز، ولكنها تتولى تنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية: فالحيوية الحيوانية التي تمثلها الغرائز بصورة محسوسة، لم تلغ ولكنها انضبطت بقواعد نظام معين³. وهنا تساهم الفكرة الدينية في إحداث التغيير من الإنسان الطبيعي إلى الإنسان المتحضر، أو من المجتمع المتخلف إلى المجتمع المتحضر.

يرى مالك بن نبي أن الحضارة تبدأ ببزوغ فكرة دينية تقوم بتركيب عناصر الحضارة وتنظم الطاقة الحيوية للأفراد، حيث يتحرر الفرد من هيمنة الغريزة ويخضع

¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، المصدر السابق، ص 56.

² محمد البصري العكرمي، المغرب العربي من عبد الرحمان بن خلدون إلى مالك بن نبي.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سوريا، 1986، ص 67.

للروح، وفي هذه المرحلة تصل شبكة العلاقات الاجتماعية إلى قمة كثافتها، حيث يرى أن هذه المرحلة تعبر عنها الدعوة المحمدية ومرحلة الخلافة الراشدة وتنتهي هذه المرحلة بمعركة صفين.

أما المرحلة الثانية فتتعطف فيها الحضارة بسبب المشكلات المادية الناتجة عن توسع المجتمع، فتكفّ الروح عن السيطرة على الغرائز ويبدأ عهد العقل ويعادل هذا المنعطف في الحضارة الإسلامية المرحلة الأموية والعباسية، وهنا عندما لا يقدر العقل على كبح الغرائز تدخل الحضارة مرحلة الانحطاط وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية وتنتهي بها دورة الحضارة.¹

II- أثر فكر مالك بن نبي في تهذيب سلوك الفرد وبناء المجتمع المتحضر

يرى بن نبي أن العناصر التي لا غنى عنها لكل حضارة هي: الإنسان والتراب والوقت.

يتحدث مالك بن نبي عن أهمية "التوجيه" في إعداد التغيير؛ أي: توجيه عناصر التغيير الاجتماعي الثلاث؛ فمفهوم التوجيه عند مالك بن نبي الذي يقول عنه: التوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد وفي الوقت، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية وبلغة الاجتماع: الذي يكتسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) ومعنى (الكفاح).²

إن ما أنتجه المجتمع الإسلامي من نشاط فكري كان نابعا من محتوى التغيير الأساسي في النفسية العربية حين نزول الوحي ومخاطبة الرسالة النبوية روح المؤمنين وكانت الشعوب التي بعدهم تحمل بذور التغيير كما في لحظة الرسالة نفسها، أي حتى تلك اللحظة المشحونة والقوية، إذ من طاقة تلك اللحظة فاضت الإمكانيات المتدفقة في مجرى الزمن وانطلقت نواة ذلك التركيب الهائل للعناصر التي لا غنى عنها في كل حضارة:

¹ محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، المصدر السابق، ص 25-26.

² محمد البصري العكري، المغرب العربي من عبد الرحمان بن خلدون إلى مالك بن نبي 118.

الإنسان والتراب والوقت.¹ إن الإنسان هو صاحب الفكرة ومبدعها، أما التراب فهو الشيء الذي يمتلكه الإنسان، في حين أن الوقت هو المدة التي يحتاجها الإنسان لتحويل فكرته إلى شيء: "فأنا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس عليّ أن أفكر في منتجاتها، وإنما في ثلاثة أشياء: في الإنسان والتراب والوقت، فحينما أحلّ هذه المشاكل الثلاث حلاً علمياً؛ بأن أبنّي الإنسان بناءً مكتملاً، وأعتني بالتراب والزمن، فإنني حينئذ قد كوّنت المجتمع الأفضل، كوّنت الحضارة التي هي الإطار الذي فيه تتم للفرد سعادته لأنه يقدم له الضمانات الاجتماعية الكافية."²

هكذا، يحصر مالك بن نبي عناصر التغيير الاجتماعي في ثلاثة عناصر محدّدة هي الإنسان والتراب والوقت، هي العناصر الأساسية التي أكد عليها في كل مؤلفاته والتي لا يمكن بناء الحضارة دون توفرها معاً، لذلك نجده يؤكد مرة أخرى على أنه: «يجب أولاً أن نضع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى»³. ولكي ندرك قيمة كل عنصر من هذه العناصر الثلاث ونفهم طبيعة الدور الذي تؤديه في بناء الحضارة كما تصوره مالك بن نبي، نعرض هذه العناصر على التوالي حسب الضرورة والأهمية التي حددها لها مالك بن نبي.

1- الإنسان:

هو العنصر الأول من عناصر الحضارة يؤثر في المجتمع بمؤثرات ثلاث أولاً بفكره أو ثقافته، وثانياً بعمله أو بالجهد الذي يقوم به خدمة للمجتمع وثالثاً بماله، وهذا دليل على الصلة الوثيقة بين الإنسان والحضارة وذلك: "لأن الإنسان هو الشرط الأساس لكل حضارة، وأن الحضارة تؤكد دائماً الشرط الإنساني"⁴. لقد تبين لمالك بن نبي أن هذه الجوانب الثلاث أي الثقافة والعمل والمال، لم تنل حظها من الاهتمام الكبير في المجتمع لذا وجب علينا أن نفعل علاقة الفرد بمجتمعه بأن نوجهه في هذه المجالات الثلاث وهي

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 78.

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 33.

² مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، المصدر السابق، ص 172.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 75.

توجيه الثقافة وتوجيه العمل وتوجيه رأس المال.

1- أ- **توجيه الثقافة:** لقد تبين المالك بن نبي أن الثقافة من أكبر المشكلات الاجتماعية، فالثقافة هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم وبالجمال الروحي الذي ينمو في وجوده النفسي، وأن الفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتاً ثقافياً¹. وإن مشكلة الثقافة في ارتباطها بالعالم العربي والإسلامي لها ميزة خاصة تتمثل في: "خلق واقع اجتماعي لم يوجد بعد"². فإذا كانت تعريفات الثقافة في الفكر الغربي ترجعها إما إلى عالم الأفكار وإما إلى عالم الأشياء، فإننا في العالم العربي في حاجة إلى ثقافة تخلق واقع اجتماعي جديد، لذلك تتجلى علاقة الثقافة بالحضارة في كونها: "تسمح للإنسان بأن يسيطر على ذاته وأن يسيطر على الأشياء التي أبدعتها عبقريته، أي بكلمة مختصرة أن يتحضر"³.

لقد فهم مالك بن نبي الثقافة على أنها علاقة تبادلية بين "عالم الأفكار" و"عالم الأشياء" أي بين الفرد والمجتمع، فكل من الفكرة والشئ يساهمان في ظهور الثقافة وتطورها، وهذا ما أسماه مالك بن نبي بـ "العلاقة المتبادلة" بين سلوك الفرد والمجتمع، ومنه يصل مالك بن نبي إلى التأكيد على أن الثقافة هي إذا ما رددنا الأمور إلى مستوى اجتماعي، هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعنا ميتاً⁴، فمشكلتنا اليوم ليست في فهم الثقافة أو الإجابة عن السؤال: ماهي الثقافة؟ وإنما في تجسيد الثقافة على المستوى العملي والاجتماعي.

1- ب- **توجيه العمل:** يكتسي هذا الجانب أهمية كبيرة عند مالك بن نبي، ذلك لأنه يرى أن العمل هو أهم شروط التغيير، إذا لا يمكننا أن نبني حضارة دون أن نعمل. إن توجيه العمل في مرحلة التكوين الاجتماعي يعني سير الجهود الجماعية في

¹ عبد الله بن محمد العويسي، مالك بن نبي، حياته وفكره، المصدر السابق، ص 324.

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ط 4، 2000، ص 37.

³ مالك بن نبي، من أجل التغيير دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ص 4، 2005، ص 55.

⁴ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المصدر السابق، ص 50.

اتجاه واحد. حيث يضع كل منهم في كل يوم لبنة جديدة في البناء¹. إنه ولكي نحقق النهضة يجب أن ننقل المجتمع من حالة العطالة والعبث إلى حالة العمل الموجه، إنه سير الجهود الاجتماعية في اتجاه واحد ويرى مالك بن نبي انه يجب أن يكون التوجيه المنهجي للعمل شرطاً عاماً أولاً ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة². ويفهم العمل هنا على أنه كل نشاط أنه إيجابي موجه نحو خدمة المصلحة العامة، أي أنه عندما يساهم كل شخص داخل المجتمع بأداء دور إيجابي فإنه يؤدي إلى تقدم المجتمع.

1-ج- توجيه رأس المال: يرى مالك أنه يجب علينا أن ننظر إلى رأس المال كآلة اجتماعية تحقق لنا التقدم المادي، حيث يقول: "إن رأس المال في جوهره هو المال المتحرك الذي يتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته ونموه في محيط أكبر من محيط الفرد، وأقصى من المقدار الذي تحدده حاجاته الخاصة"³. لذلك تتحدد قيمة وأهمية رأس المال في المجتمع الإسلامي بقدر مساهمته في تطوير هذا المجتمع، ولن تتأتى هذه المساهمة إلا إذا كان هناك توجيه لرأس المال حيث لا يرتبط هذا التوجيه تحديداً بالكم وإنما بالكيف، أي بمقدار النشاط والعمل والفائدة التي يخلقها رأس المال، أي أن المساهمة الحقيقية لرأس المال في تقدم المجتمع وتحضره لا تكون بالمقدار الكمي، وإنما بمدى مساهمته في تنشيط الفكر والحياة الاجتماعية.

2- التراب:

يعد التراب أحد أهم عناصر الحضارة ولا يتحدث مالك بن نبي عن التراب كتراب بالمعنى المادي، وإنما عن القيمة الاجتماعية للتراب، لذلك يقول: "حينما نتكلم عن التراب فنحن لا نبحث في خصائصه وطبيعته، ولكننا نتكلم عنه من ناحية قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكة"⁴. يربط مالك بن

⁵ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 107.

¹ محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، سوريا، 2007، ص 48.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 107.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 131.

نبي هنا بين تقدم الحضارة وبين قدرتها على استغلال التراب وحسن توظيفه، لأنه لاحظ أن الحضارة العربية الإسلامية في أوج تطورها كانت تولي هذا الجانب أهمية كبيرة، عكس ما نلاحظه اليوم حيث أصبحنا نهمل قيمة التراب وتحديد قيمته الاجتماعية والاقتصادية وهنا يقول مالك بن نبي: " فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرتها من الانحطاط"¹. فالتراب عند مالك بن نبي ليس مجرد فلاحة الأرض وزراعتها، بل هو مجال يساهم الإنسان من خلاله في بناء حضارته، خصوصا إذا استغل الوقت لتحقيق هذا الهدف.

3- الوقت:

"لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت"² يرى مالك بن نبي أن مشكلتنا الحقيقية في العالم الإسلامي هي مشكلة الوقت، لأننا لا نقدره ولا نستغله في البناء الحضاري للمجتمع، لأن الوقت إذ لم يستغل في التحصيل والعمل لن يكون له أي قيمة، لذا وجب علينا توجيه الوقت كأهم عناصر الحضارة، وهنا يقول عنه مالك بن نبي: "إن وقتنا الزاحف نحو التاريخ لا يجب أن يضيع هباء كما يهرب الماء من ساقية خربة، ولا شك أن التربية هي الوسيلة الضرورية التي تعلم الشعب العربي الإسلامي تماما قيمة هذا الأمر"³. فإذا أردنا أن نوظف عامل الزمن في بناء حضارتنا. وجب علينا الاستفادة منه علميا فنربط وقتا معينا بعمل معين يكون هذا العمل في خدمة المصلحة العامة للمجتمع، هكذا لا يمكن إحداث التغيير الاجتماعي إلا إذا توفرت هذه العناصر الثلاث مجتمعة: الإنسان، والتراب، والزمن، فكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة له أهميته الخاصة في بناء الحضارة، ولكن هذه الأهمية التي تميز كل عنصر لا تتأتى إلا من خلال علاقته بالعنصرين الآخرين. يعطينا مالك بن نبي مثالا يبين لنا من خلاله الأهمية التي تكتسبها هذه العناصر

¹ المصدر السابق، ص 139.

² نبيل طعمة، دعوة إلى الرشاد، من أفكار الفيلسوف مالك بن نبي ص 140.

³ مالك بن نبي، المصدر نفسه، ص 140.

مجتمعة فيقول: "إن المصباح الذي نستنير به، والأفكار التي وجهت أمر تجهيزه والادميون الذين قاموا بعملية إنجازه تمثل جميعاً منتجات اجتماعية لحضارة معينة (...). فالتراب يمثل ضماناً في صورة مواد أولية. أما الزمن فيندمج داخل سائر الأطرارد العلمي والفني الواقع بين اكتشاف الطاهرة الكهربائية حوالي نهاية القرن الثامن عشر وبين تطبيقه في ميدان الإنارة حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ذلك إن الزمن يمثل نفس الركيزة التي يقوم عليها هذا الأطرارد. وأما الإنسان فينخرط ضمن التدخل البشري (اليدوي والذهني) في هذا الأطرارد. وإذن فالمصباح باعتباره نتاجاً للحضارة يمثل في الواقع إنتاجاً للإنسان والتراب والزمن"¹.

خاتمة

- يصوغ مالك بن نبي مجموعة محاور للتأكيد على دور الإنسان في الزمان والمكان، تتعلق هذه المحاور بالبعد الأخلاقي والنفسي والاقتصادي والاجتماعي، يصوغها مالك بن نبي في سياقات مختلفة للبحث على البناء والتعمير.
- يلح مالك بن نبي على طرح فكرة الفعالية، باعتبارها الرابط الذي يجمع بين منطق الفكرة ومنطق العمل، من أجل القضاء على السلبية ومنها تحويل مبادئ القرآن إلى سلوكيات وكأن مالك بن نبي يرفع شعار: «نريد قرآناً يمشي لا نسخاً تتكدس وخطباً تتبجح».
- يحمل مفهوم التراب عند مالك بن نبي معاني ودلالات واسعة، فهو من وجهة سياسية قانونية تلك الرقعة الجغرافية التي تحدّها الحدود، وهو من الناحية الاقتصادية المصدر الرئيسي للإنتاج الزراعي والصناعي على حد سواء، وهو من الناحية المعنوية، الانتفاء والولاء للفكرة والدين.
- يأخذ الزمن عند مالك بن نبي أهمية كبيرة لأنه عامل مهم من عوامل بناء الحضارة، ويدعو مالك بن نبي ضمن أطر كبرى لاستثماره وتوظيفه في الصالح العام، بدل المصلحة الخاصة والبحث عن تحقيق الذات.
- يهدف مالك بن نبي في صياغة رؤيته إلى ضرورة الاهتمام بالإنسان وتفعيله فهو

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، المصدر السابق، ص 55.

الذي يعول عليه في الانتقال من أجواء التخلف والتبعية، إلى أجواء التطور والقيادة الحضارية.

• يمكن القول "إن مالك بن نبي يسعى للعودة بالحضارة الإسلامية إلى أوج قوتها عبر إحياءها مادياً وروحياً كما يؤكد على أن الحضارة لا تركز على عناصر بعينها، وإنما هي كل يجب أن يشارك فيه جميع الأفراد، فهي مفهوم شمولي يجب أن يتجسد في كل جوانب الحياة الذوق، الجمال، البيئة العمران، السلوك، العلاقات الاجتماعية، وغيرها.

• إن عمق فكر مالك بن نبي يتمثل في إخراج العالم الإسلامي مما يمرّ به من تخلف وانعزال إلى ركب التقدم والرقي بمشاركة إنسانية، وبإيجاد الوسائل العملية للانفتاح الاقتصادي والحضاري. فعبقرية الأمم بحضورها الحضاري الذي يتجلى بالتخلص من كل عوائق الحوار الحضاري لكل الأطراف ثم بتسليط الضوء على آفاق الحلول الاستشرافية في فكر مالك بن نبي؛ لإيجاد بواغث النهوض الحضاري، والانفتاح على العالمية والحوار الحضاري البناء بتبني منهج ونظرية بن نبي وتفعيل تجربته وتبني رؤاه المستقبلية لمد جسور التفاهم بين الحضارات.

• يؤكد مالك بن نبي على أهمية عامل الثقافة في تفعيل الحوار الحضاري الإنساني، لهذا أولى الثقافة أهمية بالغة في المشروع الحضاري، وأن الثقافة التي ينشدها الفكر الإسلامي لا بد أن تكون ثقافة إنسانية شاملة.

كما يؤكد مالك بن نبي على أن عامل الدين أهم عامل لتأليف عناصر الحضارة.

• دعا مالك بن نبي إلى وجوب التغيير الاجتماعي والسياسي والاقتصادي تماشياً من المتغيرات التي يشهدها العالم. وقد جعل مالك بن نبي من الحضارة إطاراً كلياً وتفسيرياً لكثير من القضايا التي تبحث في القانون العام دون أن ينسى القضايا الأخرى.

• يرى بن نبي أنه لبناء لبنة في حضارة جديدة، تهيئها نهضة إسلامية مرتبطة بالنسق الحضاري العالمي، لا بد من وضع خطط اقتصادية مستقبلية في توجيه ثلاثية رأس المال والوقت والجهد.

لا بدّ إذا من تبني فكر مالك بن نبي التربوي والدّيني والثقافي والحضاري لتربية

إنسان ما بعد الحضارة لتكون له قابلية للتجاوز والتواصل والانفتاح على الآخر وعلى القيم العالمية عموماً وتبني حلولاً للمشكلات الحضارية التي جاء بها بن نبي في مؤلفاته.

قائمة المصادر والمراجع

1. بوبكر جيلالي، مالك بن نبي البناء الحضاري دار المعرفة، الجزائر، د.ت.
2. جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي: ط8، 1989.
3. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج1، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار النهضة، ط7، مصر، 2014.
4. عبد الله بن محمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للإنتاج والنشر، بيروت، ط1، 2012.
5. لخضر حميدي، مشكلة التغيير عند مالك بن نبي، تحت مقدم لنيل رسالة ماجستير جامعة الجزائر 2004/2005.
6. مالك بن نبي بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، 1989.
7. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، تقديم محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر، دار الفكر دمشق، ط4، 2000.
8. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1986.
9. مالك بن نبي، مشكلات الحضارة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا، ط2، 2002.
10. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ط2000، 4.
11. مالك بن نبي، من أجل التغيير دار الفكر المعاصر، بيروت، سوريا ص4، 2005.
12. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط1986، 3.
13. محمد البصري العكرمي، المغرب العربي من عبد الرحمان بن خلدون إلى مالك بن نبي. د.ت.
14. محمد بن سباع، الفكر العربي المعاصر من منطلق الاستحالة إلى أفق الإمكان، دار الأيام، ط1، الأردن، 2016.
15. محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، سوريا، 2007.
16. مولاي الخليفة المشيشي، مالك بن نبي، دراسة استقراوية مقارنة، دار النايا، ط1، سوريا، 2012.
17. نبيل طعمة، دعوة إلى الرشاد، من أفكار الفيلسوف مالك بن نبي. د.ت.

دور الفكرة الدينية في تفعيل مشاريع التنمية في فكر ملك بن نبي

د. عمر محمودي

جامعة تيزي وزو (الجزائر)

omar.mahmoudi@gmail.com

مقدمة

إنَّ أهمَّ خطوة يمكن أن يقوم بها الدّارس لأيّ ظاهرة من الظّواهر، هي تلك المرحلة التي يقف فيها متأملاً، وفاحصاً من أجل تقديم عملية توصيف شاملة للموضوع الذي يبحث فيه، هذا بدوره يمهد له الطّريق نحو الكشف عن المبادئ العامة التي يسري وفقها ناموس الظّاهرة قيد الدّرس، وكلّ عمليات التّشخيص التي يمكن إجراؤها لابدّ وأن ترجع إلى تلك القوانين، كما أنّ كلّ فهمٍ يريد رسم حلول للمشكلات، وإيجاد ترياق للأوضاع المأزومة لابدّ وأن يبدي إنصاتا للقانون العام. ومن غير هذا، تبقى الجهود المبذولة على هامش التّاريخ، لا يمكن أن تقدّم معرفة بانية، ولا إسهاما في الفعل الحضاري، سرعان ما تفنيها الأزمنة، وتنساها حاجات الإنسان التي تريد دائماً إسعافات حقيقية، لا خطابات وعظية، ولا عبارات مخدّرة .

لقد سبق لعملاق الفكر الحضاري، مالك بن نبي، أن كشف عن إحدى المقولات الدينامية المحركة لطاقات الشعوب، مبيناً أنّ مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحلّ مشكلته ما لم يرتقي بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها. لقد كانت مقولة: (الفكرة الدّينية) كشفا عظيما في عالم أسرار تقدّم المجتمعات وانحطاطها، توضّح لنا دور عامل حاسم في تكوين وتطوير الواقع الاجتماعي. إنّ الفكرة الدّينية تساهم إلى حدّ بعيد في خلق الظّاهرة الاجتماعية، فهي

ذات وقع شديد في ضمير الفرد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه، فتستقرّ معانيها فيه، لتحوّله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة.

سنحاول في هذا المقال ومن خلال المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي أن نبين دور الفكرة الدينية، كما تحدّث عنها مالك بن نبي، في فهم حثيات الواقع الاجتماعي، وأهميّة تفعيل هذه المقولة في النماذج المقدّمة والمقترحة لتجاوز الوضع المأزوم، وتحويلها إلى مصنع لتوجيه طاقات الشعوب، تلك الطاقات التي عصفت بها -ولا تزال تعصف- عوامل داخلية وخارجية، كان هدفها دائماً بسط مظلات إمبريالية، وتغذية برامج سياسية إيديولوجية.

ومن هنا ارتأينا من خلال هذا البحث أن نجلّي مسألة إسهام المرجعية الدينيّة في رُفد الذات والمؤسّسات الاجتماعية بالموجّهات الأصيلة والنّاجعة، في تحقيق أهدافها واجتياز العقبات التي تقف أماما، مع العلم أنّ العودة إلى المعين الديني هي عودة أصيلة للذات التي تبحث عن دعائم كينونتها في معمعة الأزمات والكوارث التي تحدق بها، وتحاصرها من كلّ جانب.

تبرز أهمية البحث في كونه يمثل لبنة جديدة في مسار تجديد الخطاب الديني لمواكبة أحداث العصر وتطوّراته، وهذا من خلال الخروج عن منطق الطرح التقليدي، والعمل على طرحه كفكرة أو كمجموعة أفكار؛ حيث تسهل عملية فهمه واستساغته من طرف الأفراد، خاصة مع عملية التعقيد في الطرح التي يتعرض لها.

وبناء على هذا، فإنّ حديثنا في هذه الدّراسة عن دور الدّين في الإصلاح الاجتماعي لا ينصرف إلى سرد النّصوص الشرّعية التي تشهد لهذه الوظيفة، وإنّما نتّجه بالخطاب نحو النّظرة الشمولية الكلّية التي تنطلق من عمق نظرية المعرفة الإسلامية.

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة للدراسة، تناولنا البحث في مبحثين:

المبحث الأول: الأسس النّظرية لفهم الأبعاد الإصلاحية للفكرة الدينيّة.

المبحث الثاني: تفعيل الفكرة الدينيّة واستثمارها في مشاريع التنمية.

المبحث الأول

الأسس النظرية لفهم الأبعاد الإصلاحية للفكرة الدينية

المطلب الأول مفهوم الفكرة الدينية

لفظ الفكرة الدينية لفظ مركب وسنحاول في هذا المطلب تحديدي مفهومه من خلال تحديد مفهوم ألفاه المركبة له.

• الفرع الأول مفهوم الفكرة:

الفكرة في اللغة مشتق من مصدر فَكَّرَ، حيث إنّ الفاء والكاف والراء يدل على تردّد القلب في الشيء، يقال تفكّر إذا ردّد قلبه معتبراً¹. ويدل كذلك على إعمال الخاطر في الشيء². ويطلق كذلك التّفكّر ويراد به التأمل³ والفكر في المعاني وهي فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها⁴. وفي العموم فإن الفكرة هي نتاج إعمال القلب والخاطر في الأشياء تأملاً وملاحظة للوصول إلى حقيقتها.

• الفرع الثاني مفهوم الدين:

الدين والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها. وهو جنس من الانقياد والذلّ. فالدين: الطاعة، يقال دان له يدين ديناً، إذا أصحّب وانقاد وطاع. وقوم دين، أي مطيعون متقادون⁵. ولهذا يطلق على الشريعة ديناً لأن فيها معنى الطاعة الانقياد لله تعالى⁶، وبصفة عامة الدين هو وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى

¹ - ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج4، ص446.

² - ينظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج7، ص7.

³ - ينظر: الرازي، مختار الصحاح، ص448.

⁴ - ينظر: المناوي، والتعريفات، ص263.

⁵ - ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ج2، ص319.

⁶ - ينظر: الجرجاني، التعريفات، ص105.

قبول ما هو عند الرسول ﷺ¹.

• الفرع الثالث مفهوم الفكرة الدينية كلفظ مركب:

لم يضع مالك بن نبي تعريفا مفصلا عن الفكرة الدينية بالمفهوم المتعارف عليه في رسم الحدود والمفاهيم، ولكن من خلال تتبع أعماله نجد أن مفهومها كان عبارة عن ممارسة يقوم بها ويعبر عنها وهذه الممارسة يمكن أن نعبر عنها بأن: الفكرة الدينية هي عبارة عن ذلكم الفعل الذي ينبعث من رحم الشرائع السماوية (الدين) -بمختلف توجهاتها-، بحيث يؤدي إلى خلق نظام يقوم بتحريك الطاقات الكامنة في الفرد بحيث تحفزه على تفعيل العلاقة بين مقومات الحضارة الثلاثة: الوقت، الأرض والإنسان².

وإذا نظرنا إلى هذا التعريف نجد أننا جمعنا فيه بين التعريف الاصطلاحي والتعريف الوظيفي؛ ففي التعريف الاصطلاحي بينا أصل وحقيقة الفكرة الدينية، وفي التعريف الوظيفي بين الوظيفة المنوط بها هذه الفكرة الدينية.

المطلب الثاني تكيف الإشكال

تعتبر عملية تحقيق التنمية من أهم الأهداف التي تسعى كل أمة إلى تحقيقها أثناء مسيرتها في تفعيل مشروعات الحضاري³، ولا شك أن الفهم الجيد للوضع التي يمر

¹ - ينظر: المناوي، التوفيق على مهمات التعاريف، ص 169.

² - ينظر: ابن نبي، ميلاد مجتمع، ص 52 وما بعدها. ابن نبي، القضايا الكبرى، ص 57 وما بعدها. ابن نبي، شروط النهضة، ص 53 وما بعدها. يقول ابن نبي: (وجملة القول إن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة ما دامت هنالك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت، لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ "حضارة"). ابن نبي، شروط النهضة، ص 58.

³ - يقول ابن نبي في تقديم تصوره الاجمالي عن الحضارة (نرى في الحضارة جانبين: الجانب الذي يتضمن شروطها المعنوية، في صورة إرادة تحرك المجتمع نحو تحديد مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها، والجانب الذي يتضمن شروطها المادية، في صورة إمكان، أي أنه يضع تحت تصرف المجتمع الوسائل الضرورية للقيام بمهماته، أي بالوظيفة الحضارية. فالحضارة هي هذه الإرادة وهذا الإمكان. وبهذا نستطيع الآن التعبير عن الاقتصاد على أنه الصورة المحسنة، لهذه الإرادة ولهذا الإمكان، في ميدان خاص هو ميدان الاقتصاد). ابن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 61.

بها الفرد/المجتمع يتوقف، إلى حدّ كبير، على معرفة الأسباب التي تؤدي إلى تأسيس الفعل الحضاري الذي تنشده كلّ أمة.

وإنّه لمن حسن حظ الإنسان أن تكون النّواميس التي تسري وفقها عوامل النّهوض الحضاري (وكذلك أسباب الانهيار) جارية على نسق واحد في الاطّراد¹، وهي بذلك تشكّل دورات تتناوب عليها الأمم والحضارات، أو تتقلّب عليها الأمة الواحدة، على حسب استعدادات أفرادها ومدى أخذهم بشروط النّهوض والإقلاع الحضاري؛ ف (من الملاحظات الاجتماعية أنّ للتاريخ دورة وتسلسلاً، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة، وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها، ليسلمها إلى نومها العميق. فإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار، تحمّ علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا، وما يعتورنا من عوامل الانحطاط وما ننطوي عليه من أسباب التقدم. فإذا ما حدّدنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النّهضة أو السّقوط في حياتنا)².

ومن خلال هذا إذن، تكمن إحدى مهمّات المفكّر والمثقّف الخطيرة، تلك المهمّة التي تدعوه إلى رصد أسباب التفعيل الحضاري، وتقديم الحلول المناسبة من أجل دفع عجلة التنمية في المجتمع وإخراجه من الظلمات إلى النور.

المطلب الثاني المشروع الحضاري النّمودج الأمثل لتفعيل المشروع التنموي

إن عملية تفعيل أي مشروع تنموي لا بد له من أرضية حاضنة تمهد له وتسعى في إنجاحه، ويمكن لنا أن نلاحظ هذه الأرضية في فكر مالك بن نبي في المقومات التي رصدها لتحقيق المشروع الحضاري؛ حيث قام باختزلها في ثلاثة أشياء ألا وهي:

¹ - يقول الله تعالى عن ثبات هذا الاطراد وتكرره ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (سورة الأحزاب: 62).

² - ابن نبي، شروط النهضة، ص 47.

الانسان والتراب والوقت¹، فمن المستحيل أن ينجح أي مشروع تنموي في إذا لم يؤخذ في الاعتبار هذه المقومات². ومن هذه الخلفية يحدّد مالك بن نبي الوجهة الصحيحة في التعامل مع أي مشروع تنموي من خلال حل المشاكل المتعلقة بهذه المقومات، يقول بن نبي (المعادلة العامة التي وصلنا إليها تدلّ على أنّ مشكلة الحضارة لا تُحلّ باستيراد منتجات حضارية موجودة - مع الاحتفاظ بالصواب بين الإفراط والتّفريط كما بينا- ولكنها تستوجب حلّ ثلاث مشكلات جزئية:

- 1 - مشكلة الإنسان وتحديد الشّروط لانسجامه مع سير التّاريخ.
- 2 - مشكلة التّراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية.
- 3 - مشكلة الوقت وبثّ معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد³.

وبهذا انصرفت جهود مالك بن نبي في تقديم تصوّره الرّائع حول فلسفة الحضارة، وتقديم المسالك الدّقيقة في توجيه طاقات الإنسان، ووضع سياسة صحيحة في استثمار ثروات البلاد، علاوة على برمجة الخطوات الإجرائية للمشروع الحضاري في فضاء يستعيد محور الزّمن استعادة شعورية تمنح الطّواهر دورتها

¹ - ينظر: ابن نبي، القضايا الكبرى، ص 54 وما بعدها. ابن نبي، شروط النهضة، ص 61 وما بعدها.

² - ومن بين التجارب التي فشلت في تفعيل مشاريع التنمية الاقتصادية بسبب عدم أخذها بعين الاعتبار هذه المقومات تجربة شاخت في إندونيسيا، يقول ابن نبي (بيننا نرى تجربة مثل التي أجريت في إندونيسيا قد تضمنت كل شروط النجاح، سواء من ناحية الإمكانات المادية = في أغنى بلاد الله من حيث الثروة الطبيعية والبشرية، أو من الناحية الفنية لأن واضع خططها الدكتور (شاخت)، الرجل الذي نهض باقتصاد ألمانيا قبيل الحرب العالمية الثانية من نقطة الصفر تقريباً، ومع ذلك نراها فشلت فشلاً ذريعاً). ابن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 9. فرغم جدارة شاخت كعالم اقتصاد وذو رؤية استشرافية فذة كانت سببا في نهضة ألمانيا، إلّا أن إهمال اعتبار عامل الإنسان كمؤثر في الفعل الحضاري كان سببا أساسيا في فشل مخططة التنموي يقول ابن نبي (مشروع الدكتور (شاخت) في إندونيسيا أخفق، لأن هذا الاختصاصي أغفل جانباً هاماً في العملية الاقتصادية، وعاملاً أساسياً فيها، ألا وهو الإنسان، فقد خطط مشروعه المذكور في ضوء معلوماته عن الإنسان الألماني، الذي يحمل في معادلته الشخصية معطيات تجربة اجتماعية سابقة، بينما لا يجد إنسان إندونيسيا في طوره الحاضر هذه المعطيات في معادلته الشخصية). ابن نبي، تأملات، ص 58.

³ - ابن نبي، تأملات، ص 201.

بالكامل حتى تنضج ولا تتعرض للإجهاض.

المطلب الثالث: إحدائيات الفكرة الدينية في تحقيق المشروع الحضاري/مشروع التنمية

بعدما يؤكد مالك بن نبي على ضرورة القاعدة التمهيدية في احتضان أي مشروع حضاري تنموي، يقوم بعملية تفكيك وتحليل لها، مبيّنا العوامل الحاسمة التي تقوم عليها الحضارات، لكن عمل مالك بن نبي لم يتوقّف عند حدود التحليل والتفكيك، بل تجاوز ذلك إلى التركيب المفسّر لكيفية حدوث التفاعل بين عناصر الحضارة، وبيان ذلك أن الرغبة والقدرة على إنشاء مشروع حضاري (ناتجتان ليس عن تكديس¹ منتجات الحضارة، ولكن عن تركيب أصيل لعناصر: التراب، والإنسان، والزمن)²، وهذا التركيب هو ما يحقق لنا الحضارة في صورة المشاريع التنموية.

ولكن هذا التركيب لا يتم تلقائياً حيثما توفرت هذه العناصر، لأنّه قد تجتمع هذه العناصر من غير أن تقوم حضارة، لذلك لابدّ من وجود عامل حاسم، يكون له دور المفعّل الذي يعمل على تنشيط الشروط الحضارية، وتوجيهها نحو التجسّد الفعلي، وهذا العامل هو ما يطلق عليه مالك بن نبي اصطلاح مرّكب الحضارة أي العامل الذي يؤثّر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض ولقد جسده في صورة الفكرة الدينية، يقول ابن نبي (إن هناك ما يطلق عليه (مرّكب الحضارة) أي العامل الذي يؤثّر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي الآتي مفصلاً، نجد أن هذا (المرّكب) موجود فعلاً، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائماً تركيب الحضارة خلال التاريخ)³، فلا تخلوا حضارة من الحضارات من فكرة دينية

¹ - إن عملية التكديس من أكثر الأشياء التي انتقدها ابن نبي في أعماله، حيث اعتبره من بين المعوقات التي تحول دون تفعيل المشروع، فليس علينا أن نتوقف على المنتج التي خلقتها الحضارة بل يجب أن نتجاوزها إلى الفعل الذي أسس تلك الحضارة التي أنتجته. ينظر: ابن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص 84. ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 69. ابن نبي، تأملات، ص 121. ابن نبي، شروط النهضة، ص 40 وما بعدها.

² - ابن نبي، القضايا الكبرى، ص 67.

³ - ينظر: ابن نبي، شروط النهضة، ص 45، 46.

رافقت دائماً تركيبها، وكانت الباحث على تفعيل العلاقة بين مقوماتها، ووجّهت ديناميكية الواقع الاجتماعي فيها¹، بل حتى الحضارات التي تدعي اللادينية أو تطغى عليها المادية الروحانيات المبتدعة، فإن أساسها في الحقيقة فكرة دينية².

المطلب الرابع الكفايات المنهجية للفكرة الدينية

ليست الفكرة الدينية مجرد سمة عارضة في فهم الظواهر النفسية والاجتماعية بل هي مقولة اكتشفها مالك بن نبي بفلسفته النقدية لتكون الأساس الذي لا يمكن أن يستغني عنه أيّ تفكير في عالم الحضارات، من حيث فهم أسسها، ومشكلاتها، وعوامل قيامها وانحطاطها، وهي بذلك تتمتع بكفايات منهجية في استنتاج الظواهر قيد الدرس، وفهمها فهماً عميقاً، ومن أهم السمات المنهجية التي تحملها الفكرة الدينية في رحمها نذكر:

• الفرع الأول المرجعية:

إذ تمثل الفكرة الدينية المصدر المتعالي الذي تُقتبس منه المبادئ والموجهات الحضارية التي يستحيل -من دونها- أن تخطو أمة من الأمم خطواتها الصحيحة والسليمة نحو الرقي؛ ف(الحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها (...)) فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعةً ومنهاجاً، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، وكأننا قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث

¹ - وعندما نذكر ديناميكية المجتمع فإننا نقصد به في المقام الأول الخلية الأساسية في تكونه ألا هو الفرد؛ لأن كل ما يؤثر على الفرد يؤثر على المجتمع، يقول ابن نبي (وهكذا نرى أن كل ما يغير النفس، يغير المجتمع، ومن المعلوم أن أعظم التغيرات وأعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية). ابن نبي، ميلاد مجتمع، ص 78. ويقول كذلك (الحضارة تولد مرتين، أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية: فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ). ابن نبي، شروط النهضة، ص 55.

² - ينظر: ابن نبي، القضايا الكبرى، ص 60، 61. ابن نبي، تأملات ص 185. ابن نبي، شروط النهضة ص 53.

يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيداً عن حقيقته¹. هذ، وتلعب المرجعية الدّينية دوراً مهماً في رقد الذّات والمؤسّسات الاجتماعية بالموجّهات الأصيلة والنّاجعة، في تحقيق أهدافها واجتياز العقبات، مع العلم أنّ العودة إلى المعين الدّيني هي عودة أصيلة للذّات التي تبحث عن دعائم كينونتها في معمعة الأزمات والكوارث التي تحدق بها، وتحاصرها من كلّ جانب.

• الفرع الثاني تحرير الفاعلية الذّاتية:

على التّقيض ممّا تفعله المشاريع الإصلاحية المقلّدة التي لا تملك نظريات واضحة الوسائل والأهداف، وإنّما تعمل على استهلاك الأفكار المستوردة من المجتمعات الغربية العلمانية²، لتحوّل -بذلك- الفرد المسلم إلى زبون مقلّد -دون أصالة- لحضارة غربية تفتح أبواب متاجرّها أكثر من أن تفتح أبواب مدارسها، في مقابل ذلك، تؤدّي الفكرة الدّينية دورها الاجتماعي بتحرير القدرات الإبداعية للفرد المسلم، وتخليصها ممّا يعرقل مسيرة البناء والعطاء الإيجابي، وهي في ذلك تقوم بإخضاع غرائزه وأهوائه لعملية تكيف تتمثل بـ (الكبح) بمفهومه في علم النفس، فهي لا تقضي على الغرائز ولكنها تلجمها وتُخضعها، (في هذه الحالة يتحرّر الفرد جزئياً من قانون الطّبيعة المفطور في ذاته، ويخضع وجوده كله للمقتضيات الرّوحية التي أوجدها الفكرة الدّينية في نفسه، إيجاداً يمارس معه حياته في هذه الحالة

¹ - ابن نبي، شروط النهضة، ص 50، 51. وفي هذا الصدد يقول ابن نبي: (وإذا عرف أبنّاؤنا كيف يتسلحون بالفكرة القرآنية فإنهم سيحملون في النهاية أشرف مهمة). ابن نبي، العالم الإسلامي (المسألة اليهودية)، ص 38.

² - يقول ابن نبي (إن مخططاً ما يجب ألا تكون له هوامش لعب، بعضها من ألعاب الرأسمالية، وبعضها الآخر من ألعاب الماركسية، فأى مشروع نفكر فيه بأفكار الآخرين، ونحاول إنجازها بوسائل غيرهم معرض للفشل لا محالة. والموضوع هنا في منتهى الوضوح بالنسبة لتحديد الهدف: إن هدفنا خلق شروط الإقلاع وهذه هي مشكلة التنمية في جوهرها، ثم علينا أن نحدد بأية وسيلة سنبلغ ذلك الهدف، إذ ليس من مصلحتنا أن نستثمر بأي شيء: فليس من المقبول أن نستثمر ما نرغب فيه ونريده حتى بالوسائل التي هي في يد الغير، بل علينا أن نستثمر ما نستطيع بالوسائل الموجودة فعلاً في أيدينا). ابن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص 172.

الجديدة طبقاً لقانون الروح)¹.

ومن هنا تظهر الصّلة الوطيدة بين الاستثمار في الفرد والعناية به، والبناء الحضاري؛ إذ يعدّ (كلّ تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة)².

• الفرع الثالث سلطة التغيير:

من أهمّ الخصائص الدينامية التي تنطوي عليها الفكرة الدينية قدرتها على زحزحة وتحويل الأفراد والمجتمعات من حالة الرّكود والتّخلف إلى حالة النّشاط والرّقي. وقد ربط مالك بن نبي بين قوة الفكرة الدينية في تثوير طاقات الأفراد والمجتمعات، وبين معالجة مشكلاته وأزماته الحضارية؛ فالقيام بثورة في الاتّجاه الإسلامي معناه تطبيق (فنية ثورية) مستوحاة من القرآن، فكّل تغيير غريزي يفترض، تبعاً للقرآن، تغييراً في حال النّفس يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³ -سورة الرعد: جزء من الآية 11-، وإذا كانت هذه الفّنية صادقة في المشكلة الاجتماعية كلها، فإنّ التخطيطات التي تنبني عليها يجب أن تحسن طرح الأسئلة الحقيقية الموصلة إلى الهدف:

1. ماذا يجب تغييره في النّفس المسلمة لكي نبرئ (مرض العالم الإسلامي)؟

2. ما الوسائل والمناهج إلى هذا التّغيير؟

¹ - ابن نبي، ميلاد مجتمع، ص 109.

² - ابن نبي، مشكلة الثقافة، ص 100.

³ - فإرادة التّغير معلقة بالنّفس، لذلك كان حدوث التّغيير لا يكون إلا بعد حدوثه في النّفس، يقول الشعراوي في تفسير هذه الآية (يُوضّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئة من نَبْعِ نفس تُحرّك الجوارح؛ وحين تصلح النّفس؛ تصبح الجوارح مستقيمة؛ وحين تفسد النّفس تصير الجوارح غير مستقيمة). الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج12، ص7243. وهذا ما جعل ابن نبي يربط بين الفكرة الدينية التي تنتج قيماً نفسية مؤثرة في شخصية الفرد وتطور الحضارة يقول ابن نبي (وإذن فكل القيم النفسية الزمنية التي تميز مستوى حضارة ما في وقت معين، ليست إلا الترجمة التاريخية لهذه العلاقة العضوية بين فكرة معينة كالإسلام مثلاً، والفرد الذي يمثل بالنسبة إليها السند المحسوس. وهو هنا المسلم). ابن نبي، شروط النهضة، ص67.

3. وما الهدف - أو السبب النهائي - الذي يهدف إليه تغيير كهذا؟¹.

وهذا التغيير التي تحدّثه الفكرة الدّينية يدلّ على أنّها ليست مقولة من مقولات التّرف الفكري، فهي لا تقتصر من حيث كفايتها في التغيير على البنية العميقة للظواهر النّفسية الاجتماعية، بل تطال كذلك البنية السطحية التي تعكس صورة الفرد والأمة، فهي بذلك تؤدّي وظيفة جمالية سامية يقول مالك بن نبي: (إن الفكرة الدّينية تحدّث تغييرها حتى في سمّت الفرد ومظاهره، حين تغير من نفسه، وبذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد، أي أن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة، كأنها تتمثل في وجه جديد)².

إن هذا التغيير التي تحدّثه الفكرة الدّينية في نفسية الفرد يكون لنا ما نسميه بالفرد الفعّال الذي له القدرة والإمكانية على إحداث التأثير، بهذا نكون قد انتقلنا من حالة السكون الذي يرادفه الرّكود والتّخلف إلى حالة التأثير الذي يرادفه النّشاط والرّقي.

• الفرع الرابع الفحص والنّقد:

اهتمّ مالك بن نبي بمبدأ النّقد اهتماما بالغا، حيث علّق عليه أسباب النّجاح في التّخطيط، والتوفيق في الوقوف على أسباب الأزمات، لذلك يلحّ على أن يكون هذا المبدأ مرافقا لمهّمات المفكّر؛ ف (النخبة عندما تفقد موهبة النقد الذاتي على وجه الخصوص، فهي على هذا كأنها اقتنعت بتسجيل الفشل ولكن دون أن تسعى في تفهّم أسبابه)³.

وبناء على ذلك يصبح النّقد واجبا فكريا يقتضيه السير الراشد نحو تحقيق الفعل الحضاري، (وليس هذا "الواجب" بالشيء البسيط، فهو يتضمن معنيين، أحدهما

¹ - ينظر: بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ص 253، 254.

² - ابن نبي، ميلاد مجتمع، ص 74.

³ - ابن نبي، في مهب معركة، ص 114.

يتصل بالجانب الأخلاقي عندما يؤدّي النقد وظيفة "الشهادة" للحكم القائم بأنه أصاب، ويتصل الثاني بالجانب الفني في صورة "حكم" على أعمال الذين بيدهم مقاليد السياسة. وهكذا ترتبط فعالية النقد بشرطين: الإخلاص للشهادة، والكفاءة للحكم¹.

وإذا اختلّ هذان الشرطان أو تخلفا عن الإسهام في عمليات التّقويم والنّظر، فإنّ "النّقد" لا يقوم بدوره فهو لن يقوم اعوجاجا، ولن يصلح فساداً، لأنّه أعرج لا يمشي على رجلين، فلا يأتي بما يقوم الأشياء، ولا بما يكمل ويوسّع معانيها، ولا بما يهدي الأعمال إلى طريق الرّشاد².

إنّ الفكرة الدّينية تعمل على تفعيل هذا المبدأ العقلاني الذي يقوم بفحص كلّ المعارف والمشاريع المقدّمة على أنّها صالحة لتفعيل مشاريع التنمية، واختبار مدى صلاحيتها على المدى البعيد، وبصورة أخصّ فهي تنشئ جهاز مراقبة حساس تكون وظيفته الأساسية معرفة الخطأ من الصواب في المشاريع التخطيطية المعدّة

¹ - ابن نبي، في مهب معركة، ص 141. وهذا وما جعل ابن نبي يؤكد على أن ما يحافظ على تماسك المجتمعات المتحضرة هو عملية النقد سواء كانت النقد الذاتي أو النقد المجتمعي يقول ابن نبي (ففي المجتمع المتحضر يقع كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، ويقع كل خطأ في السلوك تحت إرغام المجتمع. وبواسطة هذه الوظيفة الثنائية الجانب يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه، وعلى الصفات المميزة لفعاليته). ابن نبي، القضايا الكبرى، ص 84.

² - ابن نبي، في مهب المعركة، ص 114. هذا ولقد تأسف بن نبي على الحال الذي آل إليه الفكر الإسلامي خاصة في القرن الأخير؛ بحيث تخلّى عن مهمته في الفحص والنقد واكتفى بدور المتلقي فقط (والواقع أن المجتمع الإسلامي منذ نصف قرن لم يقدر هذه الشروط حق قدرها، فقيس من (أشياء) الغرب دون أدنى مقياس أو نقد، يحمّله على ذلك أحياناً نوع من الإكراه، وغالباً كثير من الفج و فراغ العقل. وكل ما يسوده من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة إنما هو نتيجة ذلك الخليط من الأفكار الميتة... تلکم هي الأفكار الخطيرة حتى على الحضارة التي خلقتها، والتي تتردد كثيراً في جوانب النهضة الإسلامية، وهكذا تتراكم في مجتمع انطمرب بقايا انحطاطه، بقايا تحليل جديد. ونخيل إلينا أن أحداً لم يفكر حتى الآن في نقد ما قبسه مجتمعا في نصف قرن. ومع ذلك فإن تصفية الأفكار الميتة، وتنقية الأفكار الميتة يعدان الأساس الأول لأية نهضة حققة). ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 81، 82، 83.

لحلّ الأزمات. وقد ذهب مالك بن نبي إلى أنّه من الضروري في فترة الأزمات أن ينشأ علم اجتماع خاصّ بالمرحلة المأزومة، ليكون بين أيدي من يشرف على أجهزة الدولة أداة رقابة لا ينفصل عن جهاز التخطيط¹.

هذا مع الإشارة إلى أن هذه العملية لا يجب أن تتطور وتصل مرحلة الرفض، بمعنى رفض كل ما يطرحه الطرف الآخر المخالف، فهنا نكون قد خرجنا من عملية النقد إلى عملية الاقصاء، وهذه العملية لا ينتج عنها إلا تجميد العقل النقدي².

المبحث الثاني

تفعيل الفكرة الدينية واستثمارها في تحقيق التنمية

لعلّ أهمّ مرحلة في اختبار القوّة النظريّة للمفاهيم وصلابة الطّروحات، تلك الإجراءات التّطبيقية التي تحاول تفعيل الجانب النظري الذي تحمله المشاريع الإصلاحية، وستبقى قيمة هذه النماذج المقترحة رهينة كفاياتها المنهجية المجسّد على أرضية الأحداث، فالإصلاحات يجب أن تكون دائما حاضرة في الواقع بتفاصيله وتناقضاته وإحراجاته.

والفكرة الدّينية عندما تنزل إلى واقع النّاس تعمل على تحريك طاقاتهم وترتيبهم وتنظيمهم وتخصيهم؛ فهي (تدعو إلى الثّورة على العقم الاجتماعي وعلى أحلام اليقظة، وإلى أن يقترن منطق العمل والحركة في المجتمع الإسلامي بمنطق الفكرة، فيصبح الإنسان الجديد يفكر ليعمل، ويقول كلاما منطقيا من شأنه أن يتحوّل في الحال إلى عمل ونشاط)³.

ولقد اخترنا لبيان أهمية الفكرة الدينية لتحقيق التنمية موضوع الاقتصاد؛ بمعنى

¹ - ابن نبي، بين الرشاد والتهيه، ص 41.

² - نفس المصدر، ص 41. وما بعدها.

³ - عبد اللطيف، فقه التّغيير، ص 175.

كيفية مساهمة الفكرة الدينية في تفعيل التنمية الاقتصادية، وذلك اعتماداً على المعادلة العامة التي وضعها مالك ابن نبي للحق والواجب؛ حيث جعل الانسان¹ هو محور هذه المعادلة، ونسبة التنمية الاقتصادية في هذه المعادلة تتحدد من خلال تركيز الانسان على أحد المفهومين (الحق/الواجب). يقول بن نبي (...فحسب تركيزه على مفهوم (الواجب) أو على مفهوم (الحق)، تكون معادلته الاقتصادية إيجابية بفائض الإنتاج على الاستهلاك، أو متعادلة إذا استوى الطرفان. أو سلبية إذا كان الاستهلاك أرجح في الميزانية. ففي الحالة الأولى يستطيع المجتمع استثمار فائض إنتاجه في العمليات والميزانيات المقبلة فهو مجتمع نام. وفي الحالة الثانية فإن كفتي ميزانه متعادلتان فلا ترجح واحدة على الأخرى، فهو لا يصعد ولا يهبط، فهو مجتمع راكد. أما في الحالة الثالثة فكفة استهلاكه أرجح لا يصعد ولا يستقر، فهو مجتمع ينهار².

وما سنقوم به في هذا المبحث هو التركيز على كل حالة من هذه الحالات التي ذكرها مالك بن نبي مع بيان الفكرة الدينية التي ساهمت في النمو الاقتصادي فيها، كما في الحالة الأولى، أو الفكرة الدينية التي ستساهم في إنعاش الاقتصاد وتنميته، كما في الحالة الثانية والثالثة.

المطلب الأول حالة الازدهار الاقتصادي

سنتحدث في هذا المطلب عن أهمية استحضار الفكرة الدينية في تحقيق التنمية الاقتصادية وذلك من خلال كون الواجب الذي يبذله الإنسان أكبر من الحق الذي يطالبه، وسنضرب مثالا عن كيفية تجسيد هذه الصورة.

¹ - يقول ابن نبي عن أهمية الإنسان (إذا فكرنا، على سبيل المثال، فيما يسمى (تغطية) المشروع ندرك مباشرة عن طريق الأرقام أن القيمة الأولى في نجاح أي مشروع اقتصادي هي الإنسان. ويمكن القول بقدر ما استفدنا من تجارب العالم الثالث في العقود الأخيرة، إن إهمال أو تجاهل قضية الإنسان هي من الأمور التي أفقدت هذه التجارب الشرط الأساسي لنجاحها). ابن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 58.

² - ينظر: بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 88.

• الفرع الأول صورة المسألة:

صورة المسألة كما رسمها بن نبي في أن الإنسان الذي يُقَدَّم الواجب الذي عليه على الحق الذي يطالب به؛ بحيث يصبح ما يبذله الإنسان أكبر من الحق الذي يطالبه، يحقق ازدهار اقتصادي؛ وبيان ذلك أن الواجب المبذول بزيادة يتحول إلى فائض إنتاج، وهذا الفائض يمكن استثماره في العمليات والميزانيات المقبلة لتحقيق التنمية، ونكون هنا قد حققنا أول خطوة في تحقيق الازدهار الاقتصادي.

• الفرع الثاني تجسيد صورة المسألة:

من الأفكار الدينية التي قامت على تجسيد هذه الصورة نجد فكرة الإعداد كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾¹ - سورة الأنفال، جزء من الآية 60-.

حيث صالح النبي ﷺ يهود خيبر على نصف ثمرها بعدما أن نصره الله عليهم²، فعوض أن يجبرهم النبي ﷺ على الخروج من ديارهم، وتقسيم أراضيهم وممتلكاتهم على المسلمين، وهذا كان حقاً للنبي ﷺ ولجميع المسلمين، فضل ﷺ أن يؤخر هذا الحق ويقدم عليه الواجب المبذول، من أجل تحقيق مصلحة كبرى ألا وهي الإعداد

¹ - يقول محمد رشيد في تفسير هذه الآية (أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب التي علموا أن لا مندوحة عنها لدفع العدوان والشر، ولحفظ الأنفس ورعايته الحق والعدل والفضيلة بأمرين: أحدهما: إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة = وثانيهما: مرابطة فرسانهم في ثغور بلادهم وحدودها، وهي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد، والمراد أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة، قاومه الفرسان، لسرعة حركتهم، وقدرتهم على الجمع بين القتال، وإيصال أخباره من ثغور البلاد إلى عاصمتها وسائر أرجائها، ولذلك عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها). محمد رشيد، تفسير المنار، ج10، ص53.

² - يقول الحضرمي (وعامل النبي ﷺ يهود خيبر على أن يعملوها، ويكفوا المسلمين مئنتها ما داموا مشغولين بالجهاد، ولهم نصف ما يخرج منها من الثمار). الحضرمي، حقائق الأنوار، ص339.

للدولة والتمكين لها؛ وذلك أن ثمر خير كان من أجود الشار، واليهود الملاك الاصيلون لها كانوا من أعرف الناس بها وكيفية استغلالها وتحصيلها، وزد على ذلك أنهم صالحوا على النصف، هذا دافع آخر ليقوموا بزيادة الانتاج، حتى لا يقع نقص في مواردهم عندما يتقاسمونها مع النبي ﷺ، وبهذا يتحقق لدينا فائض إنتاج يستطيع أن يستغله النبي ﷺ في إنعاش اقتصاد المدينة المنورة وتحقيق ازدهار اقتصادي. هذا، ولقد كان النبي ﷺ في أمس الحاجة إلى تحقيق هذا الازدهار لأنه يمكن له من تمويل حملاته العسكرية وخاصة أنه كان يحضر لفتح مكة¹.

المطلب الثاني حالة الركود الاقتصادي

سنتحدث في هذا المطلب عن كيفية مساهمة الفكرة الدينية في تحقيق التنمية الاقتصادية، وذلك من خلال نقل الاقتصاد من حالة الركود إلى حالة الانتعاش، وسنضرب مثالا عن كيفية تجسيد هذه الصورة.

• الفرع الأول صورة المسألة:

وبيان صورة المسألة كما أشار إليها مالك بن نبي أن الحق الذي يطالب به الإنسان مساو للواجب الذي يبذله؛ بمعنى استواء في مزان الانتاج والاستهلاك، فإذا عمت هذه الظاهرة وشاعت بين الناس ولاقت رواجاً بينهم دخل (الاقتصاد/المجتمع) في حالة ركود، ومن أجل الخروج من هذه المرحلة لابد من مفعول يولد لنا حالة انتعاش وهنا يأتي دور الفكرة الدينية.

• الفرع الثاني تجسيد صورة المسألة:

من الأفكار الدينية التي استثمرها النبي ﷺ لعلاج هذه الظاهرة نجد فكرة

¹ - كان فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ولقد شدد رسول الله ﷺ أن يتم هذا بسري تامة بقول ابن حبان (ثم عزم رسول الله ﷺ على المسير إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ. وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش). ابن حبان، السيرة النبوية، ج 1، ص 324.

الاسترزاق؛ وهذا من خلال الحث على السعي في طلب الرزق الحلال، ففي الحديث عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال ﷺ: (أما في بيتك شيء؟). قال: بلى، جلس¹: تَلْبَسُ بَعْضُهُ وَتَبْسُطُ بَعْضُهُ، وَقَعْبٌ² نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. قال ﷺ: (إِئْتَنِي بِهِمَا)، قال: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: (مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟)، قال رجل: أنا آخِذُهُمَا بِدَرَاهِمٍ. قال ﷺ: (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دَرَاهِمٍ؟) مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: "أنا آخِذُهُمَا بِدَرَاهِمِينَ". فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدَّرَاهِمِينَ، فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ. وقال ﷺ: (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَاماً، فَاذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا³ فَأَتَنِي). فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَوْدًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: (اذهب فاحتطب وبيع، ولا أَرِيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً). فذهب الرجلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ، وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْباً، وَبِبَعْضِهَا طَعَاماً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (هذا خيرٌ لك من أن تحميء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقرٍ مُدَقِّعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُنْفِطِعٍ، أو لذي دَمٍ مُوجِعٍ)⁴.

فمن خلال الحديث فإن هذا السائل استوى فيه طرفي (الحق/الاستهلاك) و(الواجب/الانتاج)؛ فمن جهة (الحق/الاستهلاك) فهو رجل فقير تجوز فيه الصدقة والزكاة، ولكن فقره لم يبلغ درجة الإدقاع (الفقر المدقع)⁵ المانع لحصول (الواجب/الانتاج) فيه وهذا بدليل الحديث؛ لأن النبي ﷺ بينه له في الأخير

¹ - الحِلْس: هو ما يكسو به الإنسان ظهره من رداء، ويقال كذلك للحلْس للكساء الذي يجعل تحت البرذعة يُقَالُ أحلست البعير من الحِلْس. ينظر: الخطابي، غريب الحديث، ج 1، ص 508.

² - القَعْب: هو القدر. ينظر: الخطابي، غريب الحديث، ج 2، ص 352، 427.

³ - القُدُوم: هي آلة لقطع الأشجار ونحتها. ينظر: أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج 3، ص 1786.

⁴ - أبي داود، سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة، حديث رقم: 1641، ج 3، ص 81.

⁵ - الفقر المدقع: هو الفقر الشديد المُقْضِي بالإنسان إلى الدَّفْعَاء وهو التُّرَاب. ينظر: الخطابي، غريب الحديث، ج 1، ص 143.

الأصناف الذين يجوز لهم سؤال الصدقة ومنهم (فقر مدقع) فلو كان منهم ما بين له ذلك.

ويمكن القول أن هذا الصحابي كان من قبل يقوم (بواجبه/انتاجه) بقدر ما يسد رمقه أو ما يلبي (حقه/استهلاكه). لذا، نجد أن النبي ﷺ أرشده إلى الخروج من دائرة الراحة التي وضع نفسه فيه، والسعي في توسيع (واجبه/انتاجه)؛ وذلك من خلال بث فكرة الاسترزاق فيه عندما أمره بأن يأتي بالجلس والقعب من بيته وبيعه لهما ﷺ في المزاد العلني بدرهمين، وحثه عليها -فكرة الاسترزاق- عندما أمره بأن يذهب ويحتطب ولا يراه يتسكع في الأجواء لمدة خمسة عشر يوماً، وهذا ليخرجه من دائرة الراحة والركود التي كان يعيشها، ويدخله في سلسلة الانتاج والانتقال إلى مرحلة الانتعاش التي سطرها له ﷺ ، وبعد فترة من الزمن بانت حكمة النبي ﷺ بحيث خرج هذا الصحابي من مرحلة الركود إلى مرحلة الانتعاش.

إن فعل النبي ﷺ مع هذا الصحابي فيه حكمة عظيمة جداً، بحيث لم ينظر إليه ﷺ كصديق يجب مساعدته وكفى، وإنما نظر إليه كإنسان تكمن فيه طاقات كبيرة يجب استغلالها وترشيدها، وبهذا يكون النبي ﷺ عالج إشكاليين في آن واحد من خلال استثمار الفكرة الدينية تحت شعار الاسترزاق:

- الإشكال الأول: أنه ساعد إنساناً على تجاوز أزمته من خلال إرشاده إلى أفضل طريقة لاستغلال طاقاته وإمكاناته.

- الإشكال الثاني: أعطى درساً للمجتمع وعن كيفية تجاوز مرحلة الركود والدخول في مرحلة الانتعاش، عندما أرشد ذلك الصحابي إلى كيفية استغلال طاقاته وإمكاناته على الملأ من خلال إقامة ﷺ للمزاد العلني.

ولم يكتف النبي ﷺ بهذا فقط بل وبين أن اليد التي تسعى في الكسب

والاسترزاق الحلال هي اليد العليا وهي خير وأعظم من اليد القاعدة التي لا تسعى وكنها باليد السفلى، فعن عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة، والتعفف، والمسألة: (اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا: هي المنفقة، والسفلى: هي السائلة)¹.

المطلب الثالث حالة الانهيار

سنتحدث في هذا المطلب عن كيفية مساهمة الفكرة الدينية في تحقيق التنمية الاقتصادية، وذلك من خلال إعادة بعث الاقتصاد من جديد، وإنقاذه من حالة الانهيار والفوضى التي يعيشها، ونقله إلى حالة النمو والازدهار.

• الفرع الأول صورة المسألة:

وبيان صورة المسألة كما أشار إليها مالك بن نبي أن (الحق/الاستهلاك) الذي يطالب به الإنسان يكون أكبر من (الواجب/الانتاج) الذي يبذله؛ بمعنى أن هناك خلل في الميزانية العامة؛ حيث إن الاستهلاك أكبر من الانتاج، فإذا كان الأمر كذلك سنكون أمام اقتصاد منهار ومجتمع مستهلك لا يسعى إلا لتلبية (حاجات/استهلاكاته)، وهنا يفقد المجتمع عقلانيته وقدرته على التمييز بين الصواب والخطأ؛ بحيث يتنكر (لواجباته/إنتاجيته) ويصبح لا يرى إلا (حقوقه/استهلاكه)، وعندما يفعل المجتمع ذلك يدخل في مرحلة القابلية للاستعمار²، وتصبح تصرفاته ورغباته

¹ - البخاري، صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، حديث رقم: 1429، ج2، ص112.

² - يصف مالك بن نبي هذه المرحلة فيقول (إن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها، هي: أنه لكي نتحرر من (أثر) هو الاستعمار، يجب أن نتحرر أولاً من (سببه) وهو القابلية للاستعمار. فكون المسلم غير حائر جميع الوسائل التي يريد لها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار؛ وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداماً مؤثراً، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، وأما ألا يستخدم وقته في هذه السبيل، فيستسم - على العكس - لحظة إفقاره وتحويله كماً مهماً، يكفل نجاح الفنية الاستعمارية: فتلك هي القابلية للاستعمار). ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص95، 96.

وأهواءه خاضعة لتجاذبات خارجية تسيّره على حسب أغراضها السياسية، ومصالحا
الاقتصادية - وللأسف هذا هو حال الغالبية العظمى من الدول الإسلامية الآن -
وهنا يأتي دور الفكرة الدينية، حيث توظف لإعادة إحياء المجتمعات وبعث
الاقتصاد.

• الفرع الثاني تجسيد صورة المسألة:

من الأفكار الدينية التي وظفها النبي ﷺ لعلاج هذه الظاهرة نجد فكرة الإخاء
وذلك في أرقى صورها ألا وهي الإيثار¹. ففي السنة الثالثة عشرة من البعثة هاجر
النبي ﷺ إلى يثرب²، وذلك بعد الاتفاق مع زعمائها في بيعتي العقبة الأولى والثانية
على تحديد الحقوق والواجبات من كل طرف³، وبعد أن وصل النبي ﷺ إلى يثرب
-والتي سميت المدينة المنورة بعد ذلك-⁴ وجد فيها مجتمعاً منهاراً وخاضعاً لسلطة
اليهود ومصالحهم؛ فمن:

- الناحية السياسية: كان اليهود يتفنون في إشعال نيران الحروب والفتن،

¹ - الإيثار: هو أن يقدم غيره على نفسه في النفع له والدفع عنه، وهو النهاية في الأخوة. ينظر: الجرجاني،
التعريفات، ص40.

² - ويذكر السهيلي في كتابه الروض الأنف عن سبب تسميتها يثرب فيقول (اسم يثرب: وأما يثرب فاسم رجل
نزل بها أول من العماليق فعرفت باسمه وهو يثرب بن قايين بن عييل بن مهليل بن عوض بن عملاق بن لاوذ
بن إرم، وفي بعض هذه الأسماء اختلاف وبنو عييل هم الذين سكنوا الجحفة فأجحففت بهم السيول وبذلك
سميت الجحفة، فلما احتلها رسول الله ﷺ كره لها هذا الاسم أعني: يثرب لما فيه من لفظ الشرب وسأها
طيبة والمدينة). السهيلي، الروض الأنف، ج4، ص172.

³ - ينظر: بن كثير، سيرة بن كثير، ج2، ص172، 192.

⁴ - يذكر الحموي في كتابه معجم البلدان أن للمدينة تسعة وعشرون اسماً، وهي: المدينة، وطيبة، وطابة،
والمسكنة، والعذراء، والجابرة، والمحببة، والمحبة، والمحبورة، ويثرب، والناجية، والموفية، وأكالة البلدان،
والمباركة، والمحفوفة، والمسلمة، والمجنة، والقدسية، والعاصمة، والمرزوقة، والشافية، والخيرة، والمحبوبة،
والمرحومة، وجابرة، والمختارة، والمحرمة، والقاصمة، وطبابا. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج5، ص83.

وخاصة بين كبرى قبائل المدينة الأوس والخزرج¹، وكانوا يتحكمون في هذه الحروب من حيث التمويل والتموين؛ حيث كانوا يستغلون حاجة القبائل إلى تمويل تلك الحروب، فكان اليهود يقرضونهم بأقساط ربوية كبيرة، تنتهي في غالبيتها إلى العجز عن السداد، وبالتالي الخضوع لتبعيتهم ونفوذهم.

- ومن الناحية التجارية والزراعية: فلم يختلف الأمر كثيرا فلقد كانت التجارة بأيديهم في غالبها بسبب قوة سلطان المال عندهم واحتكارهم للأسواق². وبالنسبة للزراعة فلقد كانت أجود الأراضي الزراعية مثل خيبر تحت أيديهم، وذلك أن اليهود كانوا أسبق من العرب في سكنى المدينة، لذا اختاروا أخصب أراضيها ليسكنوا فيها³.

¹ - يقول الشعراوي (لما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم؛ فاليهود كانوا ممثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج، وبينها حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام، فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى بضمنا استمرار العداوة، فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد، وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم). الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج 1، ص 437.

² - ويدل على هذا أن عبد الرحمن بن عوف لما سأل عن سوق الأنصار دلوه مباشرة على سوق بني قينقاع ومن هم من اليهود. ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخوان النبي ﷺ بين المهاجرين، والأنصار، حديث رقم: 3780، ج 5، ص 31.

³ - يذكر الحموي في كتابه معجم البلدان أن عن سبب سكن اليهود المدينة (وكان سبب نزول اليهود بالمدينة وأعراضها أن موسى بن عمران، عليه السلام، بعث إلى الكنعانيين حين أظهره الله تعالى على فرعون فوطئ الشام وأهلك من كان بها منهم ثم بعث بعثا آخر إلى الحجاز إلى العماليق وأمرهم أن لا يستبقوا أحدا من بلغ الحلم إلا من دخل في دينه، فقدموا عليهم فقاتلوه فآظهرهم الله عليهم فقتلوه وقاتلوا ملكهم الأرقم وأسروا ابنا له شابا جميلا كأحسن من رأى في زمانه فضنوا به عن القتل وقالوا: نستحيه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم فلما قربوا وسمع بنو إسرائيل بذلك تلقوهم وسألوهم عن أخبارهم فأخبروهم بما فتح الله عليهم، قالوا: فما هذا الفتى الذي معكم؟ فأخبروهم بقصته، فقالوا: إن هذه معصية منكم لمخالفتكم أمر نبيكم، والله لا دخلتم علينا بلادنا أبدا، فحالوا بينهم وبين الشام، فقال ذلك الجيش: ما بلد إذ منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذي تحتتموه وقتلتم أهله فارجعوا إليه، فعادوا إليها فأقاموا بها فهذا كان أول سكنى اليهود الحجاز والمدينة، ثم لحق بهم بعد ذلك بنو الكاهن بن هارون، عليه السلام. ينظر: الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 84.

هكذا كانت الحياة في المدينة قبل مجيء النبي ﷺ، حياة في مجملها خاضعة لسلطان اليهود ونفوذهم، وكان لهذه الحالة تأثير مباشرة على سكان المدينة؛ حيث أنتجت لنا إنسان فارغا، منهارا، ضعيف الشخصية، فاقد الإرادة السياسية والاقتصادية، تابعا للأجندة الخارجية التي كانت تحيكها اليهود على حسب أهوائها ومصالحها، ولم يكن وعي هذا الإنسان يخرج عن دائرة الحرب وتبعياتها من العنجهيات الفارغة، ونشر الأحقاد، وروح الانتقام، وبسط النفوذ، والعصبية للقبيلة ولو كان حيوان القبيلة¹. ولم يكن يتوانى هذا الإنسان على فعل أي شيء من أجل تلبية (حاجاته/استهلاكاته)، والتي كان يتصورها حقوق له، هذا ما جعل منه إنسان مستهلكا بامتياز، تتوفر فيه كل شروط القابلية للاستعمار والاستغلال.

وأول ما قدم النبي ﷺ إلى المدينة تظن إلى هذا الأمر، ولفداحة الوضع وخطورته، نظرا لتمسك اليهود بمقاليد كل شيء ولحدثة الناس بالنبي ﷺ، ومن أجل ضمان نجاح مشروعه اعتمده ﷺ على مرحلتين:

- المرحلة الأولى التمهيد: وفيها مهد النبي ﷺ الناس لقبول فكرة الإخاء التي كان يريد طرحها، وذلك من خلال إحاطتها بهالة من القداسة وإضفاء الشرعية الدينية عليها؛ حيث جعلها ﷺ من الأسباب الموجبة لدخول الجنة، فعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: "لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس قبله، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ، ثلاثا، فجئت في الناس لأنظر، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته تكلم به أن قال: (يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا

¹ - يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل أن حربا نشبت بين عبس وذبيان، وكان السبب رهان على سباق بين فرسين داحس والغبراء، وسميت هذه الحرب باسمهما (حرب داحس والغبراء) ودامت هذه الحرب حوالي أربعين سنة. ينظر: بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 509.

الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)¹. ولم يكتفِ ﷺ بهذا فقط، بل وجعلها في مقدمة الأشياء التي تعمل على حفظ الدين، ونشر ثقافة السلم ونبد التنافر والاختلاف بينهم، يقول النبي ﷺ: (دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم)².

-المرحلة الثانية التجسيد: بعد أن هدئت النفوس وتشربت من روح الإيمان واستوعبت ثقافة السلم، واقرن ذلك بالانتهاء من بناء المسجد النبوي³، تمهد الوضع لدى النبي ﷺ⁴، واطمئن لطرح مشروعه الإصلاحية من خلال فكرة الإخاء⁵؛ حيث تجسدت في أرقى صورها ألا وهي الإيثار¹، ولقد كانت هذه الفكرة

-
- 1- ابن ماجه، سنن بن ماجه، أَبْوَابُ الْأَطْعِمَةِ، باب إطعام الطعام، حديث رقم: 3251، ج4، ص397.
- 2- الترمذي، سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم: 2510، ج4، ص644.
- 3- لقد كان لبناء المسجد النبوي أهمية كبيرة جدا؛ وذلك لأن المسجد لم يتوقف دوره على وصل الإنسان بربه ونشر الإشعاع الروحي وتزكية النفس فقط، بل كان أول وأهم ركيزة في بناء المجتمع الإسلامي؛ حيث كان مركزا لترسيخ العقيدة وتوحيد الصف، ونشر معاني الإخوة الإسلامية، ومدرسة لتخريج أعظم القائدة في تاريخ البشرية أجمع. ينظر: السباعي، السيرة النبوية، ص74. البوطي، فقه السيرة النبوية، ص143، 144.
- 4- يقول ابن حجر العسقلاني في الفترة التي طرح فيها النبي ﷺ المؤاخاة (واختلفوا في ابتدائها فقل بعد الهجرة بخمسة أشهر وقيل بتسعة وقيل وهو بيني المسجد وقيل قبل بنائه وقيل بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر وعند أبي سعيد في شرف المصطفى كان الإخاء بينهم في المسجد). ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص270، 271.
- 5- وفيما يروي ابن إسحاق في سيرته "وأخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، قال ﷺ - فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل - (تآخوا في الله أخوين أخوين)". ابن هشام، سيرة هشام، ج1، ص505. ولم تكن هذه المؤاخاة صورية فقط، بل كانت مؤاخاة حقيقية إلى درجة أنها بلغت التوارث بينهم، وذكر ابن حجر العسقلاني "...لما قدم النبي ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين وأخى بين المهاجرين والأنصار على الموساة وكانوا يتوارثون". ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص270. مع الإشارة إلى أن هذا التوارث دام إلى أن ذهبت عن المهاجرين وحشة الغربة ومفارقة الأهل والعشيرة، ثم رفع بعد ذلك، يقول السهيلي (أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ -سورة الأنفال، جزء من الآية 75- أعني في =

بحق من أعظم الأفكار التي مهدت لقيام الحضارة الإسلامية، والتي من عظمها ذكرها تعالى في القرآن وأضفى عليها صفة الفلاح، يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (9)﴾ -سورة الحشر-².

لقد كان لفكرة الإيثار أثر عظيم على مجتمع المدينة؛ حيث نقلت فيه الإنسان من الفرد الذي يعيش ليستلك إلى الفرد التي يعيش ليتج بل وليفيض إنتاجا، فبعدها كان الفرد في المدينة يسعى لتحصيل (حقوقه وتلبية حاجاته/استهلاكاته)، انقلب به الوضع وأصبح يسعى للتضحية (بحقوقه/استهلاكاته) من أجل أن يلبي (حاجات/استهلاكات) غيره وجعلها من أولويات (واجباته/إنتاجه).

ومن الجهة المقابلة كان لاستجابة الأنصار لفكرة الإخاء بتلك الطريقة أثر رجعي على المهاجرين؛ حيث انهم لم يكتفوا فقط بالاستفادة من آثار هذه الفكرة، بل قاموا

=الميراث ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال: ﴿إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ -سورة الحجرات، جزء من الآية 10-، يعني في التواد وشمول الدعوة). السهيلي، الروض الأنف، ج4، ص177، 178.

¹ - من الصور التي جسدت لمعاني الإيثار ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: "قالت الأنصار: اقسم بيننا وبينهم النخل، قال ﷺ: (لا). قال ﷺ: (يكفوننا المثونة ويشركونا في الثمر) قالوا: سمعنا وأطعنا" البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين، والأنصار، حديث رقم: 3782، ج5، ص32.

² - يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية، وفي وصف الأنصار: (الذين قالوا كلمة الإيمان بألستهم، وصدقوها بعملهم. وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه. وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه. وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراهها الناس!... وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار. هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلاما طائرة ورؤى مجنحة ومثالا عليا قد صاغها خيال مخلوق... ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين. بهذا الحب الكريم. وبهذا البذل السخي. وبهذه المشاركة الرضية. وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. حتى ليرى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة... والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا. وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرا. وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديما وحديثا). سيد قطب، في ظلال القرآن، ج6، ص3526.

بالاندماج في مجتمع أهل المدينة وكان لهم أثر عظيم في خدمة اقتصادها ونموه، وفيما أخرجه البخاري عن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده، قال: "لما قدموا المدينة أخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع، قال -سعد بن الربيع- لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال-عبد الرحمن-: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: (مهم)، قال: تزوجت، قال ﷺ: (كم سقت إليها؟). قال: نواة من ذهب، - أو وزن نواة من ذهب، شك إبراهيم -¹.

وهكذا استطاعت فكرة الإخاء أن تجمع الفريقين مع المهاجرين والأنصار؛ وبتعاون الفريقين استطاعوا أن يخلقوا نوعا من الاندماج النووي انصهرت فيه كل (حقوقهم/استهلاكاتهم) لتتحول إلى (واجبات/إنتاجات) حررت مجتمع المدينة من حالة القابلية للاستعمار إلى حالة القابلية للإعمار؛ فلم يعد الفرد يسعى لخدمته عصبية وقبيلته، وإنما أصبح يسعى لخدمة الإسلام وأهله والتعاون معاً من أجل إعلاء كلمة الله ودينه، هذا جعلهم يبنون حضارة أسقطت أعظم الحضارات في وقتها، حضارة الفرس وحضارة الروم، وبلغ صداها كل أصقاع العالم في وقت لا يتجاوز ثمانين سنة، وبفضل ذلك الإخاء والتعاون نالوا نيشان خير الأمم وذلك بشهادة من الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾² -سورة آل عمران، جزء من الآية 110-.

¹ - البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخوان النبي ﷺ بين المهاجرين، والأنصار، حديث رقم: 3780، ج 5، ص 31.

² - يقول المراغي في تفسير هذه الآية (بعد أن أمر عز اسمه عباده المؤمنين بالاعتصام بحبله، وذكرهم بنعمته عليهم، بتأليف قلوبهم بأخوة الإسلام، وحذرهم من أن يكونوا مثل أهل الكتاب في التمرد والعصيان، وتوعد على ذلك بالعذاب الأليم، واستطرد بين ذلك بذكر من يبيض وجهه ومن يسود، وبذكر شيء من =

خاتمة

وفي الأخير نذكر القارئ الكريم أننا قمنا في هذه الدراسة ببسط القول في معنى التخطيط لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية استنادا إلى المرجعية الدينية، وكان البريد إلى ذلك بيان الكفايات المنهجية لمقولة الفكرة الدينية ودورها في إصلاح الأفراد والمجتمعات، ولم نكتف في بيان ذلك بالجانب النظري فحسب، بل شفعنا ذلك بنماذج تطبيقية تشهد لدور الفكرة الدينية في أداء وظيفتها الإصلاحية.

هذا كله من أجل إسماع صوت خافت يريد هذا المقال إيصاله إلى القراء، وهو الدعوة إلى التّغير العامّ في استثمار الطّاقات الفكرية النّاجعة التي تملك الموجهات الحقيقية لترشيد الأفراد والمجتمعات، ونقلهم من مرحلة التخلّف والركود إلى مرحلة تنويرية قوامها العمل على تحقيق الفعل الحضاري، على مستوى الأفراد، والجماعات، والمؤسسات، وليس هناك أنفض بهذه المهمة من إعادة بعث الإمكانيات الروحية وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي تؤهلها للقيام برسالتها السّامية.

ولو فتشنا في الميراث الذي تملكه الإنسانية حتى وقتنا الراهن، لم نعر على أنفس من (الفكرة الدينية) في أداء هذه المسؤولية والتخطيط لها على أحسن وجه، لهذا، ينبغي أن نعيد النظر في الجهود التي قدّمناها لحدّ الساعة، ونحن نحاول (أو نزعّم) العثور على حلول لتحقيق التنمية في شتى مجالاتها، دون الالتفات إلى ضرورة معرفة الوسائل ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. -سورة الأعراف، جزء من الآية 96-.

=أحوال الآخرة. أردف ذلك ذكر فضل المتأخين في دينه، المعتمدين بحبله، ليكون هذا باعثا لهم على الانقياد والطاعة، إذ كونهم خير الأمم مما يقوى داعيتهم في ألا يفوتوا على أنفسهم هذه المزية، وإنما يكون ذلك بالمحافظة على اتباع الأوامر وترك النواهي). المراغي، تفسير المراغي، ج 4، ص 28.

المصادر والمراجع

* القرآن

1. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب دار المعرفة - بيروت -، عام النشر: 1379 هـ.
2. أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر 1399 هـ = 1979 م.
3. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - بمصر -، ط 1: 1365 هـ = 1946 م.
4. أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط 1: 1429 هـ = 2008 م.
5. إسماعيل بن عمر بن كثير، المعروف: بآبن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة - بيروت -، عام النشر: 1395 هـ = 1976 م.
6. حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر - دمشق -، عام النشر: 1402 هـ = 1982 م.
7. زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين، المعروف: بالمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، عالم الكتب - القاهرة -، ط 1، 1410 هـ - 1990 م.
8. سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، المعروف: بأبي داود، تحقق: شعيب الأرناؤوط، محمد كامل، قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط 1: 1430 هـ = 2009 م.
9. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد، عبد الباقي، إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر -، ط 2: 1395 هـ = 1975 م.
10. سيد قطب إبراهيم، في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة -، (د. ط. ت.).
11. شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، المعروف: بالحموي، معجم البلدان، دار صادر - بيروت -، ط 2: 1995 م.
12. عبادة عبد اللطيف، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، عالم الأفكار، الجزائر، ط 2: 2007 م.
13. عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السامي، دار إحياء التراث العربي - بيروت -، ط 1: 1421 هـ = 2000 م.
14. عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر -، ط 2: 1375 هـ = 1955 م.
15. علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، المعروف: بآبن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، - بيروت -، ط 1: 1417 هـ = 1997 م.

16. علي بن إسماعيل بن سيده المرسى، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية - بيروت -، ط 1: 1421هـ = 2000م.
17. علي بن محمد بن علي الزين الشريف، المعروف: بالجراني، التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية - بيروت -، ط 1: 1403هـ = 1983م.
18. مالك ابن نبي، في مهب المعركة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط 3: 1981م.
19. مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، -دمشق-، ط 1: 1991م.
20. مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، -دمشق-، ط 3: 1987م.
21. مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر -دمشق- ط 1: 1978م.
22. مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، -دمشق-، ط 1: 1979م.
23. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر -دمشق، ط 3: 1986م.
24. مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، دار الفكر، -دمشق-، ط 3: 2001م.
25. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط 4: 1984م.
26. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، -دمشق، ط 3: 1986م.
27. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي (المسألة اليهودية)، مكتبة الأسد، آفاق معرفة متجددة، ط 1: 1433هـ = 2012م.
28. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، -دمشق-، ط 1: 1986م.
29. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، مكتبة لبنان - بيروت -، عام النشر: 1989م.
30. محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، المعروف: بابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تحقيق: الحافظ السيد عزيز بك، وجماعة من العلماء، الكتب الثقافية - بيروت - ط 3: 1417هـ.
31. محمد بن عمر بحرق الحضرمي، حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول، دار الحاوي -بيروت- عام النشر: 1998م.
32. محمد بن يزيد القزويني، المعروف: بابن ماجه، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، محمد كامل قره بللي، عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط 1: 1430هـ = 2009م.
33. محمد رشيد بن علي رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام النشر: 1990م.
34. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار الفكر -دمشق-، ط 25: 1426هـ.
35. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، عام النشر 1997م.
36. مصطفى السباعي، السيرة النبوية دروس وعبر، المكتب الإسلامي، ط 3: 1405هـ = 1985م.

مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي "مدخل معرفي انطولوجي"

د. محمد بن عزوزي

مركز البحث في العلوم الاسلامية والحضارة - الأغواط (الجزائر)

m.benazouzi@crsic.dz

مقدمة

1. بين يدي الموضوع:

لا يمكن الاكتفاء بمنظور أحادي في معالجة أية قضية فكرية مهما كانت بساطتها، سواء كانت صادرة عن مقتضيات تنظرية أو مقتضيات إمبريقية، ناهيك عن أن تكون هذه القضية تريد لنفسها أن تتجسد واقعا متمثلا، فلا تقبل الاختصار على المعاني الجدلية والتي وإن كانت تسهم في عملية تحريك الفكر إلا أنها قاصرة عن إنتاج تلك اللحظة التي تنتقل معها إلى الواقع الحقيقي بإملاءاته المتعددة، هذا الحذر المنهجي الذي يبرره مالك بن نبي دائما ويعزوه إلى فكرة اللاجدوى عندما تحترف الأوساط العلمية التنظير مقتصرة عليه ومغرقة في شهوة الكلام إن صح لنا استخدام هذا التعبير، وإذن لا يمكن أن ننخرط في القضايا الجادة ذات الأثر العميق في واقع الحياة إلا من خلال تتبع انعكاساتها على الواقع المعيش هذا الانعكاس الذي لا بد له من آلية ضبطية توقعية تحدد ما يجب وما لا يجب، وكيف لنا أن نملاء الفراغ المعرفي ابتداء وذلك بمساءلة الواقع الذي سيحرك كذلك الآليات الاستنباطية التي تنتج النموذج المنطقي أولا، وهو سبيل مهم في بناء أي نموذج تحليلي ناجح يصاحب العملية الفكرية تنظيرا وممارسة.

التفكير في فكر مالك بن نبي ثم التفكير معه عملية فعلا مرهقة ومغامرة معرفية تستحق الانخراط فيها، من منطلق أن فكره يركز أحيانا على المتناقضات من أجل

إبراز مواطن الخلل، وفي أحيان أخرى يركز على المستويات المختلفة للمنظومة الحضارية وكيف لها أن تتسق وفق بنية محددة تسمح لها أن تجسد الفعل الحضاري بجميع تفاصيله، ضف إلى ذلك كله القدرة الاستشرافية المتفردة التي تتعمق الواقع بكل جزئياته، فتصبح صورة المستقبل ماثلة للعيان، كأن مفكرنا عاشها وعاد ليخبرنا عن الشرطيات التي تبعث النهضة من جديد وتسهم في ميلاد مجتمع الإنسان المتكامل.

2. التحديد السلبي والتحديد الإيجابي:

يشير مالك بن نبي إلى أن أي محاولة للاستثمار في ثلاثية الحضارة* لا بد أن تمر عبر مراحل لعل من أهمها آلية التحديد التي تتوزع على محورين أو اتجاهين الأول منها سلبي والثاني إيجابي، ولا يكتمل هذا التحديد إلا بهما، فالأول سلبي يفصلنا عن رواسب الماضي المثقلة بالأفكار الميتة أو الميتة، والثاني إيجابي يصلنا بمقتضيات المستقبل¹، ولعل هاتين اللحظتين تعتبران من أهم اللحظات حضارياً، إذ من شأنها أن تكونا خلفيتين تأسيسيتين لما بعدهما. المفكر مالك بن نبي ضرب عديد الأمثلة عبر الحضارات الإنسانية من أجل أن يوصل فكرته حول الآليتين المذكورتين آنفاً، وتجدر الإشارة إلى أن التحليل في هذا المستوى يمكن أن يكون ماكرو سوسيولوجي، كما يمكن أن يكون ميكرو سوسيولوجي، فالأول لما يتعلق الأمر بالحضارة في اصطلاحاتها الكلاسية، والثاني في مكوناتها لما يكون التحليل في المستوى التجزيئي. وفي هذا قابلية ومرونة للنماذج التي وضعها مفكرنا تسمح لها أن تلج أي قضية مهما كان تكوينها من أبسطها شكلاً إلى أكثرها تشابكاً وتعقيداً.

ولعلنا هنا بصدد طرح سؤال محوري منطلقه التحديد السلبي، وهو ذو مستوى

* الإنسان، التراب، الزمان، مع ضرورة الفكرة الدينية التي تمثل المفعول للعناصر الثلاث.

¹مالك بن نبي، شروط النهضة، ط 16، دار الفكر، دمشق، 2017، ص 86.

معرفي تحليلي بحث يتمثل في "ماهي السلبيات والعلل والنقائص التي تسود الساحة الثقافية والاجتماعية التي نعيشها في وقتنا الحالي؟ لسنا في معرض الإجابة عن السؤال الآن ولكن نحن نحاول أن نضع الهيكل المنهجي الأولي للنموذج التفسيري.

تلي هذه المرحلة مرحلة التحديد الإيجابي وقد لخصها مفكرنا في قوله: "ليس المقصود من التحديد الإيجابي ابتداء منهاج جديد... وإنما المقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي نراها ضرورية لفكرة الثقافة"¹، وهنا فيه نوع من الخطاب الذي يركز على التمثلات السلوكية البحتة التي تلامس المجتمع أنطولوجيا، أو بعبارة أخرى إعادة إنتاج المنظومة السلوكية المجتمعية وفق مقتضيات الثقافة في التفاصيل التي أثبتتها مفكرنا في كتابه التأسيسي شروط النهضة.

وقبل أن نلج إلى التفاصيل المتعلقة بالمفهوم لا بد من تحديده ابتداء، وإلا فالمفهوم قد يصل إلى حمولة معرفية ثقيلة قد تكون مجاوزة ومفارقة لسياقاته الواقعية التي نريد لها أن تكون المعيار الأساس في تحديده، في الواقع مفهوم الثقافة من المفاهيم الحديثة المرتبطة بالحضارة الغربية لما يتعلق الأمر طبعاً بالمسمى "والواقع أن فكرة الثقافة فكرة حديثة جاءتنا من أوروبا والكلمة التي أطلقت عليها هي نفسها صورة حقيقية للعبقرية الأوروبية"²، وإلا فالثقافة ممارسة ضاربة في التاريخ المعرفي الإنساني، حاول الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري تبئية هذا المفهوم من خلال استلهام حادثة دريفوس المعروفة³، إلا أن هذه التبيئة كانت مثقلة بالتفسير والتأويل الذي يستند إلى الفكرة السياسية، والتي كان يراها عاملاً خفياً في أحيان كثيرة، يعمل على توجيه تمثلات الطبقات السياسية نحو طبقات المثقفين الراديكاليين في المجتمع، ومن حيث يدري أو

¹مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص 87

²مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ط 5، دار الفكر، دمشق، 2000، ص 25.

³محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1995، ص 23.

لا يدري، وضع نفسه داخل إطار خاص، أو لعله فكر في الموضوع داخل مرجعية معينة فرضت وحيها عليه، فوقع في ما حذر منه، غير أن مفكرنا مالك بن نبي استطاع أن يضعها في السياق الواقعي وقد عبر عنها بأنها **نظرية في السلوك** لها من القدرة على تأطير الممارسة الاجتماعية للأفراد ما يسمح لها أن تكون معياراً دقيقاً وصريحاً يسمح لنا أن نضع المجتمع الذي نحن بصدد دراسته في المكان الذي يناسبه ضمن المجال الحضاري الذي نظر له مالك بن نبي، من أن مساءلة الثقافة والمجتمع في واقعنا، قد تنبئ عن أوضاع أقل ما يقال عنها أنها تعبر عن إنسان النصف كما وصفه مفكرنا، وإذن نحن أمام مجموعة معضلات متعلقة بالمقدمات والسياقات التي تسير فيها هذه المقدمات وصولاً إلى النتائج التي تمثل التمثيل العام للحياة الثقافية والاجتماعية، ولا يمكن بحال من الأحوال فصل هذه المقاضيات عن جملة التمثيلات الاجتماعية الأخرى التي تعتبر من بين أهمها وأكثرها حساسية وتأثيراً، ليس في الراهن فحسب وإنما في توجهات المستقبل "فتكوين الحضارة بوصفها ظاهرة اجتماعية إنما يكون في الظروف والشروط نفسها التي ولدت فيها الحضارة الأولى"¹ وهنا يمكن أن تكون لدينا قدرة المقايسة والتي على أساسها نستطيع معرفة المسافة التي تخلفنا بها عن ركب الحضارة، مع قدرة كذلك على تحليل العناصر الأولية ذات البعد التكويني وكيف تكون قاصرة قصوراً يمنعها من أن تعطي تلك الدفعة الأولى ومن بعدها قدرة الاستمرار لتتدرج في مرحلتها الروح والعقل واللذان تعبران عن أوج التقدم الحضاري من منظور مالك بن نبي.

3- عناصر مفهوم الثقافة:

تعد فكرة التوجيه أحد الأفكار الخلاقة في فكر مالك بن نبي؛ فالتوجيه هو العمل على تجنب أي إسراف في الجهد الذي يمثل خلاصة الطاقة الإنسانية، طاقة

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، سبق ذكره، ص28.

العقول وطاقة السواعد، ثم الوقت الذي يمثل القيمة الأساسية التي يسير في مجراها أي محاولة للنهضة والتغيير، ثم بعد ذلك يؤكد على فكرة الدفعة الدينية فيقول: "وهذا الجهاز حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دفعة دينية".¹

العناصر الجوهرية الضرورية للثقافة هنا مرتبطة بالتحديد الإيجابي ملازمة له، وقد أثبتها مالك بن نبي كعناصر أولية تأسيسية لها قدرة التأثير العميق في واقع الحياة الاجتماعية، وقد حددها وفق العناصر التالية:

- الدستور الخلقي،
- الذوق الجمالي،
- المنطق العملي،
- الصناعة بتعبير ابن خلدون.

3-1 التوجيه الخلقي:

يشير مفكرنا إلى أن التركيز هنا على الجانب الخلقي ليس من قبيل فلسفه الأخلاق، ولكن على القوى الاجتماعية التي تتولد عنها، والتي كانت سببا أو أحد أسباب تسجيل عديد الأمم أسماءها في قافلة الحضارة، وإذن الجانب السلوكي الذي أشرنا إليه ليس مقتصرًا على الإماءات الفردية أو الشخصية بمصطلح علم النفس، ولكن هو متعلق بشبكة العلاقات الاجتماعية التي كلما قويت، وكانت تسير في اتجاه فلسفة الواجب لا فلسفة الحق، فإن لها من القدرة التأثيرية ما يسمح لها أن تكون مجتمعا جديرا بالنهضة والحضارة، ولابد من التنويه إلى الفرق الكبير والبون الشاسع ما بين الحضارة في عمقها والحضارة في مظاهرها وتجلياتها، وقد ضرب مفكرنا عديد الأمثلة عن الاختلاف الكبير والعميق ما بين العناصر الأولية للحضارة، والتي تمثل فيها

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، سبق ذكره، ص 84.

الفكرة الدينية مركبا أساسيا، وتظهرات هذه العناصر فيما بعد لما تتركب فتعطي ذلك المظهر الأخاذ فلا بد من التحذير من رد الفعل الذي مؤداه اعتقاد أن تاريخ الوجه الحضاري ابتداء في اللحظة التي التفتنا إليه فيها، "فأعربناه اهتمامنا في صورته الطارئة لا في جوهره وهذا شأن شبابنا في نظرهم إلى الأشياء"¹، وإذن فالمدينة الغربية كان لها ما قبلها ولها مقدماتها التي أوصلتها إلى النتائج التي خلقت حالة الانبهار في عالمنا، ولا تكون الاستفادة منها إلا من خلال تمحيص مقدماتها، واستخلاص ما يصلح ويتوافق مع مرجعيتنا، أما أن نتسول المظهر الحضاري فذلك من أيسر ما يطلب وأسهل ما يرتجى، ولم تكن السطحية يوما سبيلا إلى وضع الأساس العميق لأي فكرة، ناهيك عن أن تؤسس منظومة فكرية متكاملة، ذات قدرة على التغيير والتأثير.

3-2 الذوق الجمالي:

عندما يشير مفكرنا إلى الذوق الجمالي، فهو لا يقصد ذلك البعد الاستيطقي بقدر ما يقصد انطباع صورة الجمال في واقع الحياة الاجتماعية، فالصورة المشوهة من شأنها أن تنعكس على الأنفس وتؤثر عليها سلبا فلا مناص من العمل على إعادة صياغة وتحسين كل صورة مشوهة، قد تחדش الذوق العام، "الإنسان جوهريا كائن ثقافي"² ولعل المستعمر في تلك الفترة، قد تفتن لهذا الأمر فكان ديدنه ترسيخ وتطبيع هذه الصور، كيف لا وهو قد برر لنفسه دخول الجزائر بحجة أن أهلها أدنى ذكاء من مستوى بقية البشر، وقد بذل في ذلك كل ما يقدر عليه، ولعل تجسيد ذلك كان في مستشفى Joinville محاولة لإثبات هذا الادعاء، وعبثا ما كانوا يفعلون، وإذن فالصراع هنا صراع شمولي يركز على كل صغيرة وكبيرة، فلا يهمل أي تفصيل ولا

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، سبق ذكره، ص 95.

² دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت: منير السعيداني، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 9.

يدع مجالا للصدفة، الذوق الجمالي أو التوجيه الجمالي متطلب مستمر مع الوقت، لأنه يرتفع بالذائقة العامة للأفراد، وتشويه المظهر العام من شأنه أن ينعكس على الأنفس والتشويه منطلقه أنطولوجي بحث متعلق بالصورة الملموسة المحسوسة، والتي تمثل في فكر مالك بن نبي عالم الأشياء، والتي تتأثر بها تلقائيا منظومتها الأشخاص والأفكار، وما أشبه الأمس باليوم، فلا تزال الصور المرتبطة بالمحيط العام تعاني تشويها ممنهجاً يحول ما بين الثقافة السلوكية كمنتج حضاري، والأفراد كأحد أهم مقومات الحضارة والنهضة، ولتأمل مع مفكرنا مقولته التالية "أصبحنا اليوم نفقد ذوق الجمال ولو أنه كان موجوداً في ثقافتنا إذا لسخرناه لحل مشكلات جزئية تكون في مجموعها جانبا من حياة الإنسان". وقد يتجاوز الأمر في أحيان كثيرة المظهر الجمالي إلى المظهر الذي يحمل حمولة أيديولوجية معينة، ويؤسس لحالة من الاغتراب الاجتماعي، مثل ما حدث مع مصطفى كمال لما فرض لباس القبعة الغربية تعويضا للطربوش، أو العمامات التي تمثل شكلا من أشكال الموروث الأصيل، فاللباس هنا يعلمنا الحقائق أو هو يطمس علينا الحقائق... مثلما ينم عن الثقافة والحالة المادية والاجتماعية¹.

3-3 المنطق العملي:

الأمر هنا ليس متعلقا بالمنطق كما أسسه أرسطو، ولكن متعلق بمنطق العمل، فمالك بن نبي يرى أن مشكلتنا لم تكن يوما مرتبطة بالأفكار، فالثراء الفكري الذي أنتجته الحضارة الإسلامية يجعلها أبعد ما تكون عن حالة الفقر الفكري، وإذن المشكل هنا متعلق بمبدأ العمل، إن أي فكرة إنما تعيش لما نحيلها إلى ممارسة واقعية، وتغرب لما تبقى حبيسة الفكرة، فيرى أن معضلتنا تبدأ لما يطلب منا الانتقال من المنطق الفكري إلى منطق العمل أي أن الطاقة الفكرية التي لا تفضي إلى

¹ عبد الله الغدامي: الثقافة التلفزيونية - سقوط النخبة وبروز الشعبي، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005، ص 99.

ممارسة، هي طاقه مهدورة، وجهد غير مستفاد منه وهي سمة إنسان ما بعد الحضارة، الذي وصل إلى حالة من التفسخ في علاقاته الاجتماعية، الأمر الذي أحاله إلى فرد عاجز عن الحركة، وعاجز عن الانخراط مجددا وتسجيل نفسه في الدورة الحضارية، "إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا"¹. حالة العقم الاجتماعي كما يسميها مفكرنا، هي حالة ناتجة عن أفراد عاجزين عن الانخراط في أي عملية جهد يفضي إلى حالة من التغيير، وليس خفيا علينا ذلك الفرق الشاسع بيننا وبين الفرد الغربي في الجدوى الناتجة عن عمله، والالجدوى التي نتخطب فيها، ولعلنا في مرحلة تطبيق النموذج قد نشير إلى بعض العناصر التي تفسر مشكلة عدم الالتزام لما يتعلق الأمر بمنطق العمل تحديدا.

3-4 الصناعة:

يستلهم مفكرنا مفهومه من ابن خلدون فهو يتكلم عن الصناعة كفعل إنتاجي يعود بالنفع على المجتمع، وإذن مجموع الأفراد إذا كانوا على قدر من المهارة الحرفية، فإن هذا يدل على مظهر من مظاهر انخراطهم في الفعل الحضاري، إن السلوك الغريزي في الفرد والسلوك الذي هو حصيلة خبرته، وسلوك تعلمه من أفراد آخرين²، هي المحاور الأساسية لتطبيع سلوك الفرد، ولعل آخرها يعتبر الأكثر تأثيرا على الفرد، وليست العلاقات التي تنشأ في مجال الصناعة إلا تجسيدا لهذه الفكرة، استلهم مالك بن نبي فكرة الصناعة من المنظومة الغربية في باكورات نشوئها، فهي قد أولت أهمية قصوى لفكرة العمل، ونشير هنا إلى كتاب ماكس فيبر التأسيسي الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية حيث ركز على فكرة الخلاص

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، سبق ذكره، ص 103.

² عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص 25.

والتي لا تنبغي الا للذي له القدرة على العمل والإنتاج، هذا العمل الذي كان تمثله اجتماعيا من خلال انخراط الأفراد في المصانع، هذه الأخيرة شرطية الانخراط فيها شرطية مرتبطة بالمهارة الحرفية التي تمكن الفرد من أن يكون ذو تأثير وفعالية في مجتمعه، بل حتى كارل ماركس الذي كان مناقضا بفكره الراديكالي اتجاه المحافظين، ركز على فكرة العمل لكن في إطار الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، مع التحذير من الاغتراب الذي يكون نتيجة لسيطرة الطبقة الرأسمالية، وأيضا الاختلاف هنا اختلاف متعلق بالمقدمات التي تفضي إلى تجسيد احتراف الصنعة من طرف الأفراد، وليس الصنعة في حد ذاتها فهي ليست سمه للمجتمعات المتقدمة وحسب، ولكنها سمة لكل مجتمع متحضر.

وهنا نشير إلى البون الشاسع بين العلم، وتمثله واقعا من خلال القدرة على تطبيق المكتسب الذي تقدمه الجامعات مثلا، والتي هي عموما تمنح الشهادة في انتظار المهارة التي لا مجال لاكتسابها إلا من خلال الممارسة الحياتية، وفي هذا إشارة إلى الخلل الفظيع في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تحول دون ذلك التفاعل التلقائي بين جملة الأنساق الاجتماعية، فالتركيب هنا عصي على الأفراد "ولسوف تخيب آمالنا التي عقدناها إلى ما عولنا في قضيتنا على العلم الذي نتعلمه في المدارس الرسمية وغير الرسمية".¹

4- النموذج التحليلي:

من خلال ما سبق نصل إلى مرحله بناء النموذج التحليلي، والذي يستند في فكرته على التحديد السلبي والتحديد الإيجابي، لذلك فالنموذج سيحاول أن يلقي الضوء على جميع العناصر التي من شأنها أن تقدم لنا الصورة المفصلة عن وضعنا الحالي، سواء تعلق الأمر بالثقافة تحديدا أو علاقة هذه الثقافة بالتنمية الاجتماعية، بحكم أن

¹ مالك بن نبي شروط النهضة، مرجع سبق ذكره، ص 104.

التنمية إحدى مخرجات الحضارة الكثيرة والمتعددة، أما عن تحديد السلبي ففيه ستتكلم عن أهم المعوقات وأهم السلبيات التي تعاني منها المنظومة الثقافية سواء تعلق الأمر بالثقافة كنسق أساسي في المجتمع أو تعلق الأمر بالثقافة كممارسة وتمثل فردي ومجتمعي، أو حتى الوجه المتعلق بثقافة المثقفين، بعد ذلك نمرّ إلى التحديد الإيجابي والذي سنراعي فيه العناصر الأربعة التي قمنا بتحليلها آنفاً، وعلى هذا الأساس يكون النموذج التحليلي مكتملاً من أجل مقياسته على واقع الحال. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النموذج تم بناؤه قبل ما يقارب الثمانين عاماً من طرف المفكر مالك بن نبي، وقد قام من خلاله بتحليل مشكلة الثقافة كعنصر أساسي أبان فيه عن الشرطيات التي لا بد لأي مجتمع أن يتبناها من أجل أن يحقق مسيرته النهضوية، وأيضاً هذا النموذج هو نموذج أعيد تجريده من جملة المفاهيم التي وضعها مفكرنا، هذه المفاهيم في علاقاتها فيما بينها تنبني على أساسها هذه المحاولة التحليلية. في الحقيقة إن محاولة قياس النظري أو القياس التجريدي على الواقع محاولة منهجية صعبة جداً بحكم أن السياقات التي أنتجت فيها المفاهيم هي سياقات على الأقل مختلفة من الناحية الزمنية، ناهيك عن الصورة الحضارية أو الصورة المجتمعية السائدة في وقتنا الحالي، والتي تختلف كل الاختلاف بحكم أن هذا النموذج تم بناؤه في المرحلة الكولونيالية، وبالتالي هناك إمكانية أن يكون فيه نوع من النقص أو نوع من الاختلال المنهجي الأنطولوجي، سنحاول أن نعمل على تبيّنه زمانياً، كما نستطيع أن نضع أو ننزل هذا النموذج الذي يحاكي واقع الجزائر المستقلة في شتى أشكالها وجميع تجلياتها الثقافية والحضارية التي عاشتها على الأقل في الستة عقود الماضية منذ الاستقلال، كذلك النموذج الذي وضعه مالك بن نبي كان نموذجاً ينظر لحالة مجتمع يعاني في دركات التخلف والتبعية، فهو ليس مجتمعاً خارجاً من الحضارة وحسب، وإنما هو مجتمع يقبع تحت وطأة استعمار من أشنع أنواع استعمار العصر الحديث. أما عن الزمن الحالي فنحن في مرحلة الدولة المستقلة بمؤسساتها

وأنساقها الاجتماعية التي تكونت عبر سنوات من الاستقلال عايشة معها كل تجليات الأيديولوجيات المستوردة، وبالتالي يتولد عن ذلك نوع من الصعوبة على المستوى الإستمولوجي في محاولة النقد بحكم أن الأنساق التي يبنى عليها المجتمع في وقتنا الحالي هي مختلفة تمام الاختلاف عن واقع الحال لما كانت القابلية للاستعمار تفعل فعلها في نفس الفرد الجزائري المستلب، وعلى كل هذه ملاحظات جديرة بأن نشير إليها، وبالتالي عملية الربط ستكون بين النموذج المعرفي الذي وضعناه وواقع الحال الذي نحن بصدد دراسته، إضافة إلى بعض الاستنباطات التي نستشفها من بعض كتابات المثقفين الذين يعبرون عن الثقافة والحركة الثقافية في وقتنا الحالي.

5- مساءلة النموذج للواقع:

يعاني مفهوم الثقافة من عملية اختزالية فجأة، فنحن لا نستطيع أن نضعه في سياقاته الحقيقية التي هو جدير بها، والتي من خلالها يستطيع أن يكون له ذلك التأثير على الفرد وعلى المجتمع، الفكرة الثقافية هي فكرة تعاني من حالة اغتراب في مجتمع يحاول أن يجد صورته الحقيقية والحضارية الضاربة جذورها في التاريخ، ويحاول عبثاً أن يرتبط بها من جديد وإلا فإن التمثل الثقافي في وقتنا الحالي يختزل فقط في الفلكلور والفنون الشعبية، والفنون التقليدية وأصبحت هذه الأمور هي الأفكار المرادفة لفكرة الثقافة، هذه الأخيرة التي أصبحت حكراً على بعض الأوساط التي يطلق عليها طبقة الفنانين والمثقفين، في عملية فصل ممنهج للفكرة عن الحياة الاجتماعية، وكأن المثقف أصبح منفصلاً بشخصه وبفكرته عن الأفكار العامة متعالياً في برجه العاجي، وهذا بحق ضد الثقافة إذا ما أردنا أن نعود إلى تصورهما التأسيسي عند مالك بن نبي، والتي لا بد لها أن تكون ذات ارتباط لصيق جداً بالحياة الاجتماعية وبالأفراد، تمارس دور المرافقة الذي هو دور محوري في شتى أطوار تخلق المجتمعات الناشئة، وإذن إن عبرنا عن الثقافة على المستوى الفردي

فهي تحدد مجموعة من السلوكيات التي يجب على الفرد أن يمتثلها، وإن عبرنا عنها على المستوى الاجتماعي فإننا نتكلم عن بعض الإملاءات التي تحاول أن تمارس عملية الإكراه¹ على الأفراد، وإذن فيه نوع من العملية الرقابية على الفرد داخل المجتمع، وإلا فإن الثقافة لا يمكن أن يستفاد منها أو بعبارة أخرى لا نستطيع أن نفهم مجتمعا يتميز بثقافة ما في إطار أن فكرة الثقافة هي نسق منفصل مفارق لواقع الحياة الاجتماعية، عندما يتكلم عنها مفكر مثل إدوارد سعيد يتكلم عن أن المثقف هو ذلك الشخص الذي له القدرة على أن يتبنى مجموعة من المواقف، بغض النظر عن الخلفية التي ينتمي إليها، تلك المواقف تكون ذات طابع نقدي يحاول من خلالها أن يقدم صورا تعمل على إعادة رسم الحياة الاجتماعية بما يتوافق مع الأفكار التي ينتمي إليها ذلك المجتمع، ضف إلى ذلك أن المثقفين إنما هم رسل للأفكار أو الأيديولوجيات إن صح لنا استخدام هذا المصطلح أو هذا المعنى، هم رسل لهذه الأفكار في إعادة تطبيعها داخل الحياة الاجتماعية، وبالتالي نحن أمام خيارين إما أن تكون ثقافة قاعدتها المعرفية أو قاعدتها الاجتماعية قاعدة واسعة وعلى أساسها يتمثل الأفراد سلوكياتهم تجاه بعضهم البعض، أو أن تكون مقتصرة على بعض الأشخاص، وفي هذا إقصاء أولا للأشخاص الذين ربما يتبنون أو يحتكرون فكرة الثقافة على أنفسهم، وفيه كذلك إقصاء لبقية أفراد المجتمع الذين لابد أن تبني علاقاتهم الاجتماعية وفق إملاءات الثقافة التي ينتمون إليها. يرى ماثيو آرنولد Matthew Arnold "أن الثقافة هي دراسة الكمال، والتي من شأنها أن تقود إلى كمال متناسق بتطويرها لكل جوانب إنسانيتنا، ثم إلى كمال عام بتطويرها لكل أجزاء المجتمع".² وإذن نستطيع أن نرى الثقافة كنسق تنتج من خلاله الأفكار، ونستطيع

¹ للاستزادة انظر مصطلح الإكراه، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ريمون بودون، فرنسوا بوريكو.

² هارلميس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، ط 1، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، 2010، ص 40.

كذلك أن نرى الثقافة كصورة عامة للحياة الكلية للأفراد داخل المجتمع، يتمثلونها وتؤطر علاقاتهم الاجتماعية، وبالتالي تصبح القوة الاجتماعية لهؤلاء الأفراد داخل مجتمعهم ذات تأثير عميق جدا في الممارسة الثقافية والاجتماعية ككل.

كيف نفهم الثقافة؟ في الحقيقة فكرة الثقافة فكرة مهمة جدا تكلم عنها مفكرنا في كتابه شروط النهضة، ثم أفرد لها كتابا خاصا أسماه مشكلة الثقافة، حاول من خلال الكتابين أن يحلل العناصر الأساسية للثقافة كيف تتأسس في المجتمع، وكيف تكون سببا للدفعة الأولى أو سببا للاستمرار في الحضارة داخل المجتمع كيف يتأثر بها الأفراد، وكيف كذلك يتأثر بها مجموع هؤلاء الأفراد، في علاقاتهم الاجتماعية، في ممارساتهم وتفاعلاتهم اليومية، ولنا أن نتساءل ما هو الشيء الذي ينقص أو ماهي الحلقة المفقودة من أجل أن نحقق تنمية ثقافية واجتماعية؟ من منظور مالك بن نبي، وعلى هذا الأساس لابد لنا أن نعود إلى المفاهيم التأسيسية التي وضعها مفكرنا، والتي حاول من خلالها أن يضع لنا مقياسا إذا اعتمدناه نستطيع أن نقول أن هذا المجتمع وصل إلى مستوى ثقافي معين يسمح له أن يلج إلى الممارسة الحضارية الراقية في صورها المتقدمة، أم أن هذا المجتمع ما زال يعيش حالة من الاستلاب أو حالة من التأخر تحول بينه وبين أن يتسق أو يتوافق مع بقية المجتمعات الأخرى، مالك بن نبي دائما عندما يتكلم عن الفكرة يقول أنه لا يعوزنا منطق الفكرة، بمعنى أن هذه الحضارة التي ننتمي إليها هي حضارة الكلمة وحضارة الفكرة، التي انطلقت قبل 14 قرن وهي مستمرة إلى يوم الناس هذا، وقد استطاعت أن تنطلق في الدفعة الأولى التي هي دفعة الروح واستمرت لتتأسس في الأفراد الذين تمكنوا من خلالها أن يصلوا بالأمة إلى أرقى مستوياتها الحضارية، وكانت نهايتها في معركة صفين والتي أذنت ببداية مرحلة جديدة هي مرحلة العقل، كما أثبتها مالك بن نبي في المخطط الذي فصل فيه تاريخ تطور الحضارة الإسلامية، هاتين المرحلتين كانتا من الأهمية بمكان لما لهما من تأثير عميق

أولاً في الأنفس، ثم بعد ذلك من تأثير عميق يمتد إلى الأفراد الآخرين وكأن الحضارة احتاجت في بدايتها أن تتأسس في الأنفس ابتداءً، فكانت تأسيساً عمودياً عميقاً، ثم بعد ذلك احتاجت أنها تمتد أفقياً لتتوسع رقعتها جغرافياً وتلك كانت دفعة العقل، هاتان المرحلتان هما مرحلتا التطور الحضاري الذي استطاعت من خلاله الحضارة الإسلامية أن تقدم أرقى وأحسن وأجمل النماذج الحضارية التي عرفتها الإنسانية، لتصل بعد ذلك إلى المرحلة الأخيرة من تطورها وهي بداية النزول أو بداية السقوط التي تسمى بمرحلة الغريزة، والتي نعيش وقتها إلى يومنا هذا وقد بدأت في مرحلة ما بعد الموحدين والتي تزامنت مع عبقرى التاريخ ابن خلدون الذي كان شاهداً على تلك المرحلة والتي أذنت بأفول الحضارة الإسلامية.

لنفهم أكثر مجتمعنا لابد أن نعي ما هي التحديات التي يعيشها هذا المجتمع، خاصة في هذه المرحلة، التحديات تتوزع وفق مقتضيات زمنية، ومقتضيات مكانية، التحدي الأول وهو تحدي الزمان، صراعنا حول استلهم الماضي أو كيف نعيش بنفس النمط الذي عاش به أجدادنا، آملين في أن نحكي تجربة الماضي التليد، هي حالة الحنين للماضي، وهذا من شأنه أن يفضي إلى عجز كبير، بحكم أننا نستطيع أن نستلهم جميع التجارب الماضية، لكن إن لم تكن لنا كذلك شخصيتنا شخصية العصر بجميع مميزاته، والتي هي على استعداد أن تستلهم هذه الأفكار، فإن السفر في الزمن ضرب من المستحيل، غير أن استلهم الماضي بما يتوافق مع مقدرات الحاضر هو من الآليات المهمة، التي يجب أن تستثمر الاستثمار الأحسن والأمثل، وإلا فإنها تصبح نوعاً من أنواع المخدر، الذي يغرق الإنسان في ماضيه مع عجز شديد في أن يحقق ولو قفزات بسيطة قدما نحو الأمام، وإذن فالحنين إلى الماضي هو من الأمور التي تخدر الشعور وتمنع الأفراد وتحول بينهم وبين أن يكونوا مؤثرين في واقع حياتهم، وهذه حالة لم تعاني منها فقط الحضارة الإسلامية ولكن عانت منها كل الحضارات، التي كانت تعيش في

زمانين أو كانت تعيش في ماضها مستقيلة من حاضرها، وهذا لعمرى علامة من علامات التخلف وعلامات الإنسان العاجز الإنسان الذي لا يستطيع أن ينخرط في أي فعل حضاري، ولا يستطيع أن يقدم شيئاً فهو إنسان القلة وإنسان النصف والإنسان الذي يصطلح على تسميته ملك بن نبي بإنسان ما بعد الحضارة. الصراع الثاني كذلك هو صراع المكان وهو محاولة محاكاة التجارب التي هي تجارب معاصرة لنا، ولكن تنتمي إلى أمكنة أخرى، هذه الأخيرة التي تنتمي إلى الآخر كذلك لها روحها ولها تجلياتها ولها أفكارها، ناهيك عن أنها تحمل أفكاراً خلاقة في مجالات معينة.

وقد تكلم مالك بن نبي عن فكرة الدورة الزمنية، وقال أنا أحلل مشاكل تنتمي إلى العام 1367 هجرية، ولا أحلل مشاكل تنتمي إلى العام 1948، ونفس الأمر نحن في هذا الزمن نحاول أن نعالج قضية تنتمي إلى العام 1445 وليس قضايا تنتمي إلى العام 2024 لأن الدورة الزمنية بإملاءاتها وتأثيراتها، دائماً ما تجعل الفرد منفصلاً عن واقعه الاجتماعي وقد يعيش في ضفة أخرى لا ينتمي إليها، وعليه هذا الانفصال لن يخدم ولن يقدم أي قيمة مضافة مهما كانت تأثيرات هذه القيمة، لكن لابد أن نشير إلى أنه في عملية التركيب التي قد تكون ذات تأثير وجدوى، لابد أن تقتبس أولاً من الخارطة المعرفية الإسلامية ما تقدر على تبيئته بما يتوافق مع مقتضيات عصرها، مع المحافظة على الأشياء الأصيلة، مع اقتباس للتجارب الغربية ومحاولة الاستفادة من أحسنها، لتركب الخبرة التي تنتمي إلى الزمان الماضي مع الخبرة التي تنتمي إلى المكان، خبرة زمان الماضي الذي هو ماضينا، وخبرة مكان الآخر الذي هو شريك لنا في هذه المعمورة، وبالتالي هذه الأفكار لما تتركب فيما بينها، وتجد الروح التي لها القدرة على أن تنخرط أو تنطلق من جديد في تجسيدها واقعاً، عند ذلك فقط نكون قد بدأنا في الخطوات الأولى، والتي ستتبعها خطوات جبارة ومتسارعة تجعل المستحيل في مخيال الأمة من أبسط ما يتم تحقيقه.

6- بين المقدمات والمآلات:

يشكل إنسان الفطرة شرطية مهمة جدا في فكر مالك بن نبي، ولعله متعلق بالمقدمات التي يجب أن تتوفر في هذا الإنسان، وبغيرها يصعب علينا أن نجسد كل الأفكار التي سبق ذكرها تفصيلا، والمتعلقة أولا بالتحديد السلبي، وثانيا بالتحديد الإيجابي، وكل الأمور المرتبطة بالتحديد الإيجابي من توجيه أخلاقي، وتوجيه جمالي، ومنطق عملي، وصناعة، وضع مالك بن نبي هذا النموذج على منوال البرهان بالتراجع، وكأنه انطلق من النتيجة، ليواصل تحليل المقدمات، وارجاعها إلى سياقاتها الواقعية في عملية استدلالية سمحت له أن يتعمق السببيات والشرطيات الحضارية، هذه الأخيرة إنما استنبطها من تاريخ حضارتنا، ليصل إلى نتيجة مؤداها أن هذه الأفكار لا يمكن لها أن تتأسس في أنفس أفراد خارجين من الحضارة، لذلك ركز مالك بن نبي على فكرة إنسان الفطرة في مقابل إنسان القلة، ولعله يضرب لنا مثلا عن الإنسان الجرمانى فيقول: "ومع الجرمانيين ظهرت روح خلقية سامية في العالم المسيحي"¹، حيث كانوا مهئين ومستعدين لتسجيل الفكرة المسيحية في أنفسهم، والسير بها قدما، وتحقيقها واقعا، إذن على مستوى المقدمات، العجز متعلق بالإنسان كأحد أهم مركبات الحضارة، وإلا فالزمن والتراب عنصران ينتظران أن تتحرك الأنفس، أما الفكرة الدينية لم تكن لتضعف يوما في حد ذاتها، إنما ضعفها في نفس إنسان القلة الذي يعاني حالة عجز، أفقده بوصلة الاتجاهات فلم يعد يميز بين الخطأ والصواب، هذا فيما يتعلق بالمقدمات التي هي الصور الأولى أو السببيات التي في تفاعلها فيما بينها تفضي إلى النتائج والمآلات، أما بالنسبة للمآلات فإن مالك بن نبي لما وضع نموذجه الذي تكلمنا عنه وحاولنا أن نسقطه على واقعنا وضع بعده كذلك مجموعة من الشرطيات، التي تحول بينه وبين أن يتجسد واقعا

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سبق ذكره، ص 61.

وهو متعلق بإنسان ما بعد الحضارة، وقد لخصه في فكرة مهمة أسماها مشكلة التكيف، وقد ذكر منها مجموعة عناصر تتأثر بها الحضارة ولا تستطيع أن تستكمل خطواتها وتكون حائلا بينها وبين أن تتحقق واقعا.

7- التكيف بين بين الأمس واليوم:

على الرغم من المنطلقات المعرفية ذات الطابع الاجتماعي والثقافي، ناهيك عن الملاحظات المنهجية المهمة التي عاجلها مفكرنا حول الممارسة السياسية آنذاك، مع تركيزه على جوانب تنظيمية بحثه، مع إشارته إلى المبدأ السببي القرآني كمكون شديد الأهمية، إلا أنه لخص مشكلتنا الحضارية كلها في الحالة النفسية لإنسان القلة، والتي تعبر عن رد فعل سطحي اختزالي، ذري في تفكيره غير قادر عن رؤية الصورة الكلية للواقع تائه في صفحات الماضي، مستلب في حاضره، مغترب عن مستقبله، إنسان القلة الذي أصبح عاجزا عن أن يحمل تحدي التغيير، وأصبحت نفسه تنزع لقبول الأمور كما هي، أو بعبارة أخرى محاولة التكيف معها بحسب المقدمات التي يتأسس عليها كل فرد فتفعل الأيديولوجيات فعلها في نفسه، فتجده يبدع في وضع التبريرات التي تعفي عقله من مهمة التفكير، وتعفي جوارحه من رسالة العمل.

مشكلة التكيف معضلة تحول بين الإنسان وبين أهدافه، فهي رد فعل عن واقع الحال المزري وحالة التأخر المخزية، وما أشبه الأمس باليوم فلا نزال نتخبط في مشاكل السطحية والمعارك الوهمية، وكل حالة من تعدد ردود الفعل بين الأفراد إنما هي دليل على تصادمهم وتضارب جهودهم، مهما كانت قيمة هذه الجهود، فترى المتأثرين بالثقافة الغربية وبهرجها، وترى الذين يرون أن حل أزمتنا إنما يكون بالرجوع للغة وتعلم النحو والصرف، ومنهم من يرى تحرر المرأة عاملا حاسما في طريق الرقي والتطور، ومنهم من يرى أن الانتصار في المعركة الاقتصادية مؤذن بعودة الحضارة، ومنهم من رضي بواقع الحال فلا تكاد تسمع له همسا، كلها جهود

متفرقة تتصادم فيما بينها، ولعل فكرة الرجل الذي بيده مفاتيح حل لكل مشكلات الوطن دفعة واحدة من الأفكار السائدة في خيال مجتمعنا البسيط، وهكذا تتوزع الجهود وتتبدد المواهب دون جدوى، ضف إلى ذلك حالة اللاتقاة التي أصبحت تسود المجتمع في كل مستوياته، والتي تطورت إلى حالة من التغول أصبح الفرد لا يثق فيها حتى بنفسه، مع عقلية فوقية تتفنن في فرض تصوراتها وأفكارها، ضف إلى ذلك حالة الخواء الاجتماعي، والتي أصبح معها مجتمعنا يقترب إلى حالة العقم فأصبح عاجزاً عن أن ينجز أبسط متطلباته الحياتية. فلا نستطيع أن نصل إلى فكرة موحدة متجانسة، وإنما الحضارة هي تنسيق للجهود ومحاولة لتبادل وتكامل الخبرات، وعمل على تركيب كل هذه الأفكار، من أجل الوصول إلى الصورة الجمالية التي هي متعلقة بالحضارة، وإلا فإن هذا التصادم والتفرق والتشردم، من شأنه أن يبدد الجهد الخلاق والعمل الجاد، فيسود اللامعنى وتسود معه فلسفة الحق التي تسعى سعي المجنون الذي لا يفقه ولا يعي من حياته إلا تحصيل حقوقه، متناسياً أو متجاهلاً أنه فرد في مجتمع يفترض فيه أن يقدس العمل، العمل الذي هو عين الواجب، وليست الحقوق إلا واجبات موزعة على الأفراد، وبهذا تسود حالة من الانتهازية تنفي كل محاولة للإصلاح والتصويب.

إن الفشل في تجسيد مجتمع المؤسسات أفضى بطريقة تلقائية إلى تأسيس مجتمع العصبيات الذي هو أقرب ما يكون إلى حالة التدهور الأولى التي عاشها مجتمعنا في مرحلة ما بعد الموحدين، فلا يتغنى الفرد إلا بالعصبية التي ينتمي إليها، في صورة مهينة لمجتمع كان أفضل ما يميزه روحه التكافلية والتعاونية، إن غياب المشروع الجاد الذي تنتظم فيه الجهود وتصب فيه الطاقات من شأنه أن يجعلنا نعيش في حلقة مفرغة، مضيعين كل فكرة خلاقة وكل عمل وجهود ذي بال وجدوى. فالعمل الجاد أحوج ما يكون إلى التنظيم كإطار توجيهي، هذا الإطار تؤسسه الفكرة الخلاقة التي هي نتاج

العقول والملكات التي تسير بها قدما نحو التجسيد، مخرجة إياها من دركات التجريد الذي تكدست فيه الأفكار كما الأشياء، فأصبح طابع العصر طابع الفوضى، ومن العبث انتظار المجتمع للحلول السحرية أو ترقب البطل الأسطوري، إن واقعا تأسس على سببيات منطقية، نتائجه أبدا لن تكذب مقدماته، وإنما المعجزة تكون لما يستنفذ الإنسان ملكاته سعيا وجهدا وعملا، ليس بمعزل عن إخوانه وإنما بتظافر جهود، وتكامل رؤى، عندها فقط تستطيع الفكرة الدينية أن تفعل ثلاثية الحضارة من جديد، في أنفس تنوق للراقي والتقدم.

خاتمة

حاولنا من خلال المداخلة أن نحلل العناصر المرتبطة بمفهوم الثقافة، مركزين على تصورات وأفكار مالك بن نبي، الذي استطاع بخبرته المنهجية وقدرته المعرفية وحسه النقدي، أن يضع قراءة متفردة وتحليلا مركزا للثقافة كأحد أهم المحددات الاجتماعية التي تنبني عليها فكرة الحضارة، وماهي الآليات التي تسمح أولا للثقافة كونها نظرية في المعرفة، أن تكون نظرية في السلوك، وثانيا ماهي العوائق التي تحول بينها وبين تفعيلها مجتمعيًا، فتصبح ضربا من العبث في تجسيد للقابلية للاستعمار في تمظهرها الجديد، فيصدق أن نطلق عليها اسم القابلية للتبعية أو القابلية للتخلف، ثم كيف يمكن لمشكلة التكيف أن تعطل كل محرك للنهضة، وكيف تلغي كل محاولة خلاقة للتحضر، فيكون إنسان القلة وإنسان النصف، الذي لا يعمل إلا نصف عمل، ولا يمشي إلا نصف طريق، ولا يفكر إلا في نصف فكرة، سمة للعصر الحالي، وليس من إمكانية لاستعادة التوازن، إلا من خلال توحيد الجهود والتخلص من هيمنة تضاد الرسالة وتضاد المنهج، من خلال بعث روح التوافق من خلال التقريب وجهات النظر، والتركيز على المشترك الذي من شأنه أن يجمع لا أن يفرق، فتنتفي معه حالة اللاجدوى السائدة، تمهيدا لاستعادة الحاسة الاجتماعية، التي تخلق ذلك

التناغم والتنظيم في الجهود والأفكار، والتي تحول دون تبديد الطاقة النفسية والاجتماعية لأبناء المجتمع الواحد.

مراجع:

1. دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت: منير السعيداني، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007.
2. عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006.
3. عبد الله الغدامي: الثقافة التلفزيونية - سقوط النخبة وبروز الشعبي، ط 2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.
4. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ط 5، دار الفكر، دمشق، 2000.
5. مالك بن نبي، شروط النهضة، ط 16، دار الفكر، دمشق، 2017.
6. محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، 1995.
7. هارلمبس وهولبورن، سوشيولوجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، ط 1، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، 2010.

سؤال الإنسان والتنمية في فكر مالك بن نبي جدلية "الإنسان الشاهد" و"الإنسان النصف"

أ.د. عبد القادر بوعرفة

مدير وحدة البحث علوم الإنسان URSH – جامعة وهران 2 (الجزائر)

bouarfah9@gmail.com

مقدمة

يُعدّ مالك بن نبي من أهم المفكرين الجزائريين الذين اشتغلوا بمسألة الإنسان كفاعل حضاري واجتماعي، حيث اهتمّ بدراسة الحضارة عموماً ضمن سلسلة سماها "مشكلات الحضارة"، ثم تخصص بدراسة الحضارة الإسلامية منذ ميلادها إلى غاية أفولها. حيث قدم تحليلات عميقة لفهم الماضي، واستجلاء الواقع والحاضر، واستشراف المستقبل. ليتم نظره بالتنظير للنهضة الإسلامية المرجوة، مُحددا قواعدها وشروطها، ولا سيما الشروط الرئيسة: الإنسان، والتراب، والوقت. وتبدو تلك الثلاثية مهمة للغاية في عملية التنمية الحضارية المُستدامة، حيث إن جميع الحضارات الفاعلة لا المُنفعة صنعت وجودها التاريخي عبر الاهتمام بالإنسان محورا للحضارة.

إن إشكالية التحضر والتمدن في فكر مالك بن نبي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسؤال الإنسان، فحضارتنا وقعت بين نقيضين تاريخيين، الأول أنموذج تاريخي متقدم وفعال صنع حضارة مزدهرة، تمثل في "الإنسان الشاهد"، وهو إنسان متكامل حقق الاستخلاف إلى غاية سقوط بغداد (656 هـ) بالشرق، وسقوط دولة الموحدين بالأندلس والمغرب الإسلامي (1269م). والتي كان من نتائجها ظهور "إنسان النصف"، وهو إنسان ساء أيضاً بإنسان ما بعد الموحدين من الوجهة التاريخية. عمل مالك بن نبي على إنجاز مشروعه الحضاري على خطوات مدروسة، نوضحها على النحو الآتي:

1- التأصيل:

اتجه نحو تأصيل لمشكلات الحضارة بالعودة إلى النص الإسلامي (القرآن والسنة)، والسنن الكونية التي وضعها الله للناس أجمعين، ثم عززها بنظريات علماء المسلمين كابن خلدون، وابن رشد وغيرهم. ويبدو جلياً ذلك عبر نشر أول كتاب له (الظاهرة القرآنية) سنة 1946م، والذي حاول عبر متونه الإشارة إلى القرآن كفضاء رباني يصلح للتأمل والتذكر، ولا سيما حين نقرأه قراءة فينومينولوجية، حيث استطاع عبر قصة سيدنا يوسف أن يوجه المسلم نحو منهج المقاربة بين النصوص لأجل معرفة الحق. إن اختيار مالك بن نبي للظاهرة القرآنية كأول عمل في مشروع النهضة هو إقرار أن الحضارة المرجوة لن تكون إلا إذا تقدمنا نحو القرآن دراسة، وفهماً، وتمثلاً، فهو النور والمنطلق، ومصدر الثقة واليقين.

ثم أتبعها مباشرة بروايته القصيرة (لييك) سنة 1947م، وهي إشارة أيضاً إلى أن مشروع التحضر يجب أن يكون استجابة لمصطلح (لييك) الذي يُترجم عقدية التجديد، ويُحدد معالم القصدية الحضارية. إن حج إبراهيم (الأمة الضائعة التي عادت إلى طريقها) إلى البقاع المقدسة لم يكن المقصود به الحج في ذاته، بل أراد أن يشير إلى رمزية الحج، وهو الانتقال من حال إلى حال، عبر الاستعداد النفسي والاجتماعي. ويبدو القصد واضحاً في قول مالك بن نبي في نهاية الرواية: "أحس وكأني إنسان جديد، وأرى من حولي عالماً جديداً أريد العيش فيه إن شاء الله." (بن نبي. م، 2009: ص: 55)

وقد كتب عمر كامل مستقاي نصاً جميلاً عن ما سبق، إذ يقول: "فقصة (لييك) في أعقاب (الظاهرة القرآنية) كانت في زمن مبكر من تأمل بن نبي ترسم الطريق والاتجاه بعصر جديد يكتبه الجيل القادم بعد أن تستسلم الحضارة المادية الغربية لمصيرها في مسيرة القرن كما توقع بن نبي في دراساته أنه مسرى حج الفقراء تلبية

للنداء الإلهي (ليك اللهم ليك) في عفوية روحهم وأصالتها؛ في شخصية الجزائر التي غلفتها ظلل من ليل الاستعمار المظلم لكنها بقيت تستبطن البواعث. (بن نبي، م، 2009، ص: 11)

2- التأسيس:

انتقل مالك بن نبي بعد التأسيس إلى التأسيس على قواعد التأصيل، مع ربطها بفهم الواقع، والاستفادة من تجارب الأمم والحضارات المجاورة، ضمن سنة التعارف والتدافع في الوقت نفسه. ويبدو جلياً أن التأسيس بناه على أسس واقعية متينة، تساعد على فهم مشكلات الحضارة، وتمكننا بعد الفهم والتشخيص من معرفة العوامل الداخلية والخارجية التي تؤثر على تقدم الأمم وتخلّفها. إن التأسيس بدأه مالك بن نبي بكتابه الشهير (شروط النهضة) سنة 1947م. حيث ركّز فيه مالك بن نبي على دور الأفكار والقيم في بناء الحضارة، وبين أن الحضارة لا تُبنى إلا على أسسٍ مدروسة تنبع من ثلاثيات شهيرة نذكر بعضها:

1- الإنسان + التراب + الوقت.

2- الأفكار + الأشخاص + الأشياء.

3- الروح + العقل + اليد.

3- الأفق:

آمن مالك بن نبي أن الحضارة الإسلامية ستحقق عالميتها الثانية قريباً، وأن المسلم حين يعي دوره في التاريخ والحضارة سيتقدم نحو الأفق الحضاري، متسلحاً بالفكرة الدينية أولاً والتي تدفعه أن يكون سيد الأرض دون تعالي أو استكبار لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]، وبالعلم والتكنولوجيا ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [الأنفال: 60]، وبالإيمان ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:

إن الأفق يتجلى في الدعوة إلى بناء الإنسان الشاهد، ذلك الإنسان الرباني، والرسالي، والإنساني.... والذي سيحقق الاستخلاف والاستئناف. ولعل كتاب (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين) سنة 1972م، دلالة على الأفق المرسوم بدقة، فمالك يعتبر أن الروح المتطلعة لغد أفضل تهفو إلى التغيير، وترفض تفضيل الاستقالة من الحياة: "تبقى الأرواح متطلعة. وحين لا تجد وجهة تتطلع إليها تفضل الاستقالة من الحياة." (بن نبي.م، 1991، ص: 23)

ويبدو جلياً أن "الإنسان الشاهد" هو الذي سيحقق ذلك الأفق المنشود، ولن يرض بالاستقالة، بل سيذهب نحو وجهة الحضارة والتاريخ، فوجهة العالم الإسلامي بعد الأفل لن تكون إلا الحضارة والشَّاهدية. وكنت وضحت هذه الجدلية في قولي: "وإذا كنا اليوم نقر بتراجع المسلم عن الخط الاستخلافي الذي خُلق من أجله أصلاً (الشهادة الحضارية)، فإنه يتحتم علينا اليوم وغداً أن نعود إلى ذاته دراسة وتحليلاً من أجل معرفة إمكانية البعث والإحياء، والتمهيد للعالمية الإسلامية في دورتها الثانية، أو الخاتمة المنشودة لأمة الرحمان، لأن القاعدة الأكيدة في معادلة الحضارة هي كل أفل للحضارة يعني بالضرورة أن أفل الإنسان كان السابق عنها، وبالتالي فإن البناء الحضاري يستوجب الرجوع إليه أولاً لكونه الرأس الحقيقي والرمزي لكل أمة تحمل أبعاد الوجود." (بوعرفة.ع، 2006، ص: 13)

وعليه، ما الإنسان الشاهد؟ وما علاقته بالتقدم والتمدن؟ وما علاقة "إنسان النصف" بالانحطاط والتبعية؟ وكيف نستطيع بناء "الإنسان الشاهد"؟

أولاً- الإنسان الشاهد: المفهوم والدلالات

كنت نحت مُصطلح "الإنسان الشاهد" سنة 2001 في كتابي الموسوم (الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي). (بوعرفة.ع، 2001، ص: 64)، وهو مفهوم

مستوحى من القرآن الكريم أولاً، ومن فكر مالك بن نبي ثانياً، إذ أن مالك بن نبي ربط الرسالة الحضارية بمفهوم الشاهدية التي استوحاه من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]

وقد ذكر القرآن الكريم لفظة الشهداء (Witnesses) 18 مرة بمعنى الحضور الواعي في التاريخ، وذكرت ثلاث مرات بمعنى الموت في سبيل الله (Martyr).

إنّ "الإنسان الشاهد" هو كائن رسالي، واستخلافي، ورباني في الوقت نفسه، لأن الله اختاره لتلك الرسالة الربانية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]

ويتميز الإنسان الشاهد بما يأتي:

• **الإيمان (القلب):** تبدأ الحضارة أول الأمر من دافعية القلب، فالإيمان شرط أساس لوجود الإنسان الشاهد، فهو الذي يمنحه القيم والمبادئ التي ينطلق منها في حياته ومشروعه الحضاري.

• **العلم (العقل):** يُمكنه من فهم العالم من حوله، ثم فهم الرسالة من وجوده.

• **العمل (اليد):** ترجمة إيمانه ومعرفته إلى عملٍ ملموسٍ يغيّر الواقع للأفضل، ويُحقق التنمية.

• **الجهاد (المقاومة الإيجابية):** مواجهة التحديات والصعوبات، والبقاء دوماً صامداً ومقاوماً حتى ينتصر للحق والعدل، ويُحقق الاستخلاف.

• **الاجتهاد (الابتكار والإبداع):** الإنسان الشاهد كائن مجتهد، يُكون نفسه باستمرار، ويتكيف مع الواقع، ويفهم الماضي، ويستشرف المستقبل، وهو أيضاً كائن مستأنف لما تم فعله من قبل السلف.

إن "الإنسان الشاهد" استقال من التاريخ لحظة سيطرة الغريزة، وخبو الروح، وتراجع العقل، فكانت نهايته الحضارية حين أعلن سقوط بغداد على يد المغول سنة (656 هـ)، وسقوط دولة الموحدين بالأندلس سنة 1269م.

ظهر إنسان ما بعد الموحدين بعد أفول الحضارة الإسلامية، وهو مفهوم تاريخي، ترجمه مالك بن نبي إلى مفهوم سوسيو-أنثربولوجي عبر مصطلحين رئيسيين، الأول "إنسان النصف" أو "الكتلة المتحركة". ونحن سنستعمل مصطلح "إنسان النصف" نظرا لكثرة استعماله من قبل مالك بن نبي أكثر من مفهوم "إنسان الكتلة" والذي استعاره من الفيلسوف الإسباني خوسيه أورtega إي غاسيت (1883-1955) صاحب كتاب (تمرد الجماهير)، والذي أيضا قدم جدلية بين "الإنسان الجمهور" (الكتلة) و"الإنسان الصفوة" (المرجو) في قوله: "الإنسان الجمهور يحس بنفسه كاملاً. أما الإنسان الصفوة فيحتاج كيا يحس بنفسه كاملاً، إلى أن يكون معجباً بنفسه على شكل خاص، والإيمان بكماله ليس مقيداً به تكوينياً، ولا هو أصيل فيه، وإنما يأتيه من تباهيه؛ بل إن لهذا الإيمان طابعاً وهمياً وخيالياً وإشكالياً. لذلك يحتاج المتباهي إلى الآخرين، فيبحث لديهم عن تأكيد للفكرة التي يريد أن تكون له عن نفسه." (خوسيه. إ. غ، 2011، ص: 87)



ثانياً- إنسان النصف: المعنى والسياقات

يُقابل "الإنسان الشاهد" حضارياً "إنسان النصف"، وتاريخياً "إنسان ما بعد الموحدين"، وهو إنسان فقد هويته الحضارية، وأصبح مشتتاً بين حضارات الطين والروح، ويمثل محوراً سماه مالك بن نبي بمحور طنجة جاكارتا، وهو محور مُتخلف عن محور واشنطن موسكو.

يُعدّ مفهوم "إنسان النصف" من أهم المفاهيم التي ابتكرها مالك بن نبي لوصف ظاهرة خطيرة تهدد نهضة الأمم وتقدمها. يُجسّد هذا المفهوم نمطًا سلوكيًا وثقافيًا شاذًا يتميز بالتناقض بين المطالب والواجبات، وبين المعرفة والسلوك، وبين القول والفعل. يقول مالك بن نبي في إحدى محاضراته: "إنسان النصف هو الإنسان شديد الإلحاح بطلب حقوقه، ولكنه لا يقوم بالحد الأدنى من واجباته، أو من ثقافة المتاح المتوفرة بين يديه! يذهب للمدرسة ليمضي الساعات فقط، وهمه الأكبر الحصول على تليخيص أستاذه أو المادة المطلوبة للامتحان دون أن يكون هدفه التعلم! يذهب للعمل ويقضي ساعاته بأي طريقة المهم بالنهاية أن ينقضي الوقت و يعود لحياته و يحصل على معاشه! لا يدرس كطالب، ولا يعمل كموظف، ولا يبدع في معمل، ولا يتكرر في متجر، ولا ينجز في مشروع! هو باستمرار إنسان النصف.. يطالب بحقوقه ولا يقوم بواجباته." (بن نبي. م، د.ت، محاضرة)

إن إنسان النصف هو الذي يرى الأحداث التي تعترضه على أنها قدر مكتوب، ومصير محتوم، فلا يملك أي إرادة ليغيّر فيها أو منها شيئًا (ذهان المستحيل). وتعود أسباب هذا التصور السلبي لهيمنة روح الهزيمة في نفسه منذ أن هوى من سرح الحضارة. وفعلاً أن إفساد النّهضات والحضارات يكون بظهور "إنسان النصف" في كل المجتمعات.

إن الواقع يُبين أن الإنسان الحاضر هو إنسان سلبي، ومتهافت، ولا سيما ذلك الإنسان المتحذلق بقيم التمدن، حيث يرى مالك بن نبي أن بالجزائر ظهر صنفين من الناس: " ففي بلاد مستعمرة كالجزائر، نرى أنه ليس فيها طبقات، وإنما هنالك صنفان من الناس: الصنف الأول: وهو الذي يسكن المدينة، إما متعطّل لا يعمل شيئاً، وإما أنه يبيع بعض العقاقير والحاجات، وإما أنه "شاوِش" في إدارة استعمارية، وبعض آخر نجده محامياً أو صيدلياً أو قاضياً، وقليل ما هم.

والصنف الثاني: وهو الذي يسكن البادية مترحلاً بلا مواش، فلاحاً بلا محراث ولا أرض. " (بن نبي. م، 1986، ص: 76).

بيد أن الفرق بين الصنفين أن ساكن الحضر يُمثل إنسان النصف، حيث تتمثل فيه القلة في كل شيء.

أما الثاني إنسان الفطرة هو ذلك الذي يرضى من الأشياء بالعدم، لكنه صنع لنفسه عالماً خاصاً به، على الأقل لا يرى لنفسه امتداداً في الآخر.

إن إنسان المدينة (النصف) والذي رضي بالقليل من الأشياء، قد تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط التي قضت على المدنيات المتعاقبة على بلاده من أيام قرطاجنة إلى يومنا: " فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه، فقد عاش حياته دائماً في منحدر المدينة إذ هو دائماً في منتصف طريق. وفي منتصف فكرة، وفي منتصف تطور، لا يعرف كيف يصل إلى هدف، إذ هو ليس "نقطة الانطلاق" في التاريخ كرجل الفطرة؛ ولا "نقطة الانتهاء" كرجل الحضارة، بل هو "نقطة التعليق" في التطور، وفي التاريخ، وفي الحضارة. فرجل المدينة إذن يصدق عليه هذان الوصفان: " إنسان القلة" و"إنسان النصف" الذي دخل في ميدان فكرة هي الإصلاح، فمسخها (نصف فكرة) وأطلق عليها اسم "السياسة" لأنه لم يكن مستعداً إلا لنصف جهد، ونصف اجتهد، ونصف طريق. " (بن نبي. م، 1986، ص: 76)

ويبدو أن إنسان المدينة لم يتغير حاله بعد الاستقلال، فلا زالت نفسه سجيئة أو هام إنسان ما بعد الموحدين: "واليوم فإن ذلك الإنسان المقل يحاول وضع القضية الجزائرية في طريق نصف الحل، أمام المجلس المنصف بين المستعمرين وأهل البلاد ذلك المجلس الذي فرضه الاستعمار كميدان لإنصاف المثقفين. " (بن نبي. م، 1986، ص: 76)

إن أسبابَ عدم النهوض على الرغم من كل محاولات الإقلاع الحضاري، لا سيما زمن النهضة العربية في القرن التاسع عشر تعود أساسًا إلى هذا المسلم (المقلد)، والذي لم ترتفع به عقائده إلى مستوى ما يريده منه خالقه، لقد دمر هذا الصنف من المسلمين نفسه تاريخيًا، وجعل نفسه مغلوبًا على أمره، ومولعًا بتقليد غالبه (الغرب) في كل شيء، وحلل مالك بن نبي ذلك الوضع في قوله: "ونحن مدينون بهذا النقص لرجل "القلة" الذي بتر فكرة النهضة فلم ير في مشكلتها إلا حاجاته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرئيس لما في نفسه من كساد. وعليه، فإنه لم ير في الثقافة إلا المظهر التافه، فهي عنده: طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد: فعلم يجلب رزقًا.

ونتيجة هذا التحريف لمعنى الثقافة متجسدة في ذات ما نسميه: "المتعالم أو المتعائل". (بن نبي. م، 1984، ص: 75)

إن حقيقةَ إنسان النصف تظهر في السلوك اليومي لأنسان ما بعد الموحدين، وفي فكره، وفي تدينه. والعجيب أنه كلما أوغلنا في الزمن زادت أمراضه أكثر مما كانت عليه: "والحقيقة أننا قبل خمسين عاما كنا نعرف مرضا واحدا يمكن علاجه، وهو الجهل والامية، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا جديدا مستعصيا هو (التعالم). وإن شئت فقل: الحرفية في التعلم، والصعوبة كل الصعوبة في مداواته. وهكذا فقد أتيح لجيلنا أن يرى خلال النصف الأخير من هذا القرن ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا: حامل المرقعات ذي الثياب البالية، وحامل اللافتات العلمية. فإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها. لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيره ضميرا فعالا، بل ليجعله آلة للعيش، وسلما يصعد به إلى منصة البرلمان. وهكذا يصبح العلم مسخة وعملة زائفة، غير قابلة للصرف. وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق، لأنه جهل حجرتة الحروف الأبجدية." (بن نبي. م، 1986، ص: 84).



ثالثاً- سمات إنسان النصف:

التعرف على "إنسان النصف" ليس بالأمر الصعب، بل يكفي أن نقوم بتجربة واقعية ذات بعد خيالي لنكتشف أراضه النفسية والاجتماعية، حيث افترض مالك بن نبي في كتابه (فكرة الأفرو-آسيوية) زائراً فضائياً يزور الأرض، وهو أصم، وأبكم. وبذلك يكون فاقد القدرة على التواصل مع أهل الأرض، حتى لا تكون لديه أحكام جاهزة. (بن نبي. م، 2001، ص: 76)

إن أول خطوة يفترضها مالك بن نبي نزول الزائر الفضائي على المحور الآتي: واشنطن - موسكو (سابقاً) وقد نُغير المحور ليتلاءم مع واقعنا المعاصر في أحضان الألفية الثالثة ونفترضه على السبيل المثال: واشنطن - طوكيو.

ثم ينعطف إلى المحور الممتد على خط (طنجة - جاكارتا)، فمن البديهي أن الزائر السماوي، يكتشف عالماً ثانياً، يختلف اختلافاً جذرياً عن الأول، لا من حيث العمران ومظاهر الحياة فحسب، بل حتى في البنية الحضارية للكائن الحي.

مما لا يدعو إلى الريبة والشك أن الزائر السماوي سيلاحظ: "بعد أن جاب المحورين شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، مدى الفرق والاختلاف الواقع بين المحورين، محور التقنية والتطور، ومحور الفطرة والتخلف، فمحور واشنطن - طوكيو محور الحضارة والتقدم، ومحور الإنسان المُحرك للتاريخ، بينما المحور الثاني محور "الإنسان التابع" والمغلوب على أمره، أو كما قال طه حسين و فرانز فانون " المعذبون في الأرض". " (بوعرفة. ع، 2006، ص: 44)



إن التوصيف السابق، يجعل المتأمل لأحوال الحضارة يدرس كل محور على حدة، ليعرف أسباب التفوق، وفي المحور الثاني أسباب التخلف والانحطاط، ويبدو أن أول سبب هو الإنسان.

إن إنسان محور طنجة - جاكارتا هو إنسان خارج التاريخ، مغلوب على أمره، اجتمعت في ذاته: " الأمراض شبه الصبائية تدخل تحت إطار "ما ضد الإنسان" (Anti-homme) وبالتالي تعتبر نقطة خطيرة في مجال البعث الحضاري، لأنها مرتبطة بالمرحلة الأخيرة تعكس مرحلة الوهن الفكري والنفسي الناتج عن تراكم مجموع الأمراض، التي أدت إلى إخراج المسلم من المركزية الحضارية والتاريخية إلى هامش التاريخ أو مزبلة الحضارة كما قال بن نبي، إذ تحول الإنسان إلى مجرد صبي في حركة الحضارة والتاريخ. " (بوعرفة. ع، 2006، ص: 84)

ويمكن حصر تلك الأمراض أو السمات فيما يأتي:

1- الاغتراب الهوياتي: تحول المسلم في عالم الكبار إلى أهلي (ذهنيات الأهلي)، إذ فقد هويته الحضارية، مما أدى به إلى الشعور بالضياع التاريخي، والاغتراب الحضاري. فإما يتصرف كالنعامة؛ فيدفن رأسه في الأرض (الماضي) ليرسم لنفسه عالماً سحرياً (كنا = الكمال)، أو ينسلخ من جلده، فيغدو تائهاً في متاهات حضارة الطين.

بيد أن أكبر بلاء هو الاعتقاد بالكمال على الرغم من الانحطاط والتخلف، وذلك مرض قاتل، يقول بن نبي: "ومصدر هذا البلاء معروف، فمن المسلم به الذي لا يتنازع فيه اثنان أن الإسلام دين كامل، بيد أن هذه القضية قد أدت في ضمير ما بعد الموحدين إلى قضية أخرى هي: (نحن مسلمون) فتتج: (إذن نحن كاملون)". (بن نبي. م، 1986، ص: 85)

يحاول إنسان النصف التغلب على الاغتراب عبر آلية المدح والفخر، وهي محاولة تغطية مركب النقص من الآخر، فيلجأ كما قال بن نبي إلى: "استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية، واضح أنها وسيلة للتخضير والتسلية تغزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية". (بن نبي. م، 1986، ص: 60)

2- الاستلاب الحضاري: (الزبونية الحضارية) يُصبح إنسان النصف تابعاً للغير (الغالب) ويُقلّده دون وعيٍ منه، دون تمييز بين ما يناسب ثقافته وحضارته وما لا يناسبها أصلاً، إذ هو يتعامل مع الآخر تعامل الزبون لا التلميذ، عكس الإنسان الياباني الذي تحول في لحظة تاريخية حرجة إلى تلميذ ذكي تعلم من الغرب ما أفاده في تحقيق القفزة الحضارية: "فحين كان الطالب الياباني يذهب إلى الغرب في أواخر القرن الماضي، كان يذهب ليتعلم التقنية، مع الحفاظ المشدد على أخلاق بلاده، كما سيذهب بعده، ذلك التلميذ الصيني المتواضع (نسيان هماسين) ليتعلم في مختبر (جوليو- كوري) بباريس، وليعود لبلاده بالمعلومات النووية التي تدهش العالم اليوم. بينما غالباً ما يحدث للطالب، الذي يذهب من بلادنا، أن يعود بشهادة ولكن بعد أن يترك روحه في مقاهي أو خمارات الحي اللاتيني أو في النوادي الوجودية بـ (سان جرمان)". (بن نبي. م، 2002، ص ص: 121، 122)

3- مركب النقص: (النكوص الحضاري) يعاني "إنسان النصف" من أزمة نفسية

ناتجة عن شعوره بالضيق وفقدان الهوية، فهو يحاول قدر الإمكان تغطية هذه النقص بالتشبه بالغرب، وهو بذلك يُقر بمركب النقص ولا ينفيه، حيث يؤكد بن نبي ذلك في قوله: "لقد أحدثت هذه الصدمة، عند قبيل من المثقفين المسلمين، شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية، حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، كأنهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاة في التزي بالزي الغربي، ويتحل في أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلا مظهراً لا شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية." (بن نبي. م، 1969، ص: 10)

ومن أبرز محطات مركب النقص ما يأتي:

1.3- السلبية والاستسلام: يتميز إنسان النصف بالسلبية والاستسلام للأمر الواقع، لا يبذل أي جهد للتغيير، ويستسلم للظروف بدلاً من مقاومتها، فإن سُئل عن الأمر فإما تضخيم إلى حد الاستحالة، أو تبسيط لحد السهولة.

إن إنسان ما بعد الموحدين أصيب بذهانين (Deux psychoses) السهل والمستحيل. وذهان السهولة ينطلق من شعار "كل شيء سهل" مما يوحي بعدم الجهد أو النشاط ويفضي إلى الكسل والدعة، فالمسلم اللاشاهدي يسهل الأمور حتى تعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى أدنى طاقة أو عمل، مما يؤدي إلى عدم التخطيط والتقدير، فيظهر داء التأجيل أحد ألد أعداء الوقت، فيحدث الشلل الاجتماعي بسبب خلل الوظائف في السلم الاجتماعي: "وهذان الشكلا من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من (الذهان Psychose): فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها (سهلة)، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى، (كما كانت الحال في قضية فلسطين)؛ وإما أن يأخذ صورة النظر إليها

على أنها (مستحيلة)، فيصاب النشاط بالشلل وهو ما يحدث غالباً في شمال إفريقيا. " (بن نبي.م، 1986، ص: 88)

2.3- التناقض بين المعرفة والسلوك: يتمتع إنسان النصف بمعرفة واسعة، ويحفظ نظريات عدة، لكنه غير قادر على أن يُجسدها في سلوكه وتصرفاته. ويمتلك ثقافة غزيرة، لكنه لا يطبقها على أرض الواقع.

4- هيمنة اللاشعور الجمعي: وهو سلوك ينزع نحو العتاقة القاتلة، والعتاقة ضد الأوصالة، حيث أنها نوع من الركون إلى التخليخيل الماضي السلبى، وهو نوع من التبعية نراه متمثلاً في بعض السمات المرضية، نذكر بعضها:

1.4- الدروشة: مرض أصاب إنسان ما بعد الموحدين، حيث تخلى الإنسان عن العقل والتفكير النير، واتجه صوب الدروشة (عكس التصوف)، وأصبح المسلم ينتظر الكرامات والمعجزات لتغيّر حاله، ويستند على الأحاجي والرمزيات ليفسر أحواله، فتاه المسام في عالم اللامعقول: "ومن خلال ما سبق نلاحظ أنّ الفكرة عائق مثل إذ لم تكن أصيلة لمرجعياتها ممتلئة لعنصر الفاعلية. أمّا إذا كان الفكر يصنع أفكار الدروشة والأحاجي، وينشد أوهام الإشراف الزائف فإنّه لا محالة سيجعل الإنسان مجرد دمية تحركها خلف ستائر مسرح الحضارة أيدي غريبة. " (بوعرفة. ع، 2006، ص: 59)

2.4- السفسطة وداء الجدال: يتجلى داء الجدال في واقعنا المعاصر تجلياً واضحاً في مواقف المفكر، والمثقف، والأديب، والذي لا يريد أن يسمع لخصمه أو منتقده، فلا تهمة الحقيقة إن كانت في غير مذهبه ونحلته. إن المصلح الديني لا يسمع للمفكر اليساري أو اليميني، والعكس صحيح، رغم وجود نقاط مشتركة لو اتفقوا عليها لأمكنهم حل كثير من الأزمات: "لم يكن المتجادلون يبحثون عن حقائق وإنما عن براهين، ولم يكن المجادل يستمع إلى محدثه، بل كان يغرقه في طوفان من الكلام.

والجدل من أضر الأمور على كيان الأمة، إذ هو يقوم في عمومه على هيام أحق بالكلمات." (بن نبي. م، 1986، ص: 58)

3.4- الخطابة أو الحرفية: حين تنطوي النفس على أغوارها العميقة في متاهات اللاشعور الجمعي وينصاع الأنا للهو، يجد السلوك الغريزي طريقاً سهلاً للتواجد والتحقق. وتعمق الأزمة عندما يفقد العقل رشده ويسبح في يم التيه، ساعتها يتجه السلوك العام للجماعة إلى مواطن القداسة، ومن أهمها اللغة، إذ ينشأ سلوك سحري غريب، يتجه نحو اللفظية المتمثلة في إجادة الكلام والهيام به، وتصبح الألفاظ معيار الكمال وتتم بلوغ المرام، وبدل أن يكون العقل والقلب و اليد معايير الوجود، يصبح اللسان وما يلوّك من ألفاظ خلاصة قد لا تحمل أية معنى ولا فكرة هو المعيار: "وهنا يؤدي بنا المقام إلى الحديث عن الحرفية، فلقد أبدعت العبقريّة العربية أجمل لغات العالم، ولكن هذه العبقريّة كانت في موقفها مما أبدعت، كالمثال الذي هام بتمثاله، وقد أبدع مناقشه، والغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولاً وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر ضروري لكل جهد إيجابي من أجل البناء." (بن نبي. م، 1986، ص: 58)

5- العطالة الحضارية: (النشاط المنقوص) إنسان النصف عالة على نفسه وعلى المجتمع، فلا يعمل ولا يجتهد، وإن عمل فلا يتم عمله، بل يتركه في المنتصف، وتتجلى تلك العطالة فيما يأتي:

1.5- مطالبة بالحقوق دون الوفاء بالواجبات: يُركز إنسان النصف على المطالبة بحقوقه، دون الاهتمام بواجباته. كما يُطالب بالتغيير والتقدم، لكنه لا يبذل أي جهد لتحقيقه، ولا يسعى إلى أخذ أسبابه بالقوة، كما فعل الإنسان الياباني.

2.5- غياب الإبداع والمبادرة: يفتقر إنسان النصف إلى روح الإبداع والمبادرة.

ويعتمد على الآخرين في حل مشكلاته لا سيما الغرب المتطور أو حتى بعض دول الشرق الآسيوي (كالصين حالياً)، بدلاً من الاعتماد على قدراته وإمكاناته، والغريب في الأمر أن حتى العمالة البسيطة نجد بعض الدول العربية (الخليج) يستقدمونها من الخارج لتقوم بأعمال كان من الضروري أن يقوم بها أهل البلد. ونظراً لكسله وفساد ثقافته، يلجأ دوماً إلى تكديس الأشياء ظناً منه أن تجميع الأشياء يصنع حضارة، وأن اقتناء تكنولوجيا يُخرجه من التخلف.

3.5- نزعة التكديس: داء التكديس مرض شامل مس الفلاح، والتاجر، والقائد، والمثقف، والطالب،.. وأخطر مظاهر التكديس على الإطلاق ما تعلق بالأفكار، فالثقافة الإسلامية المعاصرة تزخر بكم هائل لا طائل منه من المعلومات والمعارف، ولم تُفد المسلم في حياته ولا معاركه ولا تحدياته، بل كانت سبباً في هزائمه وتخلفه. إن من يكس أطنان الحديد والإسمنت والحجارة لا يبني أبداً بيتاً، لأن ما يكس يدخل في نطاق الضائع. (بن نبي. م، 1986، ص: 46)

4.5- الذرية: رغم كونها مجرد عرض إلا أن الفكر الإسلامي لم يستطع التحرر منها، قياساً والعقل الياباني الذي عدلها في غضون نصف قرن من عمره الحضاري: "فلن يكون هذا العجز سوى عارض خاص بعقل ما بعد الموحدين، ولم تستطع الحركة الحديثة أو حركة الإصلاح تعديل الاستعداد العقلي في هذه الناحية تعديلاً جوهرياً." (بن نبي. م، 1986، ص: 84)

إن الذرية تعكس مأساة إنسان استيقظ دون (هزة قلب)، ودون توتر فكري، أو قلق حضاري يدفعه إلى التقدم وتحقيق النموذج.

5.5- الوثنية: إن العقل الإسلامي منذ الانحطاط يعيش في دوامة الأوثان، مما نتج عنه ضعف العلاقات وتمزق الشبكة الاجتماعية، وعودة عقلية التجمع المُفكك. ويلخص بن نبي الجدلية السابقة في قوله: "هذه الجدلية تحدد طبيعة علاقة الفكرة -

الشخص، التي تنقلب عند التطرف إلى علاقة فكرة-وثن، وبفضل تلك العلاقات المنحرفة نحو التطرف فإن الشعب الجزائري أقام قبب مرابطيه وأوليائه، وحافظ على عكوفه عليهم عبر قرون ما بعد الموحدين ". (بن نبي. م، 2002، ص: 96)

6.5- نزعة الرفض: يرى بن نبي أن الرفض ينميه موجهوا الصراع الفكري من أجل تعطيل العقل النقدي لدى الأمم غير الغربية، حيث إن الرفض لم يخدم إنسان ما بعد الموحدين إلا نادرًا، لكنه خدم الفكر الموازي (الاستعمار) إنه يتجلى في عالم السياسة، فالزعيم السياسي يعتقد الرفض ميزة والنقد ضعفًا، كما نلاحظه في شخص الفقيه عندما لا يعترف بالخطأ في الفتاوى حتى وإن برهنوا له على فسادها من صحيح الكتاب والسنة.

يعتبر مالك بن نبي عقدة الرفض عائقًا مشلًا لمصالح الأمة في جميع جوانبها: "ويجب أن أضيف بأنها لم تكن المرة الأولى، التي يعترضني في الطريق هذا العائق المشل (الرفض)، والذي يبدو لي الآن، بعدما مر بعض الزمن، أنه لم يعق في شيء مصالح الاستعمار، وإنما أعاق القضية الوطنية." (بن نبي. م، 2002، ص: 42)

يتبين عبر هذه السمات جليًا أن إنسان ما بعد الموحدين كان يتجه صوب مزبلة الحضارة ومقبرتها، وأن نتائج خروجه من التاريخ كانت معلومة بالضرورة، قد نجد بعض توقعاتها في مقدمة ابن خلدون منذ قرون خلت، وبالفعل تجسدت في نتيجتين عامتين:

1- الانحطاط الحضاري: دخل "إنسان النصف" في انحطاط مريع منذ أن تغلبت عليه الغريزة، فتسببت في خروجه من التاريخ.

2- ضعف الشخصية: يساهم انتشار ثقافة "إنسان النصف" في ضعف الشخصية المجتمعية، وفقدان الثقة بالنفس، وعدم المبادرة، والركون إلى السهل والبسيط،

وقبول العادي والنفور من اللامألوف.



رابعاً- جدلية "الإنسان الشاهد" و"إنسان النصف" من الانحطاط إلى الانبعاث

يكمن الجدل بين مفهوم "الإنسان الشاهد" و"الإنسان النصف"، فيما سماه مالك بن نبي بالتداول التاريخي، حيث إن كل منهما هو نهاية الآخر، إذ يظهر إنسان النصف حين يأفل نجم الإنسان الشاهد ويخرج من التاريخ، ويتجلى ذلك عبر الثلاثية البنائية: الميلاد، القوة، الضعف.

يُقدّم مالك بن نبي عبر تحليله لجدلية "الإنسان الشاهد" و"الإنسان النصف" إطاراً فكرياً لفهم واقع الأمة الإسلامية، وأزماتها، وعوائقها، ويهدف إلى تحفيز قادة الأمة وعلمائها على العمل لبناء "الإنسان الشاهد" كنموذج مستقبلي يُعيد تشكيل المشهد الحضاري العالمي، باعتبارها يحمل رسالة إلهية (الاستخلاف) ومسؤولية أخلاقية لنشر الخير والعدل في العالم (الشهادة)، ويستأنف في الوقت نفسه مشروع سلفه (الرسالة)، الذي استطاع أن يُثبت وجوده عدة قرون.

وقبل الانخراط في عملية بناء الإنسان الشاهد من معكوس إنسان النصف (إنسان ما بعد الموحدين) يجب الوقوف عند العتبات الآتية:

1- وعي حركة التاريخ:

عبر وعي سنة التداول التاريخي لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [أل عمران: 140]. ثم إدراك وفهم سنة التغيير الإيجابي لقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ [الرعد: 11].

ثم التحلي بالإيمان بالله، وأنه سيحقق وعده، وأن الوعد الإلهي سيتحقق حين نُحقق نحن شروط الحضارة، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ﴿[الأعراف: 96]

2- فهم سنن التغيير:

أن التغيير يجب أن يكون بالعلم (أنظروا)، وأن يكون بعدها بالعمل (أعدوا)، ثم بالتدرج والتأني (ولا تعجل).

3- التفكير والتنظير:

وحين نُجسد ما سبق، يأتي دور النخبة لتُفكر في كَيْفِيَّاتِ التغيير، والقادة في العمل على تجسيده، ثم دور الشعوب في الإعانة عليه.

وعليه: كيف نبني الإنسان الشاهد؟

إن بناء الإنسان أصعب بناء على الإطلاق، فنحن لا نتكلم عن فرد (كتلة)، بل نتكلم عن أمة. وهذه المماثلة نجد مالك بن نبي تطرق لها حين تحدث عن إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم حين اكتمل وجوده، واشتد ساعده، واستد نظره، وسمه الله بالأمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ أي ذاتاً بشرية حين وصلت على لحظة الاكتمال وتحقيق الشاهدية تحولت إلى أمة كاملة.

إن أول شرط من شروط البعث الحضاري، هي استبدال القابلية بالاستعمار بالقابلية للحضارة، فالأولى سيطرت على إنسان ما بعد الموحدين، والثانية ستسكن وجدان الإنسان المستقبلي (الشاهد). (بوعرفة & وآخرون، 2014، ص: 37)

إن بناء الإنسان الشاهد، وضع له مالك بن نبي نظريات مترابطة، هي لب مشروعه الحضاري، ويُمكن فعلاً بناء جيل جديد يُحقق الشاهدية الحضارية، إذا تتبعنا العتبات الانبعائية التي وضعها مع تطويرها، وتجديدها، وتسديده، وتجاوز كثير من الهنات التي أشرنا إليها في دراسات سابقة. (لاكلي. ح، 2023، ص ص:

31-56)

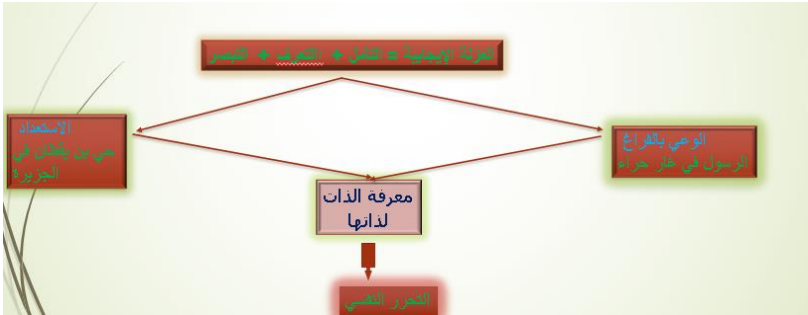
وَيُمْكِنُ حَصْرُ تِلْكَ الْعَتَبَاتِ فِيهَا يَأْتِي:

1- عتبة الفراغ الكوني

إن الإنسان لا يمكن أن يعي ذاته وعيًا تامًا إلى بواسطة لحظة تاريخية فارقة، (Bouarfa, 2019, p. 73) تجعل إنسان النصف يعرف ذاته معرفة تؤهله أن يحلم بالتغيير، والتقدم نحو مثاله التاريخي "الإنسان الشاهد". ولكي يحدث هذا الاستبطان التاريخي يجب على الأمة أن تدخل مرحلة فراغ كوني عبر برامج تعليمية هادفة، تشعر الأمة بلحظة عزلة ظرفية؛ كما حدث لزرادشت.

إن الانعزال لا يفهم بمعناه المكاني، بل بمعناه الوجداني، يقول بن نبي: "إذ يعتزل الإنسان وحيداً، يتتابه شعورٌ بالفراغ الكوني، لكنَّ طريقته في ملء هذا الفراغ؛ هي التي تحدّد طُرُزَ ثقافته وحضارته؛ أي سائر الخصائص الداخلية منها والخارجية لوظيفته التاريخية." (بن نبي. م، 2002، ص: 17)

وقدم لنا مثالين، الأول يتمثل في حي بن يقظان في جزيرة نائية، والثاني لربنسون كروزو حين عاش منفردًا بجزيرة عقدًا من الزمن.



2- عتبة وعي الصعوبات

بعد ما ندخل الأمة (الجيل المأمول) في مرحلة الفراغ الكوني، يجب الانتقال بالجيل إلى عتبة جديدة، وهي وعي الصعوبات والتحديات، وهي التي وسمها

خوسيه ارتيغاس باللحظة الحرجة.

إن ميلاد المجتمع الإسلامي الجديد يبدأ بكل وضوح من بناء الإنسان، وإذا كان الإنسان ليس في مستوى التحدي يكون من الصعب دخول التاريخ. حيث يبدأ العمل الخلاق بإشعار الإنسان بالصعوبات التي يعيشها، وقد أكد مالك بن نبي ذلك في عدة مؤلفات هامة نخص منها بالخصوص كتابه (تأملات) حيث وضع فصلاً عنونه: (الصعوبات بوصفها علامة نمو في المجتمع العربي).

إن الفرد عندما يقف أمام موقف تحفه الصعوبات، يتتابه القلق والحاجة القصوى للخلاص، فيتقل من حالة الفراغ إلى حالة التوتر النفسي، فيحصل للذات المتوترة استعداد ذهني وجسدي معاً، يحرر الإنسان من الكمون، ويدفعه إلى الحق من أجل تجاوز الصعوبات، والحالة نفسها على المجتمع باعتباره وحدة نفسية: "إنه بصفة عامة يمكننا عدّ هذه الصعوبات أزمة نمو تعيشها الأمة العربية، وطبيعي أنه ككل نمو لا بد له من تعب وقلق وألم، ذلك أنه يقع في المجتمع وفي الفرد نفسه أيضاً شيء من التطاحن، بين قوات سلبية تدعوه إلى السكون، وهي دعوة تجد في طبيعة الإنسان عامة قبولاً بسبب ميله الفطري إلى السهولة، وبين قوات إيجابية تدعوه إلى الكد والعمل، تحثه صعداً إلى الرقي، الذي هو رسالة الأمة، وإلى الدفاع عن كيان المجتمع؛ وبصورة عامة إنها تدعوه إلى القيام بالواجبات.. وهكذا نرى أن الصعوبات هي أكبر مبشر بالحياة الاجتماعية الصحيحة". (بن نبي. م، 1979، ص: 21)

3- عتبة التوتر الخلاق

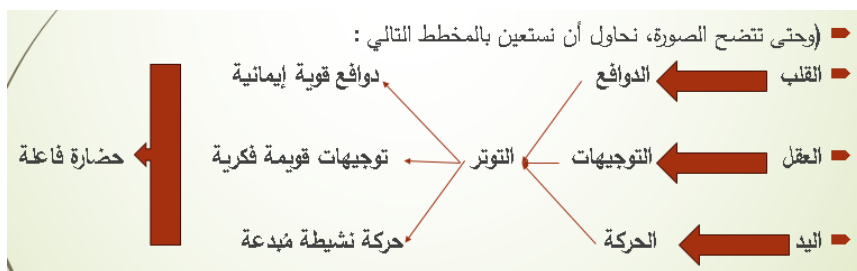
نطلق من عبارة شهيرة لتوينبي حين قال: "إن الصعوبات هي تحد خلاق لأنه يستحق الرد عليه."

يشهد العالم الإسلامي منذ عصر الموحدين حالة اللاتوتر ولا يعرف القلق

الحضاري، ونحن الآن ملزمون حسب بن نبي أن نحدث شرارة التوتر والقلق في ضمير إنسان ما بعد الموحدين، حتى نخرجه من كهفيته.

إن التوتر كحالة شعورية، تدفع الإنسان إلى الفعل النقدي الذي سماه بن نبي بالتطهير الذاتي، وبالتالي يدفع الأنا لتسارع في عملية التغير الجذري. (Bouarfa, 2019, p. 80)

وحتما هناك علاقة وطيدة بين مقولة التوتر ومفهوم الفاعلية، فانعدام التوتر هو انعدام للفاعلية حتما، حيث يقول بن نبي: "إننا إذا حللناها إلى عناصرها الأولية البسيطة نجدها تنحصر في عناصر ثلاثة: اليد، القلب، العقل. لأن كل الطاقات الاجتماعية تنطلق منها، والعملية الاجتماعية نفسها لا تخرج عن هذه العناصر الثلاثة: فكل طاقة اجتماعية تصدر حتما من دوافع القلب ومن مسوغات وتوجيهات العقل ومن حركات الاعضاء، فكل نشاط اجتماعي مركب من هذه العناصر، والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأقوم التوجيهات وأنشط الحركات". (بن نبي. م، 1979، ص: 38)



4- عتبة التوازن: الطاقة الحيوية بين الهدم والبناء

إن التوتر باعتبار حالة ضرورية لبعث الذات، إلا أنه يجب أن ندرك أن التوازن يجب أن يكون هو الأساس في بناء الإنسان الشاهد، ولا نركز فقط على عالم الأفكار فقط، بل علينا أن ندرس الطاقة الحيوية بالإنسان، فالإنسان المرتقب: "يتوجب على الفرد تلبية حاجاته الحيوية مهما كان نوع الحياة التي يحياها، سواء أكان منعزلاً

مثل (حي بن يقظان) أو ساكناً في مدينة كبيرة.

لذا يتعين عليه أن ينفق من طاقته الحيوية التي حُصِّت بها طبيعته، غير أن الطاقة هذه- وهي في طبيعتها البهيمية- لا تندمج مع الحياة في المجتمع؛ بحيث إن اندماج الفرد الاجتماعي يجب أن يراعي احتياجاته من ناحية، واحتياجات المجتمع الذي يندمج فيه من ناحية أخرى.

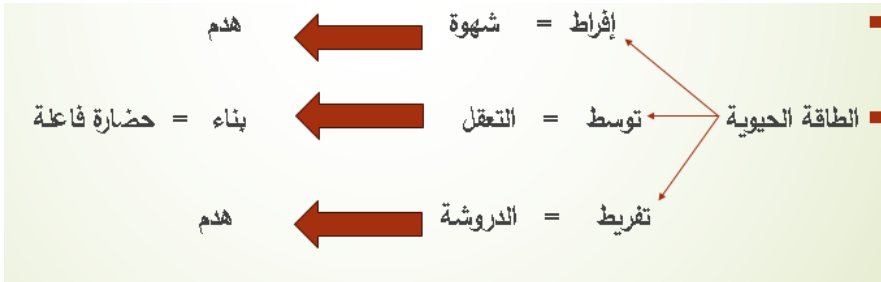
والمجتمع في الواقع يفرض قواعد وضوابط وقوانين وتقاليد، وحتى بعض الأذواق والأحكام المسبقة هي بالنسبة إليه ليست بأقل حيوية.

وإذن فإن اطراد اندماج الفرد يتدرج مستجيباً لطبيعته من ناحية، ومن ناحية أخرى مستجيباً لنسق من أصول وقواعد في الحياة يمكن تعريفه وهو في مرحلة متقدمة بمثابة عقد اجتماعي". (بن نبي. م، 2002، ص: 49)

والغاية من التوازن بين الجانب الروحي والغريزي هو:

أ- الانسجام الحضاري: مطلب ضروري بين جميع القوى الفعالة في البنية الإنسانية، والمحافظة على الانسجام الذاتي يتطلب من المجتمع أن يضع القيم والأطر التي ترشد الطاقة الحيوية نحو الأفضل، والتحرر من الفوضى الحيوية التي تهدم الإنسان وتخرجه من مرحلة التحضر إلى ما بعده. (Bouarfa, 2019, p. 93)

ب- التكيف التاريخي: الواقع يفرض على الإنسان أن يتكيف مع شروطه الراهنة، فإذا كان العالم البيولوجي لامارك، حدد أن الوظيفة تخلق العضو، فهذا يعني أن الطاقة الحيوية هي أحد أبرز العناصر التي تجعل الإنسان يتكيف مع الواقع.



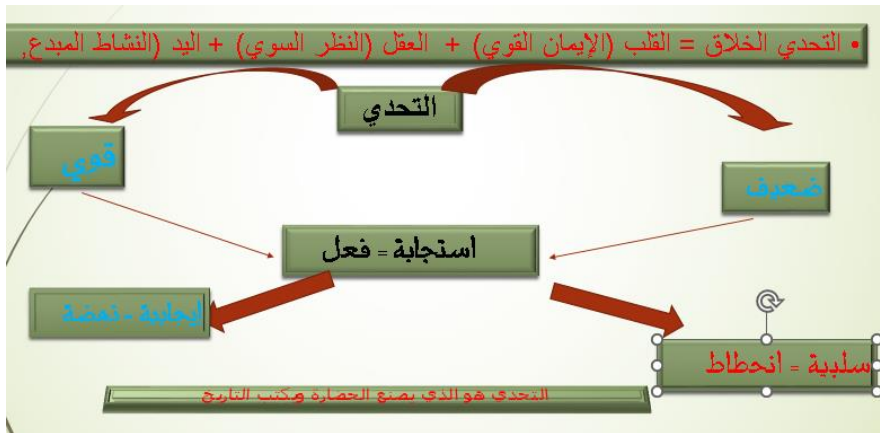
5- التحدي الخلاق:

بعد أن يمر الإنسان الشاهد بمراحل بناء الإنسان، يصل آخر الأمر إلى عتبة الفعل الحضاري، وهنا يكون الإنسان الشاهد تحصل على قوتين:

1- الإرادة الحضارية: (Le vouloir). 2- الإمكان الحضاري: (Le pouvoir).

ويستطيع عندئذ أن يتحدى جميع الصعوبات، وتكون استجابته قوية بناءً على قوة التوتر، إن حاله يشبه حالة سيدنا بلال لحظة التعذيب من قبل قريش، لقد كان توتره أقوى من صعوبات ذاتها، والنتيجة انهيار المُعَذِّب ونجاة المُعَذَّب.

يؤدي فهم وتحدي الصعوبات لأمة خرجت من الحضارة والتاريخ الحي إلى نتيجتين متضادتين؛ إما تنتج طاقة خلاقية، ترفع الفرد من حالة الانحطاط، وتُخرجه من وضع "إنسان الكتلة" إلى "إنسان الشاهد". وإما أن تؤدي إلى شل كل طاقات الفرد، فيتجه نحو التيه والذوبان، الذي يقوده إلى الاندماج في مجتمع جديد ناشئ يحمل ميكانيزمات الحضارة والقوة متنازلاً عن كل أصالة لديه، كما حدث لكثير من الشعوب العريقة التي لم يبق لها في حاضرتنا سوى شواهد على وجودها ذات قرن مضى وانقضى، أو أن يتوقع على نفسه تقوقعاً يجعله مغلوباً على أمره.



*- خلاصة:

يُمثل "الإنسان الشاهد" أنموذجًا حضاريًا يستطيع أن يشق الطريق نحو العالمية الإسلامية الثانية، وأن يعود إلى مسرح التاريخ، وقد تنبأ مالك بن نبي بهذا التقدم نحو التاريخ حين لخص مشروعه في قوله: "ولو سمح لي أن أُلخص وجهة نظر عبرت عنها منذ ربع قرن لقلت: إنه ليس من الضروري ولا من الممكن، أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئًا، الرصيد الذي وضعت العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت." (بن نبي. م، 2002، ص: 69)

ويمكن آخر الأمر أن ندعو إلى فهم مكر التاريخ، وأن الله سبحانه وتعالى وضع للكون سننًا، يجب علينا أن نفهمها ونفقهها، فالحضارة مشروع قوة وكفاح، وليس هبة ربانية يهبها الله لمن لا يراعي سننه في الكون.

ومن بين أهم تلك السنن:

- 1- من أفق الحضارة إلى وعي المكر (فهم مقاصد العصر)
- 2- من مكر التاريخ إلى مكر العقل. (فهم مطالب الغد)
- 3- من مكر العقل إلى مكر الغريزة. (فهم غايات الوجود)
- 4- من مكر الغريزة إلى مكر الله. (فهم الحكمة من الخلق)

*- المصادر والمراجع

1- مصادر مالك بن نبي

- (1969). إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. ط1. بيروت: دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
- (1979). تأملات. ط1. دمشق: دار الفكر.
- (1984). مشكلة الثقافة. ترجمة: عبد الصبور شاهين. ط4. دمشق: دار الفكر.

- (a1986). شروط النهضة . ترجمة: عبد الصبور شاهين & عمر كامل مسقاوي. د. ط. دمشق: دار الفكر.
- (b1986). وجهة العالم الإسلامي. ترجمة: عبد الصبور شاهين. ط 5. دمشق: دار الفكر.
- (1991). دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. ط 1. دمشق: دار الفكر.
- (2001). فكرة الإفريقية الآسيوية. ط 3. دمشق: دار الفكر.
- (a2002). بين الرشاد والتهيه. د. ط. دار الفكر.
- (b2002). مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ترجمة: بركة بسام & شعبو أحمد. د. ط. دمشق: دار الفكر.
- (2009). لييك: حج الفقراء. ترجمة: خليف زيدان. ط 1. دمشق: دار الفكر.
- 2- المراجع
- بوعرفة، عبد القادر. (2001). الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي. ط 1. الجزائر: دار الغرب.
- بوعرفة، عبد القادر. (2006). الحضارة ومكر التاريخ تأملات في فكر مالك بن نبي. ط 1. الجزائر: رياض العلوم.
- بوعرفة، عبد القادر & وآخرون. (2014). تأملات في فكر مالك بن نبي. ط 1: الجزائر: دار القدس العربي.
- خوسيه، أورتغا إي غاسيت. (2011). تمرد الجماهير. ترجمة: علي إبراهيم أشقر. ط 1. السويد: التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.
- لاکلي، حنان. (2023). عبد القادر بوعرفة هو جسد الماضي، الحاضر والمستقبل. ط 1. الجزائر: منشورات الوطن اليوم.
- Bouarfa, A. (2019). *Malek Bennabi: Une vie, une œuvre, un combat*. (1st ed.). Casablanca: Centre culturel du livre

دور الإنسان في مشروع التنمية عند مالك بن نبي

د. محمد التومي

مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية (تونس)

toumi.csds@gmail.com

مقدمة

مثل مشروع مالك بن نبيّ الفكري والفلسفي محاولة جادّة في الاستنهاض الحضاري في القرن العشرين الذي شهدت فيه الأمة الإسلاميّة نكوصا بسبب الهجمة الاستعمارية الغربية؛ لذلك فإن مالك بن نبيّ وجّه سهام نقده إلى البنية المعرفية للغرب الكونوليالي واعتبره، على عكس ما يروّج لنفسه، سببا عميقا في تخلف البلاد الإسلاميّة الواقعة تحت نير الاستعمار وخصّ الجزائر في علاقتها بفرنسا الاستعمارية، واختار أن يكتب مشروعه باللغة الفرنسية، وأقامه على الربط بين نظريّة التأخر والسلوك الاستعماري الذي مارسه الكونوليالية الأوروبية والأمريكيّة على مدى عمر مالك الذي ظلّ مسكونا بالاستنهاض الحضاري ومحاولة الإجابة عن سؤال التنمية، وكان الإنسان في مشروعه أسّا متينا وصّفه بالإنسان النصف بسبب قابليّته للاستعمار؛ وهو إنسان مقهور مغدور على حدّ عبارة مصطفى حجازي، وحاول السير به في طريق الترقّي نحو الإنسان الكامل أو الإنسان الرسالي كما يبشر به القرآن الكريم.

إن هذا التشخيص الدقيق لحال المسلم المقهور وحال بلاده المهدور سيمكّنه من اجتراف سبل بكر في تصوّر النهضة والاستنهاض والإجابة عن سؤال جوهريّ: كيف يمكن تحويل هذا الجمود الحضاري واستلاب الانسان فيه إلى تبيّن مسار الفعل والسير الآمن في طريق التنمية والوفرة؟ ما هي مواطن الفُرادة في مشروع مالك بن نبيّ في محاولاته تجاوز القصور المنهجي لمن سبقه وقدرته على الاستفادة من تصور

ابن خلدون دون التخيم فيه وقدرته الفائقة على الاشتباك المعرفي مع عتاة الفكر الغربي والخروج بمسلك في التصوّر الفكري والفلسفي استطاع تعييده بغاية الخروج من العجز المتراكب وتحقيق نهضة تقطع مع إنسان النصف القابل للاستعمار والخروج من صفة الشيئية القائمة على منطق التكديس استهلاكاً والندرة إنتاجاً؟ ومن خلال هذا الحيز البحثي نطرح أسئلة نقدّ أهميتها في موضوعنا: أين يتمركز الإنسان في مشروع مالك بن نبي وما هو دوره في معيقات النهضة وأشراتها في المجتمعات الإسلامية عموماً؟ أين تبدو راهنية فكر ابن نبي وفراة منهجه في التنمية؟

نحاول في هذه الدراسة تبين الدور الذي يعلّقه مالك بن نبي على الإنسان في مشروعه التنموي الذي يرمي إلى الاستئناف الحضاري وفق المرجعية الإسلامية كما حددها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكما فهمها سلفه من المفكرين الإسلاميين دونما تمجيدوية مشطّة للتاريخ الإسلامي أو استنفاص مخلّ للدور الممكن للإسلام في مستقبل الحضارة الإنسانية عموماً.

I. مشكلة الحضارة: مشكلة الإنسان

يرى مالك بن نبي أن أزمة الحداثة الغربية هي أزمة الإنسان الذي غلبت عليه شقوته بالمادة فشقّ طريقه طلباً للمتعة والتفصّي من كل أسباب الروح ومداراتها الأخلاقية التي تسيّجها الأسرة والمجتمع الرسالي المحافظ والتعليم الموجه إلى امتلاك المبادرة وأسباب القوة الممكنة. ولكن الوجود الذي يعاينه ابن نبي أن المجتمع العربي الإسلامي أصبح يعاني أزمتين: أزمة الفكر وأزمة الأخلاق، وكلما تزايدت حركة التغيير والتطوير في الغرب ازدادت المشكلة عندنا توهناً وظلالاً في الطريق بسبب الانشداد المطلق إلى العالم الغربي الذي علّقت على أبواب الحداثة عنده كل الآمال والأحلام برغم السراب الخلب الذي يلفّ أحلامهم وآمالهم. وهو ما استوجب التنبيه إلى الخصوصيات التي استودعها الإسلام في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.

ويجمع ابن نبي العناصر المشكلة للحضارة في الإنسان والتراب والزمن، كما حرص على تبين آلتها وهي "الثقافة التي تحرك الإنسان عبر قنوات أربع: الأخلاق - الذوق والجمال - المنطق العملي - التقنية. وإن تقدم الحضارة تسير بالمجتمع قوة وضعفا، دفعا وهونا، صعودا وهبوطا، تبعا لتمحوره حول الأفكار الأصيلة"¹

عند تشتت العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما يتحول المجتمع إلى تجمعات لا فائدة منها وهو ما حذر منه رسول الله ص "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمِنْ قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ لَا، وَلَكِنْكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يُجْعَلُ الْوَهْنُ فِي قُلُوبِكُمْ، وَيُنَزَعُ الرُّعْبُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ؛ لِحُبِّكُمْ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّتِكُمُ الْمَوْتَ" (صحيح أبي داود، رقم 4297) وقد عدّه مالك بن نبي استحضارا لصورة العالم الإسلامي المشتت والمنهك حتى صار في شكل تجمعات لا رابط بينها وهي غثاء كغثاء السيل. والإنسان عنده مرتين إلى قيمتين: فالإنسان خلقه الله بجوهر ثابت لا يتغير وهو كائن اجتماعي يصنعه المجتمع وتتغير فاعليته من طور إلى طور... وإن جملة العلاقات الاجتماعية هي التي تعلن عن ميلاد مجتمع في التاريخ" غير أن هذا الميلاد لا يكون باتفاق عفوي بينهم بل تحدده شبكة العلاقات والقيم المنصهرة بين أفرادها.

وهو يوضح فكرته بالقول: "الإنسان حينما ينظم شبكة علاقاته الاجتماعية بوحى الفكرة في انبثاقها، فإنه يتحرك في مسيرته عبر الأشخاص والأشياء المحيطة به فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة ويأخذ طابعه تبعا للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة: الأشياء الأشخاص والأفكار"²

وهو يشترط مبدأ التوازن بين هذه العناصر مجتمعة، إذ أن استبداد عنصر في هذه المعادلة على حساب العنصرين الآخرين يؤدي إلى أزمة تُلقِي بظلالها على مسار

¹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1970، ص 41

² انظر سلامة حدة، المشروع الحضاري عند مالك بن نبي،

الحضارة في معالم الطريق. وإن مسيرة الحضارة نحو القوة أو الضعف مرتبط بجودة الأفكار التي انبثقت منها هذه الحضارة والمناخ الاجتماعي والأشياء المحيطة به ونوعها، وإن لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، وإن تمسك المجتمعات يعود إلى الدور الوظيفي للأفكار التي تنظم فيه إرادة الفرد وتعمل على أطرافها ضمن شبكة العلاقات الممكنة.

وإن الطغيان حسب ابن نبي يتخذ شكله بحسب الندرة والوفرة.. فهو في الأشياء يُورث عُقد الكبت والميل نحو التكديس والإسراف في المجال الاقتصادي في مجتمعاتنا المتخلفة والسبب هو الندرة التي خلفت التعلق المبالغ فيه. في حين خلقت الوفرة في العالم الغربي الإشباع ومن ثمة شعورا بالرتابة يدفع الإنسان إلى الهروب إلى الأمام والسعي المتواصل إلى تغيير حياته¹.

وكذا طغيان المستبدين فإنه يؤدي حسب مالك بن نبي إلى نتائج كارثية في الإطارين السياسي والاجتماعي تهدم بنيان الفكر والحضارة وهو يؤكد رأيه بمثال يضربه ببلده الجزائر حيث يطغى المال الفاسد في شراء الذمم، وإغراء آخرين بشعارات رنانة جوفاء لا روح فيها ولا معنى، غير التعلق بالمصلحة الذاتية وبذلك يكون كل شيء عندهم سلعة تباع وتشترى، فتغيب الفكرة ويحضر الوثن.

يقول مالك بن نبي: "حين تبصر تلك الأفكار التي صنعت تاريخ العالم النور فإنها ستكون فعالة بقدر إثارتها للعواطف وتشديد أشياء وهدم أخرى أو قلب صفحة من تاريخ الإنسانية، وليست هذه الأفكار بالضرورة صحيحة في كليتها، إذ الأفكار تكون صحيحة أو باطلة في مجال العقيدة كما في المنطق العلمي والاجتماعي"² وهو يؤكد أن النخب الإسلامية لا تملك من الآلية ما يمكنها التفريق بين الفكرة وأصالتها سواء في الجانب التقني والعلمي عبر الكتب المستوردة من

¹ انظر سلامة حدة، المشروع الحضاري عند مالك بن نبي، السابق.

² مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1970، ص 41

الغرب، أو في الإطار السياسي والاجتماعي حيث تقلد الآخرين. ويعطي مثل اليابان والصين نموذجين في نجاح الشعوب التي عرفت كيف تستلهم من الحضارة الغربية أسباب نجاحها وتفوقها وتوظيفها في نهضتها التي أصبحت واقعا يضرب للنجاح مع المحافظة على روح الأصالة للمجتمع واجترار سبل تخصصها، وهو النموذج الذي يسعى مالك بن نبي إلى استيضاحه وتبيينه.

وفي المحصلة فإن النخب العربية المسلمة لم يفعلوا غير استلهم أفكار مغشوشة مسمومة استتبت في غير بيئتها ومجالها ولم يدركوا كنه الحضارة الغربية في اندفاعها التطوري المستمد من أصالته المقيمة في حدودها الجغرافية، ولا هي بمستطاعة أن تحيي نماذجها الأصيلة في انبثاقها الروحي والأخلاقي... وإن تضافر الأفكار الموروثة الميتة مع الأفكار المجتلبة من أصول غربية جعل منها لعنة كجسر يتداعى بناؤه ويهدد العابرين¹ ولعل المثل المضروب هنا هو محاولة تطبيق نظرية شاخت على المجتمع الإندونيسي أو نظرية ماركس على المجتمع الروسي.

1. مفهوم إنسان النصف

إن أزمة الحضارة العربية الإسلامية في جوهرها هي مشكلة الإنسان، كما يرى مالك بن نبي، ولذلك فإنه يؤكد أن المدخل الأساسية للإصلاح والنهوض يمر عبر الإنسان في بعده التربوي والاجتماعي، وإن أي محاولة للتغيير لا تمر عبر تغيير الإنسان هي محاولة غير مجدية انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد 11)، والغاية هي خلق نموذج ثقافي واجتماعي بديل لإنسان النصف أو الانسان الكّل أو انسان الندرة أو الوفرة الذي تربى على أعتاب القابلية للاستعمار، وهو ميسم يمنع أي محاولة للاستنهاض الحضاري أو التنموي. ولذلك فإن عملية التجديد حسب ابن نبي تقوم على بعدين:

¹ المصدر السابق.

- معرفة معوقات التغيير ومن ثمة العمل على تحييدها، وهو ما يسميه التجديد السلبي، وتقوم على إحداث قطيعة مع الماضي.

- معرفة عوامل التغيير ومن ثمة العمل على ترسيخها وهو ما يسميه التجديد الإيجابي الذي يقوم على تطعيم الثقافة بأفكار جديدة بناءً تجسّر لها الطريق نحو المستقبل، وقد عرض ابن نبي إلى مختلف المياسم الثقافية العلية التي تصيب الفرد في المجتمع وتجعل منه إنسان النصف غير الرسالي الذي يسعى إلى إيجاده ليني عليه مشروعه في الاستنهاض الحضاري. ومن أهم هذه الأعراض التي تطرأ على الفرد:

*** التعالم:** وهو وصف يلحقه بالنخبة العربية المسلمة ويعدّها صفة مرضيّة تعني عنده الحرفية الثقافية وادعاء العلم والمعرفة وهو مرض عضال يستعصى علاجه، وهو يختلف عن جهل الأميين إذ هو "جهل حجّرت الحروف الأبجدية فلا يقوم الأشياء بمعانيها ولا يفهم الكلمات بمراميها".¹

*** الذرية: L'atomisme** وهي عدم القدرة على إدراك الكليات وما يربط بينها من صلات وينشأ عنها انفصام بين الواقع والفكر وقصور على فهم الوقائع في عمقها. وتحول عقل المسلم الى عقل لمسي يقول: "إن طريقتنا في الفهم تعدّ لمسية بدل أن تكون عقلية"²

*** اللفظية:** وتتمثل في الاستعمال الواسع للألفاظ الأدبية الرنانة والثرثرة في الحديث على حساب الأفكار وهو ما يميز المجتمعات ما بعد الحضارة اليوم حيث أفرغت الكلمات من مضامينها وصارت مجرد ألفاظ مرصوفة. إضافة إلى المبالغة في التمجيدوية للزعيم الملهم. وفي المستوى الديني تحولت الدروس والمحاضرات إلى هلاميات خارج التصنيف السلوكي.

*** الرومانسية:** وهي سمة مرضيّة تعاني منها شعوب المجتمعات ما بعد الحضارة

¹ مالک بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط 4، 1969، ص 91.

² مالک بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط 3، دمشق، دار الفكر، 1988، ص 102.

سببه طغيان الخيال والخرافة وألوان البديع والبيان في الأعمال الفكرية وهو ما يساهم في قطع الصلات بالواقع المنظور المستهدف بالإصلاح، نتيجة التأثير بالفلسفات الغربية وسوداوية الواقع بعد الحريين مما اضطر الإنسان إلى الهروب إلى الفن والخيال يبحث عن عزاء فيه من الدمار الذي أصاب العالم في الحريين العالميتين.

-الفخر والمديح: يرى مالك بن نبي أن أهم مياسم المجتمع ما بعد الحضارة طغيان عقدة الدونية ضد ثقافة الآخر المهيمن وأن النخبة المثقفة أصيبت بمرض عضال أفقدها فاعليتها وتوازنها وأبعدها عن مواجهة المشكلات الحقيقية للمجتمع ولاستدراك النقص توجهت إلى تمجيد الماضي وبذلك انتكس الفكر واتجه إلى الوراء حيث أصبح العقل المسلم يعيش حالة من الاجترار لمتنقولات أثرية عديمة الجدوى.

-الجدل والتبرير: وهو حسب ابن نبي من أهم صفات إنسان النصف في مجتمع ما بعد الحضارة حيث يهدر الوقت والجهد في الكلام السفسطائي المفرغ من كل جدوى يبحث فيه عن براهين يثبت بها رأيا مسبقا، وإن شيوع مثل هذا الأسلوب في الحوار بين النخبة في المجتمع العربي الإسلامي، حال دون تحقيق مشروع النهضة.

-الاضطراب الفكري والسلوكي: وهو من أهم ما يميز مجتمع ما بعد الحضارة، ويرى ابن نبي أن المنتج المادي والثقافي الغربي الذي وجد رواجاً في المجتمعات العربية والإسلامية أورث اضطراباً فكرياً وسلوكياً وتقاطباً مزدوجاً بين الأصيل والأثيل أو بين الموروث والوافد مع ضعف آلة النقد والتحليل والتركيب والتكيف¹. يحملها مصطفى حجازي في قصور التفكير الجدلي وطغيان الانفعالات وضمور العقلانية. وهو ما يؤدي إلى النكوص إلى المستوى الخرافي والبحث عن الحلول السحرية والغيبية.

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 5، الجزائر، دار الفكر، 1986، ص 79.

2. القابلية للاستعمار أو الإنسان المغدور إنسان مهدور

يستمد مالك بن نبي مفهوم القابلية للاستعمار من المناخ الثقافي والاجتماعي في مجتمع الانحطاط أو ما بعد التحضر كما يبدو في المجتمعات المستعمرة وكما يظهر في إنسان النصف سلوكا ينحو منحى الاستسلام، حيث يسلم فيه بالانهزامية أمام جحافل الغزو الغربي، والقبول بالواقع الجديد المبني على الاستلاب والاستحمار. ويفرق مالك بن نبي بين الاستعمار بما هو فعل كائن والقابلية للاستعمار بما هو فعل مؤجل. فكون المسلم غير حائز على جميع الوسائل التي يريدها من أجل تنمية شخصيته وتحقيق موهبته فهذا هو الاستعمار أما القابلية للاستعمار فهي ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل ممكنة وبذل الجهد ليرفع من مستوى حياته بالوسائل المتاحة، وحينما يستسلم إلى الكسل وعدم بذل الجهد فتلك هي القابلية للاستعمار¹.

ومن أهم مظاهر هذه القابلية للاستعمار عند ابن نبي: الخذلان السلوكي والقيمي وتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية وانتشار الفردانية وفساد روابط العالم الثقافي وانعدام الفاعلية وطغيان الشيء.

وإن ظاهرة الاستعمار التي تعرضت لها معظم الدول الإسلامية ما كان لها أن تحدث لولا القابلية للاستعمار التي سبقتها وأدت إليها. ويعيد مالك بن نبي هذه الظاهرة إلى تراجع القيم والمقدسات في المجتمع الإسلامي من أجل تكييف الطاقة الحيوية في الإنسان، وتسلسل الأفكار المتخاذلة إلى سلوكه واندماجها فيها وتحلل شبكة العلاقات الاجتماعية وظهور الفردانية وفساد روابط العالم الثقافي وانعدام الفاعلية وطغيان المادة وهو الطابع العام الذي يسم المجتمع الإسلامي عموماً.

وحتى البلدان الإسلامية التي استطاعت أن تلقي بالاستعمار خارج أراضيها

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 96.

ما زالت تعاني أوضاع عصر ما بعد الموحدين (ما بعد الحضارة الإسلامية) ذلك أن ظاهرة الاستعمار التي تعرضت لها المجتمعات الإسلامية لم تكن لتحدث لولا القابلية للاستعمار في البنية المجتمعية وهي ذهنية إنسان ما بعد الموحدين¹. وها هو الاستعمار يعود إليها بشكله المقنع الجديد ليتحكم في مصيرها إيديولوجيا، وسياسيا، واقتصاديا، وثقافيا. ويرى ابن نبي أن جماع هذه المجتمعات لا يمكن لها التفصي من هذه القابلية المزرية ما لم تتغير جوهرها من الداخل.

فالقابلية بما هي عامل معطل لكل جهد اجتماعي تبين عدم أهلية الإنسان المسلم لتشيد حضارة وهو ما يمنعه من دخول التاريخ الذي أقصى منه منذ سقوط دولة الموحدين، وبذلك فإن القابلية للاستعمار طبعت على نفسية الفرد وانفعالاته وحددت السمات العام للثقافة والأفكار في المجتمع وهي تشكل مرضا عضالا للمجتمع المسلم يجعله في مهبط الاستعمار تماما مثل جسد فقد مناعته أمام أمراض مستعصية باتت تنخر جسده العليل.

إن الوقوف على هذه الظواهر السلبية في المجتمعات المسلمة بما هي آفات مرضية ومشاكل سلبية جعلها السمت الظاهر في التركيبة النفسية والثقافية للمجتمع ما بعد الحضارة وهو ما يشهد عليه الواقع في زمنه حيث فقد فيه الفرد كما المجتمع المقومات الأساسية للبناء الحضاري والنهوض الممكن. إلا أن مالك بن نبي لم يغلق الباب أمام التغيير إذ منح إنسان ما بعد الحضارة إمكانية التغيير والتحرك في اتجاه التاريخ من جديد من منطلق المبدأ القرآني (تغيير ما بالنفس) وهو ما يعطي الانطباع أن التخلف في المجتمعات المسلمة ليس قدرا مقدورا وإنما يمكن تغييره متى توفرت الإرادة في التغيير.

وهو ما يلتقي مع ما طرحه مصطفى حجازي في كتابه التخلف الاجتماعي

¹ السابق، ص 95.

مدخلا إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، حيث يؤكد أن الإنسان المقهور مولع بالتباهي بقوته التي يرى أنها درع وحماية له وهي رمز وجوده الجديد ومن هنا مباهاة الإنسان المقهور باستعراض قوته لتصبح القيمة الوحيدة لكيانه الجديد لذلك يتعرض العمل التحرري إذا لم يكن منظما ومؤثرا إلى نوع من الانتفاضة السحرية والتخيم عند لحظة التحرر بما هي فعل عنيف أكسبها قيمة مضافة، ويظل الإنسان المقهور على عجلة من أمره يستطيب الحلول السحرية العاجلة. هذه الحاجة إلى الخلاص قد تخلق عقبة فعلية في وجه التنظيم والإعداد لمعركة طويلة الأمد وقد تتحول الثورة إلى فورة وتظهر عقدة الاستثناء فتسود العجلة والتفاؤل المفرط غير المستند إلى سند واقعي، بل مجرد حالة مزاجية اهتياجية تلغي الواقع من خلال ازدرائه والقفز على قوانينه.¹

II. محورية بناء الإنسان في التنمية

يؤكد مالك بن نبي ضرورة الاقتداء بنموذج الأمة على عهد رسول الله ص التي انطلقت من نقطة الصفر من حيث الإمكانيات، وهو يرى أن الإسلام يمنح للإنسان قيمة التكريم التي وهبها له القرآن وهو لا يقارن بالنماذج الأخرى الوافدة وأن الديمقراطية الإسلامية تحفظ الفرد من النزاعات المنافية للشعور الديمقراطي، ومن أن يسقط في برائن الاستعباد، مثلما هو الحال في الديمقراطية العلمانية حيث يسقط الإنسان فيها ضحية للمؤامرات وتكتلات المصالح أو الدكتاتورية الطبقية. وهو يقر بأن الحكم الإسلامي ديمقراطي في مصدره وفي منهجه ويتضمن كل المياسم لديمقراطية سياسية حقيقية يُمنح فيها للإنسان مسؤولية في تأسيس الحكم وتوفير الضمانات اللازمة التي تحميه من الجور والاضطهاد. وهو يرى أن المشروع الديمقراطي في المجال الاقتصادي وفقا للتصور الإسلامي يقوم على مبادئ عامة

¹ مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخلا إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص24.

تهدف إلى توزيع الثروة حتى لا تصبح دولة بين الأغنياء والمترفين.

ويؤكد ابن نبي أن الدين أهم وسيلة للضبط الاجتماعي من خلال ما يقوم به من وظائف في حياة الفرد والمجتمع فيما ييئه من تعاليم تضبط العلاقات والمعاملات وهو يربط مع حركة الإصلاح لجمال الدين الأفغاني وحركة التجديد لمحمد عبده. على أن هذه الحركات الإصلاحية ذات المنزع الإسلامي، لم تستطع حسب ابن نبي أن تترجم إلى وظيفة اجتماعية دينية. رغم أنها نجحت في إزالة الركود الذي ساد في المجتمع ما بعد الموحدين. وأن الحركة الحديثة لزعامة أتاتورك لا تقوم على نظرية محددة المعالم غير الولع بالمستحدثات وأن تجعل المسلم زبوناً مقلداً دونها أصالة الحضارة غربية تفتح أبواب متاجرها وتغلق أبواب مدارسها مخافة أن يتعلم التلاميذ المسلمون كيفية استعمال مواهبهم في تحقيق مآربهم.

1. الإنسان القرآني

2. الإنسان الناهض: إنسان كامل

يرى مالك بن نبي أن تثبيت الحضارة لأي أمة ذات شروط تستند إليها، منها التاريخي ومنها النفسي والاجتماعي، وتبدأ هذه الشروط في شكل فكرة ثم تتطور لتصبح نسيجاً ذات طابع اجتماعي، وأن الحضارة الإسلامية تنطلق من مصدر إلهي وتجمع بين كفتين أحدهما مادي دنيوي يعمر الحياة وينمو بالخير وعبادة الله والاجتهاد فيهما وتنمو الثانية بالاعتناء بالدار الآخرة بكل مستحقاتها وأشراتها وهو بذلك يبين تمايز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات بما استودع فيها أهداف وغايات سعى مالك بن نبي إلى استيضاحها وتبدأ بـ "تصفية عاداتنا وتقاليدينا وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة".¹

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 1984، ص 70.

وبذلك فإن جلّ ما ألفه مالك ابن نبي يستجمع الإبداع في حل المشكلات الحضارية ببناء الإنسان أولاً، وهو يرى أن القانون الأخلاقي المتضمن للعلاقات الاجتماعية التي هي في جوهرها قيم ثقافية تقوم مقام العامل المحافظ على تماسك المجتمع ويضرب مثلاً في سمو خلق الأنصار عند استقبالهم المهاجرين من الرعيّل الأول حيث بلغت بهم درجة الإيثار أن تقاسم الرجل ماله وزوجاته مع أخيه المهاجر خدمة لفكرة وهدف رسالي من أجل التمكين لهذا الدين الذي أحدث ثورة في التقاليد والقيم الجاهلية فاستهجن جزء منها واستحسن آخر مثل الكرم ونصرة المظلوم والدود عن حياض الشرف ونبد الهون وإعانة الملهوف، والشجاعة عند المواجهة وعدم التولي يوم الزحف... واستطاع المسلمون بقيادة الرسول الأكرم تثبيت معالم دولة استمرت زمناً طويلاً وفق مبادئ ثابتة.. وفي المحصلة فإنه لا مجال لشعب أن يحل مشكلاته الحضارية ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية ولم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها".¹

وقبل اقتراح النموذج الممكن قيّم مالك بن نبي مسيرة الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي، منذ مرحلة النشأة؛ وهو ينقد العقلية الأصولية وفق تصور الإمام محمد عبده، وكذلك محمد إقبال بعده، ولكن ابن نبي يشترك معها في التأكيد على قول مالك بن أنس "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" استلهاماً لوضوح الرؤية باعتبارها القانون الثابت والسنة التاريخية في التفكير الإسلامي، لأن وضع الأمة الحالي إنما هو امتداد للوضع الذي تشكلت فيه، وهو ما يعطي تصور الإنسان لذاته وللكون وللحياة".²

¹ السابق.

² انظر ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 2002، ص 109.

III. دور الثقافة في مشروع التنمية

إن الحضارة في بعدها الوظيفي عند ابن نبيّ مثل جسم الإنسان.. والثقافة فيها بمثابة الدم الذي يغذي شريانها والأفكار جيناتها وبرنامجهما الوراثي¹. وإن هذه الأفكار حسب رأيه، نوعان في المجتمع:

- أفكار عملية نخص الجانب المادي (عالم الأشياء) في المجتمع مثل التقنية. وهو يقول: "يواجه كل جيل بوسائله التقنية الظروف الخاصة بتاريخه بعد أن يدخل عليها تعديلات أقل أو أكثر تلائم مسيرته"².

- أفكار موضوعية: يقول ابن نبي: "ويبلغ هذا الابتعاد ذروته عندما يدخل المجتمع مرحلة الغريزة إذ تمحي عندئذ النماذج المثالية وتخون الأفكار المطبوعة"³ وهو يقيم معادلة بين الأصيل والأثيل من الأفكار في المجتمعات العربية الإسلامية وانجرار الناس إلى الأفكار الوافدة من الثقافات الغربية على حساب الأفكار الأصيلة، مما أورث تدهورا في القيم والأفكار المكتسبة وكان له ضرر أخلاقي ومادي في العالم الإسلامي⁴.

إن تحقق أي مشروع حضاري حسب مالك بن نبي يستوجب الاعتماد على الأفكار الأصيلة التي تأسس عليها المجتمع في انبعائه الأول، وهو شرط لا يمكن التنازل عليه واقعا، بل يجعل منه شرط مواكبة أي تطور حضاري ممكن ضمن معادلة ثلاثية يقيمها تعتمد الإنسان والأفكار والأشياء ركائز لمشروعه النهضوي.

وقد حاول ابن نبي في كتابه "مشكلة الثقافة" أن يقدم تعريفا لمفهوم "الثقافة" تعريفا أصيلا لم يتأثر بالتعاريف السائدة عند علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا

¹ انظر جيلاني بوبكر، مشكلة الثقافة، دار المعرفة، الجزائر، 2010، ص 46.

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، ط4، 1984، ص 71.

³ نفسه.

⁴ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1970، ص 41.

الغربيين؛ فأورد أصل الكلمة في اللغة العربية ومفهومها في اللغة اللاتينية ثم انتقل إلى تحديد عناصر الثقافة والوقوف على تكامل هذه العناصر وتفاعلها وإلى تحديد دور الأخلاق في تركيب عناصر الثقافة¹.

ثم عرف المفهوم في المجال النفسي والاجتماعي بكون الثقافة: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقنها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه. والثقافة على هذا، هي المحيط الذي يشكل الفرد فيه طباعه وشخصيته"². وأقام ابن نبي علاقة وثيقة بين الثقافة والسلوك مؤكداً أن: "السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات"³.

وللثقافة عنده وجهان: وجه يمثل التنمية، وآخر يمثل ما دون التنمية من هنا نستطيع الجزم بأنه لا توجد ثقافة للتخلف، وإنما هي اللاثقافة، وهي المستوى الاجتماعي التاريخي، الذي لا بد أن ننطلق منه لبنني ثقافة تتمتع بالأصالة والعالمية في آن معاً.⁴ "فابن نبي في مشروعه الفكري يطابق مفهوم الحضارة مع معنى الثقافة فهو يعرفها بأنها: "في جوهرها عبارة عن مجموعة من القيم الثقافية المحققة"⁵ فالثقافة هي جوهر الحضارة لأن كل واقع اجتماعي هو في أصله قيمة ثقافية خرجت إلى حيز التنفيذ فجوهر الأول هو جوهر الآخر بالضرورة"⁶. وقد اعتمد ابن نبي في بناء مشروعه على القراءة الباتولوجية للواقع الذي يعيش فيه، وهو ما يعبر عنه اليوم

¹ انظر مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 4، دمشق، دار الفكر، 1984، ص 12.

² نفسه، ص 15.

³ الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط 3، دمشق، دار الفكر، 1988، ص 75.

⁴ مالک بن نبي، مشكلة الأفكار، ص 136.

⁵ مالک ابن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1985م، ص 98.

⁶ مالک بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 102.

بعلم النفس الاجتماعي¹ فالتشخيص الصحيح يعطي علاجاً صحيحاً، وبحسب ابن نبي فإن المشكلة الحضارية عند العرب تتمثل في الانحسار الحضاري أي توقف الدورة الحضارية وتعطلها، وهو يلخص الأمر في «أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة²، ولو أردنا محاكاة هذه الجملة بصورة أخرى - مع اعتبار ما بين الحضارة والثقافة من ربط وثيق - لقلنا: «إن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة»، وبذلك تكون الحضارة في جوهرها عبارة عن مجموع من القيم الثقافية المحققة. وإذن فمصير الإنسان رهن دائماً بثقافته³، فالتنمية عند مالك هي «غير نفسك تغير التاريخ»⁴. وهو يعتبر أن علاج أمراض المجتمع بداية الحل لمشكلة التخلف والمشاكل الحضارية مثل القابلية للاستعمار وتكديس الأشياء والمطالبة بالحقوق على حساب القيام بالواجبات والانتفاء إلى عالم الأشياء والأشخاص على حساب عالم الأفكار... الخ. ويعتبر أن مفاتيح الحل تكمن في معالجة الذات قبل الآخر... لذا تبرز أهمية الإنسان في بلوغ الحضارة بما هي التنمية، ولعل هذا ما يعزز ثبات الفكرة القائلة بأن الجوانب العقدية والأخلاقية والاجتماعية، وهي مسائل ثابتة، لا بد من أن تؤخذ بعين الاعتبار عند وضع أية نظرية تنموية، يقول ابن نبي: "ألم يكن موطن المعجزة هو ما دل عليه القرآن أي في النفس ذاتها؟ وإن التغير هو الشرط الجوهرى لكل تحول اجتماعي رشيد.⁵، وهنا يشير ابن نبي إلى منهجه في التغير الذي استمده كما يشير إلى ذلك من المبدأ القرآني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ [الرعد: 11]، فالتغير عنده يبدأ بالإيمان بفكرة ثم تمثل هذا الإيمان في الواقع بترسخه في النفس

¹ شروط النهضة ص 40-41

² مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص 100.

³ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص 100.

⁴ كتاب شروط النهضة، ص 32-33

⁵ شروط النهضة ص 30.

البشرية بحيث يصبح وقودا للحركة الاجتماعية والتغيير يقول: "الحضارة تولد مرتين أما الأولى فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية فهي تسجيل هذه الفكرة في الأنفس، أي دخولها في أحداث التاريخ¹.

1. تأصيل المفهوم تأصيل الكيان

طرح مالك بن نبي جملة من المحددات السلوكية لبناء الإنسان المسلم في ضوء القرآن والسنة سيرا به من إنسان النصف إلى الإنسان الرسالي، وهي شروط تراعي واقع المجتمعات المسلمة اليوم كما تراعي الأبعاد المختلفة في بناء الإنسان الروحية منها والسلوكية والاجتماعية والأخلاقية والعقلية والجمالية... الخ. ليكون هذا الإنسان المسلم مؤصلا لكيانه وفق مبادئ الإسلام وقيمه الأصيلة، جديرا بحمل رسالة التغيير المنوطة بعهدته إنسانا رساليا.

وبمثل عالم الأشخاص أحد أركان مثلث ابن نبي في التنمية حيث يشكّل عالم الأشياء وعالم الأفكار ضلعيها الآخرين. وتمثل شبكة العلاقات الاجتماعية المنهارة في العالم الإسلامي إحدى تمظهرات انهيار عالم الأشخاص وهو ما يستدعي إعادة ترميمه لأنه يمثل القاعدة الصلبة التي ينطلق منها كل عمل تاريخي مشترك. وبقدر ما تكون هذه الشبكة متصلة بأصولها الروحية تكون قوة تماسكها فعالة بما أن العلاقات الاجتماعية مرتبطة بالعلاقات الروحية. ولذلك فإن مالك بن نبي عمل على تكييف الإنسان المسلم اجتماعيا بطريقة تجعل من كل تصرفاته وانعكاساته تتوافق مع النزعة الاجتماعية بإحياء سلطة الضمير التي يعكسها الالتزام الأخلاقي والسلوكيات المسؤولة وإيصالها بالمثل العليا وغايات سامية ترتبط برسالة اجتماعية تليق به إنسانا رساليا ملتزما² وأن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بحسب تأثير المبدأ الأخلاقي الذي يفرضه الدين وفق التصور الإصلاحية الذي يراه ابن نبي.

¹ شروط النهضة، ص 55.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 2002 ص 57.

2. الحرية طريق للتنمية

اهتم مالك بن نبي بمفهوم الحرية بما هو أس ثابت للتنمية وتطوير المجتمعات فقلّب المصطلح في تصريفاته وتشقيقاته الممكنة ومرادفاته في المعنى مثل الإرادة والديمقراطية بوصفها مجموعة من الشروط الاجتماعية والسياسية الضرورية لتكوين هذا الشعور عند الفرد وتنميته.. كما أورد مناقضاته من المفاهيم مثل العبودية والرق والاستبداد والاستعمار... الخ وهو يرى أن الحرية هي تقابل بين ثنائية العبد والسيد أو الرقيق والحر ويؤكد على أهمية العدالة في إقامة نظام الحكم ويربط بين مفهوم الحرية ومفهوم الديمقراطية المعتدلة وقابل بين المساواة في الحقوق السياسية وخلو الديمقراطية من كل الشوائب، وأكد أن الحرية هي المقصد من الديمقراطية، وقاعدتها تبادل الأمر والطاعة¹.

ويرى أن الاستعمار كما الاستبداد سلب حريات الشعوب ومقدراتها في التنمية من ذلك سلب حرية التعليم، وحرية الفكر، وحرية البناء، والتنمية. وهو يعيب على الشعوب المستلبة قابليتها للاستعمار. يقول: "خصص الغرب نظرتة بالنسبة إلى المبادئ ومنها الحرية كما خصصها بالنسبة إلى الرجال، إذ أنّ نظرتة إلى ما هو أوروبي تختلف عما ليس كذلك، فهو حينما ينظر إلى مشكلات الشعوب الأخرى فإنه يضع نظارات على عينيه وإذا بهذه النظرة لا تتصل بقيم الأخلاق وبقيم السياسة"² وأن الخط العام في السياسة الغربية الاستعمارية يسير في اتجاه مصادرة الحريات العامة كما صادر الأرض والعرض. وإن هذا الاستبداد في المستعمرات سخرت له مجامع علمية تتبناه وتسهر على فهمه وتقنيته ومن ثمة توجيه السياسات في التعامل مع هذه الظواهر الجديدة، ولنا مثل في مدرسة العلوم الاستعمارية بفرنسا، ويتعدل الميثاق

¹ انظر رقية بوسنان، إشكاليات الحرية وسياقات ممارساتها عند مالك بن نبي، قراءة في سلسلة مشكلات الحضارة، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد 16، 2020.

² الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط 3، دمشق، دار الفكر، 1988، ص 124

الاستعماري، وفق الظروف، والأحداث مّدًا، وجزرا.

وقد تمثل هذا التزاوج بين الاستعمار ومشاريعه العلمية في التعامل مع الشعوب ومن أهمها مشروع مارشال الذي يدعم الشعوب الغربية المتخلفة عن الركب الحضاري ودفعها إلى التنمية والنهوض ويقدم إسعافات وقتية ويضمن لأفراد المجتمع الحرية والعمل والخبز أو الوسائل الضرورية لكسبها، وفي المقابل يبتدع هذا الاستعمار للشعوب المتخلفة وخاصة منها العربية مشروعًا أطلقت عليه اسم النقطة الرابعة، وهو مشروع هلامي يبيع الشعوب المستعمرة الوهم مثلما يفعل الآن صندوق النقد الدولي، ويسعى إلى تأييد تخلفها وإقامة منظومات تحافظ على ميسم القابلية للاستعمار وعدم تحقيق أي نهضة ممكنة، ويظل إنسان النصف مصبا للنفايات باسم الحداثة وتظل أرضه مستباحة.

كما يركز الاستعمار حسب ابن نبي على تقويض دعائم التعليم في المجتمعات المستعمرة واستبعاد منظومة القيم التربوية الإسلامية والعمل على نشر الجهل واستبدال الثقافة الأصلية للشعوب المستعمرة بثقافة موغلة في الشكليات ومحو اللغة العربية لتترك مكانها للغة وافدة هجينة مثلما هو الحال في شعوب المغرب العربي مثلا حيث فرضت عليهم اللغة الفرنسية لغة رسمية في التعليم ومؤسسات الدولة وكانت حاجزا منيعا من كل نهضة ممكنة. ويتبع الاستعمار طريق الغموض فيما يتعلق بتحرير الأرض المستعمرة التي يصفها بالقاصر وهو يتحدث عن مراحل في التحرر غير محددة بزمان أو مواثيق.

ويؤكد نجاح المستعمر في زرع مؤدلجين بإيديولوجيات مخالفة لقيم المجتمع صنعتهم المؤسسات الاستعمارية في مصانع خاصة ينفذون سياساتها الظلامية، ويشبه هؤلاء بالأرضة التي تقضم الهوية والتاريخ ويغدق الاستعمار عليهم الأموال الطائلة من أجل تنفيذ مشاريعه الهدامة. في الوقت الذي يتصدى فيه للمثقفين الأصوليين المكافحين لمشروعه الاستعماري، ويعلي من شأن الحضارة الغربية

ومنتجاتها الحداثية، يقول مالك بن نبي: "يرى غوستاف لوبون أن جميع الوسائل اتخذت في أوروبا من أجل محو الحضارة الإسلامية من سجل التاريخ فعمدوا إلى تزويره حتى ظن الذين أخذوا عنهم أن التاريخ البشري ليس تلك السلسلة التي تتصل فيها جهود الأجيال من كل الأعراق والأديان، ولكنهم اختزلوها في المسافة بين الأكربول في أثينا وقصر شايه بباريس"¹.

ويطرح ابن نبي أزمة العقل والسلوك في العالم الإسلامي الواقع تحت نير الاستعمار وضرورة مجابهة مخططاته الرامية إلى إحداث فجوة بينها وبين قيمها ومحددات هويتها لتسهيل قيادتها والسيطرة على مقدراتها، وما يزيد من تمكن القوى الاستعمارية هو فكرة القابلية للاستعمار أو أن المغلوب مولع بتقليد الغالب، في إطار مناقشته للأفكار القاتلة والأفكار الميتة، أسرت الفرد العربي المسلم بجاذبية ظاهرة لحداثة غربية موهومة. ويؤكد أن الخلاص للأمة في الاقتداء بنموذج دولة الرسول ص التي انطلقت من نقطة الصفر من حيث الإمكانيات سواء العسكرية منها أو السياسية أو الاجتماعية² ولكنها كانت فعالة في صناعة الرجال، وهو ما ينتهي إليه من أن الحل الناجع يتمثل في جوهر الإسلام كنظام متكامل وشامل في جميع المجالات، وأن الأنظمة التي جُربت في الدول العربية الإسلامية ما بعد دولة الموحدين هي أنظمة هجينة لم تستطع أن تحقق التنمية ولا التوافق مع منظومة القيم الإسلامية.

¹ رقية بوسنان، إشكاليات الحرية وسياقات ممارستها عند مالك بن نبي، قراءة في سلسلة مشكلات الحضارة، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد 16، 2020.

² انظر رقية بوسنان، إشكاليات الحرية وسياقات ممارستها عند مالك بن نبي، قراءة في سلسلة مشكلات الحضارة، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد 16، 2020.

خاتمة

يعتمد مالك بن نبي في مشروعه الإصلاحى التنموي المقاربة الشاملة للإنسان والحضارة، وهي مقارنة تنظر إلى الإنسان باعتباره محركا للتاريخ، وإن التاريخ الإسلامى هو تاريخ الأدوار الحضارية التي تقلّبت فيها الحضارة الإسلامية ويمثل الإنسان جوهرها ومرتكز كل إصلاح وتنمية، وقاعدة لكل مواجهة مع الاستعمار، ولكي يعيد الإنسان المسلم صناعة تاريخه عليه التخلص من عقلية المؤامرة "ذلك المشجب الذي نجعل منه مبررا لفشلنا ومهربا من مواجهة عجزنا وعللنا، فالتاريخ لا تصنعه الأمنيات ولا إلقاء التبعات على الآخرين وإنما يصنع ببعث داخلي، وحركة ذاتية، ولا يكون ذلك إلا بوقفة نقدية من شأنها أن تحرر العقول، وتطارد ظلام الأوهام بأنوار الحقائق"¹ وأن يتجه الإنسان إلى التغيير من إنسان النصف المهذور والمغذور في صيغة المفعول إلى الإنسان الرسالي الكامل في صيغة اسم الفاعل المدرك لأصالته في التاريخ وجدارته في الجغرافيا.

إن الإنسان بأبعاده الترايية والعقلية والروحية والسلوكية هو الشرط الأساسي لبناء الحضارة وهو محور الفاعلية في حركة التاريخ والتنمية وهو المقصد الذي تنتهي إليه كل المحاولات نحو إنسان رساليّ وفق المعادلة الكيميائية التي أسّس عليها مشروعه: الإنسان والتراب والوقت وهي معادلة تنتهي بمرحلة الحضارة عندما يضاف إلى الثالث المؤسس عنصر الفكرة الدينية التي تمدّ المجتمع بفكرة دافعة للإقلاع الحضاري ومن ثمة ميلاد مجتمع يتحرك في التاريخ ويتجه صوب بناء حضارته الإنسانية الجديدة وفق رؤية واضحة يستمدّها من الإسلام باعتباره الإطار المرجعي الأساسي في التعامل مع مختلف المشكلات وأهمها مشكلة الحضارة والثقافة وصناعة التاريخ وفق رؤية واضحة وحاسمة في آن معا وسط حالة من

¹ انظر عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، عدد 151، السنة 32، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2012، ص 94.

الفوضى والته والتبعية والتخلف الذي يسم العالم الإسلامي. ولا يمكن التخلص من هذه الحالة والاتجاه نحو النهوض مرة أخرى إلا بتحرير الرؤية القرآنية للتاريخ ومصائر الأمم والإنسان وفق التصورات الأساسية للعقيدة وربطها بمبادئ المسلمين الأول حينما شكلوا ثقافة ونسقا حضاريا وجماعة سياسية وحققوا الخلافة وفق القيم التي وضعها النص القرآني من أجل البناء والنهوض والتنمية. والتأكيد على دور الإسلام باعتباره مصدرا للإلهام في بناء الفرد والمجتمع، والإيمان بأن التنمية لا تكون راسخة أركانها إلا إذا كانت متجذرة في المجتمع متطابقة مع تصوراته ومعتقداته وفلسفته في الحياة.

➤ المصادر

- مالك بن نبي

- تأملات، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1988.
- شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط 4، 1969.
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط 3، دمشق، دار الفكر، 1988
- فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة الطيب الشريف، ط 2، دمشق، دار الفكر، 2000.
- القضايا الكبرى، دار الفكر، ط 1، دمشق، 1991
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دمشق، دار الفكر،

1988

- مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 4، دمشق، دار الفكر، 1984
- ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 2002
- وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 5، الجزائر، دار الفكر، 1986

➤ المراجع

- ابن براهيم الطيب، مالك بن نبي وابن خلدون، مواقف وأفكار مشتركة. دار مدني، 2002
- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. ط: 2. بيروت: دار النفائس، 1986
- بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري - أنموذج مالك بن نبي - ط: 1.
- سلسلة كتاب الأمة، قطر، 1999، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. العدد: 73
- رقية بوسنان، إشكاليات الحرية وسياقات ممارساتها عند مالك بن نبي، قراءة في سلسلة مشكلات

- الحضارة، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد 16، 2020.
- سعيد إسماعيل علي، الخطاب التربوي الإسلامي، سلسلة كتاب الأمة. ط: 1. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. العدد: 100، 2004
- سعيد إسماعيل علي، فقه التربية. ط: 1. القاهرة: دار الفكر العربي، 2001
- فوزي الشربيني، التربية الجمالية بمناهج التعليم، ط 1، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، 2005
- علي القرشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر. ط: 1. الزهراء للإعلام العربي، 1989
- عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، كتاب الأمة، عدد 151، السنة 32، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 2012.
- محمد أحمد موسى، التربية وقضايا المجتمع المعاصر، دار الكتاب الجامعي، 2002
- محمد بغداد باي، التربية والحضارة: بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي، عالم الأفكار، 2006
- مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي مدخلا إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2005
- محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2007.
- محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري "محنة المسلم مع حضارة عصره"، ط 20، سلسلة كتاب الأمة، قطر، 1989، مؤسسة الخليج للنشر والطباعة، العدد: 21
- نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ط 1، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1997.

معادلة الحضارة عند مالك بن نبي وفعاليتها في التنمية الاجتماعية والتغيير الحضاري

د. أسماء زواغي

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)

zouaghi-asma@univ-eloued.dz

مقدمة

يعتبر مالك بن نبي واحدًا من أبرز المفكرين الجزائريين في القرن العشرين، وقد اهتم بشكل خاص بقضايا النهضة الحضارية والتنمية الاجتماعية في العالم الإسلامي. وتعتبر نظريته حول "معادلة الحضارة" من أهم إسهاماته الفكرية؛ حيث قدم نموذجًا لفهم أسباب نشوء الحضارات وتطورها وكيفية استثمار هذه النظرية لتحقيق التنمية الشاملة. فالحضارة هي مفهوم مركزي في فكر مالك بن نبي، حيث يرى أنها ليست مجرد تطور مادي، بل هي عملية شاملة تشمل الجوانب الاجتماعية، الثقافية، الاقتصادية، والسياسية. ومن خلال كتاباته، سعى بن نبي إلى تحديد عناصر الحضارة وكيف يمكن استغلالها لتحقيق التنمية والتغيير الحضاري، وقد قدم معادلة حضارية مكونة من ثلاثة عناصر أساسية: الإنسان، التراب (الموارد الطبيعية)، والوقت، مع إضافة الفكرة الدينية كعامل محفز وموجه لهذه العناصر.

وتبرز أهمية دراسة موضوع "معادلة الحضارة عند مالك بن نبي وفعاليتها في التنمية الاجتماعية والتغيير الحضاري" من خلال الحاجة الملحة إلى تطبيق نظريات ابن نبي في الواقع الجزائري المعاصر، حيث يمكن أن تسهم تلك النظريات في تقديم حلول لمشاكل التنمية والتغيير الحضاري، وذلك من خلال الفهم العميق لعناصر معادلة الحضارة وكيفية تفعيلها، إذ يمكن للمجتمع الجزائري أن يستفيد من هذه الأفكار لتحقيق نهضة حضارية شاملة.

وتتمحور الإشكالية الرئيسية في كيفية تفعيل هذه المعادلة في الواقع الجزائري المعاصر لتحقيق التنمية الاجتماعية والتغيير الحضاري، فالتساؤل المركزي هو: كيف نفعل معادلة الحضارة لمالك بن نبي في الواقع الجزائري المعاصر؟، ويندرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية:

- من هو مالك بن نبي؟ وما هي معادلته الحضارية؟
 - ماهي أهم التحديات التي تواجه الواقع الجزائري المعاصر؟
 - من هذا المنطلق، يهدف هذا البحث إلى:
 - تسليط الضوء على فكرة معادلة الحضارة عند مالك بن نبي وتوضيح فعاليتها في التنمية الاجتماعية.
 - تحليل معادلة الحضارة عند مالك بن نبي وفهم العناصر الأساسية وكيفية تفاعلها.
 - تطبيق نظرية معادلة الحضارة لمالك بن نبي في الواقع الجزائري المعاصر لتحسين التنمية الاجتماعية والتغيير الحضاري.
- وبعد أن تبين لنا أهمية هذا الموضوع وإشكاليته وكذا أهدافه من خلال تلك الأسطر الموجزة، فهو على قدر ما اتضح لنا يعدّ ذا أهمية كبرى لما له من وثيق الصلة بالتنمية الحضارية. لذا اقتضت طبيعة البحث أن ينقسم إلى تمهيد وثلاثة محاور رئيسية وخاتمة:

- التمهيد: وفيه نبذة عن مالك بن نبي حياته ونشأته الفكرية.
- المحور الأول: معادلة الحضارة عند مالك بن نبي.
- المحور الثاني: التحديات التي تواجه الواقع الجزائري المعاصر من منظور مالك بن نبي.
- المحور الثالث: تفعيل معادلة الحضارة لمالك بن نبي وتأثيرها على التغيير

الحضاري في الواقع الجزائري المعاصر،

ويعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي القائم على تقديم وصف لمعادلة الحضارة التي قدمها مالك بن نبي وتحليل أفكارها.

تمهيد: نبذة عن مالك بن نبي حياته ونشأته الفكرية

1 - حياته:

هو مالك بن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي (1905-1973م)، ولد في مدينة قسنطينة بالجزائر، في يناير 1905م، وقد ولد في فترة من الزمن مكنته من الشهادة على القرن حيث أتاحت له فرصة الاتصال بالماضي والمستقبل¹.

وقد نشأ بن نبي في أسرة محافظة، وكان الابن الوحيد لوالدين معسورين، وأخا لثلاث شقيقات، وكان والده خريجا للمدرسة الرسمية التي كانت تدرس باللغتين: العربية والفرنسية، ويعود الفضل إليه في تشجيعه على الدراسة في فرنسا وزوده بالمال لعدة سنوات رغم ظروفه الصعبة، وقد كان مالك بن نبي تربطه علاقة شديدة بجده الحجة زوليخة التي اعتبرها مدرسة أخلاقية رسخت في ذهنه الكثير من القيم الحسنة².

وقد دأب بن نبي في مطلع شبابه على حضور الحلقات العلمية التي كانت تقام في الجامع الكبير بقسنطينة، وتلقى علومه على يد الشيخ عبد المجيد الذي ترك أثرا طيبا في فكره، بما كان يتميز به من نظرات نقدية للواقع الجزائري، حيث كان ينتقد الطرقيين، ويهاجم ممارسات السلطة الفرنسية في الجزائر³، وقد كانت نشأته إلى بلوغه سن الشباب في مدينتي تبسة وقسنطينة التي ولد فيها وبقي فيها بعد ولادته

¹ عبد الله بن حمد العويسي: مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية، بيروت، لبنان، 2012م، ص51

² فوزية برون: مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ط1، دار الفكر، دمشق، 2010م، ص104

³ المرجع نفسه، ص107

مع مربيته بهيجة وزوجها، ثم عاد إلى تبسة مع والديه، واستمر بها، إلى أن انتقل من جديد إلى قسنطينة بعد إتمامه المرحلة الابتدائية¹.

تزوج مالك بن نبي سنة 1931م من امرأة فرنسية دخلت الإسلام وأصبح اسمها خديجة، وقد عبر عن تقديره لها بصفتها زوجة مدبرة، وربة بيت حاذقة، ومثقفة ذكية ذات ذوق جمالي رفيع، ومعتزفاً بأثرها في نموه الفكري وتشجيعها له للمضي في دراسته العلمية، ونشاطه الفكري².

2- نشأته العلمية والفكرية:

كان مالك بن نبي يحمل في نفسه استعدادات فطرية أهّلته لاكتساب الصفات العلمية التي طبعت إنتاجه الفكري، فكان بذلك مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر³، ومن أبرز الصفات التي كان يتصف بها مالك بن نبي⁴:

- حب القراءة ومطالعة جميع ما يقع تحت يده من مادة فكرية.
- حب المناقشة وممارستها في مجال الأفكار.
- تأمل الواقع والتفكير بحل مشكلاته.
- الصبر والمصابرة والإصرار للوصول إلى الهدف.
- الطموح العلمي.

وإلى جانب تلك الصفات فقد نشأ في أسرة مسلمة محافظة على دينها وهي على جانب لا بأس به من الوعي، غرست في مالك بذور الاتجاه إلى الخير والصلاح، والنفور من الشر والضلال، ودفعت به في طريق العلم، فكانت تلك البذور هي

¹ العويبي: مالك بن نبي حياته وفكره، ص 58-59

² المرجع نفسه، ص 115

³ المرجع نفسه، ص 141

⁴ مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن بإشراف ندوة مالك بن نبي، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1984م، ص 111-

البداية والأساس، وما لبثت أن تطورت إلى أن بلغت مبلغاً أهله لتقديم ذلك العطاء المثمر المتمثلة في تلك المجموعة من المؤلفات التي خلفها للمكتبة الإسلامية والتي كانت نتاج ذلك التكوين الفكري الدقيق الذي تميز به¹.

وقد ترك مالك بن نبي عدة مؤلفات، التي ركزت في مجملها على إبراز مشاكل العالم المتخلف بما في ذلك العالم الإسلامي على اعتبار أن مشكل العالم هو مشكل حضارة قبل كل شيء، فوضع سلسلة من الكتب تحت عنوان مشكلات الحضارة، ومن أبرز مؤلفاته²:

- آفاق جزائرية
- بين الرشاد والتهيه
- شروط النهضة
- مذكرات شاهد القرن
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي
- مشكلة الثقافة... إلخ

المحور الأول: معادلة الحضارة عند مالك بن نبي

جاء مصطلح الحضارة في المعاجم اللغوية العربية بمعنى: الإقامة في الحضر، أي السكن في القرى والمدن، فهي ضد البداوة التي تعني الانتقال والتنقل الذي لا استقرار فيه، وجعل لفظ حضارة مقابل لفظ بداوة؛ لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار³، وأول من اقترَب من مفهوم الحضارة هو ابن خلدون

¹ العويبي: مالك بن نبي حياته وفكره، ص 142

² للتفصيل في جميع مؤلفات مالك بن نبي انظر: فوزية بريون: مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ص 245-246

³ جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ، 197/4 (فصل الحاء، مادة: حضر)

(808هـ)، الذي ميّز في مقدمته بين العمران البدوي والعمران الحضري، فقد اعتبر أن المجتمعات البدوية والحضرية تنشأ بصورة طبيعية، ويبيّن أن البداوة هي الأساس الذي تنطلق منه الحضارة، وأن المجتمعات البدوية تسبق المجتمعات الحضرية في الوجود وإذا كانت البداوة هي أصل الحضارة، فإن الحضارة هي الهدف النهائي للبداوة ونهاية تطور العمران. وتزداد أهمية المفهوم الحضاري في التفسير التاريخي يوماً بعد يوم، بحيث أصبح يغطي مساحات واسعة في أي نهج تفسيري، بغض النظر عن طبيعته. وبالمعنى المجرد، تُعتبر الحضارة مرحلة متقدمة من مراحل التطور الإنساني، تقابل مرحلة الهمجية والتوحش. وقد اعتبر ابن خلدون الحضارة فنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فالحضارة في وجهة نظره مرحلة متقدمة من مراحل الرقي الاجتماعي والترف¹.

أولاً: تعريف الحضارة من منظور مالك بن نبي:

مالك بن نبي هو أحد أبرز المفكرين والفلاسفة الجزائريين الذين تناولوا موضوع الحضارة بشكل معمق. فإن مفهوم الحضارة يشكل المحور الرئيسي والإطار الأساسي الذي تدور حوله أفكار مالك بن نبي، فهو يرى أن جميع المشكلات تندرج تحت هذه المشكلة المحورية، حيث أن مشكلة كل شعب في جوهرها هي مشكلة حضارية²، لذلك وضع بن نبي إنتاجه الفكري تحت عنوان "مشكلات الحضارة"، مؤكداً على أهمية هذا المفهوم في تفسير وتوجيه مساعي الشعوب نحو التقدم والتطور، إذ يقول: "كتبي كلها بعناوينها المختلفة أدرجت تحت عنوان عام هو مشكلات الحضارة لأن

¹ عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق سهيل زكار، ط 1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981م، 216/1

² انظر: مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دط، دار الفكر، دمشق، سورية، 2006م،

المجتمع لا يعاني عندما تحل به أزمة، إلا مشكلة واحدة هي مشكلة حضارته في طور من أطوارها يتلاءم أو لا يتلاءم مع ضروريات الحياة عندما يتحقق شرط الانسجام تكون الحضارة مزدهرة، فيكون المجتمع بمثابة العقل السليم في الجسم السليم، وإن لم يتحقق هذا الانسجام، تحل بالمجتمع في هذا الطور من أطوار حضارته كل المحن التي يعانيها تحت أسماء مختلفة من استعمار، إلى جهل، إلى فقر... الخ بينما في الحقيقة كلها أعراض لمرض واحد هو فقدان الحضارة، إذا فكتبي أردت أن أخصصها من ناحية لدراسة أعراض هذا المرض ومن ناحية أخرى إلى تقييد طرق علاجها¹. فقد تميز مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي بشموليته وتركيزه على الأبعاد الإنسانية والاجتماعية والثقافية، وفيما يلي توضيح لمفهوم الحضارة من منظور مالك بن نبي.

الحضارة عند مالك بن نبي هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية، فهذه الشروط تتضمن: الإنسان، التراب (الأرض)، الوقت، والفكرة الدينية، فهو يرى أن هذه العناصر تعمل معا بشكل تكاملي لتشكل حضارة². فقد اهتدى ابن نبي إلى وضع معادلته حول الحضارة وهي: (إنسان + تراب + وقت = حضارة) فهي معادلة رمزية تعبر عن العلاقة بين العناصر الأساسية، ويعمل الدين في هذه المعادلة دور المركب الذي يلحم تلك العناصر فيما بينها، فيكون منها حضارة³. أي أن تلك العناصر الثلاث لا يمكن تصورها بمعزل عن بعضها البعض. وبذلك، فإن العنصر الأول، أي الإنسان، هو الفاعل الحقيقي وراء أي إنتاج، فالإنسان يمثل الفكرة التي تسببت في ظهور المولد، ولا يمكن تصور أن هذه الفكرة نشأت من العدم، لذا، فإن الشرط الثاني وهو عامل الزمن إذ يبدو ضرورياً لأي عملية ميلاد. لكن من

¹ العويسي: مالك بن نبي حياته وفكره، ص 377

² مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 50.

³ المصدر نفسه، ص 50.

الواضح أيضاً أن ميلاد هذا المنتج يعتمد أساساً على المادة المستخدمة في إنتاجه، والتي يسميها مالك بن نبي "التراب"، والمقصود هنا ليس فقط الإنتاج المادي، بل يرمز إلى أي شكل من أشكال الإنتاج.

ثانياً: مكونات الحضارة وعناصرها الأساسية عند مالك بن نبي

يركز مالك بن نبي على فهم العناصر الأساسية التي تشكل الحضارة وكيفية تفاعلها لتحقيق النهضة الاجتماعية والتغيير الحضاري، فهو يرى أن الحضارة تتكون من ثلاثة عناصر أساسية:

1- العنصر الأول: الإنسان، فيعتبر ابن نبي أن الإنسان هو المحرك الأساسي للحضارة، إذ أن قدرته على التفكير والإبداع والعمل هي ما يساهم في بناء الحضارة، حيث لا يمكن لأي حضارة أن تقوم دون وجود الإنسان الذي يمتلك القدرة على التفكير والإبداع والعمل كذلك، فالإنسان في نظره هو الكائن الذي يستطيع تحويل الأفكار إلى واقع ملموس من خلال العمل والجهد المتواصل¹.

2- العنصر الثاني: التراب: فيشير ابن نبي إلى أهمية الموارد الطبيعية أو التراب في بناء الحضارة، فهو العنصر الثاني في معادلته، فابن نبي حينما تحدث عن التراب فهو لا يقصد بذلك البحث في خصائصه وطبيعته، وإنما من حيث قيمته الاجتماعية، وهذه القيمة تستمد من قيمة مالكيه "فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة، وحضارتها متقدمة يكون التراب غالي القيمة، وحيث تكون الأمة متخلفة -كما نقول اليوم- يكون التراب على قدرها من الانحطاط"². ولا يرى مالك بن نبي في هذا الأمر مجرد مشكلة فحسب، بل يعتبرها مأساة مؤلمة، حيث تموت الأرض الخضراء وتترك سكانها يتامى في مواجهة الصحراء الجرداء. يجدون أنفسهم بلا طعام سوى بعض

¹ انظر: مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 106 وما بعدها.

² المصدر نفسه، ص 131.

أشجار النخيل، وبلا ماء إلا ما تبقى من أمطار الشتاء، إذ يشبه هذا المصير الذي ينتظر أراضي الخصب إلى حد كبير مأساة "برقة" التي غمرتها الرمال قبل ألف عام، ويعتقد مالك بن نبي أن سكان الأرض أبدوا جبناً وضعفاً في مواجهة هذا الغزو، حيث فر سكان البوادي الرحالة بعدما فقدوا أراضيهم وماشيتهم، ولم يتبق لهم سوى الدواب ليركبوا عليها وهم يفرون، وهم الآن يتنقلون بين الصحراء التي تشتتهم وبين المدن الساحلية التي ترفضهم أو تستوعبهم كمهمشين.¹

3- العنصر الثالث: الوقت: هو البعد الزمني الذي يعبر عن التراكمات والتجارب التاريخية للمجتمع، ويركز ابن نبي على أهمية الوقت كعنصر أساسي في بناء الحضارة، حيث أن التراكم الزمني للتجارب والمعارف هو ما يساهم في تطور الحضارات، فالوقت يمثل الخبرة التاريخية التي تتيح للمجتمع التعلم من الماضي والتخطيط للمستقبل. "فإن الزمن نهر قديم يعبر العالم، ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي يعيش فيها كل شعب، والحقل الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخاً هنا وهناك، قد تصير عدماً إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريرها. فإذا قسنا الزمن بمقياس الساعات التائهة، فالقرن لا يساوي شيئاً، بل حتى ألف سنة لا تساوي شيئاً".²

4- أما العنصر الرابع وهو الفكرة الدينية، فقد أشار ابن نبي إلى أنها عنصر فعال في بناء الحضارة، إذ إن القيم والمبادئ الدينية تساهم في توجيه سلوك الأفراد والجماعات نحو البناء والتقدم، والفكرة الدينية هي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاث بعضها ببعض، فقد شبهها بالماء "فهو نتاج للهدروجين والأكسجين، وبرغم هذا فهما لا يكونانه تلقائياً، فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب)

¹ انظر: المصدر السابق، ص 131 وما بعدها.

² مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، ط 1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، 2002م، ص 68

ما بدونه لا تتم عملية تكون الماء"¹، فهذا مثل ذاك.

كما أشار مالك بن نبي وأكد "أنه عندما تتناول الحضارة الإسلامية فلا بدّ من أن يدخل في اطرادها بالضرورة عاملان هما: الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه، والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة"². وعليه فمن أهم أسس تطور الحضارة هي العلاقة التي تربط الفكرة بسندها- كما سماها مالك بن نبي-، أي: الفكرة الدينية، كالإسلام مثلاً والسند المحسوس وهو الفرد المسلم.

وفي رؤية مالك بن نبي، الدين أو الفكرة الدينية تشمل جانبين أساسيين³:

الأول: الجانب الأخلاقي، الذي ينظم سلوك الأفراد ويحدد إطاراً للسلوكيات المقبولة اجتماعياً وأخلاقياً.

الثاني: النزعة الغيبية، التي تمنح المبررات وتوجد الروح الجماعية بين الأفراد. هذه النزعة لا تقتصر على الإيمان بالخالق فقط، بل تشمل أيضاً الإيمان بالغيب بمعناه الأوسع، مثل المشاريع الاجتماعية بعيدة المدى. على سبيل المثال، يمكن أن يتجسد هذا في بناء مجتمع جديد يبدأ بحجر الأساس الذي يضعه جيل واحد وتواصل الأجيال المتعاقبة في تطويره وبنائه، مما يخلق إحساساً مشتركاً بالهدف ويعزز التعاون والتضامن الاجتماعي.

فهذان الجانبان هما العنصران اللذان يحددان مفهوم الفكرة الدينية لدى مالك بن نبي.

فمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي يتميز بشموليته وتركيزه على الأبعاد

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 45-46، وانظر أيضاً: مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 3، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق سورية، 1986م، ص 103

² مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 66

³ انظر: المصدر نفسه، ص 50-51، والعويبي: مالك بن نبي حياته وفكره، ص 246

الإنسانية والدينية والاجتماعية من خلال تحليل مكونات الحضارة ومعادلتها، ويقدم بن نبي رؤية متكاملة لبناء الحضارات وتطوير المجتمعات.

المحور الثاني: التحديات التي تواجه الواقع الجزائري المعاصر من منظور مالك

بن نبي

تواجه الجزائر كغيرها من الدول النامية العديد من التحديات المتداخلة والمعقدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرقل مسيرة التنمية والنهضة، وقد تناول مالك بن نبي في كتبه مجموعة من القضايا والتحديات التي تعرقل مسيرة النهضة في الجزائر، وسنحاول استعراض بعض هذه التحديات حسب ما يقتضيه المقام.

أولاً: القابلية للاستعمار:

يعتبر بن نبي أن واحدة من أبرز المشكلات التي تواجه المجتمعات الإسلامية، بما في ذلك الجزائر، هي القابلية للاستعمار، وهو أن يكون المجتمع مستعداً للانقياد والخضوع للتأثيرات الخارجية بسبب ضعف داخلي، ويرى أن الاستعمار ليس فقط نتيجة لقوة المستعمر، بل هو أيضاً نتيجة لضعف المجتمعات المستعمرة من الناحية الحضارية¹، فعامل القابلية للاستعمار كما يشرحه مالك بن نبي هنا هو العامل الداخلي المستجيب للعامل الخارجي، إنه رضوخ داخلي عميق لعامل الاستعمار يُرسِّخ الاستعمار ويجعل التخلص منه مستحيلاً². فالجزائر عانت من استعمار فرنسي طويل الأمد (1830-1962م) الذي أثر بشكل كبير على البنية الاجتماعية والاقتصادية.

ثانياً: مشكلة الأفكار:

يشدد بن نبي على أن الأفكار هي محرك أساسي للحضارة، "فالمعجزات الكبرى

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 152-153

² محمد شاويش: مالك بن نبي والوضع الراهن، ط 1، دار الفكر، دمشق، 2007م، ص 12 وما بعدها

في التاريخ مرتبطة دائماً بالأفكار الدافعة"¹، ويرى أن المجتمع الجزائري يعاني من أزمة في الأفكار²، حيث تتجه الأفكار نحو التقليد بدلاً من الإبداع والابتكار، فهو يرى أن المجتمع الإسلامي المعاصر يقتبس أفكاره الحديثة والتقدمية من الحضارة الغربية، وبالتالي فهو يدفع اليوم ضريبة خيانتته لنماذجه الأساسية³.

ثالثاً: التحديات الاقتصادية:

تواجه الجزائر تحديات اقتصادية خطيرة من أبرزها: الاعتماد على النفط والغاز، مما يجعل اقتصادها عرضة للتقلبات في أسعار الطاقة العالمية، ويعتمد الاقتصاد الجزائري على صادرات النفط والغاز بنسبة تزيد عن 90٪ من إجمالي الصادرات، وهو ما يشكل تحدياً كبيراً عند انخفاض الأسعار العالمية.

وقد أشار بن نبي إلى ضرورة الانتقال من الاقتصاد الريعي المعتمد على النفط والغاز إلى اقتصاد متنوع ومستدام، ويرى أن هذا التحول يحتاج إلى إرادة سياسية واستراتيجية شاملة للاستثمار في القطاعات الإنتاجية الأخرى⁴، فالنجاح والفشل مرهون بتطبيق السياسات المواتية و الملائمة قبل تعرض الإيرادات النفطية للانخفاض، من هذه السياسات التنويع الاقتصادي فهو وسيلة لزيادة مصادر الدولة، وتنويع صادراتها، كما يراه آخرون توجهها استراتيجياً للتنمية بهدف تحقيق التنمية المستدامة؛ لما بين هذه الأخيرة والتنويع الاقتصادي من علاقة وثيقة؛ فهما عنصرين هامين في تحقيق الاقتصاد، فالتنويع يحد من التذبذب الاقتصادي للدول،

¹ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط1، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002م، ص48

² مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ص102

³ المصدر نفسه، ص75

⁴ انظر: مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، تحقيق وإشراف ندوة مالك بن نبي، دط، دار الفكر، دمشق سورية، 2000م، ص35 وما بعدها

و من ثم زيادة أدائها و نشاطها¹.

رابعاً: مشكلة الثقافة:

تعتبر مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي عامة والجزائر خاصة من أهم المشكلات التي اعتنى بها بن نبي في جميع مؤلفاته، نظراً لخطرهما على حضارة المجتمعات، فهو يرى أن بلادا كالجائر لكي تكون لها القدرة على تنفيذ خطط مشاريعها التنموية أو قدرة على الإتيان بالحلول المناسبة للمشكلات التي لها صلة بالإنسان أو بالتراب أو الوقت أو بها جميعا يتعين أولا "أن تكون البلاد المتخلفة على اقتناع بأن تثقيف الإنسان أكثر أهمية من تثقيف نبات الأرض"². فالواقع الاحتلالي في الجائر أنشأ مشكلة ثقافية، ذات طابع تمزيقي سياسيا، وفكريا واجتماعيا، شرعت تتفاعل عناصرها لتتعدد بعد الاستقلال، فقد أصبحت مشكلة الثقافة في الجائر وباء وطنيا، لذا فإن وصفها بالمشكلة، بل المشكلة المتأزمة يأتي من واقع المعاناة اليومية، فالمؤكد أن جذور المشكلة الثقافية في الجائر مرتبطة ببداية التجذر للاحتلال الفرنسي³.

فالجائر تواجه مجموعة متنوعة ومعقدة من التحديات التي تحتاج إلى حلول شاملة ومستدامة، فالمشكلات التي تواجه الجائر ليست مجرد مشكلات فردية بل هي جزء من مشكلة حضارية يجب على الحكومة والمجتمع المدني العمل سويا لمعالجة هذه القضايا وتعزيز التنمية المستدامة لضمان مستقبل أفضل للجائر.

¹ خير هواري وعازان حفيظة: واقع التنوع الاقتصادي في الجائر خارج قطاع المحروقات في ضوء تجربتي كوربا الجنوبية وماليزيا، مجلة البحوث الإدارية والاقتصادية، المركز الجامعي تسمسيلت، ص100

² مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر، دمشق سورية، 2000م، ص89

³ انظر: عمر بن قينة: المشكلة الثقافية في الجائر التفاعلات والنتائج، ط1، دار أسامة، الأردن، 2000م،

المحور الثالث: تفعيل معادلة الحضارة لمالك بن نبي وتأثيرها على التغيير الحضاري في الواقع الجزائري المعاصر،

لقد قدّم مالك بن نبي رؤية عميقة وشاملة حول النهضة الحضارية والتنمية الاجتماعية، معتمدا على مفهوم "معادلة الحضارة" التي تتكون من أربعة عناصر أساسية هي: الإنسان والمتمثل في القدرات البشرية والمهارات، التراب المتمثل في الموارد الطبيعية والمادية، الوقت وهو عامل مهم في التنمية، وأخيرا الأفكار أو الفكرة الدينية المتمثلة في القيم والمعتقدات التي توجه هذا التفاعل. والجزائر كدولة ذات تاريخ طويل وثقافة غنية و -كما ذكرنا سابقا- تواجهها تحديات كبيرة تقف عائقا في طريق تحقيق التنمية الشاملة، لذا سنحاول أن نستعرض في هذه الأسطر كيفية تفعيل هذه المعادلة في السياق الجزائري المعاصر، وتأثير تفعيل هذه المعادلة على التغيير الحضاري.

أولا: تفعيل العنصر البشري (الإنسان):

وضع مالك بن نبي الإنسان في قلب معادلة الحضارة، فهو يرى أن الإنسان هو العنصر الفاعل والأساسي في تحقيق النهضة الحضارية، ولتحقيق تنمية حضارية في الجزائر وجب تفعيل قدرات الإنسان في مستويات عديدة منها: التعليم، الثقافة، الوعي... الخ، فيمكن للجزائر أن تحقق نهضة حقيقية تستند إلى قدرات وإمكانات الإنسان الجزائري، فلا يغير الإنسان التاريخ إلا إذا غير فكره، ويمكن تطبيق تفعيل عنصر الإنسان وتأثيره في تركيب الحضارة بثلاث مؤثرات: بفكره، بعمله، وبماله¹.

1- **الفكر:** توجيه فكر الإنسان مرتبط بتقدم الأمة أو تأخرها، وتنظيم فكر الإنسان يشمل أربعة جوانب -كما ذكرها مالك بن نبي-²:

أ- **الجانب الخلقي:** فهي الأساس في بناء الحضارة، فتفعيل هذا الجانب في الواقع

¹ انظر: مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 78-110

² المصدر نفسه، ص 80-81

الجزائري يسهم في تحقيق تنمية مستدامة وبناء مجتمع قوي متماسك، من خلال العديد من الاستراتيجيات، منها: الحملات الإعلامية ومحتواها الذي يعزز القيم الأخلاقية، كذلك استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لنشر القيم الأخلاقية، وكذا مكافحة الفساد والعدالة الاجتماعية... الخ.

ب- التوجيه الجمالي: الإطار الحضاري بكل مستوياته متصل بذوق الجمال، بل هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة، فينبغي ملاحظته في الأنفس، وأن يتمثل في الشوارع والبيوت والمقاهي، فالجمال هو وجه الوطن في العالم، والمجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة لا بد أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره وأعماله¹. فالجانب الجمالي في الواقع الجزائري المعاصر يسهم في تحسين نوعية الحياة من خلال توفير مساحات مريحة وجذابة للعيش والعمل، كما يسهم الجمال المعماري والطبيعي في جذب السياح مما يسهم في اقتصاد محلي راقى مع توفير لمناصب العمل.

ج- المنطق العملي: يقصد به مالك بن نبي كيفية ربط العمل بوسائله ومقاصده، واستخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة²، فتفعيل المنطق العملي يمكن الجزائر من تجاوز التحديات الحالية وتحقيق تقدم ملموس من خلال العديد من الاستراتيجيات: كأن تنظم المهام وفقا للأولويات مع استخدام البرمجيات والأدوات الرقمية والذكاء الاصطناعي لتحسين جودة الكفاءة والإنتاجية.

د- الصناعة: ويدخل في مفهومها كل الفنون والمهن وتطبيقات العلوم، وكل القدرات التي تنتج للفرد كسب عيشه³، فالحل المنطقي لمشكلة الصناعة في الجزائر تبدأ من الأفراد أنفسهم ودورهم في تعزيز الصناعة⁴، عن طريق التعلم المستمر والسعي لاكتساب مهارات جديدة وتطوير الذات باستمرار، كما يعتبر تشجيع

¹ انظر: مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 81، ومالك بن نبي: شروط النهضة، ص 94

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 85

³ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 97، ومالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 88

⁴ انظر: مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص 59

الأفراد على تطوير الصناعات المحلية جزءا من تحقيق التنمية الوطنية فهو يؤدي إلى تقليل الاعتماد على الواردات.

2- العمل: توجيه العمل يعني تنظيم وتوجيه الجهود البشرية نحو أهداف محددة تساهم في بناء الحضارة¹، فتوجيه العمل في الواقع الجزائري يؤدي إلى تعزيز الكفاءة الإنتاجية عن طريق تنظيم الجهود البشرية وكذا تحفيزهم من أجل إعداد خطط عمل واضحة في مختلف القطاعات الوطنية، كما يساهم توجيه العمل وتنظيمه إلى خلق فرص عمل جديدة، وبالتالي الحد من البطالة التي انتشرت بكثرة في الآونة الأخيرة في المجتمع الجزائري.

3- المال: إن توجيه رأس المال يرتبط بالكيف لا بالكم، فالقطعة النقدية التي تتحرك، وتدخل وتخرج هي التي تسمى رأس المال، فالقضية في جعل الأموال تتحرك وليس في تكديسها²، فتوجيه رأس المال بشكل صحيح في الواقع الجزائري يساهم في تعزيز الاقتصاد الوطني من خلال الاستثمار في مشاريع إنتاجية تحرك الأموال لتزيد من الدخل القومي وتخلق فرص عمل جديدة، كما أن استخدام رأس المال بفعالية يمكن أن يساعد في تحقيق الاستقلالية الاقتصادية والحد من الاعتماد على المصادر الخارجية عن طريق تشجيع الإنتاج المحلي في الجزائر.

ثانيا: تفعيل الموارد الطبيعية(التراب):

عنصر التراب من عناصر معادلة الحضارة، وهو كما يشرحه مالك بن نبي -وكما ذكرناها سابقا- يشير إلى الأرض والموارد الطبيعية من تربة ومياه ومعادن ونباتات وأهمية إدارتها بفعالية لتحقيق التنمية المستدامة في الجزائر، إذ يشكل عنصر التراب جزءا أساسيا من التحديات والفرص التي تواجه البلاد، ويعتبر إدارة هذا العنصر بشكل فعال أمرا حيويا للنهوض بالحضارة وتحقيق التنمية الاجتماعية في المجتمع

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 95

² المصدر نفسه، ص 112

الجزائري، ويمكن تطبيق تفعيل هذا العنصر من خلال عدة استراتيجيات ومبادرات تسهم في تنمية واستغلال الموارد الطبيعية بشكل فعال ومستدام.

1- عن طريق التنمية الزراعية: أو تحسين الإنتاج الزراعي: تعتبر الجزائر من الدول التي تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي فمن الضروري الاستثمار في تلك الأراضي، فهي تحتاج إلى حلول مبتكرة، ففي ظل التحديات التي تواجه التنمية الزراعية في الجزائر وجب أن يكون هناك طريقة تتيح التحكم في العوامل البيئية واستخدام الموارد بكفاءة عالية ويكون ذلك عن طريق التكنولوجيا الحديثة والتقنيات الزراعية المتقدمة لتحسين الإنتاجية الزراعية، وذلك بالعمل على تطبيق طرق مبتكرة لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في المجال الزراعي أو ما يعرف بالزراعة الذكية، إذ يمكن للرقمنة أن تسمح للجهات الفاعلة المختلفة على طول سلسلة القيمة الزراعية والغذائية بالتعاون في نظام بيئي زراعي مستدام، حيث تعمل التقنيات المحمولة والأجهزة المستندة إلى الأنترنت على ربط المزارعين بسلاسل التوريد، مما يتيح الوصول إلى البذور والأسمدة عالية الجودة التي يمكن أن تعزز الإنتاج والجودة¹، فقد أصبحت الاستفادة من التطورات والابتكارات في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أكثر أهمية في قطاع الزراعة. وكذلك مشروع "الزراعة الذكية" يعتمد على تقنيات الري الحديث واستخدام البذور المحسنة والأسمدة العضوية لتحسين الإنتاجية الزراعية... الخ، كما يجب تشجيع المزارعين على العمل بالطرق الحديثة وتطبيق التقنيات العصرية في مجال الزراعة.

كما يلعب الفرد الجزائري دورا في التنمية الشاملة واستغلال الموارد الطبيعية كجزء من نهضة حضارة الجزائر، فالإنسان هو العنصر المحوري الذي يمكنه تحويل الموارد الطبيعية إلى أدوات لتحقيق التنمية والتقدم، فقد تحدث مثلا مالك بن نبي

¹ الطاوس غريب وحنان دريد: الزراعة الإلكترونية كتوجه استراتيجي للقطاع الزراعي في ظل التحول الرقمي،

مجلة أبعاد الاقتصادية، جامعة العربي التبسي، المجلد 11، العدد 1، ص 75

عن مكافحة التصحر في الجزائر وشمال إفريقيا، فقد فقدت الجزائر في الفترة الممتدة ما بين 1992 وبين 2000م ثمانية ملايين هكتار من الأراضي التي كانت صالحة للزراعة والتشجير. فمكافحة التصحر يعتبر كوسيلة للحفاظ على الموارد الطبيعية فيمكن للإنسان استخدام تقنيات مثل التشجير وزراعة النباتات المقاومة للجفاف للحفاظ على خصوبة التربة ومنع تدهورها، وذكر بن نبي أن هذا يتطلب من الإنسان خدمة شاقة مستأنسا بذلك بالمحن التي تعرضت لها دول أخرى أمثال فرنسا فواجهتها بكفاح وعبقرية، "فقد قامت فرنسا في حوالي 1850م بغرس الأشجار في الناحية الجنوبية الغربية من البلاد، حيث كانت رمال الشاطئ الأطلنطي والمستنقعات الضارة تهدد مصالح أهلها وصحتهم، ولكن سكان تلك المنطقة انطلقوا بهمة وصبر يوقفون الرمال عند حدها، وتكبدوا في سبيل ذلك ما تكبدوا...فانتصروا على الرمال التي أرادوا صدها"¹.

2- استغلال الموارد الطبيعية (قطاع الطاقة المتجددة): وذلك عن طريق تسخير الطاقات المتجددة لإنعاش القطاع الفلاحي خاصة في الأراضي الجزائرية الصحراوية الشاسعة والذي من شأنه أن يحقق الأمن الغذائي في الجزائر، فاستثمار في الطاقات المتجددة مثل الطاقة الشمسية وطاقة الرياح وغيرها يؤدي إلى تقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري الذي ترتبت عنه مخاطر بيئية من تلوث وكوارث طبيعية كالجفاف والفيضانات، وبالتالي الحد من الطوارئ المناخية خصوصا على الأمن الغذائي الذي أصبح حاليا مرهونا بالأزمات الجيوسياسية والطاقيّة وحتى الصحية². فمن أضخم مشاريع الطاقة الشمسية على سبيل المثال مشروع "نور للطاقة الشمسية" في مدينة ورزازات جنوب المغرب وهي منطقة تتمتع بإشعاع شمسي قوي ومنتظم على مدار السنة يجعلها موقعا مثاليا لمشروع من هذا النوع،

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص135

² مولاي هند وتيغزة زهرة: دور الطاقات المتجددة في ترقية الزراعة الذكية لتحقيق الأمن الغذائي، المجلة الجزائرية للحقوق والعلوم السياسية، جامعة الجزائر، المجلد8، العدد2، ص2.

يهدف هذا المشروع إلى توليد الكهرباء باستخدام الطاقة الشمسية وبالتالي تقليل الاعتماد على الوقود الأحفوري وتعزيز استخدام الطاقة المتجددة¹، وهذا المشروع يعكس التزام المغرب بتطوير مصادر الطاقة المتجددة. فمشروع نور للطاقة الشمسية يعدّ نموذجاً رائعاً ورائداً في استخدام الطاقة المتجددة لتحقيق التنمية المستدامة، مما يجعله مثالا يحتذى به في منطقة المغرب وفي العالم، لو استخدمت الجزائر مثل هذا المشروع وطبقته على أرض الواقع من أجل مستقبل أكثر استدامة وبيئة أنظف، يمكن بذلك أن تحقق نهضة حضارية حقيقية. ولقد وجدنا في أفكار بن نبي توجيهاً عامة حول أهمية استغلال الموارد الطبيعية والطاقة البديلة كجزء من التنمية المستدامة²، فيمكن أن نستنتج أن مشروعات مثل "مشروع نور" تتماشى مع رؤيته حول تحقيق الاستقلالية الاقتصادية والتنمية المستدامة.

إذن يمكن للجزائر أن تحقق نهضة حضارية حقيقية من خلال تفعيلها لعنصر التراب، وتطبيقها على أرض الواقع، كما ذهب إلى ذلك مالك بن نبي.

ثالثاً: تفعيل الوقت:

عنصر الوقت هو أحد الموارد الأكثر أهمية في حياة الفرد والمجتمع، وقد تحدث عنه المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي في سياق نهضة المجتمعات، فهو يرى أن الوقت هو أحد العناصر الأساسية في معادلة الحضارة، ويعتقد بن نبي أن استثمار الوقت بفعالية هو مفتاح تحقيق النهضة الحضارية في الواقع الجزائري المعاصر، ويمكن تفعيل عنصر الوقت من خلال العديد من الاستراتيجيات الفعالة والمستدامة.

1- الإدارة الجيدة للوقت: تعد الإدارة الجيدة للوقت من أبرز العوامل لتحقيق النهضة الحضارية في أي مجتمع، "فهو فن وعلم الاستخدام الرشيد للوقت، وهو علم

¹ انظر: محطة نور ورزازات للطاقة الشمسية (2024/03/28م). في ويكيبيديا، تم الاطلاع عليه في: 2024/07/18م، رابط الموقع: https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=محطة_نور_ورزازات: محطة نور ورزازات للطاقة الشمسية.

² انظر مثلاً: مالك بن نبي: شروط النهضة، ص134

استثمار الوقت بشكل فعال، وهي عملية قائمة على التخطيط، والتنظيم، والتنسيق، والتحفيز، والتوجيه، والمتابعة، والاتصال"¹، وباختصار فهي تعني تنظيم الوقت واستغلاله بفعالية لتحقيق الأهداف المحددة بأقل جهد وأعلى كفاءة، ويكون ذلك بتطبيق العديد من الطرق منها: نشر الوعي بأهمية إدارة الوقت بين المواطنين، وخاصة الشباب، لتعزيز الكفاءة والإنتاجية، ويكون ذلك مثلاً عن طريق تنظيم ورش عمل وحلقات تدريبية حول أهمية إدارة الوقت في المدارس والجامعات والشركات. كما تساعد الأدوات الرقمية والتكنولوجية على إدارة الوقت بفعالية، مع تدريب الأفراد على استخدام التكنولوجيا الحديثة لتحسين إدارة الوقت، من غير إفراط ولا تفريط².

1- وضع الخطط التنموية طويلة الأمد: تعتبر الخطط التنموية طويلة الأمد عنصراً مهماً وحاسماً في تحقيق النهضة الحضارية إذا استعملت كما يجب أن يكون باتباع سياسة تخطيطية فعالة خصوصاً في دولة كالجائز. فالخطط التنموية طويلة الأمد هي استراتيجيات وبرامج يتم وضعها لتحقيق أهداف تنموية معينة على مدى فترة زمنية طويلة، تتراوح عادة بين 10 إلى 20 عاماً أو أكثر، وتهدف هذه الخطط في مجملها إلى تحقيق تنمية مستدامة وشاملة في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية، الثقافية والسياسية، فالنهضة الجزائرية لا يمكن أن تتحقق دون تخطيط وتنظيم دقيق، إذ تصبح الجهود التنموية غير منظمة ويفتقد المجتمع إلى الاتجاه الواضح لتحقيق أهدافه³. فيمكن للجزائز عن طريق تلك الخطط أن تحقق تنمية متوازنة ومستدامة في مختلف المجالات، فمثلاً: "رؤية الجزائز 2030" وضعت

¹ ربحي مصطفى عليان: "إدارة الوقت، النظرية والتطبيق"، ط 1، دار جرير، عمان، الأردن، 2005 م، ص 17
² سلمان زيدان: "استراتيجيات إدارة الوقت والتغير"، ط 1، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2011 م، ص 41-42

³ للتفصيل انظر: عطا الله خالد: دور التخطيط في رسم السياسة العامة للتنمية الاقتصادية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسنطينة، 2013-2014 م، ص 48-51

لتوجيه الجهود الوطنية نحو تحقيق أهداف محددة بحلول عام 2030م، هي استراتيجية طويلة الأمد تهدف إلى تحقيق التنمية المستدامة والتقدم الشامل في مختلف المجالات، كالتنمية الاقتصادية بالتنوع الاقتصادي، وكذا التنمية الاجتماعية عن طريق تحسين جودة التعليم والرعاية الصحية وغيرها، وكذلك التنمية البيئية والثقافية... الخ، فيمكن للجزائر أن تحقق أهدافها وتصبح نموذجا في التنمية المستدامة إذا تحققت هذه الرؤية على أرض الواقع، وتحقيقها يتطلب تضافر الجهود من قبل الحكومة والمجتمع المدني.

رابعا: تفعيل الفكرة الدينية:

تعتبر الفكرة الدينية محفزا قويا للتنمية الحضارية إذا تم تفعيلها بشكل صحيح في المجتمع، وقد حدد مالك بن نبي ضرورة الفكرة الدينية في تكوين الحضارة، فيرى أن الروح الأخلاقية تتكون لدى الجماعة انطلاقا من الدين السامي¹. وفي الواقع الجزائري المعاصر يمكن لتفعيل الفكرة الدينية أن يسهم بشكل كبير في تحقيق نهضة حضارية متكاملة، فهي توفر الإطار الأخلاقي الذي يوجه سلوك الفرد والمجتمع، مما يساهم في تحقيق أهداف التنمية بطرق أخلاقية مستدامة.

1- التربية الأخلاقية: التربية الأخلاقية هي عملية تعليم الأفراد القيم والمبادئ الأخلاقية مثل: الصدق، الأمانة، المسؤولية، العدالة... الخ، التي توجه سلوكهم وتفاعلهم مع الآخرين، فهي تلعب دورا حاسما في التنمية الحضارية في الواقع الجزائري المعاصر التي تسعى لتحقيق نهضة حضارية مستدامة. وتمثل الأخلاق والقيم السلوكية محورا أساسيا في مشروع بن نبي الثقافي، إذ تناول فكرة الأخلاق في إطار ما يسميه "الفكرة الدينية"، فهو ينظر إليها من زاوية اجتماعية عملية بدلا من زاوية فلسفية نظرية، كما يعتقد بن نبي أن العناصر المادية وغير المادية لا يمكن أن تساهم في بناء ثقافة حقيقية بدون وجود المبدأ الأخلاقي، ويعتبر هذا المبدأ ضرورة

¹ انظر: مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 90

اجتماعية منطقية وشرطاً أساسياً لتحقيق أي ثقافة مستدامة¹، فالأخلاق هي محور النمو الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، فهذه المقاييس والقواعد التي تنظم المجتمع بشكل يسمح له بصناعة تاريخه²، ويمكن للجزائر أن تستغل القيم الأخلاقية بشكل كبير في التنمية وذلك عن طريق:

- تعزيز القيم الأخلاقية في النظام التعليمي عن طريق إدخال برامج تعليمية في المناهج الدراسية تركز على القيم الأخلاقية، وذلك بإدراج مواد دراسية تُعنى بالقيم الأخلاقية في مختلف مراحل التعليم لتعزيز الوعي الأخلاقي لدى الطلاب، كتدريس التاريخ الإسلامي وإسهاماته في تطوير الحضارة لتعزيز الفخر بالهوية الثقافية والدينية. فالقيم والأخلاق هي التي توجه سلوك الأفراد نحو العمل البناء والإيجابي، والتربية الأخلاقية تعمل على غرس قيم التعاون والصدق والأمانة والإخلاص في نفوس الأفراد، مما يسهم في تحقيق التماسك الاجتماعي³.

- تدريب المعلمين على تعزيز القيم الأخلاقية عن طريق تنظيم ورش عمل ودورات تدريبية حول كيفية تعليم القيم الأخلاقية وتطبيقها في الحياة اليومية، هذه الورشات تهدف إلى تعزيز مهارات المعلمين في توجيه الطلاب نحو السلوك الأخلاقي الإيجابي.

- نشر الوعي الأخلاقي عبر وسائل الإعلام وذلك من خلال برامج توعوية تركز على القيم الأخلاقية، مثل البرامج التي تركز على قصص النجاح وغيرها.

- سن قوانين تعزز السلوك الأخلاقي وذلك بوضع قوانين تعاقب على الفساد والتحايل وتعزز الشفافية والنزاهة في المعاملات.

- وضع سياسات تشجع الأفراد على المشاركة في الأنشطة الخيرية والتطوعية

¹ فوزية برون: مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ص 222

² العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، ص 340

³ انظر: العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة محمد

خضير، بسكرة، 2013/2014م، ص 21

كتقديم حوافز متعددة للأفراد والشركات التي تساهم في العمل الخيري والتطوعي .
فيمكن للجزائر أن تستغل القيم الأخلاقية في بناء حضارتها، وتحقيق ذلك يتطلب
تعاوننا بين الحكومة والمجتمع المدني والمؤسسات التعليمية والقطاع الخاص وغيرها.

2- الإصلاح الديني: هو عملية مراجعة وتجديد الفهم والتطبيقات الدينية بما
تتماشى مع متطلبات العصر، مع الحفاظ -طبعاً- على القيم والمبادئ الأساسية
للدين، أو كما ذكر مالك بن نبي، هو " دفع النفس الانسانية إلى حظيرة الإيمان من
جديد"¹، فهو يلعب دور كبير في تحفيز التنمية الاقتصادية والاجتماعية
والثقافية... الخ، ويعتبر عنصر محوري في تحقيق التنمية الحضارية. فالدواء الذي
يشفي الشعوب الجزائرية وينشط عزيמתهم ويمهد لهم طرق وسبل التقدم والتنمية
هو "الدين الإسلامي"²، فلكي تتمتع الجزائر بإصلاح ديني شامل وجب أن يشمل
هذا الإصلاح العديد من الاستراتيجيات نذكر منها:

أ- إصلاح الشباب: فصلاح الشباب من صلاح المجتمعات، فالشيخ عبد الحميد
ابن باديس شيخ المصلحين كان يعول على الشباب الجزائري في بعث الثقافة العربية
وشخصيته الجزائرية العربية الإسلامية³، فصلاح المجتمع الجزائري يبدأ بالفرد
والشباب المسلم وذلك بتكوينه عقائدياً وأخلاقياً وبناء شخصيته بناء متزناً كل ذلك
يؤهله لتبوأ المكانة اللائقة في نسيج البناء الاجتماعي⁴.

ب- تجديد الخطاب الديني: يعدّ ضرورة ملحة في الواقع الجزائري المعاصر
وذلك من أجل مواجهة التحديات في جميع المجالات، وهذا التجديد يهدف إلى
تقديم فهم عصري ومتجدد للإسلام يتناسب مع متطلبات العصر الحالي فلا حرج

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 58

² انظر: المصدر نفسه، ص 90

³ بوسعيد سومية: الفكر الاجتماعي الإصلاحية عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجلة المعيار، جامعة جيلالي

البايس سيدس بلعباس، المجلد 23، العدد، 45، ص 670

⁴ المرجع نفسه، ص 671

شرعا في التجديد من الإتيان بأساليب جديدة، أو طرائق مستحدثة لم تكن معروفة من قبل، إما لعدم وجودها أصلا، وإما لعدم معرفتها والاهتداء إليها إذا كانت محققة للمطلوب ولا قيد عليها إلا قيد المحافظة على الشريعة وعدم مخالفتها¹، ومن ذلك تبني الخطاب الوسطي المعتدل البعيد عن التطرف، وكذلك التفاعل مع القضايا المعاصرة بتقديم اجتهادات وحلول دينية تتفاعل معها، مع محاولة توفير برامج تدريبية وتأهيلية للعلماء والدعاة من أجل تعزيز معرفتهم بالقضايا المعاصرة وكذا تواصلهم مع الجمهور.

إذن من خلال ما ذكرنا سابقا يمكن أن نقول أن تفعيل عناصر الحضارة وفقا لفكر مالك بن نبي يمكن أن يسهم بشكل كبير في تحقيق تنمية وتغير حضاري في الجزائر، إذ يمكن للجزائر أن تبني حضارة مزدهرة تواكب تطورات العصر وتحقق التقدم لجميع الأفراد في المجتمع، كما أن الالتزام بهذه الرؤية يتطلب جهودا وتعاوناً بين جميع الأطراف في المجتمع الجزائري من أجل مستقبل أفضل للأجيال القادمة.

خاتمة

بعد استعراض وتحليل جهود مالك بن نبي وأفكاره حول معادلة الحضارة، وكذا تفعيلها في الواقع الجزائري المعاصر، يمكن تلخيص النتائج الرئيسية التي توصلت إليها الدراسة على النحو التالي:

- يعتبر مالك بن نبي من أبرز المفكرين في العالم الإسلامي الذي قدم معادلة حضارية شاملة تهدف إلى تحقيق التنمية الاجتماعية والتغيير الحضاري.
- تتكون معادلة الحضارة عند مالك بن نبي من عناصر أساسية تشمل: الإنسان، التراب، الزمن، بالإضافة إلى الفكرة الدينية.
- يرى مالك بن نبي أن تفعيل العناصر السابقة بشكل متكامل يؤدي إلى تحقيق

¹ انظر: محمد بن شاعر الشريف: تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، ط 1، مكتبة الملك فهد، الرياض،

نهضة حضارية مستدامة.

- أن الجزائر تواجه العديد من التحديات المتعددة والمعقدة كما أشار إليها مالك بن نبي في كتبه.

- التأكيد على فاعلية معادلة الحضارة لمالك بن نبي في التغلب على التحديات التي تواجه الواقع الجزائري المعاصر وتحقيق التنمية الحضارية.

- من خلال تفعيل عناصر معادلة الحضارة يمكن للجزائر أن تبني حضارة مزدهرة تواكب تطورات العصر وتحقق التقدم والرفاهية في جميع المستويات، وهذا يتطلب جهودا متواصلة وتعاوناً بين جميع الأطراف.

وأخيراً ما نحن إلا بشر قد نخطئ وقد نصيب، فإن أصبنا فتوفيق من عند الله عز وجل، وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشیطان، ولا نملك إلا أن نقول أننا عرضنا رأينا وأدلينا بفكرتنا في هذا الموضوع، عسى أن نكون قد وفقنا.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- جمال الدين محمد بن منظور الإفريقي: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ.
- ربحي مصطفى عليان: "إدارة الوقت، النظرية والتطبيق"، ط1، دار جرير، عمان، الأردن، 2005م.

- عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1981م

- عبد الله بن حمد العويسي: مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية، بيروت، 2012م
- عمر بن قينة: المشكلة الثقافية في الجزائر التفاعلات والتناجج، ط1، دار أسامة، الأردن، 2000م.

- فوزية بريون: مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، ط1، دار الفكر، دمشق، 2010م

- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 2000م.

- مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، تحقيق وإشراف ندوة مالك بن نبي، دط، دار الفكر،

دمشق سورية، 2000م.

- مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 2002م

- مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دط، دار الفكر، دمشق، سورية، 2006م

- مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن، ط1، دار الفكر، دمشق، 1984م

- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط1، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 2002م.

- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر دمشق سورية، 1986م

- محمد بن شاكر الشريف: تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، ط1، مكتبة الملك فهد، الرياض، 2004م.

- محمد شاويش: مالك بن نبي والوضع الراهن، ط1، دار الفكر، دمشق، 2007م.

المقالات والأطروحات:

- بوسعيد سومية: الفكر الاجتماعي الإصلاحي عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجلة المعيار، جامعة جيلالي اليابس سيدس بلعباس، المجلد 23، العدد، 45.

- العابد ميهوب: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013/2014م.

- الطاوس غريب وحنان دريد: الزراعة الإلكترونية كتوجه استراتيجي للقطاع الزراعي في ظل التحول الرقمي، مجلة أبعاد الاقتصادية، جامعة العربي التبسي، المجلد 11، العدد 1.

- خير هواري وعزازن حفيظة: واقع التنويع الاقتصادي في الجزائر خارج قطاع المحروقات في ضوء تجرّبي كوريا الجنوبية وماليزيا، مجلة البحوث الإدارية والاقتصادية، المركز الجامعي تسمسيلت.

- عطا الله خالد: دور التخطيط في رسم السياسة العامة للتنمية الاقتصادية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسنطينة، 2013-2014م.

- مولاي هند وتيغزة زهرة: دور الطاقات المتجددة في ترقية الزراعة الذكية لتحقيق الأمن الغذائي، المجلة الجزائرية للحقوق والعلوم السياسية، جامعة الجزائر، المجلد 8، العدد 2.

من عوائق تحقيق التنمية في فكر مالك بن نبي - العوائق الاجتماعية والثقافية -

أ.د. حمودة بن مصباح

مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان (تونس)

hammoudabenmosbeh@gmail.com

مقدمة

انطلاقاً من اقتناعنا بأن كل مشكلة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية تتطلب حلاً واحداً، وبقيننا الثابت بأن الحلول تصوغها الجماعات أثناء تفكيرها في المشاكل التي تواجهها ولا تستمدّها من الغير (الأنا في الماضي أو الآخر الأوروبي)، ارتأينا البحث في مسألة هامة أرقت ولا تزال العقل العربي، وفحواها أن العرب والمسلمين عموماً بل الإنسانية قاطبة بمفكرها وعلمائها و مثقفها لم تعد المشكلة عندهم جميعاً في تحديد المشكلات والبحث عن الحلول - وإن هي خطوات أساسية لا بد منها - وفق المنهج الجدلي بل عمق المشكلة التي يعيشها مجتمعنا هي القدرة على ضبط العوائق التي تحول دون تنفيذ الحل بالعمل، وهي عملية تحوّل هامة من النظري إلى العملي في أرض الواقع وهو المطلوب.

فلا يخفى على أحد أن مجتمعنا يشهد مشكلات تنموية وثقافية على مر الزمن، وقد سعى مالك بن نبي في مجمل مؤلفاته إلى تشريح الواقع وتفكيك المشكلات بما ينير الطريق أمام شبابنا لمعرفة الواقع الذي يعيشون فيه، فينطلقون في الفعل الإيجابي المحقق للتنمية المادية والثقافية، وتبقى الميزة الأساسية في فكر مالك بن نبي هي التحديد المعرفي للعوائق والمعطلات التي حالت وتحول دون تحقيق التنمية في أبعادها المختلفة وهي خطوات عملية تتجاوز تنظيرات المنظرين لتؤسس لحلول واقعية نراها ووجهة ودافعة بمجتمعنا إلى تخطي كل الموانع والعوائق وهذا مشروط

بامتلاك قدر عال من الجرأة والشجاعة والموضوعية والواقعية ودون ذلك ينطبق عليهم قول الكواكبي "عسى أن يعرف الشرقيون أنهم المتسببون لما هم فيه فلا لا يعتبرون على الأغيار ولا على الأقدار".

(1) مالك بن نبي: سيرة ومسيرة

التعريف به: هو مالك بن عمر بن حضير بن مصطفى بن نبي واشتهر باسم مالك بن نبي، وكان يلقب بالصادق، ولد في مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري في الخامس من ذي القعدة 1323هـ الموافق لـ 11 جانفي 1905م.¹ نشأ في أسرة ميسورة ماديا حيث اشتغل والده موظفا لدى الحكومة الاستعمارية بمدينة تبسة الجزائرية.

تعلّم في الكتاب أو الكتاتيب مبادئ الدين وحفظ القرآن ومبادئ الحساب واللغة العربية ثم انتظم في المدرسة الفرنسية.²

واصل تعلمه في المرحلة التكميلية في قسنطينة بمدرسة سيدي الجلي عام 1921م. يمتلك مالك بن نبي ثقافة واسعة حيث كان شغوبا بالمطالعة وحب القراءة، فتنوعت قراءاته بين الأدب والسياسة مما شكلت جانبا هاما من خلفيته الفكرية والمعرفية، وقد تأثر بمؤلفات العديد من المفكرين منها: "رسالة التوحيد" لمحمد عبده³، و"الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق" لأحمد رضا⁴ و"كتاب في ظلال الإسلام الدافئة" لـ"إيزابيل أبرهات"⁵ وهو الكتاب الذي قرأه مالك بن نبي

(1) ابن نبي مالك: مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، بيروت، ص 13.

(2) ابن نبي مالك: ن، ص 25/24.

(3) محمد عبده: 1266م/1905م، عالم ديني وفقه ومجدد إسلامي مصري، وهو من رواد حركة الإصلاح والتجديد مع الأفغاني ومحمد رشيد رضا.

(4) رضا أحمد بن إبراهيم بن حسين بن يوسف، من علماء اللغة والأدب.

(5) إيزابيل أبرهات: 1877م/1904م، مستكشفة وكاتبة سويسرية، من أكثر نساء جيلها تحررا، حاربت المبادئ الأخلاقية الأوروبية واعتنقت الدين الإسلامي.

أكثر من مرة، وكتاب "أم القرى" لعبد الرحمن الكواكبي⁶ و"المقدمة" لابن خلدون⁷ و"كيف تفكر" لجون ديوي.⁸

تولى مالك بن نبي وظائف عدة منها أنه عين كاتباً في المحكمة بأفلو، وخلاها تعرّف على أهالي الريف الجزائري الذين ساهم "رجال الفطرة والجود والكرم"، فأصبح ينقل إليهم الأفكار الإصلاحية، ثم انتقل إلى فرنسا لمواصلة دراسته 1930م بمعهد الدراسات الشرقية، كما انخرط في جمعية الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين، وهو المسلم الوحيد فيها، وقد مر بحالة من المضايقات من قبل الفرنسيين بحكم آرائه الإصلاحية إلى أن انتقل إلى مصر أين التقى بالزعيم جمال عبد الناصر الذي خصص له مرتباً شهرياً ساعده على التفرغ للعمل الفكري إلى أن عاد إلى الجزائر بعد سنة من الاستقلال ليشغل منصب مدير التعليم العالي 1967م إلى حين وفاته في 31 أكتوبر 1973م.

(2) انتاجه الفكري:

لمالك بن نبي انتاج فكري غزير وقد تجاوز 24 مؤلفاً و10 مؤلفات مخطوطة، لعل من أهمها: كتاب "شروط النهضة"، الذي ألفه عام 1948م، ونشر بدار الفكر 1960م وقام بترجمته المترجم كامل مسقاوي، وكذلك كتابه "حديث في البناء الجديد" وقد نشر ببيروت 1960م وهو يحتوي على خمس محاضرات مترجمة من الفرنسية إلى العربية، ومؤلفه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" والذي صدر بدار الدعوة في القاهرة 1970م، وترجمه محمد عبد العظيم علي.

(6) الكواكبي عبد الرحمن بن أحمد: 1855م/1902م، أحد رواد النهضة العربية ومفكرها في القرن التاسع عشر وأحد مؤسسي الفكر القومي العربي، اشتهر بكتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد".

(7) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد: ولد في تونس وشب فيها وتخرج من جامعة الزيتونة، من أشهر مؤلفاته "كتاب العبر" و"المقدمة".

(8) مرب وفيلسوف وعالم نفس أمريكي وزعيم الفلسفة البراغماتية، 1859م/1952م.

3) مشروع مالك بن نبي النهضوي:

تتنزل رؤية مالك بن نبي لمسألة التجديد الحضاري وتحقيق شروط النهضة في أبعادها المتعددة الفكرية والمادية/الثقافية والاجتماعية في واقع يشهد تجاذبات أيديولوجية تصل إلى حد التناقض، حيث لاحظ وعاش واقعا احتلاليا للجزائر وفي نفس الوقت وجد نفسه بين دعوات ثلاثة وهي:

* أفكار رجال الإصلاح الأوائل المتسمة بحالة من الانغلاق والانكماش ورفض الآخر وثقافته بما تحمله من إيجابيات وسلبيات وفق مقولة: "كل ما أتى من الغرب فهو مرفوض".

* المتأوربون فكريا وهم الذين ينادون باعتماد النموذج الغربي لتحقيق التنمية في مستوياتها المتعددة، وفي المقابل يقطعون مع الماضي ويعتبرونه قد ولى وانتهى وطواه النسيان وما الرجوع إليه إلا ضربا من الرومانسية.

* جيل التجديد الذي بدا أكثر انفتاحا ومعايشة للواقع من خلال الدعوات المتكررة إلى ضرورة الاستفادة من الأنا والآخر وفق قراءة عقلانية نقدية تفصل بين ما هو إيجابي وما هو سلبي.

لقد تميز مالك بن نبي في ظل هذا الواقع الذي تنخره التجاذبات المؤدجلة، بقدرته على تحديد العناصر الرئيسية المحققة للتنمية الفكرية والمادية/الثقافية والاجتماعية وهي عنده ثلاثة: الإنسان /التراب / الوقت، وأكد على أن أي خلل بين عناصرها الثلاثة هو هدر للوقت يخلف تراجعا لا تقدما والمميز في فكر مالك ابن نبي هو أنه لم يقف عند تفكيك وتحليل مظاهر التخلف الثقافي والاجتماعي كما فعل غيره من الباحثين بل تجاوز ذلك ليستشرف العوائق والمعطّلات التي حالت وتحول دون تحقيق وتنفيذ الحلول الممكنة للمشكلات المطروحة.

وانطلاقا من إيماننا الراسخ بأن لكل مشكلة حلا واحدا، وأن الحلول تصوغها الجماعات أثناء تفكيرها في المشاكل التي تواجهها ولا تستمدّها من الغير (الأنا

والآخر)؛ فإننا سنحاول في هذه الورقة العلمية الوقوف عند العوائق أو المعوقات التي حالت وتحول دون تحقيق التنمية في أبعادها المختلفة المادية والفكرية /الثقافية والاجتماعية، والبحث عن الحلول الممكنة لتجاوز هذه المعضلة من خلال مشروع مالك بن نبي، ذلك أن العقبات الرئيسية التي تعترض سبيل تحقيق النهضة والتقدم لا يمكن تجاوزها بمجرد معرفة المشكلات والبحث عن الحلول أو حتى معرفة الحلول بقدر ماهي كامنة في نظرنا في جملة المعطّلات والكوابح التي تحول دون تنفيذ الحلول عمليا في أرض الواقع وهي لا تخرج عن كونها معطلات داخلية وخارجية فكرية وسياسية.

ولنبداً بتحديد المصطلحات وضبط المفاهيم؛ لأن تحديد المصطلح جزء من تصور المسألة ورسم مفهومها، وهو ما نحتاجه اليوم في دراستنا ومؤلفاتنا.

4) في المصطلحات والمفاهيم:

* التنمية: مصطلح التنمية فرض نفسه اليوم كبديل عن مصطلح التطور، رغم أن المصطلحين يترجمان في الأصل كلمة واحدة، وهو أكثر مطابقة للواقع وأكثر قدرة على تلبية الضرورة النظرية من حيث أنه كان يكرس تدخلا إراديا في التاريخ، فتطور المجتمع العربي لن يأتي عفو الخاطر وبصورة تلقائية بل إن التنمية هي على العكس المرحلة الأولية القصدية والإرادية التي لا مناص من المرور بها عن سبق تصميم وتخطيط لإطلاق آلية التطور التلقائي في المجتمع، ولوضعه على سكة التقدم الذاتي¹.

* العوائق: تكاد تجمع معاجم اللغة على تفكيك وتفسير العائق /جمعه عوائق، فقد ورد في معجم المعاني الجامع وهو معجم عربي أن عائق اسم، وعائق فاعل من عاق، والجمع عوائق والمؤنث عائقة، وهو اسم فاعل من عاق؛ أي: مانع وشاغل،

⁽¹⁾ كلمة هيئة تحرير مجلة الوحدة: السنة الرابعة، العدد 45، يونيو 1988م، ص 3.

كما يقال: عائق طبيعي؛ أي: جبلي، والعائق: ما يعوق انتشار البذور أو الثمار أو النبات من عوامل طبيعية حيوية، أو كما جاء في المعجم أعاقه عن انجاز عمله: منعه منه، أو شغله عنه، أخره وثبّطه.

وبالتالي فالعوائق هي الموانع والمكبات التي تحول دون تحقيق المطلوب أو المأمول تحقيقه مع توفر الإرادة، وهي ضرب من الكبت وسجن الحلول في اللاشعور وفق التحليل النفسي.

* النهضة: النهضة في مفهومها الخاص هي حركة إحياء التراث القديم، أما في معناها الشامل فهي عبارة عن ذلك التطور القديم في كلّ من الفنون والآداب والعلوم وطرق التعبير ومناهج التفكير وما صاحب ذلك من تغير في أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية.

والنهضة العربية هي المعلومة لدينا باليقظة العربية أو حركة التنوير العربية التي أرسى دعائمها مفكرو المعتزلة وابن رشد، أو هي الحالة الفكرية والاجتماعية التي سادت في مصر ولبنان وامتدّت لتشمل بلدانا عربية، كما يفيد مصطلح النهضة العربية الجهود الفكرية والسياسية التي تستهدف نقل العالم العربي من حالة الجمود والتخلف التي تتسم بها أوضاعه إلى حالة بديلة قوامها العقل والاجتهاد وتحقيق الرفاه المادي والفكري.

5) من عوائق تحقيق النهضة الفكرية والاجتماعية في فكر مالك بن نبي:

أ) العوائق الذاتية (الداخلية) يمكن حصرها في:

* عدم الأخذ بالأسباب؛ بما يعني: الهوة الفاصلة بين الحدث / المشكلة والسبب وهو ما عبر عنه بارتباط الأسباب بالمسببات أو تزامن الحلول للمشكلات وخلاف ذلك يوقع المجتمع في خطري الاجترار والتبعية، ويتجلى هذا العائق في عدم القدرة على تشخيص الأهداف والغايات / عدم القدرة على تحديد المشكلات / عدم القدرة على تحديد الوسائل حيث يقول: "توهم أنه سائر في طريق الحضارة ولكن عن

طريق ما يستورده من فكر وبضاعة أنتجتها الحضارة الغربية بمواصفاتها ومجتمعها انطلاقاً من حياته وأهدافه وغاياته"¹. إضافة إلى سوء التخطيط وسطحية المعالجة بها يعني الوقوف عند الأعراض الخارجية دون تشريح الداء والمرض الأصلي، وعندئذ لا ينفع الدواء وإن استهلك، بل قد يخلف مضاعفات خطيرة.

* الجهل بمقومات التاريخ والمرجعية الدينية: وقد عبر عنها مالك بن نبي بحالة الهروب من تحمل المسؤولية وعدم معاناة الواقع والانخراط فيه، وفي المقابل تحميل المسؤولية للآخر بنوعيه، الماضي ويعني ماضي المسلمين المتخلف أو القضاء والقدر، وبالتالي القبول بالأمر الواقع، والآخر الغربي بما يمارسه على الشعوب المستعمرة والمتخلفة من التجهيل والفقر... ولعل الأخطر في كل ذلك حالة الشعور بالنقص تجاه الآخر والانبهار بتفوقه العلمي والتكنولوجي؛ مما يؤدي إلى التسليم بالموجود دونها إضافة أو تطلع للمستقبل.

ب) العوائق الخارجية: لا يختلف عاقلان / عالمان في تبين العوائق الخارجية التي تحول دون تحقيق الشعوب الضعيفة لنهضتها الفكرية والمادية ونعني بها تحديداً التدخل الخارجي في مصير ومستقبل سائر الدول المستعمرة - وإن تحررت من الاستعمار - فآثاره باقية في مناهج التدريس والمضامين والتوجهات الاقتصادية وأحياناً حتى السياسية، وهذا مطمح غربي استعماري يحوّل الدول التابعة إلى سوق لترويج منتوجاتها، وفضاء لاختبار براجمها، ولعل ما هو سائد في أكثر بلدان إفريقيا من هيمنة فرنسية معلومة شاهد على ذلك رغم بروز العديد من الدعوات للتخلص من هيمنة المستعمر، وقد بدت ملامحها واضحة اليوم في أكثر من دولة.

وتبقى محاولات التحرر من ربة الاستعمار رهينة الوعي الفكري والسياسي بمخاطر الهيمنة ومخلفاتها السلبية. وفي المقابل امتلاك قدر عال من الجرأة

⁽¹⁾ ابن نبي، مالك: تأملات، دار الفكر، بيروت، ص 192

والشجاعة على رسم مستقبل أفضل قوامه تخطيط محكم، ورؤية ثابتة تسهم فيها كل فئات المجتمع.

البعد الثقافي للتنمية/ التنمية الثقافية: التنمية ليست منحصرة فيما هو مادي اقتصادي، بل لها مجالات متعددة منها: التنمية الثقافية والتربوية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها، وهي مجتمعة تشكّل مفهوم التنمية العام.

فالثقافة كما عرفها مالك بن نبي: "هي المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية..."¹. وفي رده على تعريفات الماديين للثقافة وحصرتها في المنتجات المادية والمقاييس المعنوية الناجمة عن الواقع المادي وفعالياته وممارساته²، قدّم لها مفهوما خاصا بقوله: "إن الثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة"³، ويضيف بأنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين، وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الذي نجده في حياة مجتمع آخر"⁴.

والم تأمل فيما قدمه مالك بن نبي من تعريفات للثقافة يتبين أنه لا يعتبر الثقافة مجرد سلوك شامل للإنسان بل هي عنده أشمل من المعرفة في حدّ ذاتها بحكم إمامه بأن الثقافة مشروع حضاري قابل للتطبيق والتنفيذ إذا ما أحكمنا التصرف فيه على مستوى المضمون من خلال التعليم والأخلاق وأنماط السلوك البشري للفرد والجماعة⁵.

كما أجاب مالك بن نبي عن سؤال هام: كيف يمكن أن تكون الثقافة منهجا للتجديد الحضاري؟ من خلال تأكيده على الجدلية القائمة بين الثقافة والتربية، فالثقافة عنده يمكن أن تكتسب في بعض جوانبها ومنها تحديدا الجانب التربوي

¹ ابن نبي مالك: شروط النهضة.

² عزي، حامد: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، ص 105.

³ ابن نبي مالك: شروط النهضة، ص 82.

⁴ ابن نبي مالك: تأملات، ص 143.

⁵ حميدي مروي: التجديد الحضاري بين مالك بن نبي ومحمد الفاضل بن عاشور، رسالة دكتوراه،

2020/2021م، ص 116.

فتصبح من هذا المنظور مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كـرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، ولتكون هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته¹.

أما عن الثقافة والعلم فالمسافة الفاصلة عنده واضحة خصوصا في فاعلية كل منهما؛ فتتاج العلم لا يختلف حوله الناس في حين يختلفون في التتاج الثقافي، وبالتالي فهما يختلفان في السلوك الثقافي، رغم الاتفاق في الجانب المعرفي العلمي؛ "لأن هذه الحالة تتميز المجتمع الذي ينتمي إليه كل منهما، فالتماثل السلوكي في الحالة الأولى والاختلاف السلوكي في الحالة الثانية ناتجان عن الثقافة لا عن العلم"².

الثقافة في فكر مالك بن نبي دستور تتطلبه الحياة العامة، وعلى الأخص إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتقدم، فهي صمام أمان المجتمع وسلامته من كل زيغ أو انحراف لا تحمد عواقبه، وهي أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفرادهم من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية³.

وتبدو رؤية مالك بن نبي للثقافة الهادفة والمنتجة أكثر عمقا من كونها ثقافة عامة تنتج من خلال السلوك اليومي لأفراد المجتمع دون ضابط أو رقيب، فللثقافة عنده شروط وبرنامج عمل تبنى عليه لتحقيق أهدافها وغاياتها ومن بين الشروط التي يضعها مالك بن نبي هي إخضاع الثقافة لبرنامج الأخلاق والجمال والنشاط والتنمية من خلال الصلات بين الأفراد وتوطيد التعامل بينهم وهي عنده أربعة:

- الأخلاق لتدعيم الصلات الاجتماعية.

- الجمال لتكوين الذوق العام.

- المنطق العلمي لتحديد شكل النشاط العام.

¹ (ابن نبي مالك: شروط النهضة، ص 83.

² (ابن نبي مالك: شروط النهضة، ص 66.

³ (ابن نبي مالك: شروط النهضة، ص 103.

-الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع.
وكل هذه المكونات هي التي يمكن أن نعتمدها في عملية تغيير مجتمعنا وتحقيق
التجديد الحضاري الذي نتطلع لتحقيقه.

6) من عوائق البعد الاجتماعي للتنمية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾¹
تضع هذه الآية المسلمين أمام سؤال مركزي لا يمكن تجاهله وهو: هل وعى
المسلمون حقا مضمون هذا النص القرآني؟ فإن كان الجواب بنعم؛ فهذا يعني أننا
كشعوب في أمان ورغم اختلافاتنا المذهبية والهوية فإننا في أوج عطائنا وقوتنا، وقد
بلغنا من القوة ما لا يضاهينا فيها أحد بحكم إمكاناتنا الاقتصادية والعقول المنتجة
لهذه الإمكانيات؛ وإن كان الجواب بالنفي (لا) فهذا يعني حصريا أن خللا ما في بنية
العقل المسلم لا بد من الكشف عنه، أو أن هذا النص الرباني الموجّه لم يجد حضوره
في قلوب المسلمين بما يدل على ضمور العقيدة في النفوس.

إنّ المتابع لواقع مجتمعنا اليوم يلاحظ بما لا يدع مجالا للشك حالة الوهن
والضعف والانحلال التي يشهدها المسلمون عامة في مجتمعاتهم رغم وفرة
الإمكانيات، فحالة التمزّق والتجزئة والخلافات والصراعات التي تصل إلى حد
الحروب تطرح أكثر من سؤال.

ولقد تفتّن مالك بن نبي إلى هذا العائق الاجتماعي لتحقيق التنمية فطرح
سؤالين رئيسيين؛ أولهما: ما مدى مطابقة التاريخ للمبدأ القرآني؟ بما يعني عملية
تكييف القرآن في تلاؤم أحكامه وحسن تدبره من المسلمين، وثانيهما: ما مدى
تطبيق المسلمين لمضامين القرآن في المرحلة الراهنة².

لكل ذلك يؤكد مالك بن نبي على أن مصطلح التغيير الوارد في النص القرآني هو

(¹) الرعد/12.

(²) ابن نبي مالك: شروط النهضة، ص62.

جوهر ولبّ التجديد الحضاري وشرطه اللازم في كل عملية إصلاح أو إحياء، رغم أن التغيير عملية ذاتية فإنها تنطلق من الفرد لتشمل الجماعة فالمجتمع بأسره وهو ما يجعل عملية التغيير مبدأ في كل حركة تاريخية ويزداد حضورها تأكدا في رأيه في دنيا العالم الإسلامي الذي يعاني من الركود والوهن والجمود والتخلف، وهو ما يقتضي عملية تغيير حقيقية تحرك كيانه لينطلق نحو البناء، وبالتالي فإن غياب كل هذه المحددات ستؤثر سلبا على حركة تطور المجتمع بل ستعيق كل محاولات تحقيق التنمية.

إن حماية مجتمعنا من مخاطر الغزو الثقافي والمادي الذي تمارسه الدول الاستعمارية عبر محاولاتها المتكررة لتأبيد حالة التجزئة والتفرق وفرض برامج تربوية وثقافية وتنموية عموما هو رهين التزامنا وتفعيلنا للضوابط والشروط التي رسمها مالك بن نبي ومن عاصره من المفكرين المخلصين لأمتهم والساعين لتحريرها من كل أشكال الهيمنة الاستعمارية، فلا نهضة ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية لأي أمة إلا إذا أجادت قراءة تاريخها واعتمدت على ذاتها كما قال عبدالرحمن الكواكبي "عسى أن يعرف الشرقيون (الشرق المسلم) أنهم المستسيون لما هم فيه فلا يعتبرون على الأغيار ولا على الأقدار وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات..."¹.

وبناء على ما تقدم فإن الواقع الذي نعيشه وبما فيه من الهنات والعوائق المؤثرة والتي حالت وتحول دون إمكانيات التجديد الحضاري الذي أكد عليه مالك بن نبي، يفرض علينا اليوم أكثر من أي وقت مضى ضرورة امتلاك قدر عال من الشجاعة وتحمل المسؤوليات من أجل الوعي الحقيقي لا بالمشكلات وحلها فقط بل تحديدا بالموانع الكابحة والمعطلة لتنفيذ الحلول عمليا في أرض الواقع، فما من مشكلة ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية إلا ولها حلّ بل لا تتطلب إلا حلا واحدا

(¹) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، ط2، بيروت، 1986، ص25.

فكما حل مشكلة الاستعمار هو التحرر، وكما حل مشكلة المرض هو تناول الدواء، فإن حل مشكلة التخلف هو تحقيق التنمية، وحل مشكلة التجزئة هو الوحدة لأنه وكما قال الشاعر: "العود محمي بحزمته ضعيف حين ينفرد"، فهل وعى العرب والمسلمون عموماً بما هم فيه؟

المصادر والمراجع

- (1) القرآن الكريم
- (2) ابن نبي، مالك: مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1984م
- (3) ابن نبي، مالك: تأملات، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1986م.
- (4) ابن نبي، مالك: ميلاد مجتمعات، دار الفكر، الجزائر، 1986م.
- (5) ابن نبي، مالك: شروط النهضة، ت/عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1996م.
- (6) الجليلاني، بوبكر: البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة 2010م.
- (7) حميدي، مروي: التجديد الحضاري بين مالك بن نبي ومحمد الفاضل بن عاشور، رسالة دكتورا 2020/2021م.
- (8) عزي، حام: الفكر التربوي عند مالك بن نبي، أطروحة دكتورا، المعهد الأعلى لأصول الدين 1995/1996م.
- (9) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، المطبعة الأميرية، 1301هـ
- (10) الكواكبي، عبد الرحمن: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار النفائس، ط2، بيروت، 1986م.
- (11) مجلة الوحدة: السنة الرابعة، العدد 45، جوان 1988م.
- (12) ابن منظور، جمال الدين: لسان العرب، دار الفكر، بيروت.

التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي بين العوائق والمرتكزات

أ.د. بشير قادره

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

bachirgadra@gmail.com

مقدمة

إن المجتمع في حقيقته ما هو إلا ظاهرة اجتماعية، تعبر عن أي تفاعل بين شخصين فأكثر في أي مجال من المجالات، كتفاعل الآباء مع أبنائهم، والمعلمين والأساتذة مع التلاميذ والطلاب، والأطباء مع المرضى، والتجار مع الزبائن... إلخ، وهكذا في كل المجالات. ومن ثم فالظاهرة الاجتماعية هي أساس وروح المجتمع، تظهر في صورة تفاعلات إيجابية كانت أو سلبية، وما تركه من علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع في مختلف مجالات الحياة.

فمتى كانت علاقات عادلة، متوازنة، ستكون متماسكة وممتدة وقوية؛ لأنها تلبي مصالح الجميع، ولا يشعر فيها أحد بالغبن، والعكس صحيح.

ومن ثم فالعلاقات الاجتماعية وما ينجم عنها من تفرّعات شبكية هي التي تحدد دينامية المجتمع، ونهضته، وتقدمه، وتحضره. أو جمود المجتمع وتخلفه وتقهقره وصراعاته....

متى تنافرت فيه العلاقات الاجتماعية، وتفككت شبكاتها، وضمّرت بعوائقها وسلبيات وأنانية أصحابها. وظلمهم لبعضهم البعض في علاقاتهم الاجتماعية.

• الإشكالية:

تعاني مجتمعات العالم الثالث. الذي تقع ضمنه مجتمعاتنا العربية الإسلامية، من

اختلالات وتدنُّ رهيب في العلاقات الاجتماعية، على جميع المستويات والأبعاد، لأسباب عديدة، انعكست سلباً على الحياة الاجتماعية. بما يسودها من اللا صدق، واللا توازن، واللا عدل، وما ينجم عن ذلك من ضغائن، وأحقاد، وتوجس، واللا ثقة... الخ، فأصبحت العلاقات الاجتماعية متنافرة متشاكسة، وشبكاتها شبه مقطوعة، وفي أحسن الحالات علاقات سطحية نفاقية لا تطاق.

وعلى ضوء أهمية الموضوع وإشكاليته المطروحة، تأتي دراستنا الموسومة بـ **التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي بين العوائق والمرتكزات**

في إطار المحور الثاني للندوة وهو. (التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي: منظوراتها، مجالاتها، والعوامل المؤثرة فيها)، وهي تسعى من خلال تتبع وتحليل ووصف واستنطاق ما كتبه مالك بن نبي. رحمه الله. عموماً وفي المجال الاجتماعي على وجه الخصوص. وفي جميع المستويات: كيف ينظر للعلاقات الاجتماعية، والعوائق التي تقف أمامها وتسبب لها الضمور والتفكك وتمنعها من تحقيق أهدافها، لتجاوزها، واستبدالها بالمرتكزات التي يجب أن تقوم عليها، لتصل إلى الصورة المثلى المرجوة منها، وما تثمره من آثار إيجابية على الفرد والجماعة والمجتمع.

• المنهج المتبع:

وهو المنهج الوصفي، بتتبع ما كتبه مالك بن نبي عن تلك السلبيات والعوائق في مجالنا الاجتماعي، وعن مرتكزاتها التي تقوم عليها كبدايل مقترحة للنهوض والتقدم والتحضر. ضمن المحاور التالية:

المحور الأول/ محور مفاهيمي.

المحور الثاني/ التنمية الاجتماعية بين العوائق والمرتكزات في فكر مالك بن نبي.

المحور الثالث/ مجالات التنمية الاجتماعية.

المحور الرابع/ النتائج المتوصل إليها.

المحور الأول/ محاور مفاهيمي:

يتناول هذا المحور تحديد المفاهيم الواردة في عنوان الدراسة، وضبطها.

I- التنمية

1. التنمية في اللغة:

التنمية لغة مصدر لفعل نمى، ومعناه الزيادة والكثرة في المال، ونمى الحيوانُ: سَمِنَ. ونمى السعر: ارتفع وغلا، ونمى الحديث: شاع وذاع بين الناس... الخ¹.

2. التنمية في الاقتصاد:

هي الرفع من مستوى الإنتاج والدخل الوطني، وتحويل الموارد الطبيعية غير المستثمرة إلى موارد منتجة مثل استصلاح الأراضي الصحراوية أو البور، وإنشاء صناعات جديدة.² ويلاحظ في تعريف التنمية اقتصاديا أنه مستوحى من اللغوي، فالرفع في الإنتاج زيادة.

3. التنمية من المنظور الاجتماعي:

لا يوجد تعريف واحد للتنمية الاجتماعية، لكثرة الرؤى والتوجهات والاختصاصات المتناولة لها، ومنها هذا التعريف: (هي عملية متعددة الأبعاد، تتضمن تغييرات جذرية وشاملة ومتكاملة، لكل جوانب الحياة في المجتمع والدولة والهيكل، وتهتم بجميع الأفراد والجماعات والتخصصات والمهارات المختلفة، من ناحية تفاعلها مع بعضها البعض، بحيث تكون غير متنافرة، ولا متناقضة، ولا يمنع أحدها نمو الآخر أو يعرقله. ويعتبر الإنسان فاعل نشط ومشارك أساسي فيها،

¹. www.almaany.com.

². قاموس المعاني، مادة (نمى). www.almaany.com.

وليس مجرد مستفيد)¹.

أي أنّ التنمية الاجتماعية هي سلسلة عمليات إدارية مخطط لها مسبقاً، لتفعيل الطاقات البشرية، وكل ما هو إيجابي في المجتمع من قيم ومعتقدات وعادات، والاستغلال الأمثل للإمكانات المادية المتاحة، للرفق بالمجتمع في التعليم والصحة والإسكان والمواصلات والاتصالات، وسائر المجالات، للوصول بالعلاقات الاجتماعية إلى العدل والتوازن والفعالية، لتحقيق التقدم الشامل، ورفاه الأفراد والمجتمع.

وأعظم ركيزة تقوم عليها التنمية هي بناء الإنسان.

فتمنية قدرات الإنسان البدنية، والعقلية، والروحية، والاجتماعية، والمهاراتية، هي غاية الغايات في جهود التنمية²؛ أي: إن سعي المجتمع في تحقيق التنمية المادية، في المجالات الاقتصادية، وزيادة في الموارد الطبيعية واستغلالها، لن يتحقق إذا لم تتم تنمية الإنسان المتوازن في كل جوانبه، المزود بالمهارات، حتى يقوم هو بعملية التنمية في مختلف المجالات.

(فالتنمية البشرية هدف ووسيلة كمنطلق لإنجاز مهمات التقدم والازدهار)³.

(ولا تتم تنمية الإنسان الكلي المتكامل في مقابل الإنسان الجزئي المجزأ إلا من خلال النظام التعليمي)⁴. وليس أي نظام تعليمي له القدرة على تنمية الإنسان الكامل المتكامل.

وعليه ومما سبق، يمكن القول بأن التنمية، ذات بُعدين: بعد البناء الاقتصادي،

¹. <https://pachodo.org>

². حامد عمار: دراسات في التربية والثقافة، مصر، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1988، ص. 41.

³. حامد عمار، م.س، ص. 42.

⁴. حامد عمار، مرجع نفسه، ص. 48.

وبعد بناء الإنسان. ويتعلق بعد البناء الاقتصادي بالجانب المادي في الموارد الاقتصادية كيفما كان نوعها، حتى تستجيب وتلبي حاجات الأفراد والمجتمع، بصورة ميسورة لاعتت فيها، تصل إلى الرفاه الاجتماعي والحياة الكريمة. وهذا البعد في التنمية هو ثمرة لبعد تنمية الإنسان. أقلها أن ينضبط الإنسان بالمنظومة القانونية للمجتمع، التي نُشئ عليها، كما هو في المجتمعات الغربية.

أما البعد الثاني في التنمية، هو بناء الإنسان - كما هو في الإسلام - باتباع ما قام به النبي ﷺ، وهو بناء الإنسان بناء شاملا متوازنا، يقوم على البناء العقدي السليم، وما ينتج عنه من ثمرات في الجوانب الأخرى للإنسان، في مجالات العبادة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والمعاملات الراقية المتوازنة، وتسليحه بالوعي الذي يناسب المرحلة، فينجم عن ذلك كله، قيام الإنسان بالأدوار المطلوبة منه في جميع المجالات، نحو ربه بالدرجة الأولى، وما ينعكس منها على نفسه ونحو غيره. باعتبار أن العلاقة الاجتماعية هي انعكاس للعلاقة الروحية.

II - الاجتماعية: ترد كلمة الاجتماعية أو الاجتماعي صفة لما قبله، فنقول التنمية الاجتماعية، والسلم الاجتماعي، والحياة الاجتماعية، والعلوم الاجتماعية، والنظام الاجتماعي¹. (والنظام الاجتماعي: هو النظام الذي يحدد العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، وتندرج في هذه العلاقات، علاقات التوزيع للثروة، التي ينتجها المجتمع).²

وعليه فمصطلح الاجتماعية تنتمي إليه مفردات كثيرة التداول، تعبر عن مدلولات مختلفة، ولكنها تشترك جميعا في صفة التفاعلية الاجتماعية؛ كما أنه يعتبر

¹. قاموس المعاني: <http://www.almaany.Com>.

². السيد منذر الحكيم: النظرية الاجتماعية الإسلامية، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008، ص. 33.

المصطلح الأساسي في علم الاجتماع، من خلال الظاهرة الاجتماعية، التي تتصف بأنها سلوك متكرر الحدوث، يتسم بمجموعة مواصفات، أهمها: التكرار، والتلقائية، والجبرية، وقد عرف دوركايم الظاهرة الاجتماعية بأنها: (هي كل ضرب من السلوك، ثابتا كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص، مستقل عن الصور التي تشكل بها في الحالات الفردية)¹.

ومعنى مستقل عن الصور التي تشكل بها الحالات الفردية؛ أي: تبقى الظاهرة الاجتماعية محصورة فقط في التفاعلات الناجمة عن العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع فيما بينهم، أو بين الفرد والجماعة أو بين الجماعات فيما بينها.

- ويعتبر مالك بن نبي الظاهرة الاجتماعية هي المجتمع، بكل مواصفاته، من خلال تفاعلاتها، التي تظهر في شبكة العلاقات الاجتماعية.

(المضمون الجوهرى للكيان الاجتماعى، الذي يحدد عمر المجتمع، واستقراره عبر الزمن، ويتيح له أن يواجه ظروف تاريخه جميعا، وهو الذي يتجسد في نهاية الأمر في شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تربط أفراد المجتمع فيما بينهم، وتوجه ألوان نشاطهم المختلفة في اتجاه وظيفة عامة، هي رسالة المجتمع الخاصة به. فتكون هذه الشبكة، ولو في مرحلة ابتدائية، هو الذي يعبر عن حدث ميلاد مجتمع في التاريخ)².

- فابن نبي يرى أن شبكة العلاقات الاجتماعية: وهي الوجه العملي التطبيقي للظاهرة الاجتماعية، تكتسي أهمية قصوى، لما ينتج عنها، فهي تعبر عن عمر المجتمع عبر التاريخ، واستقراره في مواجهة الظروف، بالربط بين أفرادها، وتوجيه

¹ . دوركايم إميل: قواعد المنهج في علم الاجتماع، بيروت، موفم للنشر، 2009، ص. 57.

² . مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ج 1 - شبكة العلاقات الاجتماعية. ط. 10، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 2015، ص. 12.

ألوان نشاطهم المختلفة، بل هي تعبر عن حدث ميلاد المجتمع في التاريخ.

- وتقوم الظاهرة الاجتماعية على قوانين ونظريات علم الاجتماع، تؤطر فعل الإنسان وسلوكه مع غيره، وما ينجم عنه سلبيًا أو إيجابيًا؛ لأن الإنسان لا يستطيع إلا أن يعيش في وسط اجتماعي، متفاعلاً ومندمجاً مع غيره بصورة من الصور.

- وعلى ضوء ما سبق وبالجمع بين المصطلحين: التنمية، & الاجتماعية، يمكن تعريف التنمية الاجتماعية في العنصر الموالي.

III- تعريف التنمية الاجتماعية (إجرائيًا):

هي تطور البشر في علاقاتهم المشتركة، في مختلف المجالات، للوصول إلى علاقات اجتماعية: عادلة، ومتوازنة، وفاعلة، وفق المعايير التي يحكم إليها المجتمع. مما يعطيها الرضى والقوة، والديمومة، فيعود ذلك على الجميع أفراداً وجماعات ومجتمعات، بالمصلحة والفائدة.

IV- العوائق: من فعل أعاق يعيق إعاقه: أي منعه وشغله، وثبطه، وأخره¹.

والمقصود بها هنا العقبات التي تمنع حصول التنمية للعلاقات الاجتماعية بطريقة صحيحة وسليمة.

V - المرتكزات: من فعل ركز يركز ركزاً؛ أي: ركز شيئاً في الأرض كالرمح للاتكاء عليه². وعليه فالمرتكزات هنا هي القيم الإيجابية التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية، لتصل للعدل والرضى والتوازن، ومن ثم القوة والديمومة، في فكر مالك بن نبي.

ومن خلال المحور المفاهيمي يتضح أن عنوان الدراسة، الموسوم بـ (التنمية

¹ .. (قاموس المعاني) Com. <http://www.almaany.com>.

² .. (قاموس المعاني الجامع [almaany.com](http://www.almaany.com)).

الاجتماعية عند مالك بن نبي بين العوائق والمرتكزات) يسعى لإبراز كل السلبيات التي تحرم مجتمعاتنا من النهوض والتقدم والاستثمار الجيد لمواردها؛ وكذلك إظهار القيم الإيجابية التي يجب استغلالها. والارتكاز عليها للوصول للتنمية الاجتماعية، وتحقيق المطلوب.

المحور الثاني: التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي بين العوائق والمرتكزات.

الدارس لكتابات ابن نبي، يجد مفردات وموضوعات تتكرر في كتاباته، من باب التركيز عليها، ولإظهار أهميتها لدى القارئ، مثل كلمات: الثقافة، النهضة، الحضارة، معادلة الحضارة، عالم الأشخاص، عالم الأفكار، عالم الأشياء، الصراع الفكري... وغيرها، وهي كلها ظواهر اجتماعية بصورة من الصور، لأن الشخص الذي سينهض من كبوته هي عملية تفاعلية اجتماعية، يحتاج فيها الفرد إلى من يعلمه، ويغرس فيه الوعي لينهض، وحتى وهو يقوم بمستلزمات النهوض يحتاج لغيره، فالنهوض ليس عملاً فردياً، وكذلك الحضارة فهي منتوج اجتماعي بامتياز (عينات حضارة ما، هي منتوجات اجتماعية في جميع أشكالها. فالمصباح الذي نستنير به، والأفكار التي وجهت أمر تجهيزه، والآدميون الذين قاموا بعملية إنجازه، تمثل جميعاً منتوجات اجتماعية).¹ ونفس الشيء يقال عن الثقافة والصراع الفكري... الخ.

مما يجعلنا نقرر عن دليل وبينة أن كتابات ابن نبي يغلب عليها الطابع الاجتماعي في جميع المجالات، فهو يكتب لأمة لتتجاوز إشكالات التخلف والانحطاط، لتنهض وتدخل دورة الحضارة من جديد. وعليه فهو ينبه لعوائق تكبل الأمة حتى يتم تجاوزها، ويدعو لفعل اجتماعي هادف، يركز على قيم إيجابية لتستند عليها الأمة في نهوضها لتساهم في الحضارة من جديد. ومن ثم فهذا المحور من الدراسة

¹. مالك بن نبي: القضايا الكبرى، ط. 12، دمشق، دار الفكر، 2015، ص. 54.

هو أساسي فيها، نعالج فيه العوائق، والمرتكزات في التنمية الاجتماعية، من باب التخلية والتخلية. التخلية من العوائق والتخلية بالمرتكزات، ليتحقق الفعل الاجتماعي الهادف.

وانطلاقاً من تعريفنا الإجرائي، للتنمية الاجتماعية، بأنها هي تطور في العلاقات المشتركة للوصول إلى علاقات اجتماعية عادلة ومتوازنة...، فإن مالك بن نبي يرى - وجود (عالم) رابع، هو مجموع العلاقات الاجتماعية الضرورية، وسماه (شبكة العلاقات الاجتماعية)¹. (واعتبره البعد الرابع الذي يربط بين العوالم الثلاثة الأخرى، عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، (عالم الأشخاص هو الذي يصنع عالم الأفكار وعالم الأشياء، ويحدد اتجاهها ومداها لتغيير وجوه الحياة، وتطور المجتمع)².

و(أن الإنسان يتحول من الفرد Individu ذي الصفات البدائية، لكي يصبح شخصا Personne يتميز بنزعة اجتماعية تربطه بالمجتمع في أي صورة كانت في هيئة تظاهرة أم مدرسة، أم جيش، أم مصنع، أم نقابة، أم سينما، هي تعبير عن شبكة هذه العلاقات في صور مختلفة، وأن ميلاد المجتمع هو ترجمة صادقة وقوية عن شبكة علاقاته... واجتماع المسلمين في المسجد في صلاة الجمعة)³.

وعليه فما هي شبكة العلاقات الاجتماعية بالنسبة لمالك بن نبي؟

I/ شبكة العلاقات الاجتماعية: دورها ومظاهرها.

يعتبر مالك بن نبي شبكة العلاقات الاجتماعية، بأنها هي التي تجمع بين مكونات عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء، وهي منطلق ميلاد المجتمع، وهي

¹. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، م. س، ص. 27.

². مرجع نفسه، ص. 27، 31.

³. مرجع نفسه، ص. 31.

تمثل كل المظاهر المختلفة التي يظهر بها المجتمع في ميادينه العلمية كالمدرسة، والعسكرية كالجيش، والصناعية كالمصنع، والدينية والروحية كصلاة الجمعة.

وعليه فشبكة العلاقات الاجتماعية عند مالك بن نبي، تعبر عن المجتمع وما يتصف به من ظواهر اجتماعية في عمقها، ودورها، ومظاهرها، واتساعها، فهي أقوى من مفهوم التنمية الاجتماعية في المجالات الأخرى التي غالباً ما تقتصر على المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

وابن نبي له تصور كامل وشامل عن العوائق الاجتماعية التي تقف في طريق الأمة الإسلامية، وتؤثر عليها سلباً، وتمنعها من النمو السليم، والوصول للتوازن والعدل، وهذا ما يظهر في مجتمعاتنا المتخلفة. وهو يعزوها لمجموعة من الأسباب في مقدمتها الإنسان بطريقة من الطرق. ولذا رأينا من الناحية المنهجية أن نسبق باستعراض تلك العوائق ثم نأتي إلى المرتكزات.

II/ العوائق:

إن ابن نبي من خلال معادلته الشهيرة للحضارة = الإنسان + التراب + الزمن. يعتبر الإنسان هو القاعدة الحاملة لكل شيء (إن الإنسان هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة؛ لأن التراب والوقت لا يقومان - إذا اقتصر عليها فحسب - بأي تحويل اجتماعي)¹. سواء تعلق الأمر بشبكة العلاقات الاجتماعية، وتنميتها، أو بالنهضة، أو ببناء الحضارة... الخ. وأي اختلال في مسار الإنسان، سيمنعه حتماً من الفعل الاجتماعي الهادف، كما في إنسان المنتصف، بتعبير ابن نبي رحمه الله.

وإنسان (منتصف الطريق، وفي منتصف فكرة، وفي منتصف تطور، لا يعرف

¹. مالك بن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة الطيب الشريف، ط. 12، دمشق، دار الفكر، 2016، ص. 53.

كيف يصل إلى هدف، إذ هو ليس نقطة انطلاق في التاريخ، كرجل الفطرة، ولا نقطة الانتهاء كرجل الحضارة، بل هو نقطة التعليق¹.

أي: إن أكبر مشكلة تعاني منها مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، ليس فقط في مجال التنمية الاجتماعية، بل في كل المجالات، هي نوعية الإنسان، الذي يقف في منتصف الطريق، ولا يستطيع أن يقوم بأي شيء، فلن يصلح لتنمية اجتماعية، ولن ينهض، ولن يصنع تقدما ولن يبني حضارة.

- إنها سلبيات إنسان المنتصف في كل شيء، لها علاقة بفهمه وتفاعله بالمعتقد، ولها علاقة بالسياق التاريخي، ولها علاقة بمعيار الأولويات، ولها علاقة بمحتل الأمس، ولها علاقة بالحلول الخاطئة المتبناة، ولها علاقة بمشاكل نفسية ومادية... ويمكن التعرض لأهم هذه العوائق، كما أوردها ابن نبي بالنص، مع التعليق عليها.

1 / خمود إشعاع الفكرة الدينية لو هن الدفعة القرآنية:

يرى ابن نبي أن أهم دافع لدى الإنسان للقيام بالفعل الهادف في مختلف المجالات هو الفكرة الدينية التي مصدرها الدفعة القرآنية؛ أي: الفهم الصحيح للدين والتفاعل معه، ويُخضع غرائزه لمقتضياتها الروحية؛ حيث يمارس حياته الجديدة حسب قانون الروح التي تشع في منحى تصاعدي، وتكتمل شبكة روابطه الداخلية، بقدر إشعاع الفكرة الدينية، ومتى فقد إشعاعها، خمد إشعاع العقل والفهم وإرادة العمل (فأينما توقف إشعاع الروح، يخبث إشعاع العقل، يفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم، وإرادته للعمل، عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان).²

بل يتوقف الإنسان عن العطاء بسبب وهن الدفعة القرآنية كما يتوقف المحرك

¹ . مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دمشق، دار الفكر، دون تاريخ، ص.76.

² . مالك بن نبي وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، منشورات ANP، 1981، ص.29.

عن السير (إذا وهنت الدفعة القرآنية توقف العالم الإسلامي، كما يتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود)¹.

إذن فمشاكلنا التي نعاني منها اليوم، سببها الإنسان الذي انخفض تفاعله مع الدين، وما يحمله من قيم ومعايير موجهة للسلوك في مختلف المجالات، منذ زمن طويل، حيث بدأت الغرائز تتحرر شيئاً فشيئاً، من سلطان الفكرة الدينية، وكانت النهاية بعد انتهاء الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية.

2. الجهل بالإسلام:

الجهل بحقيقة الإسلام وروحه، من الأسباب الأساسية التي حرّفت مسيرة المسلم اليوم، عن هدفه ومساره الصحيح، في كل الميادين، بما فيها العلاقات الاجتماعية، وهو يسرد حالة الجزائريين نموذجاً، لما هو واقع في العالم الإسلامي، حيث حل محل الإسلام الصحيح، فكر الخرافات والأوهام، وتلك المظاهر الغريبة التي لا يقبلها عقل، ولا يرضى بها دين، تتحكم في سلوك الناس، وتوجه علاقاتهم الاجتماعية، لمدة خمسة قرون، حتى جاءت الفكرة الإصلاحية، فتخلص الشعب الجزائري من الفكر الخرافي إلى حد ما، ولكنه مازال يجهل إلى حد بعيد حقيقة الإسلام، وممارساته الصحيحة إلى اليوم. وما يترتب عليها في مجال العلاقات الاجتماعية السوية. (وهكذا كان شأن الجزائر، فإنها كانت حتى عام 1925. على الرغم من إسلامها - تدين بالوثنية، التي قامت نصبها في الزوايا، هنالك كانت تذهب الأرواح الكاسدة للتماس البركات، ولاقتناء الحروز ذات الخوارق والمعجزات، غير أنه ما إن سطعت الفكرة الإصلاحية حتى تحطّم ذلك المعبد، فخرّت الأوثان... وخذت نيران أهل الزردة، وزالت عن البلاد حمى الدراويش، وتخلصت منها الجماهير بعد أن ظلت خمسة قرون ترقص على دقات البنادير، وهي

¹ - المرجع السابق، ص. 30.

تبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام).¹

3. الأمراض الموروثة:

للأمراض الموروثة، التي وصلتنا عن طريق إنسان ما بعد عصر الموحدين دور كبير فيما نعاني منه اليوم (في السياسة، أو في صورة العمران، لم تكن إلا تعبيراً عن حالة مرضية، يعانها الإنسان الجديد، إنسان ما بعد الموحدين، الذي يحمل في كيانه، جميع الجراثيم التي سينتج عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل، التي تعرّض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين).²

4. معادلة الحضارة عناصر خامدة:

معادلة الحضارة عند مالك بن نبي معروفة، وهي أن الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت. لكن العوامل التي أنتجت مسلم ما بعد عصر دولة الموحدين، أثرت سلباً على تلك المعادلة، وجعلتها خامدة بدون تفاعل، حيث (بلغت عوامل التعارض الداخلية قمتها، وانتهت إلى وعدّها المحتوم، وهو تمزق عالم واهن، وظهور مجتمع جديد، ذي معالم وخصائص واتجاهات جديدة، فكانت مرحلة الانحطاط، إذ لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة، بل أضحت عناصر خامدة، ليس لها فيما بينها صلة مبدعة).³

5. روح الهزيمة: يعتبر ابن نبي أن مسلم اليوم يحمل روح الهزيمة بين جنبيه، (أن رجل المدينة الذي رضي بالقليل من الأشياء، قد تغلغل في نفسه دواعي الانحطاط،... فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه).⁴ والمهزوم داخلياً ونفسياً، لن يصنع مجداً ولا حضارة ولا أي شيء.

¹. شروط النهضة، م.س، ص. 28.

². وجهة العالم الإسلامي، م.س، ص. 35.

³. المرجع نفسه، ص. 30.

⁴. شروط النهضة، م.س، ص. 76.

6. عدم تحمل مسؤوليته نحو المشكلات:

إن مسلم اليوم، يعزو الصعوبات التي تواجهه إلى طبيعة المشكلات، رغم أنه هو المتسبب فيها، إما بقصوره العقلي في عدم البحث عن جوهر المشكلات، حتى يجد لها الحل الصحيح، أو بأخلاقه وسلوكه السيء، فهو المتسبب في المشكلات، ومع ذلك لا يتحمل المسؤولية لإيجاد الحلول. (الصعوبات التي يعانيها مجتمعنا اليوم، في مواجهة ضرورات البناء الداخلي، يعزوها المسلم اليوم إلى طبيعة المشكلات، عوض أن يعزوها أولاً إلى نفسه من الناحية العقلية في إدراكه هذه المشكلات، ومن الناحية الأخلاقية في سلوكه إزاءها).¹

7. المطالبة بالحقوق قبل أداء الواجبات:

إن مشكلة المطالبة بالحقوق في مختلف المجالات، ولدى مختلف الفئات، وهي لا تقدم إلا الحد الأدنى من الواجبات! فكيف يمكن أن ينجح المشروع في أي مجال من مجالات الحياة؟ ويدخل فيها المجال الاقتصادي، وهو بالضرورة مجال اجتماعي. (الذي ينبغي أن نعود منه للحضارة. وهي فعل اجتماعي وليس فردي. هو باب الواجب، وأن نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب، أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق؛ لأن كل فرد بطبيعته تواق لنيل الحقوق ونفور من القيام بالواجب).²

8. غياب رؤية اقتصادية صحيحة: اعتقد الساسة وحتى بعض النخب في العالم الإسلامي - بعد طرد محتل الأوس - أن مشاكلنا سببها الاقتصاد؛ وبالتالي فإن مشاكلنا تنحل بالتنمية الاقتصادية، وأهملوا بناء الإنسان، الذي يقوم بتنفيذ المشروع الاقتصادي، مع ضبابية في الرؤية الاقتصادية عند هؤلاء، بل إنهم لا يملكون رؤية صحيحة، (إن العالم الإسلامي لا يملك نظرة أو نظرية خاصة في الاقتصاد، تتواءم

¹ - مالك بن نبي: تأملات، بيروت، دار الفكر، 1979، ص. 8-9.

² - المرجع نفسه، ص. 26-27.

مع ضروراته ومع إمكانياته في وقت معا)¹.

ولذا استوردوا تجارب جاهزة من الشرق والغرب، لم تزد العالم الإسلامي إلا تخلفا وبؤسا وفسادا. (أسباب إخفاق المشاريع الاقتصادية في بلداننا الإسلامية، كون الاختصاصي الأجنبي، يضع المشروع بعيدا عن عُدّة البلد، أو فوق استعداداته، أو فوق الأمرين معا)². وما تجربة جمهورية إندونيسيا مع الدكتور شخت الألماني، إلا خير مثال.

9- افتقار المسلم للمعيار الذي يوجهه في مختلف المجالات، وما نجم عنه:

يرى ابن نبي أن المسلم في حاجة إلى (أولية المعيار الاجتماعي)³. (وأن الإنسان المسلم لما يعرف بعد تماما عالم الضرورات؛ لأنه لم يصنعه بنفسه. إنه عالم مستورد... وهكذا غزت الحياة الإسلامية بدون تصفية أو بنصف تصفية أشياء عديدة ليست ضرورية مطلقا)⁴.

لأنه يفتقر للمعيار الذي سيصفي له ما يعرض عليه، ويرتبه له حسب أولوياته، لا حسب أولويات الآخر، وغياب المعيار الاجتماعي أدى إلى غياب الوعي، وجراء ذلك (فقد مُزّق وعي الإنسان المسلم في يومنا هذا من جراء التناقض).⁵ وأدى تمزق الوعي وغيبابه إلى التناقضات في كل المجالات، من فوضى الأشياء والأفكار، (فمجتمعاتنا ليست منغلقة على ذاتها، فهي جزء من المجتمع العالمي، الذي يبيعها الأشياء ويفرض عليها في الوقت نفسه مقاييسه وعلى تمثل أفكاره)⁶.

¹. تأملات، م.س، ص. 49.

². المرجع نفسه، ص. 50.

³. فكرة كمنويلث إسلامي، م.س، ص. 24.

⁴. المرجع نفسه، ص. 24. 25.

⁵. المرجع نفسه، ص. 25.

⁶. المرجع نفسه، ص. 28.

10. فوضى في أشكالها المختلفة:

إن الذي يحصل في مجتمعاتنا الإسلامية من اضطراب شامل يحرم الفرد من حقوقه، وما ينجم عنه من (انعدام الأمن في المجتمع، والبلبلة في الأفكار والاضطراب في الأرواح... والفوضى الاجتماعية في أشكالها المختلفة الاقتصادية والفكرية تنتج الاضطراب الأخلاقي).¹

11. التقليد بدل التمثيل:

الذي يحصل بالفعل، هو أن المجتمع الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر يعاني من التقليد بدل التمثيل؛ إذا قارنا مجتمعاتنا الإسلامية بالمجتمع الياباني، رغم فارق الموارد لصالح مجتمعاتنا العربية الإسلامية، فأين هو اليابان؟ وهو ضمن الثمانية الكبار في العالم، وأين هي مجتمعاتنا العربية الإسلامية؟ والفارق واضح، لأن (اليابان قد تمثلت الأفكار بينما المجتمع الإسلامي لا يزال يشتري الأشياء!)².

12. اللا فعالية:

عندما يحقق الإنسان الهدف المطلوب في وقت وجيز وبنتائج جيدة، فهو إنسان فعال، وعندما يستغرق وقتاً أطول، ويبدد الطاقات والجهود، ودون نتيجة، أو بنتائج محدودة، فهو اللا فعالية، وفي مجتمعاتنا، (فنحن لا نعاني من اللا فعالية، فحسب، ولكننا نخترع شيئاً ما؛ ترهة معينة، لاستبقائها! ونحن عندما نتفحص عن كثر حياتنا الاجتماعية، نجد فيها ما لا يستهان به من الترهات من هذا القبيل بغية تبرير لا فعاليتها)³.

وبعد استعراضنا لأهم الأسباب الذاتية للمسلم، التي تسببت في ضمور الفعل

¹. فكرة كمنويلث إسلامي، م.س، ص.32.

². المرجع نفسه، ص.28.

³. المرجع نفسه، ص.62.

الاجتماعي الهادف، ومن ثم تأخر المسلمين في الإقلاع نحو النهضة، وبناء حضارة، حسب مالك بن نبي، وهي كلها تدخل ضمن غياب في تنمية العلاقات الاجتماعية، تأتي الأسباب المتعلقة بالاستعمار (محتل الأمس: الذي خرب البلاد ودمر العباد).

- دور محتل الأمس: يتناول هذا العنصر من الدراسة أهم ما رصده مالك بن نبي رحمه الله عن دور المستعمر وأدواته في تحطيم البلاد المستعمرة، وتوريثه لها لجزء معتبر من أسباب التخلف المادية والمعنوية، ومحاربتة لكل ما من شأنه أن يساهم في الفعل الاجتماعي الهادف الفعال الذي يساهم في نهضة وتقدم البلاد المستعمرة، حتى ولو بعد رحيله، والجزائر نموذج في ذلك.

1 - عرقلة الاستعمار للبناء الاجتماعي وانتقاص الطاقة الاقتصادية والفعالية

الفكرية

(الاستعمار ينتقص من طاقنا الاقتصادية، حتى يخضع موادنا الأولية للكساد، إذ ينافسها يطرحه في السوق بديلا عنها من مصنوعات السانتتيك،... ويعرقل بناءنا الاجتماعي، لكن ينبغي أن نضيف بأن مناورات الاستعمار للانتقاص من أفكارنا، أعني افتقادها فاعليتها في البناء الاجتماعي هي الأكثر خداعا).¹

يعني أن الاستعمار. محتل الأمس، وحتى اليوم. رغم رحيله - ولكن بمناورات، ووكلائه، فهو يعطل بناءنا الاجتماعي، بالانتقاص من أفكارنا وفقدانها لفعاليتها. وما ينتج عن ذلك في كل المجالات، وكذلك بالانتقاص من طاقنا الاقتصادية، بكساد موادنا الأولية، وهي كلها مجالات اجتماعية.

2. محاربة الوعي:

(اهتمام المراسد المتخصصة إزاء ظهور أي فكرة تخدم وعي البلاد العربية والإسلامية، تسجل في الحال ويبلغ عنها فوراً).²

¹. من أجل التغيير: سوريا، دار الفكر، 1995، ص. 15. 16.

². الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط. 12، دمشق، دار الفكر، 2016، ص. 21 - 22.

ويقوم خبراءؤه بإيجاد طرق ووسائل محاربة تلك الفكرة والقضاء عليها في المهد، ومن ثم القضاء على الوعي الذي يمكن أن تزرعه تلك الفكرة.

(ويستغل جهل الجماهير لينشئ حول الفكرة منطقة فراغ وصمت لعزلها عن المجتمع، وهكذا يفعل حتى يصل إلى أحط مستوى، فيستخدم سلاح المال...).¹
(إن هدف الاستعمار لا يتعلق بذات شخص معين، ولكن بأفكار معينة يريد تحطيمها أو كفها، حتى لا تؤدي مفعولها في توجيه الطاقات الاجتماعية في البلاد المستعمرة).²

وعليه فتلك المراسد والوسائل المختلفة، المسلطة علينا، وهي مازالت قائمة . رغم رحيل محتل الأمس . بل تطورت وسائله اليوم وأصبحت أكثر فتكا بنا، وهدفها هو تحطيم الأفكار التي يمكن أن تغرس الوعي، والقضاء على الطاقات الاجتماعية والفعالية فيها. وقد نجحت تلك المراسد في تغييب الوعي وما ينجم عنه، حتى عند كثير من النخب المجتمعية.

3- الاستثمار في الأمية السياسية، ونوعية القيادة السياسية:

إن استعمار الأمس، والتعبير الصحيح - استعمار الأمس، والاستعمار الجديد - يستثمر في جهل المسلمين بكل أنواعه، بما فيه الأمية السياسية، في تغييب الوعي.
(الأمية السائدة في البلاد التي تجعل الشعب غير مؤهل للصراع الفكري).³

كما تقوم بعض النخب التي صنعها محتل الأمس، وبوأها في مفاصل صنع القرار، مواصلة مشروع محتل الأمس، وتدافع عنه بكل قوة، سواء تعلق الأمر بواقع المدرسة بمراحلها المختلفة، أو الاقتصاد، أو الثقافة، إنها حارسة المشروع التغريبي، وهي تعتبر محتل الأمس صديقا حميما، تبيض صحائفه، وتدافع عنه وعن مصالحه،

¹. المرجع السابق، ص. 16.

². المرجع نفسه، ص. 38.

³. المرجع نفسه، ص. 49.

وتهاجم عناصر الهوية الوطنية بكل عنف وحقد. (السياسة العاطفية القائمة في البلاد، تجعل القيادة السياسية على حذر من الأفكار، فهي تخشاهما كما يخشاهما الاستعمار نفسه، لأنها عادة لا تتفق مع مركب الأفراد الذي يمثل تلك القيادة).¹

4. تجهيل الأُمس لأبناء البلاد المستعمرة وأثره (الجزائر نموذجا):

(إذ بعد قرن من احتلال فرنسا للجزائر، بلغ عدد الطلبة الجامعيين 300.000 طالبا بفرنسا، بينما بلغ عددهم في الجزائر 300 طالبا على وجه التقريب).² وقد كان هذا التجهيل عن عمد لما يترتب عليه لصالح المحتل، الذي حرم الجزائريين من التعليم. ومن ثم حرمانهم من التنمية الاجتماعية في كل المجالات. وكان من ثمرات سياسة التجهيل تلك ما يلي: (أن الشعب الفرنسي يصل وحده إلى عتبة العهد الذري... ونجد الشعب الجزائري في قافلة المتخلفين، بعيدا عن جبهة التطور العالمي... لم يخرج بعد عن مرحلة الأمية)³. وما زالت الجزائر إلى اليوم تعاني من تلك الآثار، ولا سيما في المفاهيم والسلوكات الممارسة.

5. التعقيم للقيم القانونية والأخلاقية:

(ندين للاستعمار أنه قد عقم المفاهيم القانونية والقيم الأخلاقية التي قامت عليها)⁴. فلقد حارب محتل الأُمس كل القيم الأصيلة في مجتمعنا، وورثنا قيمه الوافدة معه، وما زالت تلك القيم الغربية عن مجتمعنا وثقافتنا، تسود المجتمع الجزائري، وتعيقه عن التنمية الاجتماعية المطلوبة في إطار هويتنا.

6. البؤس الغذائي:

(فلو اتخذنا سنة 1830 نقطة بداية لتاريخ التطور الاجتماعي بفرنسا والجزائر،

¹. المرجع السابق، ص 49.

². في مهب المعركة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 12، دمشق، دار الفكر، 2016، ص 37.

³. المرجع نفسه، ص 37.

⁴. المرجع السابق، ص 42.

لرأينا أن التطور لم يسر في البلدين في الاتجاه نفسه... إذ لما وضع الاستعمار يده على كل الثمرات التي ينتجها التراب الجزائري، التي كانت تتيح العيش الرغد لكافة الشعب الجزائري... كانت النتائج متناقضة في المجتمعين: بين الرفاهية المفرطة والبؤس، وبين الانتاج الزائد عن الحاجات والنقص الفظيع في الغذاء).¹

وإن كانت الرفاهية التي يذكرها هنا مالك خاصة بالمجتمع الفرنسي، وفي الجزائر لدى المعمرين وأعوان فرنسا، أما عموم الجزائريين فقد كانوا في فقر مدقع، وقد لحقت بهم مجاعات أودت بحياة الكثير منهم. كما أن كل الآلات التي تحرك الاقتصاد توضع بيد الأوروبي المحتل، بينما يدفع التجار المسلمون الضرائب.

7- برنامج شامل للتخطيط المادي والمعنوي والأخلاقي:

(والواقع أن الاستعمار يذهب إلى أبعد من ذلك في التخطيط... من اختلاسات حقوق، وسلب أملاك، وفرض مخالفات مشتركة، وضرائب من كل نوع، وتنمية البطالة في البلاد إلى درجة لا يتصورها العقل... فهو يريد تخطيط كل إرادة تدفع الإنسان المستعمر إلى التقدم والحضارة، ببرنامج يتضمن كل ما يتطلبه هذا التخطيط المعنوي من تلويث أخلاقي يحط أولا من قيمة الفرد الشخصية، ومن كفاءته، ومن جهده في المسابقة الاجتماعية).²

فعلا هو برنامج للتخطيط الاجتماعي الشامل، في كل المجالات: في مقدمتها تخطيط الإرادة، وسلب الحقوق، وسلب الممتلكات بكل الطرق، وبعدها يصبح الجزائري فريسة للجهل والمرض والآفات الاجتماعية.

8- استثمار محتل الأمس في شهوات أفراد البلدان المستعمرة، حتى ينحرفوا عن الهدف الذي ذهبوا من أجله. لاسيما في مجال (تلويث أخلاقه... وتصبح المخدرات والكحول مؤسسة من مؤسسات الحكم، لا يقف أحد إزاءها موقفا عدائيا، إلا

¹. المرجع السابق، ص. 36.

². في مهب المعركة، مرجع سابق، ص. 45.

ويعرض نفسه للخطر، كما يُعَلِّم عليه في ملفات البوليس بأنه شخص خطير).¹
. ومازال الاستدمار الجديد، بوسائله الجديدة، يستثمر في شهوات أبنائنا، وقد حقق مالم يحققه بالأمس، في مجال الانحراف والجريمة والفساد.
ورغم الآثار المدمرة لمحتل الأمس، والتي مازلنا نعاني منها في مختلف المجالات، إلا أننا نحن أيضا ساهمنا في تخلفنا بقسط وافر، ومن تلك المساهمات بتبنينا حلول خاطئة للخروج من مشاكلنا، فزادتنا تخلفا على تخلف.
- الحلول الخاطئة:

إن للحلول الخاطئة التي سلكتها البلدان الإسلامية بعد طرد المحتل نصيب معتبر من الواقع الاجتماعي الذي تعيشه بلداننا في مجال التنمية الاجتماعية.
إذ لم يتغير حالها كثيرا في هذه الفترة التي رفعت فيها الراية الوطنية على المباني الرسمية، وفي بعض البلدان زاد الأمر سوءا عما تركه محتل الأمس. وحسب مالك بن نبي، فإن للحلول الخاطئة المعتمدة. أثر واضح في واقعها نحو النهضة، والتقدم، والتنمية الاجتماعية، وهذه نماذج من تلك الحلول الخاطئة:

1. العالم الإسلامي دخل صيدلية الغرب وهو لا يعرف عما يبحث عنه:

من المعروف طبيا، أن التشخيص الدقيق، ومعرفة حقيقة المرض، نصف العلاج، وما ينطبق على الأفراد في الأمراض العضوية ينطبق على المجتمعات والأمم في الأمراض والمشكلات الاجتماعية، لكن المشكلة في عالمنا الإسلامي، أنه لا يَعْرِف مرضه بدقة، ولا يعرف الأدوات الصحيحة للعلاج، ولا كيفية استعمالها، ولا مراحل العلاج، إنه ارتقى في أحضان الغرب، ودخل صيدليته يطلب الشفاء، وهو لا يعرف العقار الذي يبحث عنه، فاقتنى كل شيء وقعت عليه يداؤه، وتناوله بغير حساب، فزادت أسقامه، وكثرت علله، فتاه ولم يصل إلى هدفه إلى اليوم، وفي

¹. المرجع السابق.

هذا يقول مالك بن نبي: (العالم الإسلامي دخل صيدلية الحضارة الغربية، يطلب الشفاء، لكن من أي مرض؟ وبأي دواء؟ إنه لا يعرف شيئاً محدداً عن مرضه)¹.

2. حلول مستوردة لا تتناسب مع إمكانياته وأفكاره:

العالم الإسلامي، بعد طرد محتل الأمس، وجد تركة ثقيلة في مجال الجهل، والمرض، والفقر، والصناعة، والزراعة، وغيرها من المجالات الاجتماعية التي تحتاج للتنمية، فاعتقد أن الحلول الاقتصادية البحتة، هي الحل لمشكلاته الموروثة عن محتل الأمس، فمنهم من استورد حلولاً اقتصادية من الاتحاد السوفياتي الشيوعي آنذاك، ومنهم من استورد الحلول من الدول الرأسمالية، والعامل المشترك في التوجهين، هو إهمال بناء الإنسان، وفق عناصر هويته، فكانت النتيجة ما تعيشه اليوم تلك البلدان، إذ لم تحقق النمو الاقتصادي المنشود، مع تدمير شبه كلي لرأس المال الحقيقي، ألا وهو الإنسان، الذي لم يكن له نصيب من الاهتمام والبناء الصحيح، على أسس هويته في تلك الحلول المستوردة. ومالك بن نبي، يعتبر استيراد تلك الحلول التي لا تتسجم مع هوية أمتنا، تضييع للجهود، وعملية انتحارية.

(فإنه لا يجوز لأحد، أن يضع الحلول والمناهج، مغفلاً مكان أمته ومركزها، بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعاً للجهود، ومضاعفة للداء، إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار)².

3. أغفل العقيدة الدينية في عملية بناء الإنسان: وذلك ناجم عن تبني الفكر

العلماني الغربي بحدّة، كما فعلت الحركة الحديثة، وعلى رأسها كمال أتاتورك. وإن المساهمة في البناء الاجتماعي على أسس صحيحة - كما مر معنا في العناصر السابقة - يقوم على الإنسان الذي يحمل فكرة عقديّة صحيحة، لكن النخب السياسية في العالم

¹. شروط النهضة، مرجع سابق، ص. 41.

². المرجع نفسه، ص. 47-48.

الإسلامي، وهي بالموصفات المذكورة سابقا، لم تعط بناء الإنسان، ولا سيما الجانب العقدي منه أي اهتمام، بل العكس تماما، حاولت تفرغه من أي جانب عقدي سليم، واعتبرته مؤشرا تخلف، لا يتماشى وروح العصر، ومن ثم ساهمت في التخلف ومحاربة التنمية الاجتماعية، بإهمالها، بل بمحاربتها للجانب العقدي في بناء الإنسان. (إن هناك ما يطلق عليه - مركب الحضارة - أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة - الإنسان + التراب + الزمن - بعضها ببعض... إن هذا المركب موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ)¹.

(فالحضارة لا تنبعث - كما هو ملاحظ - إلا بالعقيدة الدينية)².

4. التكديس بدل البناء: إن مجتمعات العالم الإسلامي، منذ أكثر من نصف قرن، وهي تجمع وتكدس منتجات الحضارة الغربية، معتقدة أنها بذلك ستحل مشاكل التخلف، في مجالات الفقر، والمرض، والجهل، وغيرها. وهي كلها جوانب اجتماعية، ومع ذلك لم تلتحق بالتقدم والتنمية الاجتماعية المنشودة، ولو في جانبها المادي، كما حدث عند اليابان وروسيا والصين، ولا بالتحضر في الجوانب التي تتعلق بالإنسان والقيم؛ لأن المجتمعات الإسلامية سلكت طريقا خاطئة، وهي علاقة الزبون مع التاجر: كلما احتاج لشيء، اشتراه جاهزا وكدسه، ولا يعرف عنه أي شيء، بدلا من علاقة الطالب المجتهد مع أستاذه، إذ يسأل أستاذه عن كل صغيرة وكبيرة، ليفهم كل شيء عما هو في حاجة إليه، ثم يقوم ببنائه، على طريقة الكيميائي الذي يحلل أولا المنتجات ثم يعيد تركيبها. (إن العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن، على جمع أكوام من منتجات الحضارة، أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة)³.

(فقد أردنا بدل الاضطلاع بتشديد حضارة، أن نقوم بتكديس منتجاتها.... مظهر

¹. المرجع السابق، ص. 46.

². المرجع نفسه، ص. 50.

³. المرجع نفسه، ص. 44.

مشتطّ بالهزل عندما نلاحظ أربعة أجهزة للتكييف الهوائي في مقصورة أحد رؤساء المصالح، أو خمسة أجهزة هاتفية على مكتبه¹.

5. غياب التنسيق والانسجام في دواليب الدولة:

من العوائق الخطيرة التي تعاني منها حكومات مجتمعاتنا الإسلامية، ظاهرة عدم التنسيق بين عناصر الحكومة، وأيضا الإدارات المحلية فيما بينها، مما أدى لبذل الجهد وإنفاق المال دون جدوى، وما يترتب عنها من مراوحة التنمية الاجتماعية في مكانها، بل تقهقرها، وقد شبه ابن نبي ذلك بعناصر محرك متشاكسة (فإننا من الناحية الفنية نتصور الدولة في حالة كهذه - أي عدم التنسيق - محركا تدفع بعض أجهزته إلى الأمام، بينما تدفع الأخرى إلى الخلف)².

ويترتب عن ذلك الشاكس إنهاك، ولكن دون نتيجة كما يترتب عن عناصر المحرك غير المتناسقة إتلاف للمحرك، وإنفاق للطاقة، ولكن بدون جدوى (فمن الناحية الميكانيكية ندرك بسهولة تلف الطاقة... وأن المحرك نفسه يتعرض للتلف... والحالة التي أشرنا إليها أخطر الحالات الاجتماعية المرضية)³، يقصد غياب التنسيق في دواليب الدولة.

6. بيع المواد الخام بسعر زهيد، واستيرادها مصنعة بأضعاف مضاعفة:

إن مجتمعاتنا الإسلامية لا تتحكم في مواردها، لأسباب كثيرة، فهي تبيع المواد الخام بسعر زهيد، وتستوردها مصنعة بأضعاف مضاعفة، لأن الآخر هو من يتحكم في التسعير (عدم توازن... العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، عن اندمال التخلف، بل عن زيادته نسبيا)⁴. ويقترح حلا لهذا الإشكال في إنشاء مصرف المادة

1. القضايا الكبرى، م.س، ص. 50. 51.

2. بين الرشاد والتهيه، م.س، ص. 44.

3. مرجع نفسه، ص. 45.

4. مرجع نفسه، ص. 151.

الخام للدول النامية حتى تتحكم في أسعار موادها الخام، بقوله: (هذا الوضع يلزمنا بإنشاء - مصرف المادة الخام - لإصلاح حال المادة الخام التي تمثل العرض، في العمليتين الأساسيتين: إنتاجها وتسويقها. فالبلاد النامية زهدت، بعد استقلالها في استخلاص النتائج التي يقتضيها وضعها الجديد).¹

وبعد استعراضنا لأهم عوائق التنمية الاجتماعية في فكر مالك بن نبي، التي يتسبب فيها الإنسان بطريقة أو بأخرى، ولا يمكن تحقيق التنمية الاجتماعية، إلا بتجاوز تلك العوائق، التي نبه ابن نبي عليها لتجاوزها. فالتنبية للعائق نصف العلاج. أليست كل صورة سلبية تعرض، فهي ضمنيا دعوة لتجاوزها واستبدالها بما يجب من الصور الجميلة المقابلة لها؟

ألم يحول النبي ﷺ خامات الجاهلية إلى معادن الإسلام؟ من خلال إخلائهم من أمراض الجاهلية وإملائهم بفضائل الإسلام؟ فأخرج منهم خير أمة بشهادة الله تبارك وتعالى.

ومن ثم التنبية على سلبات شيء ما يقتضي التخلص منه واستبداله بما يقابله من الإيجابيات. وابن نبي لم يكتف بالتنبية للسلبات والعوائق التي تكبل مجتمعاتنا الإسلامية، بل أرفدها بالإيجابيات التي يجب أن يركز عليها للتنمية الاجتماعية.

III/ المرتكزات:

وتقوم التنمية الاجتماعية عند ابن نبي على التغيير الشامل، من خلال بناء الإنسان، في مختلف المجالات، وهذا ما سيتم استعراضه في العناصر الموالية.

1- بناء الإنسان على مرتكز الدين:

(إذا أراد المجتمع المسلم أن يبقى على وجه الخريطة، عليه أن ينقذ نفسه بدينه؛ لأن الدين هو الوسيلة الوحيدة لديه ليسير إلى مأمنه).²

¹. المرجع السابق، ص. 151.

². مجالس دمشق، م. س، ص. 61.

يعتبر ابن نبي الدين بمفهومه الصحيح الشامل، أعظم الركائز التي يمكن أن تنقذ الأمة مما تعاني منه في مختلف المجالات، وتعيدها لدورة الحضارة من جديد، فكما أن خمود الفكرة الدينية والجهل بالإسلام، كان لهما الأثر الأكبر في الانحطاط الكلي، وما ترتب عنه في مختلف الميادين بما فيها العلاقات الاجتماعية، فكذلك فإن فهم الدين الإسلامي في شموليته بطريقة صحيحة وتطبيقه في مختلف المجالات، سيكون له الأثر الكبير في كل المجالات فهو رديف للعلم، والمعتقد الصحيح، وتفجير الطاقات، والرقب على السلوك...

فالدين هو (المرفأ بالنسبة لكل سفينة مهددة بالغرق، أعني لكل مجتمع إنساني هو أمران: 1. دينه، 2. حضارته. دينه أعني عقيدته؛ أي: الطاقة التي تجعل المجتمع يتمكن من مواصلة السير من المكان الذي طوقته فيه الأخطاء بلوغاً إلى مأمنه. هذه الطاقة طاقة النجاة، ثم عندما نصل إلى المرفأ، والمرفأ هو حضارة المجتمع التي تخوله القيام بوظيفته التاريخية بوصفه مجتمعاً متحضراً، يقدم الضمانات الاجتماعية لكل فرد يعيش فيه)¹.

ثم إن المعركة بين مجتمعاتنا الإسلامية وغيرها تدور على أساس ديني، ومن ثم لا يمكن إغفال الدين في هذه المعارك (المعركة التي تدور بين المجتمعات... إنها لا تجري على صعيد الاقتصاد، ولا على الصعيد السياسي، بل هي تجري على الصعيد الروحي (الإيديولوجي)... والمجتمع الإسلامي الذي نراه اليوم في خضم المعركة بين المجتمعات الأخرى في إطار المعركة الإيديولوجية كسفينة تكتسحها الأمواج من كل جانب، سواء ما يسمى الموجة الصهيونية، أو الموجة التي تسمى الإلحاد، أو التي تسمى الشيوعية، أو الموجة التي تسمى الاقتصادية، ويعبر بهذا التعبير عن قصد)². وعليه لا يمكن أبداً تجاوز هذه المعارك، والوصول للمرفأ الحضاري دون

¹. مجالس دمشق، م.س، ص. 61.

². المرجع نفسه، ص. 58-59.

القيام على أسس صحيحة من الدين.

2. التغيير الشامل القائم على التخطيط: إن عملية التغيير الشامل القائم على التخطيط، في كل المجالات، بما فيها مجال التنمية الاجتماعية، شرط أساس يتفق عليه علماء الاجتماع، وابن نبي لا يشذ عن ذلك، وهو يرسم معالمها غداة الاستقلال، ويرأها تتمثل في إعادة تنظيم الإدارة، وأجهزة العدالة، وتغيير العملة، وتعديل النظام الاقتصادي، وأهم عنصر في عملية التغيير هو تغيير الإنسان، أي بناؤه بما يتوافق ورؤى التغيير الشامل (التغييرات الثورية تصبح حلما من الأحلام، إذا لم تقم على هذه الشروط... إعادة تنظيم الإدارة، وأجهزة العدالة، وتغيير العملة، وتعديل النظام الاقتصادي... إلا أن التغييرات هذه جميعها تصبح مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها، إذا لم يتغير الإنسان نفسه).¹

وبناء الإنسان ركن أساس عند ابن نبي، وفي كل المجالات فهو عنصر أساس في أي معادلة للتغيير الاجتماعي، والخروج من التخلف، والنهضة، والتقدم، والتنمية الاجتماعية.

3. المزج بين الشروط الأخلاقية والمادية وتفعيل المؤسسات في بناء إنسان الحضارة: لما كانت الحضارة هي ظاهرة اجتماعية بامتياز، تسعى لتجاوز مشاكل التخلف، والنهوض، وتحقيق التنمية الاجتماعية، باستغلال كل مؤسسات المجتمع لتقوم بأدوارها المنوطة بها، في ظل القيم الأخلاقية والوسائل المادية لتقديم المساعدة للإنسان، حتى يصبح مؤهلا في أدائه الوظيفي الحضاري، ترافقها التنمية الاجتماعية الشاملة حتما.

(الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه،

¹. بين الرشاد والتهيه، م.س، ص 15.

فالمدرسة، والمعمل، والمستشفى، ونظام شبكة المواصلات، والأمن في جميع صوره، عبر سائر تراب القطر، واحترام شخصية الفرد، تمثل جميعا أشكالا مختلفة للمساعدة التي يريدها، ويقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي إليه¹. ومتى تمت هذه المساعدة للإنسان، بتفعيل المؤسسات، تم بناء الإنسان الرسالي المتوازن، وتجاوز إنسان المتتصف في كل شيء، وما يترتب عليه من تغيير إيجابي شامل. في مقدمتها بناء الإنسان.

4. استعادة المفهوم الصحيح للإسلام الذي يتكامل مع الإنسان والزمن والتراب:

إن ما نحتاج إليه كمرتكز أساس في عملية التنمية الاجتماعية الشاملة، مركز الإسلام في جميع أبعاده كمصدر للعقيدة، والأخلاق، ومعيار للسلوك، يحمله الإنسان ليتكامل به مع الزمن والتراب. (كان كتاب "شروط النهضة" يمثل أول جهد لعقل مسلم يستعيد (للإسلام) معناه التاريخي؛ لأن الإسلام يتكامل ضمنه مع تركيب متآلف وأساسي للإنسان والتراب والزمن)².

5. الاستغلال الأمثل للوقت:

(ليس من الضروري ولا من الممكن، أن يكون لمجتمع فقير، المليارات من الذهب كي ينهض، وإنما ينهض بالرصيد الذي لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئا، الرصيد الذي وضعته العناية الإلهية بين يديه: الإنسان، والتراب، والوقت)³. ومتى أحسن الإنسان استغلال الوقت، أنجز خطوات عملاقة في مجال التنمية الشاملة بما فيها التنمية الاجتماعية.

6. البعد الأخلاقي لأي تغيير في كل المجالات:

رغم أهمية العلم عند ابن نبي، ولكن يجب أن يكون مرفوقا بالأخلاق في كل

¹. القضايا الكبرى، م.س، ص 43.

². المرجع نفسه، ص 23.

³. بين التيه والرشاد، م.س، ص 69.

المجالات، ولا سيما في المجال الاقتصادي. (فالعلم إذا تجرد من الأخلاق، فإنه يُجَرّ حتماً إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق، سواء ذلك في الإطار الوطني أو الإطار الدولي)¹.

والأخلاق يحتاج إليها الإنسان في كل المجالات، ليس فقط في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية، بل في السياسة وفي كل المجالات (فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية معينة، يبقى الاقتصاد وفيها للمبادئ ذاتها)².

7. التكامل بين الأصالة وما توصلت إليها البشرية في المجال الحضاري:

يرى ابن نبي رحمه الله أن التنمية الاجتماعية، هي فعل حضاري يقوم على الأصالة بالدرجة الأولى، مع الاستفادة مما عند الآخر.

(الحضارة ليست شيئاً يأتي به سائح في حقبة لبلد متخلف، بل إن ابن المستعمرات هو الذي يذهب إلى الحضارة، إلى مصادرها البعيدة، وقبل كل شيء إلى مصادرها الأقرب من أصلاته)³.

8. الجهد المبذول بمضمون أخلاقي جمالي علمي:

لا يمكن أن تتحقق التنمية الاجتماعية أو أي فعل حضاري بالكسل، وبالنية فقط، بل لا بد من جهد مع مضمون أخلاقي جمالي علمي يظهر في سلوك الجميع.

(ليست الحضارة في النية... بل هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضر، وفي إرادة هذا الشعب إزاء الحضارة، أي عندما يضع في كل تفصيل من حياته مضمونه الأخلاقي والجمالي والعلمي، حتى يكون هذا التفصيل كأنه خطوة نحو التقدم)⁴.

1. المرجع السابق، ص. 75.

2. بين التيه والرشاد مرجع سابق، ص. 75.

3. في مهبط المعركة، مرجع سابق، ص. 126.

4. المرجع نفسه، ص. 126.

والعكس تماما، فإن الخمول أو غياب المضمون الأخلاقي، كلاهما مدمر. (... الشخص الطيب المتسامح، الذي وجد نفسه متقادا في حركة لا يستطيع السير فيها، يزرع فيها الخلل بخموله، ويعيق فيها منهاج النشاط العام)¹.

9 التحرر من القابلية للاستعمار:

التحرر من القابلية للاستعمار من المواضيع الرئيسية التي أسالت الكثير من الحبر في فكر مالك بن نبي، لخطورة الاستعمار في كل المجالات.

(من واجب المسلمين أن يتنبهوا إلى أن الاستعمار هو مجرد بذرة صغيرة حقيرة، ما كان لها أن تنبت وتؤتي أكلها، لو لم تهبأ لها التربة الخصبة في عقولنا ونفوسنا)². وهذه التربة الخصبة في عقولنا ونفوسنا هي القابلية للاستعمار، (فقد ولدت أجيال جزائرية عديدة وسط الضباب الذي يُغشي المجتمعات... وداخل الضباب يكون من العسير على الإنسان أن يشق له طريقا معينا... الأمر الذي يفضي إلى تقوض شبكة الصلات الاجتماعية... والجزائري الذي وُلد ضمن هذه الشروط... كائن معزول عن جماعة وضعت على هامش التاريخ من جراء القابلية للاستعمار)³.

وما لم نتحرر من القابلية للاستعمار فلن نتقدم في أي مجال من المجالات. بما فيها التنمية الاجتماعية، (فتورة ما، لا تستطيع بناء وضع جديد والحفاظ على مكتسباتها، إلا إذا كان أثره في تصفية الاستعمار فعالا، في تصفية الإنسان من القابلية للاستعمار)⁴.

ثالثا/ مجالات التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي:

إن التنمية الاجتماعية عند مالك تشمل كل المجالات، ولو اكتفينا باستعراض أربعة عناوين من كتبه فقط، لكان ذلك دليلا كافيا على تلك الشمولية، التي كان

¹. من أجل التغيير، م.س، ص. 112.

². مجالس دمشق، م.س، ص. 54.

³. القضايا الكبرى، م.س، ص. 31.

⁴. بين الرشاد والتهيه، م.س، ص. 51.

ينظر بها ابن نبي للمجال الاجتماعي، في علاج أمراض الأمة واستنهاضها من كبوتها لتدخل مرة أخرى في دورة حضارية جديدة، وتلك العناوين هي: (الظاهرة القرآنية)، و(مشكلة الثقافة)، و(شروط النهضة)، و(المسلم في علم الاقتصاد).

ومعلوم أن الظاهرة هي تفاعل اجتماعي، والقرآن أنزله الله ليقرأ ويُتدبر ويُفهم، ليتفاعل به الناس مع بعضهم البعض، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأما الثقافة فهي من الاتساع، بحيث تَمَسُّ كل الميادين التي يكتسبها الإنسان في كل مساحاته الفردية والاجتماعية، التي تظهر في تفاعلاته الاجتماعية في كل المجالات: العلمية والتربوية والدينية والأخلاقية والسلوكية والاقتصادية وغيرها.

في حين (شروط النهضة) لن تكون بدون علم ووعي بما يحيط بالإنسان من أفكار على أنواعها، والصراع الفكري، ومكائد الاستعمار. الاستعمار. والتمكن من عالم الأشياء وتجاوز اللافعالية إلى الفعالية المطلوبة واستغلال الوقت والتراب، على الوجه الأكمل... الخ.

(المسلم في عالم الاقتصاد) وما يفيد من آليات الاقتصاد من علم ومهارة وسلوك اقتصادي، ثم الاقتصاد هو شريان الحياة في علاقات الناس، وتشمل كل ضرورياتهم وحاجياتهم وتحسيناتهم، وهي كلها علاقات اجتماعية.

ولم يكتفِ ابن نبي بتلك الإشارات الاجتماعية التي تعبر عنها عناوين كتبه المختلفة، دون النظر إلى محتواها، فقد نبه لكل السلوكات الاجتماعية السلبية التي تطبع الأمة الإسلامية كظواهر اجتماعية، على أمة الإسلام أن تتخلى عنها من أجل النهوض والتحضر، بتجاوز الوهن والخمود الديني، والجهل بالإسلام، والأمراض الموروثة، وروح الهزيمة والسلبية في التفاعل مع عناصر الحضارة، بعدم تحمل المسؤولية، وغياب رؤية اقتصادية سليمة تتماشى مع واقعنا وأصالتنا وإمكاناتنا، والقيام بالواجبات بدلا من التركيز على المطالبة بالحقوق فقط، واكتساب معيار اجتماعي صحيح، يوجه سلوكنا الجمعي لتجاوز التقليد والفوضى الشاملة،

والانتقال من التكديس، إلى التمثيل والبناء الحضاري، ولن يتحقق للأمة ذلك إلا بالوعي اللازم لمعرفة مكائد الاستعمار والصراع الفكري، واكتساب القيم والأخلاق، للخروج من الأمية السياسية للأمة، وتجاوز الانغماس في الشهوات التي استثمر فيها محتل الأمس لتدمير الأمة وإبقائها متخلفة لاهثة وراء الشهوات والغرائز. والبحث عن الحلول الصحيحة لمشاكلنا، التي أساسها إنسان النصف في كل شيء، ومن ثم ضرورة تفعيل العقيدة الدينية وقيم الأصالة مع الاستفادة من إيجابيات الآخرين، لبناء إنسان الثقافة والنهوض والتحضر، وهي كلها مجالات اجتماعية، من أجل التغيير الشامل في كل المجالات. فالتنمية الاجتماعية كل لا يتجزأ (فالعهد الجديد حين يتأسس تحت إشراف دولة، ينبغي ألا يكون مجرد إعلان للسيادة الوطنية مسجلاً في السطور الأولى للدستور، بل ينبغي أن يكون أداة ضرورية لتنمية هذه السيادة في كل أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية)¹.

والتحذير من تجزئة مجالات الكفاح، وهو بذل أقصى الجهد في مختلف المجالات، وما ينجم عنه من تنمية شاملة، وعدم تجزئتها ف (المعركة تصاب بالتدهور والانحطاط الإيديولوجي حالما تحتل فيها وحدات كفاح جزئية مكان وحدة الكفاح الشاملة، وحالما يحدث هذا الانحطاط أو الهبوط في المستوى الروحي... يؤدي حتماً إلى التدهور السياسي)².

المحور الرابع / النتائج المتوصل إليها:

توصلت الدراسة للنتائج التالية:

1. الظاهرة الاجتماعية هي أساس وروح المجتمع، لكونها تمس كل التفاعلات الاجتماعية.

2. التنمية الاجتماعية هي عملية شاملة، متكاملة، مدروسة، هدفها الرقي لكل

¹. بين الرشاد والتهيه، م.س، ص.40.

². الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، م.س، ص.42.

جوانب الحياة في المجتمع، وأساسها والمستفيد منها هو الإنسان.

3. شبكة العلاقات الاجتماعية هي الثمرة العملية التطبيقية للظاهرة الاجتماعية سلبا أو إيجابا، وهي التي تتحكم في صيرورة المجتمع، كونها تربط بين عوالم الأشخاص والأفكار والأشياء.

4. كل ما يثبط ويمنع التنمية الاجتماعية فهو عائق، وكل ما يدفع بها للعدل والرضى والتوازن ومن ثم القوة والاستمرارية والديمومة فهو مرتكز.

5. حسب ابن نبي . رحمه الله . مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، مكبلة بكم هائل من العوائق، تمنعها من الوعي والفهم لما يحيط بها من أخطار، ومن التصرف الصحيح، والنهوض والنمو الشامل والتقدم والتحضر، وأساس تلك العوائق هو الإنسان في صورة من الصور، (بسبب أمراضه الموروثة، وجهله، وعدم ضبط غرائزه، ولاختياره لحلول مستوردة خاطئة، ولقلة وعيه فهو ضحية للصراع بكل أشكاله، وتخطيط الآخر مستعمرا قديما أو غزوه الثقافي الجديد.

6. أيضا حسب ابن نبي لتحقيق النهضة والتقدم والتحضر وهي كلها تدخل ضمن التنمية الاجتماعية، لا بد من بناء الإنسان على منظومة من المرتكزات أساسها الفكرة الدينية الصحيحة، وما تقدمه من معايير صحيحة في مجالات العلم، والوعي، والأخلاق، وضبط الغرائز، والتوجيه السليم للسلوك، وتحديد سلم الأولويات، والاستغلال الأمثل للوقت والموارد، والتحرر من القابلية للاستعمار، والشمولية في مجالات التنمية.

قائمة المراجع والمصادر

1. ابن نبي مالك: ميلاد مجتمع، ج 1 - شبكة العلاقات الاجتماعية. ط. 10، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر، 2015.

2. - /// : /// : القضايا الكبرى، ط. 12، دمشق، دار الفكر، 2015.

3. - /// : /// : فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة الطيب الشريف، ط. 12، دمشق، دار الفكر،

2016.

4. - /// : /// شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دمشق، دار الفكر، دون تاريخ.

5. - /// : /// وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، منشورات AN P، 1981.

6. - /// : /// تأملات، بيروت، دار الفكر، 1979.

7. - /// : /// من أجل التغيير: سوريا، دار الفكر، 1995.

8. - /// : /// الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ط. 12، دمشق، دار الفكر، 2016.

9. - /// : /// في مهب المعركة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 12، دمشق، دار الفكر، 2016.

10. - /// : /// مجالس دمشق، ط. 5، دمشق، دار الفكر، 2015.

11. - /// : /// بين الرشاد والتهيه، ط. 12، دمشق، دار الفكر، 2016.

12. - /// : /// دوركايم إميل: قواعد المنهج في علم الاجتماع، بيروت، موفم للنشر، 2009.

13. - حامد عمار: دراسات في التربية والثقافة، مصر، مكتبة الدار العربية للكتاب، 1988.

14. - الحكيم منذر: النظرية الاجتماعية الإسلامية، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، 2008.

الحاسة الاجتماعية في فكر مالك بن نبي "تشكلها وانفراطها"

أ.التهامي مجوري

رئيس مؤسسة ميلاد العلمية الثقافية (الجزائر)

raistahrir@gmail.com

مقدمة

المعروف عن الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله كمفكر، أنه لم يكن متخصصا في أي فرع من فروع العلوم الإنسانية، فلم يكن عالم نفس، ولا عالم اجتماع، ولا عالم تربية، ولا عالم سياسية أو اقتصاد أو غير ذلك من العلوم الإنسانية... وإنما بحكم اهتمامه المركز بفلسفة التاريخ والحضارة، وانشغاله المستمر بالبحث في أسباب انهيار حضارة أمته، فقد خاض في كل هذه العلوم ووظفها في أبحاثه ودراساته في إطار تكاملي، بحيث بدت هذه العلوم كلها في دراساته وأبحاثه، بما في ذلك العلوم الدقيقة التي هي من تخصصه، وكأنها تمثل وحدة متكاملة خادمة لبعضها البعض، لا تقبل الانفكاك عن بعضها؛ بل ليست مستقلة عن بعضها؛ لأن استقلالها عن بعضها البعض فيما يظهر من دراساته مضرّ بها جميعا.

ذلك أن الأستاذ مالك بن نبي، يتعامل مع العلوم الإنسانية كتعامله مع العلوم الطبيعية، ويفترض دائما أن لها قوانين ناظمة لها وثوابت ومتغيرات، كغيرها من العلوم الدقيقة، بوصفها علوما حاکمة على واقع الناس، مثلما تحكم قوانين الفيزياء عالمهم المادي.

ومصطلح "الحاسة الاجتماعية" الذي تحاول هذه الورقة دراسته من خلال وضعه في سياقاته، والمعاني التي يشتغل عليها الأستاذ مالك بن نبي، يعدّ من المصطلحات اللافتة؛ لكونه مصطلحا غير متداول بين أهل الاختصاص بهذا

اللفظ. ربما توجد عبارات أخرى وضعت لمضامينه المفترضة، ولكن لا أظنها تكون معبرة عن المحتوى الذي خصصه الأستاذ لهذا المصطلح أو خص هذا المصطلح به. فمصطلح القابلية للاستعمار الذي وضعه مالك بن نبي في أربعينيات القرن العشرين، للتعبير عن النفسية المسوخة حضارياً مثلاً، كان يمكن أن يحل محله لفظ الهزيمة، أو الشعور بالدونية، أو الشعور بالنقص، أو مطلق التخلف... كل هذه العبارات أطلقت قبله، وعبر بها الناس عن واقع المجتمع الإسلامي بعد سقوط حضارته، ولكن عندما نقارن كل تلك العبارات بمصطلح القابلية للاستعمار، لا نجد لها القوة والدقة التي لمصطلح القابلية للاستعمار؛ لما له من شمول ودقة في الوصف للتعبير عن الحالة النفسية لذلك المجتمع المهزوم الذي أطلق عليه مصطلح: "مجتمع ما بعد الموحدين"، أما التعبيرات الأخرى فهي نتائج وأعراض لأصل المشكلة، وليست المشكلة في حد ذاتها، وهي الحالة التي يتميز بها كل من فقد مبررات سيادته ومبررات وجوده، بحيث لا يسعه إلا الخنوع والخضوع لمن يتمتع بمبررات السيادة والوجود والبقاء؛ لأن "التاريخ يقرر أن الشعب الذي لم يقيم برسالته، أي بدوره في تلك السلسلة، ما عليه إلا أن يخضع ويذل".¹

ولعل مصطلح القابلية للاستعمار هذا التعبير الدقيق المعبر عن الغنائية التي تحدث عنها النبي ﷺ في حديث القصعة: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن؟ يا رسول الله؟ قال: حُبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت"²، وما الوهن إلا الحالة النفسية التي يفقد فيها الإنسان مقومات البقاء الحقيقية المتمثلة في التضحية والصبر والصمود والمقاومة، متعلقاً بأوهام

¹ - انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 20، نر: عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986.

² - انظر: ابن الأثير، جامع الأصول، رواد أبو داود عن ثوبان رقم 7481.

البقاء بالتعلق بالدنيا ورفض الموت رغم أنها نهاية كل حي.

لقد ورد لفظ "الحاسة الاجتماعية" في كتاب شروط النهضة، في معرض الكلام عن بدايات حركة الإصلاح وأثرها في المجتمع الجزائري وذلك في قوله: "رجوع الحاسة الاجتماعية إلى الجزائر، بمعنى أنها قد عادت إلى الحياة التي يستأنف فيها كل شعب رسالته، ويبدأ تاريخه"¹. كما ورد لفظ "الحس الاجتماعي" في مذكرات شاهد القرن في معرض كلامه عن مراسلات كانت بينه وبين شخص آخر، حيث قال: "ولكنني اليوم أسأل نفسي لماذا لم يتسلح بشيء من الدعاية أو الحس الاجتماعي ليجيني على رسالتي"². أي لم يتحل بالقيمة الأخلاقية الاجتماعية التي تليق بهذه الحالة.

وفي كلا الموضوعين يعبر اللفظ "حاسة وحس" عن حالة نفسية اجتماعية معينة، أو عن قيمة جماعية، يكون عليها المجتمع عندما يرتقي إلى مستوى الشعور بضرورة النهضة، أو بالحاجة إلى ذلك، أو عندما يحس بأن هناك مشكلة تعوقه في حياته، مثل العرف العام أو القانون أو الحالة التي تفرض نفسها كقضية جارية ومطردة، وقضية إيجابية وليست سلبية، تعبر عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع بطبيعته البشرية الإيجابية.

وهو ما تحاول الورقة بحثه وعرضه وفق خطة البحث التالية:

- تعريف الحاسة الاجتماعية.
- مواصفات الحاسة الاجتماعية.
- مكونات الحاسة الاجتماعية.
- حول مكونات الحاسة الاجتماعية.
- متى يفقد المجتمع حاسته؟

¹ - انظر: مالك بن نبي، المرجع السابق ص 23.

² - انظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ص 139، ط دار الفكر، سنة 1984.

تعريف الحاسة الاجتماعية

الحاسة في لغة العرب¹: هي القوة التي بها تدرك الأعراض الحسية. والحواس: المشاعر الخمس. وحسست نحو علمت وفهمت، لكن لا يقال ذلك إلا فيما كان من جهة الحاسة، وكما قال ابن الأثير، الإحساس: العلم بالحواس، وأحس الرجل الشيء إحساساً علم به، وأحسست أدركت بحاستي، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ﴾ [مريم/98]، أي: هل تجد بحاستك أحدا منهم؟ وعبر عن الحركة بالحسّ والحس، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء/102]، والحسّ هو الصوت الخفي. وَأَحَسَسْتُ بِالشَّيْءِ: شَعَرْتُ بِهِ، وَمَا أَحَسَسْتُ بِالْخَبَرِ، لَمْ أَعْرِفْ مِنْهُ شَيْئًا. وَقِيلَ أَحَسَسْتُ: أَيِ ظَنَنْتُ وَوَجَدْتُ. وَتَحَسَّسَ الْخَبَرَ: تَطَلَّعَ وَتَبَحَّثَهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿يَا بَنِي إِذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف/87]. وَقَالَ أَبُو مُعَاذٍ: التَّحَسُّسُ شَبْهُ التَّسْمَعِ وَالتَّبَصُّرِ؛ قَالَ: وَالتَّجَسُّسُ، بِالْجِيمِ، الْبَحْثُ عَنِ الْعُورَةِ.

ومدار اللفظ "حس وحاسة"، على جملة من وسائل الإدراك المختلفة، وهي مدارك حسية ومعنوية. أما المدارك الحسية فهي الحواس الخمس: حواس اللمس والشم والطعم والبصر والسمع. أما المدارك المعنوية فهي الأحاسيس الداخلية للإنسان، وقد عرفت عن البعض بالحاسة السادسة، التي كثيرا ما تطلق على المدركات غير العادية ومنها الأمور التي تباغتنا "حينما نتعرض للخطر، وهو ظهور فجائي لقوة خارقة تقذف بنا بعيداً عن مكنن الخطر، هذا الأمر يعطي مدلولاً ثابتاً ألا وهو أن بداخلنا قوة خارقة لا تظهر إلا عند الخطر... هذه القوى التي تنشط وتُحمد حسب مقتضيات الانفعالات والتفاعلات الطارئة"².

¹ - انظر: الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة: ح س.

² - د. محمد السقا عيد بتاريخ 2013/9/12م.

وعالم المدركات غير الحسية واسع جدا، ومعروف في كثير من الأمور التي يشاهدها الناس، مثل التخاطر، و(التلباثي)، والفراسة، وهي من المشاهدات التي لا تخضع لضابط معين، لوجودها عند بعض الناس، وغير موجودة عند آخرين، والموجودة عندهم متفاوتون في ذلك، فهي قوية عند بعضهم وضعيفة عند آخرين، ولعل الحديث النبوي الشهير: "الأرواح جنود مجنونة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"¹، يدخل في هذا النوع من الأحاسيس التي يصعب فهمها وتفسيرها.

والحاسة الاجتماعية أو الحس الاجتماعي غير هذا بلا شك؛ لأن ذلك هو معنى الحاسة عند الفرد، أما الحاسة عند المجتمع فأمر مختلف، إذ لا توجد حاجة تسمى الحاسة في المجتمع، مثل الحواس الخمس عند الأفراد، وكذلك لا توجد حاسة داخلية كما هي عند الأفراد تعبر عن شعور ما، ككتلة واحدة تعبر عن شيء ما بنفس المجتمع، إنما هي جملة من الأحاسيس والمدركات موزعة على الأفراد، تشكل عند الجماعة في ظل فكرة جامعة تتحول إلى ثقافة دارجة بين الناس، فتعبر عن معنى معين يتبناه المجتمع ككل، بما يشبه الحدس عند الفرد، يدرك به المجتمع ما ينقصه وما يريد الوصول إليه، وما ينبغي أن يكون عليه، بل يزرع فيه ما يشبه قرون الاستشعار التي تعصمه من المخاطر والمخالفات.

ذلك ما فهمناه من مصطلح "الحاسة الاجتماعية" في فكر مالك بن نبي، الذي يتحسس القوانين الاجتماعية ويتلمسها في سلوكات الأفراد، ويحاول إعمالها في حركة المجتمع، مثلما فعل في تحديد عمر المجتمع ومستواه الفكري، من خلال المراحل العمرية التي يمر بها الأفراد وانعكاساتها على الواقع.

فالطفل عندما يفتح عينيه، يجد نفسه محاطا بعوالم لا تعني له شيئا ابتداء، ولكنه يندمج فيها شيئا فشيئا. فيده ومصاصته وثندي أمه لا يعني له كل ذلك، إلا أنها

¹ - انظر: ابن الأثير، المرجع السابق، رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رقم 4790.

أشياء يعبث بها...، وبعد فترة يبدأ في التعرف على الوجوه التي تحيط به، فيتعرف أمه ووالده وإخوته ويفرق بينهم، وهنا يكون قد خطا خطوة في الانتقال من عالم الأشياء إلى عالم الأشخاص، وفي الخطوة الثالثة بعد مدة أيضا، يبدأ في التعرف على عالم ثالث وهو عالم الأفكار، عندما يدخل المدرسة فيرتقي إلى مستوى عالم المعاني¹. فهذه العوالم الثلاثة هي التي تصنع في الفرد الكتلة النفسية الاجتماعية التي سيتفاعل بها مع الواقع.

والمجتمع أيضا يمرّ بهذه المراحل في نموه الفكري، ففي حالة التخلف يكون المجتمع في مرحلة الطفولة التي يتعلق فيها بالأشياء؛ فيعبر عن الأمور كلّها بالأشياء مدحا وذما، بمدح الأموال والممتلكات والمناصب، بوصفها القيم التي تمثل الفضائل في الحياة ويُتَحاكم إليها، ويذم مضاداتها، ثم في مرحلة أرقى يتحول إلى قياس الأمور بالأشخاص، فيشني على الأغنياء ويقلد أهل المناصب والمكاسب، ويمدح هذا ويستشهد بقول هذا ويتحدث عن ذاك؛ لأن المقياس هنا ترقى قليلا فتحول من الاستشهاد بالأشياء إلى الاستشهاد بالنماذج والقذوات من الأشخاص، وفي مرحلة أرقى يتحول إلى التحاكم إلى الأفكار، فيُخضع كل شيء إلى الفكر ومقرراته، وهي المرتبة الأفضل والأنسب للإنسان السوي، وعند اكتمال هذه الصور الثلاث، فيما يشبه العملية التراكمية التي تندمج فيما بينها في إطار هذه العوالم الثلاثة، تولد الحاسة الاجتماعية؛ لأن مجرد وصول المجتمع إلى مرتبة عالم الأفكار، يكون قد هضم المرحلتين السابقتين واستفاد منهما، بالقدر الذي مكنه من الانتقال إلى عالم الأفكار، أو هكذا يفترض.

ثم إن تصرفات الأفراد في المجتمع، تصنعها ثوابت المجتمع؛ لأن عوالم الأفكار والأشخاص والأشياء "تتعايش طوال حياة الإنسان جنبا إلى جنب مع تفوق أحدها

¹ - انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، 29 بتصرف، ط دار الفكر، سنة 1988.

تبعاً للفرد ولنموذج المجتمع الذي يندمج فيه. وفي المجتمع الذي يدور فيه عالم الأفكار حول محور الأشياء تأخذ الميول الفردية الوجهة ذاتها. ولقد سأل بن نبي طفلاً في إحدى البلاد العربية ماذا يعطونكم في المدرسة؟ فأجاب الطفل بعفوية يعطوننا بسكويت؛ لأن معنى (أعطى) عند الطفل مرتبط بعالم الأشياء¹.

ولصعوبة وضع تعريف لهذا المصطلح ابتداء، نرى من الضروري استحضار صورة عن مواصفات هذه الحاسة، وكيف تتشكل في المجتمعات ويخضع لها الأفراد؟ لأنها بالتأكيد ليست حواساً كالتي عند الأفراد، ولكنها في نفس الوقت موجودة في المجتمع، بالمعنى المعبر عن حالة الحاسة عند الفرد، والشاهد على ذلك المجتمعات المتحضرة وانضباطها وخضوعها لمقررات مؤسساتها. ثم كيف تتفاعل العناصر المكونة لها فيما بينها؟

مواصفات الحاسة الاجتماعية:

إن أول مظاهر الحاسة الاجتماعية، هي عندما ينتقل الفرد من فرديته وأنانيته إلى التعبير عن المجتمع في سلوكاته وآرائه ومواقفه؛ لأن بداية التغيير الاجتماعي هي عندما يتحول الفرد من كونه (فرداً) "Individu" إلى أن يصبح (شخصاً) "Personne"، وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع²، أي عندما يعود الإنسان إلى طبيعته المسؤولة التي ينبغي أن يكون عليها وهي العودة إلى الجماعة، وبناء شبكة علاقاتها: أشخاصاً وأفكاراً وأشياء، إذ "المعلوم أن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات؛ لأن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"³، و"هذه العلاقات الخاصة بعالم "الأشخاص" هي التي تقدم الروابط الضرورية بين

¹ - انظر: المرجع السابق، ص 34.

² - انظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصابور شاهين، 31 بتصرف، ط دار الفكر، سنة 1986.

³ - انظر: المرجع نفسه 28 بتصرف.

الأفكار والأشياء، في نطاق النشاط المشترك الذي يقوم به مجتمع ما. واجتماع الأشخاص في أي ظرف وفي أي مكان، هو التعبير المرئي عن هذه العلاقات في شكل هيئة تظاهرة، أو مدرسة، أو جيش، أو مصنع، أو نقابة، أو سينما...، هو تعبير عن شبكة هذه العلاقات في صور مختلفة. فالاجتماع الذي يتمثل فيه أول عمل يؤديه ترجمة صادقة وقوية عن شبكة علاقاته.... ومجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية... إلخ، وكل ما يكون صلة من أي نوع في نطاق العوالم الثلاثة: عوالم: الأشخاص والأفكار والأشياء، أو بينها، هو في الحقيقة علاقة مشروطة بوجود ثقافة¹.

إن الإنسان كائن اجتماعي وليس كائنا فرديا، واجتماعيته ليست خيارا، وإنما هي فطرة وطبيعة خلقية وضرورة اجتماعية، إذ "لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة وهي معنى العمران؛ لأن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة، لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرصة وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة، يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري"²، بحيث يتعذر على الفرد أن يعيش بمفرده، وذلك ملاحظ في الطبيعة التراحمية لوحدة ونظام الأسرة، الذي لا يزال قائما بأبعاده الاجتماعية في المجتمعات المحافظة خاصة، وكذلك في المجتمعات المتحضرة التي تقدم من الضمانات الاجتماعية لأفرادها؛ بل إن الفردية تمثل انحرافا عن الطبيعة البشرية، ونزوعا نحو الحيوانية، بسبب ما يتعطل من مصالح الناس بسبب انعزالهم عن بعضهم البعض، وابتعادهم عن روح الجماعة.

¹ - انظر: مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 33

² - انظر: مقدمة ابن خلدون.

والحاسة الاجتماعية إنما تُرى أدواتها وآثارها في الواقع، مثلما ترى الحواس الخمس وما تحسه: اليد والعين والأنف واللسان والأذن ومدرجاتها. وأدوات الحاسة الاجتماعية في المجتمعات تظهر في تماسك اجتماعي، وحراك شعبي عريض، ويقتطع جماعية، وفي شكل حالة تفاعلية تعم غالب المجتمع أو كله، وكما جاء في الحديث النبوي "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ: مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ: تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"¹، وقوله "المؤمن للمؤمن كالبنیان يُشَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا"²، أو في تعبير عن بؤادر نهضة، كما كان الحال في بداية النهضة الإصلاحية في الجزائر سنة 1925 حيث "تحولت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب... لقد انطلقت الأفكار، ثم تلاقت وتصارعت، فكانت أحيانا تنفجر مثل فقائيق الهواء على سطح (الغلاية)... في صورة مدرسة، أو مسجد، أو مؤسسة إصلاحية، وظهرت النظريات الاجتماعية التي كانت يومئذ رائجة في سوق الأفكار، ظهرت هذه النظريات في أفكار الشباب المتطلعين إلى كل تجديد، فهذا يرنو إلى المذهب الكمالي، وذاك يأخذ بالمذهب الوهابي، وذلك ينزع إلى التمدن الغربي، ومنهم من انحدر بفكره إلى مذهب المادة"³.

وروح الجماعة التي تقتضيها الحاسة الاجتماعية، وجود الشعور الجماعي بما يهدده وما يرقى المجتمعات، بحيث يتمكن المجتمع من تحاشي ما يهدده، ومن التمسك بما يرقيه.

ومثلما للأفراد حواس خمس يدرك بها الأشياء، لمسا ورؤية وشما وذوقا وسمعا، فإن للمجتمع ذلك الشعور هو الذي يمثل الحاسة أو الحواس التي يدرك بها الأشياء، حركة وانتعاشا وتفاعلا مع الطبيعة والمحيط، جلبا للمصالح درأ للمفاسد.

¹ - انظر: ابن الأثير، جامع الأصول، رواه البخاري ومسلم عن العمان بن بشير رقم 4771.

² - انظر: ابن الأثير، المرجع نفسه، رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رقم 4796.

³ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 24، نر: عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986.

إن الحاسة الاجتماعية، مثل قرن الاستشعار، يدرك بها المجتمع كل ما يرقيه ويرفعه إلى المعالي فيتعلق به، وكل ما يثنيه ويشد من عزمه ليتحاشاه ويتجنبه، وهي من مكتسبات المجتمعات المتحركة، أما المجتمعات الراكدة فلا تمتلك هذه الحاسة، بسبب ما يهemin عليها من هزائم نفسية تشدها إلى القعود والركود والكسل واللافاعلية.

والحاسة للمجتمع ليست ثابتة وعلى درجة واحدة دائماً، وإنما ترتفع وتنزل بقدر فاعلية والمجتمع وركوده، مثل نشاط مدركات الفرد تماماً، بعضها ينشط وبعضها يتعطل...، ولذلك كان التخلف والتقاعس، وتخلي المجتمعات عن دورها في الحياة، نتيجة فقدانها للحاسة الاجتماعية، أو هي سبب في فقدانها؛ لأن الحاسة الاجتماعية، مثلما هي آلة استشعار للكشف عن بعض الأمور في المجتمعات، هي في نفس الوقت ثمرة لحركة المجتمع في الاتجاه الصحيح.

مكونات الحاسة الاجتماعية:

تتكون الحاسة الاجتماعية بوصفها حالة اجتماعية، تنبئ برجوع المجتمع -أي مجتمع- إلى طبيعته التي ينبغي أن يكون عليها، إلى جملة من المكونات تتشكل ككتلة نفسية اجتماعية واحدة.

ولكن قبل أن تتشكل هذه الكتلة، يمر المجتمع بمراحل -متسارعة أو بطيئة، بالكثير من التحولات الضرورية، في إطار منهجية الجمع بين عوامل: الأشخاص والأفكار والأشياء، ومعرفتها ووضعها في موقعها من الفعل الحضاري، ونقلها من الشعور الفردي إلى الحاسة الجماعية، وقبل ذلك معرفة المرحلة التاريخية للمجتمع وموقعه من دورة الحضارة، حيث أن مجتمع ما قبل الحضارة مجتمع بدائي، لا يزال على الفطرة ومستعد للاندماج في أي فكرة تطراً عليه، كما يتميز بالفقر والحاجة إلى أبسط الوسائل، يختلف في خصائصه عن مجتمع ما بعد الحضارة، وهو المجتمع التي كان في حضارة، ولكنها أَفَلَتْ لفقدانها مبررات البقاء، الذي ربما امتلك الوسائل، ولكنه يحتاج

إلى جهد أكبر لإفراغه من حالته الغشائية ليتقبل الفكرة الجديدة¹. ويتخلل ذلك تفاصيل جزئية ذات أهمية، وهي الملمة شتات المجتمع وقيمه الفاضلة ومراجعته والفصل ما بين ذلك من نقائص واستبعاد النقائص والمثبطات منها... إلخ.

ثم إن آليات المجتمع التي تتكون منها الحاسة الاجتماعية، ليست مختلفة من مجتمع لآخر، وإنما هي عامة للمجتمع الإنساني، بقطع النظر عن خلفياته الدينية والثقافية والعرقية والسياسية؛ لأن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"²، من حيث أن القوانين التي تحكم الإنسان واحدة، لا تختلف من شعب لآخر ومن مجتمع لآخر، مع خصوصيات نلمسها في التفاصيل الجزئية لكل شعب أو لكل مجتمع. فعندما نتكلم عن الدين فهو ظاهرة كونية لا بد منه لكل إنسان، لكن هل الدين هذا المجتمع سماوي أم وضعي؟ أو هو إسلام أم نصرانية أم يهودية؟ فأمر آخر.

وعندما نتعرف على مدى علاقة المجتمع بأشخاصه وأفكاره وأشياءه، وتحديد موقعه التاريخي من دورة الحضارة، ننتقل إلى العناصر التي تتشكل منها الحاسة الاجتماعية، وهي كثيرة ولكن يمكن حصرها في ثلاثة عناصر أساسية وهي: الفكرة، والطاقة الحيوية، والمثل الأعلى.

أما الفكرة فلكونها النواة التي عليها مدار حركة المجتمع. وأما الطاقة الحيوية، فهي ما يصرف المجتمع من جهد وحركة وعلاقات في سبيل تجسيد الفكرة والوصول إلى المثل الأعلى القائم في مخيلة الجماعة. وأما المثل الأعلى فهو الرؤية التي يبني عليها المجتمع نشاطه والغاية التي يسعى إلى تحقيقها.

¹ - انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، ص 8-9، ط دار الفكر، سنة 1988

² - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 19، تر: عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986

-الفكرة:

نقصد بالفكرة هنا الصورة الذهنية المدركة للحقائق والغايات التي يراد الوصول إليها من قبل المجتمع، ومُثَلَّة لِمُسَوِّغَاتِهَا، ولأنماطها التنفيذية التي تَلَخَّصُ التقدم الاجتماعي والتقني، بما يُميِّز المجتمع عن غيره من المجتمعات؛ وقد عبر عنها ماركس بقوله: "إن ما يميز أسوأ مهندس معمار عن أمهر نَحْلَةٍ هو أنَّ المهندس يبني الخليَّة في رأسه قبل أن يبنِيها في الفقير، وأن العمل ينتهي إلى نتيجة موجودة مسبقاً فكرياً في خيال العامل"¹، من حيث أن الفكرة هي نتاج عملية الفكر الذي هو حصيلة "حركة عقلية بين المعلوم والمجهول، وترتيب بعض المعلوم للوصول إلى غير المعلوم"².

والفكرة من حيث هي، في إطارها الوظيفي في المجتمع، تمثل كائناً حيويًا له وحدة عضوية لا تقبل الزيادة ولا النقصان، إلا بطرء مؤثرات فيها وفيما يحيط بها من خارجها زمانا ومكانا وحالا³، أما من جهة علاقتها بأفراد المجتمع، فهي عنصر أساس في إنشاء شبكة العلاقات الاجتماعية، وذلك لصلتها الوثيقة بعالمي الأشخاص والأشياء.

فالفكرة لا قيمة لها إذا لم يكن لها أشخاص يتبنونها وينفذونها، ولها قدر من الأدوات والوسائل -أشياء- لتنفيذها، وكذلك هي مكون أساس للحاسة الاجتماعية نفسها، إلى جانب الطاقة الحيوية، والمثل الأعلى، فلا طريق للمثل الأعلى إلا بعلاقة وثيقة ومتوازنة بين الفكرة والطاقة الحيوية. وهي في نفس الوقت معدة

¹ - انظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة واحد شعبو، ص 27-28، ط دار الفكر، سنة 1988

² - انظر: التهامي مجوري، عالم الفكر، مخطوط

³ - انظر: مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص 125، ط دار الفكر سنة 1981

للتحول إلى قيم اجتماعية، وسلوكيات لأفراد المجتمع، وواقع ملموس في محيطه¹، عبر منتجي الأفكار من المفكرين والعلماء، والمؤسسات الرسمية والشعبية، من الأحزاب والجمعيات وغيرهم من مؤسسات الدولة والمجتمع، ومنفذيها من أفراد الشعب والمواطنين، تنفيذاً للواجبات التي على عاتقهم تجاه المجتمع من أجل ضمان الحقوق المرجوة للجميع.

لقد كان لقيم أخرى الصدارة في التأثير على واقع الإنسانية ومستقبلها، مثل السمو العرقي، والطائفية الدينية، والقوة، والسلطة المالية والسياسية... إلخ، "ولكن القرن العشرين قد أعلى من الفكرة باعتبارها قيمة قومية ودولية"²، وليست مجرد قيمة اجتماعية قاصرة على فئة من الناس أو مجتمع بعينه دون غيره، تعود بالخير والفضل على تلك الفئة أو المجتمع المعين وحسب؛ بل إن الإنسانية نفسها ارتقت بفضل هيمنة الفكرة وسلطانها، بحيث يمكن للمواطن أن يقبل الضيق في العيش نتيجة لنظام التقشف، عن طيب خاطر وخضوع للفكرة السامية، التي تسوي بين الفقراء والأغنياء، وبأكبر قدر من الفاعلية³. ومثال ذلك التضحيات التي تقوم بها الشعوب في الحروب وحركات المقاومة في سبيل فكرة الاستقلال والحرية.

والفكرة بمجرد أن تتوفر فيها الشروط المشار إليها تكون فكرة، ولكن يبقى الحكم على صلاحيتها من عدمه، يبقى معلقاً لاعتبارات أخرى لها ثقلها وتأثيرها في الموضوع.

ولكن مهما تعددت الأفكار وتنوعت وحكم لها أو عليها، فإن أقوى وأصح وأكثر فاعلية هي الفكرة الدينية، التي هي الأساس في تاريخ البشرية، إذ "أن الحضارة تولد مرتين، أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية، وأما الثانية: فهي تسجيل

¹ - انظر: مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 137 ط دار الفكر سنة 1981

² - انظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، ص 14 ط دار الفكر سنة 1984

³ - انظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، ص 113 بتصرف، ط دار الفكر، سنة 1986

هذه الفكرة في الأنفس. أي دخولها في أحداث التاريخ¹؛ لأن "الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية -ولأن- العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان"²، "ولقد أكدت الفكرة الإسلامية فيما مضى صلاحيتها في بناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك بطريقة بالغة التوفيق. لقد أخضعت هذه الفكرة الطاقة الحيوية لدى البدوي العربي لنظامها الدقيق، فجعلت منه إنساناً متحضراً ومحضراً. والأمثلة كثيرة على أن هذه الفكرة، أظهرت فاعليتها الكاملة في إعادة تنظيم وتوجيه الطاقة الحيوية التي أسلمتها شبه الجزيرة العربية إلى عصر النبي عليه الصلاة والسلام"³.

-الطاقة الحيوية:

والعنصر الثاني الذي تتشكل منه الحاسة الاجتماعية هو الطاقة الحيوية، التي يستمدّها المجتمع من مجموع أفرادها، فيجمعهم عليها في شكل جهد جماعي يتنقل بالأفراد من أنانياتهم القاصرة إلى أشخاص منضبطين وملتزمين ومنتجين في إطار جماعي، من حيث هي مجموع القدرات الكامنة التي يحقق بها المجتمع مراده ف"يستعير من غرائز الفرد طاقته الحيوية اللازمة لأداء نشاطه المشترك في التاريخ... ويعيد توجيهها فيحوّلها من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة لحفظ النوع، إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية يؤديها الإنسان، حين يسهم في النشاط المشترك للمجتمع"⁴.

والطاقة الحيوية هي القوى الكامنة في المجتمع، والمتمثلة في مجموع أنشطة المكونات الخلقية له وهي: العاطفة والعقل والروح والغريزة.

¹ - انظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 55، نر: عبد الصبور شاهين، ط دار الفكر سنة 1986

² - انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 54

³ - انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 106-107

⁴ - انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 107

ورغم أن بن نبي لم يشر بوضوح إلى مصادر الطاقة الحيوية هذه إلا للغريزة، فإنه ذكر ضمنا باقي المكونات في معرض كلامه عن الفكرة العليا، التي تجمع بين الروحي والاجتماعي، ومتطلبات المسجد والشارع، في إطار واحد متناغم، كما فعلت الفكرة الإسلامية فيما مضى ببناء مجتمع استطاع أن يؤدي نشاطه المشترك بطريقة بالغة التوفيق¹.

إن مصادر الطاقة عند الإنسان على ما بينها من تباين إلا أنها هي التي تشكل شخصية الإنسان بجميع أبعادها، وهي المولدة للوسائل التي يُتوصل بها إلى الغايات. فالعاطفة هي مصنع وخزان المشاعر، والعقل يمثل المجال الحيوي لفهم العلاقات بين الأشياء وما ينتج عنها، والروح هي الإطار الأسلم للتعلم بالغيب وبناء المثل العليا، والغريزة هي أنسب وأقوى ما في الإنسان في تحديد حاجاته وتحقيقها.

وطاقة الإنسان الحيوية لا تخرج عما تنتجه هذه المكونات الأربعة من قيم، ثم من طاقة متدفقة، ولكن الامتحان العسير يكمن في مدى قدرة الإنسان على استخلاص كتلة طاغوية واحدة، تقررها القيم المنبثقة عن المكونات الخلقية، بحيث تكون منتجة ومحقة للمثل العليا للإنسان.

ذاك أن متطلبات الإنسان لا تتحقق إلا في إطار واحد يجمع بين إشباع هذه المكونات الخلقية إشباعا متوازنا، لا يُغلب جانباً على جانب آخر؛ لأنها كلها مطلوبة في نفس الوقت، فلا بد من إشباع العاطفة والعقل والروح والغريزة في نفس الوقت، ولكنه إشباع بمنهجية مركبة تركيباً متوازناً فيما بينها، وبنسب متناسبة ومتناغمة، وكل إشباع لجانب من جوانب هذه المكونات على حساب غيره، ينتج قيماً تتحول بسببه الطاقة إلى معول هدم، فإشباع العاطفة على حساب العقل ينتج انحرافاً والعكس صحيح، وإشباع الروح على حساب الغريزة يشكل انحرافاً أيضاً،

¹ - انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 107

والعكس صحيح، وقل مثل ذلك في جميع هذه المكونات، مع اختلاف وتنوع في هذا الانحراف أو ذاك، ولكن أقل هذه الانحرافات يمثل اعتداء على المنهج، وإقرارا للاختلال في حياة الإنسان، كما جاء في حديث الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبي ﷺ الذين قال فيهم: "من رغب عن سنتي فليس مني"، وهذه العبارة تتبرأ منهم بسبب ما أقدموا عليه، رغم أن كل واحد منهم كان يهدف إلى الكمال. والتبرؤ من هؤلاء الثلاثة لم يقع مع آخرين فعلوا نفس الفعل، فأبو الدرداء رضي الله عنه كان زاهداً، وأبو ذر كان زاهداً وأبو هريرة كذلك، ومع ذلك لم يتبرأ منهم النبي ﷺ، لكونهم فعلوا ذلك كخيارات فردية، بينما الثلاثة فقد أعلنوا عن اختيارهم كخيار جماعي سيؤثر على المنهج مستقبلاً، أما غيرهم فكانت خيارات فردية يغلب عليها الطابع الذوقي الشخصي.

-المثل الأعلى:

ونريد بالمثل الأعلى هنا هو الأهداف التاريخية السامية التي عرفها الإنسان في تاريخه، كفضائل يتطلع إليها كل الناس جزئية وكلية، فبعضه يستجيب لمشاعر الإنسان وعواطفه، وبعضه يفرضه منطق العقل ومنهجيته في النظر إلى الأمور، وبعضه تحتمه مطالب الروح بغاياتها السامية، وبعضه خاص بما تهدف إليه الغرائز من حاجات ضرورية. والمثل الأعلى الأكمل هو الذي يستجيب لهذه المطالب كلها في إطار تكاملي بينها، أقرته الخبرة البشرية والشرائع الدينية.

وإذا كانت الفكرة تمثل المبدأ، والطاقة الحيوية تمثل الوسائل المساعدة على تحقيق الأهداف، فإن المثل الأعلى يتطلع إلى الهدف والغاية التي يعمل على تجسيدها الإنسان في مساعيه الفردية والجماعية.

والمثل الأعلى وما يحيط به من قضايا الإنسان هو الغاية، من حيث هو الهدف والمبتغى والمراد الوصول إليه من جهة، ومن جهة أخرى هو الضابط للطاقة

الحيوية وموجهها الاتجاه الصحيح والمطلوب؛ بل هو المنشط للإرادة إلى جانب القدرة المتمثلة في الطاقة الحيوية.

ولذلك كانت "مشكلة اختيار المثل الأعلى من أهم المشكلات، التي تصادف الفرد في إطاره الخاص لتنظيم (الطاقة الحيوية)، وفي الإطار الاجتماعي (لتوجيه هذه الطاقة الحيوية)"¹.

ثم إن المقصود بالمثل الأعلى هنا الذي يمثل ركنا ركيننا في الحاسة الاجتماعية، هو المثل الأعلى الذي يصاغ للمجتمع وليس للأفراد فحسب؛ لأن المثل العليا على المستوى الفردي الشخصي جزئية، قد تختلف من شخص لآخر، بسبب ما بين الناس من فروق، من حيث إن للإنسان خصوصيات فردية، قد تنحرف بالمثل العليا عن الغايات الجامعة، فتصرفها إلى غايات جزئية قاصرة على المصالح الشخصية الفردية أو الفئوية العاجلة.

الحاسة الاجتماعية في حركة التاريخ

تختلف الحاسة الاجتماعية في المجتمعات، بحسب موقع هذه المجتمعات في سلم التاريخ، فإذا كان المجتمع في حالة حركة وتفاعل ونشاط وإيجابية، تكون الحاسة الاجتماعية فيه عالية وقادرة على تغيير الواقع والارتقاء به حضاريا، بفضل حسن الإدراك والشعور بالمسؤولية والتنظيم والتنسيق بين مكانات الأفراد وأدوارهم في الحياة.

أما عندما يكون المجتمع في حالة ركود وغيثائية؛ فإن الحاسة الاجتماعية فيه تكون خامدة خاملة لا توقظ نائما ولا تشغل متنبها.

ومن ثم فإن الحاسة للمجتمع ليست ثابتة وعلى درجة واحدة دائما، وإنما ترتفع وتنزل بقدر فاعلية والمجتمع وركوده، مثل نشاط مدركات الفرد تماما، بعضها

¹ - انظر: مالك بن نبي، المرجع نفسه ص 73

ينشط وبعضها يعطل...، ولذلك كان التخلف والتقاعس، وتخلي المجتمعات عن دورها في الحياة، نتيجة فقدانها للحاسة الاجتماعية، وهي سبب في فقدانها أيضاً؛ لأن الحاسة الاجتماعية، مثلما هي آلة استشعار للكشف عن بعض الأمور في المجتمعات، هي في نفس الوقت ثمرة لحركة المجتمع في الاتجاه الصحيح.

حول مكونات الحاسة الاجتماعية:

إن مكونات الحاسة الاجتماعية التي تتشكل منها، كل واحدة منها تمثل ثقلاً معتبراً في صياغة الحاسة الاجتماعية، لما لها من أهمية في حد ذاتها، بحيث يخل للمرء لأول وهلة إمكانية استقلال كل جانب عن غيره من الجوانب الأخرى.

فالفكرة بما تمثل من ثقل لكونها المبدأ والمنطلق لكل شيء في حياة الإنسان فرداً كان أو مجتمعاً، قد يعبر بها عن المثل الأعلى عندما تبلغ مستوى من السمو والرفعة؛ فيقال عنها فكرة سامية مثلاً.

فالفكرة الدينية مثلاً فكرة تمثل مبدأً، ولكنها في نفس الوقت هي الغاية المطلوبة، من حيث إن الغاية من الوجود الإنساني كله هي تحقيق العبادة لله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات 56]، وما عدا ذلك من المبادئ والوسائل وحتى الغايات الجزئية، إنما سخرت لخدمة هذه الفكرة السامية.

وكذلك الأمر بالنسبة للطاقة الحيوية التي هي الثمرة الطبيعية لنشاط العاطفة والعقل والروح والغريزة وما يتولد عنها من قيم، التي هي بدورها تحتاج إلى إشباع كغايات ثابتة، وكوسائل لاستمرار الحياة وتحقيق الغايات الإنسانية، وكمبادئ لا يمكن استبعادها كضرورة حياتية.

وأخيراً المثل الأعلى الذي هو الغاية التي تهدف إليها البشرية النهازة في جميع انشطتها، فهو غاية ولكنه في نفس الوقت مبدأً ووسيلة، لتنشيط المعرفة والحركة والعلاقات التي هي وظيفة الإنسان في الوجود، ولولا المثل الأعلى جزئياً كان أو

كلياً ما تحرك الإنسان لتحقيق شيء قط؛ لأنه لا يتصور ذلك الشيء إذا لم يصنع في شكل رؤية وهدف يحلم الإنسان بتحقيقه؛ بل إن حركة الإنسان في إطار إشباع مكوناته الخلقية، لا يمكنها أن تكون إلا وفق مثل عليها تمثلتها تلك القوى الكامنة – المكونات الخلقية-. وبدونها لا تكون حركة ولا أهدافاً.

متى يفقد المجتمع حاسته؟

يمكن القول ببساطة أن المجتمع يفقد حاسته، بفقدان مكوناتها أو باضطراب تأثيراتها على الواقع، وهي الفكرة والطاقة الحيوية والمثل الأعلى، لا سيما وأن الحاسة الاجتماعية تقوى وتضعف في المجتمع كما مر معنا؛ بل هي قابلة للاكتساب والفقدان غيرها مما يكسب الإنسان ويفقد، يفقد المجتمع حاسته، مثلما يفقد المرء حواسه أو بعضها، يفقد السمع أو البصر أو الذوق أو الشم أو اللمس، أو يكون فاقداً لها كلها، مع فارق أن حاسة المجتمع واحدة، وهي التي تمثل الحاسة المشتركة للجميع، وليس حواس أفراد منفصلين عن بعضهم البعض، أما ما يمكن تسميته بحواس الأطراف الاجتماعية، مثل الحس السياسي الأمني عند السلطة ومعارضيه، أو حس المجتمعات المقهورة تجاه نخبها، أو أحاسيس مكونات المجتمع العرقية والمذهبية والفكرية... فكل ذلك أحاسيس جزئية، لا تعبر عن الحاسة الاجتماعية الكاملة التي نتكلم عنها.

ولكن غياب المكونات لا يكون إلا بغياب مؤثرات أخرى في هذه المكونات...؛ لأن هذه المكونات من إنتاج المجتمع وفئاته وأفراده، الذين صنعوا الفكرة وصمموا المثل الأعلى، واستماتوا في تجسيد ما يريدون تجسيده في الواقع، ومن ثم فإن غياب هذه المؤثرات هو الذي بسببه يفقد المجتمع حاسته.

يذكر العلامة ابن خلدون أن سقوط الدولة يكون في ثلاثة أجيال: ف"الجيل الأول يكون على خلق البداوة وخشونتها وما تبع ذلك من البسالة والافتراس

والاشتراك في المجد، والعصية محفوظةً فيهم وجانبهم مرهوب الناس لهم مغلوبون. أما الجيل الثاني فيتحول من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد، إلى انفراد الواحد به، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتؤنس منهم المهانة والخضوع، ويبقى لهم بعض ما أدركوا من الجيل الأول... إذ لا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته¹. وقد صور ابن خلدون ذلك في المقدمة في أكثر من موضع وبصور مختلفة، ولكنه في كل ذلك يتكلم عن نفسية المجتمع كيف تتحول من الأعلى إلى الأدنى في إطار الدولة، فيما يشبه الحتمية، حتى أنه حدد عمر الدولة بمتوسط عمر الجيل الواحد أربعين سنة، وثلاثة أجيال؛ أي: مائة وعشرين سنة.

ثم التقط مالك بن نبي هذه الفكرة وطبقها على الحضارة، ولكنه عكس المسألة، فتكلم عن كيفية نشأة الحضارة وليس عن سقوطها، ووضح ذلك في تطبيقه على الحضارة الإسلامية، التي انطلقت بنبو محمد ﷺ، وتوقفت عن الصعود بانقلاب الخلافة إلى ملك في عهد بني أمية، وكانت هذه المرحلة في ظل هيمنة الروح، ثم استقر الأمر إلى غاية سقوط غرناطة في ظل سلطة العقل، وفي ظل سلطان الغريزة بدأ الانحدار.

والفرق بين طرحي ابن خلدون وبين نبي، أن ابن خلدون كان في عز الدولة والحضارة فما كان يشغله هو هاجس السقوط فأراد التنبيه إلى أسباب السقوط، فكشف عن قوانين ذلك ليتحاشوه، أما بن نبي فقد كان في واقع ما بعد السقوط فانشغل بكيفية النهوض.

وبين الدولة التي هي مؤسسة من مؤسسات المجتمع، والحضارة التي هي غاية

¹ - انظر: مقدمة ابن خلدون.

المجتمع، تكلم الرجلان عن مواصفات المجتمع الذي على يديه تبنى وتسقط الدول والحضارات، وهو موضوع بحثنا في كيفية اكتسابه للحاسة التي بفضلها ينهض وبفقدائها ينهار، أو ينهض فيكتسبها ويفقدها عندما ينهار ويفقد مبررات بقاءه واستمراره.

ولكن الملاحظ عن الرجلين أنها رغم قوة الطرح ودقة القوانين النفسية التي اعتمداها، لم تخرج عن التنبيه إلى مكّون واحد من مكونات الحاسة الاجتماعية التي ذكرناها، وهي "الطاقة الحيوية"، المتمثلة في مكونات الإنسان الخلقية. فالسقوط كما وصفه ابن خلدون سببه نفسي، عواطف وغرائز، أما كيفية الصعود فأوعزه بن نبي إلى نشاط الروح والعقل والغريزة، وكل ذلك لا يخرج عن الطاقة الحيوية.

وما ذكر من وصف لسقوط الدولة ونشأة الحضارة، لا يكفي تفسيراً مباشراً لفقدان الحاسة الاجتماعية أو استحضرها؛ لأن السقوط نفسه قد يكون سبباً في فقدان الحاسة الاجتماعية، كما يمكن أن يكون نتيجة له، وكذلك بالنسبة لنشأة الحضارة وميلادها، يمكن أن تكون سبباً لميلاد الحاسة الاجتماعية أو نتيجة له.

ولذلك لا بد من البحث عن الأسباب الأكثر تأثيراً على فقدان الحاسة الاجتماعية، التي يفقد المجتمع بسببها مكانته كمجتمع، لا سيما وأن السقوط والنهضة، في واقع الأمر هما النتيجة التي تسبقها شروط للتحقق، وربما يكون مجموع هذه الشروط هو الذي بغيابه يفقد المجتمع حاسته الاجتماعية.

وبالنظر لطبيعة الحاسة الاجتماعية كمؤشر على النهضة، كقرن استشعار لما سيحدث للمجتمع، أو كثمرة لها، يمكن حصر العناصر التي إذا فقدتها المجتمع، فقد حاسته الاجتماعية فيما يلي:

- التباعد بين النخبة والمجتمع.

- انصراف الناس عن مسؤولياتهم الاجتماعية.

- غياب منظومة تربوية للمجتمع.

التباعد بين النخبة والمجتمع:

ونقصد بالتباعد بين النخبة والمجتمع، جميع صور التباعد المختلفة، سواء في شكل اعتزال النخبة للمجتمع، أو صورة تهميش المجتمع لنخبه، أو بسبب انقطاع حبل الثقة بينهما، كلها صور لمسمى واحد هو بعد الشقة بين الطرفين.

والمجتمع ليكون مجتمعا بأتم معنى كلمة مجتمع، لا بد من أن يلتقي مجموع أفرادهِ وفئاتهِ على حدود معينة من التماسك والتناغم فيما بينهم، ولذلك جاء في بعض تعريفات المجتمع، أنه مجموعة بشرية تلتقي في ساحة جغرافية معينة على مصالح أو غايات معينة، وتنشأ شبكة علاقاتهِ، ببروز علاقة مباشرة بين عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء فيه، فتتقوى فاعلية المجتمع في الواقع بقدر ما تتقوى العلاقة بين هذه العوالم وتتفاعل.

وكل خلل في هذا الجانب، سواء في أصل نشأة المجتمع بمكوناتهِ المذكورة، أو في طبيعة علاقات هذه العوالم ببعضها البعض، لا يكون معنى للمجتمع؛ لأنه سيكون حينئذ عبارة عن مجموعة أفراد يتعاملون مع بعضهم البعض كيفما اتفق، كل طرف يسعى لتحقيق ما يريد من غير أي اعتبار آخر، وينجح أو يفشل هذا الشخص أو ذاك، فذلك أمر آخر غير المجتمع الذي يمكن أن تكون له حاسة.

ثم إن هذا المجتمع عندما يتشكل بالصفة المذكورة، فإنه يتشكل وفق سلم تراتبي أو قل سلم اجتماعي تلقائياً، يُوضع كل فرد أو فئة في مكانه الذي يحقق مصلحة الجماعة، لما بين أفراد المجتمع من علاقات فطرية، تربط بينهم في شكل علاقات تراحمية، تبادل مصالح، أو حرصاً على البقاء، وفق موقع كل واحد منهم بالسلم الاجتماعي.

فالمجتمع بطبيعته مقسم تقسيمياً تقنياً، إلى ثلاث فئات: فئة الخبراء، وفئة

المتحكمين، وفئة المتنفذين.

والخبراء هم الفئة المنظرة المتمكنة من ميدان التخصص الذي تمارسه، فهذه الفئة هي التي تقوم بكل ما على المجتمع من واجبات التحضير والإعداد الأولى للتنمية والتطوير والتحيين المعرفي والإنتاجي. أما المتحكمون، فهم الفئة التي تعد الخبرة للتنفيذ بالقدر المطلوب للمجتمع مما يقدمه المنظرون من أفكار ومشاريع في شكل برامج مختلفة قابلة للتنفيذ، أما باقي المجتمع فموزعون على ساحات التنفيذ المختلفة في المجتمع، المتمثلة في المؤسسات الإدارية والمصانع والمزارع والأسواق والقطاعات الخدمية... إلخ.

ومن جانب آخر فإن المجتمع مقسم أيضا تقسيما وظيفيا إلى فئتين: فئة النخبة أو الصفوة من القيادات ومديري مؤسسات المجتمع، وباقي المجتمع.

فالنخبة بفئاتها المتنوعة: النخبة السياسية التي تمارس الحكم والمعارضة معها، والنخب الاجتماعية المتمثلة في الأعيان ورجال الأعمال ووجهاء المجتمع، والنخبة الثقافية التي على عاتقها المجال المعرفي من العلماء والباحثين والأكاديميين... إلخ.

فالنخبة المتكونة من هذه الفئات الثلاث، هي التي على عاتقها قيادة المجتمع إلى ما يرشده. وكل فئة من هذه الفئات عليها تبعات تقوم بها بمجرد نشأة المجتمع وبناء شبكة علاقاته، وتندمج تلقائيا في الإطار الوظيفي الذي يناسب كل فرد مكانة ودورا.

والتباعد بين هذه الفئات ينعكس سلبا على المجتمع برمته، مهما كانت الأسباب؛ لأن الأسباب في حد ذاتها لها مبرراتها التي تستند إليها التي لا ينبغي أن تكون سببا في القطيعة بينهم... فعندما نقول لا يوجد ثقة بين السلطة والشعب، فمعنى ذلك أن الشعب متمرد ولذلك أسباب...، أو أن السلطة مستبدة ولذلك أسباب أيضا!! ولكن النهاية الحتمية واحدة في الحالتين، وهي فقدان المجتمع حاسته الاجتماعية المؤدية إلى اضطراب المجتمع وخلخلته أو تكون نتيجة بسبب التباعد الحاصل بين الفئتين.

ولتفادي مثل هذه الاختلالات لا بد من معرفة من أين يبدأ الخلل؟ هل يبدأ من انحراف السلطة ليمتد الشعب؟ أم أن الشعب هو الذي تمرد أولاً فانحرفت السلطة؟ والإجابة عن مثل هذا التساؤل معقدة جداً؛ بل هو محور بحث جميع الإصلاحيين في العالم الإسلامي منذ أكثر من قرنين على الأقل.

ولكن ما ينبغي الانتباه إليه، هو أن قيم الانحراف واحدة، تكون في المجتمع ومؤسساته وأفراده، ولذلك لم نجد سلطة انحرفت في التاريخ وبسطت نفوذها وانحرافاتهما على الجميع؛ بل العكس وجدنا أن انحراف السلطة يؤدي إلى التمرد الشعبي بصوره المختلفة كرد فعل على ذلك، في صورة تمرد مسلح، كما هو معلوم في التاريخ الإسلامي بطوله، وفي صورة تجاهل الشعب للسلطة واعتماد العرف الاجتماعي، مثلما وقع للشعوب المستعمرة التي لم ترضخ للإدارة الاستعمارية، وإنما استعانت على قضاء حوائجها بالعلاقات، والعادات والأعراف المتوارثة، ومنها الدينية على وجه الخصوص. كما لم يوجد مجتمع فرض خياراته على السلطة بسهولة وبساطة، وإذا وجد فبأثمان باهظة وخسائر يصعب استرجاعها، ولذلك كان التفكير في الأمرين معاً، بوصفهما يمثلان جناحي المجتمع اللذين لا يطير إلا بهما معاً.

وما يلاحظ من اختلالات في المجتمعات عموماً، سببه الأساس يكمن في الهوة التي بين المجتمع ونخبه، سواء بتخلي النخبة عن المجتمع بحجة جهله أو ضعفه، كما تدعي الكثير من نخبنا السياسية، التي لا ترى في الشعب نضجاً يؤهله للممارسة الديمقراطية! وكذلك نخبنا الحداثية التي ترى في مجتمعاتها، مجتمعات تقليدية لا تصلح للتفاعل مع الحداثة إلا بتخليها عن تقاليدها! أو بتمرد الشعب عن نخبه التي لا يرى فيها أهلية لقيادتها، فتتمرد عليها بكل الأشكال.

انصراف الناس عن مسؤولياتهم الاجتماعية:

ومن الأسباب التي يفقد بها المجتمع حاسته أيضاً، انصراف الناس عن

مسؤولياتهم الاجتماعية؛ إذ لكل فرد في المجتمع مسؤوليات اجتماعية، لا تسقط إلا بسقوط التكليف الشرعي والقانوني؛ بل إن المجتمع الذي تكثر فيه الأسباب المسقطة للمسؤوليات، مثل المجتمعات التي تتعرض للحروب، فيكثر فيها المعاقون والعجزة وتفكك الأسر... إلخ، لا يمكنه سد ذلك الفراغ إلا بمضاعفة الجهود وتوسيع دائرة الاستثمار في كل شيء يتحرك، وإلا عانى كما تعاني المجتمعات التي تعيش على هامش التاريخ.

على أن المسؤولية الاجتماعية تبدأ من طبيعة الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي، بما يمليه عليه هذا الانتماء الفطري من واجبات، سواء في إطار الواجبات التراحمية في دائرة الأسرة، أو في دائرة المجتمع التعاقدية، التي يفرض فيها مبدأ التعاقد على الأفراد الالتزام والوفاء، أو دائرة الأمة وما تفرض من ولاء ديني عقدي وتناصر في الدين، أو في الدائرة الإنسانية بما تتطلب من قيم حضارية عامة، وعلى رأسها الحاجات الإنسانية، فيما يعرف بموجبات الغريزة¹. والمسؤولية التي نتكلم عنها في موضوعنا هذا، أوضح ما تكون في الوسط التعاقدية، الذي يقتضي القيام بالواجب من أجل الوصول إلى الحقوق، فإذا انعدم القيام بالواجب أو كان فيه تقصير أو اضطرب، ينعكس تلقائياً على الحقوق المفترضة والمتنطرة من جهات المجتمع المختلفة.

وجدلية الحق والواجب في حياة الناس مسألة جدلية أيضاً مثل موضوع البدء بإصلاح السلطة أو بإصلاح الشعب؟! هل نقوم بالواجب للحصول على الحقوق؟ أم لا بد من الحصول على الحقوق حتى نقوم بالواجب؟

ومع ذلك فإن منطق الأشياء الذي فطر الله عليه الوجود أن القيام بالواجب أسبق من الحقوق لعدة اعتبارات:

الاعتبار الأول: أن الحقوق التي ينالها الناس في المجتمعات هي ثمرة واجبات

¹ - انظر: التهامي مجوري، دوائر الانتهاء عند الإنسان مخطوط.

قام بها أفراد المجتمع، فتحولت بمجموعها إلى حقوق ينالها الناس، مثل الاشتراك في الضمان الاجتماعي، فكل عامل يقتطع له من أجره قسطا كاشتراك شهري، يستفيد منه مجموع العمال. فالاشتراك هنا واجب مفروض على كل عامل، وهو في نفس الوقت حقوقا يجنيها العمال بطريقة ما، ومنها منحة التقاعد التي تُؤمّن للعامل منحة بعد نهاية المسار المهني في سن معينة.

الاعتبار الثاني: أن الواجب مبدأ أخلاقي لا يقاس بما يقابله من الحقوق، وأظهر ما يكون هذا الواجب في إطار الأسرة، حيث يقوم أفراد الأسرة الواحدة بواجبات تجاه بعضهم البعض، كواجبات الزوج تجاه الزوجة، والأب تجاه الأبناء، والأبناء تجاه والديهم...، ولا ينتظرون مقابلا؛ بل يفعلون ذلك بموجب مبدأ التراحم المقرر في هذا الوسط من العلاقات، التي تنتقل إلى المجتمع في حالات كثيرة بعد ذلك، ومنها الاستجابة للتحديات الكبرى مثل الكوارث الطبيعية والحروب... إلخ.

الاعتبار الثالث: إن مبدأ الاستخلاف والعمارة الذي قرره الله في كتابه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة 30]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود 61] يقتضي من الفرد الشعور بالمسؤولية في كل ما يحدث في المجتمع؛ لأن من مقتضيات الاستخلاف والعمارة، أن هذا الفرد في المجتمع يشعر بما عليه من واجبات، أكثر مما يفكر فيما له من الحقوق؛ لأن الحقوق نتيجة طبيعية للواجبات التي أقيمت.

ولذلك كان تخلي الأفراد عن مسؤولياتهم في المجتمع، أخطر من ضياع حقوقهم، وسببا مباشرا من أسباب فقدان المجتمع لحاسته، بقطع النظر عن الأسباب المؤدية لذلك.

قد لا يرى الواحد منا بوضوح أن تخلي الفرد عن مسؤولياته يتسبب في خراب مجتمع، ولكن الحقيقة هي كذلك؛ لأن الواجبات التي على أفراد المجتمع، هي

الجزئيات الصغيرة التي يتكوّن منها الكل الكبير، فهي بمثابة الحصى التي يتشكل منها الجبل وكما قيل: لا تحقرن صغيرة *** إن الجبال من الحصى

غياب منظومة تربوية للمجتمع:

والمنظومة التربوية هي الإطار التنظيمي الأمثل، الذي يحسّن بكل مجتمع يريد النهوض أن يبدأ به، ليضع المجتمع على السكة في حركته النهضوية.

يخلط الناس بين المنظومة التربوية والمنظومة التعليمية، لما بينهما من تداخل في التنشئة المدرسية للطفل، وإلا فالواقع أن المنظومة التربوية غير المنظومة التعليمية.

وما نريد الكلام فيه هنا هو المنظومة التربوية، ومناهج التنشئة في المجتمع، التي لها أكثر من محضن، مثل الأسرة والمدرسة والمسجد والروضة... إلخ.

ولعل أهم هذه المحاضن المدرسة، إذا ما روعيت فيها رسالتها الأصلية، وهي التربية والتعليم؛ ذلك أن المدرسة التي تقدم تعليماً بالدرجة الأولى، إذا ما كانت لها منظومة ناضجة، فإنها تحتوي على عناصر تربوية في البرامج التعليمية، وذلك فيما يتلقى الأطفال من مقررات دراسية، وفي مستوى المؤطرين للمدرسة. فالمعلم والأستاذ يقدمان علماً، ولكنهما يقدمان أخلاقاً وسلوكاً في نفس الوقت، ولذلك نجد أن الأثر التربوي في الطفل من خلال سلوك المعلم والأستاذ، أكثر من الكم العلمي الذي يتلقاه؛ بل ربما تعلق الطفل بالعلم بفضل قدرة الأستاذ على العرض والتحكم في المادة، وإلى جانب المدرسة يوجد الأسرة والمسجد والخطاب السياسي والإعلامي...

والمنظومة التربوية تضعها مؤسسات المجتمع المختلفة، الرسمية والشعبية، والأصل فيها أن تكون متناغمة فيما تضع من أهداف ومبادئ في صياغتها، فلا تكون عادات وعوائد المجتمع في واد وتوجهات السلطة في واد آخر، وإنما لا بد من أن تكون في قالب واحد يهدف إلى غايات معينة وبتوافق، بما في ذلك الجوانب التنموية بشقيها المادي والمعنوي؛ لأن الغاية من المنظومة التربوية هي صناعة

المواطن الصالح والمنضبط بواجباته تجاه المجتمع.

تركز المنظومات التربوية في العالم اليوم على إيجاد المواطن المنتج لكيلا يكون عالة على المجتمع، ولكن من الناحية العملية أن هذه المنظومة نفسها تبحث عن المواطن المستهلك لضمان تسويق المنتجات؛ لأن مفهوم الدولة اليوم يريد من الجميع أن يكون مستهلكا للمنتج الاقتصادي وللمعلومة وللموقف السياسي وللمعرفة... إلخ، لتبقى السلطة وباروناتا هي الوحيد المنتج وصاحبة اليد العليا. لقد تغولت الدولة كما يقول عبد لوهاب المسيري.

ورغم هذا النقص الفظيع في مثل هذه المنظومات في بعدها الإنساني، فإنها تمتلك قدرا لا بأس به من التماسك الاجتماعي، بفضل ما في نظمها التربوية من التوازنات التي يحتاج إليها المجتمع ليستقر ولا يفقد حاسته الاجتماعية.

إن غياب المنظومة التربوية التي تحفظ للمجتمع توازنه، يُفقد بالضرورة حاسته الاجتماعية، التي قلنا أنها تكون سببا في انهيار المجتمع، كما يمكن أن يكون ثمرة من ثمار فقدانها.

وفي هذا القدر كفاية؛ حيث إننا أمطنا اللثام عن معنى الحاسة الاجتماعية، ومواصفاتها، ومكوناتها، وعرضنا بشيء من التحليل ما تعلق بفقدان المجتمع لحاسته الاجتماعية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

علم اجتماع المعرفة البنابي ودوره في بناء الرؤية الكونية السننية التي تحقق التنمية الاجتماعية والثقافية

أ.د. عمار قاسمي

جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة (الجزائر)

ammargasmi@univ-emir.dz

مقدمة

ترتبط الثقافة بالاختيارات التربوية والتعليمية، ويرتبط التعليم بالإنتاج المعرفي، ويرتبط الإنتاج المعرفي بالرؤية الكونية، وترتبط الرؤية الكونية بطبيعة نظرية المعرفة التي تحددها مصادر المعرفة التي اعتمدها ذلك المجتمع، والتي تمثل في النهاية جزء من مرجعيته العقدية وهويته الحضارية، لهذا فالتنمية الاجتماعية والثقافية تحددها طبيعة الأنظمة المعرفية ومدى انسجامها وتطابقها مع المرجعية العقدية والهوية الحضارية؛ ولما كان الاختلاف الجوهرى بين الاختيار الإسلامى والاختيار الغربى يكمن فى مصدر من مصادر المعرفة هو الوحي، فإن ذلك ينعكس على المسار المعرفى والمنهجى لكل منهما؛ فالإسلام يسعى إلى تحقيق التوازن بين الروحى والمادى، الآخرى والدينوى، بينما الغرب يتجه فقط إلى الدينويات وبشكل متطرف جدا.

ولما كان التدافع الحضارى منذ نهاية الخلافة الراشدة قد أفضى إلى غلبة النموذج المعرفى الغربى، فإن اختياره المادى قد هيمن وانعكس على كل المنظورات الحضارية الأخرى بما فيها المنظور الإسلامى، فحصلت مفارقة شبه تامة بين الفكر والواقع الاجتماعى والثقافى.

وبما أن علم الاجتماع فى صورته الحالية هو نتاج حركة العقل خارج نطاق

الوحي، فهو يعتبر إنتاج معرفي يحمل خصوصية النظام المعرفي الغربي؛ فهو من جهة يدرس العلاقات الاجتماعية في البيئة الثقافية الغربية، وهو من جهة أخرى يساهم في إرساء المقولات المركزية التي تشكل البنية التصورية وتؤسس الرؤية الكونية الغربية، وهذا بالذات ما يعين الفرق بين علم الاجتماع، وعلم اجتماع المعرفة.

ولما كان مالك بن نبي قد أدرك بعمق فكره، ودقة ملاحظته أهمية علم اجتماع المعرفة في بناء الرؤية الكونية، وتحديد شروط التنمية وتحقيق فعاليتها، وضبط مسارها؛ من خلال تصوره للحركة الجدلية في ثلاثية: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وارتباطها بالحركة الجدلية لثلاثية: الإنسان، والتراب، والوقت: فكيف يساهم علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية؟ وكيف يؤدي ذلك إلى التنمية الاجتماعية والثقافية التي تحقق الإقلاع الحضاري؟

هذه الإشكالية التي تتفرع عنها المشكلات الجزئية التالية:

ما هي السمات والخصائص التي تجعل علم اجتماع المعرفة البنائي يختلف عن علم اجتماع المعرفة الغربي؟ وكيف يساهم هذا العلم في بناء الرؤية الكونية السننية للمسلم؟ وما أثر هذه الرؤية في تحقيق التنمية الاجتماعية والثقافية والإقلاع الحضاري؟

ولما لم يكن لمالك بن نبي مؤلف مخصوص ينفرد بدراسة أهمية علم اجتماع المعرفة ودوره في بناء الرؤية الكونية التي تحقق الفعالية التي تصل بالإنسان إلى التوتر المطلوب الذي يحقق التركيب بين عناصر الحضارة: الإنسان والتراب والوقت، وتحقق الانسجام بين العوالم الثلاثة: عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، فإن المنهجية الأساسية التي سيعتمدها البحث هي الاستقراء. قلت الأساسي لأنه لا ضير من إتباع مناهج أخرى؛ كالمنهج الاستردادي إذا تعلق الأمر بالرجوع إلى حوادث التاريخ للاعتبار بها، والمنهج الاستنباطي إذا اضطر البحث إلى تحليل النصوص والشواهد العلمية، والمنهج المقاصدي الاستشرافي إذا تعلق

الأمر بالبحث عن المآلات.

ولرصد التساؤلات السابقة كان محتوى البحث مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

تضمنت المقدمة تمهيدا يُبين التعريف بالموضوع وأهميته، وأهم الإشكاليات التي ستتم معالجتها، والمفردات التي تعطي صورة عن مضامين المباحث، والمنهجية المختارة لمعالجة قضاياها، وإلقاء نظرة على الدراسات السابقة والصعوبات التي اعترضتنا خلال البحث.

أما المبحث الأول: فقد اختص بفحص خصوصية علم اجتماع المعرفة البنائي؛ حيث وقف عند تجربة ابن خلدون وتشكل الإرهاصات الأولى لعلم اجتماع المعرفة، وفحص مفهوم علم اجتماع المعرفة: المسار والمآل، ثم بين تجربة مالك بن نبي وخصوصية علم اجتماع المعرفة عنده، وختم هذا المبحث بتقييم التجربة البنائية في هذا المجال.

وأختص المبحث الثاني: بمدارسة دور علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية؛ فبدأ بفحص علاقة نظرية المعرفة بالرؤية الكونية، ثم البعد المعرفي السنني في علم اجتماع المعرفة البنائي، ثم وقف عند أثر علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية، وختم هذا المبحث بالكشف عن معايير فعالية الرؤية الكونية السننية البنائية.

أما المبحث الثالث؛ فقد اختص ببحث أثر الرؤية الكونية السننية البنائية في تحقيق التنمية الاجتماعية والثقافية؛ من خلال بيان كيفية تحقيق الاندفاع نحو التنمية الاجتماعية والثقافية بالرؤية الكونية البنائية.

المبحث الأول: خصوصية علم اجتماع المعرفة البنائي.

تظهر مشكلة المعرفة حين يبدأ التفاعل بين الفكر والواقع؛ لهذا اشتغل الفلاسفة طويلا يبحثون عن مصادر المعرفة التي يوظفها الفكر ليتعامل مع الواقع؛ لأن الفكر

الذي لا يمت بصلة إلى واقع حياة الناس فهو عديم الجدوى⁽¹⁾، فهناك واقع وهناك فكر وهناك تفاعل.

والإسلام حسم الأمر في هذه المسألة؛ حيث بيّن أن هناك وحي وهناك وجود وهناك إنسان مكلف بالتسخير والإعمار في الوجود، وهو مخير بين أن يستند في رحلة تسخيرهِ وإعمارهِ إلى الوحي، أو يستغني عنه، فالوحي يمد العقل بالكليات والمفاهيم، والعقل يتفاعل مع الوجود ليكتشف السنن الفطرية والكونية ويباشر فعل التسخير والإعمار، هذه الحركة التي يقوم بها العقل، وهو يسعى إلى الموازنة بين الوحي والوجود هي التي توصله إلى الحق بهداية الله عز وجل قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: 53). أما إذا استغنى عن الوحي واعتقد بكفاية عقله وحواسه فسيؤول به الأمر إلى ما آل إليه الغرب المعاصر.

والفكر الاجتماعي نشأ ونمى في رحم هذه الحركة ثنائية المسار؛ مسار الاستمداد من الوحي، ومسار الاستغناء عن الوحي، وكُتب له أن يستقل كعلم في ظل المسار الثاني الذي استغنى عن الوحي، لهذا وقع علماء الاجتماع الغربيين في مشكلة الجذور والأصول والبدائيات الأولى للأفكار الاجتماعية: من أين يأتي الفكر بالمعرفة التي يتفاعل بها مع الوجود؟ وراح كل تيار فلسفي يسعى جاهدا لإثبات فرضياته وتأكيد مسلماته؛ فاعتقد البعض أن الإنسان يولد وهو مبرمج مسبقا بمبادئ فطرية، واعتقد البعض الآخر أن الإنسان يولد وهو صفحة بيضاء، وبقي الغرب يتراوح بين هذين التيارين إلى يوم الناس هذا؛ تيار يلغي الذات ويتجه إلى الموضوع (الوجود)، وتيار يلغي الموضوع ويتجه إلى الذات. والحقيقة أن عقل الإنسان فيه جانبان؛ جانب فطري يتمثل في تلك الأوليات الفطرية المتمثلة في التوحيد «يولد

¹ - نبيل عبد الحميد، عبد الجبار. تاريخ الفكر الاجتماعي، دط، دار دجلة: الأردن، 2009م، ص 4.

الإنسان على الفطرة»، والجانب الثاني فارغ؛ الإنسان مسئول على شحنه، فلا بد للفكر أو العقل أن يشحن نفسه بكميات تجعله يستطيع أن يتفاعل مع الواقع تفاعلا صحيحا متوازنا. وهنا يظهر دور الدين وأهميته بالنسبة للإنسان، فهو المصدر الوحيد للكميات والمفاهيم الكلية التي تحقق له التفاعل الصحيح والمتوازن مع الواقع. والدين وحده هو الذي يحقق تكامل المعارف "فالمعرفة الإنسانية وحدة متكاملة وتجزئتها ضرورة ثقافية ملحة، ولكن الإبقاء على هذه التجزئة والإمعان في التمييز يؤدي إلى تعثر العقل الإنساني ويخلق له مشاكل كسوء الفهم، وقصر النظر إلى جانب التحيز والظلال، الأمر الذي يعاني منه المجتمع الإنساني اليوم"⁽¹⁾.

إذن فعمر علم الاجتماع يتجاوز بكثير تاريخ ميلاده، فإذا كان عمره كما يزعم المؤرخون له، لا يتجاوز مائة وخمسون عاما، فإن عمره الحقيقي مرتبط بالتاريخ الطويل للإنسان، وطبيعته تختلف جذريا عن الطبيعة التي رسمها له الغرب وألصقها ببيئته الاجتماعية وتجربته التاريخية والحضارية، لهذا سيحاول البحث أن يقف عند تجربة ابن خلدون ليكشف عن الإرهاصات الأولى لتشكيل علم الاجتماع عموما وعلم اجتماع المعرفة على الخصوص، ويبين الأبعاد السننية التكاملية في هذا العلم.

1. تجربة ابن خلدون وتشكيل الإرهاصات الأولى لعلم اجتماع المعرفة: عبد الرحمن ابن خلدون عاش بين (732-808هـ)، بينما الإنتاج المعرفي توقف في القرن السادس للهجرة.

تخرج ابن خلدون من جامع الزيتونة، وكان قريبا من الملوك والسلاطين؛ في الأندلس، والمغرب، والجزائر، وتونس، ومصر، وعانى من حبائلهم كثيرا. مارس

¹ - محمد عاطف، غيث. دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، 1975م، ص3.

القضاء المالكي في مصر إبان عهد المماليك، وعایش فترة الاحتلال المغولي، واستوعب جيداً تاريخ ما سمي بالعصور الوسطى، هذه الظروف ساعدته ليكون فلتة زمانه، بطرحه نظرية العمران البشري، ونظرية الدولة وغيرها من النظريات التي تكتنزها المقدمة. فإلى أي حد يمكن الحديث عن فكر اجتماعي عند ابن خلدون؟ وهل تجربته تشكل إرهاصات فعلية لعلم اجتماع المعرفة؟

بدأ ابن خلدون بالسياسة، فهاله ما وجد عليه القصور من الداخل، فلجأ إلى التاريخ ليفهم أمر السياسة، فوجد نفسه خارج البلاط أمام الظواهر الاجتماعية، وأكتشف أن فهم الظواهر السياسية والظواهر الاجتماعية والاقتصادية وغيرها يرتبط بدراسة تاريخها دراسة علمية؛ لتتبعها في تطورها، ومسارها، ومآلها، ورصد السنن الكلية والجزئية التي تحكمها، وهذه الفكرة وُجدت فيما بعد عند علماء الاجتماع الوضعيين؛ أوغست كونت (ت: 1857م)، وإيميل دوركايم Émile Durkheim (ت: 1917م)، وغيرهما، وحتى عند الماركسية. لكن وجد ابن خلدون نفسه أمام مشكلة نزاهة التاريخ من التحريف والتزييف، فإذا كان التاريخ هو منطق العمران البشري وأساسه المنهجي، فكيف يمكن تحويل التاريخ إلى علم حتى يصبح مدخلاً صحيحاً لفهم العمران البشري؟ هنا اهتدى ابن خلدون إلى السنن الإلهية التي تحكم الظواهر التاريخية، بل تحكم الآفاق والأنفس جميعاً، وانطلاقاً من هذه الرؤية المنهجية العلمية السننية أسس ابن خلدون الجوانب المعرفية الجديدة لعلم التاريخ، وعلم العمران البشري، وعلم الاقتصاد، وعلم السياسة، ووضع لبنة منهجية أساسية - لم يسبقه إليها أحد⁽¹⁾ - للعلوم الاجتماعية والإنسانية.

¹ - يقول ابن خلدون عن جدّة علم العمران: "ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة" ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، دط، المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر: مصر، 1930، ص 32.

2. علم اجتماع المعرفة: المسار والمآل: انطلق علماء الاجتماع من إشكالية مصادر المعرفة لأن الفلاسفة اختلفوا حولها ولم يحسموا أمرها؛ فالفلسفة نظرت إلى المعرفة من جهات ثلاث: إمكانية المعرفة، وطبيعة المعرفة، وحدود المعرفة، وكل جهة من هذه الجهات حصل حولها اختلاف لم يحسم أمره إلى يوم الناس هذا. كما ناقش الفلاسفة أهم المقولات المحركة للمعرفة مثل؛ المكان، والزمان، والعلية، والعدد... إلخ، وعلماء الاجتماع إلى جانب تناولهم لمصادر المعرفة، بحثوا أيضا الأصول الاجتماعية لتلك المقولات التي تناولها الفلاسفة، فأضافوا بذلك إلى نظرية المعرفة عنصرا هاما تجاهلته الفلسفة وهو أثر المجتمع وبنيته في نشأة المعرفة، بهذا تبلور علم اجتماع المعرفة لمعالجة مشكلات ثلاث: مصدر المعرفة، والمقولات التي تنبني عليها هذه المعرفة، ومشكلة العلم، على اعتبار أن العوامل الاجتماعية لها أثرها الكبير في اكتساب المعرفة ونشأة العلوم، وترجع هذه النظرية الاجتماعية إلى أصلين رئيسيين في تاريخ الفكر الاجتماعي؛ الأصل الإسلامي المتمثل في نظرية ابن خلدون في العمران البشري، والأصل الفرنسي والألماني الذي أخذ أفكار ابن خلدون وبلورها حسب مقتضيات وطبيعة المجتمع الغربي.

نهج كارل ماركس Karl Marx (ت: 1883م) نهج ابن خلدون في تحليل المعرفة، وتفسير التاريخ، والكشف عن الأيديولوجيات والحقائق السائدة في المجتمعات، لكنه خالف ابن خلدون في رده الفكر والمعرفة إلى الأسس المادية، فنسب الفكر الغربي البدايات الأولى لعلم اجتماع المعرفة إلى الماركسية، وتحللت الذات في الموضوع، وأصبح الفكر يستمد مقولاته من الواقع الاجتماعي، وأفاض ماكس شيلر M. Scheler وكارل مانهايم Mannheim بالنظر إلى علاقتها -أي نظرية المعرفة- بالأصول الثقافية والاجتماعية وردها إلى عناصر وجودية كامنة في بنية

الثقافة والمجتمع⁽¹⁾.

ووسع علم الاجتماع المعاصر دائرته إلى كافة المسائل المعرفية العامة التي أثارها الفلاسفة، فحاول أن يميّط اللثام عن مشكلة العقل، والحقيقة، وأن يعالج مسألة المادة والحس، وأن يضيف مصادر أخرى للمعرفة استناداً إلى ما تضيفه الحقيقة الاجتماعية من ثراء. ورغم أن دوركايم أشار إلى أن المعرفة أساسها الدين والمجتمع على السواء، إلا أن تصوره للدين ليس هو ذلك التصور الذي يتخذ من الوحي مصدراً محورياً للمعرفة، وإنما هو مفهوم لا يخرج عن معنى الإيديولوجيا. ومجمل القول: إن علم اجتماع المعرفة يؤكد الأصل الاجتماعي للمادي للمعرفة رغم ما يبدو فيه من تشعب حول مصدر هذه المعرفة؛ أهى في باطن الدين؟ أم هي في بنية الطبقة؟ أم في بنية الثقافة؟ أم في جوف التاريخ؟ لكن لو أنعمنا النظر في كل هذه المفاهيم سنجد أنها تصب كلها في إناء واحد هو المادة، ولا تخرج عن الرؤية الكونية الغربية المبنية على مقولات مادية خالصة.

3. تجربة مالك بن نبي وخصوصية علم اجتماع المعرفة البنّائي: مالك بن نبي (ت: 1973م) حفظ القرآن الكريم وتشرب من الثقافة الإسلامية لأنه مسلم الأصل والمنبت، ارتحل إلى بلاد الغرب وأقام فيها لفترة طويلة، فرأى حياة الغرب وفهم الكيمياء التي تتحكم في تجربته الحضارية، فهو مزدوج الثقافة، عاش عمق المجتمع الإسلامي كما عاش عمق المجتمع الغربي وتفاعل معه وأدرك ما يعمل فيه، واستفاد من منطق تفكيره، ومن آلياته المنهجية، دون أن يحدث خللاً في منطق الثقافة الإسلامية، فهو متأصل في مناهجه واصطلاحاته، ويرى في التدين والعبودية لله عز وجل نقطة الانطلاق لبناء الإنسان المسلم الذي يعطي الانطلاقة الحضارية،

¹ - يُنظر: إسماعيل، محمد قباري. علم الاجتماع والفلسفة نظرية المعرفة، تقديم: محمد ثابت الفندي، ط2، دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية مصر، 1982، ج2، ص4-12.

وأدرك أن الحضارة كيان اجتماعي تنبثق في مرحلة من التوتر النفسي الذي ينتجه الوعي السنني، الذي يزيد الإنسان همّة وعملية، لهذا سعى جاهدا لإعادة الفعالية للتدئين والعقيدة الإسلامية من خلال كتابه: "الظاهرة القرآنية" و"شروط النهضة"، لأنها هي المنبع الأساسي للوعي السنني.

عرف التصوف ورأى فيه رفعة النفس وصفائها وقوة احتماها إزاء الأزمات والأحداث، يقول مالك بن نبي: "وتغيير النفس معناه اقتدارها على أن تتجاوز وضعها المؤلف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل من شأن منهج التصوف، أو بعبارة أدق هو من شأن علم لم يوضع له اسم بعد"⁽¹⁾، واستفاد من تجربة ابن تيمية والوهابية والبادسية⁽²⁾ من جهة، والتثقيف ومخالطة العلماء من جهة أخرى، واندفع إلى مواجهة الاستعمار وما صاحبه من تشويه لصورة الإسلام، وإفساد المجتمع الإسلامي فكرس بذلك حياته لمشكلات الحضارة، ورفض التفكير الذري وقال بالتكامل المعرفي، سواء في النظر إلى التراث أو النظر إلى الدين في حد ذاته، فالتجزئة هي التي أفقدت الدين فاعليته لما توقف الجهد العقلي للمسلم، يقول مالك: "الفكر غالبا ما يكون ذريا في خطواته الأولى، كما كان الحال في أوروبا قبل ديكارت، وكما صارت إليه الحال بعد عصر بن خلدون في العالم الإسلامي عندما توقف كل جهد عقلي"⁽³⁾.

¹ - بن نبي، مالك. **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تصوير 1986 عن ط: 1981، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1981، ص 48.

² - ينظر: - بن نبي، مالك. **مذكرات شاهد للقرن الطالب**، ط 2، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، سوريا، 1984، ص 306.

³ - بن نبي. **وجهة العالم الإسلامي**، مصدر سابق، ص 16. تظهر بشكل واضح خصوصية علم اجتماع المعرفة عند مالك بن نبي من خلال كتاب: "ميلاد مجتمع" حين اعتبر أن التاريخ هو الذي يتولى صناعة المجتمع وهو الذي يسير به نحو الحضارة، وذلك إذا تحقق لدى هذا المجتمع الوعي السنني الذي يؤهله إلى هذه المرتبة، يُنظر: - بن نبي، مالك. **ميلاد مجتمع**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1986، ج 2، ص 15-19.

وهو باعتباره عالم اجتماع رأى ضرورة القيم الأخلاقية في البناء الاجتماعي، "فالدفعة القرآنية الحية" تشحن "عالم الأفكار" بالمعرفة السننية، التي تنعكس على "عالم الأشخاص" فتتحول إلى فضائل أخلاقية تربط أفراد المجتمع، لتنعكس على "عالم الأشياء" فتُحسن تسخيرها لتشكل الحضارة، وكل توقف لهذه الدفعة، يؤدي بالضرورة إلى توقف القيم الأخلاقية، وبالتالي انحطاط المجتمع؛ "حتى إذا وهنت" الدفعة القرآنية الحية توقف العالم الإسلامي كما يتوقف المحرك عندما يستنفذ آخر قطرة للوقود"⁽¹⁾، لأن الدفعة القرآنية الحية هي التي تثير شرارة التركيب السنني بين عناصر الحضارة: الإنسان، والتراب، والوقت. لهذا أدرك خطورة العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية في مجتمع لا يعرف حقيقة نفسه⁽²⁾. لأنها في بنائها تميز بين الإنسان الأوروبي الجذبي، والإنسان المسلم الطردي⁽³⁾.

فما يميز علم اجتماع المعرفة النبائي هو تموقع وتموضع الوحي ببعده الغيبي كمصدر للمعرفة في العوالم الثلاثة⁽⁴⁾؛ في "عالم الأفكار"؛ حين يشحنه بالمفاهيم والسنن الكلية، وفي "عالم الأشخاص"؛ حين يمدّه بالأحكام والقيم الأخلاقية، وفي "عالم الأشياء" حين يروض المادة بالقيم الروحية فتتخذ طابعا جماليا ينسجم مع النسيج السنني الكوني الجميل، فلا يخرج عن التحلي بالجميل الخالق عز وجل.

ومالك بن نبي يرى أن العالمية هي نهاية التجارب الإنسانية وآخر نقطة في معلم

¹ - بن نبي. وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 27.

² - نفسه، ص 33.

³ - نفسه، ص 18.

⁴ - يقول مالك بن نبي: "إن الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية.. أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية" ينظر: - بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة القدس عاصمة الثقافة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 2009، ص 15. وللاستزادة ينظر أيضا: - بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1987.

الحضارة الغربية، لهذا نبه لما يجب أن يكون عليه دور المسلم في هذه الحالة، حيث يجب أن يتحلّى بالمنطق العملي، الذي يوطن المنهجية العلمية السننية، في العوالم الثلاثة، فيتوطن الوعي السنني في الرؤية الكونية، فتحقق رسالة الإسلام العالمية.

4. تقييم التجربة البنائية في مجال علم اجتماع المعرفة: نهج مالك بن نبي نهج ابن خلدون حين اعتبر بأحداث التاريخ، ووظيفها في فهم الاجتماع البشري، فأدرك المركبات الأساسية للثقافة والحضارة؛ فعالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء التي هي عناصر الثقافة، والإنسان والتراب والوقت التي هي عناصر الحضارة، يجب أن تتفاعل في محضن المنهجية العلمية السننية، وتنسجم لتكوّن هناك تنمية ثقافية، وتنمية اجتماعية، فتكون الحضارة ويتحرك التاريخ.

فتوطن الوحي في نظرية المعرفة الإنسانية، يؤدي إلى توطّن الوعي السنني في الرؤية الكونية، فيؤدي ذلك إلى بناء الإنسان السنني، فتنجح القيم التي تضبط العلاقة بين الأشخاص وتمنح معنى للوقت، فينعكس ذلك على التراب والأشياء، فيتعين مسار التاريخ وتبنى الحضارة، أما إذا استغنى الإنسان عن الوحي حصل انكسار في منحني التطور التاريخي للمجتمع: "وهي لحظة انقلاب القيم داخل حضارة معينة"⁽¹⁾، وبما أن الرؤية الكونية العالمية أصبحت تتحكم فيها الوسائل الرقمية، وأصبح الضمير الإنساني يتكون في ضوء ما تبثه الشبكة العنكبوتية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء كبير منه خارج حدود هويتها الثقافية، والجغرافية، فالثقافة التي تعكس المنظومة القيمية أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي، ولهذا رأى مالك أن البحث عن منظومات قيمية هو أمر لا طائل منه⁽²⁾، ومحاولة استخدام القوة في صد هذا

¹ - بن نبي. وجهة العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص 31.

² - يرى مالك بن نبي بضرورة الإعداد الروحي، لأن هذا الإعداد هو الذي سينتج القيم الأخلاقية، فمصدر الدفع في الإنسان هي الروح ولهذا قال مالك بن نبي: "حين يتوقف إشعاع الروح يخمّد إشعاع العقل ويفقد =

التخطيط أيضا أمر لا طائل منه، وإنما يرى أنه لابد من الولوج إلى العوامل المعرفية التي تكشف عن سبب عجز الناس عن تطبيق مواهبهم الخاصة على التراب والوقت، لا بد من إحياء المهمة والفاعلية في هذا الإنسان حتى يدفع مسار التاريخ، ولا يتحقق ذلك إلا بالتدين والعبودية لله عز وجل التي تصل بالإنسان إلى أفق الإحسان الذي يحقق التركيب المنسجم بين عناصر الثقافة، فتصهر النزعتين؛ دعاة الثقافة الأصلية ودعاة الثقافة الغربية، في "السلام العالمي"⁽¹⁾، ويتحقق الوعي السنني الذي ينقل الإنسان من الصراع إلى التراحم والمؤاخاة.

وقوة الحس السنني عند مالك بن نبي جعله يدرك أهمية البعد المعرفي لعلم الاجتماع، من حيث أن الدين والوحي يجعل من المجتمع مصدرا مهما من مصادر المعرفة حين يمدّه بالقيم، وهذا ما جعله يتنبأ بأن الأزمة العالمية ستصبح أزمة أخلاقية بالدرجة الأولى، وحمل النخبة الأفريقية مسؤولية هذه الأزمة: "ولا شك أن النخبة الأفريقية ستجد نفسها حيال هذه الحالة -الأزمة الأخلاقية العالمية-، التي سببتها أوروبا والتي تطلب منها قسطا أوفر من الصفات الأخلاقية (...). فبقدر ما ترتفع بالجماهير إلى مستوى الحضارة، فإنها ترتفع بالضمير الأوروبي إلى مستوى الإنسانية، لتضع أمامه صورة صحيحة عن الرجل الذي يعدّه الاستعمار شيئا تافها، فكلما تحضر الإنسان الأفريقي سوف يعطي للأوروبي فكرة أصح عن العالم الإنساني (...). إن العالم مثقل بالعلم وبثقافة الإمبراطورية (...). ومن ثم فما ينبغي أن

=الإنسان تعطشه للفهم وإرادته للعمل كما يفقد المهمة وقوة الإيمان"، يُنظر: - مسقاوي، عمر كامل. نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، سوريا، 1986، ص15. والإعداد الروحي لا بد وأن ينطلق من الإيمان، ولا يعني هنا وجود الإيمان وإنما ترسيخ هذا الإيمان، بممارسة الأعمال الشرعية، وهذا هو معنى توطين الوحي في العوالم الثلاثة.

¹- يُنظر: - بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1984، ص122.

تقدمه الثقافة الأفريقية لخدمة السلام هو الضمير وليس العلم"⁽¹⁾. والفكرة المهمة في هذا النص أن مالك يرى أن المجتمع الأفريقي مجتمع لا ثقافي، رغم ما يبدو فيه من ركام وتكدسات، وهذا يفسح المجال للفكر السنني أن يتولى بناء ثقافة سننية تتمتع بالأصالة والعالمية معا، من خلال اعتماد المنهجية العلمية السننية، لإنتاج المعرفة السننية، وتحويلها إلى تربية وتعليم سنني، لتظهر في المجتمع في شكل ثقافة سننية شاملة.

إذن فمالك بن نبي قد برهن أنه لا سبيل إلى قيام تنمية اجتماعية أو ثقافية دون أن تستند إلى فكرة إسلامية حية، تقوم على المنهجية العلمية السننية، التي تنطلق من العبودية الكاملة لله عز وجل، وهي نقطة البداية التي تحقق التركيب الحضاري، ولم يقف عند هذا الحد، بل يرى في قيام الثقافة الأفريقية الحل في إنقاذ الإنسانية، والسؤال هو ما دور علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية؟

المبحث الثاني: دور علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية

نظر مالك بن نبي بمنهجية علمية سننية إلى مشكلات الحضارة من خلال المجتمع، ونظر إلى المجتمع من خلال حركة التاريخ، فتبين له أن أزمة الأمة المسلمة بدأت منذ حادثة صفين؛ نقطة الانعطاف الأولى التي أدت إلى اضطراب الرؤية الكونية السننية، التي صنعها المصطفى ﷺ، بسبب الانحراف على خط منهاج النبوة من جهة، واضطراب المفاهيم المركزية من جهة أخرى؛ نظرا لتوقف الاستمداد من التجربة النبوية، والاستمرار على منهاجها، واللجوء إلى الاستمداد من التجارب الفلسفية للحضارات المتاخمة، وكّرس مشروعه في دراسة مشكلات الحضارة لاستعادة هذه الرؤية الكونية السننية، حيث عكف في كتابه: "الظاهرة القرآنية" على تحديد الجوهر السنني النفسي للحركة النبوية، مستعينا في ذلك على تجلية الذات

¹ - ينظر المصدر السابق، صص 125-127.

المحمدية في جميع أطوارها السننية النفسية؛ وإذ يمكن أن نجمع هذه الأطوار في طورين؛ مرحلة سننية روحية، وهي المرحلة المكية بكاملها، سواء تعلقت برحلته التشكيكية⁽¹⁾، التي كانت في عزله، أو رحلة الإعداد السنني الروحي⁽²⁾، هذا الإعداد الذي يرسخ الوعي السنني ويجعل صاحبه على درجة من اليقين بالحقيقة، على نحو يبذل كل ما يملك في سبيلها، اليقين الذي جعل بلال وهو في أحلك لحظات التعذيب، يحفظ كلمة واحدة هي التوحيد "أحد"، متجاوزا كل العقبات التي تقف أمام القيام بأمر الله عز وجل، وهو على درجة من الاطمئنان، وليس مجموع التكاليف العبادية والمعاملاتية الدينية، إلا وسيلة في سبيل ارتقاء الإنسان إلى هذا الوعي السنني، الذي يشكل الرؤية الكونية السننية التي يتمخض عنها الفعل المَحْضَر.

1. **علاقة نظرية المعرفة بالرؤية الكونية⁽³⁾**: ترتبط المعرفة الإنسانية والرؤية الكونية عبر التاريخ بمصادر المعرفة التي اختلف الفلاسفة حولها -كما تبين سابقا-

¹ - يُنظر: - بن نبي، مالك. **الظاهرة القرآنية**، مصدر سابق، ص 122.

² - يختلف مالك بن نبي مع ابن خلدون ومن سار على دربه في قضية التجربة الروحية للمصطفى صلى الله عليه وسلم، فبينما يرى مالك أن الحياة الروحية اكتملت في العهد المكي منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها الوحي ﷺ، رأى ابن خلدون أن الجانب الروحي استمر حتى المرحلة المدنية، أي أنه حركة مرحلية، فالنبي اقترب شيئا فشيئا من عالم المعنى، أي أنه وبالتدرج أصبح أكثر علما ويقينا واستدل على ذلك بقصر الآيات المكية وطول الآيات المدنية، يُنظر: - ابن خلدون. **المقدمة**، مصدر سابق، ص 367. فبروز الظاهرة القرآنية للمرة الأولى يعني تمام الحالة الروحية، لهذا قال مالك بن نبي: " كانت هذه الآية ﴿اقرأ﴾ بالنسبة للنبي وللتاريخ المرة الأولى التي تظهر فيها الظاهرة القرآنية (...) ومن هذه اللحظة أصبح لدى النبي الأمي شعور بأن كتاب قد طبع في قلبه " بنظر: - بن نبي. **الظاهرة القرآنية**، مصدر سابق، ص 126. ونجد هذا الأصل عند الباقلاني حيث أثبت بالدليل أن نزول القرآن على قلب النبي ﷺ نزول إعلام وإفهام، لا نزول حركة وانتقال، ينظر: - الباقلاني، أبوبكر. **الإنصاف فيما يجوز الاعتقاده ولا يجوز الجهل به**، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط2، مكتبة الخانجي: مصر، 1993، ص 97. بهذا يتضح السبب الذي جعل مالك بن نبي يرى بضرورة الإقتداء بالرسول ﷺ.

³ - ينظر: - أبو سليمان، أحمد عبد الحميد. **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطق الأساس للإصلاح الإنساني**، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: عمان، 2014.

وانحصرت في العقل والحس، واستبعد الوحي والحدس تماما نظرا للتخلي عن الدين؛ هذه المسارات المعرفية أنتجت نماذج إنسانية لها رؤية كونية محددة، وعليه فالرؤية الكونية هي التي تقرر مصير النظام المعرفي، لأنها هي التي تحدد مصادر المعرفة والموقف منها، والنظام المعرفي يقوم بتركيب هذه المصادر وصهرها في نسق موحد للاقترب من الحقيقة، فإذا اختزلت مصادر المعرفة في العقل والوجود دون الوحي فلا يرى العارف إلا جزء من الحقائق المادية الظاهرة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم:7)، فهناك تدافع كبير بين الأنظمة المعرفية، فكل نظام معرفي يريد أن يفرض نفسه على الأنظمة المعرفية الأخرى، وحتى يحقق ذلك يلجأ إلى إرساء مفاهيمه وأوليائه وعقائده ومسلّماته... في البنية التصورية للأفراد والجماعات بوسائل مختلفة، حتى يهيمن أولا على اللاشعور والعقل الباطن فيؤثر في الرؤية الكونية، ثم ينتقل إلى الشعور ويتحول إلى سلوك يتجسد في الواقع، لهذا فالتأثير متبادل بين، نظريات المعرفة، أو الأنظمة المعرفية والرؤى الكونية⁽¹⁾؛ فالتدافع قائم على المعرفة، والذي يمتلك زمام المعرفة وقوة التحكم في المعلومات تكون له الغلبة، لهذا كان لتطور الكمبيوتر في تخزين المعلومات وسرعة معالجتها، وتطور وسائل الاتصال في سرعة بثها وتوصيلها إلى مختلف بقاع العالم، الدور المركزي في التدافع الحضاري، وذلك لأن المعلومة تُبَثُّ بشكل دقيق لتؤدي وظيفة محددة في عملية البناء المعرفي للأفراد والجماعات داخل الدول المستهدفة، فيتم استلابهم عقديا ومعرفيا ووجوديا، فينفصل وجدانهم عن عقيدتهم، وتنفصل إرادتهم عن وجدانهم، وينفصل فكرهم عن واقعهم، فتُشَوِّش رؤيتهم الكونية، ويصابون بحالة من اليأس، والقنوط، والإحباط، ونكران الذات، والانسلاخ عن الهوية، فيلجئون إلى حلول غير واقعية، كالهجرة غير الشرعية، أو

¹ - ينظر:- الزيات، فتحي. الأسس المعرفية للتكوين العقلي المعرفي وتجهيز المعلومات، ط2، دار النشر للجامعات: مصر، 2006، ص561.

الانتحار، أو المخدرات التقليدية والرقمية، أو التلهي بالوسائل الرقمية... إلخ.

2. البعد المعرفي السنني في علم اجتماع المعرفة البنائي: يظهر البعد المعرفي السنني

في علم اجتماع المعرفة عند مالك بن نبي من خلال دراسته لشبكة العلاقات الاجتماعية، حيث تبين له ضرورة الوقوف عند المفاهيم النظرية العامة، التي ترجع إليها العناصر التاريخية الخاصة بميلاد مجتمع في التاريخ، فكان المفهوم المركزي الذي وقع عليه اختياره هو؛ "المجتمع"، هذا المفهوم الذي كان محل اختلاف كبير بين علماء الاجتماع، وأول شيء أثار انتباهه هو سبب الاختلاف؛ الذي أرجعه إلى اتخاذ معايير دون غيرها في تحديد مفهومه، وهذا ما دفعه إلى الجمع بين معايير ثلاثة، بمثابة سند لكل تعريف جامع، وهي؛ معيار الأصل؛ الذي يتعلق بالوجهة التاريخية، ومعيار الطبيعة؛ الذي يتعلق بالوجهة التشكيلية أو البنائية، ومعيار الغاية؛ الذي يتعلق بالوجهة الوظيفية، فتأكد له حين طبق هذه المعايير، أن المجتمع الإسلامي من الناحية التاريخية؛ شكلته المنهجية العلمية السننية، التي مارسها المسلمون بدعوة من الرسول ﷺ، هذه المنهجية التي كونتها عقيدة التوحيد.

ومن الناحية البنائية أدت هذه المنهجية إلى تشكيلة اجتماعية متماسكة تماسك الجسد الواحد. أما من الناحية الوظيفية، فقد ربط مالك المجتمع بالحركة السننية، والوجهة السننية، والغاية العبادية. ولهذا يعرف مالك بن نبي المجتمع على أنه: "تنظيم معين ذو طابع إنساني، يتم طبقاً لنظام معين، والنظام يقوم على؛ حركة يتسم بها المجتمع الإنساني وإنتاج لأسباب هذه الحركة، وتحديد لاتجاهها"⁽¹⁾. وقد بين مالك أنه حين تنعدم الحركة يفقد المجتمع تاريخه ويصبح بلا غاية، ولما فسر الحركة في المجتمع الإسلامي بإرجاعها إلى عوامل ترتبط ارتباطاً كلياً بسنن الأنفس، ووجد أن هذه السنن مرتبطة بالقوة الروحية، واكتشف أن مصدر القوة الروحية

¹ - بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 17.

هي العبودية لله عز وجل أو عودة الظاهرة القرآنية، فإنه قد تقرر عنده بأن عودة الحركة، وبالتالي عودة التاريخ يكون بإدراك البعد المعرفي السنني في عملية البناء الحضاري.

3. أثر علم اجتماع المعرفة البنائي في بناء الرؤية الكونية السننية: تبين مما سبق أن النظام المعرفي، يولد رؤية كونية، وهذه الأخيرة تؤدي إلى وجود نظام اجتماعي متكامل مع نظام ثقافي، لأن نظام القيم ومكارم الأخلاق والأنماط السلوكية كلها من إفرازات الثقافة، وعليه فإن أي اضطراب يصيب الرؤية الكونية، يصيب بالضرورة المنظومة الثقافية والمنظومة الاجتماعية⁽¹⁾. ولما كانت التربية هي تنمية الشيء على التدرج إلى حد بلوغ كماله، وفعاليتها قائمة على اختيار المنبه المناسب لتنشيط الإرادة، فإن مالك بن نبي ينطلق في بناء الرؤية الكونية السننية من "المثل الأعلى"، لأن: "المثل الأعلى هو أقوى عامل في تقرير خلق الإنسان وفي تعيين مسلكه، لأنه هو وحده الذي يستطيع تنبيه الإرادة وتنظيم جميع الغرائز"⁽²⁾. ولما كان الإنسان له جانبين؛ جانب الضرورات الروحية وجانب الضرورات الحيوية، فإن مالك بن نبي يري بضرورة وجود هذين الجانبين تحت مراقبة المثل الأعلى، الذي هو الدين؛ لأنه السند الوحيد لشحن العقل بالمفاهيم والسنن الكلية، حتى يتجه إلى الكتاب المنظور ليكتشف السنن الآفاقية والسنن الأنفسية ويباشر عملية التسخير والإعمار والاستخلاف، وهو من جهة أخرى السبيل الوحيد لتنظيم الطاقات المتعلقة بالضرورات الحيوية⁽³⁾، وعلى هذا المستوى يعتبر مالك بن نبي أن

¹ - ينظر: - قباري محمد، إسماعيل. قضايا علم الاجتماع المعاصر، دط، منشأة المعارف: الإسكندرية، مصر، دت، ص383.

² - بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص73.

³ - ينظر: - عبيد، محمد رشيد. الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل، ط1، دار القادري: بيروت، لبنان، 1992، ص117.

الدين هو المثل الأعلى، وهو المنبه الأساسي ومصدر التربية الاجتماعية، وهو الذي تنبثق منه المعرفة التي توطن القيم الأخلاقية في المجتمع.

4. معايير فعالية الرؤية الكونية السننية البنائية: لقد تبين فيما سبق محورية الرؤية الكونية السننية في توليد شبكة العلاقات الاجتماعية، ودور هذه الشبكة في توحيد المجتمع وحركته المتجددة، نتيجة نظام الاستجابة لدى الفرد الذي كيفته العبودية لله عز وجل، وبهذا يمكن رصد معايير الفعالية على مستويين: المستوى الفردي الذي تحكمه السنن الأنفسية، والمستوى الزمني الاجتماعي والتاريخي الذي تشترك فيه السنن الأنفسية والسنن الآفاقية، ولما كان المستوى الفردي هو مستوى شخصي، فإن الرؤية الكونية السننية يمكن فحص معالمها في المستوى الثاني؛ أي المستوى الاجتماعي والثقافي، وهذا بالضبط ما فعله مالك بن نبي حين التمس أسسها وقواعدها من التاريخ، هذه القواعد التي هي ثوابت التاريخ، تلك التي لا يغيرها الزمن على حين يغير المجتمعات، وقد أدرك مالك بن نبي أن: "نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه، هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله ﷺ ولكن بلغة أخرى، حين قال: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها"⁽¹⁾، وهذا القانون العام يحث على الرجوع إلى المنهجية العلمية السننية، والرؤية الكونية كما كانت في ميلاد المجتمع الإسلامي الأول، وهي الفكرة التي يبني عليها مالك بن نبي تصوره للبناء الحضاري، إنها فكرة الاستمداد من الحركة المعرفية النبوية، والاستمرار على منهاجه⁽²⁾، وبما أن الحركة السننية النبوية تحوي مرحلتين؛ مرحلة الإعداد الروحي، ومرحلة البناء والتغيير. فإن المرحلة التي تهم في هذا السياق هي

¹ - بن نبي. ميلاد مجتمع، مصدر سابق، ص 76.

² - ينظر: - عبده، محمد. رسالة التوحيد، تحقيق طاهر الصباحي، دط، دار الهلال، دت، ص 209. حيث عرض علاقة هذا الصلاح بعقيدة التوحيد، وعلاقة التوحيد بالعبودية الكاملة لله عز وجل.

مرحلة الإعداد السنني الروحي، التي هي بمثابة نقطة الانطلاق في البناء الحضاري، هذه المرحلة التي رأى مالك بن نبي إمكانية إنجازها بطريقتين؛ باستخدام التنمية الاجتماعية؛ إذا تعلق الأمر بشبكة العلاقات الاجتماعية حتى تكون في أكثر حالاتها، وتتخذ صورة "البنيان المرصوص".

والطريقة الثانية باستخدام التنمية الثقافية؛ التي هي انعكاس لما تثمره سنن الهداية من رحلة العبودية حين تصل أعلى درجاتها وهي الإحسان والطمأنينة⁽¹⁾، وهذا يؤكد محورية العبودية لله في بناء الرؤية الكونية السننية، ومحورية هذه الرؤية في الأفعال المنعكسة على تاريخ شبكة العلاقات الاجتماعية، أي كلما أحاط الإنسان بالسنن الأنفسية، عرف انعكاساتها على المستوى الاجتماعي؛ إذن فكرة التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي تبدأ من هنا، يقول: "لكي يمكن التأثير في أسلوب الحياة في مجتمع ما، وفي سلوك نموذج الذي يتكون منه، وبعبارة أخرى؛ لكي يمكن بناء نظام تربوي اجتماعي، ينبغي أن تكون لدينا أفكار جد واضحة عن العلاقات والانعكاسات، التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية، في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع"⁽²⁾، بهذه الطريقة تدخل الرؤية الكونية السننية كنتيجة عملية للتدين والعبودية الكاملة لله عز وجل، "فالدين حين يخلق الشبكة الروحية التي تربط نفس المجتمع بالإيمان بالله، وهو يخلق بعمله هذا أيضا شبكة العلاقات الاجتماعية، التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض"⁽³⁾، فالمعيار المركزي لفعالية الرؤية الكونية السننية هو العبودية الكاملة لله عز وجل.

¹ - يُنظر: - حوى، السعيد. **تريبتنا الروحية**، دط، مكتبة رحاب، الجزائر، دت، ص73، حيث حاول أن يطبق فكرة مالك بن نبي.

² - بن نبي. **ميلاد مجتمع**، مصدر سابق، ص78.

³ - نفسه، ص79.

المبحث الثالث: أثر الرؤية الكونية السننية البنائية في تحقيق التنمية الاجتماعية

بتوطين الوعي السنني تتضح معالم الرؤية الكونية، ويستقيم مسار المنهجية العلمية، ويرتبط عالم الشهادة بعالم الغيب، ويكون ذلك بأداء الوظيفة المركزية للإنسان وهي العبودية الكاملة لله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:56) وهذا العمل من شأنه أن يخلق القوة الروحية، ويحفز الإرادة عن العمل، وقد وجد مالك بن نبي في قوة المجتمع الإسلامي الأول دليلاً، فحين يصل الإنسان إلى مرتبة الإحسان تصل الروح إلى أوج قوتها، فيتبع نظام الانعكاسات الذي يغير سلوك الفرد، وهذا التغيير سيمده بالحياة، ويحقق له قوة الدفع والحركة نحو التنمية الاجتماعية، إذن فالعمل الأول يحكمه الوعي بالسنن الأنفسية وينتج القوة الروحية، والاندفاع نحو العمل الذي يمثل الجانب الثاني: الذي يتعلق بحركة التغيير التي تحركها السنن الأفقية، فكل فرد في المجتمع تتحقق له القوة الروحية يدخل في التغيير ويساهم في حركية البناء الحضاري وسير حركة التاريخ والبناء الحضاري: "هكذا ترى أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع، ومن المعلوم أن أعظم التغييرات وأعماقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار العبودية الكاملة لله عز وجل"، وبما أن تحقيق هذا الوعي السنني حدث في التاريخ فعلاً، فغنه يمكن إحداثه في الظروف الجديدة.

ويعتقد مالك بن نبي أن الإنسانية الآن وصلت إلى حالة من الوعي يجعلها أكثر تهيؤاً لقبول رسالة الإسلام، مما يجعل الظروف مناسبة لاستئناف حركة التاريخ، لهذا بات من الضروري الاقتداء بسيد المرسلين محمد ﷺ، سواء في جانب الإعداد الروحي، أو جانب التغيير، وإذ ذاك تصبح السيرة والسنة النبوية المطهرة هي المرجع الأساسي، وتتبع الحركة النبوية بدقتها ودقتها أمر من الأهمية بمكان، وحين

يلاحظ المصلح بأم عينه التغيرات المثيرة التي تحصل على المستوى الفردي⁽¹⁾ والاجتماعي سيصاب بالدهشة، وقد أتيح لمالك بن نبي الكثير من الفرص ليلاحظ هذه التغيرات، ورأى في التصوف النهج الأساسي لتحقيقها من جديد⁽²⁾، وقد اتجه مالك بن نبي لفحص حركة التاريخ لإدراكه أن التاريخ الإسلامي: "لم يترك وثيقة عن التغيير ذي الطابع التجميلي الذي كان قد صحب ميلاد المجتمع الإسلامي"، وإنما زودنا بالجانب النظري، الذي يخول لنا أن نستنبط السنن التي تتيح تحقيق النهضة للمجتمع الإسلامي.

ولهذا فإن التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي، تتطلب معرفة السنن التي تحكم الإنسان ككائن طيني بيولوجي، حتى يتم فهم الطاقة الحيوية المنطلقة بواسطة الغرائز، ثم معرفة السنن الأنفسية لتحويل هذه الطاقة إلى طاقة تستطيع النفس تكييفها والتحكم فيها لتوجيهها بحسب مقتضيات الطاقة الاجتماعية⁽³⁾، هنا بالذات يتحقق النشاط المشترك للمجتمع وتكون شبكة علاقاته الاجتماعية، أي أن القوة الروحية للفرد تحقق انعكاسات توجه الطاقة الحيوية بحسب المقتضيات الأخلاقية، فتتكون شبكة العلاقات الاجتماعية، التي بدورها تحقق التماسك بين أعضاء المجتمع، من جهة ومن جهة أخرى تجمع تلك القوى الروحية في قوة واحدة تسير في اتجاه واحد هو اتجاه التاريخ⁽⁴⁾، لتوظف السنن الآفاقية في التسخير والإعمار.

المنطلق يكون من العبودية الكاملة لله عز وجل، منها تشحن النفس الطاقة

¹ - يُنظر: - محمود، عبد الحليم. التربية الروحية، ط 1، دار التوزيع والنشر الإسلامية: القاهرة، 1995، ص 181.

² - يُنظر: - بن نبي، مالك. في مهب المعركة إرهابات الثورة، ط 3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1981، ص 167. حيث بين سبل توظيف التصوف في الظروف الجديدة.

³ - يُنظر: - البهي محمد. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه، دط، الدار القومية: بيروت، دت، ص 387.

⁴ - نفسه، ص 426.

الروحية الكافية⁽¹⁾، والعقل يشحن بالمفاهيم المركزية والسنن الكلية، فيندفع المسلم إلى الحركة والتغيير والتنمية الثقافية أو التربية الاجتماعية أو توصيل فعل التجربة الإيمانية هي مرحلة من أجل بناء فكرة، ولا يكفي إبداع الأفكار بل يجب ممارستها وتطبيقها، بعد أن تؤمن لها الحياة⁽²⁾، وتأمين الحياة يعني إيجاد الأرضية المناسبة لهذه الفكرة، والأرضية المناسبة تتعلق بحالة الذات، ولهذا اعتبر مالك أن مشكلة العلاقات الاجتماعية في عمقها: "تتصل من حيث طريقة حلها بالشروط النفسية الزمنية التي تقوم عليها حضارة، أي بشروط لا تحققها مجرد ثقافة مهنية بل ثقافة جذرية تغير معالم الذات"⁽³⁾، والنظر إلى الذات الإنسانية هو نظر إلى أعمارها النفسية الثلاثة⁽⁴⁾؛ وجد العمر الأول في الطفولة: "حيث في هذه المرحلة تصوغ النفس أحكامها طبقاً لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء، بحيث تكون أحكامها في أبسط صورها، معتمدة على الحاسة، أو ناتجة عن الحاجة البدائية"⁽⁵⁾، أما في العمر الثاني فتصوغ النفس أحكاماً طبقاً لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة، أي صادرة عن عالم الأشخاص، ففي هذا الطور لا تكون الفكرة حرة من تجسيد، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذي يجسدها في نظر المقتدي، وهنا بالذات كان منطلق طه عبد الرحمن، أي أنه ينظر إلى بداية التغيير والإصلاح⁽⁶⁾ من هذه الزاوية، إنه يقول

1. مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 22.

2. مالك، بن نبي: من أجل التغيير، ص 43.

3. مالك، بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 49.

4. هذه الفكرة موجودة عند ابن خلدون، وقد استخدمها مالك، كما وظفها جودت، سعيد في مشروعه رياح التغيير وظهرت أكثر في كتابه: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط 7، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1993، ص 143.

5. مالك، بن نبي: القضايا الكبرى، ص 188.

6. يراد بالإصلاح هنا الإصلاح الاجتماعي الذي يهدف إلى رد الاعتبار للقيم الإسلامية، والسير بها من نقطة الركود التي وقفت عندها في حياة المسلمين، نقطة صفيين، إلى حياة المسلم المعاصر، راجع؛ محمد، البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط 6، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1973 م، ص 421، وقد تبنت هيام الملقى المنطلق نفسه في مشروعه: التجارب الروحية بين التأصيل الإسلامي والاعتراق الثقافي تجديد الصلة بالله، مرجع سابق، وصرحت بذلك، ص 20.

بالقدوة المشخص. أما العمر الثالث، فتصبح الفكرة عند النفس ذات قيمة في حد ذاتها، دونما تأييد من عالم الأشخاص وعالم الأشياء، وهذا هو المعنى الذي يريده مالك بن نبي من الاقتناع الشخصي بالفكرة، وهنا بالذات يكون ضمان الأمان للفكرة؛ إذ تصبح الفكرة لا تحتاج إلى ضمان قيمتها من طرف شخص معين، لأنها وصلت إلى درجة الرسوخ في نفس كل مسلم، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران/144)، وهكذا فالفكرة الحية ليست في حاجة إلى حماية، بل هي في حاجة إلى عنصري التحصيل والتوصيل، وهذا هو منطلق مالك بن نبي وغايته، إنه يريد أولاً أن ينطلق من تجربة تستغرق النفس وهي في مرحلة طفولتها، ثم التدرج معها إلى مرحلة شبابه حتى بلوغ النضج، وحتى تنضج وتصل إلى تمام القوة الروحية، تبدأ المرحلة الثانية من التجربة الإيمانية، والبداية. كما تبين. تكون بالقراءة والعلم، والشروع في تطبيق الأعمال الشرعية، متجاوزا كل العوائق التي يمكن أن تصد هذه العملية⁽¹⁾.

لهذا نجده في موضع آخر، يربط استعادة الأفكار بالحياة الاقتصادية، وبتأمين الخبز اليومي⁽²⁾، فبداية الإصلاح يجب أن تنطلق من الحث على العمل، وأداء الواجب قبل المطالبة بالحقوق، لأن أداء الواجب في نظر مالك بن نبي يقوي الإرادة ويدفع الهمم⁽³⁾.

¹. أورد مالك بن نبي العلاج اللازم في كتابه: القضايا الكبرى، ص172، وأيضا العملية الأولية التي هي التطهير النفسي، في الكتاب نفسه، ص111، وهنا طرح سؤالا مهما؛ ما هي النزعة الإسلامية التي ندرجها في بنائنا المفاهيمي؟، ثم أجاب بوضوح قائلا بضرورة إحياء الحياة الروحية، وهذا بالطبع يكون بالوعي السني والمنهجية العلمية السنية ص123، كما أنه صرح بأنه وجد لمشكلة الأفكار حلا، والمتفحص لمضمون هذا الحل يكشف أنه الوعي السني، راجع كتابه: مشكلة الأفكار، ص162.

². مالك، بن نبي: مشكلة الأفكار، ص113.

³. مالك، بن نبي: مذكرات شاهد على قرن الطالب، ص389.

وعملية التربية هذه تتطلب دراسة موقفين: موقف المتلقي من الناحية النفسية، وموقف الملحق من الناحية الفكرية، إذن فالإصلاح يتطلب فكرا معينا عند المصلح، وحالة نفسية عند المتلقي، لهذا قال مالك بن نبي: "إن الذي ينقص المسلم ليس هو منطق الفكرة ولكنه منطق العمل والحركة"⁽¹⁾، ينقصه الفعل السنني: "وقد جاءت كل الديانات لترويض الطاقة الحيوية للإنسان وجعلها مخصصة للحضارة"⁽²⁾، وبناء على ذلك يضع الدين الحرية الفردية بين حدود عمل المجتمع ومقتضيات الحرية الخاصة بهذا المجتمع"⁽³⁾، فالمهمة الأساسية للرؤية الكونية السننية أن تولي الوعي السنني إلى فعل سنني يظهر على مستوى عالم الأشخاص، وفي مستوى عالم الأشياء.

الخاتمة

في ختام هذا البحث نصل إلى النتائج التالية:
أولاً: إن القضية التي شغلت ابن خلدون حين أراد أن يفهم الظاهرة السياسية هي؛ كيفية تحويل التاريخ إلى علم حتى يصبح مدخلا صحيحا لفهم العمران البشري، وهنا اهتدى ابن خلدون إلى المنهجية العلمية السننية، وأسس الجوانب المعرفية والمنهجية الجديدة لعلم التاريخ، وعلم العمران البشري وباقي العلوم، وبهذا يمكن إرجاع علم اجتماع المعرفة في نشأته الصحيحة المتوازنة إلى ابن خلدون دون أدنى شك أو ريب.

ثانياً: إن علم اجتماع المعرفة في صورته الحالية هو علم غربي المبني والتوجه، إذ

¹. مالك، بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 87.

². "خطرات في الدين والنفس"، كتاب يتحدث عن الترويض النفسي بالدين، ويستخدم منهج التحليل النفسي الذي استخدمه مالك بن نبي، لصاحبه: أحمد ماهر محمود، البكري: خطرات في الدين والنفس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1977م، راجع الصفحات؛ من 11 إلى 30 حيث يبين كيف يتم تطويع الضرورات الحيوية، بواسطة الأعمال الشرعية.

³. مالك، بن نبي: القضايا الكبرى، ص 110.

بالرغم مما يبدو من توسّع في دائرته، وتعدد في مشاربه ومصادره؛ فهو أحياناً يظهر أنه نبع من باطن الدين، وأحياناً يتبيّن أنه خرج من جوف التاريخ، وأحياناً يُعتقد أنه كامن في بنية الطبقة أو في بنية الثقافة، والحقيقة أن مفاهيمه ووكلياته ومسلماته ومناهجه لا تخرج كلها عن الرؤية الكونية الغربية المبنية على مقولات مادية خالصة.

ثالثاً: إن ما يميز علم اجتماع المعرفة البنّائي هو إدخال الدين والوحي كعامل أساسي في الرؤية الكونية، والبنية الحضارية، والنظام المعرفي؛ فالدين يشحن عالم الأفكار بالمعرفة السننية التي تنعكس على عالم الأشخاص فتتحول إلى فضائل أخلاقية تربط أفراد المجتمع في بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً، فتنعكس على عالم الأشياء، ليُحسن الإنسان تسخيرها، وإعمار الأرض فتتحقق التنمية الاجتماعية والثقافية وتشكل الحضارة.

رابعاً: إن نقطة الانطلاق تكون من التربية والقُدوة، باسترجاع المحضن التربوي النبوي الذي يوظف نعم السمع والأبصار والأفئدة أحسن توظيف؛ فيبدأ بالاستماع إلى تلاوة آيات الله في كتابه العزيز، ثم تزكية النفس وتخليتها من كل الأدران، ثم تعلم الكتاب والحكمة، فيحصل الوعي السنني الذي يؤدي إلى الفعل السنني فتحصل الانطلاقة الحضارية.

وعليه يوصي البحث بمدارسة الأبعاد السننية في فكر مالك بن نبي، والكشف عن سبل إنتاجها، وسبل تشغيلها، وبحث معالم المنهجية العلمية السننية عنده وكيفية توظيفها في تفسير التاريخ وفقه الواقع.

والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة، دط، المطبعة الأزهرية بجوار الأزهر: مصر، 1930.
- أبو سليمان، أحمد عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطق الأساس للإصلاح الإنساني، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: عمان، 2014.
- إسماعيل، محمد قباري. علم الاجتماع والفلسفة نظرية المعرفة، تقديم: محمد ثابت الفندي، ط2،

- دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية مصر، 1982، ج2.
- الباقلائي، أبوبكر. الإنصاف فيما يجوز الاعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، ط2، مكتبة الخانجي: مصر، 1993.
 - بن نبي، مالك. الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1987.
 - بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، طبعة القدس عاصمة الثقافة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 2009.
 - بن نبي، مالك. مذكرات شاهد للقرن الطالب، ط2، دار الفكر: دمشق، سوريا، 1984.
 - بن نبي، مالك. مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1984.
 - بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1986، ج2.
 - بن نبي، مالك. وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تصوير 1986 عن ط: 1981، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، 1981.
 - البهي، محمد. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط6، دار الفكر: بيروت، 1973.
 - البهي، محمد. الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه، دط، الدار القومية للنشر والتوزيع: بيروت، دت.
 - الزيات، فتحي. الأسس المعرفية للتكوين العقلي المعرفي وتجهيز المعلومات، ط2، دار النشر للجامعات: مصر، 2006.
 - سعيد، جودت. حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط7، دار الفكر، دمشق، سوريا، 1993.
 - عبده، محمد. رسالة التوحيد، تحقيق: طاهر الصباحي، دط، دار الهلال، دت.
 - عبيد، محمد رشيد. الإيمان بالله في ضوء العلم والعقل، ط1، دار القادري: بيروت، لبنان، 1992، ص117.
 - قباري، محمد، إساعيل. قضايا علم الاجتماع المعاصر، دط، منشأة المعارف: الإسكندرية، مصر، دت.
 - محمد عاطف، غيث. دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، 1975م.
 - محمود، عبد الحليم. التربية الروحية، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية: القاهرة، مصر، 1995.
 - مسقاوي، عمر كامل. نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق، سوريا، 1986.
 - نبيل عبد الحميد، عبد الجبار. تاريخ الفكر الاجتماعي، دط، دار دجلة: الأردن، 2009م.

الإنسان ومركزية التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي

أ.د. موسى بن موسى

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الوادي (الجزائر)

Benoussa-moussa@univ-eloued.dz

مقدمة

تعدّ قضية التنمية الاجتماعية واحدة من أهم القضايا التي تناولها المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتاباته. وتركز فلسفته حول الإنسان باعتباره المحور الأساسي والفاعل الأول في عملية التنمية. انطلاقاً من كون الإنسان الكائن المكلف، ذلك من خلال الآية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الاحزاب 72). هذا ما يؤكد مبدأ الاستخلاف الذي أقره الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 30)

والتنمية الاجتماعية هي حركة مطردة يساهم في تفعيلها المجتمع، الذي يكون الإنسان عنصر أساسي في تشكيله، هذا ما يساهم في بلورة تحولات اجتماعية. ومن هذا المنطلق، سوف نتناول هذه القضية من خلال مداخلة حول هذا الموضوع بعنوان: "الإنسان ومركزية التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي".

وحتى نستطيع تناول الموضوع لابد من طرح إشكالية المداخلة التي مفادها:

كيف يفسر مالك بن نبي دور الإنسان في عملية التنمية الاجتماعية؟ وما هي العوامل التي يعتبرها أساسية لتحقيق تنمية اجتماعية مستدامة وفقاً لفلسفته؟

أما نقاط النقاش ضمن الإشكالية تكمن فيما يلي:

أولاً - المفهوم المركزي للإنسان في فكر بن نبي، الذي بدوره يقوم على تساؤلين هما:

- كيف يرى مالك بن نبي الإنسان بوصفه المحور الأساسي للتنمية؟
- ما هي الصفات والقدرات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان ليكون قادراً على إحداث التغيير والتنمية؟

ثانياً - العلاقة بين الثقافة والتنمية، ولا يتضح ذلك إلا من خلال:

- كيف يؤثر البعد الثقافي على عملية التنمية الاجتماعية؟
 - ما هو دور الثقافة في بناء الإنسان الفاعل والمبدع حسب بن نبي؟
- ثالثاً - دور الفكر والقيم في التأثير على التنمية الاجتماعية، الذي يمكن إبرازه من خلال التساؤلين الآتيين:

- كيف يرى بن نبي تأثير الفكر والقيم الأخلاقية على التنمية الاجتماعية؟
 - ما هي القيم التي يعتبرها ضرورية لتحقيق التنمية؟
- رابعاً - البيئة الاجتماعية والمؤسسات، ذلك من خلال:
- الدور الذي تلعبه المؤسسات الاجتماعية في تعزيز أو إعاقة عملية التنمية.
 - دور البيئة الاجتماعية في دعم الإنسان في مسيرته نحو التنمية.

تمهيد:

مالك بن نبي فيلسوف ومفكر جزائري بارز، ولد عام 1905م في مدينة قسنطينة¹، وهو مالك الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي شرق الجزائر². وهو

¹ مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، دمشق، 1413هـ/1993م، ص 15.

² عبد الله بن حمد العويبي: مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012، ص 51.

فيلسوف الحضارة، له أفكار مهمة بشأن الإنسان ومركزية التنمية الاجتماعية. ولا ينهض المجتمع، ولا يعرف الاستقرار إلاّ بالفاعلية الثقافية، ولا تكتمل فيه إلا بالممارسة والحقن الحضاري. وأيّ تأخر في عملية البذر الثقافي الدؤوب في بناء وتنشئة المجتمع، ستجعل منه مجتمعاً متخلفاً وبدائياً تعمّه الهمجية ويحيا بالتخلف والفوضى، لذلك فقد عرّف المفكر مالك بن نبي الحضارة قائلاً: «... إنني أؤمن بالحضارة على أنها حماية للإنسان؛ لأنها تضع حاجزاً بينه وبين الهمجية¹...».

يعد مالك بن نبي واحداً من رواد التفكير في التحرّر الوطني والتنمية الاجتماعية في الجزائر، والعالم العربي والإسلامي، حيث تركّز فلسفة مالك بن نبي على أهمية الإنسان كمركز للتنمية الاجتماعية. كما أنه أكد على ضرورة التأكيد على قيمة الإنسان وحقّه في التنمية الشاملة، رافضاً التسليم لأشكال الاستعمار والتبعية الاجتماعية. وهو يعتبر أن التنمية الحقيقية تأتي من خلال تمكين الإنسان واحترام كرامته، وأن القضاء على الظلم الاجتماعي هو شرط أساسي للتقدم الحقيقي للمجتمعات².

إن من المعروف أن مالك بن نبي قدم تحليلات نقدية للوضع الاجتماعي والسياسي في العالم العربي والإسلامي، داعياً إلى تغيير جذري في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لتحقيق التحرر والتقدم.

أولاً - المفهوم المركزي للإنسان في فكر بن نبي:

إن الطبيعة البشرية للإنسان هي المحور الذي يدور عليه الوضع البشري، الذي منه يبرز وإليه ينتهي، فلا يمكن في أي حال من الأحوال الحديث عن مجتمع دون إنسان، ذلك للاطراد المتحكم بين الطرفين. فالإنسان يتكيف طبقاً لحاجياته

¹ مالك بن نبي: **القضايا الكبرى**، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1420هـ/2000م، ص 78.

² مالك بن نبي: نفس المصدر، ص ص 78، 79.

ومقتضيات التشريع بما وهبه الله تعالى من استعدادات فطرية¹.

إن المفهوم المركزي للإنسان في فكر بن نبي يقوم أساساً على اعتبار الإنسان المفهوم المركزي والجوهر الأساسي، الذي تدور حوله رؤيته للإصلاح الاجتماعي والحضاري. ومالك يضرب مثلاً بحياة الإنسان و تعرفه على هذه العوامل الثلاثة التي تقوم عليها الحياة (عالم الأشياء - عالم الأشخاص - عالم الأفكار)، فالطفل الوليد باعتباره كائناً منعزلاً في طريقه إلى الاندماج، يبدأ أولاً بالتعرف على عالم الأشياء، حيث يتعرف على يده ورجله باعتبارها أشياء دون إدراك حقيقي منه بأنها جزء من كينونته، فيضعها في فمه في محاولة للتعرف عليها. كما يفعل بالضبط مع ثدي أمه التي لا يتعرف عليها، وهي لا تمثل إليه سوى الثدي أو - مصدر الطعام - فمالك - على حد تعبيره - يقول إنه في هذه المرحلة يمكن أن تحل "الرضاعة" الصناعية محل (الأم/الثدي) بسهولة (مرحلة الشيء)².

ثم يبدأ الطفل يألف هذا العالم من خلال تعرفه على أمه ككيان كامل، فيتعرف على وجهها ويستأنسها ويقلدها في كل شيء، ثم يبدأ في التعرف على بقية الأشخاص ويتفاعل معهم، فهو يلج عالم الأشخاص³. وفي سن السادسة ومع تمكن الطفل من ناصية اللغة يبدأ في التعامل مع الأفكار المجردة ويبدأ في تكوين رأيه الخاص. كما يبدأ في التجريد، ويكون مقدار ذكاءه بمقدار ما يستطيع التخلص من ربط هذه الأفكار بالأشخاص والأشياء، وتكوين مفاهيم مجردة مستقلة عن العالمين السابقين، ليلج عالم الأفكار. ومن هنا أراد مالك بن نبي بضرب هذا المثل

1 محمد الشافعي: "فلسفة الإنسان والحضارة عند مالك بن نبي من خلال الدراسات المعاصرة - التأصيل والأبعاد -"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مطبعة مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد 4، العدد 1، الاغواط، الجزائر، 30 جانفي 2019، ص 62.

2 عمر أحمد محمد سعيد عثمان: مالك بن نبي - مهندس الحضارة -، ورقة بحثية، إشراف توفيق العوجي، جامعة بيروت الإسلامية، الرابط: <https://www.academia.edu>، ص 10.

3 عمر احمد محمد سعيد عثمان: نفس المرجع، ص 10.

أن يؤسس لفكرتين الفكرة الأولى أن العوالم الثلاثة متواجدين دوماً في وعي الإنسان، ومؤثرين فيه، لكن باختلافهم تختلف أفكار الإنسان بعضها عن بعض، والفكرة الأخرى وهي ربط مراحل الإنسان العمرية ونضجه بنضج المجتمعات¹.

ومما سبق فالإنسان في خضم هذه العوالم وبعد اكتمال نضجه، يكون بين خيارين إما أن يعتزل منفرداً يتلبسه الشعور بالفراغ الكوني، غير أن طريقته في ملء هذا الفراغ؛ هي التي تبرز ملامح ثقافته وحضارته؛ أي سائر الخصائص الداخلية منها والخارجية لوظيفته التاريخية. وملء الفراغ هناك مسلكين²:

- إما أن ينظر المرء حول قدميه، أي نحو الأرض،

- وإما أن يرفع نظريه نحو السماء.

فالمسلك الأول يملأ عزله بالأشياء، حيث يلوح بصره المستلطف لتملكها، في حين أن المسلك الثاني يملأ انزاله بأفكار، فيصير يبحث عن الحقيقة ببصيرته المستائلة. وهنا يحسد الإنسان في عزله موقف مادي (الثقافة الغربية)؛ أي ثقافة سيطرة ذات جذور تقنية، أو فكري (الثقافة الإسلامية)؛ أي ثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية³. وإن الإنسان في فكر مالك بن نبي يمكن تلخيصه من خلال عدة نقاط رئيسية:

1 - الإنسان كفاعل حضاري: فهو العنصر الأهم في عملية بناء الحضارة، حيث يرى مالك بن نبي أن الحضارة تبدأ بالإنسان، لكونه العنصر المفعّل لعملية التغيير انطلاقاً من إرادته ورؤيته وقدرته على التغيير، إلى جانب التراب والزمان في ظل

¹ السابق، ص 10.

² مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط 1، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1423هـ/2002م، ص 17.

³ مالك بن نبي: نفس المصدر، ص 17.

الوسيط الدين والعادات والتقاليد¹.

2 - **الثقافة والمعرفة:** يعتبر بن نبي أن الثقافة والمعرفة هما العنصران الحاسمان في تكوين شخصية الإنسان الحضاري. ويؤكد على ضرورة بناء الإنسان المثقف الواع، ذو القدرة على المشاركة في التنمية انطلاقاً من بعدي الحضور والشهادة، ومن هنا يكون قادراً على التفكير النقدي والإبداعي، الذي يمتلك القدرة على الفهم والتفاعل مع العالم من حوله².

3 - **القيم والأخلاق:** يؤكد مالك بن نبي على أهمية القيم والأخلاق في بناء الإنسان، حيث يرى أن الأخلاق هي الأساس الذي يقوم عليه بناء الفرد والمجتمع، وأنها تشكل البنية الداخلية التي تحدد سلوك الإنسان وتوجهاته³. كما يرى مالك بن نبي أن الإنسان هو المحور الأساسي للتنمية، ويعتمد هذا الرأي على مجموعة من المبادئ والأفكار التي تتعلق بدور الإنسان في المجتمع فكيف يمكن أن يكون الإنسان أداة فعالة للتغيير والتنمية؟

يمكن تلخيص رؤية بن نبي لذلك من خلال النقاط التالية:

✓ الإنسان أساس الحضارة:

الإنسان هو المكوّن الرئيسي والعامل المحرك للتقدم الحضاري، فالإنسان يمتلك القدرة على التفكير والإبداع والابتكار، وهذه الصفات هي التي تساعد في تنشئة المجتمعات وتطويرها عبر العصور، هذا من خلال قدرة الإنسان على التعلم والتكيف مع البيئة، حيث قام الإنسان بتطوير الأدوات والتكنولوجيا والمؤسسات

¹ الطاهر سعود: **التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي**، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2006، ص 207.

² مالك بن نبي: **مشكلة الثقافة**، مرجع سابق، ص 79. - مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع**، الجزء الأول شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 3، دار الفكر، دمشق، 1406هـ/1986م، ص 102. - مالك بن نبي: **القضايا الكبرى**، دار الفكر، دمشق، 1420هـ/2000م، ص ص 76، 78.

³ مالك بن نبي: **مشكلة الثقافة**، نفس المرجع 67.

التي ساهمت في تحسين ظروف حياته وتطوير المجتمعات. بالإضافة إلى ذلك، فإن القدرة على التعاون والتفاعل الاجتماعي بين البشر تسهم في تشكيل شبكة العلاقات القوية داخل المجتمعات، وتعزز من التقدم الحضاري والثقافي¹. لذا، يمكن القول بأن الإنسان كعنصر حيوي في الحضارة يمتلك القدرة على إحداث التغييرات الإيجابية التي تسهم في تقدم البشرية بشكل عام. وهذا يقوم على²:

- اعتبار الإنسان العنصر الأساسي في بناء الحضارة، حيث أن الحضارات تُبنى على أكتاف الأفراد المبدعين والمفكرين والمجتهدين.

- الإنسان هو المحرك الرئيسي لكل تطور أو تقدم، وأن جودة الحضارة تعتمد على جودة الأفراد الذين يشكلونها.

✓ **التنمية تبدأ بالإنسان:** يرى مالك بن نبي أن التنمية تبدأ من الفرد ذاته، حيث يعتبر الإنسان هو اللبنة الأساسية في عملية التنمية. وفي هذا السياق، يشدد بن نبي على أهمية التربية والتعليم في تكوين شخصية الإنسان وتنمية مهاراته وقدراته. ذلك مما يقره مالك بن نبي من خلال³:

- التنمية الحقيقية تبدأ من الإنسان، وليس من الموارد المادية، حيث يرى أن الاستثمار في الإنسان هو الأساس لتحقيق التنمية المستدامة باعتبار الإنسان رأس المال.

- التنمية البشرية تتطلب تطوير القدرات الفكرية والأخلاقية للأفراد، حيث يصبحون قادرين على مواجهة التحديات والإسهام بفعالية في المجتمع.

✓ **دور التربية والتعليم:** إن التربية والتعليم هما الركيزتان الأساسيتان في بناء

¹ مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع**، المرجع السابق، ص ص 29، 30.

² طاهر سعود: المرجع السابق، ص ص 208، 209.

³ مالك بن نبي: **تأملات**، دار الفكر، دمشق، 1423هـ/2002م، ص ص 56 - 62.

مجتمعات قادرة على رفع التحدي الحضاري، هذا من خلال ما يوليه مالك بن نبي: - الأهمية الكبيرة للتربية والتعليم في تكوين الإنسان القادر على التنمية، حيث يرى مالك بن نبي أن بضرورة شمولية التعليم، الذي ينبغي أن يغطي الجوانب الأكاديمية والأخلاقية والاجتماعية.

- الاعتقاد الجازم باعتبار التعليم هو الوسيلة الرئيسية لبناء الإنسان الواعي والمسؤول، القادر على قيادة المجتمع نحو التنمية.

✓ القيم والأخلاق: فهي الوسيط الفاعل في تنشئة الإنسان، حتى يكون عنصراً فاعلاً وأساسياً من خلال:

- القيم والأخلاق هي الأساس الذي يبنى عليه الإنسان الفاعل في التنمية، حيث يرى أن الأخلاق تشكل البنية التحتية للسلوك الإيجابي والإنتاجي.

- الأخلاق ليست مجرد سلوك فردي، بل هي عنصر جوهري في بناء المجتمع وتوجيهه نحو التنمية.

✓ الوعي الاجتماعي: أسهم مالك بن نبي في تطوير نظرية الوعي الاجتماعي، التي تركز على فهم كيفية تكوين الوعي الجماعي لدى الأفراد والمجتمعات، وكيف يؤثر الوعي على سلوكهم وتصرفاتهم الاجتماعية والسياسية. ينظر إلى الوعي الاجتماعي عند مالك بن نبي على أنه مجموعة من الأفكار والقيم التي تشكل الشخصية الاجتماعية وتؤثر في الاستجابات السياسية والثقافية والاقتصادية للأفراد والمجتمعات. هذا ما جعل مالك يقف عند الوعي الاجتماعي من خلال:

- التأكيد على أهمية الوعي الاجتماعي والفكري في عملية التنمية، حيث يرى أن الإنسان يجب أن يكون واعياً بالتحديات والمشكلات التي تواجه مجتمعه، وأن يكون لديه رؤية واضحة لكيفية المساهمة في حلها.

- يشدد على ضرورة تنمية الوعي بالمسؤولية الاجتماعية لدى الأفراد، بحيث يكون كل فرد جزءاً من حل المشكلة وليس جزءاً من المشكلة.

✓ **الإبداع والابتكار:** وهي خصلتان من خصال حيوية الإنسان، حيث لا يمكن تمييزه عن غيره من الكائنات، ومن هنا فإن مالك:

- يشجع على الإبداع والابتكار كوسيلة لتحقيق التنمية. يرى أن الإنسان يجب أن يكون مبتكراً في تفكيره وأفعاله، وأن يسعى دائماً لإيجاد حلول جديدة ومبتكرة للمشكلات القائمة.

- يعتبر أن الإبداع هو محرك أساسي للتنمية، وأن الإنسان المبدع هو من يقود المجتمع نحو التقدم.

ومما سبق فإن مالك بن نبي يعتبر الإنسان ليس محور التنمية فقط، بل هو أساسها ووسيلتها وهدفها. والتنمية تبدأ ببناء الإنسان وتطوير قدراته الفكرية والأخلاقية والاجتماعية، وتنتهي بتحقيق مجتمع متطور ومزدهر يعتمد على أفراد المبدعين والمسؤولين.

✓ **التربية والتعليم:** يرى مالك بن نبي أن التربية والتعليم هما الآليتان الرئيسيتان لتشكيل الإنسان المثالي. كما يعتبر أن التعليم لا يجب أن يقتصر على الجوانب الأكاديمية فقط، بل يجب أن يشمل أيضاً التربية الأخلاقية والاجتماعية.

✓ **دور الإنسان في المجتمع:** يؤكد مالك بن نبي على أن الإنسان ليس كائناً منعزلاً، بل هو بطبعه كائن اجتماعي، فهو جزء من مجتمع يتفاعل معه ويؤثر فيه ويتأثر به، لذا يرى مالك بأن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الإنسان الفرد، وتوجيهه ليكون عنصراً إيجابياً فاعلاً في مجتمعه.

✓ **النهوض الحضاري:** يؤمن بن نبي بأن نهضة الأمم والحضارات تعتمد على نوعية الأفراد الذين يتكونون منها، فهو يعتبر أن أي مشروع نهضوي يجب أن يبدأ بالتركيز على الإنسان، وتأهيله ليكون قادراً على الإسهام بفعالية في بناء الحضارة.

ومما سبق يظهر أن مالك بن نبي يرى في الإنسان مفتاحاً رئيسياً للتغيير والإصلاح الحضاري، وأنه من خلال تنشئة الإنسان فكرياً وأخلاقياً واجتماعياً،

يمكن تحقيق نهضة شاملة ومستدامة للمجتمع.

4- الإنسان المحور الأساسي للتنمية:

يرى مالك بن نبي الإنسان بوصفه المحور الأساسي للتنمية من خلال مفهومه الشامل والحضاري للتنمية في فلسفته، حيث يركز بن نبي على دور الإنسان في تحقيق التنمية والنهوض الحضاري، ويعتبر أن الإنسان هو العنصر الأساسي الذي يجب الاستثمار فيه لتطوير المجتمع وتحقيق التقدم، حيث يمكن

تلخيص رؤية مالك بن نبي حول هذا الموضوع في النقاط الآتية:

- **الإنسان الفاعل والمبدع:** يرى بن نبي أن التنمية الحقيقية تبدأ من الإنسان نفسه، فهو العنصر الفاعل والمبدع الذي يمكنه تحويل الأفكار إلى واقع. الإنسان هو من يتكر ويطور الأدوات والتقنيات، وهو من يصنع الحضارة بمعارفه ومهاراته وإرادته.

- **بناء الشخصية الإنسانية:** يؤكد بن نبي على أهمية بناء الشخصية الإنسانية القادرة على تحمل المسؤولية والمساهمة الفعالة في التنمية. هذه الشخصية تحتاج إلى التعليم الجيد والتربية الصحيحة والتدريب المستمر لتنمية قدراتها ومهاراتها.

ثانيا - العلاقة بين الثقافة والتنمية:

إن للثقافة دور حاسم في عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات، حيث كان مالك يرى أن الثقافة ليست مجرد مجموعة من العادات والتقاليد، بل هي القوة الدافعة والمحركة وراء التقدم والتحول في المجتمعات. وفهمه للثقافة كان يتجاوز الأبعاد النمطية للثقافة ليشمل الجوانب الفكرية والروحية والإبداعية.

عندما يتعلق الأمر بالتنمية، كان مالك بن نبي يروج لفكرة أن التنمية الحقيقية والمستدامة لا يمكن أن تتحقق بدون الاهتمام بالثقافة والتعبير الثقافي. كما كان يعتبر

أن الثقافة تساهم في بناء هوية الشعوب وتعزز الانتماء الوطني القومي والتفاعل الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك، كان يربط بين الثقافة والتنمية الاقتصادية، حيث أن الابتكار والإبداع والمهارات الثقافية يمكن أن تكون محفزات للنمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي.

وبموجب هذه النظرية، يُعتبر التعليم والبحث العلمي والتطوير التكنولوجي جزءاً أساسياً من عملية التنمية، حيث تلعب الثقافة دوراً حاسماً في تعزيز هذه الجوانب وتحفيز الابتكار والتفاعل الإبداعي بين الأفراد والمجتمعات.

وعليه مالك بن نبي يعتبر أن العلاقة بين الثقافة والتنمية تركز على فهم عميق لدور الثقافة كمحرك أساسي للتقدم الاجتماعي والاقتصادي، وعلى أهمية إدماج العوامل الثقافية في استراتيجيات التنمية المستدامة. وهذا لا يستوي عند مالك إلا من خلال:

- تأثير البعد الثقافي على عملية التنمية الاجتماعية:

إن تأثير البعد الثقافي على عملية التنمية الاجتماعية كبير ومتنوع، فالثقافة في فكر مالك بن نبي تمثل مجموعة القيم والمعتقدات والسلوكيات التي تبرز كيفية تفاعل الأفراد داخل المجتمع، وبالتالي تؤثر على جميع جوانب التنمية الاجتماعية. وفيما يلي بعض الطرق التي يؤثر بها البعد الثقافي على التنمية الاجتماعية:

- القيم والمعتقدات: يرى مالك أن القيم والمعتقدات تؤسس من خلال:

- تشكيل الأولويات التنموية: القيم الثقافية تؤثر على ما يعتبره المجتمع مهماً وضرورياً للتنمية. وفي بعض الثقافات يُعطى التعليم أولوية قصوى، مما يوجه الموارد والجهود نحو تحسين النظام التعليمي.

- التعامل مع التغيير: الثقافات التي تشجع الابتكار والانفتاح على الأفكار الجديدة تكون أكثر قدرة على التكيف مع التغيرات وتحقيق التنمية.

2- الأدوار الاجتماعية والعلاقات: وهي لا تتضح إلا من خلال:

- توزيع الأدوار: يرى مالك أن القيم الثقافية تحدد الأدوار الاجتماعية لكل فرد بناءً على الجنس، العمر، الطبقة الاجتماعية، وما إلى ذلك. هذا يؤثر على كيفية توزيع الفرص والموارد داخل المجتمع.

- العلاقات الاجتماعية: إن قوة العلاقات الأسرية والمجتمعية يمكن أن تؤثر بشكل كبير على تماسك المجتمع وقدرته على العمل معاً لتحقيق أهداف تنموية مشتركة.

ثالثاً - دور القيم والأخلاق في التأثير على التنمية الاجتماعية:

تلعب القيم والأخلاق دوراً بارزاً في التأثير على التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي، حيث يرى أن القيم والأخلاق تشكل أساساً مهماً لبناء المجتمعات القوية والمستقرة، وتسهم في تعزيز العلاقات الاجتماعية الإيجابية وتحقيق السلام والتآلف بين أفراد المجتمع. كما يؤمن بن نبي بأن القيم الإنسانية مثل العدالة والصدق والمساواة تسهم في خلق بيئة اجتماعية تعزز من التنمية الشاملة والمستدامة. كما يركز على أهمية تعليم هذه القيم منذ الصغر لبناء أجيال مستقبلية تساهم في تحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع.

إن بن نبي يروج أيضاً لأخلاقيات العمل والاجتهاد كأساس للنجاح الفردي والجماعي، مما يسهم في تحقيق رفاهية الفرد وتعزيز قدراته الاجتماعية والاقتصادية. بالتالي، يمكن القول إن القيم والأخلاق تشكل عنصراً أساسياً في الفلسفة الاجتماعية لمالك بن نبي، حيث تسهم في تعزيز التنمية الاجتماعية من خلال تعزيز التفاعل الإيجابي والتعاون بين أفراد المجتمع.

فهو يشدد على أهمية القيم والأخلاق في عملية التنمية، فالإنسان الذي يتسم

بالصدق والأمانة والعمل الجاد والانضباط يكون قادراً على بناء مجتمع متقدم ومزدهر. ولا يتأتى كل ذلك إلا من خلال:

1 - **العقلية الحضارية:** يؤكد بن نبي على ضرورة تكوين عقلية حضارية لدى الأفراد، تعنى بالنظر إلى الأمور بنظرة شمولية وتفكيرية، والسعي نحو تحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

2 - **الدور الاجتماعي:** الإنسان ليس كائناً معزولاً بل هو جزء من مجتمع، ومن ثم فإن التعاون والتضامن بين الأفراد ضروري لتحقيق التنمية. كما يرى بن نبي أن التماسك الاجتماعي والوحدة بين أفراد المجتمع يمكن أن يشكل بيئة مناسبة للنمو والازدهار.

3 - **العلم والمعرفة:** يؤمن بن نبي بأن العلم والمعرفة هما أساس التنمية. الإنسان المتعلم والمثقف يستطيع أن يقود عملية التنمية بفعالية، وأن يبتكر حلولاً للتحديات التي تواجه المجتمع.

ومن خلال تلك الرؤية الشاملة، يبرز مالك بن نبي أهمية الإنسان بوصفه المحور الأساسي للتنمية، ويشدد على ضرورة الاستثمار في الإنسان من خلال التعليم والتربية والتدريب على القيم والأخلاق والعمل الجماعي لبناء مجتمع حضاري متقدم.

4 - **الصفات والقدرات الواجب توفرها للإنسان لإحداث التغيير والتنمية:** إن رؤية مالك بن نبي لإحداث التغيير والتنمية، تقوم على تحلي الإنسان بمجموعة من الصفات والقدرات التي تُمكنه من تحقيق هذا الهدف بنجاح. هذه الصفات والقدرات تتمثل في:

- **القيادة والرؤية الاستراتيجية:** وهذا لا يستوي إلا من خلال:

✓ القدرة على تحديد الرؤية من خلال وجود رؤية واضحة ومحددة للمستقبل.
✓ القدرة على التخطيط الاستراتيجي عن طريق وضع خطط عملية لتحقيق الأهداف المحددة.

- الابتكار والإبداع: وكل منهما يركز على،
✓ القدرة على التفكير الإبداعي بإيجاد حلول جديدة ومبتكرة للمشكلات القائمة.

✓ التكيف مع التغيير وفق القدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة واستغلالها بشكل إيجابي.

- المرونة والقدرة على التكيف: وهذا من خلال:
✓ القدرة على التعامل مع التحديات من خلال الاستجابة بفعالية للتحديات والمشاكل التي قد تنشأ.

✓ الاستمرارية، ذلك بالقدرة على المضي قدماً رغم الصعوبات.
- المهارات الاتصالية: وتظهر من خلال:
✓ القدرة على التواصل الفعال؛ أي توصيل الأفكار والرؤى بوضوح للأطراف المعنية.

✓ الاستماع الجيد من خلال فهم احتياجات وتوقعات الآخرين.
- المهارات التنظيمية والإدارية: التي من خلالها يمكن التحكم في:
✓ إدارة الوقت: القدرة على تنظيم الوقت بشكل فعال.
✓ إدارة الموارد: الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة لتحقيق الأهداف.
- التعلم المستمر: وهذا من خلال:

✓ القدرة على التعلم والتطوير الذاتي عن طريق متابعة التطورات والمستجدات في المجال والعمل على تحسين المهارات بشكل مستمر.

✓ القدرة على التكيف مع التقنيات الجديدة باستخدام التقنيات الحديثة لتحسين الأداء وتحقيق الأهداف.

- الالتزام بالأخلاق والقيم:

✓ النزاهة: التصرف بصدق وشفافية في جميع الأوقات.

✓ المسؤولية الاجتماعية: الالتزام بتحقيق التنمية المستدامة والمساهمة في رفاه المجتمع.

- العمل الجماعي والتعاون:

✓ القدرة على العمل ضمن فريق: التعاون مع الآخرين لتحقيق الأهداف المشتركة.

✓ بناء العلاقات: القدرة على بناء علاقات إيجابية مع الزملاء والشركاء.

- الصبر والمثابرة:

✓ القدرة على التحمل: مواجهة التحديات والصعوبات بصبر وثبات.

✓ الإصرار: الاستمرار في العمل نحو الأهداف رغم العراقيل.

تحقيق التغيير والتنمية يتطلب تضافر هذه الصفات والقدرات، وكذلك الالتزام بتحقيق أهداف واضحة ومحددة. الشخص الذي يمتلك هذه المهارات يكون مؤهلاً لإحداث تأثير إيجابي ومستدام في مجتمعه أو مجاله المهني.

5- دور الفكر والقيم في التأثير على التنمية الاجتماعية

إن للفكر والقيم دوراً حيوياً في التأثير على التنمية الاجتماعية في فلسفة مالك بن نبي، حيث يعتبر بن نبي أن الفكر الصحيح والقيم الإيجابية هما الأساس لبناء

مجتمعات قوية ومترابطة، ولتحقيق التنمية الشاملة والمستدامة.

1 - **الفكر الصحيح:** يؤمن بن نبي بأهمية الفكر في تحديد مسار التنمية الاجتماعية، حيث يجب أن يكون مبنياً على المعرفة العلمية والتحليل الدقيق للواقع الاجتماعي والاقتصادي. ينظر إلى الفكر كأداة لفهم التحولات الاجتماعية ولتطوير استراتيجيات فعالة لتحسين الظروف الاجتماعية للأفراد والمجتمعات.

2 - **القيم الإيجابية:** يعزز بن نبي أهمية القيم الإنسانية مثل العدالة، والصدق، والمساواة كأساس لبناء مجتمعات مزدهرة ومستقرة. تلعب هذه القيم دوراً أساسياً في تعزيز التفاعل الاجتماعي الإيجابي، وفي تعزيز الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

3 - **التأثير على التنمية الاجتماعية:** من خلال تعزيز الفكر الصحيح ونشر القيم الإيجابية، يؤمن بن نبي أنه يمكن تحقيق تنمية اجتماعية شاملة ومستدامة تعزز من رفاهية الأفراد وتعزز من قدراتهم الاجتماعية والاقتصادية.

بالمجمل، يركز مالك بن نبي على أهمية الفكر والقيم كأساس للتأثير على التنمية الاجتماعية، مؤمناً بأن الفهم الصحيح والتصور الإيجابي للقيم يمكن أن يسهم في بناء مجتمعات قوية ومزدهرة.

رابعا - البيئة الاجتماعية والمؤسسات:

تعد البيئة الاجتماعية والمؤسسات عناصر حيوية تؤثر بشكل كبير على التنمية الاجتماعية في فكر مالك بن نبي، حيث ينظر بن نبي إلى البيئة الاجتماعية كالسياق الذي يؤثر في سلوكيات الأفراد والمجموعات، ويشكل التفاعلات الاجتماعية بينهم. بالإضافة إلى ذلك، يركز على دور المؤسسات كوسيلة لتنظيم العلاقات الاجتماعية وتوجيه الجهود نحو تحقيق الأهداف الاجتماعية والاقتصادية المشتركة.

1- **البيئة الاجتماعية:** يؤكد بن نبي على أن البيئة الاجتماعية تشمل المجموعات الاجتماعية، والقيم والمعتقدات، والعادات والتقاليد التي تؤثر في سلوك الأفراد

وتوجهاتهم. يعتبر أن فهم هذه الديناميكيات الاجتماعية ضروري لتحقيق التنمية الشاملة، حيث يمكن من خلال تحليل البيئة الاجتماعية تحديد المشكلات والفرص التي تواجه المجتمع.

2 - المؤسسات: تعتبر المؤسسات في فكر بن نبي بمثابة الآليات التنظيمية التي تسهم في تنظيم الحياة الاجتماعية وتوجيه الجهود نحو تحقيق الأهداف الاجتماعية المشتركة. يشمل ذلك المؤسسات الحكومية والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية، والتي يعتبرها بن نبي أدوات لتنظيم العمل الاجتماعي وتحفيز النمو الاقتصادي والاجتماعي.

بهذه الطريقة، يتعامل مالك بن نبي مع البيئة الاجتماعية والمؤسسات كأركان أساسية في بناء المجتمعات وتحقيق التنمية الاجتماعية، مؤكداً على أهمية تحليل وتفاعل هذه العناصر لتحقيق التطور والاستقرار الاجتماعي في العالم العربي والإسلامي.

- المؤسسات والتشريعات:

تلعب المؤسسات والتشريعات دوراً حيوياً في بناء المجتمعات وتعزيز التقدم الاجتماعي والاقتصادي. وهي تعد عناصر أساسية في تأسيس النظام الاجتماعي الذي يُمكن الفرد ويُعزز العدالة والمساواة بين أفراد المجتمع. وهي:

1 - المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية :

إن مالك بن نبي يرى أن المؤسسات الاجتماعية مثل الأسرة والمدرسة والمجتمعات المحلية تلعب دوراً أساسياً في تنمية الشخصية الإنسانية. كما أنها تساهم في تأسيس قيم ومعتقدات بدورها تساعد على تشكيل الهوية الثقافية والوطنية. كما أن المؤسسات الاقتصادية مثل الشركات والصناديق والبنوك تعزز التنمية الاقتصادية وتساهم في إيجاد فرص العمل وزيادة الإنتاجية.

2 - التشريعات والقوانين: كان مالك بن نبي يؤمن بأهمية التشريعات في تنظيم

الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. كما كان يرى أن القوانين يجب أن تكون عادلة ومرجعية للعدالة الاجتماعية، وأنها يجب أن تحمي حقوق الأفراد وتساهم في تحقيق المساواة والتنمية المستدامة. كما أن التشريعات تلعب دورًا في تعزيز الاستقرار والأمن الاجتماعي والاقتصادي.

3 - الديمقراطية والمشاركة السياسية: إن مالك بن نبي يولي اهتماما كبيرا بتعزيز الديمقراطية والمشاركة السياسية، حيث يرى أنها تساهم في بناء المجتمعات الحرة والعدالة. كما كان يروج لضرورة تفعيل دور المواطن في صنع القرارات السياسية والاجتماعية، وتعزيز حقوق الإنسان وحرياته.

• تأثير الثقافة على القوانين والسياسات:

التشريعات والسياسات غالبًا ما تكون انعكاسًا للقيم الثقافية السائدة. على سبيل المثال، الثقافات التي تقدر المساواة قد تسن قوانين تدعم حقوق الإنسان وتعزز العدالة الاجتماعية.

تطبيق القوانين: الفهم الثقافي يمكن أن يؤثر على كيفية تطبيق القوانين وتنفيذ السياسات التنموية، بما في ذلك مدى قبول المجتمع لها.

التعليم والتعلم: نظم التعليم: الثقافة تؤثر على محتوى وأساليب التعليم. التعليم الذي يحترم القيم الثقافية للمجتمع يكون أكثر فعالية في تعزيز التنمية.

التعلم مدى الحياة: بعض الثقافات تشجع على التعلم المستمر وتطوير المهارات، مما يساهم في تحسين رأس المال البشري ودعم التنمية.

الاقتصاد والعمل: أخلاقيات العمل: الثقافات التي تقدر العمل الجاد والانضباط تشجع على الإنتاجية والنمو الاقتصادي.

ريادة الأعمال: القيم الثقافية التي تدعم الابتكار والمغامرة يمكن أن تحفز ريادة الأعمال والنمو الاقتصادي.

الصحة والرفاه: الممارسات الصحية: العادات والتقاليد الثقافية تؤثر على الممارسات الصحية وكيفية التعامل مع المرض والعلاج.

الرفاه النفسي والاجتماعي: الدعم الاجتماعي والمجتمعي الذي توفره الثقافة يمكن أن يعزز الرفاه النفسي والاجتماعي للأفراد، مما يدعم التنمية المستدامة.

البيئة والاستدامة: العلاقة مع البيئة: القيم الثقافية تؤثر على كيفية تعامل المجتمع مع البيئة واستخدام الموارد الطبيعية. الثقافات التي تقدر الاستدامة تكون أكثر قدرة على تنفيذ ممارسات تنمية صديقة للبيئة.

الثقافة ليست عاملاً ثابتاً، بل هي ديناميكية وتتغير بمرور الوقت. التفاعل بين الثقافة والتنمية الاجتماعية يمكن أن يؤدي إلى تطوير سياسات وممارسات تنمية تكون أكثر توافقاً مع القيم الثقافية، مما يعزز فرص نجاحها واستدامتها.

الخاتمة

تتمحور فلسفة مالك بن نبي حول دور الإنسان كمحرك أساسي لعملية التنمية الاجتماعية، ويقدم مجموعة من العوامل الثقافية والفكرية والمؤسسية التي يعتبرها ضرورية لتحقيق تنمية مستدامة.

والإشكالية المطروحة تستدعي تحليلاً عميقاً لرؤيته وكيف يمكن تطبيق أفكاره في الواقع المعاصر لتحقيق التقدم والتنمية في المجتمعات.

وهذه الإشكالية تفتح المجال أمام تحليل شامل لأفكار مالك بن نبي وتطبيقها على الواقع الاجتماعي، مما يساهم في فهم أعمق لدور الإنسان في تحقيق التنمية الاجتماعية الشاملة، كما ينبغي لنا أن نسعى جاهدين إلى الوصول إلى العمل بما يصبو إليه مالك بن نبي حتى نستطيع إيجاد موقع بين الشعوب الأمم كي نساهم في التنمية، كما كنا قبل في العصور الزهرة لإنسان ما قبل دولة الموحدين.

قائمة المصادر والمراجع:

- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1420هـ/2000م.
- مالك بن نبي: تأملات، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1423هـ/2002م.
- مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1413هـ/1993م.
- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ط 1، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، 1423هـ/2002م.
- مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، الجزء الاول شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، ط 3، دار الفكر، دمشق، 1407هـ/1986م.
- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1420هـ/2000م.
- الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، لبنان، 2006.
- عبد الله بن حمد العويسي: مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012.
- عمر احمد محمد سعيد عثمان: مالك بن نبي - مهندس الحضارة -، ورقة بحثية، إشراف توفيق العوجي، جامعة بيروت الإسلامية، الرابط: <https://www.academia.edu>.
- محمد الشافي: "فلسفة الإنسان والحضارة عند مالك بن نبي من خلال الدراسات المعاصرة - التأصيل والأبعاد -"، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، المجلد 4، العدد 1، الاغواط، الجزائر، 30 جانفي 2019.

النظام الفكري وعلاقته بالتنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي

د. محمد لخضر حرزالله

جامعة بسكرة (الجزائر)

mohamed.harz@yahoo.fr

مقدمة

يركز مالك بن نبي في نظريته لبناء المجتمع على الدور المحوري والاستراتيجي للأفكار في هندسة المعمار الحضاري للمجتمعات، ويكون مجال التركيز هنا على الأفكار التي تبعث على الحركة والعمل والتجديد، فالقرآن الكريم نزل في بيئة ممتة اجتماعيا وعلميا وحضاريا، ومن خلال ما جاء به من قيم وأفكار حية أحدثت تغييرا عميقا ونوعيا في الأنفس والطباع والقناعات والسلوكات، فقام بثورة فكرية انتهت بتخليص المجتمع الجاهلي من أفكاره القاتلة والميتة وحولته إلى مجتمع عملي رسالي.

ومن خلال تتبع أطروحاته في هذا المساق الفكري، فإن مالك بن نبي قد أبان -بما لا يدع مجالا للريب- عن وجود علاقة تلازمية بين النظام الفكري بما يحتويه من عناصر فعالة وقابلة للتجسيد، ومستويات التنمية الاجتماعية والبناء الحضاري لأي مجتمع، وقد كانت المنظومة الفكرية والقيمية الحية والمهمة لبنة تأسيس المجتمع المسلم في إرهاباته الأولى، التي لم يكن يملك فيها من عالم الأشياء شيئا، بقدر ما كان يمتلك من عالم الأفكار ما أهله لتأسيس حركة فعالة عبر الزمن تُوجت بميلاد مجتمع مسلم رسالي اتسعت دائرة وجوده في كل أصقاع المعمورة بسرعة هائلة، قياسا على حياة المجتمعات ونموها وانتشارها على مجرى التاريخ.

وسأحاول من خلال هذه الدراسة تقديم مقاربة تشخيصية وعلاجية للأدواء

المعطلة لحركة الانبعاث الحضاري للمجتمعات الإسلامية وسبل الخلاص منها،
مسترشدا بالكيلات الفكرية التي قدح بها زناد مالك بن نبي رحمه الله، معتمدا على
المنهج الوصفي، ومنطلقا من الإشكالية التالية: كيف يسهم النظام الفكري في
هندسة التنمية الاجتماعية من منظور فكر مالك بن نبي؟

وللإجابة على هذه الإشكالية تم اعتماد الخطة المنهجية التالية:

أولا/ النظام الفكري والتنمية الاجتماعية: مقارنة مفاهيمية.

ثانيا/ العلاقة بين نوعية الأفكار ومستوى الوعي الاجتماعي.

ثالثا/ فكرة الحق والواجب عند مالك بن نبي.

رابعا/ معوقات التنمية الاجتماعية لدى مالك بن نبي.

خامسا/ التنمية الاجتماعية: بين البناء والتكديس.

سادسا/ أبعاد التنمية الاجتماعية وفق منظور مالك بن نبي.

أولا/ النظام الفكري والتنمية الاجتماعية: مقارنة مفاهيمية.

في إطار تشخيصه لمقومات البناء الحضاري ربط مالك بن نبي فلسفة الحضارة
بفعالية الأفكار ربطا تلازميا سواء في تحديد هوية الحضارة، أو في مدى تدخلها في
أحوال الحضارة... فكل خلل يحدث للمجتمع لابد فيه من مراجعة علاقة هذا
المجتمع بأفكاره، حينذاك يقول ابن نبي: "إننا في كل مرة نقف فيها أمام مظهر من
مظاهر اللافعالية في المجتمع الإسلامي نرى أنفسنا مجبرين على ربطه بـ"عالم
أفكارنا" لأن في هذا العالم تكمن أدواؤنا".¹

وكمثال على دور "عالم الأفكار" في المعمار الحضاري للمجتمعات وتأسيس
بنيتها التحتية وكافة موجوداتها، يعقد بن نبي تحليلا منطقيا لأسباب نهضة ألمانيا في

¹ مولاي الخليفة لمشيبي، مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة. دمشق: دار محاكاة، 2012، ص 128.

العصر الحديث بعدما استنزفت الحرب العالمية الثانية كافة مقدراتها المادية، إلا أنها استطاعت بما تملكه من رصيد فكري حيوي وفعال، إعادة ما فقدته من "عالم الأشياء" وزادت عليه، حيث يقول رحمه الله: "يمكننا، بل يتعين علينا أن نقول: إن الإنسان هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة (إنسان، تراب، وقت تساوي: حضارة) لأن التراب والوقت لا يقومان -إذا اقتصر عليهما فحسب- بأي تحويل اجتماعي. ونحن إذا ما تساءلنا إذن: بأي شيء أُنْهَضَ الإنسانُ الألماني وضعية بلاده أثناء هذا العقد المنصرم من الزمان؟ نكون ملزمين بالجواب عن سؤالنا هذا بطريقة واحدة لا غير، وهي أن أفكاره وأفكاره فحسب هي التي أتاحت له أن يحقق ذلك النهوض. وهذا أمر حقيقي -وحقيقي بصورة لا مجال للريب فيها- سيما وأن حرب 1939-1945 قد خربت عمليا (عالم الأشياء) في ألمانيا، بمصانعه وآلاته ومناجمه وبنوكه ومختبراته، فكل هذه الأشياء كانت قد دُمرت وأُتلفت، إذن فقد كانت ألمانيا على وجه الدقة -وبطريقة تكاد تكون رياضية- لا تملك سنة 1945 أي مجموعة من (الأشياء) ولكن مجموعة من (الأفكار) فحسب، وهي قد كونت من جديد وابتداء من هذا "الرأس مال المفاهيمي" كل حياتها الاجتماعية، واحتلت مجددا مكانتها السياسية في العالم. إن تجربتها بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن فهي تتيح لنا أن نستخلص بطريقة علمية، أن قيمة مجتمع معين في فترة ما من تاريخه لا يعبر عنها بمجموعة الأشياء في هذا المجتمع ولكن بمجموعة أفكاره.¹

وبغيا ب هذه الفعالية الفكرية لدى المجتمع المسلم سقط في شراك المستعمر وما زال إلى اليوم يعاني ويلات بُعده ونُكوصه عن الأخذ بأسباب نهوضه، بالتركيز على "عالم الأفكار" بدل "عالم الأشياء"، وفي عالم الأفكار يشترط أن تكون أفكارا ذات

¹ مالك بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، دمشق: دار الفكر، 2000، ص 53.

قيم إيجابية تبعث على الحياة والبناء والحركة والتطور، وفي هذا السياق يقول ابن نبي: "إن الأفكار لا تتمتع في المجتمع الإسلامي بقيمة ذاتية، تجعلنا ننظر إليها بصفتها أسمى المقومات الاجتماعية، وقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها." ¹ بل يذهب بن نبي بعيدا عندما طرح فكرة انتقام الأفكار المخدولة من أصحابها، فيبين أن الأفكار الفعالة إذا لم تحظَ بالاحتراف والتطبيق اللازم من معتنقيها فإنها تنتقم منهم وتؤدي عكس مفعولها الإيجابي، حيث يقول: "نستطيع القول بأن العالم الإسلامي يواجه اليوم عقوبة مستحقة من الإسلام، لِإِتِفَاتِهِ عنه وليس كما يظن بعض السُّدَج لتمسكه به." ² "فالمجتمع الإسلامي يدفع اليوم ضريبة خيانتة لنماذجه الأساسية، فالأفكار- حتى تلك التي نستوردها- ترد على من يخونها وتنتقم منه." ³ وهذا الطرح الرصين يؤكد لنا أن كُلاً من الأفكار القاتلة والميتة والأفكار الفعالة المخدولة من أصحابها تؤدي إلى التردّي والارتكاس الحضاري وتدهور الحالة الاجتماعية والنفسية والأخلاقية للمجتمعات.

ثانيا/ العلاقة بين نوعية الأفكار ومستوى الوعي الاجتماعي.

اهتم مالك بن نبي بسبر وتقسيم الأفكار حسب نوعيتها وجودتها أو رداءتها وسلبيتها، مبرزا علاقة ذلك بالفعل الحضاري صعودا أو هبوطا:

1- الأفكار الموضوعية والأفكار المطبوعة.

يرى مالك بن نبي أن الأفكار تشبه أسطوانة يحملها الفرد عند ميلاده، وهي تختلف من مجتمع لآخر، والأفراد والأجيال يعزفون أنغامهم الخاصة التي تتوافق

¹ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر، 2009، ص 82.

² محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن. دمشق: دار الفكر، 2007، ص 94.

³ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دمشق: دار الفكر، 2002، ص 75.

تردداتها مع الأنغام الأساسية أو النماذج المثالية لتلك الأسطوانة. تلك الأنغام يسميها مالك بن نبي "الأفكار المطبوعة" وأما التوافقات الموسيقية التي تخص الأفراد والأجيال فيسميها "الأفكار الموضوعة"....والقرآن الكريم كان هو الرسالة المطبوعة التي جاء بها الوحي من السماء فعدلت الطاقة الحيوية للمجتمع الجاهلي ووجهتها وجهتها الجديدة، وغيّرت طريقة تفكير هذا المجتمع ومنظومته الأخلاقية، وفي غمرة حماس المجتمع الذي انسجم كله مع التوافقات الأساسية للأفكار المطبوعة الجديدة صار عند كل فرد حساسية ضد أي خروج أو نشاز في اللحن ويسارع إلى تصحيحه، ولو كان النشاز من عنده كما في حالة المخلفين الثلاثة في غزوة تبوك وفي حالة المرأة التي زنت وجاءت تطلب من النبي عليه السلام أن يطهرها.

يقول بن نبي إنه حين ينحط المجتمع تسكت تلك التوافقات الأساسية بالتدريج جالبة معها -كما نعلم من الفيزياء- صمت التوافقات المنسجمة معها، أي تختفي الأفكار الموضوعة أيضا ويحل الصمت وتختفي الحساسية فلا يظهر أي رد فعل للنشاز ويختفي العنصر الروحي وتختفي الدوافع الجماعية من المجتمع ويفنى ويتحوّل إلى ذرات.¹

2- الأفكار الميتة والأفكار القاتلة:

وفي هذا السياق يقسم مالك بن نبي الأفكار التي تعيق حركية المجتمع إلى: أفكار ميتة وأفكار قاتلة Les idées mortes et mortelles، "الفكرة الميتة" يعرفها مالك بن نبي بأنها: "فكرة خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي ولم يعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي." و"الفكرة القاتلة" هي فكرة فقدت شخصيتها وقيمتها الثقافية بعد أن فقدت جذورها التي ظلت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي.²

¹ محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن. المرجع السابق، ص 87.

² المرجع نفسه، ص 88.

فالأفكار القاتلة هي الأفكار التي تقتل في الفرد حركيته ودافعيته للبناء والتجديد، أفكار تبعث على الخمول والكسل وقهر الإرادة، وتستنهض بواعث الإجرام والأحقاد والنزاع بين أفراد المجتمع فتؤدي به إلى الاقتتال والتفكك. أما الأفكار الميتة فهي ما يجول بخاطرنا من أفكار فاقدة للحياة، عديمة الفعالية كالخرافات والشعوذة والقابلية للاستعمار، وفي هذا الصدد يقول مالك بن نبي: "إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي" أفكارا ميتة "تمثل خطرا أشد عليه من خطر "الأفكار القاتلة"، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكون ما لم نُجر عليها عملية تصفية، الجرائم الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه".¹

يشير مالك بن نبي إلى خطورة الأفكار الميتة والقاتلة في تدمير البناء الاجتماعي من داخله وتقهر الإرادة وتقتل فيها روح الإبداع والتنافس، وهي الأفكار الموروثة خلفا عن سلف والتي ترسخ في النفس شعور النقص والقابلية للاستعباد والتبعية للغير، وعدم الثقة بالذات والرضا بواقع الحال ونبد التغيير والتجديد، وتقتل في النفس القدرة على الإبداع والاستقلالية.

ولبيان مدى خطورة الأفكار الميتة وأثرها السلبي على البناء التنموي للمجتمع، عقد مالك بن نبي مقارنة مفيدة بين المجتمع الياباني والمجتمع الإسلامي، "فإنهما دخلا المدرسة الغربية في الوقت نفسه تقريبا - حوالي سنة 1860 - ولكن الحقيقة التاريخية التي لا جدال فيها هي أن النتيجة اختلفت تماما إذ نجد بعد قرن "معجزة اليابان" في ميدان الفن والصناعة والاقتصاد، ومن طرف آخر المجتمع الإسلامي نجد دون ريب، مجهودا لا ينكر فيما نسميه "النهضة" ولكنه مجهود تشله "الأفكار

¹ مالك بن نبي، في مهب المعركة إرهابات ثورة. (دمشق: دار الفكر، 2002)، ص 130.

الميتة" الموروثة من عهد ما بعد الموحدين. فمعجزة اليابان لا تفسر قطعاً إلا بموقف فيه فعالية أكثر اتخذها اليابان من الثقافة الغربية لأنه تخلص من الأفكار الميتة الموروثة من عهد "الشوغون".¹

3- الأفكار المخدولة وانتقامها:

حين لا ينسجم السلوك مع فكرته المثالية تنتقم هذه الفكرة المخدولة لنفسها، يقول مالك بن نبي: "الأفكار الموضوعية تختلف عن الأفكار المطبوعة التي كانت في القوالب الأصلية، وهذا الاختلاف أو هذا الغدر يدوي في كل نشاطاتنا ويعرض هذا النشاط للانتقام من طرف الأفكار الأصلية انتقاماً يكون أحياناً غاية في العنف على الصعيد السياسي عندما تنتقم الأفكار المخدولة. وقد يكون من الأيسر تصور هذا الانتقام في المجال التقني عندما تصمم خطأً إحدى الماكينات وتنفجر أو أحد الجسور فينهار لأن الانتقام في هذه الحالة يكون فورياً. ولكن المجتمعات والحضارات والممالك قد تنهار هي أيضاً بالطريقة نفسها وليست كوارث التاريخ في غالب الأحيان إلا آثاراً مباشرة لنوع من انتقام الأفكار المخدولة. ويقول بن نبي معلقاً: "نستطيع القول بأن العالم الإسلامي يواجه اليوم عقوبة مستحقة من الإسلام، لالتفاته عنه وليس كما يظن بعض السذج لتمسكه به. "إذا وصلت الأفكار الموضوعية في المجتمع إلى مرحلة انبثت (انقطعت) صلتها بالأفكار المطبوعة انتقامت هذه الأخيرة لنفسها على شكل فقدان المجتمع لفعاليته.² فالمجتمع الإسلامي يدفع اليوم ضريبة خيانتته لنماذجه الأساسية، فالأفكار - حتى تلك التي نستوردها - ترتد على من يخونها وتنتقم منه.³

¹ المرجع السابق، ص 134.

² محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن. المرجع السابق، ص 94.

³ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دمشق: دار الفكر، 2002، ص 75.

ثالثا/ فكرة الحق والواجب عند مالك بن نبي.

لقد تحدث مالك بن نبي عن ثنائية الحقوق والواجبات في عدة مواضع منبها إلى ضرورة تقديم الواجبات على المطالبة بالحقوق، معتبرا أن أداء الواجب كفيل بضمان وتوليد الحقوق، وقد أكد على هذه الحقيقة ضمن رؤيته الاقتصادية حين جمع بين ثنائيي الإنتاج والاستهلاك من جهة والواجبات والحقوق من جهة ثانية، معتبرا أن الواجب هو ما تقدمه للمجتمع أما الحق فهو ما نأخذه منه، وأسقط هذا المفهوم على عمليتي الإنتاج- الاستهلاك، فالإنتاج هو ما تقدمه للمجتمع كما أن الاستهلاك هو ما نأخذه منه، وبناء على ذلك يرى بن نبي أن عملية الإنتاج كدعامة أساسية للبناء الاقتصادي تمثل حقيقة "أداء الواجب" من طرف أفراد المجتمع الذي يقوم بمختلف الأنشطة الفعالة لتدعيم الاقتصاد وخلق الثروة فرأس مال الاقتصاد هو العمل والإنتاج، وهو ما يرتب عنه عملية استهلاكية تمثل الجزء الثاني من المعادلة وهو "اكتساب الحقوق"، فأى إخلال بالواجب ينجم عنه خلل في استحقاق الحقوق، كما أن أي إخلال أو فتور في عمليات الإنتاج ينعكس سلبا على عملية الاستهلاك، يقول مالك بن نبي: "الإقلاع الحضاري مرتبط بمعادلة تقدم الواجبات على الحقوق بل وتفوقها عليها."¹

وفي سياق حديثه عن قصة الرسول ﷺ مع الرجل المتسول الذي طلب منه الزكاة التي هي حق للفقير.² يقول مالك بن نبي مفصلا ومؤصلا لثنائيي

¹ الطيب برغوث، الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري. المرجع السابق.

² الحديث هو: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلُهُ أَعْطَاهُ، أَوْ مَنَعَهُ» صحيح البخاري - كِتَابُ الزَّكَاةِ - باب الاستعفاف

عن المسألة. حديث رقم: 1383

وفي هذا السياق أيضا حديث حكيم بن جزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال: يا حكيم، إن هذا المال خضر حُلُو، فمن أخذه بسخاوة نفس؛ بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى.=

الواجب - الإنتاج والحق - الاستهلاك: "... فإذا حللنا هذه الأبعاد الخلقية لهذه القصة، نرى كيف يحل الرسول ﷺ أزمة اجتماعية تعرض عليه صورة متسول من المساكين، فيفضل صلوات الله عليه حلّها في نطاق (الواجب) على (الحق)، أو إذا قدرنا الأبعاد الاقتصادية فإننا نراه يفضل الحل في نطاق (الإنتاج) وكل مواقف الرسول ﷺ الأخرى تدعم هذا الاتجاه، بل هذا التوجيه لأتمته إن شئنا في مجال الأخلاق أو في مجال الاقتصاد.¹"

وبناء على المنظور السابق فإن الاتجاه العام داخل المجتمع نحو معادلتني الواجب / الحق والإنتاج / الاستهلاك، هو الذي يحدد في الأخير الوضع الاقتصادي للبلد وفق ثلاثة احتمالات كما قررها بن نبي:

" فحسب تركيزه على مفهوم (الواجب) أو على مفهوم (الحق) تكون معادلته الاقتصادية إيجابية بفائض الاستهلاك، أو متعادلة إذا استوى الطرفان، أو سلبية إذا كان الاستهلاك أرجح في الميزانية.

- ففي الحالة الأولى: يستطيع المجتمع استثمار فائض إنتاجه في العمليات والميزانيات المقبلة فهو مجتمع نام.

- وفي الحالة الثانية: فإن كفتي ميزانه متعادلان فلا ترجح واحدة على الأخرى، فهو لا يصعد ولا يهبط، فهو مجتمع راكد.

- أما في الحالة الثالثة: فكفة استهلاكه أرجح لا يصعد ولا يستقر، فهو مجتمع ينهار.

= قال حكيم؛ فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئاً. ثم إن عمر رضي الله دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفيه فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي. متفق عليه.

¹ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ط9، دمشق: دار الفكر، 2009، ص 88.

وتحويل التركيز من (الحق) إلى (الواجب) ليس بالأمر الذي يأتي عفويا أو بالمصادفة لأنه تحويل لعادات وطبائع منسجمة مع ما في الإنسان من ميل طبيعي إلى منطق السهولة.¹

وهذا الطرح هو غاية في الأهمية، إذ يتطلب وعيا رسميا من قبل صانعي القرار ورسمي السياسات العامة بأهمية الاستثمار الاجتماعي والتوليف بين القوى المجتمعية وتحفيزها نحو العطاء والبناء، كما يحتاج ذلك إلى تضافر الجهود لتغيير الأفكار والطبائع السلبية في المجتمع وقبل ذلك تغيير أسلوب إدارة الاقتصاد والسياسات التي تقصي الأفكار والإبداع وتبعث على الخمول والالتكالية وعدم المحاسبة، مع ضرورة تبني سياسة تعليمية تهدف لإرساء منظومة فكرية وسلوكية صالحة ومؤثرة في نفوس الأجيال وباعثة على التغيير المستمر، والجمع بين التفكير والعمل وبين قوة وجودة السياسات وقوة وجودة التنفيذ.

رابعاً/ المعوقات التنموية الاجتماعية لدى مالك بن نبي.

لقد تجمّعت العديد من الأسباب التي أدت إلى الحالة الفكرية العربية الراهنة، وإنّ من الذائع إرجاع أسباب هذا النكوص إلى الفترة الاستعمارية، أين كان للمحتل دور سلبي في سلخ الهوية الوطنية وإعاقة الحركية الفكرية للمجتمعات العربية المستعمرة، إلا أن الأسباب الحقيقية هي أعمق من ذلك التعليل السطحي الساذج، ولعلنا نحاول استقصاء أبرزها فيما يلي:

1- القابلية للاستعمار:

لقد شكلت مشكلة الاستعمار الذي اجتاحت البلدان الإسلامية في غضون القرنين التاسع عشر والعشرين، أرقا فكريا للمفكر مالك بن نبي، جعله لا يقنع بالمبررات الظاهرية التي قدمت لتفسير هذه المعضلة، بل راح يوغل في غياهاها ويحلل

¹ المرجع السابق، ص 88-89.

علاقتها السببية للوصول إلى مكمن الداء الحقيقي، مستقرًا حال الأمة عبر مراحلها التاريخية، ليصل في نهاية المطاف إلى استكشاف داء "القابلية للاستعمار" الذي ينطبع في المخيال الجمعي للشعوب المستعمرة، ويؤدي بها إلى الخنوع والوقوع فريسة سهلة المنال في يد جلادها، ففي كتابه "شروط النهضة" تحدّث ابن نبي عما يسميه "مُعَامِلَيْن" فَعَلًا فِعْلَهُمَا في الإنسان المُسْتَعْمَر: " (المعامل الاستعماري) و(معامل القابلية للاستعمار)... فالمعامل الاستعماري هو عامل خارجي يفرض على الكائن المغلوب على أمره الذي يسميه المستعمر -الأهلي- نموذجًا محددًا من الحياة والفكر والحركة، وحين يكتمل خلق هذا النموذج يظهر من باطن الفرد "معامل القابلية للاستعمار" وهو معامل يجعل الفرد يستبطن مفاهيم المستعمر عنه ويقبل بالحدود التي رسمها لشخصيته هذا المستعمر، وليس هذا فحسب بل يصبح يدافع عنها ويكافح ضد إزالتها... فمعامل القابلية للاستعمار كما يشرحه مالك بن نبي هنا هو العامل الداخلي المستجيب للعامل الخارجي، إنه رضوخ داخلي عميق لعامل الاستعمار، يُرَسِّخُ الاستعمار ويجعل التخلص منه مستحيلًا.¹ ولهذا فهو يقول: "هذه الملاحظة الاجتماعية تدعونا لأن نقرر أن الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار والتي تمكن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهلها للاستعمار."² وقد ركز مالك بن نبي على هذا المصطلح ونبه إليه، "لأن كثيرا من المسلمين يحاولون تعليق تخلفهم وضعفهم وقلة حيلتهم على الاستعمار، فأراد أن يرجع المشكلة إلى سببها الأول وهو القابلية للاستعمار، أي إلى الخسائر التي ألحقناها بأنفسنا قبل أن نتحدث عن الخسائر التي ألحقها بنا الآخرون، مطابقة لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

¹ محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن. ط 1، المرجع السابق، ص 12.

² مالك بن نبي، شروط النهضة. دمشق: دار الفكر، (د ت ن)، ص 33.

2- طغيان النزعة الذرية: يرى مالك بن نبي أن فشل مختلف الجهود المبذولة من أجل تحقيق نهضة عربية إسلامية، إنما يرجع إلى غياب الرؤية المتكاملة، التي تدرس المشكلات باعتبارها مترابطة مع بعضها البعض ترابطاً عضوياً يجعل من كل مشكلة جزئية نتيجة لمجموعة من المشكلات السابقة لها وسبباً جزئياً لما بعدها، وغياب هذه الرؤية التي تسمح بتحديد حلول موفقة لمختلف المشاكل التي تعاني منها الأمة، هو الذي أدى إلى سيادة النزعة الذرية أو التجزئية والتي تعني: "نزوع العقل إلى التجزئة والذرة الفكرية، فتصبح المشكلات العامة مجرد أجزاء مفككة، كل جزء قائم بذاته في تصورات العقل، وبالتالي تغدو مجرد أكوام، تفتقد صورة التكامل وتبتعد عن منهج التركيب المتألف".

ويرى بن نبي أنه بمجرد تصفحنا لمختلف الدراسات والمشاريع النهضوية: نجد أن كل مصلح قد وصف الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهمته، فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسة تحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ، أي أن جمال الدين الأفغاني: "قصر التغيير الكلي على بعض جزئياته فهيمنت النظرة الجزئية، وحصر الهم في التغيير السياسي، وقد صادف الجهد المبذول قصوراً في تحويل تلك النظرة إلى قيم اجتماعية جديدة صالحة لقيادة الإنسان وتغييره، وخاصة تغيير إنسان ما بعد الموحدين" أما محمد عبده فتميز مشروعه "بغياب النظرة الشمولية لكيان عملية التغيير، فجزئت المشكلات إلى مكوناتها الجزئية فمرة التعليم ومرة مضامينه (علم الكلام) غير متبهرين إلى التحليل المنهجي للمشكلات، والكشف عن أسبابها الموضوعية" وهذا الطرح التجزئى لمشكلات النهضة يبتعد

¹ محمد العبد، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاح. ط 1، دمشق: دار القلم، 2006، ص 81.

كلياً عن حقيقة المرض الذي يعاني منه المجتمع الإسلامي ويركز كل اهتماماته على أعراضه المتغيرة، مبتعداً كل البعد عن جوهر المشكلة، وتناول المشكلة بهذه الكيفية لا يتضمن دراسة مُرضية للمجتمع الإسلامي، دراسة لا تدع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون.¹

3- تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية

إن الروابط الاجتماعية من منظور مالك بن نبي هي نتاج تأثير وتفاعل واندماج ثلاثة عوامل أساسية وهي: "عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، ولكن هذه العوالم الثلاثة لا تعمل متفرقة بل تتوافق في عمل مشترك، تأتي صورته طبقاً لنماذج إيديولوجية من (عالم الأفكار) يتم تنفيذها بوسائل من (عالم الأشياء) من أجل غاية يحددها (عالم الأشخاص)."²

"فتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية هو في حقيقته تمزق لعالم الثقافة باعتبارها المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموعة من القواعد الأخلاقية والجمالية والمنطق العملي والصناعة، مما يعود بالإخفاق على الجهود الاجتماعية والفردية، لأن كل علاقة فاسدة بين الأفراد تولد فيما بينهم عقداً، كفيلة بأن تحبط أعمالهم الجماعية... فالعلاقة الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجها السريعة في عالم الأفكار وفي عالم الأشياء."³ فبناء شبكة العلاقات الاجتماعية مرده إلى عنصر أساسي هو "الإنسان أو تفاعل الفرد داخل المجتمع"، فالإنسان هو الذي ينتج الأفكار ويرسم الأهداف ويستغل الوسائل، وبفساد هذا العنصر الحيوي تفسد شبكة العلاقات

¹ محمد لعاطف، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي. رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2007/2008، ص 45.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع. تر: عبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الوعي، 2013، ص 27.

³ عبد الله بن حمد العويشي، مالك بن نبي: حياته وفكره. ط 1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2012، ص 455.

داخل المجتمع، ومن مظاهر هذا الفساد على المستوى الفكري بحسب ابن نبي:

- 1/ افتقاد الدقة في التفكير. 2/ افتقاد العقل التطبيقي. 3/ الفصل بين النظر والتطبيق. 4/ افتقاد الحصانة أو الغفلة عن أساليب الصراع الفكري من قبل العدو.
- أما على المستوى النفسي الاجتماعي فيظهر ذلك في:

- 1/ الانفصال بين القول والعمل. 2/ الإحباط في الجهود. 3/ الشعور بالنقص.
- 4/ الانعزالية. 5/ الزهد في معرفة عالم النفوس. 6/ الانتكاس والخواء.¹

إن هذه السمات التي قدمها مالك بن نبي بعد تشريح الطبيعة الفكرية والنفسية والاجتماعية للمجتمعات الإسلامية، تمثل أسباب ركود العقل وتعطل آلة الإبداع والاجتهاد التي وضعت العالم الإسلامي في حالة من الغفلة وعدم القدرة على الحركة، ناهيك عن طبيعة الأنظمة السياسية التي تحكم أغلب دولنا العربية والإسلامية المتسمة بالاستبداد وعدم الرشد، والتي بدورها ساهمت في ترسيخ حالة الوهن النفسي واتهام الذات واعتبارها قاصرة عن إدراك منازل التطور والإبداع والارتقاء الحضاري.

4- غياب النقد الذاتي وغلبة فكر التبرير: إن مختلف المشاريع النهضوية العربية تعاني من غياب ورفض النقد الذاتي الذي يمكن من معرفة مختلف الأخطاء والثغرات لأجل مراجعتها بين الحين والآخر، مما يساعد على مواصلة المسير في طريق النهضة فوق المسالك السليمة، ومن جهة ثانية يساعد على الاستفادة من نتائج هذه الدراسات النقدية وتوظيفها لاختزال مسافة السير أو بعبارة أخرى حتى لا تتكرر نفس الأخطاء، ويعود سبب ذلك الرفض إلى: "انتشار ثقافة التلقين والتسميع والتقليد، على حساب ثقافة التفقيه والتأصيل والنقد والاجتهاد

¹ المرجع السابق، ص 456.

والإبداع"، بحيث صعبت علينا مواكبة مستجدات الحياة المعاصرة، وصرنا نرى مواقف آلية تكاد تخلو من الأصالة والفعالية والمصدقية.¹

ويقول مالك بن نبي رحمه الله: "النقد الذاتي عامل تطهير جوهري للنفس والمجتمع من أسباب الضعف والاختلال، يجب أن ينطلق إلى أبعد مدى في حياتنا، وأي تعطيل له، يعد خدمة للاستعمار والاستبداد".²

إن غياب النقد الذاتي يدفع دائما إلى التهرب من المسؤولية: "إذ يحاول زعماء الحركة الحديثة أن يلصقوا أسباب عطلهم بالاستعمار، ولكن ذلك ليس ضربا من التعلل، إذ يقصدون من ذلك الهرب من مسؤوليتهم الحقيقية، ولقد شاركهم في تعللهم أيضا دعاة الحركة الإصلاحية، أولئك الذين لم يبحثوا مطلقا عن الأسباب الداخلية لعجزهم، بل اكتفوا بإسناد التبعية إلى السلطة الأجنبية، فالتياران كلاهما لا يهتمان بعلاج نقائصهما".³

ويرجع مالك بن نبي سبب غياب آلية النقد الذاتي في التفكير والعقل العربي إلى "فعل النقد في حد ذاته" حيث ينظر إليه بعين الريبة والجرم والسلب، فهو يقول: "النقد لم يدخل بعد في عاداتنا، ولم يستقر في جونا العقلي، وإن الكلمة ذاتها لم تبرح أجنبية عن قاموسنا أو أنها تعني شيئا آخر، كأن كلمة "نقد" وكلمة "تشويه" مترادفتان في لغتنا". ويشير الباحث زكي أحمد إلى أن: "هناك إقرار من العديد من المفكرين أننا نعاني في حياتنا الثقافية من أزمة نقد، وهذا أخطر إشكاليات الثقافة،

¹ المرجع السابق، ص 47.

² الطيب برغوث، الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري. مقال مأخوذ من موقع:

<http://www.binnabi.net/infos/detail/KWi786YI055KkI5//D8%A7/D9/84/D8/B7/D8/B1/D9/8A/D9/82-/D8/A5/D9/84/D9/89-> بتاريخ: 2017/04/13 على الساعة: 23:57

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. دمشق: دار الفكر، 2002، ص 72.

فأزمة النقد في أساسها هي أزمة في الثقافة، كما يكرس من جهة أخرى سلبيات الثقافة وآفات¹.

5- غياب الوعي المنهجي: يرى بن نبي أن الجهود النهضوية وإن اتسمت في معظم الأحيان بالنية الصادقة والرغبة الملحة لتكسير قيود التخلف، إلا أن غياب الوعي بسنن التغيير لدى كل من رجال الإصلاح وتيار التحديث هو ما أدى إلى فشل المشروع النهضوي العربي وذلك "لأن أي اختلال في الوعي المنهجي، في أبعاده المعرفية والإجرائية والأخلاقية، سينعكس مباشرة على الوعي والأداء الثقافي، وهذه الانعكاسات السلبية المتتالية، تؤثر مجتمعة على مستوى الوعي والأداء الحضاري للفرد والمجتمع، وتدفع بأوضاع الأمة إلى المزيد من الضعف والتقهقر والاستعابات الحضارية المضادة"². وفي هذا السياق يشير مالك بن نبي أن: "أعظم زيغنا وتنكبنا عن طريق التاريخ، أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أنهم يسقطون من حسابهم هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة ويخرج قطارنا عن الطريق حيث يسير خبط عشواء"³.

ومن أقوال مالك بن نبي في هذا الصدد:

* الطريق غير المنهجي هو أطول الطرق في عملية البناء الحضاري.

* إن جهودنا التجديدية فيها حسن النية وليس فيها رائحة منهج.

* المنهج العلمي مصل وافي ضد مرض الثثرة⁴.

إن من لوازم غياب التفكير المنهجي في مشاريعنا الإصلاحية هو طرح الحلول غير الموضوعية وإضاعة كثير من الوقت والجهد والمال في سبيل تحقيق أهداف لم

¹ محمد لعاطف، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 48.

² المرجع نفسه، ص 49.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة. دمشق: دار الفكر، 1986، ص 47.

⁴ الطيب برغوث، الطريق إلى عالم مالك بن نبي الفكري. المرجع السابق.

تؤت من أبوابها فاستنزفت الموارد في طريق طويل شاق ومحفوف بالمكاره، فكان سعيها أشبه بحاطب ليل أو كمن يخطط خطط عشواء.

6- **الاغتراب الزماني والمكاني:** الأمة التي تستيقظ وتتنبه لما حولها بعد فترة طويلة من النوم، لابد لها أن تجد نفسها محاصرة بمشكلات متعددة ومعقدة، وتحتاج إلى حلول مستعجلة، وفي هذه المرحلة تسود الفوضى والارتباك والتذبذب في كيفية التعامل مع مشكلات الراهن أو الواقع، وهنا يظهر اتجاه محافظ متشبث بأذيال الماضي، واتجاه تقدمي يسعى لاستعارة الحلول من الحضارة الغربية.

ومعالجة مشكلات العالم الإسلامي وفقا لما سبق ذكره، يؤدي بالتيار الحديث، وباتجاه الإصلاح معا إلى ذلك الخليط الملفق من محدثات مستعارة أو روااسب متوارثة. هذه الفوضى المكونة من عناصر لم تهضم أو تتمثل، تنفجر في صورة تنافر عنيف.¹

ويؤكد مالك بن نبي هذه الحقيقة قائلا: "إن العالم الإسلامي أصبح في هذه الملابس يعاني الصدمة التي أصابته بها الثقافة الغربية، ويعاني بسببها على وجه الخصوص أثرين: مواجهة مركب النقص محسوس من ناحية، ومحاولة التغلب عليه من ناحية أخرى حتى بالوسائل التافهة.

لقد أحدثت هذه الصدمة عند قبيل من المثقفين المسلمين شبه شلل في جهاز حصانتهم الثقافية حتى أدى بهم مركب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، كأثمهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين يبحث عن نجاته في التزبي بالزي الغربي، ويتنحل في أذواقه وسلوكه كل ما يتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلا مظهرها لا

¹ محمد لعاطف، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 50.

شيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية.¹

7- **جهود مناهج التعليم:** "حافظ التعليم على صيغته السابقة شكلا ومضمونا" الحقائق مدفونة في جمل زائفة" و"علم غزير" فأصبحت ثقافة أثرية تجتر التراث، وعوض أن يتقدم العمل العلمي والفكري انتكس، ومضمون التعليم في مدارس الإصلاح هو المضمون نفسه منذ ستة قرون، والعلم الذي اقتبسوه من جامعات الغرب لم يكن وسيلة للإسعاد بل كان طريقا إلى المظهرية، وهكذا يتجمد الفكر ويتحجر في عالم لم يعد يفكر في شيء، لأن تفكيره لم يعد يحتوي صورة الهم الاجتماعي".²

مما لا شك فيه أن المنظومة التعليمية هي عصب الحياة الفكرية والمعرفية لأي مجتمع، وهي أساس النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فالأمم الناهضة تشترك كلها في تجربتها التنموية أنها انطلقت من إصلاح المنظومة التربوية والتعليمية إصلاحا جذريا وموضوعيا بعيدا عن الاستقطاب الإيديولوجي والصراع الفكري المتضارب، وهكذا انطلقت إندونيسيا وماليزيا وسنغافورا واليابان وتركيا وكل الدول الناشئة حديثا.

8- **ذهان السهولة وذهان الاستحالة:**

تبني مالك بن نبي نظرية الحدين، التي تعكس أن الفكرة أو الشيء يقع بين طرفين متناقضين: الإفراط والتفريط، وضعهما كمقياس ومعيار فعالية الأشياء أو عدمها، والإنسان السوي هو من يستطيع أن يساوي بين الحدين ولن يستطيع ذلك إلا في حالة وجود نسبة متساوية بين الاستجابة والتحدي، وعندما تفقد تلك السمة

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى. دمشق: دار الفكر، 2000، ص 170.

² عمار جيدل، نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. مجلة رؤى، مجلة فصلية عنى بقضايا التجديد والمستقبل، العدد 20، سنة 2003، ص 74.

يصبح الإنسان غير سوي، تتحكم فيه عقدتين فإما يفرط أو يفرط.

وإنسان ما بعد الموحدين أصيب بذهانين (deux psychoses) السهل والمستحيل وذهان السهولة ينطلق من شعار «كل شيء سهل» مما يوحي بعدم الجهد أو النشاط ويفضي إلى الكسل والدعة، فالمسلم اللاشاهدي يسهل الأمور حتى تعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى أدنى طاقة أو عمل، مما يؤدي إلى عدم التخطيط والتقدير، فيظهر داء التأجيل أحد ألد أعداء الوقت، وبالتالي يحدث الشلل الاجتماعي لخلل الوظائف في السلم الاجتماعي، يقول مالك بن نبي: «طالما ظل الفكر عاطلا منعدم التأثير بقي النشاط حركة وفوضى، وتزاحما يبعث على الضحك والرتاء، وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي وليت الأمر توقف عند ذهان السهولة فحسب، بل امتلكه ذهان أخطر من الأول، تمثل في ذهان المستحيل الذي نراه في شمال إفريقيا تحويه ثلاث شعارات:

أ_ لسنا بقادرين على فعل شيء لأننا جاهلون (نقص العلم).

ب_ لسنا بقادرين على أداء عمل ما لأننا فقراء (نقص المادة).

ج_ لسنا بقادرين على تصور الأمر لأن الغزو الثقافي ببلادنا (التبعية)

ومن خلال الشعارات السالفة نلاحظ أن العطالة مست ثلاث جوانب في الإنسان (أ= عطالة الروح والقلب)، (ب = عطالة اليد)، (ج = عطالة العقل).

وذهان السهولة والمستحيل يعدم العلاقة بين الفكر والنشاط، ويجعل الفوضى تسود الأعمال، فيسود الاضطراب ويجد الإنسان نفسه في حالة هيجان تعكس فشله، فتصدع العلاقة بين ذاته والموضوع، يعبر مالك عن هذه الحالة بقوله: «فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمتى انعدمت - هذه العلاقة - عمي النشاط واضطرب، وأصبح جهداً بلا دافع، وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلاً مستحيلاً، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديراً ذاتياً، وهو في

عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقديمها أم حطا من قيمتها" وتبرير عدم القدرة على فعل نشاط ما بالمستحيل، ينبئ أن الإنسان بلغ من التسبب الحضاري درجة قصوى، يجعل منه مجرد كتلة من اللحم متحركة، واستعمال بن نبي لفظ «خيانة» يبرز أن منطق السهل والمستحيل جعلا العالم الإسلامي يفقد الفعالية الحضارية والمغامرة المتجلية في الفتوحات الإسلامية وتحمل الصعاب والمشقة.¹

خامسا/ التنمية الاجتماعية: بين البناء والتكديس.

إن تحقيق نموذج اقتصادي فعال وآمن يتطلب إعادة هندسة الوعي المجتمعي، من خلال تغيير الذهنيات والأفكار التي ساهمت في الإخفاق والهدر - النقد الذاتي - والتركيز في تقييم نتائج التنمية على الكيف وليس الكم، وعلى النوع والجودة وليس على العدد والأرقام، فليست العبرة بعدد السكنات المنجزة بقدر ما تكون العبرة في قيمة السياسة السكانية المتهجة وعدالتها في التخفيف من أزمة السكن على أرض الواقع، وليست العبرة بملايين المتخرجين من الجامعات بقدر ما هي في جودة ما تلقونه من تعليم وجودة ما يقدمونه من أداء وكفاءة، وكذا جودة السياسات المتخذة للاستثمار في الملايين المتخرجة من الجامعات؟ فمعيار نجاح النموذج الاقتصادي هو الاحتكام إلى النتائج والواقع وليس لمنطق التنظير والأرقام الخالية من الروح وهذا ما يسميه مالك بن نبي "منطق التكديس Logique empilable".

وقد أكد مالك بن نبي على هذه الحقيقة في غير ما موضع منوها بالتجربة الألمانية عندما انطلقت من رأسها الحقيقي الموجود في رأس كل ألماني، لأن استيراد

¹ بوعرفة عبد القادر، نظرية التصابي عند بن نبي وأفق النقد الحضاري. على الرابط:

<http://iranarab.com/Default.asp?Page=ViewArticle&ArticleID=547&SearchStr=ViewAll>

القوالب الجاهزة لا يؤسس مجتمعا ولا حضارة، وإنما يعطيك ركاما أو تكديسا، وينمي في نفوس أفراد تلك الشعوب صفات الاتكالية واللامسؤولية والخمود والجمود الفكري والعملية.

فبناء مجتمع وظيفي *Société fonctionnelle* يقتضي " تجنب الاتكال على الغير وتحاشي أسلوب الاستيراد والتكديس، فلا يتحضر شعب إلا إذا امتلك وعيا حضاريا يميز بين البناء والتكديس وبين الإنتاج والاستيراد، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة، إذ علينا أن ندرك بأن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة." ¹

المستدامة في بلاد العالم النامي بما فيها الجزائر هو مراعتها على الموارد المادية والمالية (الكم) وجعلها معيارا مرجعيا للاستثمار، فنسمع الحديث عن تخصيص الملايير في مشاريع تنمية مختلفة من دون الحديث عن قوة وجودة الأفكار *Qualité des idées* المسيرة لهذه الموارد المالية الضخمة، والتي ما تلبث أن تتحول إلى هياكل وتجهيزات تتعرض إلى التلف والتخريب بعد مدة وجيزة، أو تفقد فاعليتها في الواقع ولا تعكس حجم الأغلفة المالية المخصصة لها، وللأسف أصبح هذا روتيننا رسميا ثابتا، نفتخار بإنشاء كذا مؤسسات تربوية وجامعات ومستشفيات وشركات ومباني حكومية ومحلات تجارية دون أن نتساءل عن مردودها الاقتصادي والتعليمي والاجتماعي والثقافي والتنموي، وهل يكفي ذلك أو يفوق مستوى الأهداف المرجوة من هذه المشاريع التنموية وهل تم تحقيق ذلك فعليا على أرض الواقع؟.

إن رؤية المجتمعات الحضارية الرائدة قد تجاوزت مرحلة تثمين "المادة" *Évaluation du matériel* إلى تثمين " الأفكار " *Évaluation des idées* ومدى قوتها

¹ جلالي بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي. (الجزائر: دار المعرفة، دت ن)، ص 97.

وفعاليتها في صناعة التغيير نحو الأحسن، فالبناء الاقتصادي للدول ينطلق أساسا من بناء الفرد وتهيته ليلعب دورا حاسما وإيجابيا في بيئته المحلية من خلال تحفيزه نحو العطاء والمشاركة في تقديم الرؤى والأفكار الحية والعملية.

ولقد أشاد مالك بن نبي رحمه الله بمكانة الأفكار الفعالة *Les idées efficaces* في دفع عجلة التنمية واعتبرها أساس الإقلاع والتطور الاقتصادي، بل أكد بها لا يدع مجالا للشك أن رأسمال الأفكار والمعرفة هو عصب التنمية وهو أولى بالاستثمار من عالم الأشياء أو الموارد المادية الأخرى، وهو الأمر الذي لاحظ غيابه عن برامج ونشاطات التنمية في الجزائر مما أفقدها روحها وجدواها وفعاليتها، حيث يقول مالك بن نبي رحمه الله: "وبملاحظتنا لبعض النشاطات النموذجية في الجزائر، تمكنت في دراسة ظهرت لي منذ بضعة سنين من الإشارة بالأرقام إلى تبديد مفرط لطاقتنا الاجتماعية وتبذير مسرف وغير محسوس في وسائلنا وهذا مظهر من مظاهر اللافعالية التي تعزى إلى العجز في أفكارنا.¹ فمالك بن نبي عليه رحمه الله يرى أن امتلاك وتوفير الوسائل المادية والطاقات البشرية لا يؤدي ثماره ولا يحقق تنمية حقة في ظل غياب رشادة الأفكار وفعاليتها، وهذا يوضح مركزية وأفضلية الموارد الفكرية والمعرفية على الموارد المالية والمادية، بل إن هذه الأخير محكومة وموجهة بمدى فعالية منظومة الأفكار المجسدة في خطط وسياسات التنمية على المستوى الوطني والمحلي.

كما يعيب مالك بن نبي إهمال عالم الأفكار في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية وعدم إيلائها أية أهمية أو إدراك دورها في الإقلاع الاقتصادي والطفرة التنموية حيث يقول: "إن الأفكار لا تتمتع في المجتمع الإسلامي بقيمة ذاتية، تجعلنا ننظر إليها بصفقتها أسمى المقومات الاجتماعية، وقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها،

¹ مالك بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي. دمشق: دار الفكر، 2000 ص 61.

وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما كان نوعها.¹ إن الفقر الحقيقي من منظور مالك بن نبي ليس في قلة الموارد وإنما في فقر الأفكار وضعف آليات الاستثمار وانعدام الرؤية الرشيدة والسليمة لمشاريع التنمية، وفي هذا السياق يقول رحمه الله: "ونلاحظ هنا أن القضية لا تتصل بفقر في الوسائل لأن العمل هو الذي يخلقها ولكن بفقر في الأفكار."²

سادسا/ أبعاد التنمية الاجتماعية وفق منظور مالك بن نبي.

كثيرا ما نقف في تحليلاتنا الفكرية للظواهر والاختلالات عند الأسباب الظاهرة والمباشرة، ونَغْفُلُ عن تأثير الأدوية الخفية والعميقة التي تمثل المصادر المغذية للأسباب التي بدورها تحيل إلى النتائج نفسها، فalcضاء على أسباب المشكلة وترك أدوائها وأصولها سيؤدي إلى إعادة إنتاجها مرات عديدة في صور ومظاهر متجددة.

وهذا ما دفع مالك بن نبي إلى عدم الوقوف على أطلال المشكلة الحضارية واصفا لها بل أوغل في البحث عن "مسبباتها الخفية" فيما وراء حجاب "الأسباب الظاهرية" فأبدعت قريحته أفكارا فذة ونحتت مصطلحات جديدة من قبيل: القابلية للاستعمار، الفعالية الفكرية، العقل التطبيقي، الأفكار القاتلة والميتة، الأفكار الموضوعة والمصنوعة، الأفكار المخدولة، البناء والتكديس، الاغتراب الزماني والمكاني، النزعة الذرية، الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية، ذهان السهولة وذهان الاستحالة... الخ.

إن مالكا يرجع أسباب الانتكاسة الفكرية في المجتمعات المسلمة إلى عوامل ذاتية أكثر منها خارجية، فمطية التفكير السائدة المتسمة بالجمود ومعاكسة السنن الكونية، والميل إلى التقديس والتقليد والتكديس، بدل التقعيد والتجديد

¹ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر، ط9، 2009، ص 82.

² مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه. دار الفكر، دمشق، 2002، ص 175.

والتأسيس، هي سمات تحتاج إلى تغيير جذري للأنفس وانقلاب ثوري جامع على الأصول المغذية لحالة الوهن الحضاري.

وكمدخل أولي لعملية الإصلاح الشامل، يؤكد مالك بن نبي على ضرورة التخلص من الرواسب القاتلة المتمثلة في الأفكار والعادات المعيقة لمسار الإقلاع الحضاري، والمترسخة في الوجدان الجماعي للمجتمع عبر سنين الانحطاط، فيقول مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة: "وإنه يجب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قَتَالَةٍ وِرْمٍ لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة. وإن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة."¹

وترتكز استراتيجية التغيير الحضاري من حالة الوهن والسكون إلى حالة الفعالية والتجديد، عند مالك بن نبي على بعدين أساسيين هما:

1- معرفة معوقات التغيير ومن ثم تصفيتها وإزالتها، وهو ما يسميه مالك بن نبي بعملية التجديد السلبي، أي أنه تجديد يتم بطريقة سلبية تُحدث القطيعة مع رواسب وموروثات الماضي.

2- معرفة عوامل التغيير ومن ثم العمل على ترسيخها، وهو ما يسميه مالك بن نبي بالتجديد الإيجابي، الذي يقوم بوظيفة مد وتطعيم الثقافة بأفكار جديدة بناءً تصلها بالمستقبل وبالحياة الكريمة.²

فالقضاء على داء القابلية للاستعمار الذي أورث حالة الوهن الحضاري في

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة. المرجع السابق، ص 86.

² دهيمي زينب وفريد بويش، الاستراتيجية التربوية للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. مقال منشور بمجلة دراسات نفسية وتربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، العدد 11 ديسمبر 2013، ص 130.

مجتمعاتنا العربية، يتطلب تغييرا في الذات وإصلاحها والثورة على القوالب الموروثة التي تبعث على الركود لا التجديد والنظر للحال دون المآل، والتشبث بالماضي دون المستقبل، وهذا كله يستدعي نمطا فكريا وسلوكيا حديثا وجيلا جديدا مغايرا في تفكيره لسابقه، ولهذا يقول الأستاذ عمر مسقاوي رفيق درب مالك بن نبي: " فالخروج من القابلية للاستعمار ومن عصر ما بعد الموحدين يتطلب جيلا جديدا ومعايير جديدة، ويبدو لنا كما هو ظاهر في مقدمة كتابه (وجهة العالم الإسلامي) أن ابن نبي أثر وضع الجزء الثاني من كتابه تحت أبصار جيل جديد في تكوينه الفكري والتربوي... فالشفاء من مرض القابلية للاستعمار كما رأى في تجربته في القاهرة ثم في الجزائر فيما بعد، يتطلب وعيا أكبر في الحياة الداخلية للفكر الإسلامي في العصر الحديث، خصوصا في الجانب التربوي الذي اهتم به في كتابه (شروط النهضة) ليسلك الفكر الإسلامي مداه العالمي، وأول طريقه هو تصفية الفكر الإسلامي من القابلية للاستعمار نفسيا، ثم من تبعية محور واشنطن-موسكو كما شرحه في كتابه (الفكرة الإفريقية الآسيوية)."¹

وكاقترح من الباحث لتشخيص ومعالجة المعضلة الفكرية للمجتمعات العربية الراهنة، يتطلب الأمر - كخطوة أولية- تبني منهجية علمية في تحليل النسق الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي والاقتصادي للمجتمعات العربية، والعمل على ما يلي:

أولا/ تحديد مكان الاختلال والاعتلال:

- 1- وذلك بتوصيف طبيعة الحالة الفكرية المعاصرة والأسباب المتحكمة فيها.
- 2- استقراء العوامل والمسببات العميقة للجمود الفكري عبر المسارات التاريخية.

¹ عمر كامل مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد. ط1، دمشق: دار الفكر، 2013، ص 1269.

- 3- وضع تصور واضح لتقسيمات الأفكار وقيمتها واتباطاتها بالوهن الحضاري.
- 4- تحديد مصادر تغذية الوهن الحضاري واستمرارية العجز الفكري الذاق والخارجي بالمجتمعات العربية.

ثانيا/إرساء أسس وآفاق الانبعاث الفكري والحضاري:

- 1- وذلك بإعادة إحياء حركية العقل الجمعي، واستعادة ثقته بقدراته الذاتية على البناء والارتقاء، وذلك بتفعيل حركية المراكز الإقليمية والدولية للأبحاث والمعارف والدراسات المختلفة.
- 2- تغيير الجبالات الرديئة للنفوس؛ الموروثة عن عهود الانحطاط، والتشبع بالقيم الإيجابية والفعالة المحفزة على العمل والجودة كمعالم هادية للفكر والإرادة.
- 3- وذلك بتطوير أداء المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام وترقية الخطاب المسجدي وتفعيل دور الأسرة والمنظمات المدنية في مجال الفكر وبناء الانسان.
- 4- وضع استراتيجية مجتمعية شاملة قائمة على الوعي والتنمية الفكرية وتشجيع القراءة والاستثمار في المورد البشري وتنمية التفكير الإبداعي.
- 5- الاهتمام بالتعليم والمناهج الدراسية وترقية تنافسية وجودة الأداء التعليمي والبيئة التعليمية العامة (السياسات العامة، البيداغوجيا، الأساتذة، النظام التعليمي).
- 6- الاهتمام الرسمي بالوظائف التي تضطلع ببناء الإنسان وتنمية الوعي والمعرفة والتمكين لها مجتمعا ووظيفيا وماديا ومهاريا، كالأساتذة والمربين والمعلمين والأطباء والأئمة والإعلاميين...الخ.

الخاتمة

إن عالمنا العربي-الإسلامي ورث غداة الاستقلال وضعاً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً مأزوماً ومكلوماً، وفي الوقت ذاته استفاد على واقع فكري وعلمي أشدّ بؤساً وأشدّ تنكلاً، إذ عمد المستعمر إلى تشويه العقل العربي وتفريغته من أيّ

"كفاءة إدراكية" وقدرة على التحليل والتفكير والإبداع، من خلال استراتيجيات وعمليات نفسية وفكرية دقيقة ومنهجية استهدفت آلة الفكر واللغة ومقومات الهوية والشخصية الوطنية، فأفرغتها من محتواها الأصيل وغمرتها بالدخيل الهزيل، من خلال تغذية العقل وشحنه بمنظومة من الأفكار القاتلة والميتة وعديمة الفعالية لتجعله مغتربا عن كيانه، مستشعرا للعجز في ذاته، فاقتدا للثقة في إرادته، مأسورا بإرادة غيره وقيادته.

إلا أن إلقاء التَّبعَةِ على المستدمر وتحميله مسؤولية كل نكبات العالم العربي-الإسلامي، هو مُرْتَكِزٌ هَيْنٌ لا تستقيم به الحُجَّة ولا تَسْتَبِين به المحجَّة، في رأي ثلة من المفكرين ومنهم مالك بن نبي رحمه الله، إذ أن كثيرا من مظاهر التبعيَّة والهزيمة الفكرية وأصول التخلف الحضاري ترجع أساسا إلى الذوات والإرادات وعقم الأفكار وما تشبعت به النفوس عبر مسارات تاريخية طويلة، وإبان عهود ومحطات عديدة سبقت أحقاب الاحتلال من معتقدات ومفاهيم مغلوطة، وتصورات وخرافات معطوبة، وتفسيرات مجافية لسنن الحياة والتفكير العقلاني والإبداع والعلوم والحضارة، جعلتنا في خصومة مقيتة مع العلم والفلسفة والفكر والفترة والمنطق السليم والطرح المنهجي المؤسس على الوعي المستنير.

مراجع الدراسة:

- 1- عمر كامل مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد. ط1، دمشق: دار الفكر، 2013.
- 2- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر، ط9، 2009.
- 3- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. دمشق: دار الفكر، 2000.
- 4- مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ط9، دمشق: دار الفكر، 2009.
- 5- مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه. دار الفكر، دمشق، 2002.
- 6- مالك بن نبي، شروط النهضة. دمشق: دار الفكر، 1986.

- 7- مالك بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي. دمشق: دار الفكر، 2000.
- 8- مالك بن نبي، في مهبط المعركة إرهابات ثورة. دمشق: دار الفكر، 2002.
- 9- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع. تر: عبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الوعي، 2013.
- 10- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. دمشق: دار الفكر، 2002.
- 11- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. دمشق: دار الفكر، 2009.
- 12- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دمشق: دار الفكر، 2002.
- 13- محمد العبد، مالك بن نبي مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي. ط 1، دمشق: دار القلم، 2006.
- 14- محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن. دمشق: دار الفكر، 2007.
- 15- مولاي الخليفة لمشيبي، مالك بن نبي دراسة استقرائية مقارنة. دمشق: دار محاكاة، 2012.
- 16- جلال بوبكر، البناء الحضاري عند مالك بن نبي. الجزائر: دار المعرفة، د ت ن.
- 17- محمد لعاطف، معوقات النهضة وطرق علاجها في فكر مالك بن نبي. رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر، 2008/2007.
- 18- دهيمي زينب وفريد بوبيش، الاستراتيجية التربوية للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. مقال منشور بمجلة دراسات نفسية وتربوية، مخبر تطوير الممارسات النفسية والتربوية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، العدد 11 ديسمبر 2013.
- 19- عمار جيدل، نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. مجلة رؤى، مجلة فصلية نغنى بقضايا التجديد والمستقبل، العدد 20، سنة 2003.

المقاربة التنموية الاجتماعية في فكر مالك بن النبي

بين ثنائية شروط النهضة والقابلية للاستعمار

د. فؤاد جدو

جامعة بسكرة (الجزائر)

foued.djeddou@univ-biskra.dz

مقدمة

تعتبر مسألة التنمية من بين القضايا الأساسية التي لم ينته فيها النقاش منذ تشكل النظام الدولي بعد الحرب العالمية الثانية؛ لأن التنمية ليست هدفا بقدر ماهي مسار أساسي تسعى الدول إلى تحقيق الرفاهية والعيش الكريم لمواطنيها. ومن جانب آخر تعتبر التنمية مصطلحا هلاميا في العديد من الدراسات المتشابكة والمتخصصة سواء في الاقتصاد أو السياسة أو علم الاجتماع.

ويعتبر المفكر مالك بن النبي من بين الذين كتبوا في هذا المجال خاصة التنمية الاجتماعية باعتبارها رافد من التنمية بشكل عام خاصة في العديد من الكتب وأهمها شروط النهضة والتغيير وغيرها أين ركز على البعد الاجتماعي والتفاعل الإنساني في تحقيق التنمية التي لا يمكن الوصول إليها دون صناعة الإنسان والعقل أين أردنا معالجة هذه الجزئية من خلال طرح الإشكالية التالية: ماهي محددات المقاربة التنموية الاجتماعية في فكر مالك بن النبي بين ثنائية شروط النهضة والقابلية للاستعمار؟

وتحت هذه الإشكالية نطرح التساؤلات التالية:

- ما المقصود بالتنمية والتنمية الاجتماعية؟
- ماهي مرتكزات التنمية الاجتماعية وفق مقاربة شروط النهضة؟
- ماهي معيقات تحقيق التنمية الاجتماعية عند مالك بن النبي؟

ولدراسة هذا الموضوع اعتمدنا على مجموعة مناهج؛ على المنهج الوصفي التحليلي من أجل دراسة وتحليل التنمية الاجتماعية عند مالك بن النبي، بالإضافة إلى المنهج المقارن التاريخي الذي استخدمناه في تحليل أهم المتغيرات في التنمية الاجتماعية وفق ثنائية القابلية للاستعمار وشروط النهضة في الدول العربية والإسلامية.

و سنعالج هذه الورقة وفق العناصر التالية:

- 1- مفهوم التنمية الاجتماعية.
- 2- محددات التنمية الاجتماعية وفق مقاربة النهضة.
- 3- شروط تجاوز قابلية الاستعمار لتحقيق التنمية الاجتماعية.
- 4- مناقشة وتقييم.

1- مفهوم التنمية الاجتماعية:

من أدبيات الدراسة ضرورة التطرق إلى تعريف التنمية قبل التعمق في التنمية الاجتماعية عموماً وعند مالك بن النبي خصوصاً، فالتنمية تعتبر مصطلحاً اقتصادياً بالدرجة الأولى باعتبار أنه تحدث عن النمو الاقتصادي رغم الاختلاف في المعنى بينه وبين التنمية، ومن ثم تمدد استخدام هذا المصطلح إلى التخصصات الأخرى في علم الاجتماع والسياسة والفكر وغيرها.

فمصطلح التنمية هلامي لصعوبة ضبطه في إطار معين. ويمكن أن نعرف التنمية "بأنها عملية واعية ومخططة وهادفة تتطلب تنظيمًا من قبل الدولة من خلال تدخلها بواسطة السياسات التنموية الجزئية القطاعية والشاملة الوطنية حيث تصبح الدولة من خلال هذا التدخل مسؤولة عن النجاح أو الفشل في توظيفها كل الإمكانيات

المتاحة وبالتالي فهي توجه المجتمع دون أن تتركه ينمو تلقائياً¹.

فهذا التعريف يربط التنمية بالسياسات العامة للدولة التي تقوم بعملية رسمها وفق الاحتياجات التي تتطلبها الدولة والشعب مما يحقق عملية النمو وفق ميزان يراعي الاحتياجات والامكانيات.

وحسب تعريف الأمم المتحدة للتنمية هي تلك العمليات التي يمكن توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالمجتمعات المحلية وتلبية كافة المتطلبات الأساسية وتوفير الرفاهية لجميع البشرية لإنجاز تطلعاتها من أجل حياة أفضل². من جانب آخر هناك من أضاف مصطلح التنمية الحضارية التي تركز على تحقيق عمل جماعي تعاوني ديمقراطي يعزز المشاركة. وفي المقابل نجد أن التنمية الاجتماعية هي تنمية المجتمع ككل والعمل على تحقيق التوازن الاجتماعي فهي تعني ترقية أفراد المجتمع ككل من خلال السعي إلى رفع المستوى المعيشي للسكان³.

وظهرت مصطلحات بعدها مثل التنمية الاقتصادية والتنمية المستدامة والبشرية والشاملة وهي تطور طبيعي لمفهوم التنمية عموماً في شقها الاقتصادي وغيرها إلا أن التنمية الشاملة تعتبر المرحلة النهائية لمفهوم التنمية في الوقت الراهن، ويمكن أن نقدّم مفهوم التنمية الشاملة وفق تعريف منظمة الاسكوا: «هي سياسات في الحماية الاجتماعية وبرامج إنمائية طويلة الأجل تستهدف جميع أفراد المجتمع، وتركز بشكل خاص على الفئات المهمشة والمعرضة للمخاطر، من أجل القضاء على الفقر

¹ معمري بن عيسى، التنمية تطور مفهومها وأهم نظرياتها وعقبات تحقيقها في الدول النامية"، مجلة أبحاث، العدد 05، افريل 2018، ص 55.

² اوصيف محمد الصالح، سعد قويدر، الفكر الحضاري التنموي عند مالك بن نبي مقارنة فكية سنغافورة انموذجاً، مجلة أبحاث ودراسات تنموية، المجلد 9 / العدد 02، ديسمبر 2022، ص 105.

³ مرجع نفسه، ص 106.

والتخفيف من عدم المساواة بجميع أشكاله. ويغطي مفهوم التنمية الشاملة الحماية الاجتماعية، والحد من الفقر، والعدالة الاجتماعية، والإعاقة. ويركز على التنمية حقاً أساسياً من حقوق الإنسان، تخفف عن الأفراد ما يتعرضون له من مخاطر خلال مراحل الحياة، وتمكّنهم من العيش بكرامة.¹

وفي تعريف آخر للتنمية الاجتماعية هي عملية تغيير بنائي شامل ومخطط له ترمي إلى تحقيق عدة أهداف للارتقاء بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي؛ "أي: إنها تقوم على تغير الأوضاع القديمة؛ أي: عملية الهدم وإقامة بناء اجتماعي جديد يختلف عن البناء القديم؛ أي: القيام بعملية البناء الاجتماعي".²

خصائص التنمية:³

- الشمولية: ويقصد بها العمومية فالتنمية عملية شاملة وعامة لكل القطاعات فهي عبارة عن تغير يخص جميع الجوانب والأنشطة في المجتمع باعتبارها نظاماً متكاملًا لا يجوز تجزئته لهذا يستوجب أن يكون شاملاً.
- الاستمرارية: من أجل الوصول إلى التنمية لا بد من الاستمرارية في تنفيذ الاستراتيجية المتبعة للوصول إلى الرؤى المنشودة.
- عملية إدارية: تعني أن التنمية قائمة على التخطيط بالدرجة الأولى إلى جانب بعض المهام الإدارية الأخرى من تنظيم ومراقبة وتنفيذ.
- عملية هادفة: تعني أن عملية التنمية تسعى إلى تحقيق مجموعة من الأهداف فهي تعمل على تحقيق رفاهية المجتمع.

وفي دراسات عديدة ارتبطت التنمية بمفهومها الشامل أين ارتبطت التنمية

¹ التنمية الشاملة، منظمة الاسكوا، مأخوذ من موقع: <https://www.unescwa.org/ar/focus/inclusive>

تاريخ النشر 2024، تاريخ الاطلاع 2024/06/25

² سعاد إبراهيم السلموني، استراتيجية التنمية الاجتماعية والاقتصادية، دار غيداء، 2020، ص 11

³ اوصيف محمد الصالح، مرجع سابق، ص 106

بالتخلف؛ ولهذا دخلت الدول بعد الحرب العالمية الثانية في البحث عن سبل الخروج من التخلف، وكان هذا أول مرة يتم فيها الربط ما بين التخلف والتنمية وخاصة التنمية الاجتماعية كمنطلق أساسي الذي يستثمر في الرأسمال البشري، وارتبطت العديد من النظريات التي تعمل على إيجاد حلول لمسألة التخلف وتحقيق التنمية والتقدم في الدول التي عرفت الاستقلال حديثاً عن الاستعمار.

2- محددات التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي وفق مقاربة النهضة:

بالنسبة لمالك بن نبي فيعتبر التنمية علاقة ترابطية مع العديد من المفاهيم لا تنفصل عن بعضها، بل تكون وحدة تفاعلية تبعث في النهاية إلى مخرجات تسعى إلى التغير وتنمية الإنسان وبناء حضارة تعود إلى أصلها وهو الإسلام.

فمفهوم التنمية عند مالك بن نبي له مأخذ آخر؛ حيث يعتبر من الذين اهتموا بشكل أساسي بالتأصيل في الحضارة والتنمية في المنطقة الإسلامية، فهو يؤسس لفكرة التنمية من داخل متكامل بأخذ نظرة كلية للمجتمع ورفض التفسيرات الجزئية لها، وذلك أن المجتمع وحدة كلية تتربط أجزاؤها ولا يمكن أن تفهم إلا من خلال علاقتها مع الأعضاء الآخرين؛ أي: إن فهم أي نظام أو ظاهرة اجتماعية لا يتم إلا في ضوء علاقته بالسياق الاجتماعي العام الذي وجد في إطاره.¹

وينطلق مالك بن نبي من إشكاليات بناء الحضارة، وذلك يطرح تصورات التخلف في المنطقة العربية والتي ترتبط أساساً بالمشكلات الحضارية والاجتماعية، حيث يضع قراءة أولية لمسألة التخلف بطبيعة المكان الذي يتفاعل فيه الإنسان ويعيش فيه، فالإنسانية لا تعاني من مشكلة واحدة بل من مشاكل متنوعة تبعاً لتنوع مراحل التاريخ، فلا يمكن المقارنة بين الرجل الأوروبي المستعمر والرجل

¹ العابد ميهوب، التنمية في فكر مالك بن نبي، مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 01، 2012/06/15، ص

الإسلامي الذي لديه القابلية للاستعمار.¹

وبالتالي يرى مالك بن نبي أن أول أسس التنمية الاجتماعية والتغيير تنطلق من تحديد المشكلات الاجتماعية، وقد سبق أن قدم انتقادات للعديد من المقاربات النظرية التي تأسست في أعقاب الحرب العالمية الثانية التي جاءت وفق البيئة الغربية التي تقوم على قيم المستعمر الغربي وأفكاره وقيمه، والتي تختلف عن البيئة الإسلامية حيث أرجعها إلى الأسباب التالية:²

- عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة.
- عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصا صحيحا.
- عدم تحديد الوسائل تحديدا يناسب الغاية المنشودة والإمكانات.

فمالك بن نبي حاول أن يحدد أبعاد التخلف وسبببات التنمية من خلال استعراض ودراسة النماذج الواقعية، أين عرض مشكلة الفرد في بلجيكا مثلاً؛ فالرجل لا يجد توزناً اقتصادياً في حياته مما خلق صراعاً بين حاجياته وطبيعة النسيج الصناعي الذي يعيش فيه بسبب عدم الملاءمة؛ حيث برزت مشكلة اجتماعية يعاني منها الشعب البلجيكي وهي مشكلة اجتماعية عرفها بالحركة. بينما في العالم الإسلامي المشكلة متناقضة مع الغرب وهي الركود؛ أي: عكس الحركة؛ أي: إن الإنسان المسلم بقي رهين السير التاريخية وركن إلى الراحة.³

وقد حاول مالك بن نبي أن يشخص الوضع أكثر حيث انتقد توجه علم الاجتماع إلى دراسة قضايا العالم الثالث، حيث أطلق على مشكلاته مصطلح التخلف، ولهذا فهو يرى بأن تناول موضوع الحضارة وتحقيق التنمية الاجتماعية لا

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986، ص 75

² العابد ميهوب، مرجع سابق، ص 584

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 75

يجب أن يكون تحت زاوية التخلف، بل يجب أن يؤخذ كمجرد تعبير شامل لظاهرة التخلف، وليس مقصدا في حد ذاته؛ وبالتالي ربط التخلف بالنمو عبر دراسته وفق منحنيات بيانية ومحددات اقتصادية.¹

فمالك بن نبي لا ينظر إلى النمو من باب الاقتصاد واختراع الآلة البخارية، بل وضع سياق التطور في بيئته التاريخية، وكل الأفكار وضروب الخلق والإنشاء، وكل إنتاجات الحضارة وسياقاتها، وكل هذا لا يكون ضمن عبقرية إنسان مفرد بل ضمن سياق الحضارة ككل.

ويعود مالك بن نبي إلى وضع أسس أي تنمية في سياق الحضارة، وليس النمو والتنمية الاقتصادية. وقسمها إلى ثلاثة عناصر أساسية: الإنسان والزمن والتراب، والتي تشكل لنا مخرجات الحضارية والانعتاق من التخلف والقابلية للاستعمار.

فالحضارة عند مالك بن نبي تقوم على مفهوم البناء وليس التكديس، فالبناء هو الكفيل بتأسيس الحضارة؛ وهذا يتطلب وجوب الوعي بالمنظومة الاشتراكية لبناء الحضارة وتركيبها، لذلك شروط التنمية الثلاث عند مالك بن نبي متكاملة فيما بينها، وقد سبق وأن ذكرناها. وحسب ما يراه بن نبي بأنها مشكلات هي:²

- مشكلة الإنسان وتحديد شروط انسجامه مع التاريخ.
 - مشكلة التراب وشروط استغلاله في العملية الاجتماعية.
 - مشكلة الوقت وبث معناه في روح المجتمع ونفسية الفرد.
- وبالتالي من الضروري التطرق إلى عناصر التنمية وبناء الحضارة بشكل مفصل كما يلي:

¹ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة القضايا الكبرى، تر: عمر كامل المسقاوي، دمشق: دار الفكر، 2000، ص

² يوسف ازروال، ظاهرة التخلف ومسألة التنمية في ضوء فكر مالك بن نبي، المجلة الجزائرية للامن والتنمية،

• العنصر الأول: الإنسان:¹

الإنسان في الوقت الراهن يؤثر في مجتمعه من خلال ثلاث مؤثرات وهي: توجيه الثقافة، والعمل، ورأس المال، وهذه المتغيرات لا تتم إلا من خلال التوجيه الذي يعتبر القوة في الأساس؛ لأن عدم التوجيه يضيع الطريق ويبدد الطاقات بشكل يجعلنا لا نستفيد من القدرات والإمكانات المتاحة.

فلقد بين مالك بن نبي أهمية الإنسان في التنمية بكونه المحرك لعناصر النهضة الأخرى، وذلك من خلال توجيه الإنسان في ثلاث نواح وهي:²

أ- توجيه الثقافة.

ب- توجيه العمل.

ج- توجيه الرأسمال.

واعتبر مالك بن نبي أن فكرة التوجيه تعني قوة وتوافق في السير ووحدة في الهدف، ويرى أن الكثير من القوى والطاقات لم تستخدم لأننا لم نعرف كيف نكتلها. وكم من طاقات ضاعت فلم تحقق هدفها ضمنيا حتى زاحمتها قوى أخرى، وبالتالي التوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت وإدارة السواعد والعقول لإنتاج ما هو مهم.

فتوجيه الثقافة يكون بتصفية عاداتنا وتقاليدينا وإطارنا الخلقي الاجتماعي بما فيه من عوامل قتالية ورمم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية للحياة، وهذا لا يأتي إلا بفكر جديد يحطم الموروث القديم، وتحقيق وضع جديد يبعث على النهضة.³

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986، ص 75

² العابد ميهوب، مرجع سابق، ص 584

³ هند بوشلاغم، حربي سميرة، فلسفة التنمية والتخلف في دول العالم الثالث في فكر مالك بن نبي، مجلة الحكمة

للدراستات الفلسفية، المجلد 8، العدد 01، 2020، ص 15

كما يتجه مالك بن نبي إلى ضرورة وضع منهاج جديد للتفكير يقوم على معالجة الأزمة الثقافية، والتي تقوم على ثلاثة عناصر:¹

- الدستور الخلقي.
- الذوق الجمالي.
- المنطق العلمي.
- الصناعة بتعبير ابن خلدون.

ولكن قبل ذلك لابد من التفريق بين الثقافة والعلم؛ فالثقافة عند الغرب هي فلسفة الإنسان؛ أما عند مالك بن نبي فهي محيط يعكس حضارة معينة؛ أي: يضم فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة؛ أي: معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع.

ولهذا فإن أي محاولة لبناء تنمية اجتماعية لابد أن تقوم على أخلاقة المجتمع وتعزيز ثقافته بالقيم والأخلاق التربوية وتحسين الذوق العام للمجتمع، وهذا أهم مرتكز أساسي لأي نهضة أو تقدم وتحقيق فعلي للتنمية الاجتماعية.

وهناك **التوجيه الأخلاقي** فالاهتمام بالأخلاق من زاوية اجتماعية أساسي، وبعيد عن البعد الفلسفي، والتي تقوم على تحديد قوة تماسك الأفراد داخل المجتمع الذين يريدون تكوين وحدة تاريخية، والتي تستمد في المجتمعات الإسلامية من الدين؛ أي: الإسلام، الذي يؤسس للالتحام كما فعل بين المهاجرين والانصار؛ وبالتالي أي حضارة ونهضة لابد أن تقوم وفق التماسك المجتمعي القائم على الأخلاق المجتمعية.²

وبالتالي فأى عملية لا تراعي هذه التوجهات تعتبر ناقصة ولا تؤدي الهدف الأساسي الذي تقوم عليه أبعاد الإنسان في الإصلاح والنجاح والتميز؛ لأنه دائماً يؤكد مالك بن نبي على أهمية التميز بين البيئة الإسلامية والبيئة الغربية من حيث

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 81

² المرجع نفسه، ص 90

التأثير وتعزيز القيم والأهداف التي تسعى إليها.

ويترجم مالك بن نبي العلاقة بين الأخلاق والروح وتأثيرها على الحضارة من خلال المعادلة الرياضية التالية: مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي = اتجاه حضارة¹؛ فهو يعتبر هذه الدالة الرياضية مؤشر على توجهات أي حضارة وفق متغيرين أساسيين ألا وهما الأخلاق التي تقوم عليها هذه الحضارة، والأبعاد الجمالية فيها، أين نجد بعض الحضارات مثل الصين يضعون شروط للجمال مثل طول القامة وشكل الرجل مما يجعل المرأة في هذه المجتمعات تقوم بممارسة طقوس وطرق صعبة من أجل تحقيق هذه الشروط الجمالية التي تتماشى مع المجتمع الصيني، وقد تعتبر معيار للدمامة في مجتمعات أخرى.

أي أن هناك مجتمعات تقوم على الأخلاق أولاً ثم الجماليات الأخرى، ومجتمعات على العكس من ذلك تراعي الجمال قبل الأخلاق كما آلت إليه الآن المجتمعات الغربية واليابانية وفي كوريا عندما وصلت إلى مستويات تكنولوجية عالية من الثقافة إلا أننا نرى بعداً آخر في الأخلاق أين تدنت من خلال المثلية وإجراء عمليات التجميل بشكل متزايد وأيضاً نسب الانتحار بسبب غياب اتجاه الحضارة الذي تدنى فيه الذوق الجمالي رغم أن هناك أخلاق بالمفهوم العام.

توجيه العمل:

يعتبر العمل المعيار الأول لأي بناء حضاري؛ ففي الإسلام كان بناء مسجد رسول الله هو أول عمل قام به النبي عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة إلى المدينة، وهذا دلالة على أهمية العمل وقيمه، كما يؤكد مالك بن نبي على ضرورة أن يكون العمل ذو قيمة هادفة لبناء المجتمع وفق حاجياته لا وفق الكسب المادي وحسب

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 101

بل توجيه الجهود لما يحتاجه المجتمع.¹ ومثال على ذلك ما قامت به الصين في السبعينيات من القرن الماضي عندما غيرت من فلسفة العمل وفق الحاجيات الأساسية لما بعد الاشتراكية التقليدية إلى الاشتراكية الوطنية الجديدة التي تصب في غاية واحدة وهي النهوض بالصين واقتصادها، واستثمرت في الوقت والزمان والمكان وروح العمل، من خلال الاستثمار في الإنسان الصيني من تعليم وتخصص والبحث في ما تحتاجه الصين اقتصاديا لنهضتها؛ فلم تقم على فكرة الأجر بقدر ما بحثت في طبيعة العمل وقيمته وربطه بقيم المجتمع ككل، وهكذا كانت نتيجة الصين من تقدم واعتبارها قوة اقتصادية مهمة في الوقت الحالي.

توجيه رأسمال:

بالنسبة لمصطلح الرأسمال ليس خاصا بالمنطقة العربية والإسلامية، بل يعتبره دخيلا عليها؛ فالأصل هو الثروة والرأسمال وهذين المصطلحين لهما دلالة اجتماعية تتعلق بمكانة صاحب الثروة؛ أما الرأسمال فارتبط في الأساس بالمجتمعات الغربية الرأسالية الصناعية أين ارتبط تحريك وتدوير رأسمال بالصناعة، وتحويل المواد الأولية إلى مواد مصنعة هذه الدورة هي التي تمثل رأسمال.

• العنصر الثاني: التراب²

يتحدث مالك بن نبي عن التراب ليس بالدلالة اللفظية بقدر ما يعبر عنه بالدلالة الاجتماعية في تكوين الحضارة وقيمتها تستمد من قيمة أهل التراب له والقيمة التي تعذي للمكان وكيف يستثمر في بناء هذه الحضارة والقيام بها. فالأرض التي يعيش فيها الإنسان لابد أن يستثمر فيها بكل طاقاته لأن الأمر يتعلق بحاضره ومستقبله وليس فقط مكان للعيش بالمفهوم التقليدي فيجب

¹ المرجع السابق، ص 108

² مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 131

الاستثمار في هذه الأرض حتى تبقى بيئة قابلة للعيش، فيضرب أمثلة مالك بن نبي على ذلك أين تحدث عن التشجير ومحاربة التصحر في الجزائر؛ فالإنسان إن لم يدرك أهمية الأرض التي يعيش فيها ستأكلها الرمال وتقضي على مظاهر الحياة وتصبح منفرة للعيش، ولهذا من الضروري البحث في الجانب، ويمكن أن ندرك أن بعض الدول قد انتهت لهذا الأمر ليس منها الجزائر التي قامت بمشروع السد الأخضر بعد الاستقلال لحماية الأراضي الفلاحية من التصحر وأيضاً عادة لطرح هذه الفكرة مرة ثانية في الوقت الراهن واعتقد أن مالك بن نبي لا يتحدث عن المشروع بعينه بقدر ما يريد التأكيد على أهمية تحويل الأرض إلى بيئة قادرة على العطاء وتطويعها إلى ما يخدم الإنسان وحضارته كما تقوم به الصين والهند وسنغافورة أين تم تحويل المستنقعات والوديان التي تعج بالحشرات والروائح إلى أماكن غالية تستثمر في الصناعة والزراعة والطاقة وبالتالي ربط الإنسان بالأرض عبر تقديرها والاستثمار فيها.

• العنصر الثالث: الوقت¹

الوقت من بين العناصر الأساسية، بل سنة من السنن الكونية التي جعلها الله في الأرض، فكل شيء له ميقات سواء في العبادات أو العمل وغيرها، فيعتبره مالك بن نبي جوهر الحياة الذي لا يقدر، وحاول تشخيص مشكلة الوقت في المنطقة العربية والإسلامية حيث اعتبره مشكلة في العالم الإسلامي لأنه ينتهي إلى العدم لأننا لا ندرك معناه. فيطرح فكرة أساسية لتعويض تأخر المسلمين عبر ضبط التوقيت المناسب، والقيام بالخطوات الصحيحة؛ لذلك اعتبره وأوضح أنه يقصد التخطيط الصحيح والاستراتيجي لتحقيق ذلك وفق معادلة الزمن التي يجب أن تقسم فيه الأعمال وفق خطط وجدول زمني فعال وحقيقي.

تحليل ما سبق: نجد أن مالك بن نبي حاول أن يحدد المشكلات ويشخص مسببات

¹ المرجع السابق، ص 140.

الضعف حتى نستطيع أن نوّصف الدواء والحلول المناسبة لذلك؛ فصناعة التاريخ تتطلب سنن حياتية يجب أن تتوفر أو نوفرها حتى تتغير، ولكن العالم الإسلامي بقي يعيش بذهنية البطولة وصناعتها؛ أي: تعظيم الأجداد والتاريخ، وهذا ما يفسر أن السياسيين لم يستطيعوا أن ينتجوا أفكاراً مقاومة للاستعمار والتخلف، لكن اتجهوا إلى رفع الشعارات التي تغير من الواقع خاصة في فترة الاستعمار.¹

ولهذا إذا عدنا إلى العناصر الثلاثة التي ذكرها مالك بن نبي الإنسان والوقت والتراب نجد أن مالك بن نبي قدّم رؤية لتحقيقها؛ حيث إن العالم الإسلامي يقوم بتكديس الأفكار التي يتم استيرادها من الغرب في شكل خريجي جامعات وحاملي شهادات، بل يجب أن يقوم العالم الإسلامي ببناء الأفكار التي يجب تتعزز مع طبيعة المجتمع وفق معادلة الوعي؛ أي: كيف نبني حضارة؟ وهذا أجاب عليه مالك بن نبي بأن يكون عبر الوعي، وحلّ مشكلات العناصر الثلاث (الإنسان والتراب والوقت) وربطها وفق عملية ديناميكية، ولا تتم بطريقة عفوية بل في وسط تتفاعل فيها؛ لأن كل الحضارات ولدت في أحضان الفكرة الدينية، وبالتالي المجتمعات الإسلامية تنشط الفكرة الدينية الإسلامية وفق مشروع يجسد على أرض الواقع وإعادة توجيهها من خلال فكرة التوجيه التي ذكرناها سابقاً؛ أي: توجيه الثروة التي يمتلكها المسلم وجعلها رأسمال يتحرك وينتج مثل الاقتصاديات الكبرى وفق توجيه العمل الذي يتحرك وفق النص القرآني، وبين ثنائية الجمال والأخلاق حتى يتم الابتعاد عن الابتدال والفساد وانحطاط الاخلاق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب توجيه الأعمال حتى لا تتعارض الأعمال والأفكار السياسية ضد الاقتصاد وغيرها، وحينها يصبح للعمل قيمة فعلية، وفي النهاية يمكن أن نحرك المجتمعات الإسلامية خارج الإطار التقليدي إلى ما يوافق السنن الكونية التي

¹ بدران لحسن، مالك بن نبي، برنامج أسرار وأفكار، تاريخ الاطلاع 2024/06/25 مأخوذ عبر الرابط التالي

<https://2u.pw/kNjxKVNT>

وضعها الله، فالإنسان يقوم على فكرة العمل وليس فقط الكلام أو جعلها ظاهرة كلامية وفقط.

3- شروط تجاوز قابلية الاستعمار لتحقيق التنمية الاجتماعية:

أولى المشكلات: مشكلة الأفكار

إشكالية تحقيق التنمية وتجاوز التخلف في الدول الإسلامية والعربية يحتاج إلى تحديد المشكلات، واستطاع بن نبي إلى حد كبير دراستها من منطلق الأفكار، وأن المجتمعات الإسلامية أصبحت لديها قابلية للاستعمار جعلتها ضعيفة، وليس العدو هو الأقوى، وهذا اكتسبه حسب مالك بن نبي بدءاً بعد الدولة الموحدية التي ركنت إلى الدروشة والصوفية ولم تعمل على التغيير وبناء الأفكار على عكس ما كانت عليه من قبل. فرغم كون المجتمعات الإسلامية السابقة تعرضت إلى الغزو مثل التتار إلا أن المسلم يعود إلى الجهاد والتحرر؛ بسبب طبيعة الفرد المسلم والقيم والأفكار التي كانت سائدة. وربما يذهب إلى الثورة الجزائرية أين استطاعت أن تتحرر من خلال الدور الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين التي غيرت الفكر ومعتقدات المجتمع الجزائري عكس الساسة في تلك الفترة، وهذا ما تماشى مع السنن الكونية التي وضعها الله للنجاح.

وهذا ما سنطرحه في هذا العنصر بشيء من التفصيل حول المشكلات التي طرحها مالك بن نبي لبناء حضارة إسلامية وميلاد مجتمع حقيقي وفعال.

وأول ما طرحه مالك بن نبي: مشكلة الأفكار، وفي هذا السياق يقسم مالك بن نبي الأفكار التي تعيق حركية المجتمع إلى: أفكار قاتلة وأفكار ميتة؛ فالأفكار القاتلة هي الأفكار التي تقتل في الفرد حركيته ودافعيتها للبناء والتجديد، أفكاراً تبعث على الخمول والكسل وقهر الإرادة، وتستنهض بواعث الإجرام والأحقاد والنزاع بين الأفراد؛ فتؤدي به إلى الاقتتال والتفكك. أما الأفكار الميتة فهي ما يجول بالخاطر من أفكار فاقدة

للحياة، عديمة الفعالية كالخرافات والشعوذة والقابلية للاستعمار، وفي هذا الصدد يقول مالك بن نبي: "إن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، لكنها تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي "أفكاراً ميتة" تمثل خطراً أشدّ عليه من خطر "الأفكار القاتلة"، إذ الأولى تظل منسجمة مع عاداته وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تُكوّن ما لم تُجرِ عليها عملية تصفية، الجرائم الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي من الداخل، وهي تستطيع ذلك لأنها تخدع قوة الدفاع الذاتي فيه.¹

ويمكن أن نوضح أكثر ما طرحه مالك بن نبي من غياب رؤية وأفكار حضارية لم تمس الواقع بل أرادت التصادم مع الحضارة الغربية؛ فمالك بن نبي انتقد جهود الأفغاني الذي سعى إلى التغيير والتخلص من الاستعمار لأنه لم يستند على منهج علمي يجسد المشكلات ويقوم بحلها؛ فإصلاح القوانين لا يبدأ من الأسفل؛ أي: الإنسان؛ أي: إصلاحه وتخليصه من أشكال الضعف التي ترسخت في ذاته منذ عهد ما بعد الموحدين؛ أي: إن الأفغاني نظر إلى المشكلة من زاوية سياسية فقط، كما انتقد محمد عبده في طريقة إصلاحه القائمة على الكلام وليس على فعالية عقيدة المسلم.²

فالفكرة كانت لها قيمة وأصالة في المجتمع الإسلامي؛ أين أخذ الاستعمار يترصدها ويترقبها ويستغل ضعف القيمة الاجتماعية؛ فجهل شعب ما بقيم الأفكار التي يملكها يجعل الاستعمار أو محترفي الصراع الفكري يستعمل أجهزة مراقبة لترصد الأفكار. بيد أن الاستعمار ليس من هواة الرقائق الفكرية أو من المولعين بها، ولا هو من زارعي الأفكار أو مكتسبيها، بل يحافظ على احتكاره للأفكار ويترصد تحركاتها باهتمام عملي بالغ؛ ذلك أن الرهان يتعلق بحماية واحتكار تلك الأفكار

¹ حرز الله محمد لخضر، فاعلية الأفكار في التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي، تاريخ النشر 2019/10/12،

تاريخ الاطلاع 2024/06/26 عبر الرابط <https://2u.pw/nXrQqsuA>

² خالد قوزي يعقوب المحاسنة، مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي، مجلة الناقد للدراسات

السياسية، المجلد 6 / العدد 02، 2022، ص 15

لنفسه بحيث يحاول فيها بعد صياغتها على طريقته الخاصة يجهلها العالم الإسلامي، فيجندون أخصائيين في مختبراتهم النفسية ويستعملون وسائل استعلام للإحاطة بكل الثغرات النفسية للمجتمع الجزائري بل ويمتلكون منهجا يتيح لهم استبدال قيمة فكرة ما بفكرة مضادة لها تماما.¹

وإذا ما عدنا إلى تطور الأفكار في العالم الإسلامي منذ بداية عصر النهضة مع أفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أو ما يعرف باليقظة الأولى سنة 1858 إلى وقتنا هذا نجده قد قسم إلى ثلاث مراحل حسب مالك بن نبي وهي:²

- عصر النوم الذي استمر قرونا عديدة.

- عصر الانتباه أو استرداد الوعي.

- عصر الفوضى والذبذبة الراهنة.

والعصر الأخير الذي تعيش معه مالك بن نبي يعتبره يعاني من عدم الثبات وإيجاد شخصية للعالم الإسلامي والفرد المسلم، وقام بمقارنة ميلاد المجتمع الياباني الحديث سنة 1868 أي بفارق 10 سنوات عن بداية عصر النهضة في العالم الإسلامي، إلا أن اليابان استطاعت تجاوز العديد من المراحل خاصة ما يعرف بالطور ما قبل الاجتماعي وبدا في تقليد الكبار؛ أي: أوروبا؛ فاشترى الأشياء من غير فهم للأفكار حتى أصبح سنة 1905 قوة تحسب لليابان وقد تمثلت للأفكار فيما يبقى العالم الإسلامي لا يزال يشتري في الأشياء.

وبالتالي من الضروري تجاوز مشكلة الأفكار عند العالم الإسلامي والتي شخصها مالك بن نبي بشكل أساسي كمعضلة فكرية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا في

¹ أمين طالبي، تحليلات القابلية للاستعمار من خلال صراع الأفكار عند مالك بن نبي، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10/ العدد 3، 2022، ص 874

² مالك بن نبي، فكرة كومونولث إسلامي، تر: الطيب الشريف، دمشق: دار الفكر، ط2، 2000، ص 26

إطار ما يعرف بالاغتراب في ظل تزايد الانكشافية الإعلامية وتزايد الشبكات الاتصالية.

من أجل الوصول إلى النهضة وتحقيق التنمية الاجتماعية الفعلية والتي تصب في نهاية المطاف لتنمية المستدامة والشاملة نجد أن مالك بن نبي حاول تحديد المشكلات وقد سبق وأن تطرقنا إلى معضلة الأفكار التي تعتبر لب التخلف والانحيار والتيه الذي يعيشه العالم الإسلامي.

ثاني المشكلات: المشكلات الدينية:

تعتبر المشكلة الدينية ثاني مشكلة بعد الأفكار عند مالك بن نبي، وهذا بسبب أن المسلمين لم يفقدوا فعاليتهم بتمسكهم بالإسلام بل لهجرهم لروحه الحقيقية والتركيز أحيانا على العمل بدل خلق تطابق بين العمل والدين؛ أي: الروح التي تتفاعل معه، فيتجانس العمل بالإيمان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: غياب النقد الذاتي للمسلم¹ خاصة بعد مرحلة الموحدين، ومن الضروري العودة إلى محاسبة النفس وفق المعيار الديني حتى يستقيم.

ثالث المشكلات: الامية:

تعتبر مشكلة الأمية عند مالك بن نبي من بين المعضلات التي تعطل تقدم العالم الإسلامي؛ فالأمية عنده ليس من لا يكتب ولا يقرأ إنما في منظورها الحضاري فهي نوعين: الأول أمية القراءة والكتابة. والثاني أمية المتعلمين بتقدير مالك بن نبي فهي لا تقل أهمية وخطورة عن أمية الجاهلين، بل قد يزيد عنهم خطرا؛ لأنه إذا نظر لعملية التعلم والتعليم من باب الشهادة وزيادة المستوى والمكانة فهذا الخطر لأنه أهمل أهم نقطة ألا وهي بناء المجتمع وزرع الأفكار والوعي وهو ما يسميه الحرفية

¹ اخالد فوزي المحاسنة، مرجع سابق، ص 18.

رابعاً المشكلات السياسية:

تعتبر السياسة أحد أهم الأوجه التي تقوم عليها الدول والحضارات؛ فالسياسة كما تعرف بفن الممكن، وهي الوجه الآخر أيضاً للحرب، كما تعتبر السياسة المجال الذي يربط الحاكم بالشعوب، ويؤسس للعدل والاستقامة والتنمية كخلاصة.

وقد عبر مالك بن نبي عن أهمية السياسة ما عبر عنه كونفوشيوس أين تؤمن ثلاثة أشياء وهي:²

- لقمة العيش الكافية لكل فرد.
- القدر الكافي من التجهيزات العسكرية.
- القدر الكافي من ثقة الناس بحكامهم.

وعانى العالم الإسلامي من مشكلة علاقة الناس بحكامهم، والتي تدخل في إطار الوظائف التي تؤديها السياسة. ويحدد مالك بن نبي الأساس الذي تبنى عليه هذه العلاقة هو الرجوع إلى حكم الله وتطبيق شريعته، فإذا ما تخلى الحاكم عن ذلك لا تبقي طاعة له من المحكومين.

وفي المقابل لا بد أن يسعى الحاكم إلى توفير شروط أساسية من بينها النقد الذاتي وحسن المعاملة والنزاهة والحكمة والكفاءة السياسية³، بالإضافة إلى التواضع السياسي في الإشارة إلى ضرورة التعاون بين الطرفين وفق العقيدة الإسلامية الصحيحة.

كما يؤكد مالك بن نبي على ضرورة تجانس عمل الدولة وعمل الفرد ينبغي أن يقوم وجوباً على عامل أخلاقي؛ لأن السياسة بلا أخلاق هي خراب للامة، على

¹ المرجع السابق، ص 20

² مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، دمشق: دار الفكر، ط2، 2002، ص 132

³ خالد فوزي المحاسنة، مرجع سابق، ص 110

عكس السياسة في الغرب الذي يقوم على المصلحة وتغيب عنه الأخلاق، بالإضافة إلى النزاهة والكفاءة التي يجب أن تكون إلى جانب الأخلاق.¹

وقد قدم مالك بن نبي أمثلة عن التخلي السياسي في حال الإخفاق من طرف رؤساء الدول مثل الرئيس الفرنسي السابق شارل ديغول الذي ابتعد عن السياسة بعد خسارته عام 1968 في حين العالم الإسلامي لم يشهد مثل هذه الحالات.

وفي المحصلة السياسة لا بد أن تكون جمالية أخلاقية علمية لكي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ، وقد اقترح إدخال نماذج كالحسبة والتي تعرف الآن بالحسبة الديمقراطية كأحد النماذج في المحاسبة والمراقبة التي تعزز الثقة بين الحاكم والشعب، وهذا ما يطبقه الغرب في مسألة الرقابة القبلية والمحاسبة البعدية، والتي تصب في النهاية لمصلحة الأمة.

المشكلة الرابعة الأفكار القابلة للاستعمار:

طرح مالك بن نبي مشكلة كبيرة حول القابلية للاستعمار، ألا وهي أن القابلية تأتي وفق الأفكار المقسمة إلى الميته والمميته؛ فالأفكار الميته نتاج إرثنا الاجتماعي وهي تولد لنا القابلية للاستعمار، والأفكار المميته مستعارة من الغرب أيضا تولد لنا الاستعمار، والنخبة المسلمة تختار الأفكار المميته في الثقافة الغربية مما تعزز الاستعمار.²

فمصدر الأفكار الميته عند مالك بن نبي هو ما بعد دولة الموحدين، وهي الأكثر فتكا، وبقيت كدين في العالم الإسلامي إلى يومنا هذا، ولا يمكن التخلص منه، في المقابل نجد أن العالم الإسلامي قام باستيراد الأفكار المميته من الغرب حيث حمل مسؤولية هذه الأفكار النخب المسلمة هي التي تختار هذه الأفكار المريضة في المجتمعات الغربية وتضيفها للعالم الإسلامي / وقد استثنى مالك بن نبي من هؤلاء

¹ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 132

² المرجع نفسه، ص 146

المفكر إقبال الذي حاول اجتثاث الأفكار المميتة في العالم الإسلامي.

من جانب آخر نجد أن الاستعمار يستخدم المثقف العربي والمسلم من أجل استيراد أفكار قاتلة للمجتمع بشكل غير مباشر، أو يقوم بتهديم وتسميم شبكة العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات الإسلامية، ولهذا اتجهت بعض المجتمعات والأنظمة إلى بناء نوع من المقاومة مثل ما قام به المجتمع السوفيياتي أين دافع عن علاقاته ضد القوارض حتى اتخذ إجراءات جريئة ضد ما أطلق عليها المواطنة العالمية/ كما دافع عن وحدته الثقافية ضد ما يطلق عليه الانحرافية وحاول خلق ما يعرف بتروستكية كآلية للدفاع عن أيديولوجيته.¹

4- مناقشة وتقييم عام:

تعتبر أفكار مالك بن نبي من بين الأفكار التي سبقت زمانها ولا تزال قابلة للتجسيد اليوم وغدا لأنها أفكار استطاع من خلالها تحديد المعضلة التي يعاني منها العالم الإسلامي، والتي تتركز أساسا على الأفكار الميتة والمميتة خاصة بعد عهد الموحدين مما خلق قابلية للاستعمار في العالم الإسلامي.

فالتنمية وبناء الحضارة عند مالك بن نبي لخصها في معادلة أساسية؛ وهي جمع التراب مع الزمن والانسان عبر دمج الدين والتاريخ كمسار تفاعلي بينها والاستثمار في الإنسان كخيار استراتيجي من أجل تحقيق ذلك عبر الاستثمار في الرأس المال البشري أو كما يسميه الإنسان من حيث التعليم والتجديد في الأفكار خاصة مع أننا في وقت أصبح الإعلام الجديد وهيمنة مواقع التواصل الاجتماعي هي السمة السائدة في شبكة العلاقات الدولية والاجتماعية.

فنجد بعض الدول استثمرت في الإنسان؛ فكيف يكون هذا الاستثمار؟ يكون

¹ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط3،

1986، ص89

عبر التعليم؛ لأنه هو البوتقة التي تنصهر فيها الأسس المجتمعية، ومكان زرع القيم والأخلاق واكتساب المهارات، وهذا ما اتجهت إليه الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والدول الراهنة مثل سنغافورة والصين وهذا ما نستشعره من الأرقام والإحصائيات التي تصدر كل سنة.

وحسب التقارير الدولية في ترتيب الأنظمة التعليمية لسنة 2023 كان كما يلي:

المرتبة الأولى كانت للولايات المتحدة الأمريكية، ثم المملكة المتحدة، وبعدها ألمانيا مع تراجع فنلندا إلى 15 عالميا، وسنغافورة في المرتبة 22، والصين في المرتبة 23، وجاءت الإمارات العربية المتحدة في المرتبة 28. ومعيار هذا التصنيف يعود للجودة في التعليم.¹ فهذه الدول تدرك جيدا أهمية التعليم والاستثمار في الإنسان ووضع الأنظمة التعليمية وفق الإنسان ومتطلباته واحتياجات المجتمع وصناعة الأفكار في إطار الابتكار، وإضافة معيار جديد ألا وهو الجودة؛ أي: كيف تكون العملية التعليمية ابتكارية تصنع الإضافة، في المقابل نجد أن معظم الدول التي تعاني من التخلف أنها تستورد الأنظمة التعليمية والمناهج حسب ما تعتقده أنه استيراد لما أفضل وهذا ما تحدث عنه مالك بن نبي بأنه استيراد للأشياء وليس للأفكار وبالتالي استنساخ تجارب لا تتماشى مع طبيعة الأنظمة الإسلامية.

وحسب نظام كيو إس العالمي فطرح الترتيب العالمي والذي جاءت فيه استراليا في المرتبة الأولى ثم كندا وبعدها بريطانيا ورابعا الولايات المتحدة الأمريكية والمعيار الذي يعتمد عليه هذا التصنيف العالمي هو التشجيع على التفكير الإبداعي والمستقل وهذا ما تعمل عليه الدول من أجل تحسين التعليم وتكوين مخرجات

¹ جودة التعليم لسنة 2023، تاريخ الاطلاع 2024/06/26 مأخوذ من الموقع:

<https://2u.pw/xGOA1AD>

تعليمية تستجيب لحاجة المجتمع.¹

إلا أن بعض الدول كماليزيا وسنغافورة أدركت أهمية الاستثمار في الإنسان وفي التعليم تحديداً من خلال وضع برامج تتماشى مع احتياجات السوق ومتطلبات الفرد في هذه المجتمعات، وهذا دعا إليه مالك بن نبي، فماليزيا تعتبر من أهم التجارب العالمية الرائدة في مجال التنمية أين ربطت ما بين الحداثة والإسلام أين قامت على معادلة تراعي التوازن بين الجانب الروحي والاقتصادي والتربوي بمعني بناء مشروع حضاري وفق ما طرحه مالك بن نبي.

فأول ما اتجهت إليه ماليزيا هو التخلص من مشكلة التبعية الاقتصادية ومن رواسب الاستعمار بمفهوم مالك بن نبي، ولم تكن قابلة للاستعمار على خلاف الدول الإسلامية رغم أنها تتعامل باللغة الإنجليزية إلا أنها لم تسمح للمستعمر أن يتحكم فيها اقتصاديا وسياسيا، وهذا ما دعا إليه مهاتير محمد منذ توليه رئاس الوزراء عام 1981 إلى سياسة النظر شرقا والمقصود بها اعتناق قيم العمل السائدة في اليابان والتي تقوم أساسا على الانضباط الشديد؛ أي: انتهج سياسة العمل اليابانية التي تتميز بالانضباط وتقديس العمل واحترام الوقت، كما انتهج أيضا قانون أخلاقي أساسه القيم الإسلامية التي تحث على إتقان العمل فبين أن بين طوكيو ومكة معايير القيم الإيمانية التي تمثلها مكة المكرمة وقيم العمل اليابانية والذي لخصها في: إذا أردت الصلاة فساذهب إلى مكة وإذا أردت العمل فساذهب إلى اليابان".²

ولهذا نجد ماليزيا استطاعت التخلص من الأفكار التي زرعها المستعمر

¹ أفضل أنظمة تعليمية في العالم للتعليم العالي، تاريخ الاطلاع 2024/06/30 مأخوذ من الموقع:

www.idp.com/middleeast

² بلحنافي جوهر، فكر مالك بن نبي من التنظير الى تطبيق التجربة الماليزية أنموذجا، مجلة المدونة، المجلد 09/

العدد 01، ماي 2022، ص 1116

البريطاني الذي خلق تفرقة بين مكونات المجتمع الماليزي؛ والابتعاد عن الطائفية إلى بناء مجتمع يقوم على الوعي وفك الترابط الحضاري مع المستعمر، وتحقيق بيئة تتلاءم مع طبيعة المجتمع الماليزي وهذا لب فكرة مالك بن نبي في تحقيق النهضة.

ومثال آخر على تطبيق فكرة مالك بن نبي: التجربة الرواندية؛ فالعالم لم ينس الحرب الأهلية في رواندا ما بين 1994-1995 والتي خلفت الكثير من القتلى ما يقارب 800.000 قتيل وخرجت من هذه الحرب منهكة ومدمرة كلياً إلا أنها استطاعت الخروج من هذه المحنة عبر سلسلة من الإجراءات والسياسات. والمكان هنا ليس للحديث عن السياسات الاقتصادية بل الفكرة الأساسية في التجربة الرواندية أنها تحررت من الارتباط مع المستعمر الفرنسي تحديداً.

ففي أحد التصريحات التي قدمها الرئيس الرواندي وعن أسباب نجاح التجربة الرواندية قال الرئيس بول كاغامي أثناء المقابلة دور الفترة الاستعمارية في إذكاء الصراعات في القارة السمراء، مؤكداً أن الحرب الأهلية الرواندية كانت نتيجة حتمية للسياسات التي اتبعتها القوى الاستعمارية.

عبر بول كاغامي صراحة عن موقفه من القيم الغربية التي تسعى الدول الكبرى إلى فرضها على شعوب العالم، مؤكداً في الوقت ذاته أن الشعوب الأفريقية تمتلك قيماً خاصة بها وهي الأنسب لحل مشاكلها نظراً لتناغمها مع السياقات المحلية، وقد ضرب لذلك مثلاً فيما يتعلق بقدرة المحاكم التقليدية الرواندية على النظر في مليون قضية خلال 10 سنوات.¹

وهذا يدل على إدراك الشعب الرواندي حقيقة الدور الذي زرعه المستعمر في تدمير الشعوب الأفريقية وزرع الفتن وأنه لا بد أن تعمل وفق قيمها أي أفكارها كما

¹ يعقوب عبد الله ابن، سر نجاح التجربة الرواندية، تاريخ النشر 2021/11/10 وتاريخ الاطلاع

<https://2u.pw/QVlAwnP> مأخوذ من موقع 2024/07/01

قال مالك بن نبي بعيدا عن القيم الغربية التي لا تتماشى مع طبيعة الفرد الأفريقي أو أي كان، والتركيز على التنمية كخيار أساسي، والاستثمار في التعليم، وجعل الإنسان هو مركز التغيير، وإلغاء التفرقة بين الهوتو وتوتسي واعتباره مواطنا روانديا فقط وبالتالي اجتمعت قيمة الفكرة والعمل وتم جمع التراب أي الوطن كقيمة فعلية والإنسان كقيمة روحية والتحرر من اللغة الفرنسية كرمزية للأفكار الاستعمارية وخلق رابط مع الحضارة الغربية عبر اللغة الإنجليزية كآلية لتحقيق التنمية وتطوير التعليم مع الإبقاء على خصائص المجتمع الرواندي.

ظهر بعد آخر للفكر المالكي وهو اقتصاد المعرفة والذي يربط المعرفة بالتنمية والذي يعتمد على الإبداع والاستثمار في البشر والإنسان، وأصبح اقتصاد المعرفة هو الموجه الأساسي للعالم بل غاية ل، خاصة مع التطور التكنولوجي الكبير الذي يعرفه العالم وتغير الخريطة الجيوسياسية مع صعود دول جديدة كالصين والهند ورواندا والبرازيل، هذه الدول أصبحت تبحث في اقتصاد المعرفة وهذا ما تتجه إليه الجزائر ما بعد الحراك 2019 من خلال استحداث وزارة اقتصاد المعرفة وتشجيع البحث العلمي كخيار لمرحلة ما بعد الطاقة، وربما تتجه الجزائر إلى اللغة الإنجليزية كخيار لفك الارتباط مع المستعمر الفرنسي والتوجه نحو السوق العالمية والبحث العلمي في إطار استغلال اللغة الإنجليزية في المناهج التعليمية ابتداء من السنة الثالثة الابتدائي وتشجيع الدراسة والبحث في الجامعة باللغة الإنجليزية من أجل زيادة مرئية الجامعات الجزائرية وإيجاد مكانة لها في التصنيفات العالمية والتوجه نحو الابتكار عبر خلق آلية تعرف بالمؤسسات الناشئة التي تبدأ من الجامعة؛ أي: الفكرة التي يطرحها الطالب كخيار لإيجاد حلول للمشاكل التي نعاني منها، وهذا يعتبر خطوة نحول التحول وفق هذه المقاربة التي تحتاج الكثير ليس فقط في اللغة بل هي مسار متكامل من البداية من المراحل الأولى للتعليم، وفق مشروع حضاري متكامل يراعي

خصوصية المجتمع جزائري.

يعتبر أكبر تحد للمجتمعات في الوقت الراهن هو تحقيق الامن الفكري والمجتمعي خاصة مع إفرازات العولمة والتحديات التي تواجه العالم أمام تدفق المعلومات، ومحاولة نمذجة النموذج الغربي على كل العالم، ولهذا لا توجد دول ضعيفة أو قوية اقتصاديا فقط بل بما تملكه من قدرات علمية وتكنولوجية وتعليمية. ومن بين مظاهر الأمن الفكري والمجتمعي الأفكار التي تهدد المجتمعات كالمثلية الجنسية التي أصبحت سيقا دوليا، ومسألة المساواة الجندرية وحقوق الإنسان.. هذه كلها تتقاطع معها أفكار متطرفة أخرى منها الإرهاب الذي ألصق بالإسلام وانتشار الفكر التكفيري كداعش والقاعدة وزيادة عدد المتعاطفين والمجندين عبر نشر الأفكار التي يتم استحداثها من طرف بعض النخب الغربية كما ذكرها مالك بن نبي في إطار مراقب الاستعمار والذي يعمل على خلق آليات لمراقبة الأفكار المتطرفة وحمايتها وهذا ما يفسر لجوء قيادات الجماعات الإرهابية للدول الغربية خاصة بريطانيا للاحتواء بها، وأيضا هذه الدول هي التي تسن القوانين التي تشجع المثلية وتحميها بل هناك نخب داخل المجتمعات الإسلامية تروج لأفكار مميتة تبعث على الكفر والتكفير والتشكيك في القيم الأساسية وبالتالي خلق هشاشة داخل المجتمعات وإفسادها.

الخاتمة

يعتبر مالك بن نبي مفكر سبق عصره وزمانه من حيث طرحه وأفكاره، وقد وضع خلاصة أي تنمية ومشروع حضاري؛ وهي التراب + الانسان + الوقت، والتي يجب أن تقوم على الدين والأخلاق، وإبقاء الأفكار هي المحرك الأساسي لأي تغيير؛ فإما أن نبدع بما يتماشى مع احتياجات المجتمع، أو نستورد الأفكار الميتة والمميتة التي تكون التبعية على جميع المستويات فالخيار متروك للمجتمعات والقادة.

وقد استطاع مالك بن نبي تشخيص المشكلة في العالم الإسلامي والتي اعتبرها ترتكز أساسا حول عدم وضوح الهدف لدى المجتمعات الإسلامية؛ هل تريد فعلا تحقيق نهضة أم لا؟ إلى جانب عدم وضع استراتيجيات خاصة بالمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية، والتي تقوم تحديدا على الأفكار والتبعية، ثم إشكالية التوجيه داخل المجتمعات الإسلامية من أفكار ورأسمال وإنسان وأن العالم الإسلامي لن يتغير إذا لم يحول الثروة من بترول وغاز ومناجم ورؤوس المال المقدسة في البنوك المحلية والدولية إلى تنمية عبر استثمارها في الإنسان أي التعليم ووضع مناهج تعليمية تقوم على الابداع، وجعل الإنسان منطلق التنمية وتعود إليه وفق مقاربة التنمية الشاملة أي التنمية وفق الأبعاد الإنسانية والحضارية.

في ظل الانفتاح الإعلامي وتطور وسائل التواصل الاجتماعي وزيادة الانكشافية الإعلامية أن نقوم بحل مشكلاتنا الاجتماعية وفق مقاربة الأمن الفكري الذي يؤسس لوضع مرتكزات فكرية قوية تراعي البعد الديني الوسطي ضد أي تطرف، وأن تقوم على خصوصية ومكونات أي مجتمع من حيث اللغة والعادات والتقاليد يقوم أيضا على صياغة محتوى إعلامي وفكري والتي تخلص في النهاية إلى بناء مجتمع قوي.

الابداع في التعليم يعتبر هو الأساس في أي استراتيجية ناجحة لأي دولة فالنماذج الناجحة كثيرة استطاعت أن تتحرر من القيود الاستعمارية من خلال الإنسان كقيمة من خلال جعل المجتمع قويا وفعالا إذ لم يستثمر في التعليم والإبداع فلن يسقط أمام تدافعات العولمة ومواقع التواصل الاجتماعي.

لابد أن تحل كل المشكلات الاجتماعية كأولية، وأولوية لتحقيق التنمية تسعى إلى تجاوز مشكلة التاريخ وارتباط مع المستعمر وإعطاء قيمة للإنسان من الحرية

والتحرر من الأفكار المميتة، وفتح المجال للإبداع وفق مقاربة أخلاقية تقوم على ما جاء به الإسلام وبهذا ستتحقق مقاربة مالك بن نبي في ذلك.

قائمة المراجع

- 1- معمري بن عيسى، التنمية تطور مفهوما وأهم نظرياتها وعقبات تحقيقها في الدول النامية، "مجلة أبحاث، العدد 05، أفريل 2018، ص 55
- 2- أوصيف محمد الصالح، سعد قويدر، الفكر الحضاري التنموي عند مالك بن نبي مقاربة فكرية سنغافورة أنموذجا، مجلة أبحاث ودراسات تنموية، المجلد 9 / العدد 02، ديسمبر 2022، ص 105
- 3- التنمية الشاملة، منظمة الاسكوا، مأخوذ من موقع <https://www.unescwa.org/ar/focus/inclusive> تاريخ النشر 2024، تاريخ الاطلاع 2024/06/25
- 4- سعاد إبراهيم السلموني، استراتيجية التنمية الاجتماعية والاقتصادية، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2020، ص 11
- 5- العابد ميهوب، التنمية في فكر مالك بن نبي، مجلة الدراسات الإسلامية، العدد 01، 2012/06/15، ص 584
- 6- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986
- 7- مالك بن نبي، مشكلات الحضارة القضايا الكبرى، تر: عمر كامل المسقاوي، دمشق: دار الفكر، 2000،
- 8- يوسف ازروال، ظاهرة التخلف ومسألة التنمية في ضوء فكر مالك بن نبي، المجلة الجزائرية للامن والتنمية، العدد 15، جويلية 2019، ص 53
- 9- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986
- 10- هند بوشلاغم، حربي سميرة، فلسفة التنمية والتخلف في دول العالم الثالث في فكر مالك بن نبي، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 8، العدد 1، 2020، ص 15
- 11- بدران لحسن، مالك بن نبي، برنامج اسمار وأفكار، تاريخ الاطلاع 2024/06/25 مأخوذ عبر الرابط التالي <https://2u.pw/kNjxKVNT>
- 12- حرز الله محمد لخضر، فاعلية الأفكار في التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي، تاريخ

النشر 2019/10/12، تاريخ الاطلاع 2024/06/26 عبر الرابط
<https://2u.pw/nXrQqsuA>

- 13- خالد قوزي يعقوب المحاسنة، مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي، مجلة الناقد للدراسات السياسية، المجلد 6 / العدد 02، 2022، ص 15
- 14- امين طالبي، تجليات القابلية للاستعمار من خلال صراع الأفكار عند مالك بن نبي، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 10 / العدد 3، 2022، ص 874
- 15- مالك بن نبي، فكرة كومنولث إسلامي، تر: الطيب الشريف، دمشق: دار الفكر، ط2، 2000
- 16- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، دمشق: دار الفكر، ط2، 2002
- 17- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ط3، 1986
- 18- جودة التعليم لسنة 2023، تاريخ الاطلاع 2024/06/26 مأخوذ من الموقع
<https://2u.pw/xGOA1AD>
- 19- 6افضل أنظمة تعليمية في العالم للتعليم العالي، تاريخ الاطلاع 2024/06/30 مأخوذ من الموقع www.idp.com/middleeast
- 20- بلحنافي جوهر، فكر مالك بن نبي من التنظير إلى تطبيق التجربة الماليزية انموذجا، مجلة المدونة، المجلد 09 / العدد 01، ماي 2022، ص 1116
- 21- يعقوب عبد الله ابن، سر نجاح التجربة الرواندية، تاريخ النشر 2021/11/10 وتاريخ الاطلاع 2024/07/01 مأخوذ من موقع <https://2u.pw/QVIAwnP>

الأسئلة الثقافية الكبرى من منظور مالك بن نبي

— دراسة تحليلية —

د. بلال بوسنة

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)

boussena-billel@univ-eloued.dz

مقدمة

تعتبر الثقافة مشغلا بحثيا طُرح ويبقى مطروحا على الساحة الفكرية لما لها من تأثيرات بالغة في توجيه سلوك الأفراد والمجتمعات، فهي الإطار الذي تنتظم وفقه كل شيء، لكن ثمة إشكال كبير في تشكيل ذلك الإطار ناتج عن اختلاف في المنطلقات المؤسسة للثقافة، فهناك منطلقات غربية للثقافة كما توجد منطلقات إسلامية توحيدية؛ من هذه الأخيرة نبت مفكر وفيلسوف جزائري اسمه مالك بن نبي كرس جهوده في دراسة المشاكل التي تواجه الإنسان وكل ذلك عزم في المساهمة في صناعة التحضر، ولعل أبرز المشاكل التي واجهت الإنسان من منظور مالك بن نبي هي مشكلة الثقافة، وهذا ما دفعنا لاختيار موضوع ورقة بحثنا والموسوم بـ: "علاقة الثقافة بالمجتمع من منظور مالك بن نبي".

أهمية البحث: تكتسي أهمية بحثنا في كونه يعرّفنا على أحد أساطين الفكر الجزائري المعاصر هذا من جهة عملية الإحياء، من جهة ثانية يعالج أبرز إشكالية تواجه المجتمع والمتمثلة في الثقافة وكيفية صناعتها ومعايشتها؛ وبالتالي فإن مالك بن نبي كان أحد المنظرين لهذا الموضوع؛ وبالتالي فإن طرح مثل هكذا مواضيع يعد ضرورة ملحة.

أهداف البحث: نسعى من خلال هذه الورقة البحثية أن نصل إلى عدة أهداف مرجوة تمثلت في الآتي:

- معرفة الخلفية الثقافية التي نبت فيها مالك بن نبي وتبين مميزاتها.
- معالجة أكبر إشكالية تواجه العالم الإسلامي في الفترة المعاصرة والمتمثلة في الثقافة.

- إعادة إحياء فكر مالك بن نبي وتفعيله في المجتمع.
- تبيان الكيفية التي عالج بها مالك بن نبي مشكلة الثقافة ومحاولة البناء عليها.
إشكالية البحث: حاولنا من خلال هذا الموضوع أن نعالج الإشكالية التالية: إلى أي مدى استطاع مالك بن نبي أن يشخص مشكلة الثقافة؟ من الإشكالية فرعنا ثلاث تساؤلات، اثنين منهما طرحهما مالك بن نبي وهما لب الموضوع وأساسه تمثلا فيما يلي:
- ماهي الثقافة؟ وكيف يتم إعدادها؟

أما السؤال الثالث خص مالك بن نبي: من هو مالك بن نبي وما هي الخلفية الفكرية التي أطرته.

خطة البحث: للإجابة عن الإشكالية بمتغيراتها اقتضت الورقة البحثية أن تمر عبر محورين رئيسيين:

المحور الأول: الخلفية الثقافية لمالك بن نبي؛ تناولنا فيه نشأة مالك بن نبي وحياته العلمية، والخلفية الفكرية التي أطرته.

المحور الثاني: الأسئلة الثقافية الكبرى التي طرحها مالك بن نبي؛ تناولنا فيه المفاتيح الكبرى التي استعملها مالك بن نبي في معالجته لمشكلة الثقافة.

المحور الأول: نشأة مالك بن نبي وخلفيته العلمية

إنّ موضوع النشأة له أهمية بالغة في فهم السياقات الفكرية للشخصيات محل الدراسة، لأنه يمثل الحظن الأولي الذي ينبت فيه الشخص، وبالتالي فإن دراسة النشأة ضرورية بمكان لمعرفة الإنتاج الفكري للشخص ومختلف التوجهات التي

تشكل وتصلقل شخصية وفكر الإنسان.

وكما أنّ المشروع الإصلاحى يبدأ بتغير الإنسان، فالإنسان هو الهدف وهو نقطة البدء فى التغير والبناء. كانت هذه من بذور النهضة التى كافح من أجلها و متن جذورها وطيب سماءها مناضل من أبرز رجال الفكر الإسلامى مالك بن نبي. وعليه أتناول فى هذا المحور فرعين؛ حياة مالك بن نبي وخلفيته العلمية، ولعل سبب تناولنا لهذا المبحث راجع إلى محاولة معرفة الخلفيات والأطر التى نبت فيها مالك بن نبي والتي من خلال أصبح ينتج فكرا ناضجا استفادت منه العديد من الدول.

أولاً: حياة مالك بن نبي

ولد مالك بن الحاج عمر الخضر بن مصطفى بن نبي بقسنطينة فى يناير سنة 1905م، وهو يرى أن ولادته فى هذه الفترة من الزمن مكنته من الشهادة على القرن حيث أتاحت له فرصة الاتصال بالماضى والمستقبل يقول: "إن من ولد بالجزائر سنة 1905م يكون قد أتى فى فترة يتصل فيها وعيه بالماضى الممثل فى أواخر شهوده وبالمستقبل المتمثل فى أوائل صائغيه"¹ ومن هنا ندرك السبب الذى جعل مالك يطلق على مذكراته اسم مذكرات شاهد القرن. نشأ مالك فى عائلة محافظة فقيرة فى المعيشة؛ كان بن نبي شديد القرابة بجده الحاج زوليخة التى تعد بالنسبة له مدرسة أخلاقية رسخت فى ذهنه وفى نفسيته معنى الخير والإحسان وشحنته أخلاقياً².

ارتحلت عائلة مالك بن نبي المتكونة من الأب والأم ووالدتها والأولاد؛ مالك وأختيه³ إلى مدينة تبسة، ونظرا للحالة المزرية التى كانت تعانىها أسرة مالك بن نبي

¹ عبد الله بن حمد العويسى، مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012، ص52.

² ينظر: فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، دار الشرق، الأردن، 1998، ص132.

³ ينظر: عبد الله بن حمد العويسى، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص58.

جعل مالك بن نبي يتنقل إلى عمه في قسنطينة للعيش عنده ولم يدم ذلك طويلا حت أرجعته زوجة عمه إلى والديه في تبسة بعد وفاة عمه الأكبر الذي تبناه منذ أمد بعيد يقول مالك بن نبي: "لقد كانت هذه الفترة من حياة عائلتي شديدة العسر"¹.

اعتاد مالك بن نبي في التردد على المساجد منذ وقت مبكر في حياته، بدأ في حفظ المتون والقران الكريم الذي كان بالنسبة له الشاحن والمدعم الذي أشبع روحه.

وفي سنة 1923م نجح مالك بن نبي في نهاية المطاف من الدخول إلى المدرسة الرسمية وسعى لتكوين نفسه علميا ومعرفيا، حيث درس الأدب العربي والإسلامي وكان شديد الاهتمام بالمطالعة، الصحافة العربية والفرنسية كجريدة المنتقد والراية والنضال¹.

كان مالك بن نبي عضوا نشيطا في جماعة الوجدويين فكانت له الجرأة أن قدم يوما محاضرة بعنوان "لماذا نحن مسلمون" في أواخر ديسمبر 1931م وقد أثرت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بينه وبين الانفصاليين².

تزوج مالك بن نبي عام 1931م من امرأة فرنسية أسلمت على يده وأصبح اسمها خديجة كما تعرف في فرنسا على العديد من الشخصيات السياسية التي التقى بهم وتأثر بهم منها: المهاتما غاندي (1869- 1948)، وشخصية مصالي الحاج موسى نجم شمال إفريقيا حيث نشط معه مسرحية الحاكم الطيب³.

وفي سنة 1972م قام بأداء فريضة الحج وأثناء رحلته إلى مدينة الأغواط في الجزائر كان يلقي بعض المحاضرات هناك، اشتد به المرض وكان قد أصابه السرطان في البروستات، فسافر إلى باريس للعلاج، ثم اشتد عليه المرض هناك

¹ مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984، ص18.

² المرجع السابق، ص 221.

³ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب، (دب)، 1984، ص216.

نصحه طبيبه بالعودة إلى بلده، عاد إلى الجزائر وبعد ثمانية أيام توفي في 31 أكتوبر 1973 بعد عمر يناهز الثمانية وستين¹.

ثانيا: خلفية مالك بن نبي العلمية

إنّ التكوين الفكري للإنسان يمر بمراحل يرتقي من خلالها حتى يصل إلى مرحلة النضج والعطاء، فهو بمثابة البناء، ينطلق من القواعد والأسس ليرتقي إلى الأعلى، ولاسيما إذا توافرت لدى الشخص الاستعدادات الفطرية التي تتيح له السير في طريق بناء الفكر وتطوره التطور السليم، وتيسر له السبل لاكتساب العلمية التي تجعل صاحبها في عداد المفكرين وكان مالك يحمل في نفسه استعدادات فطرية أهلتها لاكتساب الصفات العلمية التي طبعت إنتاجه الفكري، فكان بذلك مدرسة من مدارس الفكر الإسلامي المعاصر².

ومن أبرز تلك الصفات التي كان مالك يتصف بها³:

أ - حب القراءة؛ ومطالعة جميع ما يقع تحت يده من مادة فكرية.

ب - حب المناقشة؛ وممارستها في مجال الأفكار.

ج - تأمل الواقع؛ والتفكير بحل مشكلاته.

د - الصبر والمصابرة؛ الإصرار للوصول إلى الهدف.

هـ - الطموح العلمي.

وكما هو معلوم أن أي متلقي فطن له مؤثرات تؤثر على شخصيته تجعله يتكون ويتسلح ليتج و يؤلف؛ مالك بن نبي كذلك تأثر بمؤثرات أثرت في شخصيته وجعلته يؤلف؛ فما هي هذه المؤثرات؟ وفيما تمثلت مؤلفاته؟

¹ ينظر: عبد الله بن حمد العويس، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص 41.

² المرجع نفسه، ص 41.

³ ينظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 111، 112، 120.

1 - العوامل التي أثرت في نمو شخصيته وفكره

إن الظروف والعوامل المحيطة بشخصية مالك بن نبي أسهمت في تشكيل شخصيته وتكوين فكره، وصقل آرائه¹، ومن بين أهم المصادر التي أثرت عليه:

أ - الثقافة العربية والإسلامية:

تلقى بن نبي في الوسط المدرسي تكوينا علميا وأديبا معتبرا، حيث درس التوحيد على يد شيخه "مولود بن موهوب" والفقه والسيرة على يد الشيخ "بن عابد". كما تأثر كثيرا بالحركات الإصلاحية الإسلامية بالجزائر: كحركة الشيخ عبد الحميد ابن باديس وبالحركة الإصلاحية في المشرق ومن أبرز المتأثرين بهم؛ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا يقول مالك بن نبي: "وكان آخر هذه المؤثرات كتابات عثرت عليها في مكتبة النجاح أحدها الينابيع البعيدة"².

ويعتبر "حمودة بن ساعي" المؤثر الحقيقي في شخصية مالك بن نبي فهو الذي أحدث في فكره تلك القفزة النوعية من دراسة العلوم، كما تعلم منه كيفية التفسير والتأويل لآيات القرآن الكريم تفسيرا اجتماعيا³.

2 - أثر الثقافة الغربية فيه تكوين شخصيته

تأثر مالك بن نبي ببعض الفلاسفة والمفكرين أذكر منهم: "نيتشه" الفيلسوف الألماني في كتابه "هكذا تكلم زرادشت"، وأخذ عن "كانط": فكرة الحق والواجب، كما أخذ عن جون ديوي من كتابه؛ كيف نفكر تلك النزعة البراغماتية التي تؤكد على الجانب النفعي في مجال التربية، كما اطلع على كتابات المستشرقين عن الإسلام مثل

¹ ينظر: العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، بسكرة، 2014، ص 66.

² مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص 66.

³ ينظر: المرجع نفسه، ص 67.

كتاب "أوجينغ يونق" الإسلام بين الموت، واطلع على كتابات "هنري بيرن" والمؤرخ الفرنسي "جيز...الخ، تحلى مالك بن نبي بثقافة منهجية استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهم القضايا بالعالم¹.

3 - مؤلفاته: ترك مالك بن نبي عدة مؤلفات ركزت كلها على إبراز مشكلة العالم المتخلف بما في ذلك العالم الإسلامي، باعتباره قضية حضارة أولا وقبل كل شيء فوضع كتبه جميعا في سلسلة تحت عنوان؛ مشكلات الحضارة²، وتمثلت مؤلفاته فيما يلي:

- الظاهرة القرآنية؛ ظهر سنة 1946 في الجزائر.
 - ليك؛ رواية ظهرت سنة 1947 في الجزائر.
 - شروط النهضة؛ ظهر سنة 1948 في الجزائر.
 - وجهة العالم الإسلامي؛ ظهر سنة 1954 بباريس.
 - فكرة الإفريقية الآسيوية؛ ظهر سنة 1956 بالقاهرة.
 - مشكلة الثقافة؛ ظهر سنة 1959 بالقاهرة.
 - فكرة كومونيلث إسلامي.
 - مذكرات شاهد القرن (الجزء الأول) ظهرت سنة 1965 بيروت.
 - مذكرات شاهد القرن (الجزء الثاني) ظهرت سنة 1970 بالجزائر.
 - مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ظهر سنة 1972 بالقاهرة.....الخ.
- بالإضافة إلى مجموعة من المؤلفات والمخطوطات التي لم تظهر³.

¹ ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: كامل مسقاوي وعبد الصبور شهين، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987، ص 69_71.

² ينظر: موسى لحوش، استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006، ص 60.

³ ينظر: عبد اللطيف عبادة، مرجع سابق، ص 31_32

المحور الثاني: الأسئلة الثقافية الكبرى التي طرحها مالك بن نبي

إنّ موضوع الثقافة من المواضيع المهمّة التي شغلت بال المفكرين والفلاسفة المسلمين وغيرهم طيلة مدة من الزمن، كونها ظاهرة تمس المجتمع وتحركه وفق أطرها، مالك بن نبي واحد من الفلاسفة الذين شخّصوا الثقافة، حيث نظر إلى الثقافة واعتبرها مشكلة تطرح ضمن ثلاث أوضاع مختلفة¹:

1 - عندما نتساءل: كيف تتكون ثقافة معينة؟ يكون سؤالنا متضمنا الجواب عن مرحلة تاريخية معينة.

2 - وعندما نتساءل: ما هو الدور التي تؤديه ثقافة معينة؟ أو ما هي الصورة التي تبرز فيها هذه الثقافة؟ نجدنا إزاء وجهة نظر أخرى للمشكلة.

3 - أما عندما نتساءل: كيف يتم إعداد ثقافة معينة؟ فإننا نكون إزاء زاوية نظر مختلف عن الوجهتين السابقتين.

انطلاقا من هذه الأسئلة الثلاث التي طرحها مالك بن نبي عن مشكلة الثقافة؛ يتبين من منظورنا أنّ مالك بن نبي يعتبر الثقافة قضية محورية تحتوي على مجموعة من المداخل المفتاحية؛ والسؤال عن تلك المداخل في حد ذاته يعتبر طرحا خصّ مشكلة الثقافة، في هذا المحور نتناول الأسئلة الثقافية التي طرحها مالك بن نبي وإجاباته عنها، وتكون معالجة ذلك في عنصرين موضحين على النحو الآتي:

العنصر الأول: مفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي.

العنصر الثاني: كيفية إعداد الثقافة في المجتمع الجزائري من منظور مالك بن نبي.

أولا: مفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي

إنّ لمالك بن نبي نظرة جوهرية في الأمر، إذ يرى أنّ اللغز لا يكمن في تحديد المفهوم ولا في اختلاف تركيبة المجتمعات، بل الأمر برمته متعلق كليا بالهدف من

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط 1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص 69.

وراء الدراسة، فإن كان الفكر الماركسي أو الفكر الغربي قد طرح سؤال: ما هي الثقافة؟ بهدف فهم واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين، فإن الهدف من طرح نفس السؤال في العالم العربي والإسلامي يأخذ مجرى آخر؛ إذ هو يتصل بمحاولة خلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد، إلا أنه بالرغم من ذلك لا يستبعد استعمال وجهات النظر الغربية في دراسة الثقافة العربية الإسلامية، لكن ليس أكثر من اعتبارها توجيهات قيمة، وعلى هذا الأساس كان المفهوم الذي وضعه مالك بن نبي للثقافة محملاً برؤى جديدة لم نألفها من قبل¹، كما أنّ مالك بن نبي في كتاباته لم يحدد مفهوما واحدا للثقافة وإنّما ظل يطرح عدة مفاهيم نعرضها على النحو التالي:

1 - مفهومه للثقافة عامة:

رأى مالك بن نبي أن مفهوم الثقافة في إطارها العام ينحصر بين نوعين من التحديد؛ "سلبى يفصلنا عن رواسب الماضي وإيجابى يصلنا بمقتضيات المستقبل"²، والمقصود هنا أن التفكير في ثقافة مستقبلية تستجيب لمقتضيات عصرنا لا يعني أبدا التخلي عن ثقافتنا السابقة ولا يعني محوها، إنّما فقط تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي مما فيها من عوامل هدامة وحشو لا فائدة منه حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة³.

والأمر سيان بالنسبة للنوع الثاني من التحديد، الذي لا يعني به ابتكار منهج جديد للتفكير، أو خلق عقلية جديدة، بل هو ببساطة نتاج التحديد الأول بالإبقاء على العناصر الجوهرية التي تكون ضرورية للثقافة وتكييفها بما يقتضيه المستقبل.

¹ لوييزة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب، كلية الآداب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2014_2015، ص30.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص86.

³ لوييزة لعميري، مرجع سابق، ص30.

مما سبق ذكره جاء تعريف مالك بن نبي للثقافة في إطارها العام على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولى في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا المنحى هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"¹، نفهم من هذا المفهوم أن المحيط هو الذي يصنع ثقافة الإنسان، كما نلاحظ أن هذا المفهوم هو عام يطرحه حتى الغربي.

2 - مفهوم الثقافة في التاريخ:

كان بن نبي قد اقترح لأول مرة تعريفا للثقافة في كتاب "شروط النهضة"، هو تعريف تاريخي من أجل فهم الثقافة، يقول: "إنّ الثقافة بما فيها الفكرة الدينية التي هي أساس الملحمة البشرية كلها، ليست علما لكنها جوّ يتحرك فيه الإنسان الذي يحمل في داخله حضارة، إنها وسط يكون فيه كل شيء مؤشرا على المجتمع السائر باتجاه مصير واحد بتظافر جهود الراعي والحداد والفنان والعالم ورجل الدين، وعملية التركيب الحادثة بين العادات والمواهب والتقاليد والأذواق والأعراف والسلوكات والعواطف، تلك العملية هي التي تعطي وجها للحضارة، وتعطيها قطبيها المميزين، مثل عبقرية كعبقرية ديكاوت ونفس كنفس جين دارك"، فلا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، لأن الشعب الذي فقد ثقافته حتما فقد تاريخه².

3 - مفهوم الثقافة في التربية:

بعد هذا ينتقل مالك بن نبي إلى تحديد آخر للثقافة في أبرز المجالات الحيوية في المجتمع وهو التربية، محاولا تبين مدلولها وتحديد وسائلها وغاياتها، فيقول: إذا حاولنا أن نحدد الثقافة بمعناها التربوي، فيجب أن نوضح هدفها وما تتطلبه من وسائل التطبيق، فأما الهدف فيتمثل في أن الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون الأخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 89.

² نور الدين بوكروح، جوهر فكر مالك بن نبي، ط 1، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2016، ج 1، ص 185.

ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وعلى الأخص إذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية"، وانطلاقا من هذا القول فإن الثقافة تشتمل على إطار حياة واحدة، يجمع بين راعي الغنم والعالم جمعا توحد فيه بينهما مقتضيات مشتركة وهي تهتم في معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى ذلك فإن الثقافة تلعب دورا في شؤون الفرد وبناء المجتمع.

ولكي يوضح لنا أكثر محورية الوظيفة التي تقوم بها الثقافة في حياة الفرد والمجتمع مثل لها بوظيفة الدّم، كونه يتركب من الكريات الدموية الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسد، ونفهم من هذه الأفكار أن تطبيق الثقافة هو أن تتحول إلى أسلوب حياة في المجتمع بحيث تؤثر على كافة طبقاته الاجتماعية دون تمييز أو تفرق، لأن جميع الأفراد بالنسبة للمجتمع سواسية يؤثرون فيه ويتأثرون به، والأمر هنا لا يتعلق بكيفية تشكل الثقافة في مجتمع من المجتمعات، ولا يتعلق أيضا بالتأمل في الثقافة لتحديد دور وظيفتها، بل السؤال الذي تدور في فلكه اهتمامات بن نبي هو عن كيفية إعداد ثقافة معينة؟ أو كيف السبيل إلى جعل تعريف الثقافة يتحرر من قيود التنظير لينتقل إلى مرحلة التطبيق بجعله منهجا أو برنامجا تربويا يمكن تبليغه لجميع الأفراد، لتحقيق هدف أسمى يتمثل في إعادة ثقافتنا إلى مسارها التاريخي لتثبت وجودها باعتبارها حياة المجتمع الذي بدونها يصبح مجتمعا ميتا، ولا شك أنه لا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق التربية¹.

¹ لوزيرة لعميري، مرجع سابق، ص 35.

ثانيا: كيفية صناعة الثقافة في الجزائر من منظور مالك بن نبي

طرح مالك بن نبي سؤالاً جوهرياً حاول من خلاله تشخيص الواقع الجزائري في فترته من خلال إلقائه لمحاضرة باللغة الفرنسية في الجزائر العاصمة بتاريخ 10 - 01 - 1964م، وبالعربية في مدينة قسنطينة بتاريخ: 30 - 01 - 1964م، قائلا: كيف يتم إعداد ثقافة متلائمة مع سلوك الجزائري الفعال؟ شخص مالك بن نبي مشكلة الثقافة في الجزائر وأعطى من خلالها عدة حلول من بينها:

1 - الثقافة نتاج الكل لا الجزء:

يقول مالك بن نبي: " لقد تأكد لنا من خلال التجارب التي سلف أن أشرنا إليها في دراستنا هذه أن السلوك الذي ندعوه بالسلوك الفعال، لم يتم تشكيله داخل المدرسة؛ لأن التعليم الفرنسي لم يمنح للجيل الجزائري الذي سبق جيل الثورة عادات الفعالية التي نجدها ضمن السلوك الذي شاهدناه في مواضع أخرى، وإذن فإن السلوك الأخير لا يتشكل على مقاعد المدرسة، ولكن ضمن الإطار الاجتماعي - الثقافي الذي يحيط بالفرد"¹، نفهم من هذا أن مالك بن نبي استوعب خطة الاستعمار الفرنسي وخبطته في تغيير الثقافة الجزائرية عن طريق المدرسة في تلك الفترة، كما نفهم أن المدرسة هي جزء في صناعة الثقافة وليس كل وإنما المجتمع أو المحيط بكافة جزئياته هو الباعث على إنتاج الثقافة التي تنطلق من منطلقات الرؤية الكونية التوحيدية.

2 - التركيز على تكريس مجموع الإطار الثقافي:

لقد حاول مالك بن نبي أن يجعل الثقافة هي التي تؤطر أفراد المجتمع وكل الأفراد سيرون وفقها، يقول: "ولكي نقوم بإعداد ثقافة يجب أن نركز انتباهنا على مجموع الإطار الثقافي، على المنوال نفسه الذي يتم فيه إنجاز ذلك من خلال بعض التجارب الراهنة، وخاصة بالجمهورية الصينية، حيث شرع في تغيير البيئة على مستوى قد يثير

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط 1، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص 89

دهشة الملاحظ الغربي أحيانا، لاسيما إذا كان قد أنس الوجه التقليدي للصين القديمة، وذلك عندما يشاهد على سبيل المثال: بائع الفطائر وهو يرتدي الكساء الأبيض النقي، ويتناول أقراص بضاعته بملاقط من النيكل، وكأنه أحد أطباء الجراحة"¹، وهذا المثال يدل على أن الثقافة موجودة والكل ملزم بالانسجام معها.

3 - تنقية المحيط من الثقافات الدخيلة:

لقد طرح مالك بن نبي فكرة إعداد الثقافة في محيط نقي خال من الرواسب الثقافية الوافدة؛ لأن تهيئة الأرضية هي سبيل أمثل لبناء ثقافة متينة يقول: "ومع هذا يتعين علينا أن نلح على أهمية مظهر الثقافة السلبي، وخاصة عندما يجب على أحد المجتمعات أن يشرع في التخلص من رواسبه البالية، وفي وضع الأسس التي يقوم عليها نظام جديد، كما كان يفعل سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما كان يمسك بمعوله ويحطم أوثان المدينة التي ولد فيها من بلاد الكلدانيين، لكي يرسى دعائم الدعائم الراسخة لعلم التوحيد"²، ويؤكد ذلك في نفس السياق قائلا: "فقد علمتنا تجربتنا بالجزائر أنّ الثقافة لا تستورد بنقلها من مكان إلى آخر، بل يجب خلقها في المكان نفسه؛ لأن البيئة ليست إحدى لوحات الرسم التي نفكها من مسار الجدار الذي علقت عليه، لكي نقلها إلى منزلنا"³.

4 - فرض الأسلوب الإسلامي التوحيدي والدفاع عليه:

بعد تنقية المجتمع من الرواسب الثقافية السلبية، وجب بعد ذلك فرض الرؤية الإسلامية التوحيدية كمنطلق والدفاع عليها من أسهم الثقافات السلبية الوافدة عليها، يقول مالك بن نبي: "أما بالنسبة إلى مجتمع تاريخي، فإن دفاعه عن أسلوب حياته، هو دفاع عن شخصيته، وعن مبدأ إدماج أفرادها في نطاقه، وتحديد علاقاتهم

¹ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 81.

² المرجع نفسه، ص 82.

³ المرجع نفسه، ص 83.

به، بحيث يصبحون بمثابة التعريف به، كما يصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم¹، من خلال قوله هذا نفهم أنه يجب على كل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها وفق مبدأ التكامل والتطور.

5 - خلق اللحمة الاجتماعية وربطها بالقيم الأخلاقية:

لقد ركز مالك بن نبي كثيرا في كتاباته على قضية تماسك المجتمع وقوته، وكيف لهذا الأخير من دور في رد الاستعمار، أو في قبوله، وهو يرى تماسك المجتمع سبيل أمثل لمجابهة الاستعمار بشتى أساليبه، كما أنه يعطي البدائل في مسألة إعداد الثقافة عندما أكد على ضرورة وجود اللحمة الاجتماعية ويشترط ربطها بالقيم الأخلاقية، يقول: "وإذا كان الوفاء للقاعدة المتبعة، والتعلق بالقيمة الأخلاقية يجب أن يعمل على شد وحدتها الملتحمة، في ربطها للفرد بالجسم الاجتماعي... فشعيرة الحق يجب أن تسود في حياة شفاقة متخلصة من أوشاب زواياها المعتمدة حيث تتلاقى الأرواح الخبيثة للتآمر على أسلوبها".

6 - تحقيق الغلبة العملية واستغلال عنصر الزمن:

أكد مالك بن نبي كثيرا في كتاباته على قوة الذات الفعالة، يقول: "ويتعين علينا نحن أن نتولى بأنفسنا فرض المعايير ضمن وجوه نشاطنا، مع إدماجنا لمفهوم الزمن داخلها؛ إذ لا يكفي أن تقتصر على مجرد القيام بصنع شيء من الأشياء، وإنما يتعين أن نتوفر في إنجازها في أقصر فترة ممكنة من الزمن"².

7 - تحويل الثقافة إلى طرح بيداغوجي مركب:

سعى مالك بن نبي إلى تكريس مبدأ تعليم الثقافة المركبة وتدريسها وفق طرق بيداغوجية فعالة، يقول: "فالثقافة التي يتم تصورها في صيغة بيداغوجية هي كل هذا

¹ المرجع السابق، ص 84.

² مالك بن نبي، القضايا الكبرى، مرجع سابق، ص 88.

جميعاً: فهي تركيب متآلف للأخلاق، والجمال، والمنطق العملي والفنّ الصياغي¹.

الخاتمة

مما سبق ذكره توصلنا للإجابة عن الإشكالية التي طرحناها في المقدمة ومفادها أنّ المفكر الجزائري استطاع أن يشخص مشكلة الثقافة في العالم الإسلامي، وأن يعطي عدة حلول تساهم في بناء ثقافة متينة خالية من الرواسب الثقافية الواردة علينا من الغرب، ولعلّ قوة تشخيصه راجعة إلى كونه عايش الثقافة الغربية وعرف تأزماتها وغايات ترويجها للعالم الإسلامي.

نتائج البحث:

- توصلنا من خلال هذا البحث إلى العديد من النتائج أبرزها:
- مالك بن نبي نسق فكري يحتاج إلى تفعيل كتاباته في الشق الأكاديمي الجزائري.
- الثقافة تركيبة كلية في المجتمع، هي المحيط الذي يعيش فيه الأفراد.
- الثقافة نتاج منطلق الرؤية الإسلامية التوحيدية.
- لكي نصنع الثقافة في الجزائر يجب أن نقوم بتنقية المحيط من الثقافات الغربية السلبية فيه.
- تفعيل منطق العمل، واستغلال الوقت خاصيتين من شأنهما تقوية المجتمع وسيادته.

توصيات البحث:

نوصي الجهات المكلفة بصناعة المناهج والبرامج التعليمية بإعادة النظر في كتابات مالك بن نبي وتفعيلها كمقررات دراسية تلقن للطلبة، وتفعيلها من قبل الجهات السياسية في المجتمع وكل ذلك عزم في إعادة بناء ثقافة العالم الإسلامي

¹ المرجع السابق، ص 89.

والعربي من جديد بعد جملة التحديات التي أصبحت تهدده من الفينة إلى الأخرى والتي هي بحاجة إلى فكر واقعي مستمر يواجهها.

مصادر ومراجع البحث:

أ- المصادر:

1 - مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1984.

2 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: كامل مسقاوي وعبد الصبور شهن، ط4، دار الفكر، دمشق، 1987.

3 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2013.

ب- المراجع:

1 - عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012.

2 - فهمي جدعان، نظرية التراث ودراسات عربية وإسلامية أخرى، ط1، دار الشرق، الأردن، 1998.

3 - عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الشهاب، (دب)، 1984.

4 - العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، مذكرة دكتوراه، جامعة محمد خيضر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، بسكرة، 2014.

5 - موسى لخرش، استراتيجية البناء الحضاري للعالم الإسلامي في فكر مالك بن نبي، مذكرة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار، الجزائر، 2006.

6 - لويزة لعميري، نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، قسم اللغة والأدب، كلية الآداب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2014-2015.

7 - نور الدين بوكروح، جوهر فكر مالك بن نبي، ط1، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2016.

ج1.

المعالجة الفكرية لقضية الثقافة في المشروع النهضوي لمالك بن نبي "دراسة سوسيومعرفية"

د. خلف محمد عبد السلام بيومي

جامعة قناة السويس (مصر)

khalafsociology1973@gmail.com

مقدمة

يمكن للمتتبع للمسار الفكري لمالك بن نبي أن يلحظ التأثير الذي مارسه مشروعه الفكري وأطروحاته النظرية حول موضوعات على جانب كبير من الأهمية، وفي مقدمتها: الثقافة، الحضارة، التخلف، النهضة، والاستعمار،.... وغيرها. كما أن السقف الفكري والأفق المعرفي الذي ينطلق منه مشروعه النهضوي والتغيير يَتأسس على أن جوهر الحياة يكمن في منظومة الأفكار⁽¹⁾. وبناء عليه فإن هذا المشروع يتميز بكونه مشروعاً شاملاً يمسّ جميع جوانب المجتمع وثقافته الروحية والمادية، فهو يُعدّ واحداً من أهم المشاريع الفكرية النقدية في تاريخ الفكر العربي الحديث في نقده للمجتمعات العربية والإسلامية وفق رؤية فكرية ومنهجية متكاملة تُركز على فهم أصول المشكلات المجتمعية وطرح أنسب الحلول بعيداً عن الرؤى التجزيئية⁽²⁾.

¹ الطاهر سعود: مشروع النهضة في فكر مالك بن نبي وتمثلاته لدى النخبة الجامعية الجزائرية بين زمن الاستقلال والزمن الراهن: استطلاع ميداني، مجلة إضافات، العددان (47،48)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، صيف وخريف 2019، ص 117-119.

² عباس شارف: في النقد الحضاري للمجتمع الجزائري: مالك بن نبي نموذجاً، مجلة أوراق فلسفية، العدد (26)، 2010، ص 363-364.

إن القيمة العلمية التي تحملها أفكار مالك بن نبي تبدأ من العلاقة القوية بين الفكر والواقع، والثقافة والبناء، وهي علاقة تشير إلى اتساع نظرتة وتميز منهجه في دراسة قضايا ومشكلات العالمين العربي والإسلامي في عصر يشهد أعظم التحديات الحضارية، وأكبر التغيرات الثقافية والعلمية⁽¹⁾.

من اللافت للنظر أن هناك طفرة كبيرة في الكتابات حول مالك بن نبي (مقالات ومؤلفات ورسائل جامعية)، والتي بدأت في العقد الأخير من القرن العشرين، وتصاددت في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وما زالت في حالة تصاعد ولم تتراجع أو تتوقف، الطفرة التي كان يُفترض منها أن تلفت الانتباه إلى الأبعاد الغائبة وغير المطروقة؛ سعيًا وتجنبًا لآفات التكرار والاجترار، ومنعًا من الإصابة بالرتابة والجمود⁽²⁾.

ومن أهم النتائج المهمة التي توصلت إليها دراسة "الأخضر" عام 2013، أن مشروع مالك بن نبي النهضوي في حاجة ماسة إلى أن نقرأه ونفهمه، ونُجرى عليه الدراسات والبحوث، لا بقصد الترف الفكري، بل من أجل أن نتمثله في حياتنا، ونستثمره في الخروج من مآزقنا، على الأقل فيما هو صالح منه للتطبيق، كما فعلت بعض البلدان الإسلامية كماليزيا وإندونيسيا⁽³⁾.

كما كشفت نتائج إحدى الدراسات المهمة عن أن جميع الباحثين (أساتذة بالجامعات الجزائرية) أفادوا بأن مشروع النهضة لمالك بن نبي لا يزال إلى اليوم

¹ بن عيسى باطاهر: قضية إعجاز القرآن عند مالك بن نبي، مجلة عالم الفكر، المجلد (31)، العدد (2)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر-ديسمبر 2002، ص 31.

² زكي الميلاد: مالك بن نبي ناقدًا لإقبال، مجلة الكلمة، العدد (91)، السنة الثالثة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2016، ص 7.

³ قويدري الأخضر: لماذا لم ينته المشروع الحضاري لمالك بن نبي في الجزائر؟، مجلة الكلمة، العدد (80)، السنة العشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2013، ص 159.

يحمل طابع الراهنية، كما أنه لم يُستثمر بصورة واقعية ولم يُنح له التنزيل إلى حيز الواقع، وأنه مادامت القضية التي عالجها هذا المشروع لم تجد بعد طريقها إلى الحل (أي مشكلة الحضارة) فإن هذا المشروع يحتفظ بكامل قوته ولياقته. كما أجمع المبحوثون بأنه لكي يسهم مشروع مالك بن نبي في إطلاق عملية إعادة بناء وتحديد تنقل العالم الإسلامي إلى أفق حضاري جديد، لابد من تجاوز دائرة القول النظري إلى أفق المشاريع العملية، بمعنى أن ما يتقصد هذا المشروع الفكري هو إرادة سياسية تتبناه وتحوله إلى مشاريع عملية⁽¹⁾.

ولا شك أن الثقافة ظاهرة محيرة ومربكة، وهي توجد في كل مكان، وغامضة وصعبة الفهم في كليتها وتعقدها؛ ومن ثم فإن أي محاولة لتحليلها ستبوء بالفشل إن شاءت استيعابها ككل. ويلاحظ أن علماء الاجتماع مضطرون إما لدراسة جانب من جوانبها أو العديد منها بدقة، أو محاولة إقامة بناء نظري يسعون من خلاله إلى استيعاب المكونات الأساسية للكل الثقافي⁽²⁾.

ولما كانت الثقافة (العادات، التقاليد، القيم، الأفكار....) تقع في قلب هذا المشروع الفكري، وتشغل حيزاً كبيراً فيه؛ فإن هذه الدراسة تروم لتقديم دراسة سوسيومعرفية، تُركز على التناول الفكري لمالك بن نبي لقضية الثقافة في المجتمعات العربية والإسلامية. وترتكز منهجية هذه الدراسة على المنهج التحليلي لبعض مؤلفات مالك بن نبي، وكذا بعض الكتابات التي اهتمت بمشروعه الفكري بالدراسة والتحليل. وتكفينا إشارات مختصرة هنا للتدليل على اهتمام مالك بن نبي بقضية الثقافة، فنجد أنه قد أفرد لها مؤلفاً كاملاً بعنوان "مشكلة الثقافة" يقع في (152 ص)، ونجد لها حضوراً أيضاً في بعض مؤلفاته مثل: مبحث بعنوان:

¹ الطاهر سعود، مرجع سابق، ص 135.

² ميشيل فوكو وآخرون: التحليل الثقافي، (نحرير): إيدث كريزويل وآخرون، (مراجعة وتقديم): أحمد أبوزيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008، ص 155.

"السياسة والثقافة" في كتابه المعنون بـ "بين الرشاد والتهيه"، وكذلك يوجد لها مبحث آخر بعنوان "الثقافة" في كتابه "تأملات". ومن المعلوم أن الأفكار أحد عناصر الثقافة، فلذلك بن نبي كتاب بعنوان "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" يقع في (182ص). كما شغلت الثقافة جزءاً كبيراً في كتاب "شروط النهضة" سواء معالجتها بشكل مباشر أو تناولها من خلال أحد مكوناتها كالأناشيد الرمزية، الأفكار الدينية، الفنون، الأزياء، العمل، الأخلاق. وكل هذا يشير إلى أن قضية الثقافة في هذا المشروع الفكري بحاجة إلى تأمل ودراسة وتحليل؛ وخاصة أن الذين كتبوا عن هذا المشروع الفكري كثيراً ما اهتموا بجوانب اقتصادية، تربوية، حضارية، دينية، تاريخية، وتنموية، وغابت إلى حد كبير الدراسات التي تهتم بالجوانب الثقافية في هذا المشروع.

وإذا كان "إميل دوركايم" قد أرسى قاعدة منهجية، وتبناها "كارل مانهايم" فيما بعد، ومفادها: أنه يمكن تحليل التيارات (المشروعات) الفكرية في ضوء المجتمعات التي ظهرت فيها، بمعنى أن تتم دراستها وتحليلها في السياقات الاجتماعية والثقافية التي تبلورت فيها، ومن ثم فإنها تُعد ظواهر اجتماعية يمكن إخضاعها للدراسة والبحث والتحليل⁽¹⁾. ومن هناك فإن إشكالية هذه الدراسة تتلخص في التساؤل الإشكالي التالي: كيف عالج مالك بن نبي قضية الثقافة في مشروعه الفكري؟ وللإجابة على هذا التساؤل كان لابد من تقسيمه إلى عدة تساؤلات فرعية هي:

- 1- ماذا تعني الثقافة كمفهوم وكنظرية في المشروع الفكري لمالك بن نبي؟
- 2- ما أهم المفاهيم والقضايا وثيقة الصلة بقضية الثقافة في هذا المشروع؟
- 3- هل ربط مالك بن نبي بين الثقافة ونهضة المجتمعات العربية والإسلامية؟

¹ عبد القادر بوعرفة: مالك بن نبي بين الراهن والمستقبل: دراسة نقدية لرسم معالم البناية الجديدة، 2020. متاح

على الموقع الإلكتروني: <http://www.binnabi/infos/detail/kwi78sd1491x45/>

4- إلى أي مدى اهتم مالك بن نبي بمعالجة الثقافة على المستويين النظري والتطبيقي؟

5- ما أهم التحديات التي تواجه ثقافتنا العربية في المشروع النهضوي لمالك بن نبي؟

6- كيف تتحقق التنمية الثقافية لمجتمعاتنا العربية وفقاً لرؤية مالك بن نبي؟

أولاً: مفهوم الثقافة ونظريتها في المشروع الإصلاحي لمالك بن نبي:

اعتنى مالك بن نبي بالمفاهيم عناية فائقة، بل ذهب أبعد من ذلك حين وضع مبحثاً خاصاً يوضح فيه آلية إبداع وضبط المفاهيم، كما حذر من استعمال المفاهيم والمصطلحات التي تفرزها المعامل الاستعمارية⁽¹⁾.

بنى مالك بن نبي مفهوم الثقافة على أساس قراءته للواقع، وأخذ بعض الخصائص لقياس ذلك المفهوم على الواقع وتشخيص طبيعة الأزمة التي يُعانيها العالمان العربي والإسلامي⁽¹⁾.

عرّف بن نبي الثقافة بصورة عملية بأنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه". وبناء على هذا التعريف تُعد الثقافة بمثابة المحيط الذي تتشكل فيه طباع الفرد وشخصيته، وبعبارة أخرى إن الثقافة هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر⁽²⁾.

¹ غريبى مراد: الملتقي الدولي حول: مالك بن نبي واستشراف المستقبل - من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد، تلمسان (الجزائر) 12-14 ديسمبر 2011، مجلة الكلمة، العدد (74)، السنة التاسعة عشرة، متدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، شتاء 2012، ص 166.

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، (ترجمة): عبدالصبور شاهين، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2000، ص 74.

إن تعدد وجوه الثقافة يجعلنا نتناولها من جانبيها (أسلوب الحياة في مجتمع معين، والسلوك الذي ينتهجه الفرد كي ينسجم مع هذا الأسلوب) بوصفها شيئاً معقداً، إلى جانب أنها تُفسّر لنا الفرق الطبيعي بين طريقة مواجهة مشكلة الثقافة في بلد أخذت فيه الثقافة صورة واقع اجتماعي معين، وآخر لا يعرفها إلا بوصفها مشروعاً، وثالث ما زال المشروع فيه غامضاً. لكن تعدد وجوه الثقافة لا يساعدنا في تعريفها على أنها "شيء"، بل على أنها علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تُحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تُحدد أسلوب الحياة بسلوك الفرد. فلكي نُعرّف الثقافة نجد أنفسنا مضطرين إلى أن ننظر إلى المشكلة في اتجاهين، بل في ثلاثة اتجاهات، حتى يتسنى لنا أن نضم عناصرها النفسية وعناصرها الاجتماعية، ثم نُقر العلاقة الضرورية بين هذه العناصر جميعاً، وأخيراً لكي نصوغ هذه العلاقة صياغة تربوية وافية، تجعل التعريف قابلاً للتنفيذ كأنه (صورة) من صور الرسم الصناعي⁽¹⁾.

يرى مالك بن نبي أنه يمكن تعريف الثقافة بصورة عملية على أنها: مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقيها الفرد منذ ولادته كإرث أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يُشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته". وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يُحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاق الإنسان وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان (الفرد) ومعطيات الجماعة، مع ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، وذلك عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات⁽²⁾.

وفيما يتعلق بآراء بن نبي في معنى الثقافة من المنظور التاريخي، يُقرر بأنه لا يمكن

¹ المرجع السابق، ص ص 32-43.

² مالك بن نبي: شروط النهضة، (ترجمة): عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (تقديم): رضوان السيد، كتاب الدوحة، العدد(6)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2011، ص 123.

أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته قد فقد حتماً تاريخه. فالثقافة تتضمن العادات المتجانسة والعبريات المتقاربة والتقاليد المتكاملة والأذواق المناسبة والعواطف المتشابهة. وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطى الحضارة سميتها الخاصة، ويُحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي، أو عقلية ديكرت، وروحانية جان دارك، هذا هو معنى الثقافة في التاريخ. أما معنى الثقافة من المنظور التربوي، فإن الثقافة ليست علماً خاصاً لطبقة من الشعب دون أخرى، بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي. ومن ثم فإن الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن، وهي أيضاً الحاجز الذي يحفظ بعض أفراده من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية. ويتألف البرنامج التربوي للثقافة من أربعة عناصر هي: عنصر الأخلاق لتكوين العلاقات الاجتماعية، عنصر الجمال لتكوين الذوق العام، المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، والفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة فيه، كما تعالج مشاكل الجماهير. فالثقافة هي الدم الذي يسرى في جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكار العامة والنخبة، وكل هذه الأفكار تنسجم في بوتقة واحدة من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المتناسبة⁽¹⁾.

إن الثقافة - كما يراها مالك بن نبي - نتيجة تاريخية تتكون من عناصر جوهرية أربعة هي: الدستور الخلقي، والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والصناعة بتعبير ابن خلدون أو (التقنية). وأشار إلى أن الثقافة هي الجو المشترك على أشياء ظاهرة مثل: الأوزان والألحان والحركات، وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد.

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 126-127.

بمعنى أنها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معين وسلوك الفرد فيه بطابع خاص يختلف عن الطابع الذي نجده في حياة مجتمع آخر⁽¹⁾. وتلك الفكرة عن الثقافة هي التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحضارة، وفي ضوء هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. والثقافة -وحدها- لا تستطيع أن تكون أسلوب حياة لمجتمع ما، إلا إذا اشتملت على مبدأ أخلاقي، هذا المبدأ الذي يجعل كل فرد مرتبطاً بهذا الأسلوب، فلا يُحدث فيه نشوراً بسلوكه الخاص⁽²⁾.

يقصد بالثقافة في فكر مالك بن نبي هي الأفكار والعادات والقيم الاجتماعية، وما يتصل بالسلوك وأنماط المعيشة وطرائق التفكير. ومن هذه الثقافة ما يتصل بالفكر، وما يتصل بالنفس والسلوك. وإجمالاً فإنها كل ما يتصل بالحياة الروحية⁽³⁾.

تُعد نظرية الثقافة عند مالك بن نبي، واحدة من أشهر النظريات الثقافية التي ظهرت في المجال العربي المعاصر، وأكثرها خبرة ونضجاً وتماسكاً، واكتسبت تميزاً، خصوصاً مع غياب هذا النمط من النظريات إبداعاً واكتشافاً على مستوى الدراسات الثقافية في العالم العربي. مع ذلك بقيت هذه النظرية بعد غياب ابن نبي على حالها، ولم تشهد تطوراً وتقدماً، أو تراكمًا وتجديداً مهماً، لا من الناحية المعرفية والمنهجية، ولا من الناحية التحليلية والنقدية، وانتهت إلى وضع جامد، وما زالت على هذا الحال بدون تحريك أو تجديد. والذي كرّس هذا الوضع الجامد هو طريقة التعاطي مع هذه النظرية، فالتعاطي معها لم يكن فعالاً من الناحية النقدية، أو معرفياً من الناحية التحليلية. وفي المجال العربي يمكن تحديد ثلاثة اتجاهات في التعاطي مع

¹ مالك بن نبي: تأملات، الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 2002، ص 147.

² عائشة يوسف المناعي: مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي، مجلة المسلم المعاصر، العدد (101)، السنة السادسة والعشرون، يوليو-أغسطس-سبتمبر 2001، ص 146.

³ بن عيسى باطاهر، مرجع سابق، ص 11.

نظرية الثقافة عند ابن نبي، وهذه الاتجاهات هي: (1)

أولاً: الاتجاه الذي يتوافق مع النظرية، ويدافع عنها وينبهر بها أحياناً، وهذا هو الاتجاه الغالب في الدراسات والكتابات التي أُنجزت حول أفكار ابن نبي ومنظومته الثقافية. وينطلق أصحاب هذا الاتجاه من أهمية وقيمة وفاعلية الأفكار والمفاهيم والتصورات التي توصل إليها ابن نبي في مجالات الثقافة والحضارة والاجتماع، وضرورة التعريف بهذه الأفكار، والتواصل معها. وحتى بداية تسعينيات القرن العشرين كان في تقدير البعض أن فكر ابن نبي يتعرض لنوع من الإهمال أو الإقصاء أو التعتيم، وهذا ما عبّر عنه بعض الكتّاب، وكان دافعاً لهم في إنجاز كتابات ودراسات حول فكره وسيرته. ومن هؤلاء "أسعد السحمراني" الذي خصّص رسالته للدكتوراه حول ابن نبي، وكانت بعنوان "مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً"، نشرها في كتاب عام 1984م. وكذلك "سليمان الخطيب" والذي كتب رسالته للدكتوراه بعنوان "فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي"، ونشرت عام 1993م. وأيضاً نشر "وجيه كوثراني" مقالاً بعنوان "لماذا العودة إلى مالك بن نبي؟ الذاكرة والنسيان والتواصل في المشروع العربي الإسلامي".

ثانياً: الاتجاه الذي يتعارض مع نظرية ابن نبي وعموم منظومته الثقافية. وقد حاول أصحاب هذا الاتجاه الكشف عن بعض الأخطاء والعيوب الفكرية والثقافية في مؤلفات ابن نبي، ولفت الأنظار إليها، لعله بقصد الحد من توسع وامتداد أفكاره من جهة، والحد من جاذبية ولمعان هذه الأفكار من جهة أخرى.

وهذه الأخطاء والعيوب المقصودة هي أفكار ومفاهيم كانت تُفسّر بطرق مُلتبسة عند هؤلاء. ومن هذه المفاهيم، مفهوم "القابلية للاستعمار"، الذي فسّره

¹ زكى الميلاد: مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي: النظرية والمنهج والتطور، 2012، ص ص 15-17، متاح على

الموقع الإلكتروني: <http://www.binnabi.net/infos/detail/9fdiy2315py12ov/>

البعض على أنه يتضمن تبريراً للاستعمار، أو يدعو لمهادنته. في حين أن ابن نبي فسّر هذا المفهوم بأن الاستعمار هو نتيجة وليس سبباً. والملاحظ على أصحاب هذا الاتجاه أنهم لم يقدموا نقداً معرفياً لنظرية الثقافة عند ابن نبي ولمنظومة الثقافة بصورة عامة، ولم يساهموا في تطوير أو تحريك التعامل النقدي، والنظر التحليلي، أو حتى القراءة العلمية والمعرفية لأفكار ونظريات ابن نبي. والمثال الذي يصنفه البعض لأصحاب هذا الاتجاه، كتاب "الفكر الاسلامي المعاصر: دراسة وتقييم" لمؤلفه "غازي التوية" الصادر عام 1977م.

ثالثاً: الاتجاه الذي يتجاهل نظرية ابن نبي ومنظومته الثقافية، ولا يحاول الاقتراب منها أو الاحتكاك بها بأي صورة كانت، بما في ذلك الصورة النقدية. فلم يتطرق "سمير أمين" لهذه النظرية أو لصاحبها في كتابه "نحو نظرية للثقافة"، وهكذا "محمد عابد الجابري" في كتابه "المسألة الثقافية في الوطن العربي"، و"محمد أركون" في كتاباته حول الإسلاميات المعاصرة، وهكذا العديد من الدراسات والكتابات العربية الأخرى. وهذا التجاهل من الصعب التبرير له، خصوصاً وأن هؤلاء لم يقدموا نظريات تتجاوز نظرية ابن نبي في الثقافة أو تتفوق عليها. وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء أو بعضهم يتثاقفون مع النظريات الغربية، ويرجعون لأفكار المفكرين الغربيين، كانوا في المقابل يتجاهلون النظريات والأفكار التي تنتسب إلى المفكرين الإسلاميين، ومنهم مالك بن نبي الذي من الصعب تجاهل نظريته في الثقافة.

لقد استطاع مالك بن نبي أن يبلور نظرية في الثقافة، وظل يلفت النظر والاهتمام لنظريته تلك، وذلك منذ أول كتاب له تحدث فيه عن الثقافة، وهو كتاب "شروط النهضة" الصادر باللغة الفرنسية في باريس عام 1949م إلى كتابه الذي خصّصه لهذه القضية وهو كتاب "مشكلة الثقافة" الصادر باللغة العربية في القاهرة عام 1959م، وكذلك من خلال الحديث عنها من خلال المحاضرات التي ألقاها في

القاهرة ودمشق وطرابلس، وفي الجزائر بعد الاستقلال. ولقد عالج بن نبي مشكلة الثقافة من ناحيتين هما: (1)

أ- **التحليل النفسي للثقافة:** ركز في هذا البعد على بعض الملامح التاريخية التي ساهمت في تكوين مفهوم الثقافة، ومصدر هذه الكلمة، ومتى تم استخدامها في اللغة العربية، وكيف تبلور هذا المفهوم عند الأوروبيين. ولم يكن التحليل التاريخي للثقافة إلا مدخلاً تمهيدياً لتأكيد فكرة أن كل مجتمع بحاجة إلى تكوين مفهوم مستقل وخاص به لطبيعة مشكلته الثقافية، وذلك حسب مرحلته التاريخية. كما أن حديث بن نبي عن التحليل النفسي للثقافة كان بقصد تعميق التمايز الثقافي بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية. ولهذا فقد اعتنى بن نبي كثيراً بمناقشة أفكار رواد الفكر الليبرالي والفكر الاشتراكي التقدمي. ولذلك فإن منهج بن نبي في بناء الشخصية الإسلامية يختلف عن مفكري الغرب والشرق على حد سواء؛ نظراً لارتباط الثقافة عنده بالحضارة أكثر من ارتباطها بالعلم. أما من حيث تحديد الموقف المعرفي أو الرؤية العلمية تجاه الثقافة فإنه يتحدد على قاعدة التمايز والاستقلال الثقافي، وما يؤكد هذا التمايز الثقافي هو أنه لا ينطلق من الانقطاع الكلي والتام مع الثقافات والفلسفات الأوروبية، كما أنه لا خلفيات ساذجة من حيث التكوينات المعرفية والمنهجية.

ب- **التركيب النفسي للثقافة:** يرى بن نبي أن مشكلة الثقافة بين العالم العربي والإسلامي والعالمين الغربي والاشتراكي لا تكمن في محاولة فهم الثقافة، وإنما تنحصر في تحقيقها وتمثلها بصورة عملية وتطبيقية، وهذا ما يقصده مالك بن نبي بالتركيب النفسي للثقافة. وعبارة التحليل النفسي للثقافة يُراد منها الإجابة عن

¹ بويزة صالح: قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبي في بناء الأفراد وإصلاح المجتمعات العربية في ظل العولمة الثقافية، 2019، متاح على الموقع الإلكتروني: <http://www.Univ-setif2.dz>

سؤال: كيف تُطبق الثقافة؟ بمعنى كيف يكون للثقافة واقع فعلي في حياتنا؟

والبدء من التحليل النفسي للثقافة لأنه لا بد أولاً من تحديد فهم الثقافة، الفهم الذي يحتاج إلى منهج يحدد طبيعة ومحددات هذا الفهم للثقافة، الذي يفترض أن يتناغم ويستجيب للشروط التاريخية، ودرجة التطور الحضاري، ونوعية المشكلة الاجتماعية. وهذه الطريقة في النظر هي التي يصطلح عليها ابن نبي بالتحليل النفسي للثقافة. والعمل على تحويل هذا الفهم للثقافة من حيز النظرية وعالم الأفكار، إلى حيز الواقع وعالم التطبيق، بحيث تتصل الثقافة بالمجتمع، ويتصل المجتمع بها، هذه المهمة، يصطلح عليها ابن نبي بالتركيب النفسي للثقافة. ومحاولة فهم الثقافة يحددها ابن نبي في إطار التاريخ، وتطبيق الثقافة يحددها في إطار التربية.

ثانياً: المفاهيم وثيقة الصلة بالثقافة في المشروع الفكري لمالك بن نبي:

رغم أن مالك بن نبي يُقرّ بأن أساسنا المفاهيمي ضعيف للغاية⁽¹⁾، فإن المتمعن في قراءة مشروعه الفكري يجده يشتمل على مجموعة من المفاهيم المهمة ذات الصلة بمفهوم الثقافة، ومنها: التمايز الثقافي، الاستقلال الثقافي، التوجيه الثقافي، العلاقات الثقافية، الفراغ الثقافي، الموت الثقافي، الأزمات الثقافية، الاستلاب الثقافي، القابلية للاستعمار، تكديس الأشياء، المجتمع الميت، الفاعلية الاجتماعية، التقدم، الفكرة (الظاهرة) الدينية، الأفكار الميتة والمميتة.... وغيرها. ويمكن أن نتناول بعض هذه المفاهيم بشيء من التفصيل.

- 1- الموت الثقافي: هي حالة يصل إليها الفرد حينما يفقد صلته بالمجال الثقافي.
- 2- المجتمع الميت: هو المجتمع الذي فقد ثقافته أو قطع صلته بها أو لا توجد

¹ عادل خفاجة: قراءة في كتاب "فكرة كومنولث إسلامي" لمالك بن نبي، مجلة الأزهر، الجزء (2)، السنة (87)، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ديسمبر-يناير 2013، ص 403.

لديه ثقافة يتمسك بها⁽¹⁾.

3- العلاقة الثقافية: تقوم القيمة الثقافية للأفكار والأشياء على طبيعة علاقتها بالفرد. وهذه الصلة تُجسّد لنا ما اصطلح على تسميته بـ (العلاقة المتبادلة) بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في مجتمع معين، فهي الجانب العضوي من هذه العلاقة، ولذلك فمن المهم معرفة طبيعة هذه العلاقة وكيفية تكوينها لدى الفرد. والثقافة هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم أي بالمجال الروحي الذي يُنمّي فيه وجوده النفسي، فهي نتيجة الاتصال بهذا المجال. وعليه فإن الفرد إذا ما فقد صلته بالمجال الحيوي فإنه يكون قد مات موتاً مادياً، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتاً ثقافياً⁽²⁾.

4- القابلية للاستعمار: طرح مالك بن نبي مفهومه "القابلية للاستعمار" لجعل الذات جزءاً من المشكلة، وفتح المجال للنقد الذاتي، ولتوظيف القيم الدينية لإعادة إنسانية الإنسان بالاعتراف الشجاع بأن الاستعمار وإن كان زاد الطين بلّه؛ فإنه لم يكن السبب الأول لوضع الانحطاط. كما أن الغرب المتقدم اليوم كان منحطاً بالأمس، والمسلمون المتأخرون حضارياً اليوم كانوا في موقع الريادة بالأمس، وكما انتقل أولئك من الانحطاط إلى النهضة، فبإمكان المسلمين أن يخرجوا بدورهم من الانحطاط ليحققوا نهضتهم⁽³⁾.

والقابلية للاستعمار يقصد بها: الهزيمة النفسية التي يصاب بها أهل البلاد المستعمرة، ليصبحوا قابليين للاستعمار وتبعاته ومدافعين عنه، وهو معامل داخلي

¹ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 50.

² المرجع السابق، ص ص 49-50.

³ محمد الحداد: القيم الدينية والتنمية وإنسانية الإنسان في الفكر العربي الحديث والمعاصر، مجلة التفاهم، العدد(43)، السنة الثانية عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، شتاء 2014، ص ص 99-105.

نفسى. ويركز بن نبى على هذا المعامل كثيراً، ويعتبره بمثابة الانتكاسة النفسية للذات المغلوبة أمام الذات الغالبة؛ حتى تشعر بأن كل ما يقوله المستعمر ويصفه ويضعه هو الصواب، حتى ولو وصفه المستعمر بأي شيء، فيُعتبر في عرف المستعمر صحيحاً بل ويدافع عنه. ولذلك يرى بن نبى أنه لكي نتخلص من الاستعمار علينا أن نتخلص أولاً من القابلية له⁽¹⁾.

إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا وتبديدها وتشتيتها على أيدينا فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، ولقد قال أحد المصلحين: "أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم". إنَّ الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد، فجعل منا أبواقاً يتحدث فيها، وأقلاماً يكتب بها، إنه يُسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يُسخرنا له بعلمه وجهلنا⁽²⁾.

5- الأزمة الثقافية: تنشأ الأزمات الثقافية عندما يقف الأطر الثقافي عن حركته، ويزول الجو الثقافي، ويتعذر تركيب العناصر الثقافية في المنهج التربوي داخل المجتمع. ومن أهم التداعيات أو المآلات القريبة لنشأة الأزمات الثقافية، زوال الالتزام بين المجتمع والفرد زوالاً تاماً، أما مآلاتها البعيدة فتتجلى في أفول الحضارة. وتنمو الأزمة الثقافية، وتنمو معها نتائجها، من الحد الذي يمكن تداركه بالتعديل البسيط إلى الحد الذي يصبح فيه التعديل مستحيلاً، أو لا يمكن إلا بثورة ثقافية عارمة تكون بمثابة انطلاقة جديدة للحياة الاجتماعية من نقطة الصفر. وتبلغ

¹ سليمة ذياب وآخرون: أسس المقاربة الاجتماعية للتربية في فكر مالك بن نبى: نحو نظرية عربية في علم الاجتماع، دار المثقف للنشر والتوزيع، 2020 القاهرة، ص 98.

² مالك بن نبى: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 208.

الأزمة الثقافية للفرد عندما يُحرم من الجو (المناخ) الثقافي، فينعزل الفرد عن المجتمع عزلاً كاملاً، ويفقد كل علاقاته الاجتماعية. كما أن أي إخفاق يسجله مجتمع معين في إحدى محاولاته إنما هو تعبير صادق على درجة أزمته الثقافية، أو بعبارة أعم، تعبير عن الأزمة التي تمر بها حضارته في تلك المرحلة من تاريخه. وفي حالة الأزمات الثقافية الشنيعة التي حلت ببعض المجتمعات، فإنها تجعلها عاجزة عن حل مشكلاتها داخل حدودها، وعن مواجهة مشكلات الجوار على حدودها، وبصورة أعم لا يستطيع أفرادها التعايش دون عقد نفسية تُعرض شخصياتهم للضعف وكرامتهم للمهانة⁽¹⁾.

6- التقدم: قامت فكرة التقدم بدور رئيس في تاريخ القرن التاسع عشر؛ لأن إشعاعها في ثقافة أوروبا كان مؤيداً بفكرتين أخريين هما: النظرية الوضعية لـ (أوجست كونت)، ونظرية التطور لـ (دارون). وقد وصل هذا الإشعاع للعالم الإسلامي في مستهل القرن العشرين، بيد أن هذه الفكرة التي أُصيبت بصدمة خلال حرب (1914-1918)، أصابها ضربة قاتلة خلال الحرب العالمية الثانية، فلم يعد لها أدنى وقع في أوروبا. ولكن ليس معنى هذا أن التقدم في ذاته بوصفه واقعاً قد انعدم في أوروبا، بل معناه أن إشعاعه بوصفه قوة فكرية، قد فقد تأثيره في الثقافة الأوروبية، ففقد من أجل هذا فاعليته الاجتماعية. إذاً ففاعلية الفكرة رهن بشروط نفسية واجتماعية تتنوع بتنوع الزمان والمكان⁽²⁾.

ثالثاً: الصلات الوطيدة بين الثقافة ونهضة المجتمعات عند مالك بن نبي:

توجد رابطة وثيقة بين الثقافة والحضارة، وفي ضوء هذا تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة. ولذلك يجب أن ندرك أن السلوك

¹ مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص ص 90-94.

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 46.

الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية منها بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة⁽¹⁾.

يعول مالك بن نبي على عامل الثقافة في تفعيل الحوار الحضاري الإنساني، ولذلك يولي موضوع الثقافة أهمية بالغة في مشروعه الحضاري، أو علاجه لما أسماه بمشكلات الحضارة. ويرى بن نبي أن موضوع الثقافة من أهم الموضوعات التي يجدر بالمتقف أن يشتغل بها بشكل خاص؛ لأن أي إخفاق يسجله المجتمع في إحدى محاولاته، إنما هو التعبير الصادق على درجة أزمته الثقافية. ويؤكد مالك بن نبي على أن الثقافة التي ينشدها الفكر الإسلامي ثقافة إنسانية شاملة، مستمداً ذلك من عالمية رسالة الإسلام، وهذا ما تقررته النصوص القرآنية، إلا أن الثقافات الموجودة والمهيمنة اليوم ثقافات تفتقد للبعد الإنساني، بل هي استعلائية استلابية مبنية على مرجعيات لا تجعل للوحى وزناً، وهذا طبعي لأن جذورها المعرفية تدل على فلسفتها المادية السلطوية العنصرية، فهي الغرس من الخارج بعد تفريغ الداخل، وليست ذاتية المصدر، جوانية المنبع؛ لهذا فإن التعامل معها يكون تعامل مُستفيد يُميز بين الصالح والطالح. على نقيض ذلك - في اعتقاد مالك بن نبي - العالم الإسلامي الذي انتظمت حياته عن طريق الفكر والتقاليد والعادات، مؤكداً هذه الصلة الموجودة عن طريق المناقشات التي دارت رحاها بين كل من الغزالي في المشرق وابن رشد في الأندلس بالرد والتمحيص⁽²⁾.

ركّز ابن نبي في مقاربته لشروط النهضة بالأساس على مشكلة الإنسان؛ فهذا الأخير هو محور أي تقدم، فإذا لم تُحل مشكلة الإنسان فإنه لا يمكن البتة الحديث عن أي تغيير يُذكر. ولذلك نجد أن ابن نبي قد فصّل تفصيلاً فيما يخص حديثه عن

¹ المرجع السابق، ص ص 73-74.

² نعيمة إدريس: موقف مالك بن نبي من الحوار الحضاري مع الغرب، مجلة الكلمة، العدد (87)، السنة الثانية والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2015، ص ص 61-62.

مشكلة الإنسان من خلال رسم منهجية واضحة قائمة على أسس ثلاثة: توجيه الثقافة، ثم توجيه العمل، وأخيراً توجيه رأس المال. وفي ضوء ذلك يرى ابن نبي أن الفرد يؤثر في المجتمع بثلاث مؤثرات: أولاً بفكره، وثانياً بعمله، وثالثاً بهاله. ومن هنا فقد أكد ابن نبي على أننا بحاجة إلى حل مشكلة الثقافة؛ لأنها لا تخص طبقة دون أخرى، بل تعم المجتمع كله، فهي الدستور الذي تتطلبه الحياة العامة، فهي الدم الذي يُغذي جسم المجتمع وحضارته، ويحمل أفكار النخبة والعامة. ويرى أن المركب الاجتماعي للثقافة يتألف من أربعة عناصر، يتخذ منها الشعب دستوراً لحياته المثقفة، وهي: عنصر الأخلاق لتكوين العلاقات الاجتماعية، عنصر الجمال لتكوين الذوق العام، المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام، والفن التطبيقي للموائيم لجميع الصناعات في المجتمع⁽¹⁾.

رابعاً: المعالجة النظرية والتطبيقية للثقافة في المشروع النهضوي لمالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أن تشخيص المشكلات وحلها يكون في الجمع بين الفكر والعمل، وذلك لن يكون إلا بتطبيق الإسلام بصفته خير ممثل لمعيار الحضارة، وهو الجمع بين الفكر والعمل⁽²⁾.

كان ابن نبي يواجه الواقع بإشكالياته الماثلة، ويتناوله بعقلية تحليلية وتفكير علمي ونزعة برجماتية مع الاستضاءة بمبادئ الإسلام وتوجهاته وقيمه العامة، وهو بذلك ينطلق من الواقع ويبحث في شروط التغيير الموضوعية وصولاً إلى تحقيق النهضة في إطار ما أسماه بالحضارة. من هنا كان اهتمامه ينصب بالدرجة الأولى على الإنسان المسلم والمجتمع المسلم أكثر من انشغاله بالإسلام كأحكام ونظريات، وهو بذلك

¹ حفيظ اسليمانى: مركزية الإنسان في البناء الحضاري: رؤية المفكر مالك بن نبي، مجلة التفاهم، العددان (55،56)، السنة الخامسة عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، مارس 2017، ص 347-350.

² عائشة يوسف المناعي، مرجع سابق، ص 136.

أقرب ما يكون إلى عالم اجتماع إسلامي منه إلى عالم في الشريعة الإسلامية. كما تميز ابن نبي بما قدمه من تحليلات قيمة لواقع المسلمين، وما قام به من تشخيصات لظواهر ومشكلات تتصل بالثقافة والاجتماع والسياسة والتنمية، الأمر الذي أظهره عالم اجتماع إسلامي امتلك القدرة على الخوض في أعماق المشكلات والظواهر، وشكّل فكره إضاءة وهاجة يمكن الاستنارة بها في مجال التغيير وأنشطته الثقافية والاجتماعية والتربوية على نحو بناء⁽¹⁾.

لا يمكن أن نتصور تعريفاً للثقافة من زاوية نظرية فحسب، بل لابد أن يضاف إليها وجهة النظر العملية أو التربوية. وعليه فلو افترضنا أن تعريفاً معيناً توفّر له شرط الصحة، ولكنه في ذاته مقتصر على الجانب النظري، لم يكن - في رأينا - كافياً في بلد لا تُساعد ظروفه العامة على تكملة مضمونه بطريقة ضمنية؛ فعندما يضع أمريكي مشكلة الثقافة في إطار نظري، فإن مضمون الثقافة الأمريكية مُحدد من قبل بحكم الظروف العامة الناتجة عن الحضارة الغربية. وعندما يذهب ماركسي المذهب نفسه في تعريفها، فإن مضمون الثقافة التي يعرفها مُكَمَّل ضمناً بفضل الأيديولوجية الماركسية. أما عندما يُراد تعريف الثقافة تعريفاً نظرياً في بلد ليس فيه ما يُكَمِّل هذا التعريف ضمناً، سواء بما توفّر لديه من تراث تاريخي أم أيديولوجي، فإن الأمر يصبح مشكلاً إشكالياً يحتاج معه إلى إيضاح. والخلاصة أنه إذا لم يكن لدينا سوى منظر واحد فإن (الصورة) - أي التعريف - لن تكون قابلة للتنفيذ، لأنها غير كافية؛ أو بعبارة أدق: إن الصورة لن تكون قابلة للتنفيذ إلا بما يوجد في عقل صائغها من عناصر ضمنية تُكَمِّلها⁽²⁾.

¹ على القريشي: مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب ومحمد باقر الصدر، مجلة الكلمة، العدد (96)، السنة الرابعة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2017، ص ص 161-165.

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص ص 40-41.

يؤكد ابن نبي على أننا أخرج ما نكون إلى المنطق العملي في حياتنا؛ لأن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فهو يكاد أن يكون معدوماً في مجتمعاتنا. ويقصد بالمنطق العملي كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئاً بغير مقياس يستمد معاييرهِ من واقع الوسط الاجتماعي⁽¹⁾.

يقرر مالك بن نبي أن المنطق العملي يُعد أحد عناصر أو مكونات الثقافة، فهو جوهر اتحاد الفكرة بالعمل، ويقصد به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، ويستمد معاييرهِ من واقع الوسط الاجتماعي. وأن المنطق العملي هو الذي ينقص المسلمين بصفة عامة، وهو السبب الأساسي في تخلفهم؛ لأن العجز في الأفكار يخلق في المجال النفسي عجزاً في المراقبة الذاتية وفي مراجعة وتقييم النتائج⁽²⁾.

خامساً: التحديات التي تواجه ثقافتنا العربية وفقاً لمنظور مالك بن نبي:

ما زال العالم العربي، وفي نطاق الفكر الإسلامي بوجه خاص يفتقر إلى نظريات في الثقافة، يمكن لها أن تُنازع أو تُزاحم أو تحل مكان نظرية ابن نبي في الثقافة. وبعد ابن نبي لم تظهر نظرية في الثقافة تنتمي إلى المنظومة الإسلامية، الأمر الذي يكشف عن ضعف شديد ينبغي تداركه، والتغلب عليه من خلال مضاعفة الاهتمام بحقل الدراسات الثقافية⁽³⁾.

رصد مالك بن نبي مجموعة من المعوقات التاريخية والثقافية والحضارية التي تعوق التقدم في المجتمعات الإسلامية والعربية عامة، وتقف حجرة عثرة أمام التقدم

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 39.

² عائشة يوسف المناعي، مرجع سابق، ص 147.

³ زكي الميلاد: مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي: النظرية والمنهج والتطور، مرجع سابق، ص 18.

الثقافي في هذه المجتمعات بشكل خاص. وتتحدد هذه المعوقات فيما يلي⁽¹⁾:

1- شخصية المبادئ عن طريق استبدال الأفكار بالأشخاص:

من أهم المعوقات الثقافية والسلبيات الفكرية التي تعوق عمل الفكرة الإسلامية- وفق آراء مالك بن نبي- ارتباط كثير من المسلمين بالأشخاص والأشياء على حساب الأفكار، وهذا الأمر يُشكّل مع مرور الزمن حاجزاً نفسياً يُكبّل فكر المسلم ويُقيّد حركته في الحياة.

2- الانفصام الحاد في الواقع الإسلامي بين الفكرة (المبدأ) والواقع:

لاحظ ابن نبي وجود انفصام حادّ في سلوك المجتمع الإسلامي، فهو مجتمع يتحدث كثيراً وفق مبادئ القرآن الكريم، ولكنه- في الغالب- يعيش بعيداً عن مقتضياتها العملية في واقعه الاجتماعي وعلاقاته الإنسانية. وردّ ذلك إلى غياب المنطق العملي، حيث إنه يعتبر المنطق العملي أحد العناصر الأساسية المكونة لمفهوم الثقافة، بالإضافة إلى الأخلاق، الجمال، والصناعة. ومن ثم فإن المشكلة ذات جذور ثقافية، بل هي مشكلة ثقافية في جوهرها؛ لأن الثقافة هي التي تحدد السلوك.

3- الجمود الفكري والاستلاب الثقافي:

خلّص ابن نبي- في تحليله النقدي لواقع الثقافة الإسلامية- إلى أن من أهم المعضلات التاريخية الكبرى التي تواجهها هي مفصلة التقليد، والتي تعنى الاستكانة للواقع المملوء بالأفكار الميتة التي تحتاج إلى عقلية اجتهادية ونفس

¹ بوعبد اللطيف لاوي: دور الفكرة الدينية في تحريك فاعلية الإنسان نحو البناء الحضاري في فكر مالك بن نبي: قراءة في الإمكانيات الدافعة والعقبات المانعة، مجلة عالم الفكر، العدد(186)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل-يونيو 2022، ص ص 223-232. بوعبد اللطيف لاوي: دور الفكرة الدينية في تحريك فاعلية الإنسان نحو البناء الحضاري في فكر مالك بن نبي: قراءة في الإمكانيات الدافعة والعقبات المانعة، مجلة عالم الفكر، العدد(186)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل-يونيو 2022، ص ص 223-232.

تجديدي؛ من أجل إزاحتها من طريق العقل المسلم، وإطلاقه من أسرها. ويزداد موقف العقل المسلم تعقيداً حين تجتمع عليه الأفكار الميئة الموروثة مع الأفكار المميئة المستوردة. ويقصد بالأفكار المميئة تلك الأفكار التي أنتزعت من إطارها الثقافي الأصلي، ثم زُرعت قسراً في إطار ثقافي مختلف، وبيئة حضارية متباينة للبيئة الأصلية للفكرة المستوردة. فعلى العقل المسلم أن يمارس حذراً فكرياً تجاه هذا النوع الثاني من الأفكار؛ لأن المعطيات الثقافية ليست سلعاً معلبة جاهزة للنقل في كل الاتجاهات دون فرز وتمييز، ولكنها مُنتج ثقافة وثيق الصلة بالبيئة والشروط الموضوعية التي نشأ فيها. وخطورة هذا النوع من الأفكار تكمن في كونها تُجسد الوجه الثاني لعقدة العقل المسلم تجاه الآخر، فهو غير قادر على الاستقلال بالرأي وبلورة خياراته الخاصة بعيداً عن عقدة الاستلاب أمام الآخر، سواء أكان في صورة مُعطى تراثي موروث أم كان في صورة إفراز من إفرازات الحضارة الغربية الحديثة. والحاصل أن كلا النوعين من التقليد يُعمّق أزمة العقل المسلم، ويكرّس مشكلة التخلف في الواقع الإسلامي.

4- النزعة التمجيدية وضعف الفكر النقدي البناء:

ويقصد بذلك غلبة النفس التمجيدية في تناول التراث الإسلامي ودراسة قضاياها، وضعف الفكر النقدي الذي يتجه إلى غربلة هذا التراث، وتصفيته من الشوائب التي علقّت به عبر التاريخ، وأثقلت وطأته على الواقع، وشوشّت على الجوانب الإيجابية الأصلية المضيئة فيه.

5- غياب النظرة الكلية والبعد المنهجي:

ويقصد بذلك وجود بعض الشواهد الواقعية التي تُثبت معاناة الفكر الإسلامي من مشكلات التجزئة والتسطيح والعفوية والعجز عن بلورة رؤية إصلاحية تتسم بالعمق الفكري والشمول والتماسك المنهجي، وكل هذا يكشف عن وجود خلل

كبير في الرؤية والمنهج. ومن شواهد غياب البعد المنهجي في الواقع الإسلامي طغيان النزعة الكمية التي تنظر إلى قيمة الشيء من خلال كميته (عدده)، بدلاً من النظر إلى الفكرة والمضمون، وكذا طغيان النزعة الشعرية التي تقصد إلى الناحية الجمالية والصنعة البلاغية لتغطي على مواطن الخلل في المجال المعرفي.

6- غياب روح المبادرة:

يرى بن نبي أن روح المبادرة هي المقياس الحقيقي لفاعلية الفرد، ومن ثم فهو ينتقد وضع المجتمعات الإسلامية الذي سادت فيه - منذ زمن بعيد - روح السلبية والانسحاب، وفقدان القدرة على امتلاك زمام المبادرة في التعامل مع مستجدات الحياة وتعقيداتها.

7- خطورة الاستشراق على الثقافة العربية:

إن الاستشراق - كما يرى مالك - هو من أخطر الوسائل، وأمضى الأسلحة التي استخدمها الغرب في هدم مصادر الثقافة لدينا، ذلك "أن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها، وإن التأثير الذي أحدثته هذه الأعمال في الحياة العقلية والفكر الديني لدى بعض المثقفين من الشباب، أمر لاحظته الدارسون والمهتمون بالواقع الثقافي في العالم الإسلامي⁽¹⁾.

8- شيوع الأفكار الميتة والأفكار المميّنة (القاتلة) في ثقافتنا:

يُفرّق مالك بن نبي بين الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، فالأولى تحاول الحفاظ على الأفكار القديمة كما هي حتى وإن كانت ميتة. والثانية تستورد الأفكار الغربية وتتمسك بها وإن كانت قاتلة. ويرى أن الأفكار التي فقدت الحياة بداخلنا هي الأخطر من المستوردة، حيث يقول: "ولو وجب علينا أن نُميز بين الفئتين لقلنا أن الأفكار الميتة

¹ بن عيسى باطاهر، مرجع سابق، ص 11.

التي ورثناها من عصر ما بعد الموحدين، أخطر علينا من الفئة الأخرى" (1).

يرى ابن نبي أن الأفكار الميئة (الموروثة) هي الأفكار التي انحرفت من الأصول ومن المثل العليا، ولذا ليس لديها جذور في العصاراة الثقافية الأصلية. ولذلك تمثل هذه الأفكار عبئاً على العقل المسلم ينبغي التحرر منه بامتلاك الجرأة الفكرية والعقلية الاجتهادية التي تستطيع حصر هذه الأفكار الميئة واستبعادها من دائرة الإرث الثقافي المستصحب في الواقع المعيش. ويقصد بالأفكار الميئة (المستوردة) تلك الأفكار التي أنتزعت من إطارها الثقافي الأصلي، ثم زُرعت قسراً في إطار ثقافي مختلف وبيئة حضارية مباينة للبيئة الأصلية للفكرة المستوردة. وإذا كانت الأفكار الميئة، وهي نتاج إرثنا الاجتماعي، قد تولد فينا القابلية للاستعمار، فإن من شأن الأفكار الميئة المستعارة من الغرب أن تُمهّد للاستعمار (2).

9- انتشار مرض (ذهان) التعالم بين المتعلمين:

تعد عُقدة الذهان من أخطر العُقد النفسية المرضية التي تُصيب الكوامن العقلية والنفسية والوجدانية الداخلية للفرد السوي فتُحيله بمرور وتفاعل الزمن المرضي إلى فرد مُتأزّم ومريض ومعقد. كما تعد هذه العقدة من أخطر الأسقام النفسية القاتلة التي تنخر ببطء في تماسك ووحدة ونشاط وانسجام الجماعات والمجتمعات. ومن هذه العُقد عُقدة ذهان "الاستسهال" وذهان "الاستحالة" وذهان "التعالم" على حد ما ذهب إليه المفكر مالك بن نبي في كتابه "وجهة العالم الإسلامي". والفرد المتعالم يحدثك في الطب وعالم الأوبئة وكأنه طبيب مختص نظراً لما حصّله من معارف عامة عبر الشبكات الإلكترونية، وما تنقله من أفلام وصور ومعارف سطحية. وأحياناً نجد حارساً أو بواباً أو عاملاً محدود التعليم، وفي نفس الوقت

¹ عائشة يوسف المناعي، مرجع سابق، ص 137.

² بوعبد اللطيف لاوي، مرجع سابق، ص ص 225-226.

يُحدثك عن قضايا كبرى معقدة مثل منافع أو مخاطر التطعيم ضد وباء "كوفيد"، ويُخبرك لماذا هو امتنع عن أخذ اللقاح مُخالفًا نصيحة الأطباء، ويُعدد لك الأسباب والموانع التي حملته على ذلك⁽¹⁾.

ومرض التعامل يعني الحرفية في التعلم والصعوبة كل الصعوبة في مداواته. والشخص المتعامل هو الذي بتر فكرة النهضة فلم ير في مشكلتها إلا حاجته ومطامعه، دون أن يرى فيها العنصر الرئيسي لما في نفسه من كساد، فإنه لم ير في الثقافة إلا المظهر التافه، فهي عنده: طريقة ليصبح شخصية بارزة، وإن زاد: فعلم يجلب رزقاً. ويظهر "المتعامل أو المتعاقل" نتيجة تحريف معنى الثقافة⁽²⁾.

ويرى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي الذي ظل يُعاني - لفترة طويلة- من مرض الجهل والامية على أوسع نطاق، قد ازداد حاله تأزماً بظهور جهل من نوع آخر، إنه الجهل الذي يُلبسه أصحابه ثوب العلم، فإن هذا النوع أخطر على المجتمع من جهل العوام، فجهل العوام واضح ويسهل علاجه، أما الأول فهو مختفى في غرور المتعلمين وصعب العلاج⁽³⁾.

10- غلبة منطق القول على منطق الفعل في مجتمعاتنا العربية:

ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاماً مجرداً، بل أكثر من ذلك. فهو أحياناً يُبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط. ومن هنا يأتي عمقنا الاجتماعي، لأننا حالمون وبنقصنا المنطق العملي⁽⁴⁾.

¹ أحمد عيساوي: ذهان التعامل وآثاره على الفرد والجماعة، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (687)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، يونيو/ يوليو 2022، ص 96.

² مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 124-125.

³ سليمة ذياب وآخرون، مرجع سابق، ص 91.

⁴ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 140-141.

خاتمة: آليات تحقيق التنمية الثقافية وفقاً لرؤية مالك بن نبي:

لم يعد أحد يُجادل اليوم في أهمية الثقافة في المجتمع، وذلك من منطلق أن أدبيات المجتمع الدولي وتقريره عن التنمية والمعرفة في العقدين الماضيين قد ساهمت في إبراز الأدوار التي تمارسها الثقافة في تعزيز ومساندة مجالات التنمية الإنسانية. فقد أصبحت العناية بالبُعد الثقافي داخل بعض حقول المعرفة تُعد مسألة مُلحة، حيث لا تنمية في الوعي السياسي الديمقراطي مثلاً من دون ثقافة سياسية جديدة، ولا إمكان لتحقيق النمو الاقتصادي من دون حد أدنى من القيم الثقافية المرتبطة بالتصورات والمبادئ المستمدة من التاريخ والمجتمع⁽¹⁾.

ومن الجدير بالذكر أنه لا يمكن لأي مشروع اقتصادي حسب رأي البعض أن ينجح من دون عمل ثقافي يسبقه، أو يأخذ على عاتقه إعادة تشكيل الإنسان الذي هو أساس النهضة والتنمية، فالمحرك الاقتصادي هو أحد نواتج الفكر والثقافة. والمأزق الاقتصادي هو بالضرورة نتاج لمأزق فكري ثقافي، وأي تفكير في حل اقتصادي يغفل الإطار المرجعي الفكري والمتغير الثقافي للواقع هو تفكير يحمل بذور فشله⁽²⁾.

ومن ثم فإن "عبد الله شريط" يُميّز بين مستويين هامين في أي مشروع نهضوي: مستوى التنظير، ومستوى الممارسة أو التطبيق. فلا يكف أن تكون الفكرة مناسبة، طموحة، وهادفة، ولا يكف أن يكون الحماس لتطبيقها قوياً متدفقاً، ما لم تُحدد الاستراتيجيات المناسبة للتطبيق، والوسائل المادية والبشرية الكفيلة لإنجاح المشروع⁽³⁾.

¹ كمال عبد اللطيف: الثقافة حرية وتنمية، مجلة العربي، العدد(710)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2018، ص ص 25-26.

² الطاهر سعود، مرجع سابق، ص 136.

³ وسيلة يعيش حرم الخراز: مشكلة الثقافة بين مالك بن نبي وعبد الله شريط، مجلة الكلمة، العدد(77)، السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، خريف 2012، ص ص 67-68.

ونظراً لأن الثقافة تُعتبر أحد العوامل المهمة والمؤثرة في عملية التنمية، وذلك انطلاقاً من تأكيد مالك بن نبي في كتابه "المسلم في عالم الاقتصاد" على الترابط الوثيق بين التنمية وقيم الأمة، والقيم بالطبع أحد أهم مكونات الثقافة في أي مجتمع؛ فإن الباحث يرى أنه من الضروري طرح مجموعة من الآليات التي تم استنباطها من المشروع النهضوي لمالك بن نبي - التي يمكن أن يُساهم الأخذ بها في صياغة سياسات ثقافية دقيقة وناجحة، وتنفيذ قرارات ومشروعات من شأنها أن تُحدث نقلة نوعية في الشأن الثقافي بمجتمعاتنا العربية، وبالتالي تتحقق التنمية الثقافية بالوطن العربي، ومن أهم هذه الآليات ما يلي:

- الاهتمام بالتنشئة الدينية والأخلاقية للأطفال والشباب، وذلك من منطلق أن الفكرة الدينية (البعد الديني) أساس الحضارة.

- تفعيل المواثيق الأخلاقية في مجتمعاتنا العربية بشكل عام، وفي مؤسسات التعليم والثقافة والعمل بشكل خاص، وتطبيق مبدأ الثواب والعقاب على الجميع دون أية استثناءات.

- مواجهة الفساد بكافة أنواعه في كافة قطاعات المجتمع، وخاصة القطاع التعليمي (التربوي) حتى لا يُخرج لنا طائفة من المتعلمين (الجهّال الذين يلبسون ثوب العلم) الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون.

- ترجمة المشروعات الفكرية (النهضوية) إلى سياسات وخطط وبرامج تنفيذية ثقافية تُنفذ على أرض الواقع بكل دقة وموضوعية.

- محاربة تضخم الذات والفردية والأنانية؛ لأنها تُعد بداية النكوص الحضاري والتخلف الثقافي.

- تحقيق مبدأ العدالة الثقافية بين كل المواطنين، وكافة الأقاليم داخل الدولة الواحدة، وذلك من منطلق مقولة مالك بن نبي "أن الثقافة ليست علماً لطبقة من الشعب دون أخرى".

- ضرورة التوظيف الإيجابي للأديان والفنون بمعارفها ورموزها وقيمها بحيث تساهم في تدعيم الجوانب الروحية وترسيخ القيم الأخلاقية للأفراد؛ وهذا من شأنه أن يدفع عجلة التنمية عامة، والتنمية الثقافية بشكل خاص إلى الأمام.

- ترسيخ دعائم ثقافة احترام وقبول الآخر (الديني، الثقافي، السياسي، النوعي، الفكري، اللغوي،...) وغيرها) سواء داخل الدولة الواحدة، أو خارج حدود الدولة الوطنية مع الدول الأخرى. وضرورة التعاون معه بشتى السبل والاستفادة من خبراته في المجال الثقافي عملاً بمبدأ أن الثقافة تتحدد تاريخياً وقيماً وأخلاقياً داخل تخطيط عالمي.

- تبني الأفكار الإبداعية ورعاية أصحابها بشكل متميز يحفظ لهم مواهبهم ومكانتهم، ويُفيد المجتمع من عصارة عقولهم، وأيضاً محاربة الأفكار الهدامة (الميتة والمميتة) والتي من شأنها إلحاق الضرر بالأفراد والجماعات والمجتمعات.

- الاشتغال المستمر الواعي على بناء شخصية الإنسان وتطويرها دينياً وقيماً وثقافياً وتكنولوجياً وتربوياً، مع ضرورة إكسابه المهارات اللازمة لتكوين شبكة علاقات متميزة، وحُسن إدارته للوقت، وتدريبه على العمل الأفريقي.

- الاهتمام بالتفكير النقدي والإبداعي، ومحاولة ربط الجانب النظري (النظريات والأفكار والمبادئ) بالجانب التطبيقي (الواقع المعيش).

- الاهتمام الكبير بالصناعات الإبداعية القائمة على المعرفة والابتكار، وتوجيه طاقات الشباب نحو الأفكار الجديدة والمشاريع الإبداعية، وتنمية روح المبادرة لديهم وفتح قنوات المشاركة الإيجابية في مجالات التنمية لهم.

المصادر والمراجع:

1- أحمد عيساوي: ذهان العالم وأثاره على الفرد والجماعة، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (687)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، يونيو/يوليو 2022، ص 96.

2- الطاهر سعود: مشروع النهضة في فكر مالك بن نبي وتمثلاته لدى النخبة الجامعية

الجزائرية بين زمن الاستقلال والزمن الراهن: استطلاع ميداني، مجلة إضافات، العددان (47،48)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، صيف وخريف 2019، ص 115-141.

3- بن عيسى باطاهر: قضية إعجاز القرآن عند مالك بن نبي، مجلة عالم الفكر، المجلد (31)، العدد (2)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر-ديسمبر 2002، ص 7-36.

4- بوعبد اللطيف لاوي: دور الفكرة الدينية في تحريك فاعلية الإنسان نحو البناء الحضاري في فكر مالك بن نبي: قراءة في الإمكانيات الدافعة والعقبات المانعة، مجلة عالم الفكر، العدد (186)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل-يونيو 2022، ص 211-242.

5- بوعزة صالح: قراءة تحليلية لمقاربة مالك بن نبي في بناء الأفراد وإصلاح المجتمعات العربية في ظل العولمة الثقافية، 2019.

6- حفيظ اسليمان: مركزية الإنسان في البناء الحضاري: رؤية المفكر مالك بن نبي، مجلة التفاهم، العددان (55،56)، السنة الخامسة عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان، مارس 2017، ص 347-354.

7- زكي الميلاد: مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي: النظرية والمنهج والتطور، 2012، ص 15-17.

8- زكي الميلاد مالك بن نبي ناقداً لإقبال، مجلة الكلمة، العدد (91)، السنة الثالثة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2016، ص 5-19.

9- سليمة ذياب وآخرون: أسس المقاربة الاجتماعية للتربية في فكر مالك بن نبي: نحو نظرية عربية في علم الاجتماع، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

10- عادل خفاجة: قراءة في كتاب "فكرة كومونولث إسلامي" لمالك بن نبي، مجلة الأزهر، الجزء (2)، السنة (87)، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ديسمبر-يناير 2013، ص 402-406.

11- عائشة يوسف المناعي: مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي، مجلة المسلم المعاصر،

العدد(101)، السنة السادسة والعشرون، يوليو-أغسطس-سبتمبر2001، ص، ص 123-156.

12- عباس شارف: في النقد الحضاري للمجتمع الجزائري: مالك بن نبي نموذجاً، مجلة أوراق فلسفية، العدد(26)،2010، ص، ص363-370.

13- عبد القادر بوعرفة: مالك بن نبي بين الراهن والمستقبل: دراسة نقدية لرسم معالم البنائية الجديدة،2020.

14- على القرشي: مفهوم الحضارة بين مالك بن نبي وسيد قطب ومحمد باقر الصدر، مجلة الكلمة، العدد(96)، السنة الرابعة والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2017، ص، ص157-165.

15- غريبي مراد: الملتقى الدولي حول: مالك بن نبي واستشراف المستقبل - من شروط النهضة إلى الميلاد الجديد، تلمسان(الجزائر) 12-14 ديسمبر2011، مجلة الكلمة، العدد(74)،السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، شتاء 2012، ص، ص161-169.

16- قويدري الأخضر: لماذا لم ينته المشروع الحضاري لمالك بن نبي في الجزائر؟، مجلة الكلمة، العدد (80)، السنة العشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، صيف 2013، ص، ص146-159.

17- كمال عبد اللطيف: الثقافة حرية وتنمية، مجلة العربي، العدد(710)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير2018، ص ص 25-27.

18- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، (ترجمة): عبد الصبور شاهين، سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا،2000.

19- مالك بن نبي: تأملات، الطبعة الثانية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان،2002.

20- مالك بن نبي: شروط النهضة، (ترجمة): عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، (تقديم): رضوان السيد، كتاب الدوحة، العدد(6)، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2011.

21- محمد الحداد: القيم الدينية والتنمية وإنسانية الإنسان في الفكر العربي الحديث والمعاصر، مجلة التفاهم، العدد(43)، السنة الثانية عشرة، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية،

- مسقط، سلطنة عمان، شتاء 2014، ص ص 95-110.
- 22- ميشيل فوكو وآخرون: التحليل الثقافي، (تحرير): إيدث كريزويل وآخرون، (مراجعة وتقديم): أحمد أبوزيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008.
- 23- نعيمة إدريس: موقف مالك بن نبي من الحوار الحضاري مع الغرب، مجلة الكلمة، العدد (87)، السنة الثانية والعشرون، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ربيع 2015، ص، ص 55-72.
- 24- وسيلة يعيش حرم الخراز: مشكلة الثقافة بين مالك بن نبي وعبد الله شريط، مجلة الكلمة، العدد (77)، السنة التاسعة عشرة، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، خريف 2012، ص ص 53-75.

منهج التخلية والتحلية للتنمية الثقافية في استراتيجية النهوض الحضاري في فكر مالك بن نبي

د. عبد الله لعربي

المدرسة العليا للأساتذة بالقبة (الجزائر)

dr.abdallah.laribi@gmail.com

مقدمة

يحتل الإنسان، في استراتيجية النهوض الحضاري لدى مالك بن نبي رحمه الله، مكانا مركزيا؛ لأنه "إذا تحرك الإنسان تحرك التاريخ"، ولذلك فهو يولي عناية خاصة بإنسان ما بعد الموحدين، الذي خرج من حلبة التاريخ، وكيف السبيل إلى النهوض به، ليدخل في دورة حضارية جديدة.

وعليه، تناول مالك بن نبي مشكلة الإنسان من زواياها المختلفة النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وركز بشكل ملحوظ على المسألة الثقافية، باعتبارها المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري.

وتعمق في دراسة مشكلة الثقافة من مداخل عدة منها: الثقافة وعلم الاجتماع، معنى الثقافة في التاريخ، ومعناها في التربية، توجيه الثقافة، الثقافة والنهضة، الأزمة الثقافية، مسألة تعايش الثقافات، وغيرها من المسائل.

وحظيت المسألة الثقافية عند مالك بن نبي باهتمام الدارسين والباحثين، فأنجزت أطروحات ورسائل جامعية، وألفت كتب، وحرّرت مقالات ودراسات، وعقدت ندوات وملتقيات، تناولتها من زوايا مختلفة.

وأثناء قراءتي لكتابه الشهير "شروط النهضة"، لاحظت أنه أشار في ثنايا حديثه عن توجيه الثقافة وضرورة تنميتها، إلى مصطلحين هما: "التحديد السلبي"

و"التحديد الإيجابي"، لكنني لم أجد، عند الدارسين لفكره، من تساءل هل هناك علاقة بين هذين المصطلحين والتخلية والتحلية؟

ولما كانت التخلية والتحلية منهجاً للنبي ﷺ في تربية أصحابه الكرام، تساءلت هل وظف مالك بن نبي هذا المنهج في مشروعه النهضوي؟ وفي أي سياق وظفه؟ ولماذا لم يشر إلى التخلية والتحلية بصريح العبارة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، بينت محورية التنمية الثقافية في النهوض الحضاري، بعد تحديد المفاهيم التالية: التنمية، الثقافة، التنمية الثقافية.

ثم سلّطت الضوء على ماهية المنهج المتميز، الذي سلكه مالك بن نبي في دراسة "مشكلات الحضارة" وصناعة إنسان النهضة.

وبسطت القول حول التخلية والتحلية في القرآن الكريم والسنة النبوية، وبيان منهج التخلية والتحلية الذي سلكه النبي ﷺ في تربية أصحابه والارتقاء بهم من البداوة إلى الحضارة.

ثم بينت كيف وظف مالك بن نبي هذا المنهج في التنمية الثقافية، من خلال تحليل النصوص الدالة على ذلك، ورصد الأمراض الثقافية والحضارية التي يجب على إنسان ما بعد الموحدين أن يتخلى عنها، وبيان عناصر الثقافة الحضارية الدافعة للنهضة، التي ينبغي له التحلي بها.

كما وضحت لماذا لم يستعمل مالك بن نبي صراحة كلمتي التخلية والتحلية، واستبدلها بالتحديد السلبي والتحديد الإيجابي؟

وبينت كذلك السياقات المختلفة، التي ميزت توظيف منهج التخلية والتحلية عند النبي ﷺ، ومالك بن نبي رحمه الله.

ثم ختمت، هذه الورقة البحثية، بذكر أهم النتائج التي توصلت إليها.

أولاً-محورية التنمية الثقافية في النهوض الحضاري

يمثل الإنسان العنصر الأساس في معادلة مالك بن نبي الشهيرة: الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت، وأنه "إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ"¹، وعليه فالنهوض الحضاري لا يتم مجدداً إلا بحل مشكلة الإنسان من زواياها المختلفة النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وسأركز على الزاوية الثقافية، وبيان أهمية التنمية الثقافية، ودورها المحوري في النهوض الحضاري. وقبل ذلك أعرف وأبين المقصود من التنمية، والثقافة، والتنمية الثقافية.

1-التنمية

التنمية مصطلح حديث النشأة، بدأ استخدامه خلال الأربعينيات من القرن الماضي، مع ظهور كتلة الدول المتقدمة، وفي مقابلها الدول المتخلفة، حيث كان يشير إلى الإجراءات والتدابير التي يمكن أن تتخذها هذه الأخيرة، للخروج من حالة التخلف الاقتصادي، وكان ذلك انطلاقاً من نظرية النمو لدى فرانسوا بيروكس François Perroux، ثم نظرية التنمية الاقتصادية، ثم الاجتماعية، ثم الشاملة إلى المستدامة.

- **التنمية لغة:** تعرّف كلمة التنمية في اللغة على أنها تشير للزيادة والرفع، فهي مشتقة من المصدر نَمَى، فيقال: فلان نَمَى ذاكرته؛ أي طَوَّرها وزاد من قوتها، ويقال: تنمية المحاصيل والإنتاج الزراعي؛ أي: تكثيره وزيادته.²

- **التنمية اصطلاحاً:** لها تعاريف عديدة ومختلفة، ويرجع هذا الاختلاف "إلى

¹ مالك بن نبي، حديث غي البناء الجديد، المكتبة العصرية، د. ت، ص 50

² تعريف ومعنى تنمية في معجم المعاني الجامع، almaany.com بتصرف.

تباين المشارب والموارد العلمية والمنطلقات الأكاديمية والفلسفية.¹

وعرّفت هيئة الأمم المتحدة عام 1956 التنمية بأنّها: "العمليات التي يمكن بها توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات المحلية، ومساعدتها على الاندماج في حياة الأمة، والمساهمة في تقدمها بأقصى قدر مستطاع".²

-أنواع التنمية: بناء على تعريف التنمية بأنها عملية تستهدف تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية لأفراد المجتمع، وباعتبارها تقتضي تحريك مختلف العوامل وتشمل جميع مجالات الحياة، فهي تمس كل مجال له علاقة بتحسين حياة الفرد والمجتمع.

وعليه؛ فالتنمية الشاملة تشمل جميع مجالات الحياة والعوامل المؤثرة فيها، فهي متعددة ومتنوعة، منها: التنمية الاقتصادية، التنمية السياسية، التنمية الاجتماعية، التنمية البشرية، التنمية الفكرية، التنمية الثقافية، التنمية العلمية، التنمية الروحية، التنمية النفسية، التنمية الأخلاقية، والتنمية البيئية.

وسأركز على التنمية الثقافية، التي سأحدد مفهومها، بعد تحديد مفهوم الثقافة.

2-الثقافة

- **الثَّقَافَةُ لُغَةً:** يرجع أصل كلمة الثَّقَافَةُ، في اللُّغة العربيَّة، إلى الفعل الثلاثي "ثقف" بضمّ القاف وكسرهما، ويراد بها عدة معانٍ منها: الفهم، وسرعة التَّعلم، والحدق، والفطنة.

¹ حسن صادق حسن عبد الله، السلوك الإداري ومركزات التنمية في الإسلام، ط 2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1992م، ص 83

² محمد شفيق، البحث العلمي الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998م، ص 13.

ونقول ثقفت السَّيِّء: حذقته، وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَفَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: 57] وثقف الرَّجُل ثقافة أي: صار حاذقًا خفيفًا.¹

- **الثقافة اصطلاحاً:** للثقافة تعاريف عديدة ومتنوعة، تبعا لتعدد وتنوع ثقافات الأمم والشعوب، تجاوزت المئة والستين تعريفاً كُتبت باللغة الإنكليزية، وصُنفت وفقاً لاهتمامات واضعيها، فمنها الوصفية، والتاريخية، والمعيارية، والنفسية، والبنائية، والتطورية، وغيرها.²

ومن أقدم التعريفات، تعريف إدوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Tylor، القائل بأنها "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في مجتمع".³

ويُعرف مالك بن نبي الثقافة، بعد انتقاده لمفهومها في المدرستين الغربية والاشتراكية، بأنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كראسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته".⁴

ويوضح بأن "هذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي

¹ ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص19، بتصرّف

² عبد الله العويس، مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012م، ص 313-314.

³ دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: د. منير السعيداني، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007م، ص 30-31.

⁴ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 1434هـ/2013م، ص 89

المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.¹ ويضيف "وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة؛ أي: معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات."²

فالثقافة عند مالك بن نبي -رحمه الله- "هي: المحيط الفكري والسيكولوجي والاجتماعي الذي يكتنف الوجود الإنساني في المجتمع، ويزوده بالخبرة المعرفية والسلوكية... التي تشكل طباعه وشخصيته، وتحكم علاقته بسنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد."³

3- التنمية الثقافية

إن "التنمية الثقافية مفهوم مبتكر من مفاهيم العمل الاجتماعي في مدلولاته الشاملة التي تتسع لشتى مناشط الحياة الإنسانية، والتي تشمل مختلف مناحي الجهد البشري، اقترن ظهوره بحركة اليقظة الفكرية الحديثة، وتبلور بصورة واضحة، مع تطور رؤية المجتمع الدولي إلى رسالة الثقافة في الحياة، ودورها في بناء المجتمعات المعاصرة، حتى صار هذا المفهوم اليوم، من قواعد تقدم الشعوب، ومن ثوابت السياسات الثقافية والاجتماعية في الدول التي تجعل من التنمية، هدفا رئيسا من الأهداف الوطنية التي تعمل من أجل تحقيقها"⁴.

¹ المرجع السابق، ص 89

² المرجع نفسه، ص 89-90.

³ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط 1، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص 99.

⁴ عبد العزيز بن عثمان التويجري، التنمية الثقافية من منظور إسلامي، ط 2، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-إيسيسكو، 1436هـ/2015م، ص 11.

و"التنمية الثقافية هي القاعدة المتينة من قواعد التنمية الشاملة المستدامة التي ترتقي بالإنسان، وتبدع الحضارة، وتصنع المستقبل".¹

وعليه، فالتنمية الثقافية شرط أساس في الارتقاء بالإنسان، بالرفع من قدراته إلى أعلى المستويات، وتحسين أوضاعه، وتفعيل إسهامه في تقدم المجتمع، ليحقق التنمية الشاملة المستدامة، الممهدة للنهضة الحضارية.

والتنمية الثقافية التي أقصدها في هذا البحث، هي: القيام بعملية تحليلية ثقافة الفرد والمجتمع، من القيم السلبية المميتة، والتحلية بالقيم الثقافية الحية والفاعلة والدافعة للنهوض الحضاري، لدى الفرد والمجتمع.

أشار مالك بن نبي إلى التنمية الثقافية، بالمفهوم الذي أقصده، أثناء حديثه عن توجيه الثقافة، في "شروط النهضة" على وجه الخصوص، وسأعود لهذه المسألة تفصيلاً في المبحث الرابع.

4- دور التنمية الثقافية في النهضة

يبيّن مالك بن نبي أن مشكلة الإنسان، العنصر الأساس في معادلتة الحضارية الشهيرة، هي المعضلة الكبرى؛ لأن الإنسان هو صانع الحضارات، لذلك "يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى".²

وعليه، فالإنسان، في استراتيجية النهوض الحضاري لديه، يحتل مكاناً مركزياً، لأنه "الجهاز الاجتماعي الأول.. فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ"³، ولهذا درس ابن نبي قضايا الإنسان ومشكلاته من زواياها المتعددة: النفسية

¹ المرجع السابق، ص 8.

² مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 75.

³ مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، مرجع سابق، ص 50.

والاجتماعية والتربوية والثقافية، وحاول إيجاد الحلول لها، حتى يتمكن الإنسان المسلم من استرجاع دوره في تحريك المجتمع والتاريخ، ويبني حضارته مجدداً.

ولكي يسترجع المسلم هذا الدور، "يلزمنا أولاً أن نفهم كيف يؤثر الإنسان في تركيب التاريخ".¹ ويرى مالك أن الإنسان يؤثر في المجتمع "بثلاث مؤثرات: أولاً: بفكره، ثانياً: بعمله، ثالثاً: بماله."

وفي هذه الدراسة، سأسلط الضوء على المسألة الثقافية، وأهمية تنميتها، لأنها "هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعال، يتيح له امتلاك منهج البحث عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الترقى الحضاري المنشود من جهة أخرى".²

تناول مالك بن نبي المسألة الثقافية في العديد من مؤلفاته، تطرق إليها بداية في "شروط النهضة"، ثم عاد إليها تفصيلاً، وأفرد لها كتاباً سماه "مشكلة الثقافة"، ولا تخلو مؤلفاته ومحاضراته من الإشارة إليها، تصريحاً أو تلميحاً؛ لأن الثقافة عنده "هي الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته ويحمل أفكار النخبة كما يحمل أفكار العامة"³، وهي المؤثر الأكبر في حياة الإنسان والمجتمع، والمحرك الفعال لعجلة النهضة.

ثانياً- منهج مالك بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة

لقد كان مالك بن نبي مسكوناً بالبحث عن كيفية الدخول بالأمة الإسلامية في دورة حضارية جديدة، كما صرح هو بنفسه حين كتب: "إنَّ المشكلات التي يواجهها

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 83

² الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 97.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 93.

العالم الإسلامي مشكلة الحضارة من طرفين، كيف تدخل الشعوب العذراء في دورة حضارية جديدة، وكيف تعود الشعوب الإسلامية التي خرجت من حلبة التاريخ لدورة حضارية جديدة. إذا سلّمنا بهذه الحقائق يبقى علينا أن نفكر في مصير العالم الإسلامي، كيف يمكن لنا الدخول في دورة حضارية جديدة، هذه القضية باختصار هي التي وجّهت لها كل مجهوداتي المتواضعة منذ ثلاثين سنة.¹

ولإعداد مشروع حضاري متكامل تتحقق به الغاية المنشودة، كان لزاما عليه أن يغوص في أعماق التاريخ، ليدرس أسباب نهوض وسقوط الحضارات، ويستنبط منها القوانين السننية النازمة لها، ويعالج سائر "مشكلات الحضارة"، فاستخدم من أجل ذلك منهجا متميزا، شدّ انتباه الدارسين لفكره.

فكتب أحدهم، وهو المفكر محمد شاويش: "وفي اعتقادي أننا الآن بحاجة إلى قراءة أفكار هذا المفكر الهادئ والتعلم منه، لا أعني بالضرورة أن نقره على كل تفاصيل تحليلاته، ولكن يجب أن نستخلص ما هو قيم حقا، في فكر بن نبي وهو طريقته [منهجه] في رؤية مشكلة الحضارة الإسلامية، وتحليلها، ورؤيته الجوانب التي يلفت انتباهنا، إلى ضرورة التركيز عليها."²

وعبر الأستاذ الدكتور محمد سعيد مولاي، أحد تلاميذ مالك بن نبي، عن إعجابه بمنهجه بقوله: "يعتبر مالك بن نبي من أوائل المحدثين في معالجة مشكلات الحضارة، بمنهجية علمية دقيقة."³

وإذا كان سؤال المنهج هو السؤال الأساس في أي عمل فكري، فما هي سمات

¹ مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري، ط 2، دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2016م، ص 250.

² محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، ط 1، دار الفكر، دمشق، 1428هـ/2007م، ص 24.

³ نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياته وآثاره شهادات ومواقف، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ، ص 59.

هذا المنهج المتميز الذي شدّ انتباه الدارسين لإنتاجه الفكري؟

إن المنهج المتميز، الذي تناول به مالك بن نبي "مشكلات الحضارة" وصناعة إنسان النهضة، في تقديري، هو "منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات"، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، كالمناهج التاريخية، والنفسية، والتحليلية، والوصفية، والمقارن، والتجريبي، بالإضافة إلى المنهج السنني، ومنهج التخلية والتحلية، وذلك بمقاربات من العلوم الإسلامية، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية، وعلوم المادة والحياة، وغيرها من العلوم المساعدة على دراسة الحضارة ومعالجة مشكلاتها، بأسلوب متميز، جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة، والدقة العلمية، والعمق الفلسفي، والواقعية والموضوعية.¹

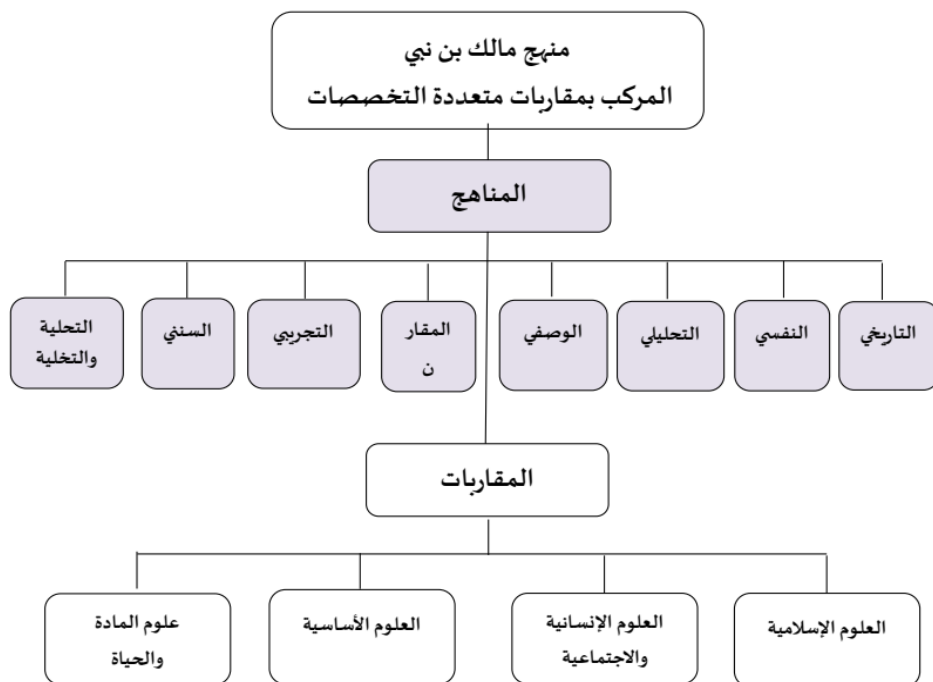
وكما يقال، فإن الموضوع هو الذي يفرض المنهج اللائق به، فموضوع الحضارة موضوع واسع باتساع وتعدد مجالاته، فهو يشمل "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدّم لكل فرد من أفرادها، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه".² وهذا لا يتم إلا بالارتقاء إلى مستوى معين من الثقافة والتربية والعلوم والفنون والعمران وإدارة الحياة، وغيرها.

كما أن صناعة إنسان النهضة لا تتم إلا من خلال القضاء على أمراض الإنسان الذي خرج من الحضارة، كحال المسلم اليوم، وغرس القيم الحضارية فيه، وذلك بإعدادة جسميا وروحيا وعقليًا ووجدانيا، بالشكل المطلوب، حتى يستعيد مكانته ودوره ورسالته في الحياة.

¹ عبدالله لعربي، مالك بن نبي.. المفكر الرسالي، ورقة بحثية شارك بها صاحبها في الملتقى الدولي الموسوم "فكر مالك بن نبي.. بين مظاهر الجمود وآليات التنفيع"، يومي 28 و29 نوفمبر 2017، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي، الجزائر. -بتصرف.

² مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 2013، ص 43.

وهكذا، وبالنظر إلى طبيعة "مشكلات الحضارة"، ومتطلبات صناعة إنسان النهضة في أبعاده الرباعية، السالفة الذكر، فإن "المنهج المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات"¹ (الشكل 1)، هو الأنسب والملائم توصيفا وتحليلا ومقاربة وعلاجاً.



الشكل 1- منهج مالك بن نبي المركب بمقاربات متعددة التخصصات

وفي إطار استراتيجيته في بناء إنسان النهضة، وظف مالك بن نبي، كما سبق ذكره، عدة مناهج، منها: المنهج التحليلي والتخليقي في مجال التنمية الثقافية.

وقبل أن أبين كيف وظف مالك بن نبي هذا المنهج في التنمية الثقافية، من أجل الارتقاء بالمسلم من إنسان ما بعد الموحدين إلى إنسان النهضة، نتعرف على هذا

¹ للمزيد من التفاصيل حول هذا المنهج ومبرراته، ينظر في مداخلتنا الموسومة: منهج مالك بن نبي في دراسة مشكلات الحضارة وعلاقته بمنظور السننية الشاملة، ملتقى وطني حول الدراسات السننية في الفكر الإسلامي المعاصر، جامعة الحاج لخضر باتنة 1، يوم 22 نوفمبر 2023م

المنهج من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ونوضح كيف سلكه النبي ﷺ من أجل الارتقاء بإنسان البداوة إلى إنسان الحضارة.

ثالثاً- التخلية والتحلية في القرآن الكريم والسنة النبوية

1-التزكية لغة

هي مصدر: زكَّى يزكي زكاة وهي الطهارة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، أو هي مصدر: زكا يزكو زكاء وزكاة، وهي الزيادة والنماء. ومنه قول الامام علي رضي الله عنه: "والعلم يزكو بالإنفاق" أي يزيد.

2-التزكية اصطلاحاً

لها عدة تعاريف متنوعة ومتكاملة، منها: "عملية تطهير وتنمية شاملين، هدفها استبعاد العناصر الموهنة للإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذا الوهن من فساد وتخلف وخسران، وتنمية كاملة للعناصر المحققة للإنسانية الإنسان وما ينتج عن هذه التنمية من صلاح وتقدم وفلاح في حياة الأفراد والجماعات"¹.

3-التزكية في القرآن الكريم

وردت كلمة "زكَّى" ومشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، تزيد على الخمسين موضعاً²، وبعده معان، منها: الصلاح، والنماء والزيادة، والمدح والبراءة من الذنوب، وأداء الزكاة، وغيرها.

وخلاصتها أنها تخلية وتحلية: تخلية من الرذائل، وتحلية بالفضائل، وفيها تطهير ونماء، كما يقول الله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾

¹ ماجد عرسان الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها، ط1، عالم الكتب، بيروت-لبنان، 1416هـ-1995م، ص 127

² طه عابدين وآخرون، التزكية بالقرآن الكريم: مفهومها، وأهميتها، وأركانها، ط1، معالم الهدى للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، 1439هـ-2017م، ص 9.

[سورة التوبة: 103]، والتطهير هو تخلية النفس من الذنوب والمعصية والتزكية فيها
نهاء¹.

والتزكية التي أقصدها هي: عملية تخلية النفس الإنسانية من الرذائل والنواقص
من فساد وتخلّف وانحطاط، وتخليتها بغرس وتنمية الفضائل والقيم من الصلاح
والفعالية والتقدم، الدافعة للنهوض الحضاري المنشود.

4-التخلية والتحلية في السنة النبوية

التزكية هي إحدى المهمات الكبرى التي كلف بها الرسول ﷺ لإخراج
الإنسان من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي
بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

يقول العلامة أبو الحسن الندوي رحمه الله: "وهي تزكية النفوس وتهذيبها
وتخليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة
الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا
المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة
العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم."²

ولتحقيق هذه التزكية سلك النبي ﷺ منهج التخلية والتحلية، كما أشار إلى ذلك
الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بقوله: "كان رسول الله يفرغنا ثم يملأنا."
ومنهج التخلية والتحلية، عند النبي ﷺ، ليس منهجا قائما على مجرد الأمر
والنهي؛ أي: لا تفعل وافعل، تخلص وتخلص، إنه منهج متكامل متعدد فيه أساليب

¹ عصام البشير، كيف يمكن للإنسان تزكية نفسه وتطهيرها؟ قناة الجزيرة، برنامج "الشرعية والحياة"، حلقة يوم
2023/3/24.

² أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ربانية لا رهبانية، ط 1، دار القلم دمشق، 1421هـ-2000م، ص 15

وطرق التربية والتوجيه والنصح والتعليم، مع مراعاة الحال والزمن والمكان.

رصد العلامة عبد الفتاح أبو غدة أربعين أسلوباً من أساليبه ﷺ في تعليم الصحابة، منها: السيرة الحسنة والخلق الفاضل، التدرج في تعليم الشرائع، الاعتدال والبعد عن الإملال، مراعاة الفروق الفردية بين الناس، الحوار والمساءلة، المحادثة والموازنة العقلية، المقايسة والتمثيل، ضرب الأمثال، الاستعانة بالوسائل التوضيحية كالرسم، السكوت والاقرار، الممازحة والمداعبة، تكرار النصيحة، إجمال الأمر ثم تفصيله، القصص وأخبار الماضين، الترغيب والترهيب وغيرها.¹

لقد استطاع النبي ﷺ بمنهج التخلية والتحلية، بمختلف أساليبه وطرقه، أن يخرج أصحابه الكرام من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، كما شهد بذلك الصحابي الجليل ربيعي بن عامر التميمي.

كما تمكن ﷺ من نقل العرب من البداوة إلى الحضارة، أو "من أمة جهالة إلى أمة متحضرة"²، على حد تعبير المؤرخ والمفكر الإنكليزي الشهير آرنولد توينبي Arnold Toynbee، بسطت حضارتها على أجزاء كبيرة من المعمورة، ولعدة قرون.

رابعاً- كيف وظف مالك بن نبي منهج التخلية والتحلية في التنمية الثقافية

أشار مالك بن نبي إلى التنمية الثقافية في ثنايا حديثه عن توجيه الثقافة، في "شروط النهضة"، عندما عرف الثقافة "باعتبار وظيفتها في صورة منهاج تربوي، يمكن من تحقيقها عملياً عن طريق تركيب عناصرها بصورة فنية، وهذا تحديد للثقافة بصورة إيجابية يجب أن يسبقه تحديد سلبي بالنظر إلى الواقع الاجتماعي."³

¹ عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم ﷺ وأسانيبه في التعليم، ط 1، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب- سوريا، 1417 هـ / 1996 م.

² آرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي لترجمة، القاهرة، 2011 م، الجزء 1، ص 381.

³ عبد الله العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2012، ص 344.

فما المقصود هنا بالتحديد السلبي والتحديد الإيجابي؟

وهل المقصود بهما هو التخلية والتحلية؟

للإجابة عن هذه التساؤلات لا بد من بيان موقع التخلية والتحلية عند مالك بن

نبي، وهل أشار إليهما صراحة أم تلميحاً؟

1- موقع التخلية والتحلية في "شروط النهضة"

حين تناول مالك بن نبي، في كتابه "شروط النهضة"، الحديث عن مشكلة الإنسان باعتباره العنصر الأول والأهم من عناصر معادلته الحضارية الشهيرة، نبّه إلى أن "المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف باختلاف بيئته، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة، تبعاً لتنوع مراحل التاريخ"¹.

وعليه، "فلا يمكن لنا أن نقارن في الوقت الحاضر بين رجل أوروبا المستعمر، ورجل العالم الإسلامي القابل للاستعمار؛ لأن كليهما في طور تاريخي خاص به"².

وبعدما عقد مقارنة بين طبيعة المشاكل التي يعاني منها الإنسان الأوروبي والإنسان في العالم الإسلامي، وبيان أن المشكلتين مختلفتين في أساسهما، خلص إلى القول بأن "من الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها، وبخاصة في الجزائر"³، ومن هنا يقرر بأنه "يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"⁴.

وصناعة هؤلاء الرجال، ليس بالأمر السهل، ولا البسيط، فكيف السبيل إلى

ذلك؟ وبأي منهج؟

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 81.

² المرجع نفسه، ص 81.

³ المرجع نفسه، ص 82.

⁴ المرجع نفسه، ص 82.

وقبل تحديد المنهج الأنسب لبداية هذه الصناعة، لا بد من معرفة هل هناك فرق بين الإنسان الذي لم يدخل الحضارة بعد، والإنسان الذي خرج منها؟ وهل يمكن للأخير الدخول فيها مجددا وكيف ذلك؟

يرى بن نبي أنه "قبل بدء دورة من الدورات [الحضارية] أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة. أما في نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا وسلبت منه الحضارة تماما. فيدخل في عهد ما بعد الحضارة"¹.

ثم يقول: "إذا كان ممكنا المماثلة بين هاتين الحالتين من وجهة نظر سطحية لما فيهما من وجه الشبه الظاهرية. فإنه من الخطأ المماثلة بينهما من وجهة بيولوجية- تاريخية: إذ الإنسان الذي تفسخ حضاريا يخالف تماما للإنسان السابق على الحضارة أو الإنسان الفطري"².

ويستطرد قائلا: "فالأول ليس مجرد إنسان خارج عن الحضارة فحسب- كما هي الحال مع الثاني الذي سميناه فيما سلف بـ(الإنسان الطبيعي)، إذ الإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلا لإنجاز (عمل مُحَضَّر *Euvre civilisatrice*) إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية. وعلى العكس من ذلك، فإن الإنسان السابق على الحضارة يظل مستعدا- كما هي الحال مع البدوي المعاصر للنبي- للدخول في دورة الحضارة"³.

يُن لنا بن نبي، فيما سبق ذكره، الفرق بين صورة الإنسان قبل دخوله في دورة حضارية وبعد خروجه منها، وأشار كذلك إلى إمكانية الدخول فيها مجددا بالنسبة للإنسان المسلوب الحضارة الذي لم يعد قابلا لإنجاز (عمل مُحَضَّر) إلا إذا تغير هو

¹المرجع نفسه، ص 78

²المرجع نفسه، ص 78

³المرجع نفسه، ص 78

نفسه عن جذوره الأساسية.

وصورة الإنسان المسلوب الحضارة، أو إنسان ما بعد الحضارة، تنطبق تماما على إنسان المجتمع الإسلامي، أو إنسان ما بعد الموحدين، وبالتالي فهذا الأخير لا يمكنه الدخول في دورة حضارية جديدة، إلا إذا غيّر نفسه تغييرا جذريا يستجيب لمقتضيات ذلك التغيير.

سيوضح لنا، فيما يلي، ما هو المنهج الذي اعتمده ابن نبي في بداية صناعة إنسان النهضة، وهل لهذا المنهج من علاقة مع منهج التخلية والتحلية، الذي سلكه المصطفى ﷺ، في صناعة الرعيل الأول؟

وعن بداية الطريق نحو الحضارة يقول: "وإنه ليجب بادئ الأمر تصفية عاداتنا وتقاليدنا، وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قتالة، ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة. وإن هذه التصفية لا تتأتى إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع أصبح يبحث عن وضع جديد، هو وضع النهضة."

نلاحظ هنا أمرين اثنين:

- الأول أن كلمة تصفية، التي تعني هنا التنقية، تشير بوضوح إلى معنى التخلية.
- الثاني هو أهمية البدء بها "حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة" تمهيدا "لوضع جديد، هو وضع النهضة".

ويضيف ابن نبي: "ونخلص من ذلك إلى ضرورة تحديد الأوضاع بطريقتين:

الأولى: سلبية تفصلنا عن روااسب الماضي.

والثانية: إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل¹."

¹ المرجع السابق، ص 86.

وهكذا يُبين لنا أن وضع النهضة الجديد، لا يُبنى إلا بفكر جديد، ولا يتأتى ذلك إلا بتحديدين:

- الأول: (التحديد السلبي) الذي يمثل الانفصال عن روايب الماضي السلبية الممثلة في الأنساق الثقافية والاجتماعية العائقة لكل نهضة.

- الثاني: (التحديد الايجابي) الذي يمثل الاتصال بمقتضيات المستقبل الإيجابية اللازمة لكل نهضة حضارية.

والانفصال والاتصال بهذا المعنى، وفي هذا السياق ما هما إلا التخلية والتحلية في مجال التنمية الثقافية بتعبير آخر ليس إلا!

وقد يسأل سائل هنا: هل الثقافة الغربية عرفت في وقت ما التحديد السلبي (الانفصال) والتحديد الإيجابي (الاتصال) أو بتعبير آخر منهج التخلية والتحلية بشكل من الأشكال؟

يجيبنا ابن نبي عن هذا التساؤل بقوله: "ولعل هذه النظرية [أي التحديد السلبي والتحديد الإيجابي أو الانفصال والاتصال] قد لوحظ أثرها في الثقافة الغربية في عهد نهضتنا، إذ كان توماس الأكويني ينقيها-ولو عن غير قصد منه- لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية. وما كانت ثورته ضد ابن رشد، وضد القديس أوغسطين، إلا مظهراً للتحديد السلبي، حتى يستطيع تصفية ثقافته مما كان يراه فكرة إسلامية أو ميراثاً ميتافيزيقياً للكنيسة البيزنطية".¹

ويضيف: "وأتى بعده ديكرت بالتحديد الإيجابي، الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي، الذي يبنى على المنهج التجريبي ذلك الطريق، الذي هو في الواقع السبب المباشر لتقدم المدنية الحديثة تقدمها المادي".²

¹ المرجع السابق، ص 86

² المرجع نفسه، ص 86-87

نلاحظ هنا أن التحديد السلبي والتحديد الإيجابي أو الانفصال والاتصال، في الثقافة الغربية، لم يتما في نفس الوقت، فتوماس الأكويني قام أولاً بعملية الانفصال (التحديد السلبي) حين حاول تنقية ثقافته من التأثيرات الإسلامية عليها، بينما قام ديكرت فيما بعد بعملية الاتصال (التحديد الإيجابي) حين رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي القائم على المنهج التجريبي.

أما فيما يخص الحضارة الإسلامية يقول ابن نبي: "والحضارة الإسلامية نفسها قامت بعملية التحديد هذه من ناحيتها السلبية والإيجابية، إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بهذين التحديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم، الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل، بطريقة إيجابية¹."

فهذا النص يشير إلى أن التحديدين السلبي والإيجابي، اللذين جاءت بهما الحضارة الإسلامية في نفس الوقت، وأن مصدرهما القرآن الكريم، يدل دلالة واضحة على أن التحديد السلبي (الانفصال) والتحديد الإيجابي (الاتصال) ما هما سوى **التخلية والتحلية**، أي التخلية عن الأفكار الجاهلية البالية، والتحلية بالفكرة الإسلامية الصافية، بكل وضوح لا لبس فيه!

ونظراً لأهمية وضرورة التخلية والتحلية في التنمية الثقافية للمسلم اليوم، يذهب ابن نبي إلى إلزامية هذا المنهج لتحقيق النهضة الإسلامية، حين أردف قائلاً: "وهذا العمل نفسه لازم اليوم للنهضة الإسلامية"².

ويضيف: "ولعل هذه المسألة قد أصبحت منذ زمن قريب موضع بحث وتأمل، وإننا لنجد فعلاً في روح الإصلاح التي هبت على العالم الإسلامي منذ محمد عبده

¹ المرجع نفسه، ص 87

² المرجع نفسه، ص 87

وتلامذته كابن باديس، بشائر ذلك التحديد السلبي الذي حاولوا فيه تحطيم عللنا وعوامل انحطاطنا (...). وأما التحديد الإيجابي فإننا، وإن كان قد وضح لنا مجمله، إلا أنه لا يزال غامضا غير محدد.¹

ويلاحظ ابن نبي أن التحديد السلبي (التخلية) بدأ يُثمر ويؤتي أكله على يد الحركة الإصلاحية، أما التحديد الإيجابي (التحلية) فلا يزال غامضا رغم وضوحه في مجمله.

ثم يبادر ابن نبي إلى بيان المقصود من التحديد الإيجابي (التحلية)، رفعا لهذا الغموض، فيقول: "فليس المقصود هنا من التحديد الإيجابي وضع منهاج جديد للتفكير فإن ديكرت قد وضعه بصورة لا نتوهم تغييرها، إلا بانقلاب علمي هائل، لا تحتمله الظروف الآن. وإنما المقصود تحديد محتواه من العناصر الجوهرية التي نراها لازمة تماما للثقافة وهي:

1-الدستور الخلفي.

2-الذوق الجمالي.

3-المنطق العملي.

4-الصناعة بتعبير ابن خلدون أي (Technique)².

قد يسأل سائل لماذا اهتم ابن نبي بمسألة التحديد الإيجابي (التحلية) على وجه الخصوص، وفي مجال الثقافة بالذات؟

والجواب، في تقديري، هو أن التحديد الإيجابي (التحلية) ما زال غامضا ويحتاج إلى مزيد من الوضوح، كما ذكره ابن نبي آنفا.

¹ المرجع نفسه، ص 87

² المرجع نفسه، ص 87-88

أما لماذا مجال الثقافة بالذات؟ فلكونها، في نظره، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحضارة، ومع "هذا الربط تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة".¹ وما دام الدخول في دورة حضارية جديدة لا يتم إلا بصناعة إنسان النهضة، بات لزاماً الاهتمام بهذه الصناعة، التي ستغير الإنسان تغييراً جذرياً بنقله من إنسان ما بعد الموحدين إلى إنسان النهضة، بتنمية الثقافة، باعتبارها نظرية في السلوك، وبمنهج التخلية والتحلية، المستمد من القرآن الكريم، والذي سار على هديه المصطفى ﷺ، في الارتقاء بإنسان البداوة إلى إنسان الحضارة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المتغير في منهج التخلية والتحلية هو حال الإنسان، أي حاله الذي هو عليه وحاله الجديد الذي نريد أن يصل إليه، بمعنى آخر أن المتغير يكمن في طبيعة المدخلات (In put) والمخرجات (Out put).

ففي عهد النبي ﷺ، المدخلات هي إنسان البداوة، والمخرجات هي إنسان الحضارة، والنموذج هو منهج التخلية والتحلية، بطرقه المناسبة، التي بينا بعضها فيما سبق، والممثل على النحو الآتي:

إنسان البداوة (In put) ← التخلية والتحلية (Model) ← إنسان الحضارة (Out put)
أما عند ابن نبي، المدخلات هي: إنسان ما بعد الموحدين، والمخرجات هي إنسان النهضة، والنموذج هو منهج التخلية والتحلية، بطرقه الخاصة والمناسبة له، التي سنبينها فيما بعد، من خلال التخلية الحضارية والتحلية الحضارية، والممثل على النحو الآتي:

إنسان ما بعد الموحدين (In put) ← التخلية والتحلية (Model) ← إنسان النهضة (Out put)
ومما سبق ذكره، يتبين لنا بوضوح المعنى المقصود من التحديد السلبي والتحديد

¹ المرجع نفسه، 87-88

الإيجابي، وأنه لا يختلف عن معنى التخلية والتحلية.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يستعمل ابن نبي كلمتي التخلية والتحلية، واستعمل عبارتي التحديد السلبي والتحديد الإيجابي؟ علماً أنه ذو ثقافة إسلامية معتبرة، وله معرفة جيدة بالقرآن الكريم، تجلت في كتابه الشهير "الظاهرة القرآنية"، وأن مترجم كتابه "شروط النهضة" من الفرنسية إلى العربية، الدكتور عبد الصبور شاهين له باع طويل في العلوم الإسلامية والعربية؟

في الحقيقة لم أعثر، لحد الآن، على جواب صريح أو تلميح واضح لهذا التساؤل الوجيه، في قراءاتي للإنتاج الفكري لمالك بن نبي، أو فيما كتبه عنه غيره.

والجواب لهذا التساؤل، في تقديري، يكمن في الاعتبار التالية:

- أن كلمتي التخلية والتحلية، رغم أنها من صميم التوجيهات القرآنية لتزكية النفس، ومنهج النبي ﷺ في تربية أصحابه الكرام، لم تكن مألوفة آنذاك في خطابات ومؤلفات المفكرين والمصلحين، لكنهما شائعتان في أوساط الطرق الصوفية.

- إن سقف البرنامج الروحي والتربوي للطرق الصوفية لا يتجاوز تزكية النفس من أدرانها، وهذا مقصد بلا شك في غاية الأهمية، لكنه سقف دون السقف الذي يرمي إليه ابن نبي في مشروعه الحضاري، الذي يهدف إلى إدخال الأمة الإسلامية في دورة حضارية جديدة.

- إن دائرة اهتمام الطرق الصوفية هي دائرة الصلاح، بينما دائرة اهتمام ابن نبي هي دائرة أوسع تشمل الإصلاح القائم على الصلاح.

- إن بعض الطرق الصوفية، في عهد ابن نبي، وفي زمن الاستعمار الفرنسي للجزائر، عشعت فيها البدع والخرافات، وسادت فيها الدروشة، ورضي شيوخها ومريدوهم بالتعايش مع الاستعمار، باعتباره قدراً مقدوراً، وتواطؤوا معه أحياناً في بسط نفوذه على الشعب، ونهب ثرواته، وتكريس مفهوم "القابلية للاستعمار" في

النفوس، ذلك المعيق الأكبر لتحرير البلاد والعباد.

وهكذا يبدو لي أن ملك ابن نبي استلهم روح التخلية والتحلية، باعتبارهما توجيهات قرآنية ومنهج نبوي، في تغيير ما بالنفس، والارتقاء بها في مدارج الصلاح والإصلاح، وتجنب استعمال كلمتي التخلية والتحلية، واستبدلها بمصطلحي التحديد السلبي والتحديد الإيجابي، اللذين يحققان المراد منهما في التنمية الثقافية، التي هي أساس النهوض الحضاري.

2- منهج التخلية والتحلية في التنمية الثقافية

يرى مالك بن نبي أن حال العالم الإسلامي، الذي عاصره، كحال المسلمين في مرحلة ما بعد الموحدين، الذين خرجوا من الحضارة، ولا يمكنهم العودة إليها إلا إذا غيروا ما بأنفسهم تغييرا جذريا، يستجيب لمقتضيات العودة إلى حلبة التاريخ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

ولكي يغير مسلم ما بعد الموحدين نفسه، ويجدد طاقته الحيوية ويسترجع فاعليته، لا بد له من جملة شروط، تأتي على رأسها، التنمية الثقافية، الممهدة للنهضة. ويرى ابن نبي، أن هذه التنمية الثقافية لا تتم إلا من خلال عملية التحديد السلبي والتحديد الإيجابي، أو لنقل بمنهج التخلية والتحلية، كما سبق بيانه.

والسؤال المطروح هنا هو: ماذا يجب على مسلم ما بعد الموحدين أن يتخلى عنه؟ وماذا يجب عليه أن يتحلى به؟

وانطلاقا من تحديده بأن مشكلة المسلمين هي "مشكلة حضارة" بالأساس، وليست مشكلة عقيدة أو قيم أخلاقية، ركز ابن نبي، في عملية التنمية الثقافية، على الأمراض الحضارية التي يجب على المسلمين أن يتخلوا عنها، وعلى القيم الحضارية الدافعة للنهضة، التي لا بد لهم من التحلي بها.

وأبين في الآتي، من منظور ابن نبي، ما يجب على المسلم أن يتخلى عنه أي التخلية الحضارية، وما ينبغي له أن يتحلى به أي التخلية الحضارية.

2-1- التخلية الحضارية

- **القابلية للاستعمار:** ركز ابن نبي كثيرا، في كتاباته ومحاضراته، على مسألة "القابلية للاستعمار"، التي اشتهر بها، باعتبارها مرضا نفسيا، يجب التخلص منه؛ لأن "الاستعمار ليس من عبث السياسيين ولا من أفعالهم، بل هو من النفس ذاتها التي تقبل ذل الاستعمار والتي تمكّن له في أرضها، وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لذل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهلها للاستعمار".¹

ويضيف قائلا: "إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين: (أَخْرِجُوا الْمُسْتَعْمَرَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَخْرُجْ مِنْ أَرْضِكُمْ)."²

- **اللافاعلية:** التخلّص من اللافاعلية شرط أساس في نجاعة الأعمال، ولا يتحقق ذلك إلا بالربط الصحيح بين الأعمال وأهدافها. يقول ابن نبي: "إننا نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من (اللافاعلية) في أعمالنا إذ يذهب جزء كبير منها في العبث، والمحاولات الهازلة.

وإذا ما أردنا حصرا لهذه القضية فإننا نرى سببها الأصيل في افتقارنا الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه، بين سياسة ووسائلها، بين ثقافة ومثلها، بين فكرة

¹ المرجع السابق، ص 33.

² المرجع نفسه، ص 158-159.

وتحقيقها: فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها.¹

- **الشيئية والتكديس**: حذر ابن نبي من مرضي الشيئية والتكديس، وهما من سمات المجتمع المتخلف، الذي ولى وجهه شطر عالم الأشياء، وأدار ظهره لعالم الأفكار، ظنا منه أن الحضارة تبنى بتكديس منتجاتها، في حين أن العكس هو الصحيح، فالحضارة هي التي تلد منتجاتها.

يقول ابن نبي: "إن علينا أن نكون حضارة، أي أن نبني لا أن نكدس. فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس ولنا في أمم معاصرة أسوة حسنة."²

- **ذهان السهولة وذهان الاستحالة**: وهما مرضان يعيقان عملية الإنجاز؛ لأن صاحبهما يرى الأمور، إما سهلة فلا تستحق بذل الجهد المطلوب لإنجازها، وإما مستحيلة فلا داعي للخوض فيها.

وعن هذين المرضين يقول ابن نبي: "فلكل نشاط عملي علاقة بالفكر، فمتى انعدمت هذه العلاقة عمي النشاط واضطرب، وأصبح جهدا بلا دافع. وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم، فإن النشاط يصبح مختلا أو مستحيلا، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا، هو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها، وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقويمها أم خطأ من قيمتها.

وهذان الشكلا من أشكال الخيانة يتمثلان في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من (الذهان): Psychose، فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى، [...].، وإما أن يأخذ صورة النظر إليها

¹ المرجع السابق، ص 102-103

² مالك بن نبي، تأملات، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 169.

على أنها مستحيلة فيصاب بالشلل وهو ما يحدث غالباً في شمال أفريقية.¹

- الذرية (Atomisme): هي سمة من سمات عصر ما بعد الموحّدين، حيث يميل الفرد إلى تجزئة المشكلة، واعتبار القضايا والأحداث مجزأة لا يربطها قانون، ولا يسلك سبيل التكامل بانتهاج التركيب المتآلف (Synthèse).

يقول ابن نبي: "فالنزعة الذرية هي قفزة البرغوث من تفصيل إلى تفصيل؛ بحيث لا تسمح أن ترى في مجموعة من التفاصيل المعطاة وضعاً يبرز بالتحديد مشكلة مرحلة من الاطراد الثوري."²

- الثروة: من معوقات النهضة الثروة وكثرة الأقوال وضآلة الأعمال. يقول ابن نبي: "أن الثروة تكثر كلما قل النشاط والحركة، إذ حيثما يسود الكلام تبطئ الحركة."³

ويضيف: "أن ميزانية التاريخ ليست رصيماً من الكلام ومن أعداد الكلمات، بل هي كتل من النشاط المادي، ومن الأفكار التي لها كثافة الواقع ووزنه. وهذه الميزانيات المكونة من صنوف النشاط الإيجابي هي في الحقيقة ميزانيات من القيم الثقافية تقوم على فصول الثقافة الأربعة: منهجها الأخلاقي، وذوقها الجمالي، وفنها الصناعي، ومنطقها العملي."⁴

2-2- التحلية الحضارية

التحديد الإيجابي أو التحلية الحضارية، في نظر ابن نبي، تتم بالإضافة إلى التحلي

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 88.

² مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 128.

³ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 153.

⁴ المرجع نفسه، ص 153.

بالقيم الثقافية الأربعة، المذكورة آنفا، على ما يلي:

- **تغيير النفس:** التاريخ لا يتغير، والنهضة لا تقوم، والتنمية لا تتحقق، والمشاريع الكبرى لا تنجز، إلا بتغيير النفس والمجتمع، وفقا للآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] ، التي جعلها ابن نبي شعارا لمشروعه الحضاري، واستل منها مقولته الشهيرة: "وإنها لشرعة السماء: غير نفسك تغير التاريخ!"¹.

- **الفاعلية والمنطق العملي:** ركز ابن نبي كثيرا على هذين المفهومين، باعتبارهما من السمات الأساسية، التي يجب أن يتحلى بهما إنسان النهضة.

فعن الفعالية ومبرراتها يقول: "إن تطورات العالم الإسلامي، منذ الحرب العالمية الثانية تضع نخبته في مختبر التاريخ، تفحص فيه إمكانياتهم في مواجهة الحشد من المشكلات، وهي تتطلب قدرة في التصور ومهارة في التطبيق من أجل حلها.

من هنا يفتح لعالم الاجتماع المهتم بشؤون العالم الإسلامي، في مرحلة الاستقلال، مجال لا يخص الباحث فحسب، وهو يدرس الجانب النظري؛ بل يخص الذي يمارس العمل السياسي أيضا. فالعلم الذي لا يترجمه عمل، يظل ترفا لا مكان له، في وطن ما يزال فقيرا في الوسائل والأطر.

ففي هذه المرحلة بالذات، لا بد للاهتمامات أن تتركز في البلاد الإسلامية حول مفهوم **الفاعلية**، وعلى الخصوص في مجال التسيير ووسائله: الأداة والدولة.²

وعن **المنطق العملي**، وحتى لا يلتبس الأمر حول المقصود منه، يوضح: "لسنا نعني بالمنطق العملي ذلك الشيء الذي دونت أصوله، ووضعت قواعده منذ أرسطو، وإنما نعني به كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل

¹ مالک بن نبی، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 35.

² مالک بن نبی، بین رشاد والتهیه، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م، ص 39.

أو نستصعب شيئا، بغير مقياس يستمد معاييرهِ من واقع الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانيات: إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة، غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي، أي استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة..¹

ثم يبين أهميته وحاجتنا إليه: "ونحن أحوج ما نكون إلى هذا المنطق العملي في حياتنا؛ لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشيء يكاد يكون معدوما."²

ويرد ف قائلا: "ألم نقل: إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا بل أكثر من ذلك. فهو أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا، ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط."³

- تقديم الواجبات على الحقوق: يؤكد ابن نبي "أن الإقلاع الحضاري واطراد حركة البناء، مرتبط بوضع نفسي واجتماعي تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة، بل وتتفوق عليه من جهة أخرى، وأي إخلال بهذه المعادلة يؤدي حتما إلى إرباك عملية البناء وارتكاسها. فالواجب الفاضل هو أمانة التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه إلى المجد."⁴

ولهذا "فالسياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه، ليست سياسة، وإنما هي خرافة، أو هي تلصص في الظلام."⁵

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 102

² المرجع نفسه، ص 102

³ المرجع نفسه، ص 103

⁴ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 114.

⁵ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 143

و "برمجة حركة المجتمع على محور الواجبات لا تتأتى إلا بتحويل عميق لعادات وطبائع الناس؛ أي: بتحويل ثقافي شامل تنجزه جهات كثيرة في المجتمع".¹

- **العودة للقيم الإسلامية:** استشهد ابن نبي، في كتابه "ميلاد مجتمع"، أربع مرات بالمقولة المأثورة: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"². والتي يقصد بها أن طريق التجديد الحضاري، يمر حتما بالعودة الصادقة للقيم الإسلامية الأصيلة، والتحلي بها، تلك القيم التي ارتقت بالإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، ومن البداوة إلى الحضارة.

والعودة للقيم الإسلامية، هي العودة إلى فاعلية العقيدة واشعاعها الاجتماعي؛ لأن "المسلم حتى مسلم ما بعد الموحدين، لم يتخل مطلقا عن عقيدته، فلقد ظل مؤمنا، وبعبارة أدق ظل مؤمنا متدينا، ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها؛ لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي، فأصبحت عقيدة جذبية فردية، وصار الإيمان إيمان فرد متحلل الصلات بوسطه الاجتماعي، وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة".³

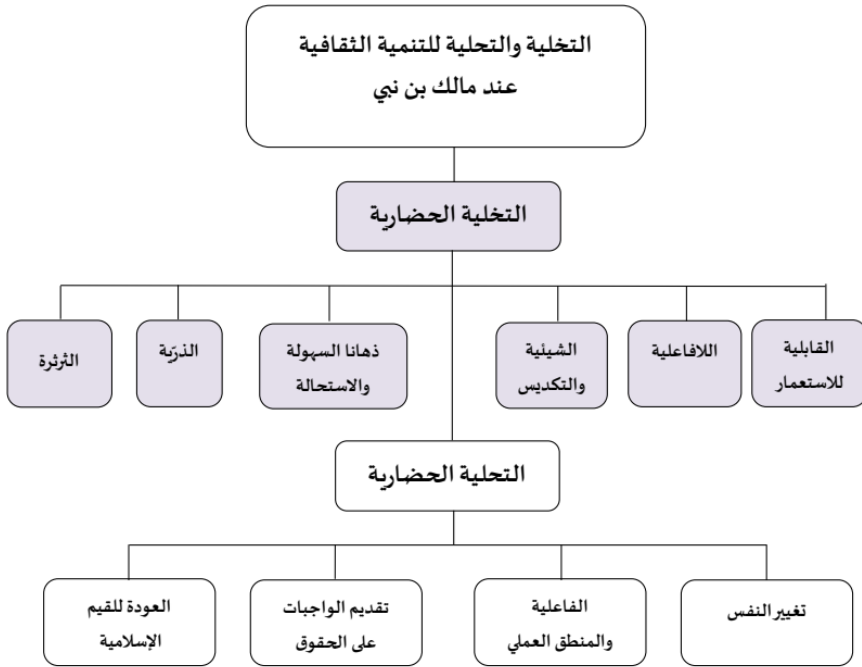
وصفوة القول: إن التخلية والتحلية للتنمية الثقافية، عند مالك بن نبي، ليست مجرد أوامر "تخلي وتحلي"، لكنها خلاصة لدراسة عميقة، في إطار منهجه المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات، لأوضاع إنسان ما بعد الموحدين، وتحديد ما يجب عليه أن يتخلى عنه من أمراض ثقافية مكبلة ومميتة، وما ينبغي له التحلي به من

¹ الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص 114.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ / 2013م، ص 7، 81، 76، 114.

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 54.

القيم الحضارية المحفزة والدافعة للنهضة (الشكل 2).



الشكل 2- التخلية والتحلية للتنمية الثقافية عند مالك بن نبي

خاتمة

توصلت الدراسة للتائج التالية:

- يحتل الإنسان، في استراتيجية النهوض الحضاري لدى مالك بن نبي، مكانا مركزيا؛ لأنه "إذا تحرك الإنسان تحرك التاريخ".

- التنمية الثقافية من أهم الوسائل التربوية، عند ابن نبي، في النهوض بإنسان ما بعد الموحدين، والتعافي من التقهقر الحضاري المزمّن للأمة.

- المسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية النهوض الحضاري، باعتبار أن الفعل الحضاري هو في الأساس فعل ثقافي.

- المنهج المتميز، الذي تناول به ابن نبي "مشكلات الحضارة"، هو منهج مركب بمقاربات متعددة التخصصات، وظف فيه مناهج البحث العلمي المعروفة، بالإضافة إلى المنهج السنني ومنهج التخلية والتحلية، بمقاربات من العلوم الإسلامية، والإنسانية والاجتماعية، والعلوم الأساسية وعلوم المادة والحياة، بأسلوب جمع فيه بين النظرة السننية الشاملة والدقة العلمية والعمق الفلسفي والواقعية والموضوعية.

- التخلية والتحلية من الأساليب التربوية الأساسية التي اعتمدها القرآن الكريم، في تغيير وإصلاح النفوس، وهي منهج النبي ﷺ الذي سلكه في تربية أصحابه رضي الله عنهم.

- النهضة لا تبنى إلا بفكر جديد، ولا يتأتى ذلك إلا بتحديدين: الأول: التحديد السلبي الذي يمثل الانفصال عن رواسب الماضي السلبية، الممثلة في الأنساق الثقافية والاجتماعية العائقة لكل نهضة. والثاني: التحديد الإيجابي الذي يمثل الاتصال بمقتضيات المستقبل الإيجابية اللازمة لكل نهضة حضارية.

- التحديد السلبي (الانفصال) والتحديد الإيجابي (الاتصال) يتوافقان تماما مع مفهوم التخلية والتحلية في مجال التنمية الثقافية، لكن بتعبير آخر ليس إلا!

- منهج التخلية والتحلية من المناهج الأساسية في تغيير النفس وتنميتها، يعتمد إليه الأنبياء والمرسلون، وأهل السلوك والطريقة، والمصلحون، والمفكرون، والأطباء النفسانيون، والمربون، وغيرهم، مع تباين وتنوع في وسائلهم وطرقهم، كل بحسب مقصده ومبتغاه.

- ارتقى النبي ﷺ بمنهج التخلية والتحلية، بمختلف وسائله المناسبة، بالإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، ومن البداوة إلى الحضارة.

- وظف مالك بن نبي منهج التخلية والتحلية (التحديد السلبي والتحديد الإيجابي)، بمختلف وسائله المناسبة (التخلية الحضارية والتحلية الحضارية)، في التنمية الثقافية، من أجل الارتقاء بإنسان ما بعد الموحدين إلى إنسان النهضة.

- التخلية الحضارية هي: التخلي عن القابلية للاستعمار، واللافاعلية، والشيئية والتكديس، وذهاني السهولة والاستحالة، والذرية، والثرثرة. والتحلية الحضارية هي: التحلي بتغيير النفس، والفاعلية والمنطق العملي، وتقديم الواجبات على الحقوق، والعودة للقيم الإسلامية. والتخليتان تتمان في إطار منهجه المركب بالمقاربات المتعددة التخصصات.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- أبو الحسن علي الحسيني الندوي، ربانية لا رهبانية، ط 1، دار القلم دمشق، 1421هـ-2000م.
- 2- آرنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، المركز القومي لترجمة، القاهرة، الجزء 1، 2011م.
- 2- حسن صادق حسن عبد الله، السلوك الإداري ومراكز التنمية في الإسلام، ط 2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 1992م.
- 3- دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة: د. منير السعيداني، ط 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2007م.
- 4- طه عابدين وآخرون، التزكية بالقرآن الكريم: مفهومها، وأهميتها، وأركانها، ط 1، معالم الهدى للنشر والتوزيع، الرياض-السعودية، 1439هـ-2017م.
- 5- الطيب برغوث، محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط 1، دار الشاطبية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- 6- عبد العزيز بن عثمان التويجري، التنمية الثقافية من منظور إسلامي، ط 2، منشورات المنظمة الإسلامية للترقية والعلوم والثقافة-إيسيسكو، 1436هـ/2015م.
- 7- عبد الفتاح أبو غدة، الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم، ط 1، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب-سوريا، 1417هـ/1996م.
- 8- عبد الله العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2012.
- ماجد عرسان الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها، ط 1، عالم الكتب، بيروت-لبنان، 1416هـ-1995م.
- 9- مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 2013.
- 10- مالك بن نبي، بين رشاد والتهيه، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 11- مالك بن نبي، تأملات، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 12- مالك بن نبي، حديث غي البناء الجديد، المكتبة العصرية، بدون تاريخ.
- 13- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 1434هـ/2013م.
- 14- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر

- والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 15-مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 16-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 17-مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر 1434هـ/2013م.
- 18-محمد شاويش، مالك بن نبي والوضع الراهن، ط 1، دار الفكر، دمشق-سوريا، 1428هـ/2007م.
- 19-محمد شفيق، البحث العلمي الخطوات المنهجية لإعداد البحوث الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998م.
- 20-مولود عويمر، مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته وعطاؤه الفكري، ط 2، دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2016م.
- 21-نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياته وآثاره شهادات ومواقف، دار النون للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، بدون تاريخ.

الأبعاد السوسيوثقافية للتنمية في فكر مالك بن نبي

د. محمد داددي

جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)

mohamed.daddi@univ-tiaret.dz

مقدمة

يعد مفهوم الثقافة من بين المفاهيم والموضوعات التي نالت اهتمام العديد من الفلاسفة والمفكرين والباحثين الأنثروبولوجيين والسوسيولوجيين والمهتمين بالشأن الثقافي بشكل عام، ويرجع هذا الاهتمام إلى كون موضوع الثقافة موضوعا متشعبا ومعقدا وواسعا في الآن نفسه. كما أن موضوع الثقافة لم يلق إجماعا من طرف الباحثين والدارسين، ويعود الاختلاف في تحديد مفهوم الثقافة إلى الاختلاف في الزوايا التي يتم منها تناوله، وإلى التنوع والتعدد في الحقول المعرفية التي تتخذ من هذا الأخير موضوعا للدراسة والبحث.

ومما يؤكد هذا الاختلاف في تحديد مفهوم الثقافة، والذي يصل إلى درجة التباين في بعض الأحيان هو اعتماد المنظمة العالمية للعلوم والتربية والثقافة والفنون UNESCO لـ 160 تعريفا للثقافة. فإذا كان الأنثروبولوجي يعرفها بأنها هي ذلك الكل المركب الذي يشمل مجموع القيم والعادات والتقاليد والأعراف والدين والآداب... والتي تتميز مجتمع عن آخر، فهي مجموع السلوكيات الفنية والعلمية والأذواق الجمالية والتعبيرية الراقية والمدنية والحضارية التي يختص بها مجتمع من المجتمعات. كما أن التنوع في التعريفات يخضع إلى التباين في الرؤى الإيديولوجية والتمايز في المرجعيات الفكرية.

ويعتبر مالك بن نبي من أبرز المفكرين العرب والمسلمين الذين أولوا اهتماما كبيرا وخصوصا لمفهوم الثقافة، حيث خصص له العديد من الكتابات والمحاضرات، إذ يعد كتابه "مشكلة الثقافة" أبرزها ناهيك عن المقالات الأخرى التي خصصها

لذات الموضوع في إطار مشروعه الكبير الذي أسماه بـ "مشكلات الحضارة". ومن هنا جاء طرح مالك بن نبي حول موضوع الثقافة طرحا مختلفا تماما عن الطروحات الغربية الأخرى، لذلك عند تناوله لهذا الموضوع أسماه بـ "مشكلة الثقافة"، والمقصود بذلك هو مفهوم الثقافة في العالم الإسلامي عامة والمجتمع الجزائري بصفة خاصة.

في حين يعتبر النشاط الاقتصادي من بين أقدم النشاطات التي عرفها الإنسان عبر مراحل التاريخ، ويرجع ذلك إلى أهميته بالنسبة لحياة الأفراد والجماعات، فقد انتقلت المجتمعات البشرية من حرفة الرعي بعد استئناس الحيوانات إلى مهنة الزراعة ثم الصناعة وصولا إلى عصر التكنولوجيات الحديثة ومجتمع المعرفة. فالملاحظ أن مفهوم الاقتصاد قد عرف الكثير من التغيرات تبعا للتحويلات التي عرفت المجتمعات البشرية، فبعدما كان نشاطا منزليا بسيطا، ثم اقتصادا تقليديا وكلاسيكيا، ليعرف طفرة كبيرة وتحولا جذريا مع ما سمي بعصر الأنوار وظهور الثورة الصناعية أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر.

فالثورة الصناعية ما هي إلا نتيجة من النتائج المباشرة للثورة العلمية، هذه الأخيرة بدورها تعتبر ثمرة من ثمار عصر الأنوار الذي عرفته أوروبا في القرن الثامن عشر. وتبعا لذلك أخذ مفهوم الاقتصاد أبعادا أكبر بكثير مما كان عليه قبل ذلك، وهذا ما أدى إلى ظهور العديد من المفكرين والمنظرين الاقتصاديين من أبرزهم (آدم سميث) و(ريكاردو) واللذان يعتبران من أشهر منظري الليبرالية والرأسمالية كتوجه ونظام اقتصادي تحت شعار: دعه يعمل، دعه يمر. وكرد فعل على ذلك ظهر الفكر الماركسي ممثلا للإيديولوجية الشيوعية ومنظرا للتوجه الاقتصادي الاشتراكي. ومما يجب التذكير به هنا، هو أنه على الرغم من أن التيارين (الليبرالي-الرأسمالي والماركسي-الاشتراكي) ينتميان إلى نفس الفكر الغربي، غير أنها اختلفا اختلافا عميقا، ومصدر هذا الاختلاف حتى وإن كان يغلب عليه

الطابع الإيديولوجي إلا أن في الواقع أصله اقتصادي.

وفي خضم هذه التحولات التي عرفها العالم الغربي عموماً وأوروبا على وجه الخصوص، كان هناك عالماً إسلامياً غائباً عن مسرح الأحداث، هذا الغياب الذي يرجع إلى عدة قرون نتيجة لعدة عوامل تاريخية وحضارية وثقافية يتعذر حصرها في هذا المقال، إضافة إلى حملة الاستعمار التي تعرض لها من قِبَل الدول الأوروبية نتيجة التوسع والبحث عن المواد الأولية وعن الأسواق الخارجية. هذا ما حال دون مشاركة العالم الإسلامي في صناعة هذا النظام بقطبيه (الرأسمالي والاشتراكي) على الرغم من بعض المحاولات التي قام بها الإصلاحيون في عصر النهضة العربية الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ومن أبرز وأهم المفكرين المسلمين المعاصرين الذين حاولوا أن يفهموا مصدر هذا التخلف الحضاري والتدهور الاقتصادي الذي يعيشه العالم الإسلامي، المفكر الجزائري (مالك بن نبي)، هذا المفكر الذي تناول موضوع الاقتصاد بالدراسة والتحليل، كما حاول إيجاد طريق ثالث يتجاوز التنظير الرأسمالي والإيديولوجيا الشيوعية معاً، وذلك بإعطائه لمفهوم الاقتصاد أبعاداً أخرى لم ترد في فكر المدرستين الغربيتين. غير أنه من غير الممكن فهم الظاهرة الاقتصادية في فكر بن نبي دون ربطها بالمجالات الأخرى، إذ لا يمكن فصل المجال الاقتصادي عن شرطه النفسي، ولا عن بنيته الاجتماعية، وأنساقه الثقافية ومضمونه الأخلاقي، ولا عن سياقه التاريخي وبعده الحضاري. فالظاهرة الاقتصادية عند مالك بن نبي مشروطة بكل هذه الشروط مجتمعة، ولا يمكن فهمها إلا من خلال إطارها الكلي ومن ضمنه. ينطلق مالك بن نبي من نقده للنظرية الاقتصادية الرأسمالية المتمركزة حول حرية الفرد اللامشروطة في الامتلاك والإنتاج والاستهلاك، مثلما ينقد الفكر الاقتصادي الاشتراكي المؤسس على أولوية الجماعة على حساب الأفراد. وإذ يرى بن نبي أنه وعلى الرغم من اختلاف النظريتين الاقتصاديتين إلا أنها يشتركان في

تركيزهما على الجانب المادي للاقتصاد وإيهامهما للبعد الإنساني والأخلاقي.
ومن هنا يمكننا طرح التساؤلات التالية: فما هو مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي؟ وما هي الشروط الواجب توفيرها لإنشاء وتأسيس ثقافة خاصة بالمجتمعات العربية والإسلامية والتي يعتبر المجتمع الجزائري جزءاً منها؟ وما هي العناصر الضرورية والرئيسية التي يتوجب على المجتمع اعتمادها لتكوين ثقافة حية ومتحركة وفعالة، كي تصونه وتضمن بقاءه، مثلما تمده بالوسائل والإمكانات اللازمة للولوج إلى عالم الحضارة ومن ثم إلى صناعة التاريخ؟ وما هي التجارب الاقتصادية التي نهلَ منها مالك بن نبي وبلور أفكاره من خلالها؟ وما هو الخيار الاقتصادي البديل الذي يطرحه بن نبي وخاصة بالنسبة للدول الإسلامية تجاوزاً للخيارات الاقتصادية الموجودة؟ وما هي الحلول والمقترحات التي يقدمها في هذا الشأن؟

2- تبينة مفهوم الثقافة والنقد المزدوج للمفهوم الليبرالي والاشتراكي:

لقد تناول مالك بن نبي موضوع الثقافة في كتابه "مشكلة الثقافة" من منظور مختلف عن الفكر الغربي الليبرالي، وعن الفكر الماركسي الاشتراكي، وقد كان مدفوعاً بقضايا وهموم مجتمعه ومنقاداً بشعور من يبحث عن ضالة. ولذلك يرى بأن المدرسة الغربية بقيت وفية لتقاليد عصر النهضة، وهي ترى بأن الثقافة هي ثمرة الفكر، أي ثمرة الإنسان. فالثقافة وجدت على مستوى التجربة أولاً ثم أوردت لها التسمية فيما بعد في أوروبا في عصر النهضة.

في حين أن المدرسة الماركسية ترى بأن الثقافة في جوهرها ثمرة المجتمع.¹ ومن هنا يبدأ بن نبي في التأسيس لمفهومه الجديد للثقافة، هذا المفهوم الذي أراد أن يجعل له تعريفاً خاصاً بالمجتمعات العربية والإسلامية عموماً، وللمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، ويرجع ذلك إلى الاختلاف في البيئات الاجتماعية والثقافية

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 1984 ترجمة عبد الصبور شاهين، ط4، دار الفكر، دمشق-سوريا، ص29

والحضارية لكلا المجتمعين. وبتعبير آخر اجتهد بن نبي لتبينة مفهوم الثقافة وفق خصوصيات المجتمع الجزائري والمجتمعات العربية والإسلامية الأخرى.

فالثقافة في الغرب مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان (فلسفة الإنسان). وفي البلاد الاشتراكية، حيث يطبع تفكير ماركس كل القيم، فهي (فلسفة المجتمع).¹ فهذا الاختلاف راجع إلى التباين الإيديولوجي والتمايز الثقافي والحضاري ما بين البلدان والمجتمعات، فإذا كان مفهوم الثقافة في الغرب يركز على الإنسان-الفرد، فهذا راجع للأفكار والإيديولوجيا الليبرالية التي تمثلها، فإن مفهوم الثقافة في البلدان الاشتراكية نابع بدوره من الأفكار والإيديولوجيا الماركسية والاشتراكية.

ولذلك فـ "تعريف الثقافة يحمل بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة؛ أي: مقومات الإنسان ومقومات المجتمع مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعا في كيان واحد، تحدته عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية، عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات".² أي: إنه لا يمكن حصر الثقافة في فلسفة الإنسان وحده على حساب الجماعة، كما لا يمكن اقتصارها على المجتمع مقابل تقييد حرية الفرد.

ويواصل بن نبي نقده للمفهوم الليبرالي الغربي للثقافة، ومن ثم التأسيس لمفهومه الجديد للثقافة، وذلك من خلال رفضه للفلسفات الغربية التي تجعل من الأشياء مصادرا للأفكار. إذ يقول بـ "أن الشيء لدى (أوجبران) هو الذي يخلق الفكرة؛ وبناء عليه يكفي أن نتصور زوال الأشياء كي تنهار الثقافة كأنها بناء قُوض أساسه".³

¹ المرجع السابق، ص73

² المرجع نفسه، ص74

³ المرجع نفسه، ص35

ومن هذا المنطلق فإن أي حضارة لا يمكن أن تباع دفعة واحدة كل الأشياء التي تنتجها، وكل ما تحتويه هاته الأشياء؛ أي: إنها لا يمكن أن تباعنا روحها وأفكارها وثوراتها الذاتية، وأذواقها، هذا الحشد من الأفكار والمعاني التي لا تلمسها الأنامل. والتي توجد في الكتب أو المؤسسات، ولكن بدونها تصبح كل الأشياء التي تباعنا إياها فارغة، دون روح، وبلا هدف.¹ وبتعبير آخر لا يمكن بأي حال من الأحوال فصل الأشياء والمنتجات المادية عن الثقافة التي أنتجتها، وإلا أصبحت مجرد جسد بلا روح، وهذا ما يجعل من الثقافة كلا متكاملًا يجمع بين الشيء والفكرة، وبين المادي والمعنوي.

وبناء على ذلك يبدأ بن نبي تحديده لمفهوم الثقافة انطلاقًا من البيئة العربية والإسلامية والتي من ضمنها المجتمع الجزائري، حيث يقول "يبدو أن كلمة (ثقافة) لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علمًا على مفهوم معين. وهذا هو ما يفسر لنا أنها بحاجة دائمًا إلى كلمة أجنبية، تقرر بها لتحديد ما يراد منها في الكتب التي تتصدى لهذا الموضوع، أو بعبارة أخرى إنها كلمة لا تزال في اللغة العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة culture كي تنتشر.² أي: 'ن كلمة ثقافة في اللغة العربية لا يوجد لها مقابل في واقع المجتمعات العربية، وإنما معناها في اللغة العربية ليس هو المعنى الذي يُراد لها أن تكون عليه.

ولذلك يرى مالك بن نبي أن مشكلة الثقافة قد تطرح علينا في صيغ عدة، تتطلب كل منها إجابة خاصة، فهي يمكن أن تشكل أحد اهتمامات السوسيولوجيا عندما تطرح في صيغة الكيفية التي تتكون بها ثقافة معينة؟ ويمكن أن تشغل بال الناقد الأدبي، أو المهتم بالفلكلور عندما تطرح بصيغة استفهامية حول الصورة التي

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للنشر والطباعة والتوزيع، دمشق-سوريا، 1986، ص 43

² مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 25

يمكن أن تبرز بها ثقافة ما؟ لكن هذه الأوضاع كلها وإن كان البحث فيها يكتسي أهمية وقيمة نظرية عالية، إلا أن أوضاع التخلف تفرض علينا أن نطرح مشكلة الثقافة لا في نطاق المجردات كالمسرح والفنون الجميلة... ولكن في نطاق نشاطاتنا اليومية حيث تدور حياة الأفراد؛ أي: في نطاق الحقائق المحسوسة للتخلف كالبطالة والامية.¹

وبناء على ذلك يرى مالك بن نبي أن أي استعارة لمفهوم الثقافة وتعريفها إذا لم يكن مستمدا من الواقع الاجتماعي الذي تمثله تلك الثقافة فإنه سيفشل وذلك لافتقاده العنصر الضمني المتعلق بالإطار النفسي والاجتماعي للمجتمع الأصلي.² وبذلك فنوع الثقافة يتحدد في كل شعب تبعا لحتمية منبعثة من نفسيته.³

وتبعا لذلك يضيف أنه بدلا من أن نواجه المشكلة في صورتها الاجتماعية بأن نتساءل: كيف ينقل المجتمع تراثه إلى الفرد؟ ينبغي أن نتناولها في صورتها النفسية بأن نتساءل: كيف يتتقي الفرد المقاييس الذاتية التي تحدد انتماءه إلى نمط ثقافة معينة، وبالتالي تحدد سلوكه؟⁴ أي: إنه يتوجب أولا التركيز على نفسية الفرد على الرغم من كونه فاعلا اجتماعيا، غير أنه لا يمكن أن ننكر أنه كائن نفسي في المقام الأول.

ومن هذا المنطلق فالثقافة هي تلك الكتلة نفسها، بما تتضمنه من عادات متجانسة وعبقريات متقاربة، وتقاليد متكاملة وأذواق متناسبة، وعواطف متشابهة. وبعبارة جامعة: هي كل ما يعطي الحضارة سميتها الخاصة. ويحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون وروحانية الغزالي. أو عقلية ديكرات وروحانية جان دارك. هذا هو

¹ نورة خالد السعد، التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، الطبعة الأولى، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة -

العربية السعودية، ص 216

² المرجع نفسه، ص 55

³ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 119

⁴ المرجع نفسه، ص 54

معنى الثقافة في التاريخ.¹

وباعتبار بن نبي مفكرا مصلحا قبل أن يكون فيلسوفا متأملا أو سوسيولوجيا منظرا، فقد وضع محددان للثقافة أولهما سلبي وثانيهما إيجابي، حيث يعمل الأول على القطيعة مع رواسب الماضي، في حين أن التحديد الثاني يقتضي الوصل والربط مع المستقبل. "المقصود بالتحديد الإيجابي هو تحديد محتوى الثقافة من العناصر الجوهرية الضرورية التي تدعم الدور التغييري للثقافة وتحويلها من ثقافة مجتمع بدائي، إلى ثقافة تربوية خاصة بالمجتمع التاريخي المتحرك، وبالتالي يتأكد الجانب التطبيقي منها كنظرية في السلوك وليس كنظرية في المعرفة".² ويرجع ذلك إلى كون مالك بن نبي قد نظر إلى الثقافة من خلال علاقتها بالحضارة، ووظيفتها في التغيير الاجتماعي.

3- الفرق بين الثقافة والتعليم:

من المجالات التي تعرف التباسا وخلطا لدى الكثير من الناس، مجالي الثقافة والتعليم، حيث يربط الكثيرون بين هذين المجالين ربطا تعسفيا ومضطربا، أين تصبح العلاقة بينهما علاقة ضرورية وشرطية ومتلازمة؛ أي: إذا غاب التعليم غابت معه الثقافة، والعكس صحيح، غير أن الشواهد تؤكد بأنه ليس بالضرورة أن العلاقة بين الثقافة والتعليم علاقة شرطية ومتلازمة، وهذا لا ينفي عنها صفة التكامل.

ولذلك يحذر بن نبي من هذا الخلط حين يقول بأن "التحديد المزدوج للثقافة لا أثر له إلا إذا زال ذلك الخلط الخطير الشائع في العالم الإسلامي، بين ما تفيده كلمتا (ثقافة) و(علم)."³ ويضيف قائلا بـ "أن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة، وأوثق صلة بالشخصية، منهم، بجمع المعلومات، وهذه هي الثقافة."⁴ ومما

¹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 86

² نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 162

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 82

⁴ المرجع نفسه، ص 83

يؤكد بأن الثقافة أوسع وأشمل من التعليم، هو وجود الثقافة حتى عند الجماعات الغابرة في القدم، والمجتمعات التي كانت تسمى (البدائية)، إذ وعلى الرغم من عدم امتلاكها للنظم التعليمية، إلا أن هذا لم يمنعها من اكتساب ثقافات خاصة بها.

ف"الثقافة ليست علما يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه، وتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه، بما في ذلك العالم والإمام والفنان والحداد والراعي، وهكذا يتركب التاريخ".¹ ومن هذا المنطلق يبرز مالك بن نبي الفرق بين الثقافة والتعليم، فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا التعليم حيث تعتبر هذه الأخيرة المجال الفسيح الذي يزود الفرد بمقومات الحضارة.

وبناء على ذلك "فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة؛ أي: استخدام الملكات الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص. أما العلم فما هو سوى بعض نتائج الحضارة؛ أي: إنه مجرد جهد تبذله العقول حين تستخدم في عالم الأشياء. فالأولى تحررنا وتقحمنا كلية في موضوعها. أما الثاني فإنه يقحمنا جزئيا في مجاله. والأولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنساني، والآخر يخلق علاقات بيننا وبين نظام الأشياء".² واستخلاصا لما ذكر، فإنه يظهر جليا التمييز الذي وضعه بن نبي بين الثقافة من جهة، والعلم والتعليم من الجهة الثانية، حيث أكد على أن الثقافة مرتبطة بعالم الأشخاص، في حين أن العلم متعلق بعالم الأشياء.

فالتجربة التي مر بها بعض الطلبة الجزائريين في المدارس الفرنسية في النصف الأول من القرن العشرين، بيّنت لنا بأن المثقف الجزائري كان أقل فاعلية من أقرانه الأوروبيين واليهود. فالمعينة الأولى تظهر لنا بأن المردودية الاجتماعية أو فاعلية الفرد لم

¹ المرجع السابق، ص 85

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق-سوريا والجزائر-

الجزائر، 1986، ص 96

تكن في مستوى مواقفه الشخصية، وهذا ما يؤكد بأن المدرسة والتعليم لوحدهما لا يمكنهما تسوية مشكلة الثقافة، فالحل مرهون بشروط أخرى أوسع وأشمل.¹

4- ثقافة الفعالية وثقافة اللا فعالية:

تظهر نتائج الفعالية في بعض الحالات، عندما يجد مجتمعا متطورا وصناعيا نفسه أمام ظروف تاريخية خاصة واستثنائية، مجبرا للرجوع إلى وسائله الأولية بعدما افتقد وسائله المتطورة نتيجة لعوامل خارجية، من أجل إعادة البناء، أي إلى الإنسان، التراب والوقت. وكمثال على ذلك فقد وجد الشعب الألماني نفسه بعد هزيمته نهاية الحرب العالمية الثانية مفتقدا لجميع الأبعاد، وخاصة سيادته السياسية، فلم يجد سوى أفكاره وسواعد أبنائه لمواجهة هذه المشاكل، وبتعبير آخر سوى طاقته الحيوية وثقافته الخاصة.² وفي توضيحه للفرق بين الثقافة والتعليم وأولوية أي منهما في خلق وبعث الفعالية ونبثها في نفسية الأفراد، يعقد بن نبي مقارنة بين طبيين، أحدهما مسلم والآخر غربي، حيث يجمع بينهما المستوى التعليمي وتفرق بينهما الثقافة. فعلى الرغم من أن تكوينهما العلمي والتعليمي واحد، بل قد يتفوق الطبيب المسلم على قرينه الغربي في مجال التخصص، غير أن ذلك لم يتح للأول بأن يكون أكثر فاعلية، على عكس الطبيب الغربي الذي يتميز بأكثر فعالية وفاعلية. وبناء على ذلك ففعالية الأفراد هي نتيجة للوسط الثقافي الذي يتربى وينشأ الفرد فيه، لا إلى المستوى التعليمي الذي يحوزه. فدرجة الفاعلية والفعالية هنا راجعة إلى البيئة الاجتماعية المختلفة التي ينتمي إليها الطبيب، أحدهما ينتمي إلى بيئة اجتماعية وثقافية فعالة والثاني ينحدر من بيئة اجتماعية غير فعالة. وتبعاً لذلك فإن الأمر سيكون مختلفا تماما إذا ما قارنا بين طبيب غربي وراعي ينتمي لنفس الثقافة فإننا سنجد بأنهما يتميزان بنفس الفاعلية والفعالية على الرغم من الفارق الكبير بينهما في المستوى العلمي والتعليمي.

¹ Bennabi Malek, Le problème de la culture, Editions El Borhane, Algérie, 2006, p 38-39.

² Ibid, p 35-36.

وتماشيا مع ما تم ذكره فإن الثقافة بوصفها مشكلة أفكار بالدرجة الأولى مرتبطة بصفتين رئيسيتين على المستوى الواقعي: الفعالية واللافعالية، وهذا يعني أن السلبية تظهر في الثقافة طبقا للظروف المادية والمعنوية المحيطة بها وفق أي مرحلة من مراحل تطور المجتمع.¹ فالمعادلة التي تحدد الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا، هي التي تعطي له كل قيمته بوصفه صانعا للتاريخ، وهي التي ينبغي أن يتصحح معناها في أذهاننا، وهذه المعادلة هي التي تحدد لا فاعلية الإنسان وسلبيته أو فاعليته وإيجابيته، وهي التي يكتسبها من البيئة الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها، عبر عمليات الاستدماج والامتصاص للقيم الثقافية وعمليات التمثل والاستبطان النفساني.²

فالإنسان بوصفه كائنا اجتماعيا تتحدد فاعليته بمحيطه الاجتماعي، فمن خلال شبكة العلاقات الثقافية في ذلك المحيط يتم تحديد فاعليته، ولهذا فإن فعالية الأفراد تبرز من خلال اختلاف مواقفهم تجاه أحداث معينة، وبالتالي أمام المشكلات الناجمة عنها، والفعالية هنا هي النتيجة المباشرة التي ينتظرها المجتمع من الثقافة المتبادلة بين الفرد والمجتمع، وهي بمثابة (المحصول الاجتماعي)، وهي تعتمد خاصة على المحيط الاجتماعي، والبيئة الثقافية التي يعيش فيها الفرد أكثر مما ترتبط بقدرات الفرد الشخصية، ولهذا لا يتوقع مالك بن نبي من المدرسة أن توجد الفعالية لدى الشخص؛ لأن الفرد هنا لا يدين بصفاته الاجتماعية لتشكيله المدرسي، ولكن لشروط خاصة بوسطه الاجتماعي والثقافي.³

وفي توضيحه لمعنى الفعالية واللافعالية، يرى بن نبي أنه على الكاتب الملتزم إن أراد أن يكون فاعلا وفعالا وسط الحياة الاجتماعية، عليه بالابتعاد عن الانتماء للأطر التقليدية الضيقة كالأحزاب السياسية. فالمثقف والكاتب، إن أراد أن يقوم بمهمته

¹ نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 114

² الطاهر سعود، التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، دار الهادي، بغداد-العراق، 2006، ص 208

³ نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص 115

على أحسن وجه فعليه أن يكون وحيدا وحرا.¹ فالكاتب الذي يعنيه هنا هو المثقف الجزائري الذي كان ينشط في النصف الأول من القرن العشرين إبان الفترة الاستعمارية. وهذا ما ذكره حينما قارن بين المثقف المسلم (الجزائري) والمثقف اليهودي في موضوع الثقافة والتعليم ومستوى ودرجة الفاعلية والفعالية.

5- العناصر التركيبية للثقافة:

يعتبر بن نبي أن الثقافة ليست معطى جاهز، وإنما هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق، الجمال، المنطق العملي والصناعة. وتفسيرا لذلك يرى المفكر بأن الثقافة هي مركب معقد ومتكون من أجزاء فرعية ذات صلات وعلاقات ضرورية، ومن ثم لا يمكننا الحديث عن الثقافة في ظل غياب فرع من فروعها أو إهمال جزء من أجزائها، لأنها كل متكامل ووجود الكل (الثقافة) يقتضي بالضرورة تواجد وترابط جميع الأجزاء المكونة لها.

ومن هذا المنطلق فإن الثقافة في صورتها الحية، هي وحدة ذات أجزاء مترابطة ومتماسكة فيما بينها بروابط داخلية تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه وأذواقه وتاريخه.² ومن هنا يؤكد بن نبي بأنه لا يمكن تصور مفهوم ومعنى للثقافة في ظل فقدان عنصر من عناصرها المعنوية والروحية أو المادية، أي الأفكار أو الأشياء. وهنا يظهر اختلاف المفكر عن غيره من المفكرين الغربيين الذين تناولوا موضوع الثقافة، أين يحصرها فريق في البعد الفكري والروحي فقط، في حين يربطها الفريق الآخر في بعدها المادي فقط.

ومن هنا فإن مشكلة الثقافة لا تكمن في الفرد، ولا هي ترجع إلى المجتمع بل هي تكمن في العلاقة التي تربطها ببعضها البعض، ولهذا فإن المظاهر الثقافية لن

¹ Malek Bennabi, Colonisabilité, articles de presse réunis, choisis, annotés et préfacés par Abderrahmane Benamara, Editions Dar El Hadhara, Alger, 2003, p111

² مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص100

تفيد من يريد أن يبني ثقافة في مجتمع خلو من الثقافة والهدف، وبالتالي فإن أي تعريف للثقافة لا يراعي الوسائل اللازمة لتركيبها في ذلك المجتمع هو تعريف لا يفيد، ولهذا لا بد من تعريف يسمح بتركيب الثقافة في جميع الظروف.¹

أ. المبدأ الأخلاقي: إن جميع المبادئ الأخلاقية، دينية كانت أو لا دينية إنما تنتهي إلى هذا الأساس المقدس الذي يرتفع فوقه بناء الإنسانية الأخلاقي، كما أنه هو الذي يؤمن نشاطها المشترك.² وتنطوي وجهة النظر هذه على أن المبدأ الأخلاقي هو الركيزة الأساسية والدعامة المركزية، والتي لا يمكن لأي مجتمع أو جماعة أن تستغني عنه في بناء وتشكيل ثقافتها الخاصة.

ب- الذوق الجمالي: إن الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولد من الصور المحسنة الموجودة في الإطار الاجتماعي فتعكس في نفس من يعيش فيه، وهنا تصبح صوراً معنوية يصدر عنها تفكيره، فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على أشكال وألوان وروائح وأصوات، يوحى للإنسان بأفكاره ويطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل أو القبح المستهجن.³

وتماشياً مع هذا يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل وتوخياً للكرام من العادات، ويتم ذلك بواسطة الذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد.⁴ واستناداً إلى هذا يظهر التكامل بين المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي، حيث يدفع الأول إلى غرس القيم الجمالية وتنمية الأذواق في نفسية الأفراد، وبالمقابل يؤدي الثاني (الذوق الجمالي) إلى الارتقاء والسمو بالقيم والمعايير الأخلاقية.

ج- المنطق العملي: هو الكيفية التي يرتبط فيها العمل بوسائله ومقاصده، وذلك

¹ مالك بن نبي، حديث البناء الجديد، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر، بيروت-لبنان، دت، ص 25

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 95

³ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 82

⁴ المرجع نفسه، ص 82

حتى لا يكون هناك استسهال أو استصعاب شيء دون مقياس، وتبعاً لذلك فالمنطق العملي يستمد معاييرهِ من الوسط الاجتماعي وما يحتويه من إمكانيات.¹ أي: إن المنطق العملي بالمفهوم (البنائي) هو ترشيد الوسائل والإمكانيات وفق الأهداف والغايات التي يحددها المحيط الاجتماعي حسب مقاصده.

د- التوجيه الفني أو الصناعة: مفهوم الصناعة هنا ليس بالمعنى الضيق للكلمة، بل هو مفهوم واسع، حيث يشمل كل المهن والفنون والقدرات، كما أن تطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة. بل حتى حرفة الراعي نفسها لها على الرغم من أنها تبدو للبعض على أنها مهنة زهيدة ومتواضعة، في حين أن المجتمعات المتقدمة تعير اهتماماً كبيراً لها وتمنحها مكانة وقيمة اجتماعية.²

واستخلاصاً لذلك فإنه لا يمكننا تصور وجود صناعة وفنون وأذواق جمالية بلا أساس أخلاقي؛ لأن الصلة جد وثيقة بين كل هذه العناصر، والتي يعتبر المبدأ الأخلاقي أساسها الأول؛ لأنه لو تم إلغاء فالنتيجة المباشرة ستنعكس على باقي العناصر؛ أي: إذا تم إلغاء الأساس الأخلاقي واستبعاده فهو بالضرورة إلغاء للعناصر الأخرى واستبعادها.

6- التجارب الاقتصادية والتنمية التي تأثر بها مالك بن نبي:

شهد النصف الأول من القرن العشرين أحداثاً عالمية كبرى، وعلى رأسها الحربين العالميتين الأولى (1914-1918) والثانية (1939-1945)، هاتان الحربان كانتا نتيجة حتمية للتطور العلمي والاقتصادي التي شهدها العالم الغربي، وهذا ما أدى إلى ظهور الصراع بين القوى المتنافسة حول التوسع لضمان المواد الأولية والنفوذ في البلدان المستعمرة. هذه المرحلة هي التي عاشها وشهدها المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905-1973)، وهذا ما جعل منه شاهداً على العصر،

¹ المرجع السابق، ص 85

² المرجع نفسه، ص 88

كما جعل منه مفكرا متميزا نتيجة لاستفادته من هذه التجارب.

6-1- التجربة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية:

إن ألمانيا -بعدها تعطلت تماما سفيتها في نهاية الحرب العالمية الثانية- أقلعت بمقدار 45 ماركا للرأس فقط. لكن الاستثمار الحقيقي كان في رأس كل مواطن ألماني وفي عضلاته، وبصورة أشمل وأدق كان في تصميم الشعب الألماني، وفي التراب الألماني على الرغم من فقره، وعلى الرغم من أنه كان محتلا.¹

إذ لم يكن مشروع (مارشال) الاقتصادي السبب الرئيسي في نهضة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وإنما كان أحد المنشطات لعملها الجبار، في تلك التجربة الرائدة المعبرة عن إرادة حضارة، استطاع بفضلها الشعب الألماني استعادة مكانه الذي يفرض وجوده في عالم الاقتصاد، بصورة تجعل المراقبين ينعنون هذه التجربة بـ (المعجزة).²

فهذه التجربة ليست خاصة بـ (الدم الألماني)؛ أي: العرق كما يعتقد (روزنبرج)، بل هي معجزة تتكرر كلما تحرك النشاط البشري على أساس إرادة حضارية، كما تكررت فعلا في أقصى بلاد الشرق، تجربة اليابان الرائعة التي لم تعد هذه الدولة إلى مركزها الدولي قبل الحرب، بل أصبحت تحتل اليوم الرتبة الثالثة في العالم اقتصاديا. فـ (المعجزة) إذن لا تتوقف على حقنة مالية لأن اليابان لم يتلق أي حقنة من نوع (مشروع مارشال)، ولا تتوقف المعجزة أيضا على العرق لأننا ما نعلمه أن الشعب الألماني من عرق آري.³

6-2- التجربة السوفياتية بعد الثورة البلشفية:

لعله كان (للاستثمار المالي) أثر كحقنة سيروم تقوي جهازا لا زال ضعيفا في

¹ مالك بن نبي، 2002، بين الرشاد والتهيه، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق - سوريا، ص 172

² مالك بن نبي، 2000، المسلم في عالم الاقتصاد، الطبعة الرابعة، دار الفكر، دمشق - سوريا، ص 70-71

³ المرجع نفسه، ص 71

النهضة الصناعية، التي قامت في الاتحاد السوفيتي بعد ثورة 1917، مهما كان في هذا الاحتمال من ضعف بعد أن أعلنت الثورة إلغاء جميع القروض الأجنبية، ولكن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن (الاستثمار الاجتماعي) قد حقق ما سماه لينين الاقتصاد الجديد NEP، وهو الذي سيّد الاتحاد السوفيتي.¹

فعندما نرى الاقتصاد الروسي ينجح بعد 1917، فهذا لا يعني أن آلات جديدة بدأت تنتج في روسيا، بقدر ما يعني أن شخصية جديدة بدأت تنتج، أي تنسيقا جديدا لحركات العقل واليد والمال بدأت تظهر آثاره المحسوسة، فنجاح العامل السوفيتي (استاخانوف) في إنتاج الفحم الحجري يعني أولا وقبل كل شيء ظهور شخصية جديدة تمتاز بفعالية أكثر من الإنسان الروسي (Moujik) الذي كان قبله.² وهذا الاختلاف يعود إلى أن المستوى الثقافي أو الحضاري الذي كان عليه الإنسان الروسي، لم يكن يدعو إلى تغيير كبير في نفسه، وإنما في محيطه الاجتماعي، بينما كان مستوى الإنسان الروسي قبل الثورة يدعو إلى تغيير عميق في معادلته الشخصية قبل كل تغيير خارجي. وهذه الملاحظة لها قيمتها بالنسبة إلى تشخيص المشكلات وكيفية مواجهتها، فالطفل لا يشعر بها، وإن واجهها فإنه يواجهها بمنطق الأشياء لا بمنطق الأفكار. فعمر الإنسان الروسي كان عمر الطفل من الناحية النفسية، فكان على الثورة أن تغير منطقته الاجتماعي، بتغيير معادلته الشخصية.³

وعليه فعمليا يجب أن تسير النظرية الاقتصادية جنبا إلى جنب مع النظرية السياسية، كيما تحيل المبدأ النظري إلى قانون للعمل والنشاط، فتضمه بذلك إلى دوافعه وإلى نسقه وأسلوبه. ولقد تكوّن علم الاقتصاد الاشتراكي على يد ماركس وانجلز. ولكن تأثيره بدأ مع تكوين الضمير الاشتراكي منذ ثورة أكتوبر 1917،

¹ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 193

² مالك بن نبي، 2009، تأملات، الطبعة التاسعة، دار الفكر، دمشق - سوريا، ص 59

³ نفس المرجع، ص 60

فلقد صب نشاط لينين ومدرسته مبدأ الاقتصاد الاشتراكي في الشعب الروسي، وفي عقليته، وفي حركته وديناميكيته. فالاقتصاد الاشتراكي إذن هو ثمرة التوفيق بين علم وهو العلم الماركسي وبين (ضمير) هو وعي الطبقات. من غير أن نصدر هنا حكما مطلقا، أي حكما على هذا التوفيق كقيمة إنسانية وإنما كقيمة اقتصادية، فإننا نقرر أنه هو الذي ولد ما يسمونه بـ (الطفرة الإنتاجية (Economie de choc).¹

6-3- التجربة الصينية بعد الثورة الثقافية:

إن الصين الحديثة، صاحبة المعجزة الكبرى في هذا القرن، خرجت من العدم فتحوّلت معالمها، كما حولت، من أجل بناء سدودها وطرقها، المليارات المكعبة من التراب، لا بالآلات الحافرة والناقلة، المفقودة في بلد في مرحلة النشوء، ولكن بفضل سواعد أبنائها وعلى أكتافهم. تحذوهم الأسطورة المعبرة عن طاقة الإنسان عندما تحركه إرادة حضارية، فتذكروا أن جدّهم (يوكنج) حوّل الجبال. وإذا دلت هذه الأسطورة على شيء، فإنما تدل على استقلال العمل، استقلالا مبدئيا بالنسبة إلى المال، الذي كثيرا ما يتحول من مجرد (مدخرة) لتخزين العمل، يتمرد عليه ويصبح سبّاجه فلا تعود فائدته على صاحبه، بل على صاحب السجن.²

يضرب لنا مالك بن نبي مثالا عن الصين حيث إن "هكذا نلمس الرباط الحيوي بين اقتصاد القوت واقتصاد التنمية للبلدان النامية؛ إنما اختيار أي الطريقتين يفرض نتائجها بأكملها، خصوصا في تخطيط العمل والتوزيع، إذ لكي نحرك السواعد كلها لا بد أن نوفر القوت لسائر الأفراد. وذلك يعني في المخطط أولا، إنتاج أقصى ما يمكن من الغذاء، لتوزيعه على أليق صورة، بين ما يخزن للاستهلاك وما يوفر للتصدير في نطاق مقتضيات التنمية".³

¹ مالك بن نبي، 2012، فكرة الإفريقية الآسيوية، الطبعة الثامنة، دار الفكر، دمشق، ص ص 158-159

² مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص ص 71-72

³ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 187

ويضيف بن نبي قائلا "إذا ما كان لنا درسا نستخلصه من تجربة الصين، فإنما هو أن المعارك الاقتصادية عندما تدور رحاها، فهي تدور حول قطب القيم الأخلاقية، وإن وسّعنا المصطلح قلنا: حول القيم الثقافية.¹

6-4- التجربة الإندونيسية بعد الاستقلال:

لماذا أخفق تحقيق الدكتور (شاخ) في إندونيسيا، مع أنه صادر من عالم اقتصاد أجدر فقد نجح تماما المشروع الألماني تحت إشراف الدكتور (أهرارد)، بعد الحرب العالمية الثانية، أي في السنوات نفسها، مع اختلاف الظروف الأخرى من وجوه عديدة اختلافا يؤكد وجهة نظرنا.² فإن مشروع الدكتور (شاخ) أخفق في إندونيسيا؛ لأن هذا الاختصاصي أهمل جانبا هاما في العملية الاقتصادية، وعاملا أساسيا فيها، ألا وهو الإنسان، فقد خَطَطَ مشروعه المذكور على ضوء معلوماته عن الإنسان الألماني، الذي يحمل في معادلته الشخصية معطيات تجربة اجتماعية سابقة، بينما لا يجد إنسان إندونيسيا في طوره الحاضر هذه المعطيات في معادلته الشخصية.³ وتفسيرا لذلك فإن المجتمع الإندونيسي عاش في أواخر الأربعينيات تجربة اقتصادية من تخطيط الاقتصادي الألماني (شاخ)، غير أن فشل مخططه لم يكن ليتوقعه، لم التزم فيه من دقة فنية من ناحية، ولم توافر في نظره من وسائل مادية وبشرية كفيلة بتحقيقه، في رقعة تمتلك كل الإمكانيات المادية والبشرية.⁴ ولا شك أن (شاخ) وضع مخططه على الشروط التي يقدمها الشعب الألماني مباشرة وبطريقة آلية أثناء مرحلة التطبيق، ثم إنه لا شك طبّق هذه الشروط آليا في التجربة الإندونيسية، فتعثرت هذه التجربة بسبب مخططها (شاخ) في تقدير المعطيات

¹ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص 83

² مالك بن نبي، تأملات، المرجع السابق، ص 57

³ نفس المرجع، ص 58

⁴ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص 90

البشرية في المجال الاقتصادي؛ لأن ذهنه يحمل لهذه المعطيات صورة واحدة تطبق في أي تجربة تجري داخل ألمانيا أو خارجها.¹

-التكتلات الاقتصادية وضرورة تشكيل لكتلة المواد الأولية:

7-نحو اقتصاد متجاوز للأقطار:

يؤكد بن نبي بأنه يجب على البلاد العربية بوجه خاص أن تعيد النظر في تنظيم حياتها الاقتصادية، على شروط تحقيق حلقة اقتصادية كاملة داخل حدودها، متخذة أساسا شروط الاستثمار الاجتماعي في إطار المسلمتين ربما يكون تطبيقهما في مجال الوطن الواحد، على درجة من الصعوبة، ولكنها تنخفض بقدر ما تتسع رقعة التطبيق. فأمريكا لا تستطيع تحقيق شروط الحلقة الاقتصادية الكاملة بنسبة 95% لو افترضنا أنها فقدت بعض ولاياتها: فأى تغيير في الخريطة الطبيعية- الإمكانية لوطن يغير قطعاً شروط تطبيق المسلمتين: كل فم يأكل، وكل ساعد يعمل.²

ويضيف أن في استطاعة العالم العربي أن يعيد للتراب وظيفته الاقتصادية، حتى في الميدان الفني إذا قُرّر من ناحية أخرى استرجاع العقول العربية المغتربة لأسباب مختلفة، منها الأسباب الثقافية التي تتصل بفقدان المصوغات بشد العزائم ورفع الهمم، إلى مستوى المسؤوليات المنوطة بالعلماء والمثقفين، في نطاق مشروع شامل تتحد فيه الأيدي والعقول والأموال في الرقعة العربية، أو في أكبر جزء ممكن منها بقدر ما تكتمل فيه شروط اقتصاد التكامل، حتى يستأنس الناس والقادة خاصة، بأن الأوطان لا تستطيع مواجهة الظروف الاقتصادية العالمية بمفردها، تستطيع الصمود لها والنمو، إذا تكاثفت عقولها وأيديها وأموالها في ورشة عمل مشترك من أجل اقتصاد متحرر لا يخضع للضغط الخارجي.³

¹ المرجع السابق، ص 91

² نفس المرجع، ص 101

³ نفس المرجع، ص 102

ومن بين الظواهر المعوقة لنمو الاقتصاد في الدول المتخلفة هو (إبقاء الاقتصاد في نطاق قومي محدود)، فالقومية الاقتصادية كالقومية السياسية فات أوانها بتأثير الحقائق الراهنة، لأن الاقتصاد يتطور نحو الاشتراكية القومية في الداخل والاشتراكية الدولية في الخارج... فلا اشتراكية لا يجب أن تفسر تفسيراً مذهبياً، بل هي في الحقيقة جعل وسائل الإنتاج في حوزة الملكية الجماعية بحيث تُدار لصالح المجتمع كله (مقولة لنهرو).¹

وعليه فإذا كانت هذه الصيغة في صورة سوق عربية مشتركة، فإن أصحابها سيجدون قطعاً في النموذج الأوروبي دلالات مهمة، خصوصاً من حيث فكرتها المبدئية التي حركت الهمم، عندما وجدت الدول الأوروبية نفسها، بعد الحرب العالمية الثانية، أمام كتلتين عملاقتين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. إن الواقع الاقتصادي في القرن العشرين، يدل على أن المنظمة الاقتصادية الكلاسيكية لا تستطيع في حجم الوطن، جمع الوسائل الكافية لتنمية هذا الوطن، وبالتالي فإنها لا تستطيع المنافسة في السوق العالمية أمام الكتل الاقتصادية المتكاملة.²

8- كتلة المواد الأولية لمواجهة الكتلة النقدية:

يمكن للدول المتخلفة أن تنشئ في مواجهة (الكتلة النقدية) (كتلة المادة الأولية). وبعبارة أخرى، إذا كان مبدأ الاقتصاد الموحد صادقاً في الميادين الزراعية والصناعية في الاقتصاد الأفرو آسيوي، فإنه أيضاً صادقاً في ميدان المواد الأولية لمواجهة الاستراتيجية المالية للتروست بصورة فاعلة، وبصفة عامة لمواجهة إرادة القوة، خاصة إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لعلاج بعض ألوان الشذوذ العرضي في سوق المواد الأولية.³

¹ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 168

² مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 165

³ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 172

وتبعاً لذلك فإن العالم الثالث في حاجة ملحة إلى تشريع متقن، يُطبق بطريقة قهرية وبإتقان بين البلاد النامية، لفرض نظام ضروري لمصلحتها في سوق المواد الخام؛ تطبيقاً يكون معه (مصرف المواد الخام) هيئة تنسيق، وفي الوقت نفسه محكمة تُدين كل مخالفة للقانون المقرر، أي تحكم في كل حالة تنشأ فيها أزمة) سوق سوداء تعتدي علينا؛ من الخارج، وهذا أشبه بمزاومة المركب الكيميائي للمادة الخام إضراراً بنا، أو من الداخل بسبب سوء التصرف.¹

وفي هذا الإطار فإن كل محاولة تنمية ما هي إلا سراب، وكل تبادل اقتصادي تفرضه سلطة العملة فهو إجحاف. إنه ليس تحت تصرف العالم الثالث وسيلة تساعد في الوضع الراهن على تنفيذ برامج تنمية سوى المواد الأولية التي يمتلكها، فإذا كانت هذه المواد في السوق العالمية رهينة البورصات تصبح خطط التنمية صعبة أو مستحيلة.²

9-النظم الاقتصادية وضرورة إيجاد البديل الاقتصادي:

الاقتصاد في الغرب صار منذ قرون خلت ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية، وقانوننا جوهرياً لتنظيمها. أما في الشرق فقد ظل على النقيض من ذلك في مرحلة الاقتصاد الطبيعي غير المنظم حتى إن النظرية الوحيدة التي تناولت تأثير العوامل الاقتصادية في التاريخ، وهي نظرية ابن خلدون قد ظلت حروفاً ميتة في الثقافة الإسلامية، حتى نهاية القرن الأخير. فلم يقبل المجتمع الشرقي تحت تأثير احتياجاته الداخلية على وضع نظرية اقتصادية كما حدث في المجتمع الغربي، حين وضع الرأسمالية أو الشيوعية.³ والسبب في ذلك راجع إلى أن المرحلة التي عاشها ابن خلدون كانت مرحلة خروج حضارة عربية إسلامية من التاريخ، وإعلان بداية حضارة غربية.

¹ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 152

² نفس المرجع، ص 150

³ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 156

ولأجل ذلك فإنه لم يُقبل على هذا بسبب ما انطوى عليه من نفسية خاصة منعقدة على (الزهد) كمثل أعلى منذ قرون، وإن فقها اقتصاديا يستلهم خطته ومفاهيمه من مثل كهذا، ويصدر عنه لا يمكنه بدّاهة أن يعبر بالدقة نفسها عن فكرة (المنفعة) الخاصة بالرأسمالية، أو عن فكرة (الحاجة) الخاصة بالنظرية الماركسية، فالزهد والمنفعة والحاجة ثلاث حقائق لا يمكن أن تدخل في اطراد اجتماعي واحد، وفي واقع اقتصادي واحد. فقد كان إذن عنصر تنافر أساسي بين الأوضاع الشخصية الموروثة في البلاد الأفرو آسيوية وبين التكوينات الاقتصادية التي وضع أسسها العصر الاستعماري.¹

ففي الاتجاهين كليهما نراه في محاولة تركيب روح إسلامية على جسم أجنبي يرفضها وترفضه؛ لأنه حتى في تجربته الاشتراكية المطبقة في بعض البلدان العربية، فهو يحاول تسخير جسم مفصول عن (روحه الشيوعي).² وهذا ما دفع بن نبي للاجتهاد بغية التخلص من التبعية سواء في شكلها الإيديولوجي أو نموذجها الاقتصادي، وذلك بتأكيده على ضرورة إيجاد النموذج الخاص بالعالم الإسلامي والذي لن يتأتى إلا من خلال الاستثمار في الخصوصيات الأخلاقية والثقافية للمجتمع.

9-1- النظام الاقتصادي الرأسمالي وعيوبه:

يذهب بن نبي إلى أن الأخصائي المسلم وهو في سعيه لإيجاد وسيلة للإقلاع الاقتصادي، سرعان ما يجد نفسه أمام الكثير من التناقضات والمفارقات، فهو إن جنح إلى الرأسمالية فسرعان ما يصطدم بإباحيتها، القائمة على المبدأ الذي عبّر عنه آدم سميث "دعه يعمل دعه يمر". ولا يصطدم المسلم بإباحيتها فحسب، أي بروحها فقط، بل سيصطدم أيضا بشروطها أو بعض شروطها الفنية؛ لأن الرأسمالية تقتضي استثمار المال بوصفه الوسيلة الوحيدة لدفع عجلة الاقتصاد، وإذا بها تلجأ إلى عملية

¹ المرجع السابق، ص 156

² مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص 45

تجميع الأموال وتركيزها في مؤسسات معينة كالبنوك، لتقوم هي بتوظيفها وتوزيعها في القطاعات الإنتاجية المختلفة، على أساس الربا في عمليتي التوظيف والتوزيع.¹

وإذا بالمسلم الذي اختار هذا يغوص في محاولة تخلص الرأسمالية من الربا، لأنه محرم في شريعته. وكأنه من الناحية الفنية يحاول أن يخلص جسد من روحه، ويرجو أن الجسد سيبقى حيا وسيقوم بمهمته. وإن نجح في إيجاد حل نظري في قضية الربا يطابق الفقه الإسلامي، فيكون كأنه وجد روحا لا يضمه جسد، أو تناقض مع جسده؛ لأن نظام البنوك يرفض هذا الروح وهو يرفضه، فيبقى الحل النظري معلقا عمليا، لأن صاحبه انطلق من أساس مسلّمة استثمار المال بصفته منطلقا للدinاميكا الاقتصادية، دون أن يراجع هذا المبدأ نفسه.²

فترابط الأخلاق بالاقتصاد يكاد يكون منتفيا في الإيديولوجيا الليبرالية الرأسمالية، كما يفيد من جهة أخرى، أنه كلما كان هناك فائض في الإنتاج، كلما كان البلد ناميا، وكلما كانت كفتا ميزانية مجتمع متعادلتي، كان المجتمع راكدا. أما إذا كانت كمية الإنتاج منخفضة، وكان الطلب على الاستهلاك متزايدا باستمرار، كان هذا المجتمع يتجه نحو الانهيار بخطى حثيثة.³ فالغاية الاقتصادية عند مالك بن نبي حتى وإن لم تنفي البعد الربحي غير أنها تتمركز خاصة حول البعد الأخلاقي والإنساني.

9-2- النظام الاقتصادي الاشتراكي وسليياته:

في خضم البحث عن النموذج الاقتصادي الأمثل قد يلتفت المسلم، بعد خيبة أمله في الرأسمالية، في الاتجاه الأخير، في اتجاه الاقتصاد الاشتراكي، لا لأنه يجذب منطلقاته المذهبية غالبا، بل لأنه بعدما شاهد مساوئ الرأسمالية وتناقضاتها أخلاقيا

¹ المرجع السابق، ص 42

² نفس المرجع، ص 42

³ بدر الدين مرزوقي، الأسس الحضارية للظاهرة الاقتصادية في فكر مالك بن نبي، مجلة الحضارة الإسلامية،

العدد 29، 2016، ص 672

وتقنيا مع الفقه الإسلامي، يشاهد نجاح الخطط الاشتراكية في الاقتصاد. وهنا أيضا، يصطدم المسلم مع بعض جوانب هذه الخطط المتعارضة مع الفقه الإسلامي، مثل تحديد الملكية الخاصة أو إلغائها، بقطع النظر عن التعارض الأساسي بين المادية والإسلام، تعارضا أعمق من الليبرالية، أو قضية الربا.¹

إن النظرية الماركسية التي ترد المشكلة الإنسانية كلها إلى العوامل الاقتصادية تغفل بعض الأشياء الجوهرية في الظاهرة الاجتماعية أو تغض عن شأنها. ولكن هذه النظرية صادقة في الحدود التي يمكن أن تفسر فيها الظاهرة الاجتماعية تفسيرا اقتصاديا.² وهنا يكمن الفرق بين التصور (البنائي) للظاهرة الاقتصادية والتفسير الماركسي للمجال الاقتصادي، حيث يقرأ بن نبي الظاهرة الاقتصادية في إطارها الاجتماعي الكلي، في حين يحصرها ماركس في الجانب المادي الضيق.

ويذهب مالك بن نبي في نقده لمفهوم رأس المال بالنسبة للنظرية الماركسية المادية، هذه النظرية التي تجعل من رأس المال هو العامل الرئيسي الذي تدور حوله كل العملية الإنتاجية وبالتالي الاقتصادية. "فتحديد رأس المال ذاته من زاوية أخرى باعتباره آلة اجتماعية تنهض بالتقدم المادي، لا آلة سياسية في يد فئة رأسمالية، كما عاجلها ماركس ومدرسته، وذلك حتى يرتفع من الأذهان الغموض الذي يحيط ببعض المفاهيم الاقتصادية بسبب فهم خاطئ لمفهوم (رأس المال) ناشئ من عدم فهمنا للمعنى الديناميكي لهذا المصطلح العلمي".³

9-3- النظام الاقتصادي البديل عند مالك بن نبي:

يجعل مالك بن نبي من التوجيه المنهجي للعمل شرطا عاما أولا، ثم وسيلة خاصة لكسب الحياة بعد ذلك، لأن هذا التوجيه — حين يتحد مع توجيه الثقافة، وتوجيه رأس

¹ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص 43-44

² مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 155

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع السابق، ص 110

المال- يفتح مجالات جديدة للعمل.¹ بيد أن الإسلامي الحديث عند مواجهته المشكلات الاقتصادية، نراه بأنه يضيّق على نفسه مجال اجتهاده، بمقتضى مسلّمات ضمنية يمكن حصرها في مسلمتين اثنتين: فهو يفكر أولاً على أساس أن الموجود من المناهج الاقتصادية هو ما يمكن إيجاده. والمسلمة الثانية تعتبر أن النشاط الاقتصادي لا يمكن من دون تدخل المال، سواء في صورة استثمار، تنظمه وتشرف عليه قطاعات خاصة أو استثمار تسيطر عليه سلطة سياسية، فيما يسمى بالقطاع العام.²

9-3-1-المعادلة الإنسانية:

إن فعالية العوامل الإنسانية البسيطة ليست مضمونة في سائر الظروف. فهي مشروطة بظروف تاريخية ونفسية معينة، يمكن أن نحددها سلبياً فنقول: إن هذه الشروط لا تتحقق في مجتمع لا يزال في مرحلة الطفولة، أي لا زال مرتبطاً بمنطق الأشياء، يعيش في المرحلة التي نطلق عليها ما قبل الحضارة. وهكذا يمكننا أن نحدد التخلف بعد أن حددناه بأرقام متوسط الدخل السنوي، على أنه الحالة الاجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة، الإنسان الذي يضع مشكلاته في حدود الأشياء.³

ولتوضيح أهمية العامل الإنساني يعقد مالك بن نبي هذه المقابلة بين العامل الإنساني والميدان الاقتصادي

الإنسان	الاقتصاد
- اليد والوقت	- وسائل الإنتاج
- عقول	- إطارات فنية
- تركيز العمل	- تركيز رؤوس الأموال

¹ المرجع السابق، ص 108

² مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص 42

³ مالك بن نبي، تأملات، المرجع السابق، ص 61

بالنظر إلى هذا الجدول البسيط يتبين من اللحظة الأولى، أن القيم الاقتصادية المذكورة في العمود الثاني صادرة كلها عن الأسباب المذكورة في العمود الأول، حتى بالنسبة إلى تركيز رؤوس الأموال، إذا لاحظنا أن المال ما هو إلا العمل المخزن في صورة متحركة. فمن الواضح أن الإنتاج الميكانيكي نفسه والإطارات الفنية، وفعالية رؤوس الأموال، وبكلمة أخيرة جميع القيم الاقتصادية، ترتبط من حيث التأثير والفعالية، بمجالات خاصة تتصل بالعوامل الإنسانية.

وتأسيساً على ذلك فإن أي مشورة تهدف إلى وضع نظام اقتصادي أو إصلاح نقائصه ينبغي إذن من حيث المبدأ -ويصعب عند التطبيق- أن تضع في حسابها العناصر الغير اقتصادية، أي في بداية أي تجربة اجتماعية، لا يكون الأمر فقط في أن نحل معادلة اقتصادية، بل أن نكيّفها طبقاً لمعادلة شخصية معينة. وأي تجربة تغفل في بدايتها هذه العلاقة الأساسية لا تكون سوى تجربة نظرية مقضي عليها بالفشل. ولو أردنا أن نستخلص من هذا الكلام نتيجة صادقة لبناء اقتصاد أفرو آسيوي، فمن اللازم أن نفكر في الشروط الفنية التي يتطلبها التوفيق بين معادلة إنسانية معينة خاصة بالبلدان المتخلفة، وبين المعادلة الاقتصادية الخاصة بالقرن العشرين.¹

إن الاختصاصي تكلم لنا عن مقومات الاقتصاد، فذكر وسائل الإنتاج، وسرعة الإنتاج، وعن الإطارات الفنية، وعن تركيز رؤوس الأموال. فأخذنا بهذه المصطلحات بالحرف، وفق معناها في القاموس، وانزلقنا هكذا في التقليد الاقتصادي، وأصبحنا نعمل في الحقل الاقتصادي بوسائل دون وسائل غيرنا لأننا لا نملك وسائلهم، ودون وسائلنا لأننا لا نعرف قيمتها الواقعية، في مشروع جرى تقديره بأفكار تحجرت حين تناولناها، وأصبحت لا تسير مع ظروف حياتنا الخاصة. يجب إذن أن نعيد النظر في القضية على أساس أن وسائلنا ليست في رصيد

¹ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 159

ثروة صناعية مجهزة بكل الطاقات الميكانيكية، وإنما في رصيد ثروتنا الطبيعية المجهزة بالطاقات البشرية.¹

9-3-2- الشروط النفسية والثقافية:

إن الحياة الاقتصادية لا ترتبط فقط بأجهزة ذات طابع فني ومالي وتنظيمي، بل هي قبل ذلك مرتبطة بأجهزة نفسية موجودة في المعادلة الشخصية لدى الفرد الذي يفكر في الخطط والذي ينفذها. وهذه المعادلة ليست من المعطيات البسيطة التي نجدها تلقائياً في الجهاز الميكانيكي الذي نقتنيه لتجهيز مصنع، ولكنها شيء يُكتسب، جنباً إلى جنب مع تكوين ونمو ثقافة.²

فمن اللازم أن نتناول المشكلة الاقتصادية في البلدان النامية عموماً والإسلامية منها على وجه الخصوص من أساسها، أي ابتداء من عناصرها النفسية. وفي هذا المستوى يكون حلها منحصراً في تكوين (وعي اقتصادي) بكل ما يستتبعه في التكوين الشخصي للفرد، وفي عاداته، وفي نسق نشاطه، وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية.³ ليست المشكلة إذن مشكلة مالية بل هي مشكلة نفسية فنية ألا وهي مشكلة (توجيه رأس المال).⁴

وطالما لم تتوضح فكرة الاستثمار في البلدان المتخلفة، وبقيت خاضعة لسلطة المال، فإنها -مهما كان مبدؤها السياسي- لن تكتشف قدرتها الاقتصادية الحقيقية. والمشكلة هذه التي تفرض شرطاً مسبقاً على مشروعات تلك البلدان، ليست في الواقع من الصنف الاقتصادي بالمعنى الضيق للكلمة، ولكنها -قبل ذلك- مشكلة نفسية ثقافية، أو بعبارة أخرى هي من الصنف الإيديولوجي مع توسيع معنى هذه الكلمة. فهذه

¹ مالك بن نبي، تأملات، المرجع السابق، ص 55

² مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 156-157

³ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 162

⁴ مالك بن نبي، مستقبل الإسلام، ترجمة بركات شعبان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا-بيروت-لبنان، ص 76، دت.

البلاد تعيش نتائج صدمة ثقافية تحرمها من حرية التصرف في أكثر من ميدان.¹ ولأجل ذلك فإن مالك بن نبي يعي تمام الوعي بأن الانتقال من التنظير إلى التطبيق الواقعي، ليس عملية أوتوماتيكية سهلة. لهذا يرى ضرورة استيعاب كافة الشروط النفسية والفنية اللازمة، أي أن يكون المخطط واثقا من نفسه، واعيا بحجم التحديات الحقيقية عند تخطيطه الاستراتيجي لمختلف المراحل من أجل الإقلاع الاقتصادي Le décollage économique. فالإرادة الفردية والجماعية إذا تحركت، حوّلت البلد إلى ورشة اجتماعية كبرى، يتعلم أصحابها في طريقها أنه بالإرادة (La volonté) يكتشف الإمكان والقُدرة (Le pouvoir). فالعالم الإسلامي يمكنه من خلال مسلّمة (العمل) أن يتجاوز الرأسمالية أو الاشتراكية شريطة أن ينجز ثورته الثقافية في المكان والزمان، على مستوى عالم أفكاره، عالم أشخاصه وعالم العلاقات الاجتماعية.²

9-3-3-الإرادة الاجتماعية:

إن مبدأ اقتصاديا لا يمكن أن يكون له أثره، ومقدرته التامة على التأثير إلا في الظروف التي يتفق فيها معه تجربة اجتماعية معينة.³ إن وطنا متخلفا لا بد له أن يستثمر سائر ما فيه من طاقات. يستثمر عقوله وسواعده ودقائقه كافة، وكل شبر من ترابه، فتلك هي العجلة الضخمة التي يجب دفعها لإنشاء حركة اجتماعية واستمرار تلك الحركة. وعند ذلك فقط، إذا جاء نصيب من الخارج يضاف إلى الاستثمار العام، فإنه قد يكون حقنة تزيد في قوة جسم تكونت قوته من ذاته، حين اكتشف قوته الاقتصادية الحقيقية.⁴

¹ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 192

² بدر الدين مرزوقي، المرجع السابق، ص 670-671

³ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، المرجع السابق، ص 158

⁴ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، المرجع السابق، ص 196

ففي الميدان الاقتصادي يجب على الدول المتخلفة أن تكتشف قدرتها الحقيقية، التي لا توجد على محور (القدرة المالية)، ولكن على محور (القدرة الاجتماعية). وطالما لم تقم البلدان المعنية بهذه الخطوة من أجل تحريرها النفسي- الثقافي، فإن تحريرها الاقتصادي يصعب أو يستحيل... وعلى ضوء ذلك لا يمكن القول إن ثمة (ظاهرة يابانية) من ناحية، و (ظاهرة صينية) من ناحية أخرى، وإنما هنالك (ظاهرة اقتصادية) واحدة تحققت، طبقاً لشروط ذاتية، في بلدين تختلف إيديولوجيتهما اختلافاً مطلقاً.¹

9-3-4- القيم الروحية والأخلاقية:

يؤكد بن نبي على أن التنمية لا تشتري من الخارج بعملة أجنبية، فهناك قيم أخلاقية واجتماعية وثقافية لا تستورد، وعلى المجتمع الذي يحتاجها أن يلدّها. والتنمية من تلك القيم، إنها لا تُستورد بل تصنع في المكان نفسه.² أي أن عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن أن تكون إلا في إطار الخصوصية الثقافية والاجتماعية لأي مجتمع كان، وخاصة بالنسبة للمجتمعات العربية الإسلامية التي لها رصيد ثقافي وحضاري وأخلاقي يَمَكِّنها من إيجاد الحلول من خلال تفعيل هذا الرصيد فقط.

فالشروط الأولية للإقلاع الاقتصادي تصنف كما يلي: -فلاحته وهي تنقص أو تزيد بدرجة وسائله البدائية. -ما يملك من مواد خام. -العمل المتوقع الذي يمكن تحويله إلى عمل واقع يُعَدّ بالساعات. إن هذا هو سائر الرصيد الاقتصادي لوطن متخلف في ساعة الصفر من إقلاعه. وسائر العوامل الأخرى فهي إضافية: إذ كل قرض أو استثمار يأتي من الخارج لا يمكن أن يكون القاعدة التي يقوم عليها مخطط ما.³

¹ المرجع السابق، ص ص 192-193

² مالك بن نبي، بين الرشاد والتبّيه، المرجع السابق، ص 195

³ نفس المرجع، ص 173

ومن أجل دفع الآلة الاجتماعية في الحركة، يجب أن يقوم التخطيط على مسلّمة مدرجة كمبدأ عام لكل تشريع اجتماعي اقتصادي ألا وهي: (كل الأفواه تستحق قوتها، وكل السواعد يجب عليها العمل).¹ فيما نشير إليه ونلح فيه، فإن المبدأ الذي أشرنا إليه يوضع في بداية الاطراد، ليكون مبدأ فنيا في أساس التخطيط. وعلى ضوء ذلك لا بد لتقنية التخطيط أن تتغير كلها لتكون مطابقة لذلك الأساس، وبالتالي فإننا نقول: إن إطعام سائر الأفواه وتشغيل السواعد كافة في بلد متخلف ليس إلا وهما، إذا ما فكر هذا البلد في استثماره على أساس رأسمالي. أما إذا فكر على أساس ماركسي فإنه مجرد أمنية حلوة.²

ووفقا لرؤيته الشاملة، وانطلاقا من كونه مفكرا مسلما، يتخذ من العصر الأول للإسلام مرجعية ومرتكزا يذهب مالك بن نبي إلى اعتبار المجتمع الإسلامي أجدر من يحقق له وللإنسانية التجربة، التي تعيد إلى عالم الاقتصاد أخلاقته، وتتلافى بذلك انحرافات التي تورطت فيها الرأسمالية، كما ينجو من ورطة الماركسية المادية التي سلبت الإنسان ما يميزه عن الأشياء والآلات.³

10- مفهوم الوقت عند مالك بن نبي:

إن كل عمل من الأعمال يحتاج إلى وقت أو مدة زمنية، كما أن كل إنتاج حضاري يتطلب مدة من الزمن. وحين يكون هناك منطلق في استغلال الوقت تصبح لكل ثانية قيمتها الاجتماعية، وكل عمل مثمر يحتاج إلى الوقت وحسن استغلاله. فأهمية الوقت جد مهمة في الحضارة. لأن عجلة الزمن تسير إلى الأمام ولا تعرف الرجوع إلى الوراء، ومن هنا وجب استغلال الوقت فيما ينفع الإنسان والمجتمع، وفي

¹ المرجع السابق، ص 175

² نفس المرجع، ص 181

³ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، المرجع السابق، ص 83

الصناعة والإنتاج وتحقيق الثروة.¹

إن الدول والشعوب حظوظها متساوية فيما يخص الزمن، سواء كانت متقدمة أو متخلفة، ولكن الفرق يكمن في أين يقضي كل منهما وقته. فالوقت في حياة الشعوب المتخلفة مهملاً، وعلى العكس عند الشعوب المتقدمة التي أدركت بأن الحضارة ما هي إنتاج وسائل حضارية واقتصاد ينمو في أوقات معينة، وبذلك فالوقت لا يذهب هباء في حياة الأمم المتحضرة على عكس الشعوب المتخلفة.²

11- الرؤية الاستشرافية عند مالك بن نبي لظاهرة التصحر والجفاف:

يعتبر مالك بن نبي من السباقين الذين تناولوا ظاهرة الجفاف التي باتت تهدد الغطاء النباتي وتعيق الزراعة في الجزائر، وكنتيجة مباشرة لذلك أصبحت ظاهرة التصحر ظاهرة تهدد الأراضي الصالحة للزراعة. "فالتصحر ظاهرة طبيعية تعمل في صمت، وبصفة مستمرة، زاحفة نحو الشمال، وهذا ما يزيد من حدة الجفاف ونقص التساقط. ولهذا ينتقد مالك بن نبي الحلول السطحية والإدارية التي تركز على نتائج الظاهرة وتتجاهل أسباب تفاقمها.³

وفي ظل الجفاف والتصحر الذي تعرفه المناطق السهبية في الجزائر، يقترح مالك بن نبي استبدال زراعة الحبوب التي أصبح إنتاجها في تناقص مستمر بزراعة (فاكهة الهندي)، هذه الفاكهة التي تتميز بمقاومة الجفاف من جهة، ومن جهة ثانية، نظراً لاستخداماتها في صناعة أنواع من الزيوت، والتي يمكن استغلالها وتصديرها إلى الخارج، وهذا ما يمكن من أن يعود بعدة فوائد على سكان هذه المناطق، والحيلولة دون هجرتهم نحو المدن الساحلية أو التعرض للفقر والمجاعة.⁴

¹ سليمان ملوكي، النظرية الاقتصادية عند مالك بن نبي من خلال ثلاثية: توجيه رأس المال، توجيه العمل ونوجيه الوقت، مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية، المرجع السابق، ص 126

² نفس المرجع، ص 131

³ Bennabi Malek, 2003, colonisabilité, Op cit, p p224-225

⁴ Ibid, p225

كما يؤكد مالك بن نبي على ضرورة إنشاء مصالح خاصة من أجل تجديد التراب وذلك عبر تكثيف عمليات التشجير لخلق التوازن البيئي، وجلب تساقط الأمطار، والذي يؤدي بدوره تجديد الغطاء النباتي ومحاربة ظاهرة التصحر. وينطلق بن نبي في التأكيد على ذلك من خلال استفادته من التجربة الأمريكية في مجال استصلاح الأراضي، والذي غيّر بشكل عميق وجه البوادي الأمريكية في خلال عشرين سنة فقط، ولذلك يرى أنه بالإمكان تطبيق نفس التجربة على التراب الجزائري، أين أصبح فيه الإنسان مهدد بفقدان مصدر قوته اليومي.¹

12- نتائج الدراسة:

- الإنسان هو الرأس مال الحقيقي، والفاعل الرئيسي في إحداث أي نهضة اقتصادية.
- لا يمكن إقامة اقتصاد قوي ومستقل في إطار بلد واحد فقط، بل الاقتصاد القوي يتطلب اتحادات وتكتلات على مستوى عدة بلدان لإحداث التكامل.
- البلدان المالكة للمواد الأولية مطالبة بإحداث بورصات للمواد الأولية للتأثير على أسعار هذه المواد في السوق الدولية.
- لا يوجد نموذج اقتصادي واحد يستلزم تطبيقه لإحداث نهضة اقتصادية، بل الاقتصاد محكوم بشروط نفسية واستعدادات اجتماعية وثقافية هي التي تحدد نجاحه أو فشله.
- الاقتصاد في الإسلام لا يراعي مصلحة الفرد فقط، وإنما يراعي منفعة المجتمع ككل وغرضه الأول أخلاقي قبل أن يكون مادي وربحي فقط.
- الاستثمار الحقيقي هو الاستثمار الاجتماعي، أي الاستثمار في المورد البشري وذلك من خلال توفير القوت للجميع، وبالمقابل الكل يعمل.

¹ Ibid, p233-235

خاتمة

يبقى الفكر (البناي) عامة والاقتصادي منه خاصة بحاجة إلى دراسة ونقد وتحليل عميق، أو بعبارة أخرى بحاجة إلى التثوير بعيداً عن التقديس أو التدنيس. فالنظرية الاقتصادية عند مالك بن نبي لم تكن محاولة للتوفيق ما بين الاقتصاد الماركسي الاشتراكي والفكر الليبرالي الرأسمالي، بل هي محاولة لتجاوز كلا المدرستين، وللتين حتى وإن اختلفتا في الرؤية والتصور إلا أنهما يتفقان حول مادية الاقتصاد بعيداً عن أي خلفية أخلاقية. وما يؤكد ذلك هو الواقع الذي يعيشه العالم جراء النزعة المادية العمياء، فبالنسبة للتوجه الاقتصادي الاشتراكي فقد أظهر عجزه عن معالجة الأزمات الاقتصادية، وفشله في تحقيق الرفاه الاقتصادي للأفراد والمجتمعات على السواء. أما النظام الاقتصادي الرأسمالي فقد زاد في مراكمة الثروة والأموال في يد قلة قليلة من رجال الأعمال على حساب تفكير مئات الملايين من الشعوب، بل أصبحت هذه القلة تتحكم في مصير العديد من شعوب العالم وصانعة لسياسات دول عظمى.

وما يحسب لمالك بن نبي أنه كان سابقاً لعصره، إذ تنبأ بالعديد من الأزمات الاقتصادية التي سيشهدها العالم الرأسمالي والاشتراكي معاً. كما أن ظاهرة التصحر والجفاف التي تشهدها منطقة شمال إفريقيا نتيجة لغياب التشجير ووضع سياسات واضحة وطويلة الأمد، قد سبق وإن حذر منها منذ خمسينيات القرن العشرين، وهذا ما تشهده الجزائر ومنطقة شمال إفريقيا منذ سنوات، وهي في تزايد مستمر.

قائمة المراجع

- 1- الطاهر سعود، التخلف والتنمية في فكر مالك بن نبي، مركز دراسات الفلسفة والدين، المحرر: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد- العراق 2006
- بدر الدين مرزوقي، الأسس الحضارية للظاهرة الاقتصادية في فكر مالك بن نبي، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد 29، 2016
- 3- سليمان ملوكي، النظرية الاقتصادية عند مالك بن نبي من خلال ثلاثية: توجيه رأس المال،

- توجيه العمل وتوجيه الوقت، مجلة العلوم الاقتصادية والتسيير والعلوم التجارية، العدد العاشر، د ت
- 4-مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الرابعة، دار الفكر ودار الفكر المعاصر، دمشق-سوريا، بيروت-لبنان، 1984
- 5-مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سوريا، 1986
- 6-مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، دمشق-سوريا والجزائر-الجزائر، 1986
- 7-مالك بن نبي، حديث البناء الجديد، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر، بيروت، د ت
- 8-مالك بن نبي، بين الرشاد والتّيه، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2002
- 9-مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، الطبعة الرابعة، دار الفكر، دمشق، 2000
- 10-مالك بن نبي، تأملات، الطبعة التاسعة، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2009
- 11-مالك بن نبي، الفكرة الإفريقية-الآسيوية، ط8، دار الفكر، دمشق-سوريا، 2012
- 12-مالك بن نبي، مستقبل الإسلام، ترجمة بركات شعبان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيد، بيروت-لبنان، د ت
- 13-نورة خالد السعد، التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي الطبعة الأولى، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، 1997
- 14- Malek Bennabi, Mondialisme, préfacés par Benamara Abderrahman, Edition Dar El hadhara, Alger- Algérie, 2004
- 15- Malek, Bennabi, colonisabilité, préfacés par Benamara Abderrahman, Edition Dar El hadhara, Alger- Algérie, 2003
- 16- Malek Bennabi, Le problème de la culture, Editions El Borhane, Algérie, 2006

انتزاع فلسطين ومسارات تهوّد الحضارة الأوربية عند مالك بن نبي

د. الطيب الطويل

جامعة قرطاج (تونس)

touilitayeb@yahoo.fr

مقدمة

كشف العدوان الأخير على غزّة (2023-2024) عن تعامل إعلامي أوروبي وأمريكي يعتمد على التعتيم والطمس فيما يتعلق بالمجازر الصهيونية، إعلام ميسّس وموجّه في اتجاه وحيد لخدمة الكيان الصهيوني، وسياسات أوروبية أمريكية تسير في اتجاه مصلحة الصهاينة. وإنّ المتابع للقنوات الغربية للقمريين الصناعيين "آسترا" و"هوتبيرد" يلاحظ أن قنواتها الإخبارية طوال الأشهر الأولى من "طوفان الأقصى" ركزت على تغطيات حصرية لعائلات الأسر الصهيونية الذين تمّ خطف أو قتل أحد أفرادها، والاشتغال على القيام بتضخيم الأثر النفسي للطوفان على المستوطنين، كما حاولوا صناعة ألم للصهاينة بأي شكل من الأشكال إلى درجة أنّ إحدى المقاطع التي تداولتها وسائل التواصل الاجتماعي عن إحدى القنوات الحوارية الأجنبية وهي تنقل حواراً مع إحدى المستوطنات العجائز تقول فيه إنّها خافت كثيراً، كما أنّ كلبها شعر لأول مرة بخوف شديد، وسط تأثر كبير من مقدّم البرامج عليها وعلى كلبها. كان هذا الحوار يمرّ بعد سويغات من حادثة قصف مستشفى المعمداني المساوية.

تشكلت دولة "إسرائيل" عبر الحرب، وبقاؤها أو زوالها مرتبطان بالحرب، وهي تمثّل لعبارة تشارلز تيلي Charles Tilly "الحرب صنعت الدولة والدولة شنت

الحرب"¹، وستبقى الحرب وسياسات الإبادة قائمة من طرفها لأنها أُمِلها وشرعتها الوحيدة في البقاء وسط انتفاء أيّ شرعية أخرى. تفرض قوّتها وهيمنتها على أرض فلسطين المستعمرة وكذلك على هيمنتها الدبلوماسية على مختلف الدول الخليفة التي تجد تقاطعاتها المصلحية مع دول الماضي الكولونيالي التي تبحث عن زبونات مُفترضة لفرض سيطرتها على العالم في مسارات الإذلال الجديدة للشعوب المقهورة فيما أسماه برتران بديع بـ"زمن المذلّولين" في علاقات دولية أسماها بالمرضيّة،² هذه العلاقات القائمة على جانين للعالم، الجانب الحاكم الذي يدير الجانب الآخر ويقوم بإقصائه ثقافيا واقتصاديا وجعله خارج الحوكمة، ويقوم بعض الكبار بجعل الإذلال طقسا ديبلوماسيا مع ما يمثله ذلك من خطورة.³

قامت دولة الكيان الغاصب منذ البداية على نظام الإبادة والفصل العنصري عبر منظومة من التشريعات التي تقوم على نزع ملكية الأراضي وحرمان الفلسطينيين من حقوق المواطنة، وتقييد حريتهم في الحركة والتنقل، وفرض قوانين تهدف إلى تفريق العائلة الفلسطينية وإعاقة التنمية البشرية لهم، وحرمانهم من حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية.⁴ ولقد أدرك الباحثون أن مشروع الدولة الصهيونية قائم على القضاء على السكان الأصليين للبلاد.⁵ هذا المشروع بان جليا في العدوان

¹ Charles Tilly, "Reflections on the History of European State-Making," in: Charles Tilly (ed.), The Formation of National States in Western Europe (Princeton: Princeton University Press, 1975), p. 42

² برتران بديع: زمن المذلّولين، باثولوجيا العلاقات الدولية، ترجمة جان ماجد جبور، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2015، صص 107-122.

³ أحمد قاسم حسين: قراءة في كتاب زمن المذلّولين، سياسات عربية، ع21، 2016، ص132.

⁴ نزار أيوب: نظام الفصل العنصري الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في القانون والممارسة، سياسات عربية، ع64-65، 11 سبتمبر - نوفمبر 2023، ص148

⁵ Faye Sayegh, Zionist Colonialism in Palestine (Beirut: PLO Research Centre, 1965), pp. 22-27

الصهيوني الأخير على غزة حيث اقترب العدوان من الأربعين ألف شهيدا في أقل من ثلاثمائة يوم، في كمّ هائل من الدمار والقتل.

في حضور هذا الدهس للحق الفلسطيني في الأرض وفي العيش، تجعل السياسات الإعلامية الغربية والأمريكية من حقوق الإنسان شعارا مرفوعا للدفاع عن قضايا بعينها، فمثلا تدافع ألمانيا بشراسة عن حقوق "الميم" عبر التثبيت برفع علمه بمونديال كرة القدم بقطر، مع الصورة الشهيرة لفريقه القومي وهو يضع يده على فمه كناية عن عدم السماح لهم بالتعبير عن حقوق "الميم"، كما يحرص الناقل الألماني لمباريات كأس أوروبا على تمرير ألوان الكوير عند تمرير نتائج المباريات. في حين يعتمد الألمان "الميم"؛ أي: الصمت والإيحاء عند تناول موضوع الفلسطينيين الدامي. تُقلب المعايير ليصبح الميل الجنسي حقّا كونيا تُجندّ له الفرق الإعلامية والرياضية، ويصبح التقتيل والتشريد اليومي بالآلاف أمرا هامشيا لا يمكن حتى مجرّد الحديث عنه، كما يصبح الاعتراف بالكيان الصهيوني شرطا للحصول على الجنسية الألمانية. وهذا الكيل بمكيالين والميل غير المشروط إلى الصهانية وما يقترفون مهما بلغ مدى وحشيتهم يدفع إلى التساؤل حول أسباب انبطاح وخضوع حضارة غربيّة إلى السياسات الصهيونية رغم ما وصلت إليه من أفكار التنوير والحداثة وحقوق الإنسان وعن مسارات تحوّل هذه القوى الغربية إلى آلات دعائية وتمويلية لها.

يفسّر المنظّرون تهافت القوى الغربية على المصالح الصهيونيّة بأنه تكريس لمصالح الدول العظمى، وبناء للتحالفات الاقتصادية والعسكرية التي تحتمّ عليها البقاء في صف الأقوى، باعتبار أن ميزان القوى الدولية والإقليمية قد يفرض على الدول التعامل مع بعضها ضمن "نظرية توازن التهديد" التي تركز على أن الدول لا تتعامل مع الدول وفق القوى والطاقات التي تمثلها فقط؛ وإنما وفق التهديدات التي يمكن لتلك الدول أن تمثلها، وبناء على ذلك يتم بناء التحالفات الاستراتيجية لمواجهة تلك

التهديدات،¹ وبما أن الدول العربية والإسلامية لا تمثل تهديدا حقيقيا للقوى الغربية فهم لا يتعاملون معها بنفس الجدية التي يتعاملون بها مع الكيان الصهيوني الذي تمثل قوته مجموعة من قوى عسكرية وديبلوماسية وعلمية ومالية وغيرها.

بيد أن المفكر الجزائري مالك بن نبي تناول في كتاباته مسألة انحدار الحضارة الإسلامية، وتحول شعوب البلدان الإسلامية إلى شعوب "قابلة للاستعمار"، وذلك عبر القيام بتحليل تاريخي وسوسيولوجي للمجتمعات المدروسة، وكيفية تحولها إلى ما هي عليه، وتفكيك مسارات خضوعها أو إخضاعها. ولقد كان له السبق في تناول مسألة اتباع الآلة السياسية الإعلامية والاقتصادية الغربية إلى الجانب الصهيوني، واعتبره أمرا لا علاقة له بالعوامل السياسية الخارجية وموازن القوى، وإنما بتشكيل توجه فكري وسياسي تابع للصهيونية يكون داخل مواقع القرار الأوروبية والأمريكية، دون أن يقوم بالفصل الذي نراه هذه الأيام بين الصهيونية واليهودية، معتبرا أن الكيان الصهيوني قائم أساسا على الفكرة اليهودية كاشفا عن كل ما تشتمله من ميولات توسعية وعنصرية،

ولم يتناول ابن نبي فلسطين بشكل مباشر، كما أنه لم يتطرق إلى جوهر القضية الفلسطينية ولكنه تناول موضوعات على علاقة مباشرة بها يمكننا من خلالها فهم العمق الفكري والتاريخي لتأخر الجانب الإسلامي وانكماشه، وقابليته للاستعمار في مقابل ازدهار الجانب اليهودي وتغلغله في شتى المواقع السيادية الغربية. ويشير بوضوح إلى أن الحضارة الغربية قد "تهودت" وأصبحت تفكر وفقا لتعليمات الدين اليهودي وخادمة لمصالحه، وذلك عبر تغلغل اليهود في كل مواقع التسيير والتفكير في الدول الغربية، وهو ما يفسر ذوبان وتماهي مختلف السياسات الدولية مع الكيان

¹ عرجون شوقي: نظريات توازن القوى في العلاقات الدولية: قراءة في التفرعات النظرية، مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية، م8ع3، صص770-785، جوان 2021.

الصهيوني مهما بلغت لا معقوليّة سياساته وأفعاله.

ولقد تناول ابن نبيّ في الجزء الثاني من كتابه "وجهة العالم الإسلامي، المسألة اليهودية" مسارات تهوّد الحضارة الأوروبيّة وكيفية تمكّن اليهودي من المسك بالآليات المالية والفكرية والسياسية. وهو كتاب فرغ من كتابه سنة 1952 وأوصى بعدم نشره حتى وفاته، حتّى خرج إلى النور سنة 2012، ولقد ذهب البعض إلى أنه أوصى بإخفاء متنه في تلك الفترة لأن الظروف السياسية الدولية تعتبر من المس باليهود أمرا خطيرا خاصة بُعيد الحرب العالمية الثانية، كما أنّ ابن نبي أشار إلى توجسه من القوى الاستعمارية في مقدمة كتابه قائلا: "الاستعمار كثير الحذر من الأفكار، ويعرف مدى قوة الفكرة حينما يواجه خططه بالقوة"¹، ويقول "لقد نلت من الاستعماريين ما أستحق، فأنا في أعينهم لا أسب استعمارهم بل أقتله وهو داخل البيضة، أخنقه في جذوره التي تمتد في مساحة القابلية للاستعمار."² ولعل عزاء ابن نبيّ في إخفاء كتابه أنه أشار إلى أنه لا يكتب لجيله فقط وإنما للأجيال القادمة التي ستستفيد مما يكتب مع مرور الزمن. ويعتبر أن دراسته هذه "هي دراسة خارجية مستقبلية تركز على القضية الإسلامية في إطار القضية العامة التي سوف تأتي."³

ويجيب مقالنا عن الأسئلة التالية: ما هي أسباب الانحدار الإسلامي حسب مالك بن نبي؟ وما هي مسارات تهوّد الحضارة الغربية؟ وهل دحضت الشعوب العربية نظريّة "القابلية للاستعمار"؟

نستشفّ إذن أنّ هذا المقال يتعرّض إلى رؤية مالك بنبيّ إلى مسألة انتشار اللوبي اليهودي في مختلف المؤسسات المؤثرة الغربية، وكيف تمكن اليهودي من توسيع نفوذه المالي والسياسي في مقابل تقلّص وانكماش التأثير العربي والإسلامي في العالم،

¹ مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، المسألة اليهودية، دار الفكر، دمشق 2012. ص 35.

² مالك بن نبي: المرجع السابق، 2012. ص 34-35.

³ ابن نبيّ: المرجع السابق، ص 29.

وتناول مسارات تحول اليهودي إلى كائن مهيمن ومستعمر وتحوّل المسلم إلى كائن مهيمن عليه وقابل للاستعمار.

أولاً: أسباب انحدار العالم الإسلامي وقابليته للاستعمار:

يختزل مالك بن نبي أسباب التخلف الإسلامي في عدة نقاط يعتبرها مفصلية، وهي محصلة لتاريخ طويل من الصراعات الاجتماعية والسياسية والجمود الفكري الذي أدّى إلى انحدار المجتمعات الإسلامية وركونها إلى تبعية ثقافية ومالية أفضت بها إلى تبعية ميدانية عبر الاستعمار العسكري لأراض إسلامية كانت حاضرة ومستعدة وقابلة للاستعمار، حسب نظرية ابن نبيّ الأساسية المتمثلة في "القابلية للاستعمار"، وهي النظرية الأساسية التي أرساها وأحاط بها جملة من المفاهيم التي تدور في فلكها.

- القابلية للاستعمار: وهي تعني أن هناك استعداداً داخل المجتمعات لقبول الهيمنة الخارجية، ويرى ابن نبيّ أن هذا الاستعداد ليس مقتصرًا على القوة العسكرية أو الاقتصادية للمستعمر، وإنما نتاج لاختلال في بنية المجتمع القابل للاستعمار، تجعل منه فاقدا للهوية الثقافية، وقابلا لدخول هوية أخرى عليه. ومن أهم أسباب هذه القابلية، الانحطاط الأخلاقي والقيمي، والتبعية الفكرية عبر الاعتماد على النظريات والمفاهيم الغربية المسقطة لحلّ المشكلات، في حين أن لكل مجتمع خصوصياته ومكوناته الفكرية والاجتماعية. ومما يؤكد على أنه من غير المجدي استعمار بلاد "غير قابلة للاستعمار" حتى إن كانت خارجة من هزيمة عسكرية مدوية، هو عدم محاولة الحلفاء احتلال ألمانيا رغم أنها كانت في حال انهيار تام بعد الحرب العالمية الثانية.¹ كما أنهم لم يحاولوا احتلال اليابان رغم أنها كانت في

¹ شهرزاد لبصير: القابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية م7، ع2، ديسمبر-2022، ص321.

وضع هزيمة تام. فالعوامل التي تؤدي إلى الاستعمار هي داخلية بالأساس، وهي ما أسماها ابن نبي بـ "معامل القابلية للاستعمار" ويقصد بذلك عوامل الضعف الداخلية التي مكنت الأطراف الخارجية من الهيمنة، هذه العوامل الداخلية التي أسهمت في انحطاط الأمة وتبعيتها.¹

يسبق الاستعمار الفعلي للأرض مسار كامل من تغييب لإرادة الشعوب المراد استعمارها، ومسارات لتغييب عمقها الثقافي والحضاري، حتى تكون قابلة للأفكار الواردة من الخارج، والتي تمهد للقبول بالثقافة وتسيدها، ومن إثرها للقبول بشتى أشكال الاستعمار الأخرى ومنها الميداني. فالقابلية للاستعمار يتم مراكمتها حتى تصير في داخل المجتمعات، وهي أشد فتكا بها من الاستعمار الخارجي باعتبار أنها تفقده آليات المقاومة. وكلما وُجدت استجابة داخلية لثقافة الآخر دون قدرة على النقد والتفكير، كلما تراجعت الهوية الثقافية، وتداعى الأمن الثقافي وتراجعت الاستقلالية الذاتية، وكلما ارتفع الوعي المجتمعي كلما زادت الحصانة الثقافية.²

- **الأفكار المخدولة:** يعتبر ابن نبي أن الأفكار مهما بلغت قيمتها، إذا لم يتم تجديدها وتناول عمقها، تؤدي بالضرورة إلى تسطيحها وقتلها، وتتحول بالتالي إلى "أفكار ميّنة"، وتعريفه للأفكار الميتة "هي الأفكار المنسلخة من جذورها"³ وإن تسيّد أفكار ميّنة في مجتمع ما يستدعي بالضرورة أفكارا ميّنة من مجتمعات أخرى، وهو يعرفها بأنّها "النفائات، والجزء الميت من تلك الحضارة.. إذا رأته العقول السطحية في بلادنا فهي تخلط بينه وبين الثقافة الغربيّة". ويقدم مثلا على ذلك

¹ خالد المحاسنة: مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، مجلة الناقد للدراسات السياسية، م6، ع2، 2022، ص15.

² كمال عمتوت: القابلية للاستعمار وتهديدها للأمن الثقافي من منظور مالك بن نبي، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، م5، ع4، ديسمبر 2020، ص356.

³ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص147.

الجندي أو المواطن الياباني في الحرب العالمية الثانية الذي أثبت أن كل الأفكار الميتة في الغرب لم تؤثر فيه وإنما بقي وفيًا لثقافته الأصيلة المتجذرة وهي ثقافة الساموراي، ثقافة استطاع عبرها الذهاب بمقاومته إلى أقصاها عبر "الكاميكازي".

ويطرح بالتالي مسألة "التلقين" في التعليم قائلاً: "إنّ روح التلقين التي تطبع العصر، تؤدي إلى تأكيد خطأ الذي يحمل أفكاراً صحيحة بالمستوى الفلسفي أو الأخلاقي، ثم يموت جوعاً.. فالأفكار تكون صحيحة إذا هي ضمنت النجاح".¹ ويطرح ابن نبيّ مثالا عن وضعيات أو دروس متجذّرة في الثقافة الإسلامية، تمنح الأولوية للبراغماتية والنجاعة الفعلية، وهو مثال شبه مغيب في المناهج التعليمية لم يتمّ التعرّض له، حيث يقول ابن نبيّ: "بعد عودة الرسول ﷺ من إحدى الغزوات في شهر رمضان، وكانت مشقة الصوم كبيرة، نراه يعزو الفضل إلى الذين أفطروا في ذلك اليوم وأشار إلى الحديث الشريف: "ذهب المفطرون بالأجر".² في حالة مماثلة دعا فيها الرئيس الحبيب بورقيبة الشعب التونسي للإفطار للرفع من الإنتاجية يُقال أنّ ردّ الشيخ الزيتوني الطاهر بن عاشور كان "صدق الله وكذب بورقيبة"، وخسر هذا الأخير من ذلك الموقف الذي وجد فيه خصومه مسرباً لتكفيره واعتباره عدواً للإسلام. وبالتالي يُعتبر الجهل أو عدم القدرة على تناول جوهر القضايا سبباً من أسباب التخلف. ويقول ابن نبيّ أن الأفكار المخدولة تنتقم من أصحابها وتجعلهم في حالة ضعف وتخلف وعرضة للانتهاك.

- **الجهل والفقر:** يعتبرهما ابن نبيّ من أهمّ أسباب التخلف المباشر ومن أهمّ العوامل التي تهدم الحضارة، ولهذا دعا إلى التفكير النقدي المبني على الابتعاد عن التلقين والحفظ دون التطرق إلى أصول القضايا. ودعوته إلى اتباع الأفكار

¹ مالك بن نبي: المرجع السابق، ص 111.

² مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص 112.

البراغماتية التي تخدم مباشرة مصلحة الشعوب حتى تتحسن الظروف الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الإسلامية.

- **الصراعات الداخلية:** حيث تمثل الصراعات داخل المجتمع الواحد، أو الصراعات بين دولتين مسلمتين عاملا مساهما في انحدار الحضارة وذهاب ريجها، حيث يقول: "في ظل هيمنة الاستعمار وامتداداته خلف جدار التخلف كانت الجزائر والمغرب يحارب كل منهما أخاه على الحدود التي رسمها الاستعمار".¹

- **التبعية الثقافية:** إن القابلية للاستعمار حسب ابن نبيّ قد تكون ناتجة عن صفات عقلية ونفسية ترسّخت في أمة ما، وهي نتاج لمسار تاريخي يجعلها لا تنجح في فعل المقاومة، وضعية تكون ناتجة عن الشعور بالدونية تجاه الآخر المتفوق حضاريا.² وضع فكري يجعل من المجتمع في وضع وهن، وينظر إلى المجتمعات المزدهرة نظرة الإعجاب، التي تدفعه إلى محاولة الاتباع والافتداء الأعمى، الذي يرسي أسس نظرية التبعية الثقافية. وفي وضع "النكبة" كانت كل الأمة الإسلامية في حالة تبعية ثقافية ومالية وتحت الاستعمار المباشر للدول الأوروبية، التي كان من اليسير عليها اتخاذ قرار تقسيم الأرض الفلسطينية ومنح جزء منها لليهود، الذين نجحوا في السيطرة على مواقع القرار في الدول العظمى.

ثانيا: كيف نجح اليهودي في السيطرة على القرار الغربي؟

يرى ابن نبيّ أنّ اليهودي لا يتغيّر، فأفكاره هي نفسها عبر التاريخ، بيد أنه مر بمراحل عديدة في عملية تغلغله في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الأوروبي حتى وصل إلى مرحلة التأثير الكبرى.

- **اليهودي التائه:** وهو الحائر بين شيئين متعارضين، ذلك الذي يُنظر إليه على

¹ مالك بن نبي: المسألة اليهودية، ص 145.

² شهرزاد لبصير: المرجع السابق، ص 321.

أنه القاتل الأبديّ المسيح وذلك الحامل لوعد الله لإبراهيم وذريته وكونه من شعب الله المختار.¹ كما يقول ابن نبيّ إنّ اليهودي يحمل أيضا في ذاته شخصيتين أُخريّين متعارضتين يتمثلان في التكبر اللامحدود وأيضا في القدرة اللامتناهية على تحمل الإهانة والإذلال، كما أنه يعرف أنه محاط بالكراهية الصامتة والغريزية من الشعب أو الحاكم، ولهذا فهو يوظف نشاطه في خدمة الجيتو الذي ينتمي إليه ويشعره بالأمان.²

- اليهودي المثقف: مع بروز النهضة الأوروبية وبروز نخبة جديدة من المفكرين خارج إطار الكنيسة، تحركت الساحة الثقافية الأوروبية، ويقول ابن نبيّ أن في كل ميدان فكري أو ثقافي حتى في ميدان السحر والعرافة كانت النهضة تبرز اسما يهوديا في مقدمة الأسماء.³ وبالتالي "ساهم اليهود في تكوين الأفكار في أوروبا"، كما أنهم قاموا بإنتاج الكفاءات والطاقات المختلفة في مختلف الاختصاصات الحرفية والفكرية، وذلك بغاية خدمة الجماعة اليهودية في المجتمع الأوروبي، ويضرب في ذلك ابن نبيّ مثلا "صائغ أمستردام" الذي يقدّم جوهرة نبيلة لأحد النبلاء، وهو يكون بذلك قدّم مبادرة تُحسب نتائجها في مصلحة الطائفة ككلّ. ويطرح ابن نبيّ تساؤلا عن السبب الذي جعل المسيحيين يقتلون المسلمين الذين يعظمون المسيح والسيدة العذراء، في حين تمّ الاحتفاظ بالكثير من اليهود الذين يحملون عداوة متأصلة للمسيحية، ويحيب ابن نبيّ عن السؤال بأن اليهود تمّ الاحتفاظ بهم لبناء علاقات مستقبلية، كما أن فيليب الثاني ملك إسبانيا استخدمهم لنقل أمواله إلى لندن وهولندا، ومن هنا بدأت سطوة اليهود المالية.

- اليهودي المواطن: تمكن اليهود من الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها

¹ مالك بن نبي: المسألة اليهودية، ص 60.

² مالك بن نبي: المرجع السابق، ص 61-62.

³ مالك بن نبي: المرجع نفسه، ص 64.

ولكنهم احتفظوا بهويتهم الثقافية والدينية، ولقد أضفى هذا الاندماج إلى تأثيرات مختلفة في المجتمعات المضيفة، وقد أسهم اليهود في تغيير التقاليد المجتمعية الأوروبية عبر الإسهام في ثورتين أولهما الثورة ضد التقاليد والخصوصيات والعادات وثانيهما ثورة في الحياة الثقافية، حتى يتمكن من قلب معايير التراتبية الأوروبية وإيجاد مكان له داخل النسيج المجتمعي الغربي.

تخفى اليهودي في تلك الفترة خلف أسماء غير يهودية حتى يكون غير معروف في عموم سكان المدينة ويمكنه أن يؤدي أدواره التي عليه أن يقوم بها في خدمة جماعته، فيمكنه كما يقول ابن نبي أن يختار لنفسه اسم Durant-Dupont إذا كان اسم ليفي Levi يمكن أن يُسهم في عملية وصمه بالحيثو الذي كان يعيش فيه.

- **اليهودي المودرن:** ويشدد ابن نبيّ على أنّ اليهودي لا يمكنه أن يكون حديثاً لأنه ثابت عبر الزمن ولا يتغير أبداً، وإنما اختار كلمة مودرن للتعبير عن اليهودي الذي حلق لحيته ولبس لباساً حديثاً للدخول في النسيج المجتمعي، هؤلاء اليهود المودرن هم أرباب الأعمال والمشرفون على المنظومة السياسية والاقتصادية والفكرية لأوروبا. ويعتبر تبوّأ المكانة الريادية خياراً يهودياً، حيث يقول ابن نبيّ إنّ اليهودي يختار لنفسه رأس الهرم، فهو صاحب العمل، وهو في مجال الصناعة سرعان ما يجد نفسه في دور الرئيس لأنها تركز على التمويل، وعبر التمويل يصبح هو الأقوى نفوذاً والأوسع شبكة، ووراء اليهودي سائر البنوك التي أنشأها جدوده في كلّ مكان. وفي كل مكان من أوروبا المتحضرة هناك ما أسماه ابن نبي "مستعمرة" بإدارة يهودي.¹

- **اليهودي المتزمت:** يعتبر ابن نبيّ أنّ اليهودي متشبث في عقيدته لا يمكنه أن يقوم بعمل مالي أو ثقافي دون التفكير في صالح أمته ومذهبه، وقال إنّ ماركس إنما

¹ مالك بن نبي: المرجع السابق، ص 74.

أقام نظريته وألف كتابه "رأس المال" من أجل الحفاظ على عنصره، واعتبر الكتاب "معيّاراً عقديّاً كي يضيف إلى الرأسمالية نتائج في مصلحة المملكة اليهوديّة". إذ يعتبر ابن نبيّ أن فترة أواخر الثمانينيات من القرن التاسع عشر هي فترة بلوغ اليهود إلى مرحلة التملّك، ويقول في هذا الباب إن "العالم قد تهوّد"، ويمكن لليهود القيام بكل المتناقضات من أجل الدفاع عن هدفهم البعيد، ومن ذلك إقراض الشيوعيين للقيام بثورتهم. ويقول ابن نبيّ في نهاية هذا الباب نصاً مطوّلاً لو حذفنا منه بعض الزوائد يكون النص كما يلي: "هكذا تصبح الأرض كلّها تدار.. من أجل.. عظمة إسرائيل".¹ وهي من المواضع القليلة التي يشير فيها إلى أن المخططات الدولية تسير في مصلحة هذا الكيان. من الضروري الإشارة إلى أنّه يبدو متحفّظاً في ذكر الكيان الصهيوني، واعياً بأنّه عند مواجهته أو تناوله بالنقد فإنّه يواجه كل العالم. توجّس يبدو بينا في مختلف أجزاء الكتاب، وخوف من بطش الصهاينة دفع به في النهاية إلى قرار عدم النشر.

- اليهودي الذي رمى القناع: هو ذلك الذي وقف للعالم دون أن يكون مضطراً لإخفاء اسمه اليهودي أو دينه أو انتماؤه، كما أنّه يعلن بوضوح عن أهدافه واستراتيجياته. وتخلّص نهائياً من فترة الشتات والدياسبورا Diaspora والعيش في الجيتو Ghetto والاضطرار للتخفي. هو الآن حسب تعبير ابن نبيّ "يهوديّ ذو رقبة صلبة" تقف خلفه لوبيات إعلامية ومالية وثقافية، ويمكن بكل سهولة أن يُسلّط الضوء عليه ويتمّ اعتباره الأفضل، مع تجاهل أو تقزيم الكفاءات التي تضاهيه أو حتى تتجاوزه. وي طرح ابن نبيّ هنا مثالا عن أينشتاين الذي تحول إلى نجم عالمي تنقل الصحافة عبقريته ونكاته وحياته بسبب نظرية النسبية، في حين تمّ تجاهل الفيزيائي Plank الذي ابتدع نظرية الكوانتا Quanta التي كانت أساس علوم

¹ مالك بن نبي: المرجع السابق، ص 79.

هنا في هذه المرحلة يتم إعلان ما يسمّيه ابن نبيّ بـ "الكلمة الكبرى للعصر الحديث" والمتمثلة في وعد بلفور Balfour المتمثل في "عودة إسرائيل إلى فلسطين". يكتبها هكذا ابن نبيّ دون أي تعقيب ويمرّ بعدها إلى فكرة أخرى. ليثبت مرّة أخرى توجّسه من تناول الكيان الصهيوني باعتباره دولة وقوّة عسكرية، في حين يجيز لنفسه الحديث عن اليهود واليهودية بحرية وتناول مختلف جوانب المسألة اليهودية.

تبدو طريقة ابن نبي مختلفة على مستوى تناول المسألة اليهودية والصهيونية، حيث تناول الدين اليهودي والخصائص النفسية والاجتماعية لليهود باستفاضة في حين كانت المواضيع التي ذكر فيها إسرائيل أو فلسطين أو الصهيونية قليلة جدا وحذرة في الكتاب. ذلك رغم أنّ مجمل العمل كان في جوهر الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وفي تحليل أسباب قوة هؤلاء ووهن أولئك.

ثالثا: تهوّد الحضارة الأوروبية: كيف نظر ابن نبيّ لانبطاح الغرب للصهاينة؟

يقول ابن نبيّ إنّ التسامح كان قديما سائدا في المجتمع الأوروبي، وكان اليهود يتسربون عبر هذا التسامح إلى داخل المجتمعات مغتربين عوامل الشفقة بهم باعتبارهم أقليات دينية مضطهدة أو باعتبار الزمالة الثقافية، ثمّ أخيرا المواطنة ليجدوا أنفسهم أرباب أعمال ومتحكمين في الآلة الصناعية والمالية والفكرية الأوروبية.¹ وعبر سياقات التغلغل في النسيج المجتمعي والاقتصادي والثقافي "أصبح العالم متهوّدا". ولقد أصبحت الحضارة الغربية متهوّدة ليس بالمعنى الديني، ولكن بمعنى أن الزمام والريادة أصبحت بأيدي يهود. ولقد تتبع ابن نبيّ الدياسبورا Diaspora والشتات اليهودي، وقام بالتتبع التاريخي لكيفية تحولهم من التخوم إلى المركز.

¹ مالك بن نبي: المرجع السابق، ص 72-73.

كان ابن نبيّ سبّاقا في طرح مقولة تهوّد الحضارة الأوروبية، ولقد تناول هذه الفكرة عبد الوهاب المسيري صاحب موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية".
الصادرة سنة 1999 في ثمانية مجلدات، وأيضا في كتابه "من هو اليهودي؟"¹ كما تعرض إلى هذه الفكرة الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمان.

وتناول ابن نبيّ في كتاب "المسألة اليهوديّة" محطات تغلغل الشعب اليهودي في مختلف مراكز النفوذ المالية والسياسية والفكرية الأوروبية، وكيف أصبح اليهود يأخذون دور الريادة في مختلف الميادين، كما أصبحوا جزءا من النسيج المجتمعي الأوروبي وتمكنوا من الحصول على صفة مواطنين داخله، ولكنهم في الحقيقة لا يحملون انتماء إلا للمصالح اليهودية الحينيّة أولا المتمثلة في الحفاظ على المصالح الأمنية والمالية لليهود في العالم، والمصالح الاستراتيجية البعيدة المتمثلة في إيجاد وطن قومي لليهود عبر الحركة الصهيونية.

ولقد أشار هتلر في عديد خطابهات التحريضية ضد اليهود أن اليهودي هو كائن لا جنسية له ولا انتماء له في تعامله إلا لليهود، تعامل هتلر مع اليهود بسلاحهم المتمثل في العنصرية الموجودة في صميم الديانة اليهودية التي تستند على أفضلية العنصر اليهودي على سواه من العناصر البشرية الأخرى، وهذا الاستعلاء يستقيه اليهود من العهد القديم والتلمود، وتركز التعاليم اليهودية على العنصرية من خلال تأكيدها أن اليهود هم شعب الله المختار، وإضفاء صفات القداسة والتفوق عليهم، وعدم اختلاطهم بالشعوب الأخرى، كما تمثل إسرائيل دولة دينية انبنت على أساس الدّين وجعلت منه حجة لاغتصاب الأرض.²

يؤكد ابن نبيّ هنا على أن انتماء اليهودي الوحيد هو لدينه ولطائفته، ويطرح مثالا

¹ عبد الوهاب المسيري: من هو اليهودي؟ دار الشروق، القاهرة، 1997.

² محمد مدبولي حسن: العنصرية في التعاليم الدينية اليهودية، دراسة تأصيلية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 41، ج 3، 2022، ص 280-281.

المهندس اليهودي الذي يفترض أنه "ألماني" والذي قام بمخطط بناء أهم سد مائي في مدينة "مان"، ومع ذلك شرح طرق هدمه للحلفاء، الذين دمروا السد وانطلقت ملايين الأمطار من المياه لتغرق سكان المدينة، وينهي ابن نبي هذه الحادثة بقوله "اليهودي لا يرتبط بأي بلد ما حتى ولو عاش فيه قرونا".¹

تميز اليهود بالفاعلية والبراغماتية والقدرة على التنظيم والتكيف مع مختلف الأوضاع، كما أن اليهودي في إطار التضامن الطائفي يمكنه أن يقوم بأعمال تتميز بالسرية والتكافل بين اليهود، ومن ذلك يذكر ابن نبي عن يهود الجزائر سنة 1940 عندما قامت الحكومة الفرنسية بتنفيذ تعليمات هتلر في الجزائر وسنت قوانين تعليمية صارمة على اليهود الجزائريين، فاجتمعت نخبة من اليهود وأوجدوا الحل المتمثل في تطوع كل يهودي لتدريس الناشئة حسب معارفه، وتكونت مدرسة سرية في كل بيت من بيوتهم يدرّس فيها متطوعون من محامين وأساتذة وأطباء بلا ثمن.²

فصل ابن نبي المراحل الكبرى لتشكيل الهوية اليهودية داخل المجتمعات الأوروبية، وكيف تمكنت هذه الهوية عبر تشكّلها من تشكيل هوية أوروبية وغربية تابعة لها وناطقة بلسانها، وفي مذكراته تحدث ابن نبي عن بدايات وعيه بالنفوذ اليهودي منذ صباه، عندما لاحظ تغيرات في سلوكيات وطباع اليهود في الشرق الجزائري وخاصة في تبسة، بعد أن تركوا الاشتغال في الحرف والمساكن القديمة ليتحولوا للعيش مع المعمّرين في المدن إثر الحرب العالمية الأولى واكتسبوا بذلك عادات وطبائع المستعمرين. وذكر ابن نبي كيف بسطوا نفوذهم في تبسة فامتلكوا مصنع سيتروين هناك والشركات التجارية الكبرى والبنوك كلها.³ ويرى أن هناك ظاهرة عميقة تتمثل في أن اليهود طالما كانوا مفضّلين عند المستعمر، ويعيشون في

¹ مالك بن نبي: المسألة اليهودية، ص 96.

² أحمد طرفاوي، اليهود والغرب في أدبيات مالك بن نبي، جسر المعرفة، م 6، ع 1، 2022، ص 630.

³ أحمد طرفاوي: المرجع نفسه، ص 622.

دوائره، وهو ما يستوجب من وجهة نظره الدرس.

يتحدث ابن نبيّ عن القدرة الكبيرة لليهود على الاستفادة من الأحداث التاريخية وقلب المعطيات إلى صالحهم، كما يمكنهم بفضل التخطيطات التي يرسمونها واللوبيات التي يبنونها الاستفادة من الحروب، وكما لاحظ ابن نبيّ استفادتهم من الحرب العالمية الأولى عبر تحسين توقعهم في المجتمع الجزائري إلى جانب المعمرين، استطاعوا الاستفادة من الحرب العالمية الثانية عبر الاعتماد على الخطاب النازي المعادي لليهود من أجل تهجير العدد الأكبر منهم إلى فلسطين عبر إرسال أكثر من 225 ألف يهودي إلى هناك في الفترة ما بين انتخاب هتلر وانطلاق الحرب العالمية الثانية (1933-1939) معظمهم من ألمانيا ودول أوروبا الغربية، ثم هاجر أكثر من ثلاثمائة ألف يهودي بين اندلاع الحرب وتاريخ إعلان الكيان (1939-1948)، كانت هذه الأعداد من اليهود تتوافد على فلسطين عندما كان تعداد سكانها 1.035.821 نسمة حسب تعداد عام 1931. يجدر بالذكر أن عدد اليهود تضاعف في تعداد سنة 1931 عن تعداد عام 1922، حيث ارتفع عددهم من زهاء 83 ألف نسمة إلى 174.610 نسمة. في مواصلة للمخطط الصهيوني الذي تم إعلانه منذ مؤتمر بازل بسويسرا سنة 1897 الذي نجح فيه تيودور هرتزل للترويج لفكرة استعمار فلسطين ومنحها كوطن قومي لليهود.¹ ولقد اعتبر ابن نبيّ أن هناك تهويلا ودعاية "للهولوكست" أو المحرقة اليهودية.² الهدف منه اكتساب مزيد التعاطف والمساندة من الرأي العام الدولي لتحقيق هدف التوطين في فلسطين.

ويعتبر ابن نبيّ أن كلّ الأحداث أو الأفكار الكبرى التي صارت في العالم بأيد غربيّة هي في الحقيقة تحت تأثير يهودي مباشر، من ذلك يقول إنّ "الطابع المريع

¹ A. ZaimanM ; Census of Palestine 1931, Journal Of Royal Statistical Society, Vol96, N°4, 1933, pp660-662.

² أحمد طرفاوي: المرجع السابق، ص 629.

الذي اتخذته الحرب العالمية الثانية كان بتأثير الفكر اليهودي.¹

رابعاً: هل دحضت الشعوب العربية نظرية " القابلية للاستعمار "؟

يرى ابن نبيّ أن الخروج من الاستعمار ومن القابلية له يكون عبر خطة استراتيجية استشرافية للمستقبل تتمثل أولاً في إيصال الإسلام إلى الداخل وثانياً عبر التوجه إلى الخارج.

كما يعتبر أن أهم شروط الخروج من القابلية للاستعمار هي توفر قيادة مركزية، واستعادة روح التآخي، ويعتبر أنّ المجتمعات الإسلامية تواجه صعوبات على مستوى الأفكار وكيفية تأثيرها في المجتمع والحضارة، كما يرى أن الأفكار التي تُناقش داخل المجتمعات الإسلامية تواجه إشكالات على مستوى الفعالية، فالأنساق الفكرية التي تتردد داخل المجتمعات هي التي تحدد تكوين المجتمع الفاعل أو المسلوب الفعل، كما أن الفرد يتمكن من تحقيق ذاته ليس بإرادته ومقدرته وحده وإنما تكون القدرة نابعة من المجتمع الذي هو جزء منه ومن الحضارة التي يمثلها.²

ويعتبر ابن نبي في مختلف كتاباته أن الحل يكمن في عودة القيم الإسلامية، ولقد كان هذا التمشي جلياً منذ باكورة أعماله "الظاهرة القرآنية" الصادر في طبعته الأولى بالفرنسية سنة 1946، حيث اعتبر أن للقرآن قيمة اجتماعية، كما أنه ظاهرة تحكم فكر الإنسان وحضارته ويتحكم في تطورها.³

ويعتبر أن عدم انتهاج تعاليم الدين الإسلامي، وعدم اتباع أفكاره يمكنه أن يدفع بالمجتمع إلى الوبال، وأن يدخله في مجال نظرية "انتقام الأفكار المخدولة" التي

¹ ابن نبي: المسألة اليهودية، ص 104.

² مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، [1974] 2002، ص 42.

³ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، [1958] 2000، ص 300.

تحدّث عنها ابن نبيّ في كتاب "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" حيث عرفها أنّها تلك الأفكار التي تم الانحراف بها عن مسارها الأصلي وتم إفقادها جذورها الثقافية، فتصبح بالتالي غير فعالة ومن ثمّ ميتة ومميتة في نفس الآن. ولقد أسس ابن نبي هذا المفهوم انطلاقاً من أسماهم سقراط بـ "أكلة الأفكار" idéophages وهم أولئك الذين يستهلكون الأفكار دون أن يطوروها أو يسهموا في تجديدها مما يؤدي إلى الجمود الفكري، ولقد أضاف ابن نبيّ أن الأفكار المخدولة تنتقم من أصحابها انتقاماً مخيفاً.¹

ومن هنا نفهم أن المجتمعات الإسلامية التي تقنّت على الإسلام دون تعمق أو تجديد، أو المنظومات الحاكمة التي تتقي من النصوص الدينية ما يخدمها أو يساعدها على تثبيت سلطتها، يمكن أن نعتبر الدين براء منها، ومخدولاً من طرفها باعتبارها دفعت إلى موت جوهره وغياّب أبعاده الحقيقية، ومن هنا يشير إلى أن انتقام هذه الأفكار الكبيرة المخدولة يؤدي إلى اعتلال هذه المجتمعات واختلالها على مختلف المستويات، وبالتالي يجب على الباحثين من وجهة نظر ابن نبيّ عدم ربط ما أسماه بـ "عدم فعالية سلوك المسلم" بالإسلام.

وهنا يشير إلى أنّ السلوكيات أو الأدبيات أو الأفعال التي يقوم بها أي فرد يجب أن تكون مرتبطة بمدى نجاعتها في تطوير محيطه المجتمعي وفي تحسين مكانته في العالم. وهذا تماماً ما قام به "اليهودي" الذي بنى مخططاته وسلوكياته واستراتيجياته في العالم من أجل تحقيق نجاعة وفاعلية أفكاره التي تمكن من خلاها من شرعة وجوده في أرض فلسطين. شرعية وهمية ولكنه تمكن من إرساء دعائمها وإيجاد حلفاء لتحقيق مخططة في أرض إسلامية خذلت أفكارها الأصلية وأماتت جذورها. يرى ابن نبي أنه لا بد من أن يكون المسلمون في وضع الحياد بين الشيوعية

¹ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 153-154.

والرأسمالية لكي ينهضوا، وهو باستشرافه للمستقبل، يعتبر أن مسألة نهوض الأمة تقوم على التمسك بقيم حضارتها وعدم اتباع الإيديولوجيات السياسية المستوردة التي لا مكان لها في تكوين أمة لها مقوماتها وأسسها الفكرية ولها سياقات ودعامات أفكارها التي بُنيت عليها حضارتها.

يصنع ابن نبيّ مفهومان تتأرجح بينهما الدول القابلة للاستعمار، "الفكرة المتجسدة" التي تتمثل في الفكرة الإصلاحية التي يصدق بها أحد المفكرين أو المشروع الواعد الذي يحاول أحد المستنيرين إرساءه، ولكن سرعان ما يتم وأد هذه الفكرة من طرف الاستعمار والقابلين له لتتحول إلى "فكرة مجردة" موجودة في الأذهان وغير قابلة للتطبيق.¹ ومن أجل تفويض القابلية للاستعمار على الشعوب أن تحمي أفكارها وأن تطبقها.

يقول ابن نبيّ مختتما كتابه "المسألة اليهودية" أن العالم الإسلامي لا بد له أن يجد مكانا في العالم، وأن دولة إسرائيل إلى زوال لا محالة. وها أننا نرى في صمود شعب فلسطين في غزة رغم المآسي التي يفعلها الكيان الصهيوني الغاشم رسالة بيّنة عن خروج هذا الشعب من قابليته للاستعمار، ورفضه لكل أشكال التبعية للمحتل.

خاتمة

قام مالك ابن نبيّ في كتابه "المسألة اليهودية" بالتتبع التاريخي لمسارات تطور الشخصية اليهودية منذ بدايات تشكلها، كما حاول القيام بتحليل نفسي اجتماعي للفرد اليهودي الذي عاش طيلة قرون في أقليات معزولة منبوذة من المجتمعات المسيحية باعتبارها القاتل الأبدي للمسيح. كما تتبع كيفية تحوّل الفرد اليهودي من العيش في الهوامش مع الميل إلى التخفي والرغبة في عدم الظهور، إلى الاضطلاع

¹ عبد الغني لبيات: إرهابات النظرية ما بعد الكولونيالية وتفويض الخطاب الاستعماري في كتابات مالك بن نبي، مجلة الآداب والعلوم الانسانية، م15، ع2، 2022، ص376.

بالمهام القيادية على المستوى الصناعي والمالي والعلمي، وكيف تحوّل اليهودي إلى مهيمن على لوبيات السياسة والإعلام، قادر على تشكيل الرأي العام والتأثير فيه.

ويرى ابن نبيّ أن اليهودي قد يعيش طيلة قرون في بلد معين، وتكون له فيه الأملاك والنفوذ والذكريات، ولكن يبقى أبدا ولاؤه إلى هناك، الأرض التي تمكن أن يزرع فيها أبناء طائفته، هناك حيث قومه وقوميته، حيث الدولة الوحيدة في العالم التي تأسست على أساس ديني، وتتعامل على نفس الأساس. دولة أسسها لدينه ومذهبه الذي يعتبره سرّ وجوده وأصل تميّزه.

ويرى ابن نبيّ أن الحلّ يكمن في الرجوع إلى الأفكار الحقيقة الإسلامية والتعمق فيها وتطويرها من أجل التمكن من بناء مجتمعات واعية تهدم الأفكار المميتة التي ترد عليها من أجل استعمارها، وتخرج من بوتقة القابلية إلى الاستعمار، الذي يأهلها إلى الخروج من وضعية الاستعمار.

فالاستعمار ليس عسكريا ميدانيا وإنما تسبقه أشكال كولونيالية عدة مالية وفكرية وحضارية، على المجتمعات الإسلامية التحرر منها، والخروج من معامل قابلية الاستعمار، الذي يخوّل الدخول إلى قابلية الإعمار، إعمار الأرض والأدمغة وإعادة إعمار تراث إسلامي ممتد بالأفكار البناء وذات الفاعلية. فالخروج من الاستعمار ينبع من داخل المجتمع، ولقد ضرب ابن نبيّ في الشعب الياباني مثلا في المجتمع غير القابل للاستعمار وتحدث عن "الكاميكازي" الذي استحضر روح ساموراي الثقافة الشعبية اليابانية.

وإن شعب فلسطين في غزّة الصامدة تحت قصف همجيّ وعدوان وحشيّ يعطي مثلا لشعب يستحضر ثوابت حضارته ويستعيد قيم دينه ويتشبث بأرضه، ويعلن للعالم أنه لم يعد قابلا للاستعمار. هذا الاستعمار الصهيوني الذي تحجج اليهود بأنهم يعودون إلى أرضهم بعد ألفي عام، أي أن الإعداد لهذا الاعتداء دام لقرون طوال

فصلها ابن نبيّ في كتابه، وتعرّض إلى مختلف المراحل التي مرّ بها اليهودي حتى يصل إلى مرحلة سطوته التي توجّها بإعلان إسرائيل، وبعد كل التحليلات التي فصلها ابن نبيّ كانت جملة الأخيرة في خاتمة عمله "دولة إسرائيل لن تجد لها مكانا في العالم الذي سيأتي.

بيليوغرافيا:

- أيوب (نزار): نظام الفصل العنصري الإسرائيلي ضد الفلسطينيين في القانون والممارسة، سياسات عربية، ع64-65، م11، سبتمبر- نوفمبر 2023، ص148
- بديع (برتران): زمن المذلولين، باثولوجيا العلاقات الدولية، ترجمة جان ماجد جبور، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2015.
- بن نبي (مالك): وجهة العالم الإسلامي، المسألة اليهودية، دار الفكر، دمشق 2012.
- بن نبي (مالك): مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، [1974] 2002.
- بن نبي (مالك): الظاهرة القرآنية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، [1958] 2000.
- حسن (محمد مدبولي): العنصرية في التعاليم الدينية اليهودية، دراسة تأصيلية، مجلة كلية الآداب واتلعلوم الإنسانية، عدد41، ج3، 2022، ص280-281.
- حسين (أحمد قاسم): قراءة في كتاب زمن المذلولين، سياسات عربية، ع21، 2016.
- طنازفتي (علي): مالك بن نبي ومنظومة مفاهيم القابلية للاستعمار، مجلة العلوم الاقتصادية والسياسية، ع8، ديسمبر 2016، صص230-260.
- عرجون (شوقي): نظريات توازن القوى في العلاقات الدولية: قراءة في التفرعات النظرية، مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية، م8 ع3، صص770-785، جوان 2021.
- المسيري (عبد الوهاب): من هو اليهودي؟ دار الشروق، القاهرة، 1997.
- طرفاوي (أحمد)، اليهود والغرب في أدبيات مالك بن نبي، جسور المعرفة، م6، ع1، 2022
- عمتوت (كمال): القابلية للاستعمار وتهديدها للأمن الثقافي من منظور مالك بن نبي،

- مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، م5، ع4، ديسمبر 2020.
- لبصير (شهرزاد): القابلية للاستعمار في فكر مالك بن نبي، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية م7، ع2، ديسمبر-2022، صص 311-324.
 - لبيات (عبد الغني): إرهاصات النظرية ما بعد الكولونيالية وتقويض الخطاب الاستعماري في كتابات مالك بن نبي، مجلة الآداب والعلوم الانسانية، م15، ع2، 2022، صص 363-382.
 - المحاسنة (خالد): مفهوم الاستعمار والقابلية للاستعمار عند مالك بن نبي، مجلة الناقد للدراسات السياسية، م6، ع2، 2022
 - Tilly (Charles), "Reflections on the History of European State-Making," in: Charles Tilly (ed.), The Formation of
 - National States in Western Europe (Princeton: Princeton University Press, 1975).
 - Sayegh (Fayez), Zionist Colonialism in Palestine (Beirut: PLO Research Centre, 1965), pp. 22-27
 - Zaiman (A); Census of Palestine 1931, Journal Of Royal Statistical Society, Vol96, N°4, 1933, pp660-662.

نهج التنمية الثقافية عند مالك بن نبي

- مدخل لتنمية المجتمعات المحلية العربية -

د. عمر حوتية

جامعة أدرار (الجزائر)

hotiamar@yahoo.fr

مقدمة

منذ قرون عانت الأمة الإسلامية من أزمة حضارية خانقة مست حياتها الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وزادت معاناتها في العصر الحديث بتعرض كافة الشعوب الإسلامية تقريبا للغزو الاستعماري الفكري والثقافي والعسكري الأوربي، والذي بذل كل ما في وسعه لطمس الشخصية العربية الإسلامية وسخر كل إمكانياته المادية والمعنوية، فزاد العالم الإسلامي ضعفا وانحطاطا.

وفي ظل هذه الظروف المستعصية شهد العالم الإسلامي محاولات كثيرة قام بها العديد من المفكرين ورجال الإصلاح، هدفت إلى الكشف عن أسباب التخلف والانحطاط والبحث عن السبل للخروج منه.

ومن هؤلاء المفكرين الجزائري "مالك بن نبي"، الذي شغل فكره واهتمامه بمشاكل النهضة وأسباب التخلف في العالم العربي والإسلامي، ومنها الأمراض الثقافية التي تولدت عن عصر الضعف ووقفت حاجزا منيعا يصد أي مشروع للنهوض التنموي في الأمة الإسلامية والعربية.

إشكالية البحث:

في ظل تداعيات العولمة على الدول العربية بما فيها التأثيرات الثقافية السلبية على المجتمعات المحلية، وما تواجهه من عوائق عديدة تغيب شروط التقدم الثقافي،

وتحول دون تقدمه الاقتصادي والاجتماعي، فإن ذلك يقتضي تبني نهج تنموي نابع من ثقافة المجتمعات العربية، قائم على ثقافة فاعلة وإيجابية، تنقل المجتمعات المحلية العربية من موقع الصمت السلبي أو الاستهلاك الدائم، إلى موقع المشاركة الإيجابية في مسيرة المجتمعات وتحقيق أهداف التنمية الشاملة في الدول العربية.

ونظرا للارتباط المتبادل بين تقدم المجتمع ونضجه الثقافي، تتساءل عن أهمية الاستفادة من نهج التنمية الثقافية عند مالك بن نبي في تنمية المجتمعات العربية؟

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث في ظرف يتميز بانتكاسات تشهدها الأمة الإسلامية، وتخلف تنموي وحضاري تعاني منه المجتمعات المحلية الإسلامية والعربية، وعوائق عديدة تغيب شروط التقدم الثقافي، وتحول دون تقدمها الاقتصادي والاجتماعي، ونرى في تبني نهج التنمية الثقافية عند مالك بن نبي النابع من ثقافة هذه المجتمعات، كحل يمكن الاستفادة منه في التخلص من الأمراض الثقافية التي تكبح جهود التنمية المحلية، وتعرقل أي مشروع لتنمية المجتمعات المحلية، في ظل علاقة تلازمية بين الثقافة والتنمية.

أهداف البحث:

- تمحيص الفكر الحضاري لمالك بن نبي وإعادة صياغته على ضوء المعطيات الجديدة.
- التعرف على أولويات التنمية الثقافية والدور التي قد تساهم به في تعزيز جهود التنمية بالدول العربية.
- إبراز مقومات النهوض التنموي في فكر مالك بن نبي لتجاوز معوقاته في المجتمعات العربية المحلية.
- تبيان سبل الاستفادة من نهج التنمية الثقافية لمالك بن نبي في تنمية

المجتمعات المحلية العربية.

منهج البحث:

تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الفكر الحضاري عند مالك بن نبي، وذكر آرائه وأفكاره المتعلقة بالثقافة والتغيير الثقافي وعلاقتها بالنهوض التنموي، مع عدم إغفال المنهج التاريخي السرد في تطور مفاهيم البناء الحضاري التنموي ومنهج الاستنباط الديني التقليدي المتبع في الدراسات الدينية.

خطة البحث:

- 1- مفهوم التنمية الثقافية ودورها في تنمية المجتمعات المحلية،
- 2- المسألة الثقافية وخصائص النظرية الثقافية عند مالك بن نبي،
- 3- محورية التنمية الثقافية في التغيير الاجتماعي والنهوض التنموي عند مالك بن نبي،
- 4- إمكانات الاستفادة من نهج التنمية الثقافية لمالك بن نبي في تنمية المجتمعات المحلية.

أولاً: مفهوم التنمية الثقافية ودورها في تنمية المجتمعات المحلية

تعتبر التنمية مطلباً أساسياً للمجتمعات العربية، للارتقاء بواقع أفرادها المعيشي والحياتي، نظراً لما تنطوي عليه من مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية مهمة، والتي سنحاول تبيان مفاهيمها.

1- مفهوم التنمية للمجتمعات المحلية:

في إطار الاهتمام المتزايد بالتنمية الشاملة، ظهر مفهوم التنمية المحلية ليشير إلى آلية جديدة لتنمية المجتمع المحلي تهدف لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات المحلية.

1-1- تعريف تنمية المجتمع المحلي:

تعد التنمية المحلية جزءاً من التنمية الوطنية، تتعدد تعاريفها وفق مقاربات

متنوعة، ومن بينها:

٧ تعريف عبد المطلب عبد الحميد للتنمية المحلية: هي العملية التي يمكن بواسطتها تحقيق التعاون الفعال بين الجهود الشعبية والجهود الحكومية للارتفاع بمستويات التجمعات المحلية والوحدات المحلية اقتصاديا، اجتماعيا، ثقافيا، من منظور تحسين نوعية الحياة للسكان في منظومة شاملة ومتكاملة.¹

٧ وعرفت تنمية المجتمع المحلي على أنها الجهود المنظمة لتحسين ظروف الحياة في المجتمع المحلي، وذلك بتشجيع وحث المقيمين في هذا المجتمع على مساعدة أنفسهم وتعاونهم بعضهم مع بعض مع تقديم المعونة الفنية اللازمة عن طريق المنظمات الحكومية والأهلي.²

٧ ويعني مفهوم تنمية المجتمع المحلي أنها عملية يمكن فيها للمجتمعات المحلية أن تحسن قدراتها على استخدام رأسها الاجتماعي وتعزيز مستوى مشاركتها في العملية الإنمائية، من خلال العمل الجماعي.³

مما سبق نستخلص بأن تنمية المجتمع المحلي هي استراتيجية إنمائية موجهة نحو الأنشطة التي تثن القدرات المحلية، عبر المشاركة الواسعة لجميع أفراد المجتمع المحلي بهدف تحسين جوانب حياتهم.

والقاعدة الأساسية لنجاح التنمية المحلية تكون بالمشاركة، فنجاح تجربة أي دولة في النمو يرجع إلى اعتمادها على مواردها المحلية وأثن هذه الموارد هو العنصر البشري، وإذا ما تجاهلت الدولة هذا العنصر وركزت على عناصر أخرى فإنها

¹ عبد المطلب عبد الحميد.(2001)، التمويل المحلي والتنمية المحلية، الدار الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية، ص.13

² القبلان غازي.(2017)، تنمية المجتمع المحلي، دار الخليج للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، الأردن، ص133.

³ Mansuri G, Rao V.(2003), *Evaluating Community Driven Development: A Review of the Evidence*, Development Research Group, World Bank, Washington.

ستخلق عبء مستمر على التنمية وهو وجود عنصر بشري يزداد عددا ويقل كفاءة دون أن يقدر على تقديم جهد متزايد لخدمة التنمية.¹

1-2- أهداف تنمية المجتمع المحلي ومجالاتها:

إن عملية تنمية المجتمع المحلي الناجحة هي التي تحدد وتعد برامجها على أساس التخطيط العلمي الواعي الهادف إلى إشباع الاحتياجات الأساسية للسكان، ولهذا تتنوع أهدافها على النحو التالي:

1- تحسين ظروف حياة المواطنين من خلال تطوير مراكز الحياة وترقية نوعية الخدمات.

2- محاربة الفقر والإقصاء والفوارق الاجتماعية، ودعم الفئات المهمشة ودمجها في المجتمع.

3- التخفيف من الفوارق التنموية بين الولايات والبلديات وداخل الإقليم الواحد.

4 - حشد الموارد البشرية والطبيعية اللازمة لإتمام عملية التنمية، وترشيد استعمال تلك الموارد.

5- دعم الأنشطة الاقتصادية المنتجة للثروات، وتشجيع إنشاء المقاولات الصغيرة والمتوسطة للإنتاج.

6- إدخال الوسائل التكنولوجية الحديثة في مختلف الميادين الإنتاجية والخدمية.

7- إشراك المواطنين في تحديد احتياجاتهم، وتنسيق المشاريع والبرامج والأعمال المراد القيام بها.

¹ طاشمة بومدين. (2008)، "الحكم الراشد ومشكلة بناء قدرات الإدارة المحلية في الجزائر"، ورقة بحث مقدمة إلى المنتدى الوطني حول "التحولات السياسية وإشكالية التنمية في الجزائر: واقع وتحديات"، جامعة الشلف، 16-17 ديسمبر 2008، ص 2.

- 8- ضمان العدالة في الاستفادة من المرافق والخدمات الأساسية.¹
- 9- دعم الإدارة المحلية حتى تتمكن من التطور والخروج من دائرة الفقر، من خلال تقديم مساعدات.
- 10- الاستفادة من اللامركزية والتي تعني استقلالية السلطة والإدارة، مما يساعدها على وضع المشاريع المناسبة لها لاعتبارها الأقرب من الدولة إلى السكان وأعلم باحتياجاتهم والنقائص التي يعانون منها.
- 11- بروز إمكانات التكامل بين المناطق والتكامل بمعنى التعاون للوصول إلى الأهداف المحددة.²

وتتعدد مجالات التنمية المحلية، وأهمها: التنمية البشرية، التنمية القومية، التنمية الاقتصادية، التنمية الاجتماعية، التنمية البيئية، التنمية المستدامة، التنمية التكنولوجية، والتنمية الثقافية موضوع بحثنا.

2- ماهية التنمية الثقافية:

أقرت اليونسكو في مؤتمرها بالمكسيك عام 1982م والذي كرسته للثقافة، تعريف الثقافة: بأنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينه. وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، والحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات³. وأكدت مؤتمرات منظمة (اليونسكو) في العقود الأخيرة أهمية الاعتراف بالبعد الثقافي ضمن منوال التنمية مما أدى للاهتمام بمفهوم "التنمية الثقافية *cultural development*".

¹ طاشمة بومدين، "تنمية المجتمع المحلي"، محاضرة منشورة، جامعة تلمسان، الموقع:

<https://elearn.univ-tlemcen.dz>

² حفيظة سبع. (2017)، دور الولاية في تحقيق التنمية المحلية. (ماجستير غير منشورة)، جامعة قسنطينة، الجزائر، ص33.

³ دور الثقافة والمثقف في التغيير الاجتماعي والبناء والتنمية، (2015)، متاح على الموقع:

<https://pflp.ps/post/11120>

2-1- تعريف التنمية الثقافية ومبادئها:

التنمية الثقافية هي عملية تطوير وتعزيز الثقافة في مجتمع معين، ومن بين التعاريف نشير إلى ما يلي:

٧ التنمية الثقافية هي "التغيير الذي يحدث في الجوانب المادية وغير المادية للثقافة، بما فيها العلوم والفنون والفلسفة والتكنولوجيا والأذواق، بالإضافة للتغيير الذي يحدث على مستوى بنية المجتمع".¹

٧ وتعرف التنمية الثقافية بأنها: تلك المنهجية التي تستوعب كل منتجات المجتمع لتحوّله في النهاية التي أنشطة فكرية واجتماعية يتم ممارستها في المجتمع ويتفاعل منها الأفراد بأساليب متفاوتة بحيث تكون في النهاية عنصر أساسي في تحديث إدراكهم لواقعهم الاجتماعي.²

فالتنمية الثقافية تشير لنمو وتطور أعراف المجتمع وقيمه ومعتقداته وعاداته وآثاره مع مرور الوقت.

وقد أصبحت التنمية الثقافية محور الاهتمام الأبرز في مختلف المجتمعات العالمية الساعية للنهوض والتقدم والتطور، ولذلك فإن الخطط الحديثة لتنمية المجتمعات لم تعد تغفل العنصر الثقافي بوصفه واحداً من أهم العناصر التنموية التي يمكن أن تصنع حراكاً إيجابياً وتسارع بها عجلة التنمية.³

وتتحقق التنمية الثقافية، بزيادة الاستثمارات وتنمية الموارد البشرية وتأهيل

¹ مصطفى يوسف كافي. (2017)، التنمية المستدامة، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص 17.
² الخشبان، علي بن محمد. (2008)، هل تغيب التنمية الثقافية من واقعنا الاجتماعي، مقالة نشرت في جريدة الرياض، بتاريخ 26 مايو 2008، العدد 14581، متاح على الموقع:

<http://www.alriyadh.com/2008/05/26/article345461.html>

³ حميد بن كويمي حران الرويلي، محمد بن عبد الله اليحيى. (2017)، دور أعضاء هيئة التدريس في تنمية الوعي الثقافي، مجلة جامعة الفيوم للعلوم التربوية والنفسية، مصر، العدد الثامن. الجزء الأول، ص 137.

المؤسسات الثقافية ودعمها بتشريعات والقوانين اللازمة، وضع خطط تنموية لإدارة الثقافة ومنتجاتها وفقا للمتطلبات المحلية.

وتستند التنمية الثقافية على مجموعة من المبادئ والمرتكزات التي تعد بمثابة الموجه لها، وهي¹:

- الإيمان بأن القوة الحقيقية تكمن في العلم والمال معا، وليس في الجانب المادي،
- التأكيد على ضرورة إعمال الجانب العقلي إلى الجانب الروحي واعتباره العنصر الأول وهو أحكام العلم وتحقيق التوازن بين القيم الروحية المادية، وربط التقدم التقني والعلمي بالقيم الروحية الأصيلة.
- ضرورة المشاركة والمساهمة في التطورات المالية وفي بناء الحضارة المعاصرة.
- الاعتقاد التام بضرورة تجنب التخلف الثقافي ووسائله وطرقه، فالثقافة المتخلفة تعبر عن مجتمع متخلف، والثقافة قابلة للتغير من جوانب عديدة، لذا لا بد من محاولة تغييرها وتطويرها خاصة الجانب العلمي والتكنولوجي والعمل على تحقيق ثورة ونهضة علمية تخلص المجتمع من جميع القيود التي تكبله .
- ضرورة فهم أن لكل ثقافة خصوصيتها وهويتها، فليس هناك ثقافة أفضل من غيرها في مجال التقدم.

2-2- أهداف التنمية الثقافية:

عادة ما تهدف برامج تنمية المجتمعات المحلية إلى تعزيز الوعي بالإمكانيات المحلية وتوفير المعلومات اللازمة ذات الصلة بالموارد والمدخلات والبنية التحتية، وتقديم المساعدات الفنية وتنمية المهارات.

¹ زموري زينب.(2014)، ماهية التنمية التنمية الثقافية: دراسة تحليلية، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، الجزائر، المجلد 06، العدد 14، ص 151.

وتسعى التنمية الثقافية إلى تحقيق جملة من الأهداف والغايات ومن أهمها¹:

- نقل الموروث الثقافي عبر الأجيال للمحافظة على المجتمع العربي وتوسيع ثقافته وتأمين استمرارها.

- تخلص وتنقية الثقافة المحلية ما لصق بها من شوائب وبدع وعادات سلبية تعمل على ترسيخ التخلف، والعمل على تحسينها، وإرساء دعائم الصالح منها، والمحافظة على ذاتيتها وشخصيتها المتميزة.

- تجديد الثقافة المحلية بتغيير تطوير العناصر القابلة لذلك وتحسينها وتوفير الوسائل والسبل الممكنة لتحقيق ذلك، مع المحافظة على الثواب وترسيخها في شخصية أفراد المجتمع.

- تأصيل جذور الثقيف الذاتي بين الافراد وتسهيل طرقه، وتوفير كافة الوسائل المساعدة عليه، وتهيئة البيئة والمناخ الفكري والفني، وبناء مواطن واع ومثقف قادر على مواجهة كافة والعقبات التي تواجهه.

- تكوين الفكر المبدع القادر على التقدم العلمي والتقني والاهتمام بالمواهب العلمية وتشجيعها.

3- دور التنمية الثقافية في تنمية المجتمعات المحلية:

تعتبر العلاقة بين الثقافة والتنمية علاقة جدلية، حيث لا يمكن تحقيق التنمية من دون الثقافة، وتشير معظم الدراسات إلى ضرورة الاهتمام بالتنمية الثقافية كجزء من جوانب التنمية للمجتمعات المحلية.

ويعد إدراج الاحتياجات الثقافية في خطط التنمية المحلية أمراً مهماً للحفاظ على الثقافة المحلية، ودعم التنمية المستدامة، وجذب السياح. وتمكن الحكومات المحلية

¹ زموري زينب. (2014)، مرجع سابق، ص 152.

من إنشاء مجتمع أكثر شمولاً وحيوية.

3-1- التنمية الثقافية كمدخل للبناء والتغيير الاجتماعي:

تعتبر التنمية الثقافية أكثر من ضرورة للبناء الاجتماعي فمن خلالها تتغير المسارات الاجتماعية نحو الأفضل، كما أنها تسمح للمجتمع بتطوير آليات لتحقيق الوعي الكافي ولجلب المجتمع للتفاعل مع الثقافة بمفهومها الاجتماعي ومنتجاتها مما يضمن له تحقيق متطلباته الفكرية الحقيقية بمفهومها.¹

ولما كانت الأفكار بما تحمله من تأثير مباشر في شخصية الفرد وسلوكه الاجتماعي هي روح الثقافة في كل عصر من عصور التاريخ والحضارة، صار التغيير الاجتماعي جانبا ثقافيا له أهميته النفسية والفكرية في حركة المجتمع بصورة خاصة والتطور الحضاري لذلك المجتمع بصورة عامة.

ويمكن اعتبار تاريخ ثقافات الشعوب الإنسانية تاريخ التغيرات الاجتماعية التي حدثت فيها خلال حقبة التاريخ، بتأثير عوامل سياسية ودينية واقتصادية، لذلك يبدو أن استيعاب ثقافة شعب ما من الشعوب يجب ألا يفصل عن فهم التغيير الاجتماعي الذي أحدثها وتأثر بها ضمن حركة تاريخ العالم.

فالبيئة الثقافية هي التي تمد الإنسان بنظراته المختلفة العقلية والفكرية وتحدد قيمة رصيده الثقافي قوميا وعالميا، وهنا يبرز عنصر "الإبداع والابتكار" بروزائفا، ذا قدرة وأهمية في تعيين عوامل التغيير الاجتماعية القائمة على استيعاب ناضج لأنماط المعتقدات والأفكار التي تولد، في العادة، من أجل غرض اجتماعي حيث يبدأ التفاعل الحقيقي بين "التغيير الثقافي والتغيير الاجتماعي" نظرا لارتباطهما الوثيق بفكر الإنسان وانعكاساته في سلوكه، وأنماط حياته وأساليب تفكيره وأنواع تقاليده وقوة مصادر تراثه وأعرافه، أي في جوهر حرية قيمه الاجتماعية المختلفة.. كل ذلك من خلال لغة

¹ المرجع السابق، ص 150.

الثقافة التي تعد بحق الصوت الناطق لفكر الأمة والشعب.¹

3-2- دور التنمية الثقافية في النمو والتنمية الاقتصادية والاجتماعية:

إن العلاقة بين الثقافة والتنمية تشير إلى الارتباط المتبادل بين تقدم المجتمع ونضجه الثقافي، وتشير أيضا إلى الأثر الذي تمارسه العوامل الثقافية على التنمية في المجتمع المحلي، والأثر الذي تمارسه التنمية على الثقافة في هذا المجتمع. فالثقافة والتنمية عنصران جوهريان يؤثران بشكل تفاعلي على بعضهما.

ويظهر تأثير التنمية الثقافية في التنمية بمفهومها الشامل، في الجوانب التالية:

1- تؤثر الثقافة على النمو الاقتصادي والتنمية بأكثر من طريقة. ومن بين هذه الطرق:

- تعزز الهوية الوطنية والتماسك الاجتماعي، وتعزيز الروابط الاجتماعية بين الناس.

- تؤثر التنمية الثقافية في سلوك المستهلك والإنتاج، مما يؤدي إلى تغيير النمط الاستهلاكي والإنتاجي.

- تزيد من قدرات الموارد البشرية، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاجية وتحسين الوضع الاقتصادي.

- تشجع على الابتكارات الاجتماعية والتعاون، الأمر الذي يساعد على تحقيق التنمية المجتمعية.

- تطوير الصناعات الإبداعية، والتي تعد محركاً هاماً للاقتصاد، وتساهم الثقافة في تعزيزها وتطويرها.

- تحسين الجودة الحياتية، إذ تساهم الثقافة في رفع مستوى التعليم والوعي الثقافي

¹ محمد أبو غندور. (2012)، الثقافة والتغيير الاجتماعي، الحوار المتمدن، العدد 3726، متاح على الموقع:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=307479>

اطلع عليه بتاريخ: 2024/07/15.

والصحي المجتمعي.

2- تؤثر التنمية الثقافية في تعزيز التنمية المحلية المستدامة، وذلك بعدة طرق:

- تعزيز العمل الجماعي والتعاون بين الناس، مما يساعد على تحقيق التنمية المستدامة.

- تساعد في رفع مستوى الوعي حول قضايا التنمية المستدامة وتشجيع الناس على اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية البيئة والموارد الطبيعية. فيتعلموا ويقدرُوا أهمية الحاجة إلى حماية البيئة.

- تساعد في تعزيز التنمية المستدامة، وذلك بالحفاظ على الثقافات وأساليب الحياة التقليدية والاحتفال بها. ويمكن للتنمية الثقافية أن تساعد في تعزيز ممارسات التنمية المستدامة التي تحترم البيئة وتحميها.¹

3- دورها في التنمية الاجتماعية: فالتنمية الثقافية تؤثر على نمط حياة الناس وطريقة تفاعلهم مع العالم الخارجي. وتمكنهم من الحصول على المزيد من الموارد والفرص للنمو.

4- بالإضافة إلى ذلك، فإن التنمية الثقافية تعتبر مصدراً حيوياً للابتكار والإبداع والتطوير التكنولوجي، مما يساعد في تعزيز قدرات البلدان وزيادة تنافسيتها في الأسواق العالمية. وبالتالي، يمكن القول بأن الثقافة تعتبر عنصراً أساسياً في عملية التنمية المستدامة للمجتمعات والبلدان.

4- واقع التنمية الثقافية وتحدياتها في العالم العربي:

إن الثقافة العربية المعاصرة، بمعناها التاريخي والاجتماعي خلاصة تجارب عريقة وناضجة للتراث العربي، وبالرغم من العائد الاقتصادي والأهمية الاجتماعية والبيئية للثقافة في العالم العربي، إلا أن القطاع الثقافي مازال مهمشاً على حساب

¹ أنظر موقع إجابة: <https://www.ejaba.com>

القطاعات الأخرى، حيث نجد التركيز على التنمية الاقتصادية وحدها وإهمال الجوانب الأخرى للتنمية ومنها التنمية الثقافية، مما كانت له نتائج سلبية على واقع التنمية فيها.

فالظروف الحالية للمجتمع والثقافة العربيين تواجه عوائق عديدة تغيب شروط التقدم الثقافي، ومنها:

1- العولمة: من خلال انطوائها على ما يعرف بثقافة العولمة، مما أدى لتراجع الخصوصيات الثقافية للمجتمعات المحلية، لتبقى ضعيفة وغير قادرة للاستجابة لتطلعات أفرادها إذا لم تستفد من التكنولوجيا وإتقانها واستخدامها في الحفاظ على تراثها وتقاليدها، كما فعلته كل من اليابان وكوريا وسنغافورة.¹ وتزداد في المقابل موجة التبعية الثقافية لأسواق الانتاج الثقافي الخارجية أو للثقافة الاستهلاكية.

2- غياب الديمقراطية وضمانات حقوق الإنسان، وبالذات حق التفكير والتعبير والعقيدة.

3- التخلف الاقتصادي والفقر وأثرهما في الحرمان من الحقوق الثقافية.

4- انتشار الفكر غير العلمي وسطوته على الجماهير البسيطة.

5- سيادة نظم التعليم التلقيني مقابل التعليم النقدي.

6- انتشار الأمية بأنواعها الأبجدية، الثقافية، التكنولوجية.²

7- النزاعات والصراعات، تؤثر على التنمية الثقافية، حيث تؤدي إلى انهيار وتشتت المجتمعات وتفككها.

¹ إبراهيم بدران، (2002)، أفول الثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ص ص: 189-191.

² حواس مسعود. (2006)، التنمية الثقافية في العالم العربي، الموقع:

<https://araa.sa/index.php?view=article&id=2879>، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 2024/07/10.

8- نقص الموارد البشرية المؤهلة والمتخصصة في مجالات الثقافة والفنون والتراث.

وحسب مالك بن نبي فإن المجتمعات العربية تواجه تحديين: التحدي الداخلي الذي يتمثل في ضرورة البناء من الداخل، والتحدي الخارجي يتمثل في التكيف مع التطورات الخارجية، وتقف أمامها عدة صعوبات من أهمها¹: الحالة النفسية التي يوجد عليها الأفراد والمجتمع العربي، الخلل الموجود في العوالم الثلاث (الأشياء - الأشخاص - الأفكار)، القيم الاجتماعية السائدة.

ثانيا: المسألة الثقافية وخصائص النظرية الثقافية عند مالك بن نبي

يعتبر مالك بن نبي من الشخصيات البارز وجودها والتي كان لها دور كبير في وسط المجتمع الجزائري والعالم العربي الإسلامي، ويعد فكره ثروة ثقافية لا غنى عنها، وكان مصدر إلهام بعض الدول والشعوب، وقد كرس فكره لدراسة الواقع المعيشي ودراسة تاريخ المجتمع وتبيان أهم المشكلات والأزمات التي قد تواجه حضارته ونهضته، ومن ذلك اهتمامه بالمسألة الثقافية وإبراز خصائص النظرية الثقافية.

1- التعريف بالمفكر مالك بن نبي والعوامل المؤثرة في ثقافته:

مالك بن عمر بن نبي (1323هـ/1905م - 1393هـ/1973م)، مفكر إصلاحى جزائري، من أعلام الفكر الإسلامى العربى فى القرن العشرين. وساهم فى تحديد وصنع ملامح الفكر الإسلامى الحديث.

1-1- مولده ونشأته وتكوينه:

ولد مالك بن نبي في 5 ذو القعدة 1323هـ الموافق لفاتح جانفي 1905 بقسنطينة شرق الجزائر، نشأ في عائلة فقيرة وترعرع في أسرة إسلامية محافظة، فكان والده موظفاً بالقضاء الإسلامى، ارتحل مع أبويه سنة 1912م عند أخوال أمه في

¹ مالك بن نبي. (2002)، مشكلة الحضارة - تأملات، دار الفكر، دمشق، ص ص: 11-26.

مدينة تبسة. وتلقى تعليمه الأولي في كتاب بلدة تبسة طيلة أربع سنوات، حفظ خلالها عدة أجزاء من القرآن الكريم، والتحق بالمدرسة الفرنسية، وبعد أن أتم التعليم الابتدائي ونال شهادة الابتدائية، انتقل إلى قسنطينة ليطم دراسته في المرحلة التكميلية وينال رتبة كاتب عدل.¹

سافر مع أحد أصدقائه إلى فرنسا وكانت له تجربة فاشلة فعاد مجدداً إلى مسقط رأسه، ثم عمل بمحكمة آفلو في مارس 1927م، احتك حينها بالفئات البسيطة من الشعب فبدأ عقله يفتح على حالة بلاده. واستقال من منصبه القضائي بعد سنة 1928 إثر نزاع مع كاتب فرنسي لدى المحكمة المدنية.

وكانت هذه المرحلة من أخصب مراحل حياته، التقى فيها بأعلام النهضة الجزائرية العربية الإسلامية الحديثة أمثال الشيخ المولود بن الموهوب، والشيخ محمد بن العابد، اللذين اكتسب منهما العلم الشرعي، ونمى ثقافته الإسلامية، كما اكتسب من الشيخ عبد الحميد بن باديس الحماسة والشجاعة والإقدام وتعرف على بعض تلامذته. وقرأ خلال هذه الفترة عدة كتب، من أهمها كتابان أثرا في تكوينه ونفسيته، هما: (الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق) لأحمد رضا، و(رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده.²

أعاد الكرة سنة 1930م بالسفر لفرنسا في رحلة علمية، وتخرج كمساعد مهندس كهربائي عام 1935م. واختار الإقامة فيها وتزوج من فرنسية هداها الله إلى الإسلام وصار اسمها خديجة.

انتقل إلى القاهرة هرباً من فرنسا بعد إعلان الثورة الجزائرية (1954م)، وحظي باحترام كبير في مصر، وهناك طور معرفته باللغة العربية وراجع كتبه المترجمة للغة

¹ مالك بن نبي. (1994)، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، سوريا، ص 19.

² نفس المرجع، ص ص: 66، 67.

العربية وشرع بالكتابة بالعربية، وكان بيته مدرسة ثقافية يقصدها الطلبة من عرب ومسلمين، ويستمعون لأفكاره ورؤيته لمسألة الإصلاح والتجديد. وقد كان أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي في القاهرة، وفيها كانت أغنى مراحل عطائه الفكري، مما سمح له بمواصلة الكتابة الفكرية وإرسال المال ليعول زوجته بفرنسا.

وعاد في سنة 1963 للجزائر بعد استقلالها، فعين سنة 1964 كمدير عام للتعليم العالي، وواصل التأليف، فصدر له آفاق جزائرية " Perspectives algériennes" وكذلك الجزء الأول من مذكراته.¹

استقال من منصبه سنة 1967، ليتفرغ كلية للعمل الفكري الإسلامي والتوجيهي. فساهم بمقالات متتابعة في الصحافة الجزائرية حول إشكالات الثقافة والحضارة ومشروع المجتمع إلى سنة 1968، وقضى ما بقي من سنوات عمره في الجزائر إلى أن توفاه الله تعالى يوم 31 أكتوبر 1973م.

ألف مالك بن نبي كتبه في الجزائر وفرنسا ومصر، أهمها: الظاهرة القرآنية (1946م)، شروط النهضة (1948م) وطرح فيه مفهوم القابلية للاستعمار، وجهة العالم الإسلامي (1954)، مشكلة الثقافة، تأملات، آفاق جزائرية، المسلم في عالم الاقتصاد، مذكرات شاهد القرن، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

1-2- العوامل المؤثرة في ثقافة مالك ابن نبي:

لا يمكن لدارس فكر مالك بن نبي، أن يغض الطرف عن مولده وحياته وشخصيته التي كان لها الدور الكبير في بناء معالم فكره، وقد أثرت عدة عوامل في حياته وثقافته، ومن أهمها:²

¹ انظر: مالك بن نبي، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، متاح على موقع: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>.

² رحو أحمد، مفهوم الحضارة في فكر مالك بن نبي، متاح على الموقع: <http://www.startimes.com/>، اطلع عليه بتاريخ: 2024/07/10.

1- وُلد بن نبي في عصر الاحتلال الفرنسي للجزائر، وعاش مأساة بلد يخطط الاستعمار لشل فاعليته، ومن ثم لتحويله إلى فريسة سهلة للتهام، عاشها يوماً بيوم في المدرسة الفرنسية حيث لا يسمح لابن البلد إكمال الدراسة الثانوية، وفي تحول المجتمع عن فطرته وكيف ساد الصعاليك بدعم الإدارة الفرنسية، وكيف أصبحت العائلات العريقة فقيرة، ذليلة بسبب الاستيلاء على أراضيها، وفي فرنسا عاش مع الجالية الجزائرية ورأى الاستعمار من زواياه المختلفة وشعر بخبث أساليبه في تمزيق العالم الإسلامي.

2- القراءات الغزيرة المتنوعة، منذ صغره في الابتدائية، وقد قرأ كتب علم النفس والاجتماع وهو لا يزال في المرحلة الثانوية، وكان يقرأ كل الصحف التي تصل إلى قسنطينة أو تبسه، إضافة إلى اطلاعه الواسع على الثقافة الغربية، حتى أنه كان يكرر نغمة (الإنسانية) و(العالمية) السائدة عند الفلاسفة الغربيين، فيتكلم عن حضارة اليوم التي تسير نحو الشمول والعالمية.¹

3- ثقافته الإسلامية: يعترف مالك بأن الذي كان يرده عن الغلو في هذا الاتجاه (القراءات الكثيرة للفكر الغربي) هو ما كان يتلقاه من دروس في التوحيد والفقه، وقراءاته لكتب تأتي من المشرق العربي مثل: "الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق" لأحمد رضا، و"رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده، و"طبائع الاستبداد" للكواكبي، والمجلات الإسلامية الجزائرية مثل (الشهاب) يصدرها الشيخ ابن باديس، وكان عنده اطلاع على التاريخ الإسلامي وقدره على فهم الآيات وأحاديث تتعلق بالتغيير الاجتماعي.

4- ومن المؤثرات الواضحة في شخصيته ما عاناه من فقر شديد في طفولته، وحياة النَّصَب والتعب التي عاشها في شبابه بحثاً عن العمل، وهذه الأوضاع النفسية

¹ مالك بن نبي. (2006)، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط 6، دمشق، ص 48.

جعلته يكره - وهو صغير - الدور المترفة.¹

إن هذه العوامل جعلت مالك بن نبي يحمل هموم التخلف الحضاري لأمته الإسلامية القابعة في التراب، فكان يشخص الأمراض، ثم يقدم أسبابها وعللها، دارساً فاحصاً لتفرعاتها ومظاهرها وأوجهها المختلفة.

2- مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي ونظريته للمشكلة الثقافية:

يتميز مالك بن نبي بكونه رائد اتجاه فكري غير مسبوق في العالم الإسلامي، جعل من "الحضارة" وحدة تحليل وعالج من خلالها العديد من المسائل ومنها المسألة الثقافية ودورها النهضوي.

2-1- مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي:

يعرف مالك بن نبي الثقافة على أنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كتراسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، أي هي المحيط الذي يعكس حضارة معينة والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر.

وهو تعريف شامل يضم بين دفتيه فلسفة الانسان الفرد وفلسفة الجماعة ويهتم بضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد، فالثقافة هي المعيار الذي تتحدد به هوية كل مجتمع، ولا يمكننا تصور مجتمع بلا ثقافة، ولكل مرحلة من مراحل حياة المجتمع سمات ثقافية تتأثر وتؤثر في عوامل نهوضه أو تفككه.

ويرى بأن ثمة مركب اجتماعي للثقافة يتألف من 04 عناصر يتخذ منها أي شعب دستورا لحياته، هي:

1- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية،

¹ الأخصر شريط. (1989)، مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر، ص

- 2- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام،
3- عنصر منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام،
4- الفن التطبيقي الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة على حد تعبير ابن خلدون.

وتشكل الثقافة بعناصرها الأربعة السابقة صورة الحياة في حضارة ما، وينبغي الإدراك بأن الحياة في أي مجتمع قبل أن تتأثر بالفنون والصناعات، أي بالجانب المادي أو الاقتصادي من الحضارة تتخذ اتجاهها عاما ولونا شاملا يجعلان جميع تفاصيلها مرتبطة بالمبدأ الأخلاقي وبذوق الجمال الشائعين في هذا المجتمع، ويمكن صياغة هذه العلاقة في صورة جبرية: مبدأ أخلاقي + ذوق جمالي + اتجاه حضارة.¹

وتختلف الحضارات باختلاف التوجيه الثقافي للإنسان الصانع لهذه الحضارة أو تلك.

2-2- نظره للمشكلة الثقافية كمرض اجتماعي يعاني منه العالم الإسلامي:

قام المفكر مالك بن نبي بشرح دقيق للمجتمع الجزائري والإسلامي والعربي، وما يعانيه من آفات وصفها بالمرض الاجتماعي الذي يحطم الجسد الاجتماعي، ويرى بأن هناك ثلاثة أمراض تعاني منها هذه المجتمعات، وهي: مشكلة الحضارة، مشكلة المفهومية أو الفهم المتبادل، مشكلة الثقافة.

2-2-1- مشكلة الحضارة:

إن المتأمل في أعمال مالك بن نبي الفكرية، يلاحظ أنها تحاول معالجة مسألة أساسية وهي مشكلة الحضارة وعوامل قيامها وانهارها، ومكوناتها ومعادلاتها،

¹ مالك بن نبي. (2006)، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 81-101.

فيقول مالك بن نبي "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات وتهدمها".¹

وقد عرف ابن خلدون الحضارة، فيقول: "الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكلّ عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره".²

ويرى مالك بن نبي أن كل حضارة ينبغي أن يكون لها اتصال بماضيها وتراثها ولن يتحقق المستقبل الأفضل إلاّ بعد دراسة الماضي لأنه يحمل الكثير من مكونات الحاضر والمستقبل.

2-2-2- مشكلة المفهومية أو الفهم المتبادل:

إن مشكلة المفهومية تثار على المستوى الوطني داخل كل بلاد فرضت شروطها الخاصة ضمن طور معين من أطوار تاريخها أنماطاً من العمل الجماعي، تراعي في الاعتبار مقاييس ينبغي على المعالج أن يأخذها بعين الاعتبار في علاج المجتمع: التشخيص والعلاج، اكتشاف المرض وطريقة مداواته، أي معرفة الاء والدواء.

فنشاط المجتمع المشترك لا يتكون ببساطة من مجرد مجموع نشاطات فردية حتى ولو كانت هذه الأخيرة من نفس الجنس، وحتى ولو كانت متحدة كلها في نفس الاتجاه، إذ يجب أيضاً أن يتم تنظيمها في كنف النشاط الإجمالي حسب مخطط تنظيمي يتولى تحديد فعالية هذا النشاط، فهذا "التنظيم" للنشاطات الفردية بالذات في كنف نشاط اجتماعي مشترك هو الذي يصنع على وجه الدقة مشكلة المفهومية.³

¹ مالك بن نبي. (2006)، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 21.

² مالك بن نبي. (2002)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ص 42.

³ مالك بن نبي. (1995)، من أجل التغيير: سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر، ط 5، دمشق، ص 18.

2-2-3- مشكلة الثقافة:

إذا كانت المدرسة الغربية الرأسمالية تعرف الثقافة بأنها فلسفة الإنسان، أما المدرسة الماركسية تعرف الثقافة بأنها فلسفة المجتمع، فإن مالك بن نبي يجمع بين النظرتين ويقرر بأن الثقافة تشمل فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع لذلك نجد أن السؤال الذي طرحه في كتابه مجالس دمشق ما الثقافة؟، ومشكلة الثقافة حسب مالك بن نبي، ليست مشكلة فهم وتفسير لنموذج ثقافي موجود في الواقع بقدر ما هي مشكلة إيجاد وترقية لهذا النموذج لأنه نموذج منشود.¹

وقد نظر مالك بن نبي للمشكلة الثقافية في البلاد العربية والإسلامية، من حيث وظيفتها الاجتماعية. تلك الوظيفة الاجتماعية المفقودة في البلدان العربية والإسلامية هي التي جعلته يعتبر الثقافة مشكلة ويصرّ على إثارتها في سائر كتبه كلما استدعى المقام إثارتها، لأنه وهو المفكر الذي كان يتأمل وظيفة الأفكار من خلال سلوك الأفراد وأسلوب الحياة في المجتمع الغربي وانعدامها في العالمين العربي والإسلامي، لاحظ أن السبب في عدم فعالية الأفكار فيها هو أنّ أغلب الناس يخلطون بين كلمة ثقافة وعلم أو بين مفهوم ثقافة ومفهوم علم. فهذا الخلط هو منبع إثارة مالك بن نبي لمشكلة الثقافة، كما هو في الوقت ذاته منبع اعتقاد الإنسان على محور طنجة جكارتا، أن الثقافة هي مجرد معرفة أو علم وليست الثقافة هي إطار معنوي ومادي الذي يحيط بالفرد ويؤثر في سلوكه وأسلوب حياة مجتمعه تأثيرا إيجابيا أو سلبيا.²

2-3- نظره للمشكلة الثقافية كسبب لتخلف المجتمعات الإسلامية:

يرى مالك بن نبي أن من أهم الأسباب التي حالت دون محافظة المسلمين على

¹ السعيد جقيدل، آدم رحون. (2017)، تفعيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الجزائري من خلال أطروحات مالك بن نبي، مجلّة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، الجزائر، مجلد 2 (02)، ص 47-51.

² مالك بن نبي. (2006)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ص 49.

تقدمهم الأمراض الثقافية التي ورثها الإنسان المسلم عن عصر ما بعد الموحدين، فعمل على تشخيص تلك الأمراض والبحث عن الحلول التي تقضي على التعالي والذاتية التي جعلت من المسلم يعيش في قوقعة الماضي الذي لا يكاد يبرحه والنظر إلى المستقبل الذي يضمن له مواكبة العصر بما تطلبه المرحلة.¹

ومثال ذلك مشكلة التصحر أو انخفاض نسبة المياه في الأودية والسدود أو مشكلة تناقص الإنتاج الزراعي أو مشكلة تضييع الوقت أو مشكلة ارتفاع نسبة البطالة أو كل هذه القضايا التي نعاني منها، هي مشكلة إمكان حضاري أو تجهيز أو وسائل، وإنما يتيسر حلّها للتفكير الذي يعتبرها مشكلة ثقافة،² والتخلف الذي يعيشه المسلمون ينبع في الأساس من داخلهم ويعود إلى طبيعة تشكيل عقليتهم وشخصيتهم التي ترسبت فيها مفردات الثقافة السلبية ولا حل لهذه المعضلة إلا بالتحول من مجتمع غير فعال إلى مجتمع فعال، وفاعلية أي مجتمع إنما تنطلق من فاعلية الإنسان، وقد كان مالك بن نبي يقول في ذلك أنه "إذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن؛ سكن المجتمع والتاريخ".³

فما يقف أمام حركة الإنسان بالمجتمعات الإسلامية إنما هو فكره المكبل بكثير من القيود، وهي⁴:

1- خضوع الفكر لطغيان الشيء والشخص، إذ يتمحور فكرنا حول أشخاص أو زعماء بعينهم أو حول شيء ما، ولا يمكن أن يتحول الإنسان إلى كائن فعال

¹ فاطمة بور. (2017)، الأمراض الثقافية في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، الجزائر، العدد الخامس، مارس 2017.

² مالك بن نبي. (2000)، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، ص: 59-64.

³ راغب السرجاني، مالك بن نبي فيلسوف الحضارة والنهضة، الموسوعة الحرة، ص2، متاح على الموقع: Shapereway.jpg

⁴ مصطفى النشار. (2018)، مالك بن نبي... من نقد الذات والآخر إلى بناء نظرية جديدة في البناء الحضاري، مجلة العقيدة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ص: 215-221.

بشكل إيجابي في التاريخ إلا إذا تمحور فكره حول الفكرة لا الشخص أو الشيء، وفي رأي بن نبي فإن الأفكار هي محرك للأشخاص ومن ثم للمجتمعات.

2- الازدواجية اللغوية التي يعاني منها المسلمون، والتي غرسها العصر الاستعماري وأحدثت انقساماً في العالم الثقافي للبلاد الإسلامية، ليس فقط ذات طابع جمالي بل أيضاً ذات طابع أخلاقي وفلسفي.

ويلمح مالك بن نبي من خلال هذه الإشكالية إلى إشكالية شغلت النخبة المثقفة العربية منذ بداية الحقبة الاستعمارية وحتى اليوم إشكالية الأصالة والمعاصرة، وفي اعتقاده هي إشكالية مزيفة.

3- ثنائية "الأفكار الميتة والأفكار المميّنة"، حيث يرى مالك بن نبي بأن الأفكار الميتة هي الأفكار التي انحرفت عن مثلها العليا، وفقدت فعاليتها في عالم الأشخاص، ولم تتجسد في عالم الأشياء، وهكذا أغلب أفكار إنسان ما بعد عصر الموحدين، أما الأفكار القتالة المميّنة فهي الأفكار المستوردة من المذنيات الأخرى، أو من كل فكرة فقدت عمق هويتها، ومقوماتها الثقافية، بعدما فقدت جذورها.¹

ويرى مالك بن نبي أن تلاقي الأفكار الميتة مع الأفكار المميّنة يمثل أحد أهم عوائق نهضة الأمة لأنه "ما أن نبدأ بمعالجة الأفكار الميتة التي لم يعد لها جذور في بوتقة الثقافة الأصلية للعالم الإسلامي، حتى نصطدم بالأفكار المميّنة التي خلفت في عالمها الثقافي الأصلي جذورها ووفدت إلى عالمنا".²

فمشكلة العالم الإسلامي والعربي مشكلة أفكار لا مشكلة وسائل، فالعالم الإسلامي منذ تعثره الحضاري يملك الوسائل ولكنه للأسف يفتقر إلى عالم الأفكار والإبداع، ففقره إذن في فكره لا في وسائله.

¹ مالك بن نبي. (2007)، في مهب المعركة، إرهابات الثورة، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 129.

² مالك بن نبي. (2002)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 149 - 153.

3- خصائص النظرية الثقافية عند مالك بن نبي:

تعتبر نظرية مالك بن نبي في الثقافة محور ولبّ نظريته في فلسفة التاريخ والحضارة، لاعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة أزمة ثقافية، وأن نجاح أية نهوض حضاري يرتبط بمشروعه الثقافي.¹

والثقافة هي نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، ومثل القوانين الاجتماعية لا بد من أن تدرس من خلال عاملي الزمن، والمكان، لذا تختلف من مكان لآخر وتخضع لعامل الزمن باستمرار.

ومن هذا المنطلق يمكن الإشارة إلى خصائص النظرية الثقافية عند (مالك بن نبي) لما تشكّله من جوهر كتاباته وإنتاجه الثقافي وبنود وأركان مشروعه الثقافي - الفكري.. وتتمثل هذه الخصائص فيما يلي:

3-1- التجديد والإبداع:

إنّ منطلق نظرة مالك بن نبي التجديدية، قوامها إعادة النظر من جديد في المسلك الذي انتهجه جمهور المفكرين من قبله، على اعتبار أنّ مشروعه الحضاري تفرّد عن بقية المشاريع الحضارية الأخرى.

فقد كان لفكره تميّزاً في الطرح، وهو أنّه لم يكن فقط مجرّد منظر حضاري للتجديد، بل إنّّه جمع على غرار باقي المنظرين الحضاريين بين ما هو نظري وما هو عملي، لتحقيق التجديد ومن ثمّة النهوض بالأمة الإسلامية من جديد بعد حالة الانحطاط التي عرفتة وشارك فيها الغرب المستعمر بالدرجة الأولى من جهة، وسوء تشخيص سابقه من المنظرين للدّاء الحقيقي الذي أصابها من جهة أخرى.²

¹ الطيب برغوث. (2006)، أفاق في الوعي السنّي: محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، مركز الذاكرة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 16.

² مسعود بوشخشوخة. (2017)، مالك بن نبي والتجديد الحضاري، مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات، قبرص، العدد 95،

وهذه الخاصية تتجلى حينما يتحدث مالك بن نبي عن شروط الحضارة ويقول:
أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية - مشكلة الإنسان - مشكلة
التراب - مشكلة الوقت -¹.

وعناصر الحضارة الثلاثة تحتاج إلى مركب لتوحيد تلك العناصر، والمركب
اللازم لتكوين الحضارة هو: الفكرة الدينية، وبإعادة صياغة معادلة الحضارة
بإدخال المحرك الأساسي (العامل الديني)، تصبح:

$$\text{الحضارة} = (\text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت}) \times \text{العامل الديني}.$$

وانطلاقاً من هذه المعادلة، يتضح لنا أن المنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب
هو المادة الأولى التي يقوم عليها استمراره وأمنه القومي، وبقدر ما يملك من طاقة
بشرية فاعلة وإرادة طبيعية للبقاء وقدرة على تفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة
راسخة تضمن تماسكه ووفرة عطائه، يتحقق العمران.²

فالعالم الإسلامي أحوج إلى رجال، فمنهم تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها.
ومشكلة الإنسان في أساسها لا تعالج إلا بتوجيه ثقافته، وتصفية العادات والتقاليد
الميتة في نفسه وتتمية روح الإبداع لديه.

ويشير عمر كامل مسقاوي إلى الإبداع الثقافي عند مالك بن نبي بقوله: فقد
جاءت أفكار بن نبي حول مفهوم الثقافة برؤية جديدة لم تألفها المصطلحات
المستوردة التي تمت صياغتها في إطار الفكر الليبرالي أو في إطار الفكر الاشتراكي
التقدمي"، وتتجلى قيمة الإبداع من الإنتاج الفكري لدى مالك بن نبي حينما يقول:
"إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها، وإنما بفتح دروب

¹ الأخضر شريط. (1989)، مرجع سابق، ص 69.

² عمر حوتية، عبد العزيز السلومي. (2015)، القيم الروحية والنهوض التنموي في فكر بن خلدون مع الإشارة
للتجربة الماليزية كأنموذج لمساهمة القيم في النهوض التنموي للمجتمعات المعاصرة"، مجلة المعيار، كلية
أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة- الجزائر، المجلد 19، العدد 38.

جديدة.. ولا يتحقق ذلك إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات النماء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه".¹

3-2- تكامل الأصالة والمعاصرة:

إذ من الأخطاء العميقة التي وقع فيها الكثير من الكتاب والمثقفين، أن عطاءهم الفكري والثقافي، انطلق إما من موقع تراثي لا يرى في العلم الحديث ومكتسبات العصر ما يستحق الذكر والاستفادة منه، أو من مواقع القطيعة مع الثقافة الذاتية، والوقوف على أرضية الثقافة الغربية ومفاهيمها.. وكلا الموقعين قد ضيعا المسألة الجوهرية في هذا المضمار: التراث المغلق.. ضيع مكاسب العصر وإنجازاته، والمغرب المتعالي قد ضيع تاريخه وقيم مجتمعه الجوهرية.. وانطلاقاً من منطق الإلغاء والنفي كل منهما للآخر فقد تحول النقاش إلى تبادل للاتهامات، وأصبحت براهين الطرفين وحججهما واحدة تقريباً شكلاً ومضموناً.

بينما العطاء الثقافي الذي أوجده مالك بن نبي قد تميز بتكامل كلا العنصرين الأصالة والمعاصرة.

ومسألة التكامل تتضح في فكر مالك بن نبي من خلال فهمه لمفهوم الحضارة، باعتبارها قدرات تنبثق من إمكانات الداخل العربي والإسلامي، وليست هي مجموع المظاهر الاستهلاكية للحضارة..

إذ يقول في كتابه شروط النهضة " لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلاً مكان أمته ومركزها.. بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب،

¹ محمد محفوظ. (2007)، النظرية الثقافية عند مالك بن نبي (2)، متاح على الموقع:

<https://www.alriyadh.com/244386>

فإن ذلك تضيقاً للجهد ومضاعفة للداء".¹

3-3- المنهجية والفاعلية:

وهي القدرة الفذة التي تميز بها مالك بن نبي في إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتباره قضية حضارة أولاً وقبل كل شيء... ويكشف لنا عن منهجيته الفذة حين حديثه عن الدورة الخالدة إذ يقول: إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع ويتعمق بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها. والمنهجية في فكر بن نبي لا تعني الجمود والترهل على المستوى الفكري والعمل، وإنما أسند فكره المنهجي بفعالية وديناميكية تتصف بها معالجته لشؤون الثقافة والحضارة.. حيث أن مالك بن نبي وبالرغم من ارتباطه الشديد بواقع المجتمع والأمة العربية الإسلامية، وانطلاقه في دراساته وتطبيقاته، من همومها واهتماماتها، إلا أن ذلك لم يجعل من انطلاقته التحليلية الجزئية الإجرائية اليومية أو التبريرية المتحيزة هدفاً له، بل ظل اهتمامه مشدوداً إلى التأسيس الفكري والمنهجي، ومحاولة استخلاص الأحكام الفاعلة في الظاهرة الحضارية، في حالة قوتها وامتدادها وتألقها، وفي حالة ضعفها وانحصارها وأفولها.²

ثالثاً: محورية التنمية الثقافية في التغيير الاجتماعي والنهوض التنموي عند مالك

بن نبي

الثقافة أحد الروافد الهامة في حياة المجتمع التي يراد تغييرها؛ لأجل تحقيق مستوى تنموي مناسب لما هو مأمول الوصول إليه، وفي فكر مالك بن نبي تعد من مقومات التغيير الاجتماعي والنهوض التنموي.

¹ المرجع السابق.

² الطيب برغوث. (2006)، مرجع سابق، ص ص: 24-25.

1- حقيقة التنمية الثقافية عند المفكر مالك بن نبي:

أشار مالك بن نبي إلى التنمية الثقافية في ثنايا حديثه عن مشكلة الثقافة والتي عرفها على أنها موقف يتخذ في إطار اجتماعي ثقافي سلبي معين، وبالتالي فإن تخلف المجتمعات ناجم عن تخلف ثقافتها وعليه يتعين عليها تكوين رصيدها الثقافي الفعال (الإيجابي) وتصفية رواسبها السلبية، وبذلك يحدث التعديل الاجتماعي والثقافي المستمر، ويكون بذلك التبادل مناعة لثقافة المجتمع وضمان لنموها وبقائها وهذا من خلال تحقيق التماسك والالتحام بين الفرد والمجتمع.

فالتنمية الثقافية تتضمن جميع عناصر الثقافة وأبعادها وعناصرها، فهي بالنسبة للمجتمع في لحظة ما في نموه الاقتصادي والاجتماعي يجب أن يعبر عن صفة العلاقات المتبادلة بين الإنسان والمجتمع، فتتحقق درجة استقلالية الفرد وقابليته على التوضع في العالم والاتصال بالآخرين، والمشاركة الفضلى في المجتمع مع الاحتفاظ بقدرته على التحرر منه. وهذا يعني اختيار عدد من القيم الفردية والجماعية التي تجعل من التنمية الثقافية الهدف أي أنه على الإنسان أن يتطلع إلى الحياة الفضلى وليس إلى حيازة أكثر للأشياء أو تكديسها، أي أن التنمية الثقافية تنحو بالإنسان نحو الكيف وليس الكم.¹

ولا يمكن للتنمية الثقافية أن تكتمل دون مساهمة الأنساق الاقتصادية والتربوية والاجتماعية، فغيابها يخلق هوة ثقافية بين الأفراد وتلك الأنساق نظرا للعلاقة المعقدة والمتشابكة والمتعددة الأبعاد التي تربط التنمية الثقافية بالتنمية الشاملة حيث وسائلها وأهدافها تمثل خيارات في سلم القيم موصولة بالنظام الاجتماعي والاقتصادي المحيط به. وبالتالي تعد الجوانب النوعية للظواهر الثقافية عاملا مهما في تحديد القرارات حيث ظهر علم جديد يسمى علم اقتصاد التنمية الثقافية لمعرفة

¹ مالك بن نبي. (1984)، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ص ص: 104-116.

أفضل الوسائل وأسس العمل الاقتصادي في المؤسسات الثقافية وما يسمى بالصناعات الثقافية للجماهير وسوق الإنتاج الفني والدعم المالي للفن بأنواعه والإنفاق العام والخاص في مجال الثقافة وفي مجال إدارة الموارد الثقافية.¹

وأمام ما تواجهه الدول الإسلامية والعربية من عوائق عديدة تغيب شروط التقدم الثقافي، وتحول دون تطوره، فإنه يمكن تبني أسلوب التنمية الثقافية كنهج تنموي نابع من ثقافة المجتمعات العربية، قائم على ثقافة فاعلة وإيجابية، تنقل المجتمعات المحلية العربية من موقع الصمت السلبي أو الاستهلاك الدائم، إلى موقع المشاركة الإيجابية من أجل تحقيق أهداف التنمية الشاملة في الدول العربية.

2- التغيير الثقافي المدخل للتغيير الاجتماعي وفقا لفكر مالك بن نبي:

يعرف التغير الاجتماعي بأنه كل تحول يقع في التنظيم الاجتماعي سواء في بنائه أو وظائفه خلال فترة زمنية معينة، والتغير الاجتماعي على هذا النحو ينصب على تغير يقع في التركيب السكاني للمجتمع أو بنائه الطبقي، أو نظمه الاجتماعية، أو في أنماط العلاقات الاجتماعية أو في القيم والمعايير التي تؤثر في سلوك الأفراد، والتي تحدد مكانتهم وأدوارهم في مختلف التنظيمات الاجتماعية التي ينتمون إليها.²

ومطلب التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، يروم من خلاله تحقيق التغيير نحو الأفضل، مع الحرص خاصة على تحقيق التجاوز لما هو كائن، ونعني هنا جملة الرؤى والنظريات الداعية إلى ذلك.

والتغيير عند مالك بن نبي يمثل قاعدة ذهبية، كما أكد عليه القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»³. ويرى بأن التغيير الاجتماعي

¹ زموري زينب. (2014)، مرجع سابق، ص 150.

² لطيفة طبال. (2012)، التغيير الاجتماعي ودوره في تغير القيم الاجتماعية، مجلة الباحث، جامعة ورقلة، العدد 08، ص 408.

³ القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 11.

عملية بنائية مستمرة تسعى لتحويل الواقع الاجتماعي المتخلف إلى تركيب حضاري متقدم، واعتباره السبيل الوحيد لدخول الإنسان في الحركة الحضارية.

ويؤكد أن التغير الاجتماعي بالضرورة من صنع الأشخاص والأفكار والأشياء معاً، ولا بد من توفر وصلات بينها ليؤدي التغير الاجتماعي وظيفته ويتحقق الوصول بالمجتمع إلى الحضارة.¹

ويرى مالك بن نبي أن أي عملية تقدم أو تغيير ثقافي اجتماعي لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ارتبطت بوجود قوى اجتماعية تصنع هذا التقدم أو التجديد، وأهمها بل محورها الإنسان.

فالعنصر الأول في إحداث عملية التغير هو الإنسان، وقد أولى مالك بن نبي عناية بالغة للإنسان في معالجته لمشكلات الحضارة، لذلك نجده يركز على خصائص بناء الإنسان.

ويرى مالك بن نبي أنه لا يمكن تغيير المحيط الثقافي للإنسان ما لم يتم تغيير أفكاره، وطريقته في رؤية الأشياء وفهم المحيط الذي يعيش فيه، والمجتمع الغني حقاً هو الذي يملك الأفكار "لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من (أشياء) بل بمقدار ما فيه من أفكار"². ونفس المعنى يكرره بقوله: "فالمجتمع المتخلف ليس موسوماً حتماً بنقص في الوسائل المادية (الأشياء) وإنما بافتقاره للأفكار"³.

ولذلك دعا مالك بن نبي لتطوير نظم المفاهيم في العالم الإسلامي، وصناعة أفكار جديدة والتخلص من سلطة الأفكار الميتة والقاتلة التي تدمر نسيج المفاهيم لدى الأشخاص.

¹ الزهرة بن عاشور وأخريات. (2021)، التغير الاجتماعي وعواقبه عند مالك بن نبي، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر، المجلد 10، العدد 03، ص 172.

² مالك بن نبي. (2006)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، مرجع سابق، ص 37.

³ مالك بن نبي. (2002)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 36.

وتظهر أهمية الأفكار الدينية في النهوض الحضاري، ويشير مالك بن نبي إلى أن عمق الفكرة الدينية هو القدرة على تغيير الإنسان، ووضع جل الإمكانيات والطاقات الحيوية واستثمارها في عملية النهوض.¹

وقد أكد مالك بن نبي على أهمية تغيير الإنسان في إطار ثقافته بمشروع سماه البرنامج التربوي للثقافة والذي يتضمن العناصر الأربعة للمركب الاجتماعي للثقافة والمذكورة سلفا.

ومن هذا البرنامج تنبع فكرة التربية الاجتماعية التي لا تعني شيئا، إذ لم تكن وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، كيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأنسب دائما وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع تأدية نشاطه المشترك في التاريخ.

ولتغيير الإنسان بصفته أهم عامل للتغيير الحضاري والتنمية، ركائز خام طبيعية وأخرى صناعية اجتماعية، فهو في تكوينه البيولوجي - أي الإنسان - واستعداده الفطري قادر على استعمال عبقريته وترا به ووقته من جهة، ومن جهة أخرى فإن الفرد يكتسب من وسطه الاجتماعي قدرة تتمثل في الوسائل التي تمكنه من ترقية شخصية وتنمية مواهبه فيتعلم كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية وتحقيق قفزات نوعية تمهيدا لبناء الحضارة وتحقيق التنمية.²

3- محورية التوجيه الثقافي للإنسان في النهوض التنموي:

إن "عملية النهوض" هي الطريق المؤدية للبناء، والنهضة، ويتم عبر حركة

¹ جاسم محمد سلطان. (2010)، من الصحوة إلى اليقظة: استراتيجية الإدراك للحراك، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، مصر، ص: 40-48.

² يوسف أزروال. (2019)، ظاهرة التخلف ومسألة التنمية: دراسة في ضوء فمر مالك بن نبي،، المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، جامعة الحاج لخضر - باتنة 1، الجزائر، المجلد 08، العدد 02،

ديناميكية واسعة تطراً على مستوى الوعي والفعل تُخرج أمة من الخمول والركود إلى الحركة والتغيير المؤسسين على إدراك تاريخي عميق ورؤية استراتيجية مستقبلية واعية¹. وتأتي النهضة بعد مرحلة الصحوة ثم اليقظة، لتتوج بعد ذلك هذه المراحل بنهوض حقيقي يتجلى في بناء فكري عميق يليه بناء فعلي في مختلف المجالات والميادين.

ويرى مالك بن نبي أن المشكلة التي يعاني منها العالم الإسلامي هي مشكلة الإنسان قبل أي شيء آخر، فإنسان ما بعد الموحدين كما يصفه بن نبي قد فقد همته جراء فقدانه للمبدأ الديني داخله والوازع الأخلاقي، وأن "الفكرة الدينية" هي التي تتيح بناء الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة.

فالإنسان هو في الأساس باني الحضارة وعلى يديه أيضاً تنتهي، ولتوجد الحضارة لا بد من الإنسان القادر على استخدام العنصرين الآخرين: التراب والوقت للوصول إلى الهدف: بناء الحضارة والتفوق الحضاري.

ويبين مالك ابن نبي أهمية الإنسان في النهضة، بكونه المحرك لعناصر النهضة الأخرى، وأن فعاليته في الحركة التغييرية، منوطة بتوجيهه من نواحي ثلاثة: توجيه الثقافة، العمل، رأس المال.

وأساساً فكرة التوجيه هي قوة وتوافق في السير ووحدة في الهدف، وتجنب الإسراف في الجهد والوقت.

وتوجيه الثقافة يعني توجيه مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولاته كرسائل أولى في الوسط الذي ولد فيه وتصفيتهما من كل ما يشوبها من عوامل الانحطاط².

¹ سهام أمسغرو، مفاهيم ملتبسة.. الحضارة والنهضة والتنمية والمدنية والتقدم، متاح على الموقع: feker.net.

² مالك بن نبي. (2006)، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص: 75-86.

وهذا التوجيه تعكسه المتغيرات في السلوك والمعتقدات والتوجهات في المجتمع، وتسهم في تشكيلها.

وبفضل التغيير الثقافي، يمكن للمجتمعات التطور والتكيف مع التحولات في العالم المتغير.

وتحتل الثقافة بالنسبة للإنسان المرتبة الرئيسية في بناء شخصيته، وهي لا تنفصل عن ثقافة المجتمع كله، وحيث أن الثقافة التي تقوم على أساس إسلامي هي التي تحقق التوازن في داخل الإنسان وتعلمه كيف ينخرط في الجماعة ليؤدي دوره بشكل متكامل، فإصلاح الثقافة يعني إصلاح الفرد والمجتمع.¹

والمجتمع الإسلامي عموماً، والجزائري خصوصاً يملك كل إمكانيات التنمية والنهوض الحضاري رغم ما يعانيه من تحلّف مُروّع، ويحتاج لمقومات إسلامية دينية نابعة من القرآن والسنة من حيث التطبيق وفهم الآيات وتوظيف معناه في إيصال أفكاره، وهذا ما قام بتحليله مالك بن نبي.

فمالك بن نبي يرى أن الاقتصاد في الغرب هو اقتصاد منظم وقد صار منذ قرون خلت ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية، أما العالم الإسلامي فقد وقع في إشكاليتين، أولاً أنه حدد الاختيارين أو حصرهما في المنهج الاشتراكي والمنهج الرأسمالي، وثانياً الغير مفعّل خاص بالمجتمعات الإسلامية والعربية وهو المنهج الإسلامي وهو نظام شامل وكامل اجتماعي واقتصادي معاً مادي وروحي دنيوي وأخروي.

وهي المفارقات التي أشار إليها مالك بن نبي في دراساته الاجتماعية للمجتمع المتخلف، حيث تمتد هذه المفارقات في أوصال ثقافته الاقتصادية والاجتماعية مما يحتم على الدول العربية والإسلامية البحث في إيجاد مشاريع للتنمية الحقيقية كمشروع استثمار إنساني من أجل بناء حضارة وليس استيراد منتجات ألدعتها

¹ السحمراني أسعد. (1986)، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النفائس، ط2، بيروت، ص215.

عقول أخرى، وغفل الإنسان المسلم عن حقيقة بديهية وهي أن الحضارة لا تتبع له روحها (ثقافتها) وإن باعت له أشياءها لأنها الحضارة أخيراً بناء ثقافياً وليس تكديساً.¹

فأعطت أفكاره بديلاً يمكن الاستفادة منه، في تحديد سبل ومقومات النهوض والاقتلاع الحضاري.

رابعاً: إمكانيات الاستفادة من نهج التنمية الثقافية لبن نبي في تنمية المجتمعات المحلية

في ظل تداعيات العولمة على الدول العربية بما فيها التأثيرات الثقافية السلبية على المجتمعات المحلية، وبالنظر لما يزرع به فكر مالك بن نبي وفي وضع أسس لنهضة المسلمين ومعالجة قضايا ومشاكل تخلفهم، ومنها الأمراض الثقافية، وتضمينه مسألة التغيير الثقافي في الإقلاع والنهوض التنموي كأولوية، يمكن الاستفادة من نهج التنمية الثقافية لبن نبي في تنمية المجتمعات المحلية العربية، من جوانب متعددة.

1- استيعاب فرص النهوض التنموي:

تتمتع دول العالم الإسلامي والعربي بثروات طبيعية وباطنية غنية ومتنوعة، ولكنها للأسف تفتقر لرؤية ثقافية وغياب عقل يفكر في الاستثمار المحلي في هذه الثروات والاستفادة منها بشكل أفضل، في حين يقتصرون مقابل ذلك باستيراد منتجات غريبة تعكس عالم الأفكار المتطور للإنسان الغربي المتحضر.

فلا بد أن يستوعب المسلمون سنن الله الثابتة في الكون التي يخضع لها الأفراد والجماعات، ليخرجوا مما هم عليه الآن من سبات حضاري وتتحول حركتهم ضمن تاريخ البشرية إلى حركة ثابتة هادفة بدل من كونها حركة عشوائية تحكمها

¹ مالك بن نبي. (2002)، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ص ص: 65-67.

الصدف، وتوجهها أهواء فردية ونزوات شخصية.

وقد أكد مالك بن نبي على قيمة الأفكار في عملية الإقلاع الحضاري، لأنها هي التي تقوم بتغيير الإنسان من حال إلى أحوال، بشرط أن تكون حية بناءة حديثة لا قاتلة ولا مميتة، أو مية لا روح فيها.

2- تفعيل دور الثقافة في تنمية المجتمعات المحلية:

إن المفكر مالك بن نبي في تشخيصه لوضعية المجتمعات العربية والإسلامية، أوجد مؤشرات لفهم تلك المتغيرات ووضع آليات لتفعيل التنمية في هذه المجتمعات، ومن بين هذه الآليات التغيير الثقافي.

فقد شكلت الثقافة محور نظرية مالك بن نبي في فلسفة التاريخ والحضارة على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة أزمة ثقافية، وأن نجاح أية حركة نهوض حضاري ترتبط بمشروعها الثقافي.

وهذا يقتضي مراجعة فكرية - ثقافية، نكتشف من خلالها أصولنا الفكرية ومفاهيمنا الأصلية كخطوة أولى في سبيل إعادة تأسيس لمفاهيمنا ومقولاتنا الفكرية والثقافية، لكي نشارك بفكر فاعل وثقافة ناهضة في تطورات العالم ومنعطقاته الحضارية. كما يقتضي أيضا مراجعة لسياسات التنمية الثقافية وتوجيهها للبناء وتنمية المجتمعات المحلية. ومن بين الجوانب التي تقتضيها تلك المراجعة، ما يلي:

1- معالجة مشكلة الثقافة بتحديد مفهومها ومفهوم العلم والمعرفة، وتحديد وظيفتها وأولوياتها.

2- تحديد المبادئ العامة والعناصر والظواهر الطبيعية التي يشملها مفهوم "الثقافة".

3- صياغة ما يتضمنه مفهوم "الثقافة" من مبادئ وعناصر وظواهر في برنامج تربوي صالح.

4- وضع هذا البرنامج موضع التطبيق لتحقيق الثقافة بصورة عملية في حياتنا الخاصة والعامة.¹

5- التخطيط المحكم لإدارة عمليات الثقافة في المجتمع بما يتوافق مع المتطلبات المحلية ويتكيف مع الثقافة العالمية، ومع التغيرات المستمرة والمتسارعة التي شهدتها الكثير من المجتمعات.

6- تفعيل دور القيم الثقافية في سياسات التنمية الثقافية، فالقيم الثقافية هي المعايير التي تميز الشعوب وتحدد تصوراتها وتوجهاتها وأهدافها، وتشمل القيم الثقافية الدينية والثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتكنولوجية وغيرها. وهي تلعب دورًا هامًا في تنمية المجتمعات المحلية.

ولا شك في أن القيم الثقافية الإيجابية كالنزاهة والشفافية والابتكار والإبداع والمشاركة والتعاون والتنمية المستدامة والمساواة والعدالة والتسامح والتعلم المستمر، تساهم في بناء مجتمعات قوية في العالم.

لذا فالتركيز على تعزيز القيم الثقافية الإيجابية والتخلص من القيم السلبية التي تعتمد على التضليل والفساد والتعصب والتمييز والانقسام وغيرها يمثل عنصرًا أساسيًا في تحقيق التنمية المحلية المستدامة. ويجب على الدول تعزيز القيم سواء في المدارس أو المؤسسات أو المجتمعات المحلية والعالمية بشكل عام.

7- تطوير الصناعات الثقافية، وتشمل قطاعات مثل الفنون والحرف اليدوية والتراث وغيرها. حيث تساهم في تحقيق النمو الاقتصادي، التماسك الاجتماعي، التبادل الثقافي، تطوير السياحة، بشكل عام، يعد تطوير الصناعات الثقافية أمرًا مهمًا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لبلد ما.

8- تعزيز الثقافة الرقمية من خلال التفاعل الاجتماعي والمشاركة في المجتمعات

¹ مالك بن نبي. (2006)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، مرجع سابق، ص ص: 102-115.

الرقمية، والشبكات الاجتماعية والمدونات وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي للتعلم وتبادل المعرفة والخبرات.¹

لذا يجب أن تحظى التنمية الثقافية باهتمام أكبر لمواجهة الأزمات الاقتصادية والتحديات التي تعرفها المجتمعات المحلية، فالمزيد من المساحات المفتوحة في الثقافة وممارساتها وجعلها معبرة عن الواقع الاجتماعي يعتبر أكثر من ضرورة لردم تلك الهوة الثقافية وهذا من خلال استيعاب المجتمع لثقافته.

3- التأكيد على فعالية القوى الاجتماعية في عملية التنمية:

فالمتمعن في فكر مالك بن نبي يجد بأنه مستوحى من روح الإسلام، الدين الذي جاء لتحقيق رقي وتقدم البشرية كافة، ومن ذلك تأكيده على أهمية تحقيق المعادلة الاجتماعية "الفرد في خدمة الجماعة والجماعة في مصلحة الفرد"، والتي ترتبط بجوهر شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة على العلاقة بين العبد وخالقه، فكلما كان الفرد تربطه علاقة متينة بينه وبين ربه كلما كانت علاقته بالآخرين ايجابية وفعالة، وفعالية شبكة العلاقات الاجتماعية مرتبطة بفعالية هذا المبدأ، وفي هذا الإطار يقول مالك بن نبي "وعلى هذا فان ما درسنا من أمراض مجتمع معين... فإننا ندرس في الواقع أمراض (الأنا) في هذا المجتمع، وهي الأمراض التي تتجلى في لا فعالية شبكة العلاقات الاجتماعية".²

وهذه المعادلة هي أساس الإقلاع الحضاري الذي نطلق عليه اليوم التنمية، فكلما كان المجتمع يد واحدة كلما تحققت التنمية وهذه الأخيرة لا تقوم إلا من خلال تضافر جهود الأفراد في إطار واحد وشامل.

¹ انظر: موقع إجابة: <https://www.ejaba.com/>.

² رابح لونيسي. (2011)، نظريات تحلف العالم الإسلامي، مجلة إضافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 14، ربيع 2011، ص 62.

وتعتبر هذه المعادلة بمثابة الحافز والدافع القوي لفعالية القوى الاجتماعية في عملية التنمية، وهي ضرورية للخروج من حالة الترهل السائدة في المجتمعات الإسلامية في مجتمع ما بعد الموحدين.

فقد أراد مالك بن نبي صناعة المجتمع وذلك بصياغة الأفراد صياغة اجتماعية، بحيث يصبحوا أشخاصا يتفاعلون مع غيرهم، لا أفراداً مرتبطين بذواتهم أو القطيع فقط كالقبيلة مثلاً.

ومن بين أهم العوامل التي تصنع المجتمع في نظره هي: المدرسة، التنشئة الاجتماعية، الدين.

فتنمية المجتمعات المحلية في الدول العربية ليست قضية إمكانيات مالية، ولكنها قضية تعبئة الطاقات الاجتماعية المحلية، وكيف يمكن للطاقات الاجتماعية أن تكون شرطاً أساسياً للإقلاع الاقتصادي، من خلال الاستثمار الاجتماعي (الإنسان، التراب، الزمن). فتجربة الصين هي خير دليل كيف طبقت الاستثمار الاجتماعي وكيف طبقت مبدأ التكامل على الذات، أي بالتعبير الاقتصادي مبدأ الاستثمار الاجتماعي من الإنسان الصيني، والتراب الصيني، والزمن المتوفر في كل أرض.

4- تفعيل دور الإنسان في تنمية المجتمع المحلي:

إن حركة التاريخ وركوده مرتبط بحركة الجهاز الاجتماعي الأول المتمثل في الإنسان، فإذا تحرك الإنسان تحرك معه المجتمع والتاريخ وهذا ما تدل عليه الدراسات الإنسانية.

فالإنسان يعتبر محور الفعالية في حركة الحضارة وفي تنمية المجتمعات، وذلك من خلال إمكانيات التغيير النفسي التي بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يساهم في بناء الحضارة وتحقيق التنمية.

فمالك بن نبي جعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، وأعطاه الدور الأساسي

في التنمية، واعتبره صانع الحضارات وأنه موجود في كل المجتمعات والبيئات، وأنه العنصر الحاسم في المعادلة والذي يعطي لها قوتها. وبقدر النجاح في صناعة البشر في مجتمع ما تكون نهضته. ويقول في هذا السياق: "يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى".¹

فالإنسان ينظر له بوصفه وسيلة تتحقق بها خطة التنمية، ومن هنا يأتي الاهتمام العالمي بالاستثمار البشري، والعالم الإسلامي والعربي أحوج إلى الاستثمار في الإنسان كرأس مال بشري، وبما يتفق مع أبعاده النفسية، وهذا هو جوهر التجديد عند مالك بن نبي، والذي ينتشر في شبكة العلاقات الاجتماعية، خصوصاً أن بناء الإنسان لا يتم بمجرد تصفية عقله من القابلية للاستعمار، بل يجب متابعته للتخلص من ذلك التلوث الفكري نتيجة جرائم الاستعمار ومخططاته العلمية ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية.²

فأي نهوض تنموي وحضاري، وأي استراتيجية لتنمية المجتمعات المحلية العربية، لا يكتب لها النجاح، ما لم تعتمد على دور الإنسان وفعاليته في المجتمع المحلي، ومشاركته بأفكاره في بناء مشروعات تنموية واعدة، وإحداث تنمية ثقافية تنطلق من بناء لمشروعات فكرية وفنية وإبداعية وثقافية تستوعب الثقافة العالمية، وتراعي ضرورة الحفاظ على القيم والثقافة الإسلامية الأصيلة لمجتمعاتنا.

إن جوانب الاستفادة المشار إليها، والمتعلقة بتبني نهج التنمية الثقافية عند مالك بن نبي في السياسات التنموية للمجتمعات المحلية العربية، وإن كانت لا تُنشئ حلاً عاجلاً لمشكلات عناصر الحضارة فيها، إلا أنها تستطيع أن تساهم في خلق بيئة ثقافية جديدة تمكّن الإنسان مع مرور الأيام من اكتساب المنطق العملي الذي ييسّر

¹ مالك بن نبي. (2006)، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 75.

² يوسف أزرّوال. (2019)، مرجع سابق.

له معرفة كيفية الربط بين العمل وبين الوسائل والمقاصد، أو بين الفكرة والعمل، أو بين المثل أو بين القيم أو المبادئ وبين السلوك أو بين المادة والروح، وذلك هو النهج التنموي السليم.

الخاتمة

من خلال هذا البحث تبين لنا محورية التنمية الثقافية النهوض التنموي عند مالك بن نبي، وبالإمكان تبني نظرية التنمية الثقافية لمالك بن نبي كنهج تنموي نابع من ثقافة المجتمعات العربية، قائم على ثقافة فاعلة وإيجابية، تنقل المجتمعات المحلية العربية من موقع الصمت السلبي أو الاستهلاك الدائم، إلى موقع المشاركة الإيجابية من أجل تحقيق أهداف التنمية الشاملة في الدول العربية.

وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- توجد علاقة وثيقة بين الثقافة والتنمية الاقتصادية، فالثقافة تعمل كعامل مهم في تحفيز التنمية.

- أن الثقافة تشكل أحد الروافد الهامة في حياة المجتمع المحلي يراد تغييرها لأجل تحقيق مستوى تنموي مناسب، وفي الوقت ذاته تمثل محدد رئيسي من محددات التنمية، ومعيار لتحديد نجاح أو فشل للتنمية،

- تعتبر نظرية مالك بن نبي في الثقافة محور ولبّ نظريته في فلسفة التاريخ والحضارة، على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة أزمة ثقافية، وأن نجاح أية نهج تنموي يرتبط بمشروعه الثقافي.

- أن تخلف المجتمعات ناجم عن تخلف ثقافتها وعليه يتعين عليها تكوين رصيدها الثقافي الفعال (الإيجابي) وتصفية رواسبها السلبية، وبذلك يحدث التعديل الاجتماعي والثقافي المستمر، وتكون مناعة لثقافة المجتمع وضمان لنموها وبقائها وهذا من خلال تحقيق التماسك والالتحام بين الفرد والمجتمع.

- أن مالك بن نبي حرص على إنشاء مقاربة تسمح ببناء الأفراد القادرين على أداء دور محرك التنمية.

- يرى مالك بن نبي أن أي عملية تقدم أو تغيير ثقافي اجتماعي لا يمكن أن تتحقق إلا إذا ارتبطت بوجود قوى اجتماعية تصنع هذا التقدم أو التجديد، وأهمها بل محورها الإنسان كصانع للحضارة.

- أنه بالإمكان الاستفادة من نهج التنمية الثقافية لمالك بن نبي في تنمية المجتمعات المحلية العربية، من جوانب متعددة، ومنها استيعاب فرص النهوض التنموي، تفعيل دور الثقافة في تنمية المجتمعات المحلية، التأكيد على فعالية القوى الاجتماعية في عملية التنمية، تفعيل دور الإنسان في تنمية المجتمع المحلي،

وبناء على ما تم التوصل إليه من نتائج، يمكن الخروج بالتوصيات التالية:

- علينا أن ندرك بأنه «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» أي أن نعود إلى الإسلام.

- العناية بفكر مالك بن نبي في مسألة الثقافة دراسة وتحليلاً لمضمونه ولنتائج التجارب المستفادة منه.

- ضرورة التخطيط المحكم لإدارة عمليات الثقافة في المجتمع بما يتوافق مع المتطلبات المحلية ويتكيف مع الثقافة العالمية، ومع التغيرات المستمرة والمتسارعة التي شهدتها الكثير من المجتمعات.

6- تفعيل دور القيم الثقافية في سياسات التنمية الثقافية، فالقيم الثقافية هي المعايير التي تميز الشعوب وتحدد تصوراتها وتوجهاتها وأهدافها، وهي تلعب دوراً هاماً في تنمية المجتمعات المحلية العربية.

- الاهتمام بدور الإنسان وفعاليته في المجتمع المحلي، ومشاركته بأفكاره في بناء

مشروعات تنموية واعدة، وإحداث تنمية ثقافية تنطلق من بناء لمشروعات فكرية وفنية وإبداعية وثقافية تستوعب الثقافة العالمية، وتراعي ضرورة الحفاظ على القيم والثقافة الإسلامية الأصيلة لمجتمعاتنا.

قائمة المراجع:

* القرآن الكريم

- 1- ابراهيم بدران.(2002)، افول الثقافة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت.
- 2- الطيب برغوث.(2006)، أفاق في الوعي السنني: محورية البعد الثقافي في استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، مركز الـراية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 3- القبلان غازي.(2017)، تنمية المجتمع المحلي، دار الخليج للنشر والطباعة والتوزيع، عمان، الأردن.
- 4- السحمراني أسعد.(1986)، مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً، دار النفائس، ط2، بيروت.
- 5- جاسم محمد سلطان.(2010)، من الصحوة إلى اليقظة: استراتيجية الإدراك للحراك، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، مصر.
- 6- مالك بن نبي.(1984)، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق.
- 7- مالك بن نبي.(1994)، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، سوريا.
- 8- مالك بن نبي،(1995)، من أجل التغيير: سلسلة مشكلات الحضارة، دار الفكر للتوزيع والنشر، ط5، دمشق، سوريا.
- 9- مالك بن نبي.(2000)، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق.
- 10- مالك بن نبي.(2002)، مشكلة الحضارة - تأملات، دار الفكر، دمشق.
- 11- مالك بن نبي.(2002)، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر، دمشق.
- 12- مالك بن نبي.(2002)، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار

الفكر، دمشق،

13- مالك بن نبي. (2006)، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط 6، دمشق.

14- مالك بن نبي. (2006)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق.

15- مالك بن نبي. (2007)، في مهب المعركة، إرهابات الثورة، دار الفكر، دمشق، سوريا.

16- مصطفى يوسف كافي. (2017)، التنمية المستدامة، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

17- عبد المطلب عبد الحميد. (2001)، التمويل المحلي والتنمية المحلية، الدار الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الاسكندرية.

18- الأخضر شريط. (1989)، مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، الجزائر.

19- حفيظة سبع. (2017)، دور الولاية في تحقيق التنمية المحلية. (ماجستير غير منشورة)، جامعة قسنطينة، الجزائر.

20- الزهرة بن عاشور وأخريات. (2021)، التغير الاجتماعي وعوائقه عند مالك بن نبي، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة محمد خيضر - بسكرة، الجزائر، المجلد 10، العدد 3.

21- السعيد جقيدل، آدم رحمون. (2017)، تفعيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الجزائري من خلال أطروحات مالك بن نبي، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، الجزائر، العدد 2.

22- حميد بن كويمي حران الرويلي، محمد بن عبد الله اليحيى. (2017)، دور أعضاء هيئة التدريس في تنمية الوعي الثقافي، مجلة جامعة الفيوم للعلوم التربوية والنفسية، مصر، العدد الثامن. الجزء الأول.

23- رابع لونيسي. (2011)، نظريات تحلف العالم الإسلامي، مجلة إضافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع بالتعاون مع مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 14، ربيع 2011.

- 24- زموري زينب.(2014)، ماهية التنمية التنمية الثقافية: دراسة تحليلية، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، الجزائر، المجلد 6، العدد 14.
- 25- لطيفة طبال.(2012)، التغير الاجتماعي ودوره في تغير القيم الاجتماعية، مجلة الباحث، جامعة ورقلة، العدد 8.
- 26- مصطفى النشار.(2018)، مالك بن نبي... من نقد الذات والآخر إلى بناء نظرية جديدة في البناء الحضاري، مجلة العقيدة، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق.
- 27- مسعود بوشخشوخة.(2017)، مالك بن نبي والتجديد الحضاري، مجلة الكلمة، منتدى الكلمة للدراسات، قبرص، العدد 95،
- 28- عمر حوتية، عبد العزيز السلومي.(2015)، القيم الروحية والنهوض التنموي في فكر بن خلدون مع الاشارة للتجربة الماليزية كأنموذج لمساهمة القيم في النهوض التنموي للمجتمعات المعاصرة"، مجلة المعيار، كلية أصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، قسنطينة- الجزائر، المجلد 19، العدد 38.
- 29- فاطمة بور.(2017)، الأمراض الثقافية في العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي، مجلّة العلوم الإسلامية والحضارة، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط، الجزائر، العدد الخامس، مارس 2017.
- 30- يوسف أزروال.(2019)، ظاهرة التخلف ومسألة التنمية: دراسة في ضوء فمر مالك بن نبي،، المجلة الجزائرية للأمن والتنمية، جامعة الحاج لخضر - باتنة 1، الجزائر، المجلد 08، العدد 2.
- 31- طاشمة بومدين.(2008)، "الحكم الراشد ومشكلة بناء قدرات الإدارة المحلية في الجزائر"، ورقة بحث مقدمة إلى الملتقى الوطني حول "التحولات السياسية وإشكالية التنمية في الجزائر: واقع وتحديات"، جامعة الشلف، 16-17 ديسمبر 2008.
- 32- Mansuri G, Rao V.(2003), *Evaluating Community Driven Development: A Review of the Evidence*, Development Research Group, World Bank, Washington.

استراتيجية الثقافة في العملية التنموية للأمم في فكر مالك ابن نبي رحمه الله

د. فهيمة بن عثمان

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)

benatmane-fahima@univ-eloued.dz

مقدمة

الناظر في فكر مالك بن نبي - رحمه الله - سيلاحظ عناية بالغة أولاها هذا المفكر لمشكلة الثقافة، فلا نكاد نجد كتابا من كتبه يخلو من الحديث المعمق أو الإشارة لمعنى الثقافة، ومفرداتها ووظيفتها وقيمتها في المجتمع وعلاقتها بالنهضة والحضارة. كيف لا ومالك بن نبي يرى أن مشكلة الحضارة في الأساس هي مشكلة الثقافة. والعارف لمفردات المنظومة الثقافية وقيمة كل مفردة ووظيفتها لن يستغرب هذا الطرح بل سيؤيده ويرى صحته، وسيقول ما قال مالك بن نبي بأن أي إخفاق أو تأخر حضاري يسجله مجتمع من المجتمعات يعود بالأساس إلى الإخفاق الثقافي، لذلك فقبل أن يحل المجتمع مشكلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية يجب أن يتجه إلى حل مشكلاته الثقافية، وهذا ما جعل مالك بن نبي - رحمه الله - يولي الثقافة كل هذا الاهتمام، ويضعها في مكانها الاستراتيجي في مشروعه الهام "مشكلات الحضارة".

إنّ محور تفكير مالك بن نبي هو مشكلة الحضارة، وإن أي تفكير في مشكلة الحضارة هو في الأساس تفكير في مشكلة الثقافة؛ لأنها أصل كل تحول حضاري في التاريخ، كما أنه عزا إليها معظم الفاجعات والنكبات التي يصاب بها المجتمع في الميدان الصناعي أو الأخلاقي أو السياسي أو العسكري. "فالفعل الحضاري هو في

الأساس فعل ثقافي" ¹.

فالمسألة الثقافية هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري، على اعتبار أن الحضارة هي محصلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية، وهذه السنن لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلا عبر عالم ثقافي سليم ومنسجم وفعال يتيح له امتلاك منهج البحث عنها، والوصول إلى إدراك آليات عملها من جهة، ومنهج الاستفادة منها في تحقيق الرقي الحضاري المنشود من جهة أخرى ².

بين مالك بن نبي وظيفة الثقافة في حياة الشعوب، وركز على الثقافة الإسلامية، وكان يستمد أدلته من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويعود إلى التاريخ فيدعم آراءه من وقائع المجتمع الإسلامي، وكذا المجتمع العالمي.

بين أن الفرد يأتي إلى الحياة في صورة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله بطابعه الأخلاقي وقواعده وعاداته وتقاليده، كما عبر عنه الرسول ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه" ³، فالمجتمع يكيف الفرد يشكله طبقاً لأهدافه الخاصة، فيصبغه بثقافته، فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان هذا الفرد واعظاً في جمعية أو صحفي أو شاعر أو ناقد أدبي... إلخ، فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي - النقد).

بيد أن المجتمع المتحضر يقع فيه كل خطأ في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع

¹. الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1 دار الينابيع

للنشر والإعلام، الجزائر، 1993، ص12

² المرجع نفسه، ص13

³ "حديث كل مولود.. رواه البخاري ومسلم.

على نقاوة أسلوبه، واعتدال سلوك أفرادهِ، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن به المسلمين حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (سورة آل عمران 110)

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في حديث السفينة: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً؛ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"¹، فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمناً.

الإشكال الذي تطرحه الدراسة: كيف صوّر مالك بن نبي رحمه الله وظيفة الثقافة في المجتمع؟ ولماذا أعطاها كل هذه المكانة في فكره وفي البناء الحضاري؟
فما معنى الثقافة؟ وي طرح هذا الاشكال أسئلة فرعية:

- ما معنى الثقافة من خلال فكر ابن نبي؟ - كيف لنا كمسلمين أن نوظف ثقافتنا في النهوض الحضاري؟

- كيف علينا المحافظة على ثقافتنا الإسلامية في زمن العولمة؟

خطة الدراسة

المبحث الأول: مفهوم الثقافة في فكر مالك بن نبي.

المبحث الثاني: محاور المنظومة الثقافية عند مالك بن نبي رحمه الله.
أولاً- التوجيه الأخلاقي، لتكوين الصلوات الاجتماعية.

¹ "مثل القائم في..." رواه البخاري ومسلم.

ثانيا: التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام.

ثالثا- المنطق العملي، لتحديد أشكال النشاط العام.

رابعا- الصناعة، أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع.

المبحث الثالث: وظيفة الثقافة في فكر مالك بن نبي رحمه الله.

تنتهج الدراسة المنهج الاستقرائي، لأنها ستعود إلى فكر مالك بن نبي رحمه الله

لتستقصي آراءه في موضوع الثقافة، كما أنها ستعتمد إلى تحليل هذه الآراء.

المبحث الأول: مفهوم الثقافة

أولا: المعنى اللغوي للثقافة

اهتم مالك بن نبي كثيرا بمسألة تحديد المصطلح، إذ نجده من خلال كتاباته له

منهج خاص في التعامل مع المصطلحات، حيث يعرفها لغويا، وتاريخيا

واصطلاحا، وفي اللغات العالمية، وهذا ما فعله مع مصطلح الثقافة، الحضارة.

يرى مالك بن نبي أن معالجة موضوع الثقافة يجعلنا أمام مشكلة لغوية تاريخية،

فيتساءل من أين جاءت كلمة ثقافة؟ ومنذ متى استخدمت؟¹

الثقافة في اللغة: رأى مالك بن نبي أن أول خطوة في تعريف الثقافة هي استشارة

القواميس، وهي بعد اطلاعه لا تذكر الكلمة إلا لماما، سواء في ذلك القديمة أو

الحديثة، ففي لسان العرب وجد أن مصطلح الثقافة مأخوذ من ثقف الشيء وهو

سرعة التعلم، وثقف الشيء حذقته، والثقيف هو الحاذق الفطن.²

ويقول ابن دريد: ثقفت الشيء حذقته، وفي حديث الهجرة: "هو غلام شاب لقن

ثقف".³ أي: ذو فطنة وذكاء، والمراد هو ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.⁴ ثم يعود مالك بن

¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط 1، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق، 1984، ص 19

² ابن منظور، لسان العرب، دط، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، 1988، ج 1، ص 13

³ حديث: "هو غلام.. " رواه البخاري

⁴ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 19

نبي إلى دوائر المعارف لتعريف مصطلح الثقافة، فيقول أن العلامة فريد وجدي في دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثاني: "ثقف يثقف ثقافة: فطن وحذق، وثقف العلم في أسرع مدة أي أسرع أخذه، وثقفه يثقفه ثقفا، غلبه في الحذق، والثقيف: الحاذق الفطن" ويطلع مالك بن نبي على القواميس الحديثة في تعريفها للثقافة، فيرى تشابه النصوص مما يجعله يستنتج أنها نسخا مكررة نقل بعضها عن بعض.

ثم يعود لابن خلدون فلا يجده يستعمل الكلمة كظاهرة اجتماعية، وإن وردت في مقدمته مرة أو مرتين فبمعناها الأدبي¹.

يتتبع مالك بن نبي المصطلح تاريخيا، فيصل إلى أنه إذا ما عدنا إلى لغة العصر الأموي والعباسي لا نكاد نجد هذه الكلمة في استعمال المسلمين لا في اللغة الأدبية أو الرسمية الإدارية رغم أن الثقافة العربية كانت آتت في أوج ازدهارها².

ونتيجة لهذا فالكلمة لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علما على مفهوم معين لأنها مستعارة أو جاءت من أوروبا³.

لم نجد مصطلح ثقافة في كتابات ابن خلدون لأن فكرة "ثقافة" حديثة جاءتنا من أوروبا، ثم إننا نجد فيما كُتب حديثا في البلاد العربية أن الكتاب يقرنون دائما "ثقافة" بكلمة culture، مكتوبة بحروف لاتينية، كأنها يبتغون بهذا أن كلمة ثقافة لا تكتب إلا بهذا الوضع، ومعنى ذلك أن هؤلاء الكتاب يدركون أن الكلمة لم تكتسب بعد في العربية قوة التحديد. فهي جديدة⁴ وجدت بطريقة التوليد.

ويمكن أن نقول أن الفعل ثقف يتصل تاريخه بلغة ما قبل الإسلام، حتى لنراه قد ورد في آية قرآنية: "وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ" (سورة البقرة 191)

¹. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 19

². المرجع نفسه، ص 20

³. المرجع نفسه، ص 13

⁴. المرجع نفسه ص 24-25

ولكن يبدو أن كلمة (ثقافة) لم تكتسب بعد قوة التحديد الضرورية لتصبح علماً على مفهوم معين، وهذا ما يفسر لنا أنها بحاجة دائماً إلى كلمة أجنبية تقرر بها لتحديد ما يراد منها في الكتب التي تتصدى لهذا الموضوع، أو بعبارة أخرى لا تزال الكلمة في العربية تحتاج إلى عكاز أجنبي مثل كلمة¹. Culture.

ثانياً المعنى الاصطلاحي للثقافة

يعرف مالك بن نبي الثقافة فيقول: "هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم - الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي يعيش فيه".²

فهذا التعريف يضم فلسفة الفرد، حيث تطبع سلوكه، كما تضم فلسفة الجماعة فتتظم أسلوب حياتهم، فسلوك الإنسان وأسلوب حياته وعلاقته بالآخرين، هو في الحقيقة نتاج المجتمع الذي ينشأ فيه الإنسان، فهو يستشفها من المحيط الذي يتربى فيه، كما يتنسم الأكسجين.

لذلك فردة الفعل، وتصرفات أبناء المجتمع الواحد تكون متشابهة حتى وإن اختلفت مستوياتهم المادية والعلمية، والطبيب والراعي لهما نفس ردة الفعل والانطباع تجاه الأحداث والمشاهد والمشاكل التي يواجهونها.

الإنسان حينما يولد في مجتمع معين بالضرورة سيمتص ويصطبغ بما في مجتمعه من روائح وألوان وأصوات وحركات وظلال وأشكال وصور.. كل هذه العناصر تتجمع لتندمج وتذوب في أنفسنا فتطبع شخصيتنا بها، وتكون أساساً لتصرفات وسلوكات أبناء ذلك المجتمع في أخلاقهم وتفكيرهم.. إلخ ذلك أن الثقافة هي:

¹ _ المرجع السابق، ص 25

² _ المرجع نفسه، ص 74

"المحيط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياتنا".¹

فالثقافة تمثل بوظيفة الدم، فهو يتركب من الكريات الدموية الحمراء والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد هو (البلازما)، ليغذي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته ويحمل أفكار (الصفوة) كما يحمل أفكار (العامة)، وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة.²

فالثقافة إذن هي المحيط الفكري والنفسي والاجتماعي الذي يحتضن الوجود الإنساني في المجتمع، ويدعمه بالخبرة المعرفية والسلوكية والأخلاقية والجمالية، فتتشكل في هذا المحيط طباعه، وشخصيته وذوقه وتحكم علاقته بالسنن التي في النفس وفي الآفاق، فالثقافة نظرية في المعرفة ومنهج في السلوك، ومنهجية في العمل والبناء.³

يرى مالك بن نبي أن الثقافة في صورتها الحية هي وحدة ذات أجزاء متماسكة، ومترابطة فيما بينها بروابط داخلية تحددها عبقرية الشعب الذي وضعها مطابقة لأخلاقه وأذواقه وتاريخه. والروابط هذه هي التي تضع على الثقافة طابعها الخاص، فتضع طابعاً خاصاً لأسلوب الحياة في المجتمع ولسلوك الأفراد فيه، بمعنى أنها تحدد كل الميزات الإنسانية والتاريخية الخاصة بتلك الثقافة.⁴

الفرد منذ ولادته غارق في عالم من الأفكار والأشياء التي يعيش معها في حوار دائم، فالمحيط الداخلي الذي ينام الإنسان في ثناياه ويصحو، والصورة التي تجري عليها حياتنا اليومية، تكون في الحقيقة إطارنا الثقافي الذي يخاطب كل تفصيل فيه

¹ _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 78

² _ المصدر نفسه، ص 78

³ _ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص 14

⁴ _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ط 3، دار الفكر، دمشق، 1969 ص 153

روحنا بلغة ملغزة¹.

- من خلال كل هذه التعريفات التي قدمها مالك بن نبي للثقافة يتبين لنا أن:
- الكلمة متولدة من لغة أجنبية، وأنها تُكتسب منذ الولادة من الوسط الذي يولد فيه الإنسان، فهي محيط نفسي وفكري واجتماعي ينشأ فيه أبناء المجتمع الواحد، فهي عنصر الجمع بين أفراد المجتمع، وهي بمثابة اللحمة، هذه الثقافة تكسبنا أسلوب الحياة، وطريقة التعامل مع الآخرين.
 - الثقافة هي الوسط الذي يعيش فيه المتعلم وغير المتعلم، فهي تمدهم بأسلوب مشترك في التصرف والتعامل وأسلوب الحياة، فتكون مواقفهم من أحداث متشابهة، فهي عنصر توحيد لأبناء المجتمع الواحد، في الأذواق والأخلاق والتاريخ.
 - الثقافة عنصر أمان المجتمع، يضمن خصوصيته بين باقي الشعوب.

المبحث الثاني: مفردات المنظومة الثقافية عند مالك بن نبي

لما كان للثقافة الموقع الاستراتيجي في حركة التجديد والبناء لأنها تشكل طباع الإنسان وأخلاقه وأذواقه، ومنهج سلوكه ومنهجية عمله. فقد وضع لها الأستاذ ابن نبي رحمه الله محاور إذا ما استوفت أتت أكلها في بناء الإنسان وإعداده، وبذلك يكون المجتمع قادرا على النهوض والتطلع إلى الحضارة، والمحاور التي حددها ابن نبي للثقافة هي:

- 1- التوجيه الأخلاقي لتكوين الصلات الاجتماعية.
- 2- التوجيه الجمالي لتكوين الذوق العام.
- 3- المنطق العملي لتحديد أشكال النشاط العام.
- 4- الصناعة، أو الفن التطبيقي الملائم لكل نوع من أنواع المجتمع².

¹_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص55

²_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص132

أولاً: المبدأ الأخلاقي:

المبدأ الأخلاقي، أو منظومة العالم السلوكي كما يسميها الطيب برغوث، والمقصود بها الارتقاء بالسلوك الإنساني الفردي والجماعي إلى قمم "الإحسان"، حيث تتناغم خطى الإنسان: الفرد والجماعة والأمة مع سنن الآفاق وسنن الأنفس وسنن الهداية¹.

غريزة التجمع أو الحياة الجماعية ثابتة عند الإنسان، والمجتمع المتحضر هو الذي يطبع ويهدي هذه الغريزة ويوظفها بروح خلقي سام، حتى لا يكون كالحیوان، وحتى يتجنب المجتمع الفوضى واللا نظام، ولما كان لهذا العنصر من أهمية فقد كان منحة من السماء إلى الأرض، يأتي مع الرسائل عند ميلاد الحضارات، ومهمته كما يقول ابن نبي: "هي ربط الأفراد بعضهم ببعض، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال 63)، فالروح الدينية هي التي تجمع بين العناصر المتفرقة كما جمع الإسلام بين الأنصار والمهاجرين، إلى درجة أن يقول الواحد منهم لأخيه اختر أي النساء من زوجاته².

والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة، وقد جاء رسولنا ﷺ ليتمم مكارم الأخلاق، فيعلو بها ويسمو إلى درجة يتميز فيها الإنسان عن غيره من المخلوقات التي تأتي رداً فعلها وفقاً لغريزتها، والله تعالى يثني على نبيه ﷺ بفضيلة الأخلاق رغم وجود فضائل لا تحصى خص بها الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم 4)، إن ابن نبي يولي اهتماماً كبيراً لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد فيقول: "إن الثقافة نظرية في السلوك أكثر

1_ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص 23

2_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 79

من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة"¹.

إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة وهو الإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم، ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج؛ فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع ودوافعه وغاياته.

ثانيا: الذوق الجمالي:

الذوق عبارة عن آداب السلوك التي تقتضي معرفة ما هو لائق أو مناسب في موقف اجتماعي معين، فالإنسان إذا كان ذا معرفة بالتصرف المناسب لكل موقف، ولم يخرج عن الأدب والعرف يكون صاحب ذوق.

الجمال في اللغة الحسن في الخلق والخلق، وجمل ككرم، فهو جميل كأمير؛ أي أن الجمال هو كل شيء مبهج يتجلى في الطبع والسجية والحياء والأخلاق، وكلها صفات يحملها الإنسان، وكما أنه يكون في كل ما هو مرتب ومنسجم ومتناسق يبعث الإثارة في النفس، والجمال في اللغة يتسم بالركة والحسن والبهاء، وينبئ عن الخلق الحسن والفعل الحسن². وقال ابن فارس: عظم الخلق وحسنه، والجمال معانيه تدور حول الحسن والنظرة والزينة³.

وعُرف أيضا بأنه الاستجابة الوجدانية لمؤثرات الجمال الخارجية، وهو اهتزاز الشعور في المواقف التي تكون فيها العلاقات الجمالية على مستوى رفيع؛ فيتحرك لها وجدان الإنسان بالمتعة والارتياح⁴.

فالجمال هو كل ما يعجب الإنسان ويستحسنه ويستسيغه، وتأنس إليه الروح وترتاح له، ويحرك شعورها النفسي، ويصل إلى الروح وتتقبله النفس وتطمئن إليه،

¹ _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص124

² _ عبد الله بن محمد العمرو، معايير الجمال في الرؤيتين الإسلامية والغربية، مجلة العلوم الشرعية، العدد 38،

ص7

³ _ المرجع نفسه، ص7

⁴ _ محمد البسيوني، التربية و الذوق الجمالي، دط، دار المعارف العلمية، القاهرة، 1986، ص49

كالمناظر الطبيعية أو الأحاديث، أو الحركات، أو التصرفات أو المناظر في المحيط الذي يعيش فيه الإنسان أو في الشارع أو البيت.. الخ
إن الأفكار في فكر مالك بن نبي هي المحور الأساسي في بناء الحضارة، ولذلك كان للأفكار الحية البناء ألا تنتج إلا في وسط منظم فيه من مساحة الجمال والذوق ما فيه، فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه، وكما يقول ابن نبي: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال أو بالأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقبح"¹.

فالأفكار تنسج عليها الأعمال، والأفكار تولد من الصور المشاهدة في محيط الإنسان، وإطاره الاجتماعي، والجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال توحى للإنسان وتغرس فيه نزوعاً إلى الجمال والكرام من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن، لذلك يقرر مالك بن نبي أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة².

ونظرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ستكشف لنا عن اهتمامها بالذوق الجمالي والنظام وطهارة النفس والجسم والثياب والمحيط وإمالة الأذى عن الطريق والكلام الطيب. هي نماذج هذا النزوع الإسلامي لتربية الذوق الجمالي وغرسه في الشخصية الإسلامية.

إن دور الأشياء الجميلة هو الإيحاء والخيال الجميل؛ لأن الأفكار تتولد من الوسط الاجتماعي، فالجمال الموجود في الوسط من أصوات وألوان وحركات وأشكال توحى للإنسان بالأفكار، وتدعوه للإحسان في العمل، فضلاً عن ذلك الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، ذلك أن الحضارة لا تتكون إلا

¹ _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 81.

² _ المرجع نفسه، 85.

في إطار الجمال¹.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الجمال فإنه علينا أن نتمثله في بيوتنا وشوارعنا ومقاهينا، وبذلك يثيرنا أي نشاز في الأصوات أو الألوان.. قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»².

وإذا كانت الصلوات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي؛ فإن للذوق الجمالي كذلك دور فيها؛ لذا تتداخل فيها اعتبارات الشكلية، من خلال الأحاديث النبوية نلمس مراعاة النبي ﷺ لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلاً حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه بقوله: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا..»³. ونلمسه كذلك في قوله للذي أحدث ما ينقض الوضوء في مجلسه: «من أكل لحم جزور فليتوضأ»⁴. ويظهر اهتمام الإسلام بالذوق الجمالي من خلال حثه على:

- طهارة البدن وجمال القلب والمعاملة: الذوق الجمالي جليّ في ثقافتنا الإسلامية، سواء من خلال تتبعنا لما جاء في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، حرص الإسلام على وجود الذوق الجمالي في كل حياتنا فتتحرك ونعيش في جو من الجمال داخل بيوتنا وفي الطبيعة وأسلوب حديثنا وأصواتنا وأبداننا وروائحنا، فيعيش المسلم في جوّ كله نظام وترتيب وذوق.

ترتبط أغلب العبادات في الإسلام بالطهارة، فلا تصح الصلاة مثلاً بلا غسل أو وضوء، والطهارة ترمز إلى الجمال والنظافة في البدن والرائحة الطيبة التي تتحقق بفضلها، وبما أن الصلاة خمس مرات في اليوم موزعة على أوقات عديدة فإن المسلم يكون دائماً على طهارة ونظافة، ولا يخفى على أحد أن طهارة البدن لها انعكاس

¹ - مالك بن نبي، شروط النهضة، ص78

² - حديث: "إن الله جميل.. " رواه أحمد

³ - حديث: "ما بال أقوام.. " رواه البيهقي

⁴ - حديث: "من أكل لحم جزور.. " رواه أحمد

حسن على نفسية الفرد حيث يشعر بالارتياح والحيوية والنشاط.

الوضوء ليس مجرد تنظيف للأعضاء الظاهرة فحسب وليس مجرد تطهير للجسد يتوالى عدة مرات في اليوم، بل إنه يؤثر نفسيا في السمو الروحي الذي يشعر به المسلم بعد الوضوء¹...

كما ارتبطت الصلاة كذلك بنظافة وطهارة المكان، والتحرز من كل نجس لذا يحرص المسلم على نظافة بيته من كل الأوساخ، فيعيش في بيت نظيفا ومرتباً ولا شك أن نظافة المكان تبعث في الروح الإحساس بالجمال والنقاء وارتياح النفسي. وقد شدد الإسلام في مسألة التحرز من النجاسات، وإلا تكون العقوبة العذاب في القبر.

وارتبطت الصلاة بالمساجد بالتنظيف ولبس أجمل الثياب وسن لها البياض على وجه الخصوص، مع تجنب كل أنواع الأكل التي ترتبط بالروائح غير الطيبة كالبصل والثوم، فمن احترام الفرد للمجتمع ألا يأكل هذه المأكولات وهو متوجه للقاء الجماعة، وقد حرص النبي ﷺ على السواك لأنه مطهرة للفم، وقال: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتَهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»².

- جمال القلب (الجانب الروحي):

يرتبط جمال المسلم بجمال روحه وتطهيرها من كل أمراض القلوب، لتكون نفسه شفافة ناصعة بعيدة عن الحقد والحسد والغل، كما ارتبط المسلم في علاقاته بإخوانه بجميل الأخلاق، حيث يلقاهاهم بوجه طلق والابتسامة والسلام والكلمة الطيبة، حتى في النصح لا يجرح مشاعرهم فينبه بأسلوب ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.

المسلم جميل في نيته، فالنية الحسنة لها الأجر والثواب، ويحرص الإسلام على أن يعيش المسلم بقلب نقي سليم وألا يبيت الإنسان الحقد في قلبه تجاه إخوانه من

1_ محمد بن إبراهيم محمد، عناية الاسلام بالصحة والنظافة، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1436هـ، 47.

2_ حديث "لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ... " أخرجه البخاري ومسلم.

المسلمين، وألا يتمنى الشر للناس ولا يحسد لهم أو يمتنى زوال نعم الله عليهم، ولا يحمل لهم البغض والكراهة. ذلك أن أمراض القلوب خطيرة على الإنسان، وتعكر صفو حياته ومزاجه وصحته، لذلك لم يُرد الإسلام للمسلم أن يفكر في الانتقام ورد السيئة بالسيئة، بل حثه على العفو قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران 3)، ويقول أيضاً: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت 35).

- جمال الأخلاق والتعامل مع الناس:

وإذا كانت الصلوات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي؛ فإن الذوق الجمالي له دور فيها لذا تتداخل فيها الاعتبارات الشكلية، من خلال الأحاديث النبوية نلمس مراعاة النبي ﷺ لهذه الاعتبارات الذوقية، فنراه مثلاً حينما يريد أن ينبه إلى خطأ صدر عن أصحابه نجده يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»¹، ونلمسه كذلك في قوله للصحابه: «من أكل لحم جزور فليتوضأ»² حيث أمر الجميع بالوضوء لكيلا يخرج الذي أحدث، فحتى تعاملاتنا مع الناس يجب ألا يكون فيها إحراج وأذى. ونبه النبي ﷺ بستر الصدقة حيث لا تعلم اليد اليمين ما أنفقت اليد الشمال، ليرفع الحرج عن الفقراء ويحافظ على مشاعرهم وكرامتهم.

حتى في النصيحة لم يكن رسول الله ﷺ يجرح مشاعر الناس، كان ينبه بأسلوب: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؛ كل ذلك لرفع الحرج عن المسلم، وكذا الابتعاد عن التشهير بالناس لأنه ليس من الإسلام، الذي يدعو إلى الستر، وكان ﷺ حريصاً على حفظ ماء الوجه لأصحابه وعدم إحراجهم.

فالنبي ﷺ يدرك ما للجمال من أثر في النفسانيات حين نراعيه، وماله من دور في

1- حديث "ما بال أقوام..." رواه البيهقي

2- حديث "من أكل لحم..." رواه أحمد

ربط الصلوات حين نلتزمه في تعاملاتنا¹.

يأمرنا الإسلام باللين في التعامل، فما كان اللين في شيء إلا زانه وما نقص من شيء إلا شانه، حتى الدعوة إلى الله نراعي فيها الحكمة والموعظة الحسنة، والابتعاد عن التعنيف والتجريح، وقد بين القرآن الكريم سبب محبة الناس للنبي ﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران 159)

وقد مدح القرآن الكريم النبي ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الفلم 4)، لذا الإنسان المسلم يطلب منه جميل الخلق، وهو باب واسع للدعوة إلى الإسلام، وبينت تعاليم الإسلام كثيرا من التصرفات إذا التزم المسلم بها تعم المحبة في المجتمع، كإفشاء السلام، والابتسامة. السلام يزرع المحبة وكذلك لقاء الإخوان بالابتسامة، ليس من الذوق أن نلقى الأقارب والجيران والأصدقاء والإخوان بوجه عبوس ومكشر، الابتسامة لها رونق وجمال، وتعابير تضيء على وجه صاحبها الراحة والسرور، والقبول من طرف الآخرين، وقد رتب عليها النبي ﷺ أجراً عظيماً، فقال ﷺ: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة»²، ومعنى الحديث، أَنَّ إِظْهَارَكَ الْبَشَاشَةَ إِذَا لَقِيتَ أَخَاكَ الْمُسْلِمَ، تُوجَرُ عَلَيْهِ كَمَا تُوجَرُ عَلَى الصَّدَقَةِ.

حث الإسلام على ضرورة رد الإحسان بالإحسان قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ (الرحمن 60) وهذه الآية تحث على رد الجميل والاعتراف به لأنه يديم المحبة بين الناس، يحث الإسلام على جمال العلاقات، وجميل الأخلاق حيث يلقاها بوجه طلق وابتسامة والسلام والكلمة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة في الإسلام صدقة، وهي سبب عظيم في تطيب قلوب الناس، وإدخال السرور على قلوبهم.

1- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص12.

2- حديث "ابتسامة..." أخرجه الترمذي

ونهى الإسلام عن صفات سيئة تفسد جمال العلاقات والأخوة بين الناس كالتجسس والتنازب بالألقاب والغيبة وسوء الظن والغيبة.

من جمال العلاقات بين الناس التعاون: «إن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»¹ الإحسان والأمان، لذلك كان ﷺ يوصي بالجار، وشدد في المسألة حين قال: «والله لا يؤمن.. من لا يأمن جاره بوائقه»²، وليس معنى هذا أن المسلم معصوم عن الخطأ، بل المسلم يسارع إلى طلب الصفح وتصحيح خطئه إذا أخطأ، فهذا أحد الصحابة ينادي بلال رضي الله عنه بابن السوداء؛ فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»³، وسرعان ما يشعر بخطئه ويسارع لطلب العفو.

يربي الإسلام الفرد المسلم على الانشغال بالنفس ومن خلال غض البصر وصرفه عن المحرمات، وخفض الصوت؛ لأن الأصوات المرتفعة تثير الانزعاج في النفوس والنشاز، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ (الحجرات 2)، وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان 3)، وقد قال الشيخ العثيمين أنه يدخل في خفض الصوت أصوات المزامير والغناء الذي يؤذي الجيران، وأيضا من الذوق أن لا يتسكع الناس في الشوارع بل يقصدون في مشيتهم ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (لقمان 3)، وقد نهى النبي ﷺ عن الجلوس في الطرقات لما فيه من إيذاء المارة، وعدم غض البصر.

للحفاظ على جمال العلاقات ورفع الحرج شرع الإسلام الاستئذان وحث عليه داخل البيت الواحد، وخاصة في أوقات العورات حيث يضع الناس ثيابهم، حيث نجد في الإسلام آداب الدخول على بعضنا البعض في البيت، حتى لا نرى بعضنا البعض في هيئات لا نحبها، وتوسع الاستئذان لإعلام الغير بالقدوم والزيارة، حتى في

1- حديث "إن الله في عون... رواه مسلم

2- حديث "...من لا يأمن جاره بوائقه..." رواه الشيخان

3- حديث "إنك امرؤ فيك جاهلية..." رواه البخاري

دخول الرجل على أهله بعد العودة من السفر حث النبي ﷺ أن لا يدخل على أهله ليلا، لتتمكن زوجته من الاستعداد لاستقباله بالآغتسال والتطيب ومشط الشعر.

- جمال البيئة والوسط التي نعيش فيها:

خلق الله تعالى هذا الكون جميلا، واستخلف فيه الإنسان، وسخر له كل ما في الطبيعة، وركب فيه الإحساس داخليا تذوق هذا الجمال والارتياح له، فأينما نولي وجوهنا نرى جمال الكون في السماء في البحار في الحقول في الفصول، في أنفسنا، في عالم الحيوان، ووجب على الإنسان عدم إفساد هذا الجمال، وعدم العبث في الطبيعة.

لذا يحرص على البيئة النظيفة لأنها مسخرة له، وفيها يجد راحتته، ليعيش فيها في جو صحي نظيف، لذلك حث النبي ﷺ على غرس الأشجار فقال: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»¹، وحث النبي ﷺ على إمطة الأذى عن الطريق فقال: «وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»².

أمر رسول الله ﷺ بتنظيف الأبنية، ونهى ﷺ عن التبول في الطرقات وأماكن الظل تحت الأشجار وموارد الماء. حفاظا على الطبيعة جميلة، يرتاح فيها الإنسان وينعم بخيراتها، وبظلمها وبمائها.

ومن خلال كل هذا الحديث عن الجمال في ثقافتنا الإسلامية ندرك أن الذوق الجمالي مهم جدا في ديننا وحضارتنا الإسلامية، ولا يمكن أن تقوم حضارة في ظل الفوضى واللا نظام والأوساخ، لذلك كان مالك بن نبي يرى أن الطفل إن كان فقيرا، يجب أن لا نجمع عليه الفقر والوسخ، لأن هذا الوسخ يسلب الطفل كرامته وصحته.

فالنبي ﷺ كان يدرك ما للجمال من أثر في النفسيات وماله من دور في ربط الصلات³.

1- حديث "إذا قامت الساعة... " رواه البخاري

2- حديث "و تُمِيطُ الْأَذَى... " رواه مسلم

3- مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دت، ص 73-74

ثالثا: المنطق العملي:

ويقصد به معرفة العمل وتحديد مقاصده ووسائله، حتى لا يقع المجتمع في استسهال الصعب، واستصعاب السهل، دون مقياس وتقدير، مستمد من الوسط الاجتماعي وما له من إمكانيات وقدرات، فبالمنطق العملي يستخرج المجتمع من الوسائل المتاحة له أقصى ما يمكن من الفائدة والمحصول، فإذا غاب المنطق العملي من المجتمع ضيعت الثروات، وبددت الطاقات والإمكانيات في مشاريع لا تقدر الأمور بقدرها، ولا ترسم الأهداف لأعمالها، فتكون محاولاتهم هائلة، والسبب كما يقول مالك بن نبي: "افتقادنا الضابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التحقيق"¹.

فالمنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعليا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، وأن لا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

يرى مالك بن نبي أن الوقت الذي يبني الحضارة إلى جانب الإنسان والتراب، وساعات العمل والتي عبر عنها "بالوقت في معادلة الحضارة" أو الدقائق المنتجة، والساعات التي تصبح تاريخا؛ لأن ساعات الفراغ تتحول إلى عدم، وهذا ما عبر عنه الرسول ﷺ في قوله: «إنما هي أعمالكم ترد إليكم»².

إذن الساعات إذا استغلها المجتمع ستتحول إلى إنتاج وثروة، أما إذا لم تستغل فإنها ستتحول إلى ساعات هاربة، ووقت ينتهي إلى عدم، وكما يقول ابن نبي: "فإن الزمن نهر قديم يعبر العالم ويروي في أربع وعشرين ساعة الرقعة التي تعيش فيها كل الشعوب، والحقل الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات التي تصبح تاريخا هنا

¹ _ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، 86.

² _ حديث: "إنما هي أعمالكم..." رواه مسلم

وهناك قد تصير عدما إذا مرت فوق رؤوس لا تسمع خريها"¹.

إن هذا المعنى هو الذي عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «ما من يوم يطلع ينشق فجره إلا وينادي منادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد فاغتنم مني فاني لا أعود إلى يوم القيامة»².

إن الحديث عن توجيه العمل في العالم الإسلامي المتخلف هو حديث عن توجيه شيء منعدم تقريبا؛ لأن أغلب ساعاتنا تتحول إلى عدم لخلائها من الإنتاج، بل جل وقت العالم الإسلامي هو ساعات فراغ³.

فالحديث عن توجيه العمل هو حديث عن تربية الأفراد عن العمل، والبذل والفعالية، وقد تعلم المسلمون هذه الفعالية حين كانوا يشيدون أول مسجد. إن توجيه العمل يعني سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، هو الاتجاه الذي يخطه المجتمع لنفسه، فيساهم في كل أفراد المجتمع في البناء، المهندس والراعي والمرأة والفلاح⁴.

إنه على قدر ما تكون في المجتمع صناعات وحرف وفنون تتجه أحوال معيشة الأفراد إلى التحسن، لذلك كان رسول الله ﷺ يحث على لمبادرة إلى الأعمال قبل فوات الأوان، ويحث على عدم تأجيل الانجازات حين قال رسول الله ﷺ: «من كانت بيده غرسة يريد غرسها وقامت الساعة فليغرسها»⁵. "فهذه النصيحة لمن يتولى الغرس من المسلمين يجب أن تتأملها ويستفيد منها كل مسلم، حتى في ظرف غير يسير أو أن الساعة قد حلت"⁶.

1. _ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دط، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006، ص68، وشروط النهضة ص211_212

2. _ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص68، وشروط النهضة ص211_212

3. _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص161-212

4. _ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص163

5. _ حديث "من كانت بيده.. " رواه أحمد

6. _ مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص128

إن هذا الحديث يدعو إلى المبادرة، وأن يكون الإنسان فعالاً يؤدي نشاطه على أكمل وجه، فتعليم الناس عمل، وإزالة الأذى عن الطريق عمل، وغرس شجرة عمل، واستغلال أوقات الفراغ عمل.. وهكذا لا يكون في الأمة كسول ولا اتكالي يعيش عبثاً على من يتولاه سواء فرداً أو مجتمعاً، وربما هذا ما عبرت عنه الآية حين قررت وجود إنسانين، أحدهما كل سلبى والآخر فعال وإيجابي نشيط، إذا ما توجه إلى عمل أداه على أحسن وجه، وكان بإمكانه استعمال وسائله الأولية واستخراج ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج، فلنعم المال الصالح للرجل الصالح، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل 76) ¹.

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً للرجل الفعال المعتمد على نفسه في شخص نبي الله داود عليه السلام حين قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» ².

كما يقصد مالك بن نبي رحمه الله بالمنطق العملي روح المسؤولية والإحساس بالواجب والقيام به دون توان، قبل المطالبة بالحق، لأنه متضمن في الواجب وتابع له ³.. ذلك أن الإقلاع الحضاري مرتبط بوضع نفسي واجتماعي، تقدم فيه الواجبات على الحقوق من جهة، بل وتتفوق عليها من جهة، بل وتتفوق عليه من جهة أخرى، وأي إخلال بهذه المعادلة يؤدي حتماً إلى إرباك عملية البناء وارتكاسها، فالواجب الفاضل هو أمانة على التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه نحو المجد ⁴.

¹ _ جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلاً، الجزائر، المطبعة العربية، ط1، 1990، ص6-

9-7

² _ حديث: "ما أكل أحد... " رواه البخاري

³ _ الطيب برغوث، ص26

⁴ _ المرجع نفسه، ص26

ولهذا فإن السياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بالتوقيع على وتر الحقوق، ليست سياسة، وإنما هي خرافة وتلصص، فالواجب الدائم هو أن نعلم المجتمع المناهج التي يشق بها الطريق قدما نحو أهدافه، عبر إتقان القيام بالواجب¹. وبرمجة حركة المجتمع على محور الواجبات لا تتأتى إلا بتحويل عميق لعادات وطبائع الناس²؛ أي: تحويل ثقافي شامل، تنجزه جهات كثيرة في المجتمع.

يحث مالك بن نبي على استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من الوسائل المتاحة، مهما كانت بساطتها وقلتها؛ لأن التاريخ في نظره يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة الخاصة بكل دقيقة، بكل ساعة، لا في معناها المعقد، كما يعتمد إلى تعقيده بعض الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء وشعارات كاذبة، يعطلون بها التاريخ بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة، لذا يرى أن حياتنا اليومية تعاني من "اللا فاعلية"، إذ يذهب جزء كبير من أعمالنا في العبث والمحاولات الهائلة، بسبب افتقارنا الضابط الذي يربط في حركتنا بين عمل وهدفه، وبين سياسة ووسائلها³.

تحدث مالك بن نبي كثيرا عن مظاهر اللا فاعلية في المجتمع الإسلامي، فيرى أنه لا يلزمنا ملاحظة طويلة لنرى أن المنطق العملي ينقص في مجتمعنا الإسلامي، لأن عجز الأفكار يخلق وينتج في المجال النفسي عجزا في المراقبة الذاتية، وعجزا في مراجعة النتائج، ففكرنا لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية ونتائجها من ناحية أخرى، ومفهوم المحصول لا وجود له في ثقافتنا⁴.

حث الإسلام على العمل، ورغب في الأكل من عرق الجبين، وأخبر النبي ﷺ

1_ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دط، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 161-162.

2_ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، ص 108.

3_ مالك بن نبي، في مهب المعركة، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، ص 78-147.

4_ مالك بن نبي، فكرة كومونيلث إسلامي، ط2، دار الفكر، الجزائر، دار الفكر، دمشق، 1990، ص 59.

أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وعلمنا النبي ﷺ ألا نحتقر الأعمال فقال: «والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خيرٌ له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه»¹. فالمهم أن يكون الإنسان فعالاً، معتمداً على نفسه، فلا يكون كلاً متكلماً متواكلاً، وفي الإسلام العمل عبادة.

لذا لابد من توجيه الجهود، والتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد والوقت، فهناك ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية، هذا الجهاز (الإنسان - السواعد المنتجة) حين يتحرك التاريخ، نحو الهدف المنشود، وهنا تكمن فكرة توجيه الإنسان الذي تحركه دوافع دينية لمهمتها، فليس المهم أن نتج أفكاراً فقط، بل يجب أن نوجهها طبقاً لأهداف المجتمع².

رابعاً: التوجيه الفني أو الصناعة:

ويقصد بها تحويل العلوم النظرية إلى فنون ومهن، واستغلال كل الطاقات والقدرات في العمل الصناعي المثمر، لأن الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم، ولكنها بالنسبة للمجتمع كما يقول مالك بن نبي: "وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه"³.

ذلك أنه إذا كان لمجتمع قيماً أخلاقية تحافظ على علاقة أفراد المجتمع فيما بينهم - شبكة العلاقات الاجتماعية - وإذا ما تكوّن للمجتمع ذوق جمالي فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام والروائح والأشكال، وأصبح لأفراده منطقاً عملياً

1_ حديث "والذي نفسي بيده". رواه البخاري

2_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 67

3_ حديث: "ما من يوم ينشق.. لم أجده في الكتب الحديثية

يستغلون به كل الطاقات والإمكانات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل المتاحة، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تُحل فيه مشكلة الحضارة، فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

وقد سمى الأستاذ الطيب برغوث هذا التوجيه الفني والصناعي بعالم الخبرات الإنجازي، وهو كل ما يساعد الفرد والمجتمع من الخبرات التسييرية الإدارية والاتصالية والفنية والتقنية. لتحسين أدائها الاجتماعي، ورفع مستوى استفادتها من الإمكانيات المتوفرة والظروف المحيطة¹.

أكد مالك بن نبي على ضرورة العناية بتدعيم منظومة الخبرات الانجازية التي تساهم بقسط وافر في تسريع الحركة التاريخية، واختزال الزمن وتوفير الجهد والوقت².

المبحث الثالث: دور الثقافة

تأتي الطبيعة بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله بطابعه الأخلاقي، وقواعده وعاداته وتقاليده، كما عبر عنه الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»³. فالمجتمع يكيّف الفرد يشكّله طبقاً لأهدافه الخاصة ويصبغه بثقافته⁴. فيندمج الأفراد في نطاق المجتمع، فيصبحون بمثابة التعريف به، ويصبح مجتمعهم بمثابة المعرف لهم، فتكون علاقة المجتمع بالأفراد علاقة إرغام اجتماعي، وعلاقة الفرد بالمجتمع علاقة نقد، سواء كان الفرد واعظاً في جمعية أو صحفي أو شاعر أو ناقد أدبي... فهما مظهران لثقافة معينة في وظيفتها الاجتماعية (الإرغام الاجتماعي - النقد)⁵.

1_ الطيب برغوث، مرجع سابق، ص26

2_ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص148

3_ حديث: "كل مولود.. رواه البخاري ومسلم

4_ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص115-116

5_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص84

إن المجتمع المتحضر يقع كل خطأ فيه في سلوك الأفراد تحت إرغام المجتمع، ويقع فيه كل خطأ في الأسلوب تحت طائلة النقد، وبهذا يحافظ المجتمع على نقاوة أسلوبه واعتدال سلوك أفراده، وهذا الالتزام المتبادل هو الذي عرف القرآن الكريم به حين أراد التعريف بهم فقال: ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران 110).

الالتزام بين الفرد والمجتمع علامة صحة وتحضر للمجتمع، فالمجتمع يحتوي أفراده، ولا يسمح لهم بالخروج عن أهدافه، فإذا لم يعد المجتمع قادراً على السيطرة على أبنائه بكفهم عن ضروب الفساد، وإذا ما صار الفرد لا يهتم بما يحدث في مجتمعه ومحيطه، وفقد حقه أو رغبته في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، هنا تحدث الأزمة الثقافية، والتي تعني الانفصال بين الفرد والمجتمع.

كما أن هذا المبدأ قد تناولته السنة في مواضيع عدة منها حديث السفينة: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و... ونجوا جميعاً»¹.

فالذين في قاع السفينة يمثلون الشذاذ وضروب السلوك الهامشية الذين يتولى الضغط الاجتماعي إرغامهم على الخضوع لمبادئ المجتمع ليبقى آمناً، أما موقف الفرد الاستنكاري أو الناقد فقد عبر عنه حديث الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره»². "فكل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها وذلك بأن تضع أولاً بين الجسم الاجتماعي والفرد ذلك التبادل الذي يقوم على تقويم الأخطاء مهما يكن مصدرها"³.

فدور الثقافة إذاً هو خلق اللحمة الاجتماعية، بحيث يصبح فيها الالتزام متبادلاً بين الفرد والمجتمع، كما في حديث السفينة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمجتمع المتحضر هو الذي لا يسمح أن يكون فيه أي انفصال بينه وبين أفراده، فيفقد السيطرة

1_ حديث "مثل القائم" .. رواه البخاري ومسلم

2_ حديث "من رأى منكم منكراً" .. رواه الترمذي

3_ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 46-47

عليهم وعلى توجيه سلوكهم وفق الهدف الذي يرسمه المجتمع لنفسه. من أولى واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدينا وإطارنا الأخلاقي والاجتماعي، بما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها، حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة. ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع، يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة. ونخلص من ذلك إلى ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين: سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي؛ وإيجابية تصلنا بالحياة الكريمة¹. وقد قامت الحضارة الإسلامية بعملية التجديد من ناحيتها السلبية والإيجابية، إلا أنها جاءت بهذين التجديدين مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية².

خاتمة

من خلال البحث في موضوع الثقافة في فكر مالك بن نبي رحمه الله، توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- الثقافة هي المحيط الذي ينشأ فيه الإنسان، ففي جوها يكتسب أسلوب الحياة، وطريقة التعامل فالثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة المجردة.
- تتكون الثقافة من عدة محاور، المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي والنشاطات، والصناعة والفن الملائم لكل مجتمع، إذا ما استوفت هذه المحاور في مجتمع أتت أكلها وحدثت النهضة وأقيمت الحضارة.
- ثقافتنا الإسلامية تحث على محاور الثقافة التي دعا إليها مالك بن نبي، فإذا ما وظفناها ثقافتنا الإسلامية واستثمرناها، وعشنا بما تدعو إليه، تتحقق النهضة، فهي تدعونا إلى التزام المبادئ الأخلاقية ومراعاة الذوق الجمالي في كل حياتنا وتحث على

__مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 71.

__مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 72.

العمل والكسب وتعلم الحرف والصناعات.

- الأخلاق وظيفتها ربط الأفراد بعضهم ببعض، والارتقاء بالأخلاق والسلوك الإنساني هو الهدف الأساسي للحضارة كي يختلف الإنسان عن الحيوانات في تصرفاته وردات فعله.

- يدعم مالك بن نبي أفكاره بالأمثلة من الثقافة الإسلامية خصوصا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وحياة الصحابة والمجتمع الإسلامي، وأيضا المجتمع العالمي.

- إن بن نبي يولي اهتماما كبيرا لجانب الأخلاق الذي سينعكس في سلوك الأفراد.
- إن العنصر الأخلاقي يقوم ببناء عنصر هام ومؤثر في غيره من عناصر الحضارة هو والإنسان الذي يتحكم في الأشياء والمفاهيم ويشغل الزمن بساعات عمل وإنتاج، فالجانب الأخلاقي يحدد الاتجاه العام للمجتمع، ودوافعه وغاياته.

- ارتباط الحضارة بالثقافة، الثقافة التي تمد الإنسان بالأخلاق فلا يتصرف ببهيمية أو بالغريزة، وتجعل له ذوقا جماليا في اللباس والمحيط وفي كلامه وأسلوب تعامله، وتحثه على العمل وتجعل منه إنسانا فعالا نشيطا يستغل وقته بالحرف والفنون والصناعات، فإنه سيقم حتما حضارة، لكنه إذا انتكس عن الأخلاق وعن الذوق وصار كسولا عالة على غيره خرج من الحضارة وتحول إلى البداوة.

- قيمة الذوق الجمالي في بناء الحضارة أن الأفكار الحية البناءة أنها لا تنتج إلا في وسط منظم فيه من مسحة الجمال والذوق ما فيه، فالصور التي تحيط بالإنسان لها أثرها في فكره وأعماله ومساعيه. والجمال الموجود في هذا المحيط من روائح وأصوات وألوان وحركات وأشكال توحى للإنسان وتغرس فيه نزوعا إلى الجمال والكريم من العادات، والممارسات، وتبعده عن كل ما هو مستهجن.

- إذا كانت الصلات الاجتماعية يحددها المبدأ الأخلاقي؛ فان للذوق الجمالي كذلك دور فيها لذا تتداخل فيها اعتبارات الشكلية.

- المنطق العملي يعني أن يكون المجتمع فاعلا، فيستغل ما عنده من إمكانيات ووسائل وطاقات، ولا يدع ساعاته تمر فراغا، بل يحول تلك الساعات إلى ساعات عمل وإنتاج.

- الصناعة هي وسيلة كسب الأفراد، وبناء مجدهم.

- الثقافة تضمن خصوصية الشعوب، لذلك تعد عملية تنقية الثقافة وتوجيهها باستمرار أمرا مهما، وهذا ما تفعله الحركات الإصلاحية باستمرار.

- إذا ما تكوّن للمجتمع ذوق جمالي فأصبح يعيش في جو متناسق من النظام والروائح والأشكال، وأصبح لأفراده منطق عملي يستغلون به كل الطاقات والإمكانيات المتاحة، فيستخرجون أقصى ما يمكن من الفوائد من الوسائل المتاحة، وإذا ما استطاعوا تحويل كل أفكارهم إلى صناعات ومهن، وإنتاج للسلع والمواد، هنا يمكن لهذا المجتمع أن تُحل فيه مشكلة الحضارة، فيدخل التاريخ من بابه الواسع.

- لا بد من إزالة الخلط بين الثقافة والتعليم، فالثقافة هي فلسفة الإنسان، بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة بوظيفة الإنسان. الثقافة وسط يعيش في ظله الإنسان المتعلم وغير المتعلم.

- لا يمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد تاريخه.

- تأثير الجمال في الحياة الاجتماعية، أنه لا يمكن تصور الخير منفصلا عن الجمال.

- الجمال يعني النظام.. الصحة.. جمال المحيط الاجتماعي، إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجوهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام ذاته.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دط، دار الجليل، بيروت، دار لسان العرب، 1988.
- 2- مالك نبي، مشكلة الثقافة، ط1، دار الفكر الجزائري، دار الفكر دمشق، 1984.
- 3- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دط، دار الفكر، الجزائر - دمشق، 1986.

- 4- مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ط2، دار الفكر، الجزائر - دمشق، 199.
- 5- مالك بن نبي، فكرة كومونيلث إسلامي، ط2، دار الفكر، الجزائر - دمشق، 1990 .
- 6- مالك بن نبي، في مهبط المعركة، ط2، دار الفكر، الجزائر - دمشق، 1990.
- 7- مالك بن نبي، شروط النهضة، ط3، دار الفكر، دمشق، 1969 .
- 8- مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ط، دار الفكر المعاصر، دمشق، 2006.
- 9- مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دت .
- 10- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ط، دار الفكر، الجزائر - دمشق، 1986.
- 11- جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا، الجزائر، المطبعة العربية، ط1، 1990.
- 12- الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط1، دار الينابيع للنشر والإعلام، الجزائر، 1993 .
- 13- محمد بن ابراهيم محمد، عناية الاسلام بالصحة والنظافة، ط1، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، 1436هـ .
- 14- محمد البسيوني، التربية والذوق الجمالي، ط، دار المعارف العلمية، القاهرة، 1986 .
- 15- عبد الله بن محمد العمرو، معايير الجمال في الرؤيتين الإسلامية والغربية، مجلة العلوم الشرعية، العدد38.

التنمية الثقافية عند مالك بن نبي (دراسة تحليلية)

أ.د. عبد الرحمن تركي

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)

tourki-a.rahman@univ-eloued.dz

مقدمة

انتهج مالك بن نبي منهجا واقعيا اجتماعيا في فلسفته وفكره حول التنمية الثقافية، حيث انطلق في تأملاته وأبحاثه وكتاباته من المجتمعات العربية والإسلامية، والتي تتجلى فيها كل الصعوبات والتحديات التي تواجه التنمية الثقافية، رغم امتلاكها منظومة عقائدية وأخلاقية وفقهية مقتبسة من الوحي الإلهي ممثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن اجتهادات العلماء والفقهاء، هذه المنظومة تضمن لها النهوض والتقدم والسعادة في الدارين إن هي التزمت بمبادئها وسارت في ضوء هديها.

كما استفاد ابن نبي من العلوم والتجارب التي عاشها على امتداد عقود من القرن العشرين، وجعلها شواهد وأمثلة لتأملاته، وأخذ بها على سبيل الاستدلال ليقارنها بوقائع التاريخ وخاصة التاريخ الإسلامي.

واطّلع على الثقافة الغربية على أسسها وأهدافها، مما جعله يقارن بين المجتمعات الغربية (الأوربية والأمريكية) والمجتمعات العربية والإسلامية، هذه المقارنة - التي قامت كذلك على التجربة الميدانية والملاحظة المباشرة - كشفت له عن أسباب تخلف العالم الإسلامي وسوء موقفه اتجاه الحضارة الغربية المتطورة وعدم استفادته من منجزاتها وتقنياتها.

وأكد ابن نبي على الاتجاه النفسي والاجتماعي في التنمية الثقافية، فعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، رأى أنه دعوة إلى تغيير الإنسان من أجل تغيير جماعته، لأن الإنسان هو أساس التغيير وهدفه، كما

رأى أنه دعوة إلى البدء بتغيير ما بالنفس، فإذا تغيرت نفس الإنسان تغير محيطه وتغيرت حياته وأمته.

في هذه المداخلة نحلل رؤية ابن نبي للتنمية الثقافية، وما هي مجالاتها لديه، وما هي الحالة التي يعيشها العالم الإسلامي.

1 - مفهوم التنمية الثقافية وأهدافها ومجالاتها:

أ - مفهومها: التنمية الثقافية هي تمكين الأنشطة الثقافية أو تعزيزها داخل المجتمع، لجعل أفراد أكثر ثقافة وإدراكا، مما يحسن جودة حياتهم، فالثقافة تفتح آفاقا اجتماعية واقتصادية جديدة في البلد الذي ينتمي إليه الأفراد، وهو ما يزيد دخلهم ويحقق رفاهيتهم على المدى البعيد⁽¹⁾.

أو هي دعم الأنشطة المعرفية والمشاريع الثقافية، وتسهيل الاستثمار في القطاع الثقافي، لتعزيز دوره في التنمية الاقتصادية، وتمكين المواطنين المهتمين بهذه الأنشطة من الانخراط فيها⁽²⁾.

أو هي عملية إنسانية شاملة، تبدأ من تنمية الثقافة أساسا وصولا إلى تطويرها وتحديثها وبلورتها حتى تكون ثقافة هادفة بانية للإنسان وللمجتمع، والثقافة هي مجمل النشاط الإنساني في حقول الإبداع الفكري والأدبي والفني على تعدد أوجه هذا الإبداع، والثقافة في المجتمعات الإسلامية هي بالضرورة ثقافة إسلامية، للعلاقة الوثيقة بين الثقافة أي ثقافة، وبين المجتمع مهما تكن هويته وطبيعته⁽³⁾.

ب - أهدافها: تتمثل أهداف التنمية الثقافية فيما يلي⁽⁴⁾:

¹ - الموقع الإلكتروني: <https://ndf.gov.sa/ar/cultural-development>، تاريخ الزيارة: 2024/6/7.

² - الموقع الإلكتروني: <https://ndf.gov.sa/ar/cultural-development>، تاريخ الزيارة: 2024/6/7.

³ - عبد العزيز التويجري: التنمية الثقافية من منظور إسلامي، ص 12، 13، 14.

⁴ - الموقع الإلكتروني: <https://ndf.gov.sa/ar/cultural-development>، تاريخ الزيارة: 2024/6/7.

1 - المحافظة على الموروث الثقافي؛ نظرًا لكون الثقافة تحمل هوية المجتمع، ومعتقداته وعاداته، فإن التنمية الثقافية تُسهم في تعميق تلك المفاهيم لدى أفراد المجتمع مع مرور الوقت.

2 - نشر المعرفة، حيث يعد نشر المعرفة من أهم أهداف التنمية الثقافية، إذ تُسهم المعرفة في رفد المجتمع بالكفاءات والقدرات البشرية التي تمتلك العلم والمهارات والإبداع والطموح، كما أنّ المعرفة تُعدّ عماد تقدّم المجتمعات وارتقائها.

3 - تعزيز الفكر الإبداعي لدى الأفراد، فتشجيع التنمية الثقافية يزيد من ثقافة الأفراد ووعيهم، ويعمل على تطوير الإبداع الثقافي لديهم، وهذا يساعد على تطوير المجتمع الذي يتيمون إليه.

4 - تحقيق التنمية الاقتصادية، فالتنمية الثقافية تعزز التنمية الاقتصادية في المجتمع، عبر العديد من المعارف والمهارات والصناعات، وإن العمل على تشجيع التنمية الثقافية يعد استثماراً ناجحاً في عالم الاقتصاد، ويساعد على ترسيخ مفهوم التنمية المستدامة في المجتمع.

ج - مجالاتها: يوجد العديد من المجالات التي يمكن من خلالها تحقيق التنمية الثقافية، ومنها ما يلي⁽¹⁾:

- 1 - التشجيع على اكتساب المعارف الثقافية.
- 2 - دعم الأنشطة والمشاريع الثقافية.
- 3 - تطوير مراكز البحث والثقافة والمكتبات.
- 4 - دعم اكتساب العلوم والآداب والفنون بمجالاتها المختلفة.

¹ - الموقع الإلكتروني: <https://ndf.gov.sa/ar/cultural-development>، تاريخ الزيارة: 2024/6/7.

2 - رؤية ابن نبي للتنمية الثقافية:

التنمية الثقافية كما يرى ابن نبي لا تخضع لقوانين غامضة مجهولة الأسباب، وإنما تخضع للعمل والاجتهاد والإبداع والابتكار، ويضرب لهذا مثلاً بقانون الجاذبية الذي طالما قيّد الإنسان بحتمية التنقل براً أو بحراً، ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون، ولكن بالتصرف مع شروطه الأزلية بوسائل جديدة تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم⁽¹⁾.

وظلّ ابن نبي من خلال أحاديثه يوماً بعد يوم يحلّل مفهوم الثقافة عبر تطوّر الحضارات وتدافع الشعوب، وجاءت أفكاره حول مفهوم الثقافة برؤية جديدة لم تألفها المصطلحات المستوردة التي تمت صياغتها في إطار الفكر الليبرالي أو في إطار الفكر الشيوعي، جاءت أفكاره في صورة تحليلية تحفّز الفكر العربي الإسلامي وتحركه باتجاه اكتشاف الحقائق والمصطلحات وفق المعطيات النابعة من تجربته⁽²⁾.

وتحدث ابن نبي عن أهمية الثقافة وضرورتها للإنسان، إذ أنّ مصيره رهن بثقافته، وأيّ تفكير في مشكلة الحضارة هو في جوهره تفكير في مشكلة الثقافة، وتحدث عن مشكلات الثقافة الاتّصالية والتي تتّصل بتعايش مجتمعين أو أكثر، كما تحدث عن مشكلات الثقافة على المستوى العالمي، وتطرق في حديثه إلى تحليل عالم الأفكار والجوانب النفسية والاجتماعية والأخلاقية المرتبطة بالثقافة في العالم الإسلامي⁽³⁾.

والثقافة لديه هي مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته، وهي المحيط الذي يعكس

1 - ابن نبي: تقديم كتاب (حتى يغيروا ما بأنفسهم) لجودت سعيد، ص 10، 11.

2 - عمر مسقاوي: تصدير كتاب (مشكلة الثقافة) لابن نبي، ص 7، 8.

3 - سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ص 19.

حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر، وهذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام المعطيات في كيان واحد⁽¹⁾.

والثقافة لديه تعطي العلم وتعطي السلوك والغنى الذاتي الذي يتواجد على كل مستويات المجتمع، وتعطي امتلاك القيم الإنسانية التي تصنع الحضارة، والثقافة تصنع الإنسان الذي يراقب ذاته في بادئ الأمر، حيث يتناسق عالم الظواهر وعالم الداخل، وهذه النظرة هي التي تسمح للإنسان أن يسيطر على ذاته، وأن يسيطر على الأشياء التي ابتدعتها عبقريته⁽²⁾.

والثقافة الإسلامية كما يرى ابن نبي كانت تتميز عن الثقافات الأخرى بأنها حررت الشعوب من الخرافات والوثنيات وعبادتها، وكانت القدوة والإلهام للمسلمين وللعالم كله، غير أن هذه الثقافة وصلت إلى نقطة الانتكاس والارتداد والتقهقر، حيث أصيبت في عصور الانحطاط بالضعف والوهن وعدم الجدوى وانعدام الفائدة العملية، بسبب انحسار المجال العقلي وتوقف الإبداع العلمي خاصة في علوم الكون والحياة والطبيعة، وغلبة ثقافة الخمول والتواكل والاستسلام والجمود العقلي وعدم الأخذ بالأسباب⁽³⁾.

والدين لديه عامل اجتماعي مؤثر في توجيه التاريخ، معتمداً على دور الديانة النصرانية في تركيب الحضارة الغربية، ومعتمداً على الاعتبار النفسية والاجتماعية للأمم والمجتمعات، إلا أن الدين لا يقوم بدوره الاجتماعي إلا بقدر ما تكون الأمة متمسكة بقيمها الغيبية ومبادئها العقدية⁽⁴⁾.

1 - زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص 98.

2 - ابن نبي: من أجل التغيير، ص 54، 55.

3 - زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص 80.

4 - ابن نبي: شروط النهضة، ص 12، 13، 15، 65.

وبحث ابن نبي مكونات الحضارة من الإنسان والتراب والزمن، ودور المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي في بناء الحضارة وتركيبها، وبين أسباب تدهور المجتمع الإسلامي المعاصر⁽¹⁾ ومظاهر تخلفه وانحطاطه مبرزاً المراحل التاريخية التي مرّ بها (مرحلة الروح - مرحلة العقل - مرحلة الغريزة)، ومقاييس القيم النفسية والاجتماعية الدالة على أحوال تطوره، وما آل إليه اليوم من هيمنة الغرب عليه مادياً وثقافياً⁽²⁾.

كما اعتقد أن الإنسان هو في نظره منبع وأساس المشكلة الحضارية، وأي تفكير في مشكلته هو في الأساس تفكير في مشكلة الحضارة، غير أن مشكلة الإنسان تختلف باختلاف البيئة التي يعيش فيها ومعطياتها، فالفرد في المجتمع البلجيكي مثلاً يعيش في حياته حالة عدم توازن اقتصادي ناجم عن عدم الملاءمة بين حاجاته وتيار الإنتاج الصناعي السريع أي حالة حركة مضطربة، في حين يوجد حسب العكس في المجتمع الإسلامي، إذ المشكلة هنا ليست في الحركة وإنما في الركود، إنها مشكلة الفرد المنتمي إلى هذا المجتمع، والذي عزف عن الحركة واستقال من وظيفته الأساسية وظيفه السير في ركب التاريخ⁽³⁾.

لذلك فإن التنمية الثقافية لديه تبنى على العقل⁽⁴⁾ بالنظر إلى وظيفته ودوره في حياة

¹ - يقسم تاريخ المجتمع الإسلامي إلى ثلاث مراحل: أولها مرحلة الإسلام الأولى وهي أقوى المراحل في حيويتها وخصبها وتنتهي في معركة صفين، وثانيها مرحلة المدنية الإسلامية وهي مرحلة التفكير والازدهار الحضاري وتنتهي بسقوط دولة الموحدين، وثالثها مرحلة الجمود والانحطاط، ويخصّها بالعناية لأنّها المرحلة التي لا تزال نعيش في رواسبها وآثارها. (محمد المبارك: مقدمة كتاب (وجهة العالم الإسلامي) لابن نبي، ص 10، 11).

² - ابن نبي: شروط النهضة، ص 15، 65، 99.

³ - لحرش موسى: إشكالية الحضارة وأزمة مجتمعات العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي (المجتمع الجزائري نموذجاً)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدولة، (مخطوط)، ص 185، 186، 187.

⁴ - يبين القرآن الكريم أن شر الدواب عند الله سبحانه هم المشركون والمنافقون الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يوصلهم إلى سماع الحق وفهمه، لذا كانت كل دابة مما سواهم مطيعة لله سبحانه فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، وكانوا أسوأ من الأنعام التي لا تملك العقل، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال 22]. (ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 33، 34).

الناس على اختلاف عقولهم، وبالنظر إلى أن العقل هو النشاط الفكري أو النظر في الأشياء والتأمل فيها، واستخلاص الأفكار والمفاهيم منها، إذ الشيء لا يعد موجودا بالنسبة لشعور الإنسان إلا عندما يلد فكرة تصبح برهانا على وجوده في عقله، وكل ما ينضوي في منطقة الضوء التي تحوطه يصبح فكرة تدخل إلى مجال معرفته أو إلى شعوره، وعندما يتم دخول الشيء في هذه المنطقة من الضوء يصبح حضوره وجودا حقيقيا، وحينئذ تنكشف شخصيته ويوضع بالتالي اسم يطلق عليه⁽¹⁾.

وابن نبي لا يرى صراعا بين الوحي والعقل، بل يرى أن العقل لا يمكن أن يشع إلا بالإيمان الديني، فالإنسان يفقد تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد قوة إيمانه، والعقل يخفني لأن آثاره تتبدد في وسط لا يستطيع أن يفهمها أو يستخدمها، ويعيب على الثقافة الإسلامية حين اتجهت إلى امتداح الماضي حتى صارت ثقافة أثرية تسرد علوم السابقين واجتهاداتهم، وهي وإن كانت صحيحة إلا أن الحقائق فيها تحولت إلى حقائق خامدة مدفونة في جمل راتقة وعلم غزير، كما يصف الفكر الإسلامي حين انعدم فيه دور العقل واضمحلت وظيفته بالعجز عن درك حقائق الظواهر فلم يكن يرى منها سوى قشورها، والعجز عن قراءة القرآن قراءة تحليلية مدركة واعية بمشاكل الحياة⁽²⁾.

والعقل البشري كما يصفه يتطور عبر الزمن بسبب العراقيل والصعوبات التي تواجهه والتي تدفع الإنسان إلى البحث عن الحقيقة في كل ميدان في الأخلاق والتشريع والاجتماع وفي الطب والطبيعة⁽³⁾، وهذا يعني أن الإنسان احتاج إلى عشرات الألوف من السنين لينصقل ذهنه وترهف ملكاته، ويصبح قادرا على عقل الأشياء أي ربطها بعضها ببعض، وملاحظة الأحداث والظواهر واختزان نتائج

1 - ابن نبي: مشكلة الثقافة، ص 21.

2 - ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 27، 53، 59.

3 - ابن نبي: مشكلة الثقافة، ص 23.

هذه الملاحظات (1).

ويسود العقل في فكر ابن نبي، يسود شيئاً فشيئاً على كل من الروح والغرائز كخلاصة لصراع داخلي في كيان المجتمع، بين الروح المهيمنة التي بدت ملامح تراخيها وبين الغرائز المدفونة أو المسخرة والتي بدت أعراض ظهورها أو نشوزها، فمرحلة العقل هذه تتساوى فيها أسباب السمو الروحي وجاذبية الغرائز، وتتسم بالتوسع وانتشار العلوم والآداب والصناعات (2)، ويتكس العقل بسيطرة الغريزة حيث يفقد قيمته الخلاقة في الإبداع والبناء والإعمار، وتتولد حيثند مضاعفات التخلف والتي نعيش آثارها في ظروفنا الراهنة اليوم (3).

ومن مجموع تجارب العقل وخبراته تتكون الثقافة التي يشبهها ابن نبي بالدم الذي يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته ويحمل أفكار الصفوة كما يحمل أفكار العامة، وكل من هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحدة والأذواق المناسبة (4).

وباختلاف الثقافات تختلف العقول وإدراكاتها وأنظارتها ورؤاها، وذلك لأن العقل يعني واقعا فكريا ومعرفيا وحقيقة وجودية وفضاء ثقافيا تتميز به ثقافة عن أخرى (5)، أي أن عقل الإنسان يختلف من بيئة اجتماعية إلى أخرى نظرا لاختلاف المجتمعات والأمم في ثقافتها ومعتقداتها وتقاليدها وعاداتها وما يشغلها من أحداث ووقائع.

1 - حسين مؤنس: الحضارة، ص 17.

2 - محمد سعيد مولاي: إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، مجلة الموافقات، الجزائر، 1994، العدد الثالث، ص 303.

3 - زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص 81.

4 - ابن نبي: مشكلة الثقافة، ص 78.

5 - علي حرب: مداخلات، ص 93.

وقد راعى ابن نبي هذا الاختلاف، إذ تعامل مع الأفكار ككائنات حية تؤدي دورها ضمن شروط عضوية معينة⁽¹⁾، كما رأى أن عالم الأفكار هو الذي يدعم عالم الأشياء، العالم الذي لا يمكن أن يقف على قدميه بدون العالم الأول⁽²⁾.

وبناء على هذا التصور عاب على العالم الإسلامي أن أساسه المفاهيمي الثقافي ضعيف للغاية، ففكره عاجز لا يقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية وتنتائجها من ناحية أخرى، وعالم أشيائه لا يركز على كبير شيء، مضافاً إلى ذلك أن الأشياء الموجودة فيه كان قد اشتراها من مجتمعات وأمم تملك أفكاراً⁽³⁾.

ومن نتائج حالة العجز هذه الفوضى الفكرية والاضطراب الأخلاقي إذ هناك ترابط مشترك بين الحالات العقلية والأخلاقية والاجتماعية⁽⁴⁾، فإذا كان المجتمع متخلفاً فهو لا يتيح للعقل بالاجتهاد والتطوير، بل إن آثار العقل واجتهاداته تتبدد في هذا الوسط الذي لا يستطيع أن يفهمها أو يستخدمها، ويضرب ابن نبي لهذا مثلاً بأفكار ابن خلدون⁽⁵⁾ التي جاءت إما مبكرة أو متأخرة عن أوانها فلم تستطع أن تنطبع في العبقريّة الإسلامية التي فقدت مرونتها الخاصة ومقدرتها على التقدم والتجديد⁽⁶⁾.

واطّلع ابن نبي على الثقافة الغربية على أسسها وأهدافها، مما جعله يقارن بين المجتمعات الغربية (الأوربية والأمريكية) والمجتمعات العربية والإسلامية، هذه

¹ - حمودة سعيدي: مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي، رسالة لنيل الماجستير في الفلسفة، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، (مخطوط)، ص 189.

² - ابن نبي: فكرة كمنولث إسلامي، ص 52.

³ - ابن نبي: فكرة كمنولث إسلامي، ص 54، 59.

⁴ - ابن نبي: فكرة كمنولث إسلامي، ص 32.

⁵ - ابن خلدون (732هـ - 808هـ): هو عبد الرحمان بن محمد الحضرمي، الفيلسوف المؤرخ، أصله من اشبيلية ومولده ومنشؤه بتونس، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، تولى أعمالاً واعترضته دسائس ووشايات، توجه إلى مصر وتوفي فيها، اشتهر بكتابه (العبر ودويان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر). (الزركلي: الأعلام، ج 4، ص 106، 107).

⁶ - ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 27.

المقارنة التي قامت كذلك على التجربة الميدانية والملاحظة المباشرة كشفت له عن أسباب تخلف العالم الإسلامي وسوء موقفه اتجاه الحضارة الغربية المتطورة ماديا وعدم استفادته من منجزاتها كما استفادت اليابان.

لذلك فهو يدعو إلى أن نميز في اقتباسنا أو تأثرنا بالغرب بين عالمين: عالم الاكتشافات والعلوم والتكنولوجيا، وعالم العقائد والأخلاق والقيم والأحكام العملية، فنأخذ بالأول، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذ بها، ولأنه عالم يستند إلى العقل البشري بغض النظر عن الديانة أو العرق أو اللون، أما الثاني فقد أغنانا الإسلام وأبان لنا وجه الحق في هذا المجال، يقول ابن نبي: "إن أوروبا حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم.... ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروح عليها ويرفه عنها ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله، إذا أراد المسلم أن يسد هذا الفراغ في النفوس المتعطشة، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة... فيجب أولا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود" (1).

وإن استخدم ابن نبي بعض الألفاظ (2) التي يبدو من خلالها تأثره بالمصطلحات الثقافية الغربية في صياغاته الفكرية، إلا أن هذا الاستخدام كما يظهر من دلالات نصوصه لا يمس جوهر ومضمون فهمه لأصول المفاهيم الإسلامية الصحيحة، إذ لم يسع إلى شيء من التوفيقية بين المفاهيم الإسلامية والنتائج الثقافية للحضارة الغربية (3)، بل إنه رفض محاولة التوفيق بين واقع الأمر المتخلف عن

1 - ابن نبي: دور المسلم ورسائله في الثلث الأخير من القرن العشرين، ص 43، 44.

2 - من هذه الألفاظ: الديمقراطية، الاشتراكية، اللاهوت والناسوت، الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل المحرفين)، الأنا. (ابن نبي: آفاق جزائرية، ص 188، 208، وتأملات، ص 73، 75، والظاهرة القرآنية، ص 240، وميلاد مجتمع، ص 41).

3 - سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، ص 149، 291، ومحمد مجاوي: مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، رسالة لنيل الماجستير في الفلسفة، جامعة الجزائر، (مخطوط)، ص 155.

(صفيين)⁽¹⁾ وبين ما جاء به الإسلام⁽²⁾.

خاتمة

في ختام هذا البحث توصلت إلى النتائج الآتية:

- 1 - التنمية الثقافية عند ابن نبي تبنى على الجوانب العلمية والأخلاقية والعملية، ويجب أن تكون دافعة للحضارة والتطور وامتلاك ناصية الابتكار التكنولوجي.
- 2 - التنمية الثقافية هي طريق في كل الأوقات للتنمية الاجتماعية، وهي كذلك طريق لانتشار العلوم والمعارف والمهارات والصناعات وتطورها.
- 3 - فهم ثقافة بلد ما تساعد في فهم الظواهر الاجتماعية والسياسية السائدة فيه.
- 4 - تألم ابن نبي كثيرا على حالة العالم الإسلامي الراهنة حيث ساد الاضطراب الفكري والتبعية المذلة للغرب في المجال الثقافي واللغوي والتكنولوجي، مع أنه (أي العالم الإسلامي) لا تنقصه الوسائل والأدوات والإمكانات البشرية والطبيعية.
- 5 - انتقد ابن نبي بعض جوانب ما حواه التراث الثقافي العربي الإسلامي، واستنتج منه ما يخدم الفكر الإسلامي المعاصر وما يطوره نحو النهوض والفعالية والجدوى العملية والاجتماعية، تجلّى هذا في نظريته للإنسان والثقافة والحضارة والاجتماع، وفي جمعه للنواحي العقلية والنفسية والعملية في الخطاب الديني.
- 6 - نظر ابن نبي إلى القضايا الثقافية من خلال آثارها الاجتماعية والنفسية والحضارية، ولم يدرسها دراسات أكاديمية نظرية بحتة، كما كان يؤلف ويكتب باللغة الفرنسية مما يبين تميز إطار فكره وقلب ثقافته عن كثير من زعماء الإصلاح

1 - صفيين الوقعة المشهورة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، من نتائجها غلبة نظام الحكم الملكي الوراثي في الحضارة الإسلامية.

2 - ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص 55.

في العالم الإسلامي الذين كتبوا باللغة العربية.

7 - كما رأى وجوب تسخير الإنسان ما في الكون والحياة لفائدته ومصلحته، وذلك بالنظر إلى الأشياء والوسائل والظواهر نظرة علمية لا نظرة استهلاكية، والاطلاع على أسباب ومراحل تطور الحضارة الغربية المادية المعاصرة.

8 - انتهج ابن نبي في تحليله للقضايا الثقافية والاجتماعية المنهج العلمي المستند إلى بديهيات العقل ومسلماته، ودعا إلى أن يجتهد الإنسان بواسطة ملكاته العقلية مع مراعاة السنن الإلهية والقوانين الطبيعية لينتج المعارف والعلوم والأفكار.

9 - آمن ابن نبي بضرورة تقوية الإيمان الديني في المجتمعات الإسلامية لإشعاع العقل وتطور الثقافة والعلوم والمعارف، لأن الإنسان لن يقوم بعمل الاجتهاد والابتكار إلا إذا كان مدفوعاً بمجموعة من الغايات والأهداف التي يجب أن تتحقق في حياته.

مصادر البحث ومراجعته:

المصادر:

- 1 - ابن نبي (مالك): آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ط. 1991.
- 2 - ابن نبي: تأملات، دار الفكر، الجزائر، ط. 1991.
- 3 - ابن نبي: دور المسلم ورسائله، دار الفكر، دمشق، ط. 1989.
- 4 - ابن نبي: شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ط. 3، 1969.
- 5 - ابن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت.
- 6 - ابن نبي: فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة الطيب الشريف، دار الفكر، دمشق، ط. 2، 1990.
- 7 - ابن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط. 4، 1984.
- 8 - ابن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، ط. 2، 2002.
- 9 - ابن نبي: ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط. 2، 1974.
- 10 - ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط. 1985.

المراجع:

- 1 - جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، المطبعة العربية، غرداية، ط. 1، 1990.
- 2 - حسين مؤنس: الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، ط. 1998.
- 3 - الزركلي: الأعلام، ط. 3.
- 4 - زكي ميلاد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دار الفكر، دمشق، ط. 1، 1998.
- 5 - سعيد حمودة: مكانة الأفكار في الفلسفة الاجتماعية عند مالك بن نبي، رسالة لنيل

- شهادة الماجستير في الفلسفة، إشراف عمار طالبي، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1984-1985.
- 6 - سليمان الخطيب: فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1993.
- 7 - عبد العزيز التويجري: التنمية الثقافية من منظور إسلامي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط2، 2015.
- 8 - ابن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، ط2، 1999.
- 9 - لحرش موسى: إشكالية الحضارة وأزمة مجتمعات العالم الإسلامي من منظور مالك بن نبي (المجتمع الجزائري نموذجاً)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه الدولة، إشراف د. أحمد بوذراع، قسم علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة، السنة الجامعية 2000 - 2001.
- 10 - محمد سعيد مولاي: إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، مجلة الموافقات، الجزائر، 1994، العدد الثالث.
- 11 - يحيى محمد: مشكلة المنهج في كتابات مالك بن نبي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، إشراف د. أحمد موساوي، معهد الفلسفة، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1991م - 1992م.
- 12 - الموقع الإلكتروني: <https://ndf.gov.sa/ar/cultural-development>

النهضة اليابانية في مرآة الفكر الجزائري مالك بن نبي

أ.د. محمد بن علي

جامعة غليزان (الجزائر)

mohamed.benali@univ-relizane.dz

مقدمة

لم يكن مالك بن نبي⁽¹⁾ مجرد شخص عادي، بل كان رجل علم وفكر، همه ايقاظ

¹ ولد مالك بن نبي في الخامس من ذي القعدة عام 1323 هـ الموافق 1 جانفي 1905 في مدينة قسنطينة". نجح في دراسته الابتدائية باللغة الفرنسية، التي تلقاها بين تبسة وقسنطينة، فدخل إلى المدرسة الرسمية سنة 1923م وفي تلك الأثناء أغترف من مناهل الأدب العربي والأدب الفرنسي وتخرج منها سنة 1925م لكنه فشل في الحصول على عمل بعد تخرجه، ولذلك قرر أن يسافر إلى باريس بحثا عن العمل وليواصل دراسته، وبعد عناء ومتاعب جمة لم يتمكن من الحصول على عمل قار عاد إلى الجزائر وإلى تبسة ليستغل عونا في محكماتها، ثم عين سنة 1927م عدلا بمدينة آفلو ثم حُوّل بطلب منه إلى شلغوم العيد قصد شغل نفس المنصب، ولكنه ما لبث أن قدّم استقالته إلى المحكمة سنة 1928م. عاد سنة 1930م إلى باريس من أجل الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية قصد أن يتأهل بعد ذلك للدخول إلى كلية الحقوق بدون بكالوريا، ولكن دون جدوى، واضطر بعد ذلك إلى الالتحاق بمدرسة اللاسلكي. تزوج سنة 1931 بفتاة اعتنقت الإسلام وسمت نفسها خديجة، وبقي في ذهاب وإياب بين فرنسا والجزائر ليشهد التطورات الفكرية والسياسية في أوروبا والعالم الإسلامي والجزائر خاصة، حيث كان يتابع باهتمام خاص تطور الحركتين الوطنية والإصلاحية ويعاضدهما بفكره ونضاله. التقى خلال سفراته الكثيرة بشخصيات وطنية وأجنبية - ربط علاقات مع تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس - لكن السلطات الفرنسية لم تغفل عنه بل حاصرت حرمته والشهادات رغم تفوقه على الفرنسيين أنفسهم ومنعته الوظيفة والسفر. بعد الاستقلال وفي 1963 شغل منصب مدير التعليم العالي وبقي فيه إلى غاية استقالته عام 1967م ليتفرغ للعمل الفكري، حيث نظم الندوات الفكرية في بيته يحضرها أساتذة وطلبة الجامعة، وحاضر في جميع أنحاء الجزائر وفي جامعاتها ومعاهدها العليا وفي ملتقيات الفكر الإسلامي ساهم بقسط وافر في تأسيسها، وبقي يناضل بالكلمة إلى أن وافته المنية في يوم الأربعاء 04 شوال 1393 هـ الموافق ل 31 أكتوبر 1973 م.

مؤلفاته: 1 الظاهرة القرآنية: 194م. 2 لبيك: 1947م. 3 شروط النهضة: 1948. 4 وجهة العالم الإسلامي 1954م 5 الفكرة الإفريقية الآسيوية 1956م. 6 مشكلة الثقافة 1957م. 7 أنقذوا الجزائر 1957م. 8 الصراع الفكري في البلاد المستعمرة 1957م. 9 البناء الاجتماعي الجديد 1958م. 10 فكرة كومنولت إسلامي 1958. 11 تأملات في البناء الجديد 1960م. 12 مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي 1496م. 13 ميلاد مجتمع 1960م. 14 في مهبط المعركة 1960م. 15 آفاق جزائرية 1964م. 16 مذكرات شاهد =

همم بني جلدته من خلال رؤية حضارية، تبعث الروح من جديد في عالم إسلامي خرج من دائرة الحضارة والتاريخ وقبع في أتون التخلف.

استطاع من خلال أطروحاته الفكرية حول النهضة الحضارية أن يساهم في تقديم رؤية جديدة للحاق بحضارة العصر، وتحقيق التحرر من سيطرة التخلف الحضاري والسيطرة الاستعمارية بكافة أشكالها الفكرية والثقافية والسياسية.

حملت كتاباته رؤية حضارية عبّرت عن هواجس مثقف واع بقضايا أمته. خاض في مشكلات العالم الإسلامي، ورسم خططا لعملية الانبعاث الحضاري المأمول، وحدد شروطها حتى تكون بمأمن من مكر التاريخ، فالإقلاع الحضاري يفرض أن تكون عملية الإعداد له مدروسة وهادفة، ويجب على الجيل الذي يحمل رسالة الاستخلاف أن يؤفّر جميع الشروط الضرورية للقفزة الحضارية المأمولة. ففي كل عصر إلا ويقتضي المقام توفّر أسباب غير التي كانت في العصر الذي سبقه.

ولبحث شروط نهضة العالم الإسلامي، عمل مالك بن نبي، على توجيه العقل العربي-الإسلامي الى ضرورة دراسة تجارب الأمم الآسيوية (ماضيها وحاضرها وأسباب نهضتها) وضرورة استلهاهم العبرة من تلك التجارب التي تتقاطع في الكثير من ملامحها مع واقع العالم الإسلامي وهو في فترة تراجع الحضاري. ومن أجل هذا تعمق مالك بن نبي في دراسة الشروط السيكولوجية للنهضتين اليابانية والعربية.

إشكالية البحث:

شكلت التجربة اليابانية أنموذج النجاح للكثير من المفكرين، لما رأوا فيها من الدروس المستفادة، التي يمكن من خلالها استعادة وهج سؤال النهضة العربية

=القرن: الجزء الأول 1965 م. 17 أعمال المستشرقين 1967 م. 18 الإسلام والديمقراطية 1968. 19. مذكرات شاهد القرن الجزء الثاني 1970 م. 20 المسلم في عالم الاقتصاد 1972 م. 21 دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين 197 م. 22 بين الرشد والتيه 1978 م. بالإضافة لعناوين أخرى عديدة بعضها ترجم والبعض الآخر لم ير النور بعد، دون نسيان محاضراته التي كان يلقيها في مختلف المحافل العلمية.

المجهضة منذ بداية القرن 19م، ومن بين هؤلاء تبرز شخصية مالك بن نبي، الذي طرح مقاربات تحليلية لفك سؤال الازمة والفشل في المشاريع النهضة العربية مقارنة بمثيلاتها في النموذج الاسيوي. انطلاقا من هذا نتساءل:

كيف استطاعت اليابان تحقيق النجاح لمعادلتها الحضارية والسير الى الأمام رغم المؤثرات الخارجية للحضارة الغربية؟ ولماذا فشلنا في تحويل الأفكار الى أفعال وتحقيق نهضتنا المنتظرة؟ وهل يمكن أن تمثل هذه التجربة عامل تحفيز لنهضة العالم الإسلامي؟

فرضيات البحث:

- التجارب التنموية الاسيوية - لا سيما اليابانية منها - ونظرا لما حققته من نتائج مبهرة يمكن أن تكون نموذج بديل للنموذج التنموي الغربي

- التجارب التنموية مهما كان نجاحها في هذا القطر أو ذاك تبقى تجارب خاصة يمكن الاستفادة من رؤيتها دون الوقوع في التقليد الاعمى.

منهجية البحث: انطلاقا من طبيعة البحث سوف نعمل الى توظيف مقاربة تحليلية نقدية مع توظيف المنهج المقارن لاستخلاص الرؤية البنّية فيما يخص فشل تجارب التنمية في هذا القطر ونجاحها في اقطا أخرى.

أهمية البحث: يهدف البحث لموضوعة أولئك الذين نافحوا عن آرائهم وتحملوا في سبيلها المصاعب والمتاعب، وتقبلوا من جرّاء ذلك بين التّنكّر لأعمالهم تارة وتهميشهم تارة أخرى. قلت تهدف إلى وضعهم في مقام الاعتراف والإنصاف. رغم أن الكثير منهم غادرنا وفي الحلق غصّة وحرقة، لا شيء سوى أنهم شعروا وهم بين ظهرانينا بالإقصاء واللامبالاة. ونأمل أن تكون المحاولة نافذة لنفض الغبار عن أعمال من غادرنا وإرجاعها الى حلبة التاريخ، قراءة وتحليلا، للاستفادة من تجاربهم تارة ومحاولة الاعتبار من المطبات التي اعترضت مسيرتهم الفكرية تارة أخرى. والأستاذ مالك بن نبي واحد من الذين أشرنا إليهم، كونه استطاع أن يبني رؤية

ومشروعاً متميزاً، ورؤية موضوعية استشرافية، يمكن أن تشكّل مورداً خصباً للتعامل مع مستجدات قضايانا المعاصرة، في مختلف المجالات، سياسياً واقتصادياً، ثقافياً واجتماعياً. وقضايا الصراع الفكري وقضايا التعامل مع الآخر المستعمر. دون أن ننسى أن الرجل كان ابن عصره حاول الاجابة عن أسئلة المرحلة آنذاك، وليس من حقناً أن نطالبه بإجابات ووصفات جاهزة لمشاكل عصرنا.

الدراسات السابقة: كثيرة هي الدراسات التي تناولت فكر مالك بن نبي، من هذه الزاوية أو تلك، فالبعض منها عالج رؤيته في مشكلة التنمية وسؤال التخلف، وبعضها الآخر استعرض مشكلة النهضة والأفكار... الخ. وما دام المقام لا يسمح باستعراض كل ما كتب حول فكر الرجل، فسوف نقتصر على الدراسات التي تتعلق بموضوع بحثنا مع الاحالة على رابط⁽¹⁾ لبقية الدراسات. ومن الدراسات التي وقعنا عليها نذكر:

- بونعمان سلمان، التجربة اليابانية، دراسة في أسس النموذج النهضوي، والتي استعرض من خلالها معالم التجربة النهضوية اليابانية، وخصص الفصل الثالث من الدراسة لقراءة النموذج الياباني في ضوء أطروحات مالك بن نبي. مركز نهاء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2012.

- محمد بغداد باي، تربية إنسان ما بعد الحضارة، قراءة تربوية نوعية لفكر مالك بن نبي. أطروحة دكتوراه علوم، اشراف: إبراهيم ماحي، قسم علم النفس والأرطوفونيا، جامعة وهران 2015، 2-2016.

- بوكروح نورالدين، جوهره فكر مالك بن نبي، تر، عبد الحميد بن حسان، المكتبة الوطنية الجزائرية، 2016.

- عمر النقيب، مقومات مشروع بناء إنسان الحضارة في فكر مالك بن نبي، نحو

¹ انظر: الكتب والرسائل الجامعية المصنفة عن الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، جمع وترتيب الأستاذ مسعود فلوسي. <https://www.academia.edu/21171499>

نظرية تربوية جديدة للعالم الإسلامي، شركة الاصاله للنشر، الجزائر، ط3، 2017.

- ناصر يوسف، التجسيم الحضاري من منظور التنمية المركبة، دراسة نقدية تطبيقية لمشروع مالك بن نبي، والتي استعرض من خلال معالم المشروع الفكري لمالك بن نبي، وخصص الفصل التطبيقي منها لاستعراض تجارب الصين وإندونيسيا وإيران والجزائر. مركز نهاء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2018.

أولاً: المفاهيم الأساسية للرؤية التنموية عند بن نبي

يقف المتصفح للمدونة الفكرية لمالك بن نبي على كثافة مفاهيمية، تشكّل في ترابطها رؤيته الفكرية ومعالماً مشروع النهضوي. مفاهيم لا يمكن استيعابها إلا في نطاق تواجدتها ضمن السياق العام والبنية المعرفية عامة. ورغم هذا يمكن القول أن المفهوم المحوري الذي تحتكم إليه هذه الرؤية، هو مفهوم الحضارة، كونه المفهوم الناظم لحركة بقية المفاهيم، المرتبطة به، سواء تعلق الأمر بعالم الأفكار أو عالم الأشخاص أو عالم الأشياء. فهي "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكلّ عضوفه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره"⁽¹⁾.

مفهوم الحضارة:

الحضارة مفهوم منهجي له وظيفة تحليلية معرفية في آن واحد، لذلك نجده المفهوم الناظم والرابط بين باقي المفاهيم في مشروعه، والذي يعطى لها الاتساق والانسجام، بحيث تحقق وظائفها المنهجية والمعرفية في تفسير وتحليل الظواهر الإنسانية، ومحور اهتمام مالك بن نبي ستركز في جانب كبير منه حول حلّ مشكلة الحضارة وما يرتبط بها من مشاكل رئيسة حصرها ابن نبي في مشاكل: الإنسان والتراب والوقت؛ لأنّ الأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي - في نظره - ليست أزمة

¹ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، بيروت: دار الفكر المعاصر: دمشق، سوريا: دار الفكر، ط1، 2002، ص42.

سياسية كما ذهب إلى ذلك الأفغاني، أو أزمة عقيدة كما نَظَر لها محمد عبده⁽¹⁾، لأن "المسلم، حتى مسلم ما بعد الموحدين لم يتخلَّ مطلقاً عن عقيدته...وعليه فليست المشكلة أن نعلِّم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نردّ إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوّتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي".⁽²⁾

كما أنها ليست مشكلة أصالة ومعاصرة، بقدر ما هي سوء فهم للمعنى الحقيقي للحضارة؛ "لأنّ الحضارة عند مالك بن نبي إنّما هي ثمرة لفكرة رئيسية مطبوعة على مجتمع ما قبل الحضارة تدفعه للدخول في التاريخ، والبعد الروحي عنصر أساسي في المبررات التي تدفع الإنسان وتغذّيه وتحدّد أفعاله، إنّ الفكرة قوة نفسية، إنّها إجابة للفراغ الكوني الذي يشعر به الإنسان ويغمره عند خلّوه بنفسه...فالإنسان الحائر المندهرش يمتلك هذه الفكرة أو تلك، التي تجعله يشعر أنّ حياته معنى، وبحضوره في هذا العالم الواسع الذي يصبح وجوده به منتظماً، تعطيه هذه الفكرة توتراً وشدة لأفعاله واتّجاهها لأفكاره، ويصبح هذا الإنسان الطبيعي إنساناً حكيماً".⁽³⁾

مفهوم الثقافة:

لا يستقيم تعريف الحضارة في المدونة الفكرية لمالك بن نبي دون المرور على دعائمها الأساسية أو لنقل تربتها التي تنمو وترعرع فيها إلى غاية أن تؤتي أكلها، ونعني بذلك مفهوم الثقافة الذي حظي بعناية خاصة في الرؤية الحضارية التي خطّها مالك بن نبي للخروج من مأزق التخلف، فالثقافة وفق منطق الفاعلية معيار "للمثقف بالنظر إلى فاعليته الاجتماعية"⁽⁴⁾. وهي وفق منطق الضرورة تعبير عن

¹ مالك بن نبي: مستقبل الاسلام، تر، شعبان بركات، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ص36 وما بعدها
² مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، لبنان: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1970، ص55.

³ عمار طالبي: التجديد في الفكر عند مالك بن نبي، جريدة البصائر، العدد 435، 15-21 مارس 2009 ص24.
⁴ عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، مسار نحو البناء الجديد، ج2، دار الفكر، دمشق، ط1، 2013، ص1278

"مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كـرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، فالثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرّك في نطاقه الإنسان المتحضّر. هكذا نرى أنّ هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة. معطيات الإنسان ومعطيات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد"⁽¹⁾.

بناء على هذا التعريف، يقول ابن نبي ما نصّه: "ال خليفة المسلم والراعي المسلم يتّصفان بسلوك واحد؛ لأنّ جذور شخصيتهما تغوص في أرض واحدة... والطبيب الإنجليزي والطبيب المسلم يختلف سلوكهما لأنّ جذورهما لا تغوص في الأرض نفسها، على الرغم من أنّ تكوينهما المهني يتمّ في إطار واحد. فلكل ثقافة وجودها الخاص، الذي تزداد معه قدرتها على التمييز كلما تغيّر المستوى الاجتماعي لجانبي الموازنة".⁽²⁾

لم يكن اهتمام مالك بن نبي بمشكلة الثقافة وليد الصدفة، بل كان ناتجا عن تزايد الحاجة لمجابهة التحديات؛ "لأن الثقافة هي التي تهيمّ المناخ الصحي، اجتماعيا وتربويا، لكي تتقوّم فيها ذات الإنسان الفرد، وعندها سيكون هذا الإنسان الجديد صانع الحضارة في المستقبل، ففي حل مشكلة الثقافة، حل لمشكلة السياسية، لأن فساد الحكومات في نظر مالك بن نبي، مؤشّر دال على فساد ذات الإنسان في المجتمعات التي تتولاها هذه الحكومات. فالحكومات "مهما كانت ما هي إلا آلة اجتماعية تتغير تبعا للوسط الذي تعيش فيه وتتّوحد معه، فإذا كان الوسط نظيفا حرا، فما تستطيع الحكومة أن تواجهه بما ليس فيه، وإذا الوسط كان متسما بالقابلية إلى

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 83.

² مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص 52.

الاستعمار، فلا بد أن تكون حكومته استعمارية" (1).

مفهوم التنمية:

يحتل سؤال التنمية مرتبة الصدارة في مرحلة ما بعد الكولونيالية، حيث سعت الدول الحديثة الاستقلال إلى بلورة رؤية اقتصادية تخرجها من حالة التخلف والتبعية إلى نمط حياة متكيف مع متطلبات الواقع وتحدياته، استكمالاً لاستقلالها السياسي. من هذا المنظور تصبح "التنمية عملية شاملة معقدة، تضمّ فيما تضم جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والايديولوجية... بصدد إقامة تصور عام لظاهرة التخلف أو تحديد دقيق لاستراتيجية التنمية" (2).

علماً أن هذه الاستراتيجية متوقفة على تغير في مبررات الوجود النفسي في المجال، حيث تتغير معالم الحياة النفسية والاجتماعية بتحوّل الإنسان نفسه، في إرادته واتجاهاته، وذلك عندما يعي معنى جديداً لوجوده في العالم. هذه الرؤية تعكس التعريف الوظيفي الذي صاغه مالك بن نبي لمفهوم الحضارة، كونها تعني "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه" (3).

مفهوم التخلف:

التخلف هو مجموعة مشكلاتنا ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والنفسي" (4). وهو يشير إلى مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم طريقة استعمال وسائله الأولية التي هي التراب والزمن، بصورة فعّالة أو هو قد نسي ما تعلمه من هذا

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق، (ب، ط)، 1979، ص 30

² الطاهر سعود: التخلف والتنمية في فطر مالك بن نبي، دار الهادي، بيروت، ط 1، 2006، ص 39

³ عمار طالبي: فكر مالك بن نبي والمجتمع الاسلامي المعاصر، ص 459

⁴ عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 1225

الاستعمال، مع ملاحظة أنَّ فعالية الإنسان بالذات هي التي تقوم بتحديد بقية العوامل الأخرى⁽¹⁾. والمجتمع المتخلف ليس هو المجتمع الذي يفتقر للوسائل المادية، وإنما بافتقاره للأفكار، وسوء استخدام الوسائل المتوفرة لديه، وعجز عن إيجاد غيرها، وخلل في طرح مشاكله أو عدم مناقشتها أساساً، عندما يفقد الرغبة في التصدي لها⁽²⁾.

ثانياً: المشروع الفكري التجديدي لمالك بن نبي.

من أجل صياغة رؤية دقيقة عن أسباب الخلل التي أدت إلى تعثر مختلف المحاولات النهضوية في العالم الإسلامي، عرّج بن نبي على مختلف المحاولات التي قادها كل من جمال الدين الافغاني، محمد عبده، حسن البنا، عبد الحميد بن باديس، مبيّنات منطلقاتها ومآلاتها. وانطلاقاً من ذلك اقترح مشروعاً إصلاحياً يمثل البديل الممكن التحقق، مشروع كانت بدايته تشخيص حالة المريض، قبل تقديم العلاج اللازم. تشخيص كشف أنَّ المجتمع الإسلامي⁽³⁾ يعيش أزمة مركبة، جعلته لا يحقق للأفكار ثبوت حصانتها وفعاليتها فيه، إما لضعف أخلاقي يحيط بها، وإما لضعف فكري يخلها. يقول بن نبي: "على ضوء تجربة طويلة فسوف نجد أنَّ الضعف الفكري هو أقوى العوامل تأييداً ومساعدة لمساعي الاستعمار في جبهة الصراع الفكري⁽⁴⁾؛ لأنَّ الذات المسلمة لم تستوعب الحقائق بعد، ومعظمها لازال يغشاها

¹ الطاهر سعد: المرجع السابق، ص 139

² مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: الدكتور بسام بركة والدكتور أحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا: دار الفكر، ط 1، 2002، ص 36

³ في موضع آخر يشير بن نبي أنَّ العالم الإسلامي يمرُّ بأزمة مركبة ناتجة عن "مزيج من روااسب موروثية عن عصر ما بعد الموحدين، وروافد ثقافة جديدة وافدة، أتت بها حركة الإصلاح والحركة الحديثة... وقد ولّد هذا المزيج عالماً يعيش تناقضاً فلا هو معاصر يعيش اللحظة الراهنة ولا هو تراثي يعيش لحظة ما بعد الموحدين... فهو

عام متنافر تجتمع فيه كل عناصر التناقض. انظر: مالك بن نبي، مستقبل الإسلام، ص 61، 62

⁴ أسعد حوراني: مالك بن نبي "مفكراً مصلحاً"، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط 1، 1984، ص 139

الظلام، الذي يغشى الحقائق التي لم يكتسبها، ولم تستوعبها تجربتنا، لأنها لم تصل بعد إلى إدراكنا، وفي مثل هكذا ملابسات، يرى بن نبي أن دائرة الأفكار تكون معرضة إلى تحدي الاستعمار ومؤامراته، دون أن تستطيع الرد اللازم عليه بالثقافة التي هي محيط فكري يتحرك فيه الإنسان، مؤثرا ومتأثرا.

من هنا نجدد يطرح سؤال الأزمة وفق منظور شمولي، يجعل من الصعوبات التي نمرّ بها دليلا على مشاكلنا وأمراضنا الاجتماعية، التي لا مناص من مواجهتها وفق مقاربة تأخذ في الحسبان الربط بين عوالم ثلاثة (عالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء)، كون الصعوبات التي نعانيها تعبر عن أزمة نمو ناشئة إما "من خلل في عالم الأشخاص، وإما أنها تنشأ من خلل في عالم الأفكار، وإما أنها تنشأ من خلل في عالم الأشياء، وإما أنها تنشأ من خلل في علاقات هذه العوالم بعضها ببعض" (1). فالمسلمون "لم يُنقّبوا عن وسائل لنهضتهم، بل اكتفوا بحاجات قلّدوا فيها غيرهم وأشكال جوفاء إلّا من الهواء، بينما ليست حاجتنا أن نجمّع العناصر لنكوّن منها تلفيقا، وإنما نُوجد بواسطة منهج يقوم على التحليل، العناصر الأساسية التي تسهم في خلق تركيب حضاري قائم على الإنسان والتراب والوقت." (2)

تختلف المشاكل التي تعاني منها الإنسانية، باختلاف البيئات، فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة، بل مشاكل متنوعة، تبعا لتنوع مراحل التاريخ، ومشكلة البلاد الإسلامية (وبخاصة الجزائر)، مشكلة إنسان عزف عن الحركة وقعد عن السير في ركب التاريخ، إنسان يُؤرخ له بن نبي بفترة ما بعد الموحدين، "إنسان جاء بعد إنسان المدنية الإسلامية، وحمل معه بذور جميع المشاكل التي يعاني منها العالم الإسلامي" (3). ولذلك هو بحاجة لإعادة تأهيل وتوجيه نحو الهدف المنشود، وفكرة التوجيه هذه لا

¹ مالك بن نبي: تأملات، مرجع سابق، ص 22

² أسعد حوراني: مرجع سابق، ص 209

³ مالك بن نبي: مستقبل الإسلام، ص 22، 23

تخرج عن كونها "قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف"⁽¹⁾. حتى لا تضع الجهود والطاقات عبثاً، نتيجة للإسراف في الجهد والوقت.

ليست قضية الاستنهاض والتقدم بالنسبة إلى العالم الإسلامي، قضية موارد وإمكانات مالية، بقدر ما هي تعبئة للطاقات الاجتماعية، أي الإنسان والتراب والوقت، في مشروع تحركه إرادة حضارية تتحدى الصعوبات، ولا يأخذها الغرور في شبه تعالٍ على الوسائل البسيطة، التي في حوزتنا منذ الآن، فالإمكان الاجتماعي هو من يقرر مصير الشعوب والمجتمعات والدول⁽²⁾. لذلك رأى بن نبي أنه حريّ ببلدان العالم الثالث الثورة على أوضاعها، ثورة ثقافية تذلل مصاعبها وتكسر عقدها وتزيح العراقيل، ولا سيما النفسية، التي تعترض طريق نهضتها، حيث تتمتع مجتمعاتها بسلطان اجتماعي يمثله الإنسان والأرض والزمان، وهي العناصر المتاحة له دائماً، على خلاف سلطان المال الذي لا يملكه دائماً، والذي هو سبب تكبيل تحركاته دائماً⁽³⁾.

يتفرد ابن نبي في بيان ما هو أخطر وأشد في عملية إضعاف المسلمين، ألا وهي القابلية للاستعمار⁽⁴⁾، لأنها عامل داخلي في نفوسنا⁽⁵⁾، حيث نتقبل كل ما يطلقه المستعمر علينا بدون وعي وإدراك منا، فما يطلقه من مصطلحات ضدنا نتقبلها ونردها، على أساس أنها من المسلمات الصحيحة، وما يصفه لنا نعتبره صحيحاً وجيداً، حيث نقيس أنفسنا بمقياسه، وذلك نتيجة الضعف في شخصيتنا الفكرية والنفسية، فنحن نخدمه باستغلاله لما في أنفسنا من استعداد لخدمته، فنفسنا

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 78

² مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1987، ص 73

³ مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 39

⁴ للمزيد حول أفكار مالك بن نبي: عمر كامل مسقاوي، في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد، ج 1 و 2، دار الفكر المعاصر، لبنان. دار الفكر، دمشق، 2013.

⁵ مالك بن نبي: مستقبل الاسلام، ص 77 وما بعدها

معلولة من باطنها، بها معوق داخلي يمسكها عن التقدم، ونحط من قيمة أنفسنا بأنفسنا، فنحن مسخرون لهم، بحيث أصبحنا أبواقاً يتحدث من خلالها، وأقلاماً يكتب بها، ومسخرين له بعلمه وجهلنا⁽¹⁾، فالاستعمار يراقب حركة الأفكار، فكل ما يمرّ في العالم الإسلامي من أفكار يهيمه بصفة خاصة، بقدر ما يهيمه البترول، بل أكثر من ذلك بكثير وهو يراقب حركتها باهتمام بالغ⁽²⁾، وله فلسفته الخاصة التي تتمثل في التخلص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها، بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقائها فيه.

هذا ما أشار إليه أرنولد توينبي (*Arnold J. Toynbee*) بقوله "كل البلدان التي نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الغرب السياسية، قد استغلت حريتها على نحو غير متوقع على الإطلاق؛ فقد ناضلت هذه البلاد بعنف شديد ضد السيطرة السياسية للغرب، وكان المتوقع بعد أن تمكنت من أن تتحرر سياسياً من الغرب، أن تستخدم حريتها المكتسبة حديثاً لكي ترجع إلى أسلوبها التقليدي في الحياة، وهو الأسلوب الذي كان سائداً في حياتها قبل أن يسيطر عليها الغرب، ولكن الذي حدث في جميع الحالات تقريباً... فالبلاد التي تحررت حديثاً قد استخدمت حريتها للغرض العكسي تماماً، أي أنها قد استخدمتها لتقتبس بمحض اختيارها عناصر من المدنية الغربية، أعني من أسلوب الحياة الحديثة".⁽³⁾

بناءً على هذا لن يحدث التحرر الثقافي من العوائق النفسية التي كبّلت الفرد، فإنه لا جدوى من الدفع بالبرامج والمشاريع الاقتصادية للواجهة، لأن "شعوبنا التي تعيش نتائج صدمة ثقافية تحرمها من حرية التصرف في أكثر من ميدان... يجب

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 145

² انظر: مالك بن نبي: من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1995، ص 99 وما بعدها.

³ محاضرات أرنولد توينبي: المرجع نفسه، ص 35

عليها أن تكتشف قدرتها الحقيقية، التي لا توجد على محور القدرة المالية، ولكن على محور القدرة الاجتماعية، وطالما لم تقم البلدان المعنية بهذه الخطوة من أجل تحرّرها النفسي، فإن تحرّرها الاقتصادي يصعب أو يستحيل⁽¹⁾. بناء على هذا رفض بن نبي استيراد الوصفات الجاهزة، فالنظام الاقتصادي الذي لا يوافق القيم السائدة، ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية، لا يمكنه أن يلبي حاجات ذلك المجتمع، وتلك هي العجلة الضخمة التي يجب دفعها، لإنشاء حركة اجتماعية واستمرار تلك الحركة⁽²⁾، وفق معادلة حضارية تجعل من الإنسان حجر الزاوية في كل نهضة منتظرة، واستثمار عاملي الوقت والتراب أفضل استغلال⁽³⁾.

ثالثا: التجربة اليابانية في ضوء قراءة مالك بن نبي.

منذ فترة ليست بالقصيرة أصبح النموذج التنموي الآسيوي⁴ محطّ أنظار الكثير

¹ مالك بن نبي: بين الرشاد والتهيه، ص 168

² المرجع نفسه، ص 172

³ علما أن عوامل النهضة التي طالما أكد عليها مالك بن نبي (الإنسان، الزمن، التراب)، لا يمكن الحديث عنها بمعزل عن شرطها الأساس-الذي يُمكن هذا التركيب من التفاعل الإيجابي- ونعني به الدين، الذي يؤكد مالك بن نبي على أهميته الكبرى في تطور المجتمعات، وذلك من خلال بناء الإنسان الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية، فدور الدين يكمن تثمين العوامل المذكورة سابقا، فهو يجعل من الإنسان الفرد يعمل للصالح العام، ويخرج الوقت من كونه مدة زمنية محسوبة بالدقائق والساعات، ليجعل منه زمن عمل لخدمة المجتمع، ويجعل من التراب مجالا أوسع أفقا من النظرة الفردية المبنية على الاستهلاك البسيط، ليجعل منه مجالا خصبا لسد حاجيات الاجتماعية. أما حينما ينقلب الدين إلى مجرد طقوس تعبدية دون إشعاع، فإن رسالته تنتهي على الأرض (هنا يقصد مالك بن نبي الوجهة التاريخية والاجتماعية وليس الخلاص الفردي، فهو يفرق بين صدق الفكرة الدينية وفعاليتها التي يمكن أن تفقدها بسبب الإنسان المعتنق لها)، إذ يصبح عاجز عن دفع الحضارة وتحريكها، وينقلب إلى إيهان رهبان انقطعوا عن خدمة مجتمعاتهم. انظر تفصيلات أكثر في: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية.

⁴ بالإضافة للتجربة اليابانية موضوع البحث، كانت النماذج الآسيوية محط إعجاب مالك بن نبي، حيث افرد لها حيزا مهما في كتبه، وإذا تجاوزنا إعجابه بالتجربة الماليزية، فإننا نجده ينظر نظر الإعجاب للنموذج الصيني. فالصين تقدمت اقتصادياً بسرعة مرموقة، لأنها طبقت منذ اللحظة الأولى في خطط تنميتها، مبدأ الاتكال على الذات والاستثمار الاجتماعي في الإنسان، والتراب، والزمن. كما طبقت من ناحية أخرى مبدأ الاستفادة من تجاربها الفاشلة، في إطار ما أسموه (الوثبة إلى الأمام)، فقد استفادت الصين من أخطائها لكسب المزيد =

من الفكرين وصانعي الاستراتيجيات التنموية، فالدول الآسيوية - لاسيما اليابان منها - استطاعت أن تخطّ لنفسها طريقاً خارج أسوار هيمنة النموذج الغربي، انطلاقاً من مقوّمات ذاتية، أدت - بعد عقود من المحاولة والخطأ - في الأخير إلى نهضة ناجحة.

بيّت تجربة اليابان أن عملية التحديث التي يراد إدخال العلوم العصرية، لا يمكن أن تحقق الأهداف المرجوة منها، إلاّ بمقدار ملاءمتها للمجتمعات المنقولة إليها. مع حفاظها على هويتها. وقد نجحت اليابان في ذلك، لأنها استفادت من الخبرات الوافدة، واختارت منها ما يلائم تركيبة المجتمع الياباني، ونتج عن ذلك أن حافظت اليابان على استمرارية قيمها الروحية، مع بناء الركائز المادية لتحديث خاص للمجتمع الياباني⁽¹⁾.

قامت فلسفة النهضة اليابانية على انتهاج سياسة العزلة التامة عن العالم الخارجي، بداية من سنة 1639. عزلة بدأت طبيعية نظراً لخصائص اليابان الجغرافية، لكنها ارتبطت فيما بعد بتخطيط قام به الإنسان نفسه، الأمر الذي ألزم الياباني على العيش في عزلة عن بقية شعوب العالم، بصورة فاقت أي مجتمع آخر. وقد مكّن هذا الربط بين العزلة الطبيعية والعزلة المصطنعة، اليابانيين من التقدم بطريقتهم الخاصة والاعتماد على أنفسهم، بصورة فاقت جميع شعوب العالم الأخرى. نظراً لامتلاك اليابانيين شعوراً

=الخبرة، كما استفادت من الناحية النفسية، ما كوّن بين أهالي الريف وأهالي المدن المصنّعة، شبه قاسم مشترك في مجال التصنيع، فارتبطت المزرعة والمصنع في نشاط ينهض بالريف والمدينة على حد سواء. فالصين وضعت كل تبعيات التنمية على كاهل الشعب، فعوّضت بطاقاته الحيوية الموجودة بقدر الإمكان، الطاقات الميكانيكية المفقودة، حتى في المشروعات الكبيرة الحجم، أي أنها عوّضت، بقدر الإمكان، الإمكان المالي بالإمكان الاجتماعي تعويضاً جعلها رائدة العالم الثالث بلا جدال، وجعلها تحصل على خبرة فريدة في العالم في مجال توظيف الإنسان والتراب والزمان. أنظر: مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 76، 77.

¹ سلمان نعمان: التجربة اليابانية: دراسة في أسس النموذج النهضوي، مركز نداء للبحوث والدراسات، بيروت، ط 1، 2012، ص 143.

أقوى من غيرهم بالتضامن البيئي⁽¹⁾، وإحساس بالفارق بينهم وبين الآخرين. هذه الأوضاع تبدو طبيعية ولا تدعو للدهشة، لأنها نتيجة ما تميّز به اليابانيون من لغة مميزة وعزلة جغرافية، استمرت على امتداد تاريخها القديم، وقد يكون هذا الحاجز نابع من حرص المجتمع الياباني كلّ على توكّيد هويته الجماعية، فالشعب الياباني حدد الخط الذي يفصل بين الذات والآخر، وبالتالي نجد أن أكبر جماعة يابانية وأكثرها أهمية هي الشعب الياباني نفسه⁽²⁾.

في البداية حرص نظام الحكم لسلالة توكوجاوا-استمرّ لأزيد من 3 قرون- على إبعاد كل تأثير أجنبي على البنيان الاجتماعي للبلاد، لحظة ظهور موجات المد الاستعماري الأوروبي (الإسباني والبرتغالي والهولندي) في شرق آسيا، فتّمّ تحريم النشاط التبشيري المسيحي، وطرّد التجار الإسبان والبرتغاليين، كما تم منع سفر اليابانيين خارج البلاد.

ورغم هذه الاجراءات الاحترازية تواصل الضغط الغربي على اليابان، وأدّى في النهاية لانفتاحها على العالم الخارجي، بعد إبرام معاهدة السلام بين اليابان والولايات المتحدة الأمريكية سنة 1854، ومعاهدات تجارية مع عديد الدول سنة 1858. مما أدى لاحتكاك اليابانيين في الموانئ والمدن التي فُتحت للتجارة الخارجية (وخاصة يوكوهاما) بالأجانب في محاولة للتعرف على ثقافتهم، وأنشأت الحكومة مدرسة لتعليم موظفيها اللغات الأجنبية، كما أرسلت الوفود الرسمية وبعثت الطلاب إلى أمريكا وأوروبا. رغبة منها في تذليل فجوة التخلف الحضاري عن الغرب، والحرص على امتلاك مفاتيح القوة التي استطاع بها أن يفرض إرادته على

¹ وهذا رغم وجود النظام الطبقي وتغلغله في ثنايا المجتمع الياباني. وفق الديانة اليابانية المتوارثة (الشنتو shinto) الناس غير متساوين، لأنّ دمائهم ليست واحدة: الإمبراطور تجري في عروقه دماء الآلهة، النبلاء (الصفوة) تجري في عروقهم دماء نبيلة، عامة الناس فتجري في عروقهم دماء عادية، المنبوذون فهم ليسوا من البشر، والدماء التي تجري في عروقهم دماء حيوانية.

² أدوين رايشاور: اليابانيون، تر، ليلي الجبالي، عالم المعرفة، ع136، 1989، ص369، 368.

اليابان، هي التي حددت أسس دعائم النهضة التي شملت الإصلاح الإداري والإصلاح الاجتماعي، والإصلاح القضائي، وإقامة جيش الحديث، وصاحب ذلك بناءً نظام تعليمي حديث، شكّل حجر الزاوية للنهضة التي قامت على قاعدة اقتصادية وفُرت العوامل المادية لنجاح النهضة وتحقيق أهدافها.

مما سبق يتضح جلياً أن الثقافة اليابانية، ورغم ما شهدته من تحديات ومحاولات اختراق خارجية، استطاعت المحافظة على مكوّناتها التقليدية، التي اكتسبتها عبر مراحل تاريخية ممتدة. ويمكن القول أن الواقع الثقافي الياباني وقف شامخاً في مواجهة المنظومة القيمية الغربية، محتماً بثوابت الثقافة اليابانية التي تعكس خصوصية التجربة اليابانية، حيث تمّ تطويع قيمّ الحداثة واستيعابها في إطار القيم التقليدية⁽¹⁾. فما أخذه اليابانيون عن الغرب، مثل الأوجه العصرية للحضارة الغربية، التي استحدثها الغرب استجابة للتكنولوجيا الحديثة، مثل خطوط السكك الحديدية والمصانع والتعليم العام والصحف الكبرى والتلفاز وديمقراطية الجماهير. وبهذا المعنى أصبحت اليابان أكثر تحديثاً، وأبعد ما تكون عن التغريب، لأن عملية التحديث في اليابان ارتكزت على المقوّمات الذاتية للحضارة اليابانية⁽²⁾.

رابعاً: شروط التنمية في المجتمعات الإسلامية بين المقومات الخاصة والمؤثرات الخارجية.

بناءً على ما سبق من تحليل أيقن بنبي أنه لا سبيل للخروج من الأزمة التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، سوى استعادة وهج الروح القرآنية، التي فقدت أثرها العملي في حياة العرب والمسلمين، لأنهم انفصلوا عنها في حالة ركود وجمود أو في حالة تقليد لمادية الغرب. فالثقافة - بما تتضمنه من فكرة دينية - ليست في نظر بن نبي

¹ نغم نذير شكر: فلسفة الثقافة اليابانية المعاصرة، مجلة دراسات دولية، جامعة بغداد 2010، ع45، صص 59-81.

² أدوين رايشاور: اليابانيون، مرجع سابق، ص303.

علما يتعلمه الإنسان، بل هي محيط يحيط به، وإطار يتحرك داخله، يغذي الحضارة في أحشائه، فهي الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وتشكل فيه كل جزئية من جزئياته تبعا للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه⁽¹⁾، بما في ذلك الحداثة والفنّان والراعي والعالم والإمام، "فإذا كانت الثقافة هي الجسر الذي يعبره المجتمع إلى الرقي والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعض أفراد من السقوط من فوق الجسر إلى الهاوية. وهو بهذه الفكرة لا يدعو للتقوقع، بل يدعو للنّدية، وفق منطق الحوار وفتح المجال أمام حوار الحضارات، وتنظيم العلاقات بينها، فالحضارة تتأسس على مجموعة من الشروط الذاتية والموضوعية. وأول شرط من شروطها؛ ضرورة أن يكون المسلم منفتحا سويا، وألا يكون شخصية منطوية مريضة، والغاية من هذا الكوجيتو، تحرير المسلم من ذهنية الرجوع إلى الوراثة (الماضي)، فالحضارة لا تُبنى من خلال قانون العودة إلى الوراثة بل الحضارة دوما تشكل من خلال قانون التقدم نحو المستقبل، ولا يمكن أن يصل المسلم إلى هذا الوعي إلا إذا تحرر من وهم وسحرية الماضي، فلا العصر الذهبي للإسلام ولا صدر الإسلام يمكنهما أن يحلا مشاكل المسلم في أي قرن قادم⁽²⁾.

لا يمكن للمستقبل أن يبنى في معزل مادي أو فكري من الحضارة العالمية المعاصرة، فإننا طوعا أو كرها نتأثر به، كما يتأثر الضعيف من القوي. فإذا كانت الأمة العربية مع ضعفها تشعر بقوة إراداتها وبالإيمان بنفسها، فإنها تقتبس من العلوم والفنون والنظم العالمية ما تنمو به وتزدهر بقوة وفعالية. وإذا كان موقفها موقف الإعجاب المستسلم والتبعية، فإنها تستعبد من جديد، ولو حلت بالصواريخ المستوردة ولو تدفقت فيها أودية من النفط والتعدين.

¹ مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق، ص 85

² عبد القادر بوعرفة: عبد المجيد مزيان ومفهوم الانبعاث الحضاري، مسترجع من: موقع

<https://www.aljazeera.net>، بتاريخ: 2019/04/30

بناء على هذا دعا بن نبي أمته لفهم حقيقة وجودها الداخلية من جهة، وحقيقة العالم الذي تعيش في وسطه، وأن تحلل الأوضاع الراهنة بمنطق وروية، لا متعصبة لما لديها ولا جامدة لما تستعيره من غيرها. لا تُعَظَمُ النفوذ الأجنبي حتى تستسلم إليه طوعاً، ولا تتجاهله حتى تنقاد إليها كرها... "ومعنى هذا أن شروط نهضتنا موجودة أولاً في أنفسنا، وفي صميم إرادتنا، على أن نعكف عليها وعلى أن ندفع ثمنها. وأن انفصالنا عن أنفسنا لا يمكن إلا أن يضعنا في أحضان حماية جديدة من طراز القرن العشرين لن تكون أخف من وطأتها ولا أسهل في الفكك منها وحماية القرن التاسع عشرة"⁽¹⁾.

والنتفتح المشار إليه هنا لا يعني الوقوع في فخ عقدة نفسية تجعلنا ننكر الماضي، لكي نسعى للمستقبل. فمهما يكون طموحنا، فإنه لا يستطيع أن يستغني عن التراث الروحي الضخم الذي نحمله في كياننا، والذي لا نستطيع أن ننكره دون أن ننكر أنفسنا. كلما كان أصل الشجرة ثابتاً في الأرض بسق فرعها في السماء. والحضارة الغربية تتشبث بانتمائها إلى التراث اليوناني-اللاتيني وتسكت عما للحضارة الإسلامية عليها من فضل... دون أن يعني التمسك بالتراث الروحي القعود عن الفعل، والتصدي للتحديات التي تعترض الأمة وتحول دون تقدمها الحضاري، فالتقدم لن يكتب له النجاح ما لم يبن على نظرة واقعية تكاملية بين الإيمان والعمل، والتفتح الحضاري على العلم والإبداع، خدمة للإنسان في أبعاده المتكاملة فردياً وجمعياً. بكل ما يتطلبه ذلك من واقعية، ومن حس نقدي لكي نستخلص دروساً نافعة، سواء من الانتصارات والأعجاز أو من الهزائم والأخطاء⁽²⁾.

تتجلى الانطوائية الحضارية في رفض المسلم التعاطي مع التاريخ، ضمن منطق

¹ أحمد عروة: الاسلام في مفترق الطرق، تر، أحمد أمين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الشروق، بيروت، (د، ط)، 1975، ص 165

² محمد بن علي: أحمد عروة، دفاعاً عن المرجعية الإسلامية للنهضة، ص 160

التغيّر والتبدل والتحوّل، واعتقاده بأن الحضارة يمكن أن تؤسسها على الثابت والأبدي. إن هذا التفسير للحضارة يخالف طبيعة الإسلام ذاته كما يقول د. عبد المجيد مزيان: "حينما نتكلم عن الإسلام فهناك أناس يفسرون الإسلام تفسيراً تعسفياً أو غير لائق. الإسلام ومعنى السلفية هو الرجوع إلى الظروف الاجتماعية السياسية الثقافية التي كانت موجودة في عصر هارون الرشيد أو غير ذلك، أي هناك رجوع إلى الوراء، هذا النوع من التحديد الضيق للإسلام سيبقيه إسلاماً منقولاً عن عصور أخرى. هذا التفسير للإسلام ضيق ومنحرف. لماذا؟ لأنني أعتقد كذلك من جانب آخر، أن الإسلام في بداية أمره، وخصوصاً في الأربعين الأولى كان ثورةً بآتم معنى الكلمة⁽¹⁾". فالعالم الإسلامي ليس بيده أن يغيّر أوضاعه الاقتصادية إلاّ بقدر ما يطبّق خطة تنمية تخلصه من تركة عصر ما بعد الموحدين، ومن خرافاتها وعقدها ومسلّماتها الوهمية.

لا تنطلق النهضة من فراغ، بل لابد فيها من الانتظام في تراث. والشعوب لا تحقق نهضتها بالانتظام في تراث غيرها، بل بالانتظام في تراثها هي، كمكتسبات إنسانية، علمية ومنهجية، متجددة ومتطورة. إن من الشروط الضرورية لنهضتنا تحديث فكرنا وتجديد أدوات تفكيرنا وصولاً إلى تشييد ثقافة عربية معاصرة وأصيلة معاً. وتجديد الفكر لا يمكن أن يتم إلاّ من داخل الثقافة التي ينتمي إليها، إذا هو أراد الارتباط بهذه الثقافة والعمل على خدمتها. وعندما يتعلق الأمر بفكر شعب أو أمة، فإن عملية التجديد لا يمكن أن تتم إلاّ بالحفر داخل ثقافة هذه الأمة، وبالتعامل العقلاني النقدي مع ماضيها وحاضرها⁽²⁾. وفق خطة تجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى، "بوصفه وسيلة تتغير هي ذاتها في فعاليتها بقدر ما تُحدث

¹ المقال والموقع السابق.

² محمد عادل التريكي: تأصيل الحداثة وعصرنة التراث، مسترجع، من <http://triki.canalblog.com>

يوم 2023/08/16

من تغيّرات في نطاق النمو الاقتصادي⁽¹⁾.

رابعاً: مشروع النهضة العربية بين الدوافع الذاتية والحلول الجاهزة:

ظلّ العالم الإسلامي طيلة قرون طويلة، متجمداً في أشكال أدّت إلى وجود قابلية للاستعمار فيه، نتج عنها الاستعمار. واليوم يتحرك العالم الإسلامي نحو الغد المأمول، استعاد حركاته، ودبّت فيه الحياة، وسبب هذه الحركية الجديدة أمران: حركات الإصلاح والتحديث في العالم الإسلامي. أما الأمر الثاني فيعود إلى الظواهر الكبرى لانتقال الحضارة في مستواها العالمي، بانتقال مركز الحضارة من البحر المتوسط إلى آسيا، حيث اعتبر هذا الأمر الثاني إحدى الظواهر الجوهرية منذ الحرب العالمية الثانية، وانتهى تركّز العالم على شواطئ البحر الأبيض، وتشكل فيه قطب شرقي مقابل للقطب الغربي الذي كان يتحكم في كل شيء.

في هذا السياق التاريخي، أصبح العالم الإسلامي يخضع لجاذبية جاكوتا، كما يخضع لجاذبية القاهرة أو دمشق. وهذا الانتقال إلى مرحلة آسيوية، يراه بن نبي سيحدث تأثيراً نفسياً وثقافياً وأخلاقياً واجتماعياً وسياسياً، يجعله يتحكم في مستقبله، وتشكيل الإرادة الجماعية لهذا العالم. وهذا الانتقال، سيسجل تحرر العالم الإسلامي من معوقاته وقيوده الداخلية التي ورثها عن عصور التخلف وعن استكانة العالم العربي للقابلية للاستعمار⁽²⁾.

ورغم هذا مازال للغرب السيادة في الميدانين الاقتصادي والثقافي. فالسيطرة الثقافية المستمرة للغرب هي بقية من بقايا سيطرته السياسية السابقة. أما على الصعيد السياسي، فإن البلاد التي كانت خاضعةً لسيطرة الغرب بطريقة مباشرة قد

¹ مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، ص 77

² بدران بن الحسن: حضور فكر مالك بن نبي في جنوب شرق آسيا، مسترجع من:

<https://www.echoroukonline.com>

استردت كلها تقريباً استقلالها من الغرب. ولكن هذه البلاد التي استقلت سياسياً ما زالت غير متحررة تماماً من الوجهة الثقافية، فهي لا تزال متأثرة بالأفكار والمثل العليا الغربية، وهي في بعض الحالات لا تزال تأخذ بهذه الأفكار والمثل العليا دون تمييز⁽¹⁾. يضع "توينبي" أسلوب الحياة الغربي في كفة الميزان، ليستخلص مزاياه وعيوبه وينبه أبناء الشرق وغيرهم من الذين أخذوا من الحضارة الغربية بنصيب غير قليل، وبهرتهم هذه الحضارة وافتتنت بها نفوسهم، إلا أن هذه الحضارة الغربية ليست خيراً كلها. فلها عيوبها، والفرصة أمام هذه الشعوب ما زالت سانحة، إذ أن في وسعهم أن يتجنبوا عيوب المجتمعات الغربية، ويسيروا في طريقهم الخاص من اقتباس ما يلائمهم فقط من حضارة الغرب.

موقف أشار إليه مالك بن نبي قبل ذلك قائلًا: ونحن في القرن العشرين نعيش في عالم يبدو فيه امتداد الحضارة الغربية قانوناً تاريخياً لعصرنا. ففي الحجرة التي أكتب فيها الآن كل شيء غربي، فيما عدا (القلة) التي أراها أمامي. فمن العبث إذن أن نضع ستاراً حديدياً بين الحضارة التي يريد تحقيقها العالم الإسلامي والحضارة الغربية. ولكن هذا يجسم المشكلة بأكملها، فليس من الواجب لكي ننشئ حضارة أن نشترى كل منتجات الأخرى. فإن هذا يعكس القضية... ويقود في النهاية إلى عملية محالة كما وكيفا⁽²⁾.

صحيح أنه كثيراً ما تسود لحظات اليأس عند الأفراد ساعة بدايتهم في عقد مقارنات بين واقعهم وواقع غيرهم، وينتج عن ذلك إما لحظات نكوص وتراجع، للبحث عن طوق النجاة في أرشيف دفاتر التاريخ وسير الأجداد، وإما محاولة التنكر لكل ذلك والبحث عن طوق النجاة عند الطرف الآخر (الغالب بلغة ابن

¹ محاضرات أرنولد توينبي: ترجمة وتحرير، فؤاد زكريا، مؤسسة هندواي عام 2022، ص 34.

² مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط 1، دار الجهاد، القاهرة، 1957.

خلدون) ومحاولة مجازاة خطاه والسير على أثره بغية الوصول إلى نفس النتائج التي وصل إليها¹. وينسى الطرفان أنه لا وصفات الماضي ولا قفزات الحاضر يمكن أن تبني مجتمع حضارة. فالمنطق الحضاري يؤكد على أن الفشل في إدراك الاختلافات بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الإسلامية، دفع بالكثير من المفكرين العرب للاعتقاد بضرورة تحقيق قطيعة معرفية مع الماضي⁽²⁾ كشرط لتحقيق الحداثة، وإلى احتقار التراث، ثم الوصول بالتبعية الثقافية للغرب إلى أبعد نقطة فيه من ناحية ثالثة. والنتيجة أن أصبح العقل العربي منفعلا وليس فاعلا⁽³⁾. ولم يتبها إلى أن "تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة... فالحضارة هي التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون حضارة، إذ من البديهي أن الأسباب هي التي تكون النتائج وليس العكس"⁽⁴⁾.

وهكذا، فإن تفاعل الفكر مع الواقع الاجتماعي والطبيعي، ومن تفاعل مجموع الشعوب مع الطبيعة والأفكار السائدة، ينتج عنه معادلة جديدة هي دليل على نجاح عملية التحضر، هذه المعادلة هي المقياس لتوافق الأفكار والأشخاص والأشياء، إنها معادلة العلاقات الاجتماعية، أو الصيغة الجديدة للمجتمع التي كانت ثمرة التوافق بين هذه العوالم الثلاثة، لأن النجاح في تحقيق الترابط، أي تحقيق شبكة العلاقات الاجتماعية دليل على السير في طريق صنع الحضارة⁵. وهو ما تبيّن تجارب الأمم التي استطاعت أن تعيد بناء مجدها الحضاري انطلاقاً من مخزونها من الأفكار وثروتها

¹ انظر تفصيلات مظاهر التردد في مقالنا: محمد بن علي: إشكالية استقبال المفاهيم الغربية في البيئة الثقافية العربية - مفهوم التنوير أنموذجاً، مجلة أبعاد، مج1، ع1، ص90-113 على الرابط:

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/34892>

² على سبيل المثال كتابات كل من: سلامة موسى، قاسم أمين.... الخ

³ محمد عادل التريكي: تأصيل الحداثة وعصرنة التراث، مسترجع، من <http://triki.canalblog.com> يوم 2023/08/16.

⁴ مالك بن نبي: تأملات، دمشق، سوريا، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1978، ص167.

⁵ أسعد السحمراني: مرجع سابق، ص147.

المفاهيمية، كما هو الحال مع الحالة الألمانية، التي رأى فيها بن نبي نموذجاً يحتذي به في تحقيق النهضة والإقلاع الحضاري؛ لأن "العنصر الفعّال الذي ساهم في نهوض الإنسان الألماني، إنما هو أفكاره وليس هذا واقعاً قائماً على الخيال، وإنّما هو واقع حقيقي؛ إذ إنّ ما شمل هذا البلد من دمار وخراب في عالم أشيائه لم يضع له نهاية، بل إنّ استطاع بواسطة ثروته المفاهيمية أن يبني حياته الاجتماعية، وفعلاً أسّس من جديد لوضعه السياسي والاقتصادي في العالم، والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا المثال الحي الذي بيّن من خلاله الإنسان الألماني قيمة الأفكار على الأشياء.

يرتكز التجديد الحضاري كما رآه بن نبي على فكرة التغيير الفاعلة، أي تغيير ما بالنفس، وذلك من أجل الإقلاع الحضاري نحو التجديد، فهي الطريق الشرعي والفطري لصناعة الحضارة والتقدّم الإنسانيين؛ لأنّ مفاتيح حلّ مشكلات التخلف في نظره هي في الذات وليس عند الآخر. خاصة في ظل واقع يؤكد على أن "النهضة الإسلامية تتلقى أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية⁽¹⁾. علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق استقلالنا الاقتصادي والسياسي؛ لأن السياسة والاقتصاد هما التطبيق العلمي للفكر السائد، فإذا كان الفكر مستورداً من مدارس الاستعمار فإنه من البديهي أن يكون الخادم الأمين لمصالحه. فالمنطق الحضاري، وتجارب الشعوب - يقول بن نبي - تدل على أن الثقافة لا تستورد بنقلها من مكان إلى آخر، بل يجب خلقها في نفس المكان، لأن البيئة ليست إحدى لوحات الرسم التي نفكها من مسار الجدار الذي علقت عليه.

بناء على هذا سعى بن نبي لبناء مجتمع (حضارة)، يستوفي جملة الشروط الحضارية، فأى جماعة في نظره تكتسب "صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها... أما الجماعات الساكنة فإنّ

¹ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص 57

لها حياة دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة...إنّ الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدّم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة".⁽¹⁾

خامسا: بين التجربة اليابانية والتجربة العربية استنتاجات على سبيل المقارنة.

1. يشترك العالم الإسلامي والمجتمع الياباني في بعدهما التاريخي العريق.
2. كلاهما يتحرك في إطار مرجعية تراثية ضاربة بجذورها في التاريخ ساهمت في بناء الذات الإسلامية، والذات اليابانية، فالمجتمع المسلم تحرك في ظل وهج فكرته الدينية وتراثه الثري. كما تحرك المجتمع الياباني في ظل مرجعية دينية امتزجت بتعاليم البوذية والكونفوشيوسية. علما أن مفهوم الدين لدى الياباني يختلف عن مفهومه المتعارف عليه عندنا، فالياباني يعتبر الدين فن وطريقة عيش، وهو مزيج من الأساطير وقصص الأوائل، كما أن الدولة اليابانية تمنع تدريس الديانات ولا تمنحها أي امتيازات، والمفارقة أن الياباني لا ديني من جهة ومتدين حتى النخاع من جهة ثانية، والديانة الشنتوية بالمفهوم الذي سبق ذكره هي الديانة الفطرية لليابانيين. وهي ما يمدّهم بالرغبة في التفوّق ورفض التسليم والاستسلام للظروف مهما كان نوعها.
3. كلاهما كان عرضة للموجات الاستعمارية في القرن الـ19م.
4. نسجل الاختلاف في ردة الفعل وفي كيفية التعامل مع المستعمر الذي هدد كيانه، ففي الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يرضخ للهيمنة الاستعمارية ويقدم التنازلات، أدرك الياباني أن عليه النهوض والمواجهة، قبل أن يهيمن عليه الغرب ويمحي وجوده.

¹ مالک بن نبی: میلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، سوريا: دار الفكر. ط2، 1974، ص16.

5. فرق بين التجربتين في مستوى الأفكار والتجارب الإبداعية والروح الجماعية: ففي الوقت الذي أخطأت فيه تجربتنا طريقها، نتيجة لانبهارنا بقشور الحضارة الغربية وزيتها، ووقوعها فريسة لنزعة التكديس، التي ارتبطت بعصر الانحطاط والتراجع الذي شهدته الحضارة العربية الإسلامية. كانت التجربة اليابانية تشق طريقها، متسلحة برؤية علمية وتخطيط محكم، تؤطره المصلحة العامة للمجتمع الياباني.

6. من جهة فعالية العنصر البشري، الحامل للقضية والطامع للتقدم والبناء في ظل رؤية مجتمعية تشد السير للأمام، متجاوزة الأفكار الميتة والأفكار القاتلة على حد سواء. في هذا الجانب تفوق الإنسان الياباني على نظيره في العالم الإسلامي، ففي الوقت الذي كان فيه الياباني يحلل الحضارة الغربية، ويفكك تركيبها محاولاً قدر الإمكان الاستفادة من منجزها الإيجابي وأفكارها الحية. بقي الإنسان المسلم سليل إنسان ما بعد الموحدين غارق في الجانب المبهر من منجزات الحضارة الغربية وفوّت على نفسه الاستفادة من منجزها الإيجابي. ليجد نفسه فريسة لثقافة التكديس والتقديس.

7. من حيث عالم الأشياء، يبيّن تحليل نهضة اليابان، أنها مزيج بين أشياء من مخلفات حضارتها العتيقة مع منجزات الغربية الحديثة، أو بين عالم زاهر بالأشياء مع عالم يشعّ بالأفكار، أفكار تنبع من عبقرية اليابان لحظة خروجها من عزلتها وانفتاحها على العالم الخارجي. والمقارنة مع العالم الإسلامي تكشف لنا عن الفارق بين الصلة التي ربطها اليابان بالحضارة الغربية وبين صلتنا بها. فاليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف عقلاني، واستوردت منها الأفكار المناسبة لنهضتها والملائمة لطبيعة مجتمعيها. ونحن استوردنا منها الأشياء. ففي الوقت الذي كان الياباني ينشئ حضارة، كنّا نشترى بضاعة حضارة.

8. فرق في مستوى التخطيط والقدرة على الإنجاز، حيث سجلت حركة النهضة العربية بطءاً في سيرها، ولم تكن تتجه نحو إنشاء حضارة، ولم تنظم اتجاهها نحو

الحضارة، لوجود عوامل تعطيل نفسية، في صورة رواسب خلفها في نفوسنا عهد الركود. عكس ما سجلته النهضة اليابانية التي استطاعت هضم المنجز الغربي دونها انبهار، ورسمت بذلك خط سيرها دون توقف. يقول بن نبي: الغريب أن هذا المجتمع الذي نهض بعدنا بعشر سنوات قد سار إلى الحضارة ووصل إليها، وأصبح خلال أربعين سنة دولة قويّة تناهض دولة من العصر الاستعماري.... بينما لو نوازن إنتاجنا الحضاري سنة 1905 بالإنتاج الحضاري الياباني... لا مجال للمقارنة⁽¹⁾.

9. اختلاف آخر يتصل بقضية الثقافة والتوجهات. حيث نجحت التجربة اليابانية في رسم خططها الرامية لبناء إنسان الحضارة، سواء تعلق الأمر بنمط التعليم أو بمحتوياته، في مقابل ذلك بقيت البلاد العربية، تعتمد أنماط تربوية فقدت صلاحيتها وقدرتها على التعامل مع مقتضيات المرحلة الجديدة. وهذا راجع لعجز في تشخيص غاية النهضة والمشكلات الاجتماعية، وتحديد الوسائل المناسبة للغايات المنشودة والإمكانات. لهذا دعا بن نبي لضرورة تحيين المنظومة التربوية وفق متطلبات الواقع المتجدد، فالتعليم لا ينفع بمجرد إضافة معلومات، ما لم يكن عملية تصفية نفسية، طبقاً لضرورات النهضة في الداخل والخارج. وهذا يعني وضع برامج التعليم تتصل بعالم النفس والدوافع الأساسية ثم بعالم العقل وبالعالم الأشياء والحاجات.

10. آمن اليابانيون بفكرة التفاوت الاجتماعي بين الناس تبعاً لتعاليم العقيدة اليابانية، وتطبيقات البوذية والكونفوشية، واستفادوا من ذلك في بلورة فكرة الوحدة الاجتماعية، والفرد وفق هذه الفكرة لا قيمة له بذاته، إذ تسمو الروابط الاجتماعية على القيمة الشخصية. وقيمة الفرد من قيمة طبقته التي ينتمي إليها. وهذا ما يبرر فكرة تقديس العمل عند الإنسان الياباني، لأنها مرتبطة بفكرة الخلاص. وأثمرت هذه الوحدة الاجتماعية اتجاهاً أخلاقياً يدفع الفرد للتضحية

¹ مالك بن نبي: تأملات، ص 165

بنفسه من أجل الجماعة، انطلاقاً من البيت وصولاً للأمة. في مقابل ذلك تخلى الإنسان المسلم (إنسان ما بعد الموحدين) عن فكرته التي كانت المحرك لفعاليته الفردية والجماعية، وبقي متحجراً في عاداته الفكرية وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية، وفي فعاليته إزاءها.

11. مستوى آخر يبرز الفرق بين التجربتين، يتعلق بالنظرة للأشياء. فالأشياء لا تؤدي مفعولها الاجتماعي تلقائياً، وإنما تؤثر بقدر ما يضاف إلى مفعولها من دوافع نفسية وتوجيهات فكرية معينة، وهذا ما فهمه اليابانيون جيداً، فالشعب الياباني كان يريد بالأشياء التي استوردها خلال العهد الميجي، وسائل يواجه بها بناء حضارة: والبناء لا يتم بالأشياء مهما كانت صلاحيتها وثمنها، وإنما يتم بالدوافع التي تحرك تلك الأشياء، لأن الشيء يفرض على الإنسان سيطرة خفية، تتجلى في حاجتنا إليه أو في إعجابنا به، فتطغى علينا سيطرة الشيء، سيطرة يقترب معها من التقديس اللاشعوري. لأن الصلة النفسية بيننا وبينه ليست صلة الصانع بالمصنوع. وهكذا تتكون في المجتمع نزعة يمكن أن تؤدي في نهاية الأمر إلى ظهور حضارة شيئية، أي حضارة يطغى فيها الشيء على الإنسان.

12. فرق على مستوى التكديس والبناء. المجتمع الياباني بنى مجتمعاً متحضراً، عندما دخل على الأشياء من أبوابها. وطلبها بوصفها حاجة. درس الحضارة الغربية بالنسبة لحاجاته، وليس بالنسبة لشهواته، فلم يصبح من زبائن الحضارة الغربية يدفع لها أمواله وأخلاقه. في مقابل ذلك قمنا بتكديس منتجات الحضارة الغربية وأخذنا منها كل رذيلة، في الوقت الذي كان علينا أن نفكر في المجتمع تفكير بناء وليس تفكير تكديس، فالبناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة لا التكديس... إن علينا أن ندرك بأن تكديس منتجات الحضارة الغربية لا يأتي بالحضارة⁽¹⁾. وفي ضوء هذه

¹ مالك بن نبي: تأملات، ص 169

الاعتبارات النظرية، رأى أن توضع مشكلة الإنسان في الرتبة الأولى لأنه هو الذي يوجه الأشياء ويصنع الحضارة.

على سبيل الخاتمة

سعى مالك بن نبي إلى بلورة شروط مشروعه الفكري الحضاري لمواجهة خطر التحلل والاندثار الحضاري الذي تعانيه الأمة الإسلامية من جرّاء المرحلة الاستعمارية وتداعياتها على مختلف المستويات¹. وهذا لا يكون إلا من خلال تصحيح الفهم الخاطئ للحضارة الذي سعى المستعمر إلى ترسيخه في أذهان الشعوب المتخلفة، المتمثل في استيراد المنتج (الشيئي) أو (الفكرة) من العالم الغربي المتقدم. لأنّ التخلّص من التخلف لا يكمن في استهلاك ما تنتجه الحضارة الغربية من أشياء وأفكار. "إنّ مشكلة الحضارة تنحلّ إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدّس المنتجات، وإنّا بأن نحلّ هذه المشكلات الثلاثة من أساسها"⁽²⁾. والتعرّف على عوامل التقهقر والانحطاط، والجمود داخل الحضارة، إلى جانب شروط النمو والتقدّم، والانطلاق بخطى ثابتة نحو دورة تاريخية جديدة، ميزتها التجديد الحضاري؛ لأنّ مشكلة كل أمة هي في جوهرها مشكلة حضارية، و"العالم الإسلامي لفي أمس الحاجة في هذه النقطة إلى أفكار واضحة تهدي سعيه نحو النهضة، ولهذا فإنّ ما يهمنّا في المقام الأول هو أن نتأمّل الأسباب البعيدة التي حتمت تقهقره وانحطاطه"⁽³⁾.

أدرك مالك بن نبي أن المشكلة لا تكمن في طبيعة الثقافة الغربية في حد ذاتها،

¹ مسعود بوشخشوخة، مالك بن نبي والتجديد الحضاري، مجلة الكلمة، ع95، 2017، مسترجع من: <http://kalema.net/home/article/view/1235>

² مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، دمشق، سوريا: دار الفكر، ط3، 1979، ص45

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص82.

بل تكمن في طبيعة تعاملنا معها، ويضرب لذلك مثلاً بالبعثات الطلابية، حيث يشير إلى أن طلبتنا سواء المجدّون منهم أو غيرهم لا يذهبون لمعين الحضارة الغربية بل يلهيهم بريقها المادي. وهم بذلك لا ينقلون منها إلا الأفكار الميّتة أو القاتلة. عكس ما حدث مع التجربة اليابانية، التي استطاعت في تعاملها مع الغرب أن تفرق بين ما هو صالح للاقتباس، وما هو ضار وخاص بالقيم والأخلاق الغربية، التي تتعارض مع ثقافة وقيم المجتمع الياباني. فالإنسان الياباني ورغم نكسة أحداث الحرب العالمية الثانية، التي دمّرت البنية التحتية، ظلّ غنياً بالأفكار محافظاً على ثقافته وتقاليده وذاكرته التاريخية - التي مكّنته من النهوض بسرعة - ومنفتحة على كل ما يصلح من الحضارة الغربية.

قائمة المراجع:

1. مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: الدكتور بسام بركة والدكتور أحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق، سوريا: دار الفكر، ط1، 2002.
2. مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت، لبنان: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1970.
3. مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر المستكاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط3، 1979.
4. مالك بن نبي: المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، ط2، 1987.
5. مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط1، دار الجهاد، القاهرة، 1957.
6. مالك بن نبي: تأملات، دمشق، سوريا: دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1978.
7. مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق، سوريا: دار الفكر، الطبعة الثانية، 1974.

8. الطاهر مسعود: التخلف والتنمية في فطر مالك بن نبي، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2006.
9. عمر كامل مسقاوي: في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد، ج1 وج2، دار الفكر المعاصر، لبنان. دار الفكر، دمشق، 2013.
10. سلمان نعمان: التجربة اليابانية، دراسة في أسس النموذج النهضوي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2012.
11. أدوين رايشاور: اليابانيون، تر، ليلي الجبالي، عالم المعرفة، ع136، 1989.
12. محاضرات أرنولد توينبي: ترجمة وتحرير، فؤاد زكريا، مؤسسة هنداوي عام 2022.
13. أحمد عروة: الاسلام في مفترق الطرق، تر، أحمد أمين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الشروق، بيروت، (د، ط)، 1975.
14. أسعد حوراني: مالك بن نبي " مفكرا مصلحا"، دار النفائس، بيروت، ط1، 1984.

مشروع التغيير ومركزيته في التنمية عند مالك بن نبي - دراسة تحليلية -

د. حسام الدين مخلوف

كلية العلوم الإسلامية - جامعة الوادي (الجزائر)

makhlouf-houssemeddine@univ-eloued.dz

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد، فإنَّ الإنسان هو العنصر الفاعل والفعال في عملية التغيير في مختلف مجالات الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإنَّ من أهم ركائز حياة الشعوب والمجتمعات والأمم تلك العمليات التغييرية المتمثلة في ترسيخ القيم، وتصحيح الأفكار، وإتقان العمل، وتحقيق العمارة، وتفعيل الحضارة. ولقد ارتبط وجود الأمة الإسلامية في ساحة الفعل الحضاري بوجود مصدرها الأول، ألا وهو القرآن الكريم الذي حدّد معالم هذا التغيير وأرسى دعائمه في نسقٍ كاملٍ متكاملٍ مع السنن الكونية التي لا تبدل، والقوانين الثابتة التي لا تتغير، بل تجري عليها الشؤون المتغيرة للبشر، وعلى حسبها تكون الآثار والنتائج الدنيوية والأخروية، وقد استطاع النبي ﷺ بالقرآن الكريم أن يغيّر حال الناس فأخرجهم من ساحة العدم الحضاري إلى رحاب الوجود الحضاري، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:1]، ولهذا يقول سيد قطب في سياق تفسيره لهذه الآية الكريمة: "لتخرج هذه البشرية من الظلمات - ظلمات الوهم والخرافة وظلمات الأوضاع والتقاليد وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين - لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور الذي يكشف هذه الظلمات، يكشفها في عالم الضمير، وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة

والقيم والأوضاع والتقاليد والإيمان بالله وحده إلهًا وربًا، منهج حياة كامل، لا مجرد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور، منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله... والتخلّص من ربوبيات العبيد... وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ما يملأ الحياة سعادة ونورًا وطمأنينة وراحة، كما أنّ فيها من الاستقرار والثبات عاصمًا من التقلّبات والتخبّطات التي تتعرّض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد وحاكمية العبيد ومناهج العبيد في السياسة والحكم، والاقتصاد والاجتماع، وفي الخلق والسلوك، وفي العادات والتقاليد¹. ولهذا فقد كانت معظم أعمال مالك بن نبي تتمحور حول مشروع التّغيير ومركزيته، بل تكاد تكون مشكلة التّغيير هي المشكلة الأساسية في فكر مالك بن نبي؛ خاصة وأنها الوجه الآخر لمشكلة الحضارة، ولذلك نجدها تحتلّ الصدارة في مؤلفاته ومحاضراته، وقد كان مالك بن نبي مدركًا لمعنى التّغيير وشروطه ومناهجه إدراكًا جيّدًا، وهذا ما مكّنه من تحليل المناهج التّغيرية تحليلًا علميًا دقيقًا²، وهذا ما سيحاول أن يعالجه هذا البحث من خلال ما يلي:

المبحث الأول: مفهوم التّغيير وفقهه عند مالك بن نبي

المطلب الأول: ترجمة مالك بن نبي:

هو أحد أعلام الفكر الإسلامي، وأشهر مفكري الجزائر في القرن العشرين، وقد وُلد مالك بن نبي يوم 1 يناير 1905م في مدينة قسنطينة، وعاش مع أسرته الإسلامية المحافظة؛ حيث كان والده يعمل في مجال القضاء الإسلامي، وقد درس مالك القرآن وهو صغير، ثم انتقل ليكمل تعليمه الابتدائي في المدرسة الفرنسية، ثم سافر مع أحد أصدقائه المقربين إلى فرنسا، وهو يبلغ من العمر عشرين عامًا، إلّا أنّ رحلته كانت

¹ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط7، دار الشروق، القاهرة، 1412هـ، ج4، ص2085.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التّغيير في فكر مالك بن نبي، ط2، عالم الأفكار، الجزائر، 2007م، ص76-77.

تجربةً محببةً له بكل المقاييس، وعاد بعد ذلك إلى مدينته التي نشأ فيها، وعمل بعد ذلك في محكمة آفلو، واستطاع في تلك الفترة أن يعلم الكثير من مجريات الأحداث في البلاد والعالم، وبحلول عام 1928م استقال مالك من وظيفته بعد شجار دار بينه وبين أحد الكتّاب الفرنسيين التابعين للمحكمة المدنية. ثم انتقل سنة 1930م إلى فرنسا، وتمكّن من الالتحاق بمدرسة اللاسلكي، وتخرّج من المدرسة كمساعد مهندس، وتزوَّج بعدها من فتاة فرنسيّة سنة 1931م، وقد أسلمت على يديه واتّخذت من اسم خديجة اسمًا لها، وأقام في فرنسا لغاية سنة 1956م، وشرعت له فرنسا في ذلك الوقت أن يتحدث حول العديد من القضايا، واستطاع أن يكتب الكثير من المؤلفات، بل واستطاع أن يصير كاتبًا متخصصًا في شؤون العالم الإسلامي ومشكلات الحضارة الإسلامية، وبحلول الثورة الجزائرية هرب مالك من فرنسا إلى مصر، حيث تفرّغ هنالك للتأليف أيضًا، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1963م أين عُيّن مديرًا عامًا للتعليم العالي، ولكنه استقال من منصبه عام 1967م، ليتفرّغ للعمل الفكري إلى أن توفي يوم 31 أكتوبر 1973م، ودُفن بمقبرة سيدي محمد - رحمه الله -¹.

ومن أبرز مؤلفاته: الظاهرة القرآنية. شروط النهضة. وجهة العالم الإسلامي. الفكرة الإفريقية الآسيوية. فكرة كومنولث إسلامي. مشكلة الثقافة. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. حديث في البناء الجديد. تأملات. في مهبّ المعركة. آفاق جزائرية. القضايا الكبرى. إنتاج المستشرقين. الإسلام والديمقراطية. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. بين الرشاد والتهيه. المسلم في عالم الاقتصاد. من أجل التغيير. ميلاد مجتمع.

¹ هشام شراد، فقه الواقع العالمي في فكر مالك بن نبي، الملتقى الدولي الثالث: فقه الواقع المستقبل التجديد في النهضة الإسلامية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سطيف، مركز الشهاب للدراسات الإسلامية، سطيف، ص 147.

المطلب الثاني: مفهوم التّغيير وفقهه عند مالك بن نبي:

أولاً: مفهوم التّغيير

1- لغة: يرجع أصل التغير في القواميس العربية إلى أصل التحرك والانتقال من حال إلى حال أخرى¹.

2- اصطلاحاً: هو القيام بعملية الانتقال والتحوّل من حال إلى حال أحسن، وتستدعي هذه العملية موقفاً من الحال المُنتقل منها، وتصوّراً عن المكان المُنتقل إليه، واستحضاراً لطريقة الانتقال وآلياته، مع مراعاة وتوقّع أيّ خلل أثناء عملية التحوّل، وكيفية إصلاحه من أجل سلامة وسلاسة الانتقال في إطار تحقيق الأهداف المرسومة².

ولا شكّ أنّ التغير ضرورة ملحة للخروج من وضعيه الرّكود التي يعيشها العالم الإسلامي، لكنّ الآراء تختلف حول طبيعة هذا التغير ومنهجه، فهل يتركز التغير على الجانب الاجتماعي أو الفردي؟

ثانياً: فقه التغير عند مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أنّ تغيير الإنسان³ هو الشرط الجوهرى لكلّ تحوّل اجتماعي رشيد، وهو المنطلق الأساس لكل تغيير اجتماعي⁴.

وأنّ ظاهرة التغير لا تجدي نفعاً إذا لم تصحب بتغيير الباطن، وتبقى عديمة الجدوى إذا لم تنفذ إلى الإنسان ذاته فتغيره تغييراً جذرياً؛ لأنه منشأ جميع الهزائم

¹ عبد الرحمن الطيبي، سؤال النهضة وإشكالية الاستدراك الذاتي مقارنة مدرسة المقاصد، مجلة المقدمة الجزائرية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد الأول، نوفمبر 2017م، ص 149-150.

² انظر، المرجع نفسه، ص 150.

³ ذلك التغير الجذري الشامل لكل الجوانب: العقديّة، الثقافيّة، الاجتماعيّة، السياسيّة، الاقتصاديّة، انظر، عبد اللطيف عبادة، فقه التغير في فكر مالك بن نبي، ص 39.

⁴ عبد اللطيف عبادة، فقه التغير في فكر مالك بن نبي، ص 39.

والانتصارات¹.

وإنَّ معيار نجاح أيِّ حضارة وتحقيق مشروع النهضة لا يتمثل في تغيير الوجه المادي للمجتمع والمظاهر التكدسية المادية بقدر ما يتمثل في تغيير جوهر الإنسان وبنائه البناء الصحيح، فيصير الإنسان الصانع للحضارة².

وينطلق في ذلك كلّ من هدي القرآن الكريم، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53].

فيرى أنَّ محيطنا الاجتماعي بحاجة إلى فهم الآيتين السابقتين فهماً صحيحاً حتى يغيّر ما بنفسه في الاتجاه السليم، ويحذر من الكفر بأنعم الله، ولذلك عليه أن يغيّر نفسيات أبناء الأمة في اتجاه مكارم الأخلاق، وعقائد التوحيد، والكف عن المعاصي والموبقات. وكما يقرّر القرآن الكريم حتمية انحلال الدول وسقوطها، فهو يقرّر - أيضاً - قدرة أيّة أمة أو جماعة في أن تعود باستمرار لكي تنشأ دولة أخرى أو تمارس تجربة جديدة أو تتولى زمام القيادة الحضارية بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك، وأوها عملية التغيير الداخلي التي أكّد القرآن الكريم على حدّها الإيجابي والسّليبي في الآيتين السابقتين، ويمتدّ هذا التغيير الداخلي إلى كافة المجالات الأخلاقية وسائر المكونات النفسية الأساسية، وكلّ العلاقات الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكّن الإنسان فرداً وجماعة من مواجهة حركة التاريخ³.

ويقرّر القرآن الكريم - أيضاً - مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة، وليس الاستمرار؛ لأنه ليس بإمكان أيّة جماعة إنسانية - البتة - أن

¹ انظر، المرجع السابق، ص 108.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 108.

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 1، مصر، ص 89.

تبقى متوترة الإرادة في مواجهة التحديات الدائمة قرناً بعد قرن، دون أن تضعف أو تغفل أو تفقد توترها هذا، بل تتخلى نتيجة الكلل والضعف الذي يصيبها عن مكانها المتقدم للجماعة الأكثر استعداداً وحيويةً وتوتراً، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ الإسلام يمنح الإرادة البشرية فرصتها في صياغة المصير بالتشبث به أو استعادته إذا ما أفلس من بين أيديها. وهكذا يعود الإنسان في الإسلام ليتنصر على الحتميات وليستعيد قدرته الفطرية على التجدد والتطور والإبداع¹.

ثالثاً: مرتكزات فقه التغيير عند مالك بن نبي:

إنّ مشكلة التنمية عند مالك بن نبي تتطابق مع مشكلة الحضارة، وإنّ التغيير ما هو إلا عملية الانتقال من التخلف والانحطاط إلى التنمية والحضارة، فلا تنمية ولا حضارة بدون إرادة التغيير، ولا تتكوّن الحضارة إلا إذا اجتمعت العناصر الثلاثة الآتية: الإنسان والتراب والزمن، بالإضافة إلى الفكرة الدينية التي تضمن تفاعل هذه العناصر بينها تفاعلاً حقيقياً².

ويجب بناء الإنسان الذي يمشي في التاريخ مستخدماً التراب والزمن والمواهب في بناء أهدافه الكبرى³. ولا يمكن للفرد أن يؤثر في المجتمع وأن يغيّره إلا بثلاث مرتكزات أساسية، هي: (1) الفكر. (2) العمل. (3) المال.

1- التغيير الفكري:

إنّ المسلم اليوم مسلوب الحضارة لم يعد قادراً على إنجاز عمل محضر إلا إذا تغير تفكيره، وإنّ المشكلة التغييرية في المجتمع الإسلامي تكمن في الإنسان نفسه وليس في الأطر العامة المحيطة به، فالأفكار تؤثر في حركة المجتمع كعوامل تعوق تحرك

¹ عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، مكتبة 30 تموز، العراق، 1985م، ص 263.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 228.

³ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة مسقاوي وشاهين، دار الفكر، ط 3، 1969م، ص 113-114.

الفرد والنمو الاجتماعي، وإنَّ التربية في إطار طرح المبررات في المجتمع وغرسها في الفكر وتمثلها في الوجدان يؤدي إلى تكوين التوتر الحيوي في تركيبه للفرد والمجتمع والتوجّه نحو الفعل والنشاط المغير.

ولهذا اشترط ابن نبي توافر الفعالية في كثير من الأنشطة الأساسية لكي يتم التغيير في أحسن صورة، ولكي تنتج التربية قيم الفعالية في الفرد والجماعة عليها أن تغرس القيم الأخلاقية، وأن تستثمر المواهب والقدرات، وأن تكون الإطار الاجتماعي الإيجابي، وتنمي الإرادة في صناعة التاريخ¹.

ويشير مالك بن نبي إلى أنَّ مشكلة كل شعب هي في فهمه لمشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها².

ففي عصر الإلحاد والمادية يجدر بنا العودة إلى العقيدة النقية، لأنَّ التجربة الإيمانية تقوي الحضارة وتحصنها وتدعمها ببعدين أساسيين:

- أولهما يحقق الانسجام مع نواميس الكون.
- وثانيهما يعطيها قدرات إبداعية أكثر وأعمق تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤولياتهم، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم؛ لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وفي عصر الصراع الفكري ينبغي بناء صرح ثقافي يصمد أمام الأعاصير، كما ينبغي تحصين الإنسان بتخليه عن القابلية للاستعمار، واللفظية، والافتخار بالماضي، والروح الجدالية، والتبرير، والشيئية، والتكديس، والاضطراب الفكري والسلوكي، وتحليله بالفعالية، والروح العملية، والاستناد إلى الحكمة والبصيرة في

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 98.

² مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية، بيروت، 1959م، ص 14.

الفكر والعمل¹.

وهذه الرؤية المتميزة في التغيير الفكري تتلخص فيما يلي:

- الرؤية الحضارية الشاملة التي تتجاوز الرؤى التجزيئية والنسبية.
- الرؤية الإنسانية التي تحدد ملامح مشكلات البشرية.
- الرؤية السننية التي تفسر عوامل بناء وهدم الحضارات².

2- التغيير العملي:

ألحَّ مالك بن نبي على الفعالية والبناء الحضاري وعلى ربط منطق الفكرة بمنطق العمل من أجل القضاء على عقمنا الاجتماعي الذي جعلنا نتكلم تبعاً لمبادئ القرآن الكريم دون أن نعيش وفقها، وجعل سياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا ولا كيف تجسدها في الواقع³.

وقد وافقه الدكتور سليمان الخطيب على هذا فيقول: "وهكذا يتبين أنَّ مالك بن نبي يأخذنا إلى مقارنة هذا الوضع المعاصر بحال الجيل الأول من المسلمين حيث ارتبط الفكرة بتطبيقها العملي، بعد أن التزم بها المسلم في تكوينه العقدي والأخلاقي، من خلال علاقة متبادلة بين الفكرة وسندها المحسوس وهو الإنسان، وكيف أنَّ هذا لا يحدث في وقتنا الحاضر... فديننا الحنيف هو الذي علمنا الفعالية، علَّمنَّا أن نقول لنفعل، وألا نغرم بالألفاظ بقدر ما نعمل على تحقيق المثل الإسلامية في واقع الناس، فالقرآن والسنة من خلال مبدأ اقتران النظر بالعمل كما تؤكد أقوال ابن نبي قادران دوماً على أن يمكننا المسلم في أية مرحلة من المراحل التاريخية من

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 110.

² بدر الدين زواقة، سؤال النهضة بين شروط مالك بن نبي وقانون جاسم سلطان مقارنة في نظريات واستراتيجيات التغيير الاجتماعي، أعمال المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي، جمع وإعداد: عتيقة نابي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركز الشهاب للبحوث والدراسات، الجزائر، الوطن اليوم، ص 258.

³ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 111-112.

العودة إلى داخل الحضارة، حيث يقدمان له باستمرار غذاء متجددًا ومتجاوبًا مع فطرته من جانب، ومع أي مرحلة من مراحل الرقي العقلي يستطيع الوصول إليها من جانب آخر¹.

ولهذا يعرض مالك بن نبي مفهومه للتغيير العملي بما يتوافق وفلسفته العامة حول عدم حركية المسلم وحيويته، فيقف متذمرًا من حالة الإنسان بفقره الروحي، وجمود تقاليده المميتة لحركة الاجتهاد والعمل، والفاقة لهزة القلب التي ترتفع بالإنسان فوق الركود القتال، بل حتى العلم بالنسبة إلى بعض المسلمين لم يعد آلة للنهضة، بقدر ما هو زينة وترف. وحتى الحركة الحديثة التي اقتبست بعض العلم من جامعات الغرب لم يكن وسيلة للإقلاع، بل كان طريقًا إلى المظهرية الجوفاء. وكذلك الشعائر التعبدية والدينية التي لم يستطع المسلم أن يصحب مفعولها ومقاصدها إلى خارج المسجد وميادين العمل، ولهذا فمحاولة التغيير والإصلاح لم تتمكن -للأسف- من تقديم العلاج الشافي لهذه الأوضاع بسبب تعليقها بالمنابر وحصرها في قاعات الدراسة والعبادة، ولم ينزل بها إلى الأماكن التي تكثر فيها العيوب الاجتماعية والتي يجب إصلاحها؛ ولذلك فإنه وإن تمكن من إحداث نهضة فإنه حرّمها من كل توجيه منهجي وعملي².

3- التغيير المالي:

وفي عصر التكتلات الاقتصادية يدعو مالك بن نبي إلى بعث تكتل عربي ثم إسلامي يحقق الاتفاق الذاتي، ويكفل القوت لكلّ فم، والعمل لكلّ فاعل، ويرتكز على الاستثمار الاجتماعي بدلا من الاستثمار المالي، فالتنمية الاقتصادية التي لا تأخذ الإنسان بعين الاعتبار تبوء حتما بالفشل كما يرى -مالك بن نبي-، فالنهضة يجب

¹ سليمان الخطيب، رؤية حضارية للمجتمع الإسلامي المعاصر عند مالك بن نبي، ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين، تبسة، ص 16.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 103-104.

أن تتضمن الجانب التربوي الذي يجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى التي تتحقق بها خطة التنمية.

ولهذا فعلى العالم المتخلف أن يغير وجهة الاستثمار حتى يتخلص من رواسب التخلف التي لحقت به في السنين الأخيرة، وأن يغير من مفهومه ليحوّله من "العمل نتاج الاستثمار" إلى "الاستثمار نتاج عمل". وعليه فالمسلم اليوم مطالب بأن ينظر إلى الأمور نظرة إيجابية تأخذ بعين الاعتبار مسلمتين اقتصاديتين:

- لقمة العيش حق لكل فم.

- العمل واجب على كل ساعد¹.

ولقد وجد العالم الإسلامي اقتصاده مقتصرًا على الاستهلاك بدل الإنتاج. وقد صنع الاستعمار من الرجل العربي المسلم رجلاً لا يفكر إلا في رغباته المادية، ولا يفكر أبداً في الوسائل التي تمكنه من الخروج من ورطته، مقلداً حاجات غيره، وبذلك اتجه نحو تكديس الأشياء بدل البناء.

وظاهرة التكديس - في نظر مالك بن نبي - أدت إلى التمدّن لا إلى الحضارة، وهذا التمدّن يمكن صناعته في لحظة معيّنة من الزمن، لكن رغم ذلك سنظلّ نحمل في ذواتنا أفكاراً لا تحرّك المجتمع، وعقلاً ضيقاً لا يتعدّى الأفق، ولا نبني الحضارة التي تصنع منتجاتها، وعليه فالمجتمع الذي لا يصنع أفكاره لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه. وإنّ العلاقة بين الحق والواجب هي التي ترسي القواعد الأساسية لجميع ميادين التطور في المجتمع. والعلاقة "واجب-حق" تضعنا أمام علاقة اقتصادية "إنتاج-استهلاك"، فكلما أدّى المجتمع واجباته زاد الإنتاج، وكلما زاد الإنتاج تمتّع الاقتصاد بالوفرة والرفاهية واستفاد جميع أفراد المجتمع بهذا الخير².

¹ انظر، قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006م.

² انظر، المرجع نفسه.

المبحث الثاني: قراءة مالك بن نبي لمناهج التغيير ونقده لها:

المطلب الأول: قراءة مالك بن نبي لمناهج التغيير:

أولاً: اختلاف مناهج التغيير:

اختلف زعماء النهضة الإسلامية في المناهج التغييرية بعد أن جمعتهم الآيات القرآنية التي تدعو إلى التغيير، فمنهم من ركّز على إصلاح السياسة والمؤسسات، ومنهم من ركّز على إصلاح العلم والتعليم، ومنهم من ركّز على التزكية ومجاهدة النفس، وقلّ أن نجد منهم من ينظر إلى الأمور بنظرة شمولية، ويجمع بين الجانبين الفكري والعملي¹.

بل ونجد منهم من يعتقد أنّ التغيير لا يكون إلا عن طريق العنف، في حين أنّ النهضة بناء متكامل يستند إلى العلم والتكنولوجيا والأخلاق، فكيف نجتمع بين مقتضيات هندسة البناء المحكمة وبين متطلبات الهدم الذي يسببه العنف مع ما يترتب عنه من عداوة²؟

نجد مالك بن نبي في طريقته لدراسة مناهج التغيير يدعو إلى تصفية العادات والتقاليد والإطار الخلقي والاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة، وتكون التصفية حتماً بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جميل ويخلص إلى ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

- الطريقة الأولى: سلبية تفصلنا عن مناصب الماضي، وهي ضرورة للنهضة الإسلامية.

- الطريقة الثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة³.

¹ عبد اللطيف عباد، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 77.

² المرجع نفسه، ص 78.

³ المرجع نفسه، ص 78-79.

ثانيا: طريقة تشخيص الغاية من التغيير ومشكلات المجتمع وتحديد الوسائل:

لقد وقعت حركة النهضة الإسلامية في خطأ التكديس عندما اتجهت نحو تكديس الأشياء، مما أدى إلى تعثرها وعدم تحقيق النتائج المرجوة، وأسباب هذا التعثر تكمن في العوامل التالية:

- عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة.

- عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصاً صحيحاً.

- عدم تحديد الوسائل تحديداً يناسب الغاية المنشودة والإمكانات¹.

ويرى ابن نبي أنه لا أن يتغير الإصلاح نفسه فيتجه إلى المنهج الحركي الشمولي، خاصة وأنّ الإصلاحيين عموماً ابتعدوا عن التخطيط الذي يعالج التغيير من خلال هدف واضح أو برنامج موضوعي وانشغلوا بقضايا فرعية أو جزئية، كسعي محمد عبده ومن بعده -إقبال- بإصلاح علم الكلام، وسعي الأفغاني لإصلاح الحكم، وانشغال الكواكبي وأرسلان وأحمد رضا بمسائل دفاعية، كل ذلك في نظر ابن نبي ابتعد عن جوهر المشكلة التي هي التخلف، وبالتالي أهمل عملية تربية المجتمع باتجاه إعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، وتحويل الشروط الواقعية للمجتمع نحو تحقيق التقدم. ويتأسف ابن نبي لكون هذه الجهود الذهنية لم تترجم في صورة مذهب دقيق للنهضة ومنهج منسجم للتغيير، فطلّت تنطلق في صورة شعلات دفاعية أو جدارية؛ ولهذا كان يعيب على هذه الجهود افتقارها إلى النظرة الشمولية².

ثالثاً: تفادي الأفكار المميتة والأفكار القاتلة في عملية التغيير:

يرى ابن نبي أنه يمكن تصنيف الحركات التغييرية في العالم الإسلامي إلى صنفين

رئيسيين:

1. اتجاه يرمي إلى الحفاظ على الأفكار القديمة حتى وإن كانت ميتة.

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 79.

² المرجع نفسه، ص 80.

2. واتجاه يسعى إلى استنبات الأفكار المستوردة حتى وإن كانت قاتلة.

1- الأفكار الميتة: ويمكن إيجاز خصائصها فيما يلي:

- أفكار موروثة من عصر ما بعد الموحدين.
- أفكار تعبّر عن القابلية للاستعمار.
- خطرنا علينا أشد من خطر الأفكار القاتلة¹.

2- الأفكار القاتلة: ويمكن إيجاز خصائصها فيما يلي:

- أفكار مستوردة من الغرب ومستعارة منه.
- أفكار ناتجة عن الاستعمار.
- يتبناها سطحي التفكير: وهو أحد رجلين: إما الطالب المجتهد المنغمس في الجانب التجريبي النظري من الحضارة الغربية، أو السائح المهتمّ بالجانب الذي تتحلّل فيه الحضارة إلى مخلفات قاتلة، فطلبنا وسيّاحنا لا يذهبون إلى المصنع الذي تصنع فيه الحضارة وتولد فيه، لكنهم يذهبون إلى الأماكن التي تتأثّر فيها عندما تفقد الحياة ولا تعطيها².

ويعتقد مالك بن نبي أنّ محاولة إحياء العالم الثقافي المشحون بالأفكار الميتة بالاستعانة بالأفكار القاتلة المقتبسة من حضارة أخرى مأساة كبرى، وأنّ تصفية الأفكار الميتة وتنقية الأفكار المميّنة يعتبر الأساس الأول في أي نهضة حقّة. فالواجب علينا أن نتعامل مع التراث الحيّ دون الميت، ومع المقتبس المثير دون القاتل، وأن نعي الفرق بين صحة الفكرة وصلاحيتها وهي تخوض عملية التغيير الاجتماعي وخوض المعترك الحضاري من جديد³.

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 87.

² المرجع نفسه، ص 88.

³ المرجع نفسه، ص 89.

رابعاً: السمات المرضية التي سادت الثقافة الإسلامية المعاصرة وانعكاساتها السلبية على مناهج التغيير:

سجّل مالك بن نبي بعض الظواهر السلبية للفكر الإسلامي المعاصر، وبيّن بعض الانعكاسات السلبية لمناهج التغيير، فلا يكاد يخلو منهج من مناهج التغيير من هذه السمات المرضية، غير أنّ هذه المناهج تتفاوت قلّة وكثرة فيها، ومن بين أهمّ تلك السمات والسلبيات ما يلي:

• **اللفظية:** فالتربية التقليدية تتسم بالطابع الأدبي الكلامي، ويفرق ابن نبي بين الكلمة الفعّالة والثرثرة التي تضعف القدرة على تقدير الأمور التقدير الصحيح¹. ومن أعراض هذا الداء: إجادة الكلام والهيام بالألفاظ، ووجود فجوة بين الكلام والعمل، والشهوة إلى الكلام وعدم الاهتمام بالعمل، واستبداد الألفاظ والتفسير السطحي للنهضة، وتقديم المعلومات على الدور الاجتماعي، وإفراغ الكلمات من مضامينها بحيث لا تنبئ عن عمل ونشاط، فتصير مجرد ألفاظ مرصوفة، فيفقد بذلك الكلام قدسيته وعلاقته الجدلية مع الفكر والعمل². ولهذا يقول ابن نبي: "والغرام بالكلمات أعظم خطراً من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولاً وقبل كلّ شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر لازم لكلّ جهد إيجابي من البناء"³.

• **الفخر والمديح:** إنّ استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركّب النقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية يعتبر وسيلة للتخدير والتسلية، تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية⁴. ولهذا

¹ المرجع السابق، ص 41.

² المرجع نفسه، ص 84.

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 60.

⁴ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 84.

يقول ابن نبي: "حين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، ولا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سبباً في انطباع التعليم كلّ بطابع دارس لا يتفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهره التشبث بالماضي، كأنها قد أصبحت متفائلة"¹. فهو ينقد نزعة الفخر والمدح التي تنتج الكف عن تعليل شرائط الحياة أو عن التفكير في هذا التعديل، فيتجمّد الفكر وتنتج ثقافة أثرية تكتفي بالماضي من أجل تمرير ضعفه وإفلاسه وانحطاطه، لكنه منصف إذ يرى أنه إذا كان من الخيانة للحقيقة أن نصرف في الحديث عن أنفسنا، فمن الخيانة لها أيضاً أن نجهل قدر أنفسنا فنقلل من شأنها².

• **الجدلية والتبرير:** يعتبر الميل نحو الجدل هو الطابع الطاعني على الأعمال الأدبية والعلمية في عصر الانحطاط وعصر النهضة، فالمتجادلون لا يبحثون عن حقائق وإنما عن براهين، ولا يستمع المجادل إلى محدثه بل يغرقه في طوفان من الكلام، كما أنّ المثقف يهتمّ بالدفاع عن المجتمع وتبريره عوض تحويله وتغييره، دون أي اهتمام بالتخطيط الاجتماعي. ولقد ظلّت هذه النزعة تسود ثقافتنا بشكل عطل تحوّر العمل الثقافي إلى عمل مخطط وتصميم يبلور مذهباً في التغيير الاجتماعي³. ويذهب ابن نبي إلى أنّ هذه النزعة كانت ترمي إلى مهر المجتمع الإسلامي بالوسائل الملائمة للدفاع عن ذاته أو لتبرير نفسه، بدل أن تقوم بتحويل الشروط الواقعية والأساسية لهذا المجتمع⁴.

• **الشيئية والتكديس:** تتمثّل هذه النزعة في الولع بالأشياء وتكديسها عوض

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 62.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 41-42.

³ المرجع نفسه، ص 84.

⁴ مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ص 55.

الرقّيّ إلى عالم الأفكار لصنعها، فهي لا تجعل من الفكرة وسيلة للنشاط الاجتماعي أو الثقافي أو الاقتصادي، وشبكة عقلية يقوم عليها هذا النشاط، بل هي مجرد حلية أو طرف زائد، ولقد كانت هذه النزعة سبباً للطفولة غير المنتهية للعالم الإسلامي، والتي بدأت منذ عصر النهضة، وبجانبتها نجد طفولة المجتمع الياباني الحديث قصيرة جداً؛ لأنه دخل بسرعة في عالم الدول العظمى¹. ولهذا يقول ابن نبي: "ومن أجل الدفاع عن المجتمع الإسلامي كانت المشاكل توضع ضمن حدود كمية، أي: باعتبار كميات الأشياء الضرورية"².

• **الأدبية أو "الرومانسية":** فالنزوع الشعري القائم على النواحي الجمالية والبديعية ما هو إلا وسيلة تخفي مواضع النقص والاختلال، وهو نزوع يعانق نزعة المديح والحرفية التي تتعاون على ستر مواطن العجز بأردية من البلاغة³. ولا شك أنّ تخليص الثقافة من نزعة الخيال معناه طرحها في مواجهة الواقع ومشاكله بعيداً عن الخرافية والجبرية والرومانسية، واتباع السبل الواقعية والعلمية، والصيغ العملية المناسبة⁴.

• **الاضطراب السلوكي:** فالثقافة الغربية أوقعت مجتمعنا في حالات من الاضطراب الفكري والسلوكي، جعلنا ممزّقين بين الأفكار الميتة الموروثة، والأفكار القاتلة المستوردة، فعوض أن نصفّي تلك ونفني هاته لإيجاد صيغة تخدم منهجية التغيير تجدنا في حيرة من أمرنا أصبحت مرضية⁵.

• **الاضطراب العام الذي يسود التفكير الإسلامي:** فبعد قرابة نصف قرن من الإصلاح ومحاولة التكيّف مع الأسلوب الغربي إلا أنّ شكل النهضة الإسلامية

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 85.

² مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص 62.

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 62.

⁴ مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص 59.

⁵ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 85.

الراهن هو خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب دون أدنى مقياس أو نقد، ومن مواقف التدين أيضًا، فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضي لها ما تريد من أشياء وحاجات، دون أن تبحث عن الأفكار والوسائل¹.

• **التجزئية أو "الذرية":** وهي نزوع الفرد إلى تجزئة المشكلة واعتبار الوقائع والأحداث مجزأة على أنها مجرد أكوام لا تنطوي على قانون أو نتيجة عامة، فهي مجموعة من التفاصيل المعطاة في وضع لا يبرز بالتحديد نوع مشكلة وحلها، فلا لا تسلك سبيل التكامل بانتهاج التركيب المتآلف².

• **ذهان السهولة والاستحالة:** حيث يشملان حركة التغيير فيكبلان الأيدي حتى لا تستغل ما في حوزتها للخروج من ورطتها، ولهذا يقول مالك ابن نبي: "طالما بقي الفكر عاطلاً منعده التأثير بقي النشاط حركة فوضى، وتزاحماً يبعث على الضحك والرثاء، وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي"³. ويصل ابن نبي إلى النتيجة التالية: "هذان الشكلا من أشكال الخيانة يتمثل في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من الذهان: فإما أن يتمثل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى... وإما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها مستحيلة فيصاب النشاط بالشلل"⁴.

المطلب الثاني: نقد مالك بن نبي لمناهج التغيير:

يرى مالك بن نبي أن دعاة الإصلاح والمحدثين كلّ منهما قد وقع في الخطأ من حيث أنهما لم يتجها إلى مصدر إلهامهما الحق، فالإصلاحيون لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي، كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي، غير أن

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 82.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 86.

³ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 92.

⁴ المرجع نفسه، ص 94.

الأستاذ مالك الذي يؤثر الحركة الإصلاحية على الحركة الحديثة؛ لأنَّ الحركة الإصلاحية لم تضع هدفها الجوهرى، فاختارت أن تطالب بأن يؤدِّي كلَّ واجبه، في حين جنح المحدثون إلى نغمة المطالبة بالحقوق، وانعدم لديهم فكرة النهضة ذاتها، بل ليس للحركة الحديثة في الواقع نظرية محددة، لا بأهدافها، ولا في وسائلها، والأمر بعد هذا لا يعد أن يكون غرامًا بالمستحدثات، لتحوّل المسلم الى زبون مقلّد، لا إلى تلميذ يتعلّم كيف يبتكر¹.

أولاً: نقده لمنهج التغيير السياسي:

فمالك بن نبي لا يوافق جمال الدين الأفغانى وزعماء الحركة الحديثة الذين انعدمت لديهم فكرة النهضة ذاتها فأصبحت ثانوية؛ فهم لم يخالطوا الحياة في بلدانهم إلا في الميدان السياسى، فالمسألة لديهم لم تكن مسألة تجديد العالم الإسلامى وتغييره وبعثه، وإنما كان هدفهم انتشاره من فوضاه السياسية القائمة، وهذه فكرة مستعارة لا ترى في الواقع مشكلة الفرد المسلم، بل مشكلة النظم الأوروبية فاعتقدوا أنه يمكن تخليص المجتمع مما هو فيه بالقضاء على ما يحيط به من نظم وقوانين، بدلا من أن ينصرفوا إلى دراسة العوامل الداخلية التي أدّت إلى هذا الوضع².

ثانياً: نقده لمنهج التغيير عن طريق إصلاح العلم:

فمالك بن نبي لا يوافق -أيضاً- محمد عبده وزعماء الإصلاح في اعتقادهم أنه يجب أن يبدأ الإصلاح من الفرد ويكون تغيير النفس بإصلاح علم الكلام، كما لو كان المسلم فاقداً لعقيدته، لكنَّ الواقع أنَّ المؤمن متشبّث بدينه وعقيدته، غير أنَّ عقيدته قد جرّدت من فاعليتها وإشعاعها الاجتماعى، وتغيير النفس معناه: إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل هو من شأن

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 43.

² المرجع نفسه، ص 90.

منهج التصوف، بل من شأن علم جديد هو "علم تجديد الصلة بالله"، الكفيل بتوفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطشة إلى انتفاضة القلب، كي تنتصر على ما أصابها من خمود¹.

مع أنه يرى ضرورة العناية بمضمون اللغة وصياغتها على النحو الذي يتم فيه تقدير أهميتها في مسألة التغيير، وإعادة النظر في مناهج التعليم، وأهداف اكتساب العلم في ضوء الهدف المركزي المتمثل في صناعة الإنسان الجديد، وتغيير معادلته الشخصية الراكدة².

ثالثاً: نقده لمنهج التغيير المؤسسي:

اهتمَّ ابن نبي بدراسة منهج النخبة التي تكونت في المدارس الغربية، وكان لها ضلع في إصلاح المؤسسات السياسية، خاصة الأحزاب والزعماء الذين يركزون على المطالبة بالحقوق ويغفلون المطالبة بأداء الواجبات، وهي بذلك قد خلفت أنصار بعض الطرق الصوفية، وعوّضت التّائم بأوراق الانتخابات، ووضعت الزعيم في مكان شيخ الطريقة، ولكنّ هذه الحيلة الماكرة لم تنطل على الشعب فميّز بين السياسة الحقّة وصورتها المزيفة³. ولهذا يقترح ابن نبي عدة اقتراحات، منها: تنمية الشعور بالواجب كقيمة أخلاقية على مختلف الأصعدة، ومحو العادات والأفكار التي من شأنها أن تتجه للمطالبة بالحق قبل أداء الواجب، وتحرير العقول من الانسياق وراء منطق السهولة، وإدخال مفهوم الواجب في منهج تربوي يهدف إلى تقويم جديد في ضمير كل مواطن وبالأخص كل زعيم؛ لأنّ عملية البناء السياسية لدولة ناشئة تحتاج إلى الأساس التربوي⁴.

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص55.

² عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص99.

³ المرجع نفسه، ص92-93.

⁴ مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، 1978م، ص28-34.

رابعاً: نقده لمنهج التغيير الروحي:

يعتقد ابن نبي أن التصوّف السّليبي الذي قاد إلى دروشة بعض الطريقين عاجز عن تزويدنا بالأساس الضروري للإصلاح عندما نحث جهودنا إلى النهضة، إذ يقصر همّه على تطهير الفرد من الخطايا، في حين يرمي الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي للإقلاع الحضاري الذي يجده في نوع آخر من التصوف وهو "تجديد الصلة بالله"¹، ولهذا يذكر ابن نبي أنه يجب علينا تحصين مسارنا الحضاري من نوعين من الأخطار تهدد شبكة العلاقات الاجتماعية التي تعين الإنسان على أداء نشاطه المشترك: وهما الماديّة والتصوف السّليبي الذي يقطع العلاقات بهذه الدنيا، فالأولى تهدم الروح، والآخر يهدم الوسائل، وكلاهما خيانة للمجتمع، فالخيانة الأولى تخلق الفراغ الاجتماعي حين تهدم المبادئ والأخلاق والروح، يعني الأمور التي تبقي للمجتمع القدرة على مواصلة نشاطه المشترك في التاريخ، والخيانة الثانية تخلق الفراغ حين توجه جميع الملكات المبدعة وجميع الفضائل الأخلاقية في المجتمع خارج عالم الوقائع والظواهر، فإحداهما تجهل أوامر السماء، والأخرى تجهل مقتضيات الأرض، وكلتاها تفضي إلى الفراغ الاجتماعي، حيث تغور الروح، وتغور معها وسائل الحضارة².

خامساً: نقده لمنهج التغيير العنيف:

يعتقد ابن نبي أن منهج التغيير بالعنف قاصر؛ لأنه لم يعالج جوهر المشكلة الاجتماعية، واشتغل بقضايا عرضية كإصلاح الحكم والقانون، ولأنه بدل أن يترجم الجهود الذهنية في صورة مذهب دقيق للنهضة ومنهج منسجم ذهب يقود حملات دفاعية³.

¹ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 93-94.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1991م، ص 97-98.

³ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 90.

ولهذا كان يتمنى ابن نبي لو أفضت مجهودات الأفغاني إلى ثورة حقيقية؛ لأنّ الثورات تخلق قيماً جديدة صالحة لتغيير الإنسان، ومع ذلك فإنه كان يفضل الأساليب التي لا تدعو إلى التغيير العنيف، وكانت حالته تدلّ على ذلك، فهو يدعو إلى البناء في ندواته وسائر أعماله وملتقيات¹.

سادساً: نقده لمنهج التغيير عن طريق التربية المنظمة:

أعجب ابن نبي بمنهج حسن البناء العام فكان كثير الذكر له ولعالم منهجه، ويعود هذا الإعجاب إلى أسباب عدّة، منها:

- أنه أدرك عيوب الإصلاح فتداركها، وعمل على استعادة الوظيفة الاجتماعية للدين.
- أنه جدّد القيمة القرآنية في ذاتها، فأصبحت قيمة نشطة، ووسيلة فنية لتغيير الإنسان.

- مناداته للمؤاخاة بصفتها عملاً أساسياً به يصبح الناس إخوة.
- أنّ هذا العمل البسيط هو في الواقع تغيير شامل للإنسان، والفكرة تركيب نشط للفكر والعلم، وهذان الأمران يقوم عليهما كلّ تطوّر في المجتمع².

سابعاً: معالم منهج تغييري جديد:

من الأفكار الأساسية التي دعا إليها ابن نبي -وتعتبر معالم منهج تغييري جديد- أنّ الحضارة الغربية التي فقدت معنى الروح تجد نفسها على حافة الهاوية، وعليه فنهضة العالم الإسلامي تكون في الجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيّد عالماً طبقاً لقانون أسبابه ووسائله، وطبقاً لمقتضيات غاياته، حتى يتمكّن من خلافة الحضارة الغربية

¹ المرجع السابق، ص 95.

² المرجع نفسه، ص 94.

العجوز، وأنّ الذي سيردّ إلى العالم شبابه لابدّ أن يكون إنساناً جديداً قادراً على حمل مسؤولياته مادياً وروحياً، كممثل وشاهد، والعالم الإسلامي له قدر كبير من هذا الشباب الضروري الذي يتمثل في تمسّكه بالقيم الخلقية، وهو من جهة أخرى يخطو إلى تجديد نفسه بفضل ما في يديه من قيم حديثة، ولا شك أنّ هذا الامتزاج بين الروح والمادة سيزداد سرعة كلّما تعودّ على مواجهة المشكلات بفكر علمي، هذا الفكر العلمي الذي يعجّل حركة التاريخ، فالإنسان الجديد والمواطن العالمي المفعم بالشحنات الإيمانية هو القادر على خلافة الإنسان الأوروبي الشائخ، وعلى تخليص العالم من حمأة المادية التي أوقعته فيه أوروبا¹.

ويشير إلى أنّ غرس قيمة الفعّالية في المجتمع هي من أوليّات هذا المنهج الجديد في التغيير، فكلّ حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة، وكلّ كلمة لا تحمل في طيّاتها نشاطاً معيّناً هي كلمة جوفاء، كلمة ميتة مدفونة في القواميس. وإنّ التربية الاجتماعية بصفتها الأداة المفضّلة للتغيير لا تعني شيئاً إذا لم تكن وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان الذي لم يتحضّر بعد، أو الإبقاء على الإنسان المتحضّر في مستوى وظيفته الاجتماعية وأهدافه الأساسية، وأنّ تعلّم الفرد كيف يتحضّر، ويعيش مع أقرانه، ويتعامل معهم، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدّي نشاطه المشترك في التاريخ².

وعلى هذا فالثقافة لا تكتسب أهميّتها إن لم تخلع على التربية الاجتماعية المضمون الضروري الذي يتيح لها الاضطلاع بوظيفتها المغيرة³.

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 190-191.

² مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 100.

³ عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص 96.

الخاتمة

الحمد لله أن وفقنا في هذا البحث الموجز للتعريف بمشروع التغيير ومركزيته في التنمية عند مالك بن نبي، وقد خلصنا إلى نتائج كثيرة، أهمها ما يلي:

1- أن مالك بن نبي كان مدرّكاً لمعنى التغيير وشروطه ومناهجه، وأنّ فقه التغيير عنده يكمن في تغيير جوهر الإنسان وتجديد صلته بالله تعالى، وهو الشرط الجوهري والمنطلق الأساس لكل تغيير اجتماعي رشيد.

2- ضرورة بناء الإنسان مستخدماً معادلة التراب والزمن والمواهب في تحقيق التنمية، مع مراعاة مرتكزات تغيير الإنسان -فكرياً وعملياً ومادياً-.

3- شخص مالك بن نبي حال الأمة الإسلامية فذكر معظم السمات المرضية التي سادت الثقافة الإسلامية المعاصرة وانعكاساتها السلبية على مناهج التغيير، ووصف العلاج لها والمتمثل في التخلي عن مثل هذه المظاهر وتفادي كلّ الأفكار المميّنة والأفكار القاتلة للفرد والمجتمع.

4- نقد مالك بن نبي مناهج التغيير المختلفة بدءاً من التغيير السياسي، والتغيير بإصلاح العلم، والتغيير المؤسّساتي، والتغيير الروحي، والتغيير العنيف، والتغيير المنظم، ودعا إلى منهج تغيير جديد يجمع إيجابيات كلّ هذه المناهج ويتجنّب سلبياتها. وأمّا التوصيات، فأهمّها ما يلي:

1- ضرورة الاهتمام بتراث الأستاذ مالك بن نبي كلّّه، ودراسته دراسة علمية دقيقة عميقة، ومقارنة أطروحاته الفكرية بأطروحات غيره من العلماء والمفكرين القدامى والمحدثين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

2- ضرورة إنشاء مراكز بحثية رسمية متخصصة في دراسة فكر مالك بن نبي وتفعيله، وتجديد فكره وتطويره بما يتماشى مع معطيات هذا العصر، كما أنها تحاول تجسيد أفكاره في أرض الواقع، ومتابعة مدى تطبيق نظرياته ومعايير الجودة العالمية في تحقيق التنمية المستدامة في كافة المجالات الحياتية.

قائمة المصادر والمراجع

1. بدر الدين زواقة، سؤال النهضة بين شروط مالك بن نبي وقانون جاسم سلطان مقارنة في نظريات واستراتيجيات التغيير الاجتماعي، أعمال المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي، جمع وإعداد: عتيقة نابتي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركز الشهاب للبحوث والدراسات، الجزائر، الوطن اليوم.
2. سليمان الخطيب، رؤية حضارية للمجتمع الإسلامي المعاصر عند مالك بن نبي، ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين، تبسة.
3. سيد قطب، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، القاهرة، 1412هـ.
4. عبد الرحمن الطيبي، سؤال النهضة وإشكالية الاستدراك الذاتي مقارنة مدرسة المقاصد، مجلة المقدمة الجزائرية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد الأول، نوفمبر 2017م.
5. عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ط2، عالم الأفكار، الجزائر، 2007م.
6. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، مكتبة 30 تموز، العراق، 1985م.
7. قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.
8. مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م.
9. مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر، دمشق، 1978م.
10. مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية، بيروت، 1959م.
11. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة مسقاوي وشاهين، ط3، دار الفكر، 1969م.
12. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1991م.
13. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، مصر.
14. هشام شراد، فقه الواقع العالمي في فكر مالك بن نبي، الملتقى الدولي الثالث: فقه الواقع المستقبل التجديد في النهضة الإسلامية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سطيف، مركز الشهاب للدراسات الإسلامية، سطيف.

□□□ مَرْحَمَةُ اللَّهِ □□□

فهرس المحتويات

المحتوى	صفحة
• التعريف بالندوة	7
• كلمة رئيس الندوة	9
• كلمة رئيس اللجنة العلمية للندوة	13
• مجموع بحوث الندوة	15
(1) سؤال التنمية في فكر مالك بن نبي "السياق والمنطلقات والآليات".	
كـهـ أ.د. مفيدة بلهامل	17
(2) البعد الحضاري للفكر الديني عند مالك بن نبي وأثره في تهذيب السلوك الاجتماعي.	
كـهـ د. ذكرى بنت الحبيب الجد	41
(3) دور الفكرة الدينية في تفعيل مشاريع التنمية في فكر ملك بن نبي.	
كـهـ د. عمر محمودي	63
(4) مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي "مدخل معرفي انطولوجي".	
كـهـ د. محمد بن عزوزي	91
(5) سؤال الإنسان والتنمية في فكر مالك بن نبي: جدلية "الإنسان الشاهد" و"الإنسان النصف".	
كـهـ أ.د. عبد القادر بوعرفة	111

	(6) دور الانسان في مشروع التنمية عند مالك بن نبي.
137	محمد التومي
	(7) معادلة الحضارة عند مالك بن نبي وفعاليتها في التنمية الاجتماعية والتغيير الحضاري.
159	أ.د. أسماء زواغي
	(8) من عوائق تحقيق التنمية في فكر مالك بن نبي-العوائق الاجتماعية والثقافية-.
185	أ.د. حمودة بن مصباح
	(9) التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي بين العوائق والمرتكزات.
197	أ.د. بشير قادري
	(10) الحاسة الاجتماعية في فكر مالك بن نبي "تشكلها وانفراطها".
231	أ.أ. التهامي مجوري
	(11) علم اجتماع المعرفة البنائي ودوره في بناء الرؤية الكونية السنية التي تحقق التنمية الاجتماعية والثقافية.
261	أ.د. عمار قاسمي
	(12) الإنسان ومركزية التنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي.
285	أ.د. موسى بن موسى
	(13) النظام الفكري وعلاقته بالتنمية الاجتماعية عند مالك بن نبي.
305	أ.د. محمد لخضر حرزالله

(14) المقاربة التنموية الاجتماعية في فكر مالك بن النبي بين ثنائية شروط النهضة والقابلية للاستعمار.

333 د. فؤاد جدو

(15) الأسئلة الثقافية الكبرى من منظور مالك بن نبي - دراسة تحليلية -

361 د. بلال بوسنة

(16) المعالجة الفكرية لقضية الثقافة في المشروع النهضوي لمالك بن نبي: دراسة سوسيو معرفية.

377 د. خلف محمد عبد السلام بيومي

(17) منهج التحلية والتخمية للتنمية الثقافية في استراتيجية النهوض الحضاري في فكر مالك بن نبي.

407 د. عبد الله لعربي

(18) الأبعاد السوسيوثقافية للتنمية في فكر مالك بن نبي.

441 د. محمد دادي

(19) انتزاع فلسطين ومسارات تهوّد الحضارة الأوربية عند مالك بن نبي.

475 د. الطيب الطويل

(20) نهج التنمية الثقافية عند مالك بن نبي مدخل لتنمية المجتمعات المحلية العربية.

497 د. عمر حوتية

(21) استراتيجية الثقافة في العملية التنموية للأمم في فكر مالك ابن نبي رحمه الله.

541 د. فهيمة بن عثمان

	(22) التنمية الثقافية عند مالك بن نبي (دراسة تحليلية).
569	ك.أ.د. عبد الرحمن تركي
	(23) النهضة اليابانية في مرآة المفكر الجزائري مالك بن نبي.
583	ك.أ.د. محمد بن علي
	(24) مشروع التغيير ومركزيته في التنمية عند مالك بن نبي -دراسة تحليلية-.
613	ك.د. حسام الدين مخلوف
637	• فهرس المحتويات



هذا الكتاب

تتناول هذه الصفحات بالدراسة نظرة الأستاذ مالك بن نبي لقضايا التنمية الثقافية والاجتماعية، وطريقة إسهام مجتمعاتنا المعاصرة في صياغة وتنفيذ مشاريع تنمية تعنى بالعلاقات الاجتماعية وارتفاع المستوى الثقافي. وتهدف مجمل بحوث الكتاب إلى ضبط مفاهيم التنمية والثقافة وموقعهما ضمن المشروع الفكري لمالك بن نبي، وبيان مجالات التنمية الاجتماعية عنده، والعوامل المؤثرة فيها، وكذا تحديد مضامين التنمية الثقافية لديه، وأوجه صلتها بالتنمية الاجتماعية، وصولاً إلى عرض مفردات المشاريع التنموية من خلال فكر الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله.



<https://faculty.univ-eloued.dz/faculty/isi>

fa.is.sciences@univ-eloued.dz

ISBN: 978-9969-574-96-8



9 789969 574968

للطباعة
والنشر
والتوزيع

سَامِي